

الطَّرِيقَةُ النَّفْسِيَّةُ

بَيْنَ مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا

*** ❁ ***

تأليف

فريد صلاح الهاشمي

Feriduddin AYDIN

feriduddin@gmail.com

baredalshaykh@gmail.com

إسطنبول – 2008م.



دار العبر للطباعة والنشر

al_ibar.publishing@yahoo.com

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنّ هذا الكتاب يضمّ بين دفتيه دراسةً هامّةً في معرض فرقةٍ من الفرقِ الصوفيّة. لقد بذل المؤلفُ جهداً بالغاً في سبيل هذه المهمّة، فانطلق بعزيمة الباحث المدقق المنظم في أعماله. لا غرو إنّه من فُرْسَانِ هذا الميدان. فنَدَرَ من وراء هدفه أعلى أيامه منذ عنفوان شبابه وهو يتباحث من غير مَلَلٍ، ويطارد المصادر، ويجمع الوثائق، ويطالع وينسّق ويسجّل ويسهر عليها، حتّى أثمر سعيه المتواصل عن هذا السِّفَرِ الجليل. كلّ ذلك ليكشف العتمة عن أهمّ سببٍ من تلك الأسباب التي أحاطت بالمسلمين منذ قرونٍ فَعَرَقَلَتْهُمْ، وحالت دون تَقَدُّمِهِمْ، وشَوَّهتِ الكَثِيرَ من جمال الإسلام.

تُقَدِّمُ هذه الدِّراسَةُ ما تُقَدِّمُ من معلوماتٍ تفصيليّةٍ مُنظَّمةٍ ومُوثَّقةٍ مع ذكر مصادرها والإشارة إلى أرقام الصفحات لكلِّ نصٍّ منقولٍ منها، وأحياناً مع تَرْجُمَتِهَا. وذلك تسهيلاً للباحثين ورجال العلم في مهامّهم عند مراجعتها.

ليس الهدف من تقديم هذه الدراسة إلى جماهير المسلمين إلّا إعلامهم عن حدثٍ هامٍّ من واقع تاريخهم، غفلوا أو تغافلوا عن حقيقتها؛ ليستبصروا نتائجهُ من خلال بحثٍ علميٍّ رصين، ووثائقٍ مضبوطةٍ؛ وليتمكّنوا بذلك من مقارنة الإسلام الذي نفهمه من الكتاب والسنة، مع الإسلام الذي اختلفتْهُ العُقَلِيَّاتُ الْمُتَطَرِّفَةُ عَبْرَ عصور الظلام. عسى أن يستوحى منه العبرة كلُّ مَنْ يطلع عليها من

أهل الإيمان والإخلاص؛ وأن يتحمّل المسئوليّة لإحياء أمة الإسلام ثانيةً بعد أن اختفت بمقتل آخر الخلفاء الراشدين.

ونتضرّع إليه تعالى أن يبارك في خطوات كلّ مؤمن مخلص يسعى إلى تحقيق هذه الغاية العظمى بدءاً بالفهم الصحيح مع العلم التام؛ بأنّ من أراد عملاً يتقرّب به إلى الله تعالى مما لم يُشرّعهُ الله ورسولُهُ فهو مردودٌ ووبالٌ على صاحبه. هذا وتقدّم مؤسستنا شكرهُ وتقديرهُ لمؤلفِ هذا الكتابِ فضيلة الشيخ فريد الدين بن صلاح بن عبد الله بن محمّد الهاشمي المعروف بلقبه الخاص: Feriduddin AYDIN في تركيا؛ وبالله التوفيق.

العبر

للطباعة والنشر

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن كثيراً من المسلمين - وحتى العلماء والباحثين -، تنكّرت لهم الطريقة النقشبندية عبر القرون فلم تعد معرفتهم المعلومات المحدودة، والملاحظات البسيطة، حول هذه التحلة، غالبها لا تتصف بالعلمية والواقعية، بالرغم من انتشار هذه الطريقة بين عشرات الملايين من الناس في الشرق الأوسط.

لم أستغرب هذه الحقيقة منذ علمتها. لأبي ولدت ونشأت في أسرة ذات شهرة واسعة النطاق، تتمتع بالزعامة لقطاع كبير من هذه الطائفة الصوفية. وبالتالي كنت على علم بأن جانباً خاصاً من التفسير الروحاني لعقائدها، لا يقف عليه أحد بسهولة؛ إلا عدداً من شيوخها المتمتعين بصفات مخصوصة، ومُلمّزين بعهود باطنية مستورة، أخذها عليهم أسلافهم الذين قلّدهم أزمة هذه الطائفة، وهم قليلون جداً.

فلما وجدت تفاوتاً كبيراً واختلافاً كثيراً بين معتقدات شيوخ هذه الفرقة، وتأكدت من أن المشهورين منهم يتواطئون علي إخفاء شطرنجهم في صدورهم... وكنتمانه عن بقية الشيوخ، فضلاً عن جماعة المريدين من الطبقة العامية، بدأت أشك في أمرهم؛ وخاصةً عندما ثبت لي بالتحقيق، ورأيتهم يطعنون في كل من يحارب عقيدة الشرك، ويعادونه، ويقفون منه موقف المؤمن من الكافر، أو ربما بالعكس، زادني الشك فيهم وتضاعف مع الزمان حتى دفعني الأمر أن انطلقت باحثاً حقيقة ما توارى خلف

الصورة الظاهرة لهذه الفرقة من أمورٍ خطيرةٍ لا يمكن الإطّلاع عليها لأجنيّ بطرائقٍ عادية، والناسُ كُلُّهم أجانِبُ بالنِّسبةِ إليهم. تُؤكِّد على هذه الحقيقتِ وتأنقُهم وطُقوسُهم...

ولهذا، أرى المناسبةَ للإشارة إلى أنّ مشاهير الباحثين في الطريقة النقشبندية وهم بالتحديد: الأستاذ الدكتور حميد آغار، والأستاذ الدكتور بطرس أبو منّة، والأستاذ الدكتور شريف ماردين، والشيخ عبد الرحمن الدمشقيّة؛ لم يقفوا على كثير من جوانب هذه الطريقة، بالقدر الذي تمكّنتُ أنا بعون الله من الإحاطة بها. فدرستُ تاريخها، وعقائدها، واتّجاهاتها، وتطوّراتها بعمقٍ ومن خلال وثائقها والاتّصال بصناديدها المعاصرين بحكمةٍ وجرأةٍ وصبرٍ إلى ما شاء الله أن فرغتُ من هذه الدراسة بعد ثلاثة وعشرين عامًا.

فَمِنَ واقعِ إيمانيّ الراسخِ بأنّ الله سبحانه وحده لا شريك له مُتَفَرِّدٌ بِالْكَمَالِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ سِمَاتِ النقص والزوال، وَمِنَ واقعِ تَخْصُّصِي فِي آدَابِ الطَّرِيقَةِ النقشبندية لِمَا آلتِ إِلَيَّ الخِلافةُ العُظمى فَتَرَةً مِنَ الزَمَنِ عَلَى الطائفةِ الحزبيّةِ الخالديّةِ منها، بَعْدَ اتمامِ السِّرِّ والسُّلُوكِ تحت رِقَابَةِ مَنْ أَقَامَنِي فِي هَذَا المَنصبِ وإقرارِهِ بذلك، وَلَمَّا تَبَرَّأْتُ مِنْ هَذِهِ الفِرْقَةِ وَأَباطيلِهَا، رَأَيْتُ مِنَ الواجبِ الحتميِّ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً عسى الله تعالى أَنْ يُنقِذَ بِهَا مَنْ وَقَعَ فِي أَوْحَالِ الشَّرِكِ والضَّلَالِ، بِالانخراطِ فِي سلكِ هذه الطريقة؛ وَمَا عَلَى الرسولِ إِلَّا البلاغُ، وَ مِنْ أَبِي فَعَلَيْهِ الوِزْرُ وَالْوَبَالُ.

وبهذه المناسبةِ، من الجدير بالإشارة إلى أنّ مَحْتَوَى هذا الكتابِ لا يَنحصرُ فِي حُدُودِ التَّعْرِيفِ بالطريقة النقشبندية فَحَسْبُ، بل يتعدّى أحياناً إلى تفصيلاتٍ دقيقةٍ جانبيةٍ لها علاقةٌ عضويةٌ بالساحة التي تركتُ هذه الطريقة فيها أنواعاً من تأثيراتها فتغيّرت بها عقليةُ المجتمع وعقيدته ونظرتُهُ إلى الإسلام والمسلمين. فإذن لهذا العمل دورٌ كبيرٌ في دعم دراساتٍ وبحوثٍ قد يقوم بها رجالُ العلمِ في المستقبل، وبخاصّةٍ منها ما سوف يتناول الساحة التركيّة من وَاجِهَاتٍ إجتماعيةٍ وتاريخيةٍ وسياسيةٍ بعكوسها ومستجداتها المختلفة، علماً بأنّ الواقعَ الباديءَ الَّذِي يَلْمِسُهُ الدّارسُ والباحثُ على هذه الساحة في الوَهْلَةَ الأولى، ليس هو هذا التّيَارُ الصّوفيّ مباشرةً؛ لأنّ الطريقة النقشبندية بطُقوسِهَا وتعاليمِهَا وهَيْئَتِهَا النّظاميّةِ ليست هي التي في الصّورة. بل كلّ هذه النّواحي خفيّة، مستورة، ومحصورةٌ في نطاقِ التّكَايَا والبيوتاتِ والخلايا. وإتّما الميّزاتِ الملموسة من واقع حياة الشعبِ التركيّ، هي الملامح التي انعكست ولا تزال تنعكس عن تعاليم هذه الطريقة وتوجيهاتها.

فقد رتبتُ الكتابَ على خمسةِ فصولٍ. بدأتُ بنقل ما تيسر من تاريخ هذه الفرقة والتطورات التي حدثت في تعاليمها من مرحلةٍ إلى أخرى، وذلك في الفصل الأول؛ وشرحتُ عقائدها وطُوقسها، وما استُحدثت لها عبر القرون من آدابٍ وأركانٍ ومناسكٍ، وذلك في الفصل الثاني؛ وذكرتُ ما وُضعت لها من مفاهيمٍ ومصطلحاتٍ هامةٍ، في الفصل الثالث؛ ونقلتُ تراجمَ رجالها في الفصل الرابع؛ وأثبتتُ عُكُوسها على الحياة الاجتماعية وما تمخض عنها من تأثيراتٍ مختلفة على عقلية المجتمع وثقافته وسلوكه ضمن الفصل الخامس؛ وضممتُ إلى الكتابِ أخيراً نصَّ تقريرٍ تلقينته من جامعة أمّ القرى الكائنة بمكة المكرمة، يُقدِّم نتائجَ هامةٍ أثبتتها العلماءُ بعد مراجعةٍ دقيقةٍ لهذا العمل. ثم أتبعتها بفهارس غنية: الأول منها، لأسماء الأعلام؛ والثاني للمصطلحات والمفاهيم والتعبيرات الخاصة بالمعثرة في ثنايا الكتاب، مع ذكر أرقام الصفحات التي وردت فيها كلاً على حدة؛ والثالث، لأسماء الأماكن من المُدن والمناطق؛ والرابع، للمراجع التي اطلعتُ عليها، سواء نقلتُ منها أو لم أنقل. كلٌّ منها مُعدُّ بترتيبٍ مُعجميٍّ. وما ألوتُ جهداً ولا ادخرتُ وسعاً في ركوب كلِّ صعبٍ وذُلُولٍ للحصول على أدنى وثيقةٍ تمثُ بهذه الفرقة، فوقفتُ على كثيرٍ منها؛ خاصةً وأن معرفتي باللغتين الفارسية والتركية أغنتني عن الحاجة إلى غيري في دراسة وثائقهم التي غالبها مُدَوَّنةٌ بِنلُكُما اللغتين. لأن الأثرية العظمى للنقشبنديين هم من عناصرٍ غيرٍ عربيّةٍ.

احتسبتُ لله تعالى في احتمالِ العبءِ الثقيلِ لهذه الدراسة الهامة راجياً عفوه. ولم يكن قصدي من هذا الإقدام إلا إظهارَ ما قد بقي خافياً على غالب المسلمين من أمورٍ خطيرةٍ أُستُحدثتُ باسم الدين ونُسبتُ إلى الإسلام. فأردتُ عرضها على علماء هذه الأمة ليروا فيها رأيهم، وليتمكّنوا بذلك من تصحيح الفاسدِ ممّا اعتقده جُمهورٌ من هذه الفرقة، وظنوه من عقائد الإسلام.

وقد أجريتُ هذه الدراسة بأسلوبٍ نقديٍّ وتحليليٍّ. وهذا لا يعني أنني ضربتُ عن الموضوعية صفحاً. يبرهن على ذلك ما نالتُ من القبولِ والإعجابِ لدى نُخبَةٍ من العلماء، خاصةً منهم الفاضل الأستاذ محمّد نافع المصطفى - عضو الهيئة التدريسية بجامعة الشارقة -، الذي قامَ بمراجعتها. فجاءت مُنقّحةً خاليةً من العيوبِ والأخطاء اللغوية بفضلِهِ. كذلك الأستاذ الشيخ لطف الله بن عبد العظيم خوجه، رئيس قسم العقيدة الإسلامية بجامعة أمّ القرى، فلهما الشكرُ الجزيلُ، وجزاهما الله تعالى خيراً. فانتهت تلك المسيرة الطويلةُ والجهودُ المبذولةُ هكذا بتوفيقِ الله تعالى وأثمرتُ بهذا السِّفرِ الذي بين يدي

القارئ. عسى أن يجد فيه الباحثون ورجال العلم ضالّتهم، كما أرجو الله تعالى أن يجعل منه بصيص نورٍ يستضيء به كلٌّ من واجه عقبةً تصدّه عن سبيل الله وهو لا يقصد إلا الهداية والحق. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فريد الدين آيدن

Feriduddin AYDIN

إسطنبول. /يونيو/1997م.

الفصل الأول

* النقشبنديّة؛ ظهورها، وتطوّرها، ومناطق انتشارها.
* أهمّ الوقائع التي أسفرت عن ظهور الطريقة النقشبنديّة.

.....* السبب الأول

.....* السبب الثاني

.....* السبب الثالث

.....* السبب الرابع

.....* السبب الخامس

.....* السبب السادس

* التغيّرات التي طرأت على هذه الطريقة التركيّة.....

* المناطق التي انتشرت فيها الطريقة النقشبنديّة ودواعي انتشارها.....



الفصل الأول

* النقشبندية؛ ظهورها، وتطورها، ومناطق انتشارها.

النقشبندية طريقة صوفية تُنسب إلى رجل اسمه محمد بهاء الدين البخاري المولود عام 717 من الهجرة، والمتوفى سنة 791هـ. وسيأتي ذكره بالتفصيل في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

أما لفظ «نقشبند» فهو مصطلح فارسي مركب من كلمتين: إحداهما عربية؛ وهي «نقش» والثانية فارسية، وهي «بند» (بفتح الباء وسكون التون والبدال).
 وكان يُطلق اسم «نقشبند» على الرسّام والنقاش الذي يعمل الوشي والتمنمة على الأقمشة في اللهجة التركية القديمة. والمناسبة في أخذ هذه الكلمة وإطلاقها على هذه النحلة واضحة. ذلك، يزعمون أنهم يسعون إلى نقش محبة الله في قلوبهم بالذكر المتواصل والسلوك المأثور من "ساداتهم"، ولربما هذا اللقب لم يكن قد أُطلق على محمد البخاري في حياته، ولا طريقته كانت مشهورة بهذا الاسم. ذلك من مميزات الطرق الصوفية أنّها غير مستقرّة. فتتغير أسماؤها من بُرْهة إلى أخرى. وتتبدل آدابها وأركانها على حسب ما يرى كبارؤها، وهي شبيهة بالسيل الجارف الذي يحمل الغث والسمين عبر مسيله، كما سيأتي تفصيل هذه الطبيعة للطرق الصوفية عامة وللنقشبندية خاصة في بابه إن شاء الله تعالى.

* أهم الأسباب التي لها أثر على ظهور الطريقة النقشبندية

لا شك في أنّ مفهوم التصوّف لم يكن شيئاً مذكوراً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم، ولا في عهد الصحابة رضي الله عنهم. فلم نجد في ما ورد عن النبي عليه السلام، أنّه نطق بكلمة التصوّف ولا صحابته. أمّا بقية مصطلحات الطرائق الصوفية وآدابها وأركانها ومقولاتها الفلسفية مثل الرابطة والختمة الخواجانية، واللطائف الروحانية، وتعداد ألفاظ الوُرد بالخصيات أو بالمسبحة وبكميات معينة، وحبس النفس أثناء الذكر، والمبادئ الأحد عشر، وفكرة "وحدة الوجود" و"وحدة الشهود" وما إليها، فإنّ رسول الله ﷺ، يستحيل أن يكون قد أشار إلى شيء منها. وفي هذا برهان قاطع على براءة الإسلام من التصوّف، كما يدلُّ على أنّ الصلة المزعومة بين التصوّف والإسلام لا تقوم على أساس من الصحة.

أما الذين ربطوا التصوّف² بأهل الصُفّة فلا حجة لهم في إثبات ما ادّعوه بتاتاً. فمنهم من تعدّد ذلك عن حظّ نفس، واتباع هوى، ومنهم من اغترّ بغيره عن جهلٍ فاخراً، ولم تكن دعواهم في ذلك إلا أن

1 خواجان: كلمة فارسية، جمع، مفردا: خواجه. معناها: الشيخ والعالم.

2 للإطلاع على ما ورد من أقوال مختلفة في تعريف التصوّف وماهيته ومنشأه واشتقاق هذا المصطلح، راجع المصادر الآتي ذكرها:

* أبو القاسم عبد الكريم ابن هوزان بن عبد الملك بن طلحة القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية ص/ 138. الطبعة 2. القاهرة/1959م.

* أبو يحيى زكريا الأنصاري، منتخبات (هامش الرسالة القشيرية) ص/ 8.

* أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تليس إبليس ص/ 161. مكتبة الشرق الجديد، بغداد بلا تاريخ.

* عبد الرحمن الوكيل، هذه هي الصوفية (الكتاب بتمامه). دار الكتب العلمية، بيروت-1984م.

* الدكتور مروان إبراهيم القيسي، معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص/ 65-98. مكتبة الغراء إسطنبول-1992م.

* سمح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام ص/ 14-29. (والكتاب بتمامه على وجه العموم). دار الكتب اللبناني-المصري/1985م.

* عبد القادر بن حبيب الله السندي، الصوف في ميزان البحث والتحقيق ص/ 31-43. مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة - 1990م.

* محمد صالح بن أحمد الغرسي، مقدمة كتاب بغية الواحد (لجامعه محمد أسعد صاحب): النسخة المطبوعة عام 1985. قرنتيه - ماردن.

* Dr. Selcuk Eraydin Tasavvuf ve Tarikaklar Pg. 36, 53 Istanbul-1994

* Prof. Dr. Fuad Koprulu, Turk Edebiyatinda İlk Mutasavviflar Pd. 16. Ankara-1993

يجعلوا للتصوّف أساساً من الزهد والتقوى. وهما روح الإسلام ومخه، إلا أنه شتان بين التصوّف والزهد والتقوى، وما بينهما بُعد السماء عن الأرض.

لقد طال الجدل بين العلماء قديماً وحديثاً، وبذل الباحثون جهداً بالغاً في مسألة اشتقاق كلمة التصوّف ومصدر هذه الحياة الروحانية مما يُعني ذلك عن إضافة كلام آخر إلى ما قد كتبه وصنّفه في هذا الباب، إلا ما سوف يقتضي ذكره بالقدر اللازم في موطنه. فيكفي التركيز في هذا الفصل على أهم الأسباب التي قد مهّدت السبيل لوجود ظروف ملائمة أولدت الطريقة النقشبندية، وذلك على سبيل الإيجاز.

* السبب الأول منها، يرجع إلى حدث عظيم شاهده آباء الأتراك الأولون قبل أربعمئة وخمسين عاماً من تأسيس هذه الطريقة على أيدي أحفادهم. ألا وهو اعتناقهم التقليدي للدين الإسلامي وتصرفهم فيه.

إذن ينبغي أولاً أن نرجع إلى هذا الحدث فنتناوله بنظر الباحث المدقق حتى تتبلور لنا نتائج التي أسفرت عن اختلاق معتقدات خطيرة وظهور نزعات غريبة على الإسلام. ولكن تبناها رجال، وتشرّبتها عقول، واعتنقتها جماعات وطوائف، واحتسب في الدفاع عنها آلاف مؤلفة من الناس عبر الأجيال من هذا الشعب.

لقد ورد في المصادر التي صنّفها علماء الأتراك بالذات؛ أنّ الإسلام انتشر بين صفوف الذين اعتنقوه من آباؤهم الأولين بغير الوجه الذي انتشر بين غيرهم من الشعوب والأمم. فاختلف فهمهم لهذا الدين بعكس ما أدركه العرب وعلموه وتدوّقوه وتعاطوه عقيدة وسلوكاً. وهذا أمرٌ جديرٌ بالبحث الدقيق في جوانبه التي لم يتوقف عليها كثيرٌ من علماء التاريخ وخبراء علم الاجتماع. لقد كان اعتناق الأتراك للإسلام أمراً غريباً من منطلق العاطفة، وليس عن روية. يبرهن على ذلك إقبالهم على الدين الجديد عن طيبة نفس، دون أن يتحسسوا معالمه. ذلك أنّ اختلاف لغتهم، وسذاجة طباعهم، وبساطة عقولهم لم تسمح لهم يومئذ ليتأكّدوا من أحكام هذا الدين وضوابطه التي يحدّد موقف العبد أمام ربه على أساس مبدأ التوقيفية. ولكنهم لمسوا الإسلام وكأنه نسيم يهب من رياض الجنة على نفوسهم لتطمئن بها اطمئنان المسافر في لحظات نزوله العابر، فاستقبلوه كمصدرٍ للتسلية والعزاء

والدُّعاء والابتهاال والاتصال بأرواح الآباء. فما لبثَ هذا الدِّينُ حتَّى امتزج بعقائدهم القديمة، فتحولَ إلى طرائقٍ صوفيةٍ وطقوسٍ روحانيةٍ وطمائمٍ وألغازٍ وشعوذةٍ وحلقاتٍ ذكرٍ موروثَةٍ من مجوس الهند، وخرافاتٍ وأساطيرٍ ما أنزل الله بها من سلطان. فنشأت الطريقةُ النقشبنديةُ كنتيجةٍ تمخَّضت عن هذه التطوّرات، حتَّى فصلتَهُم عن الإسلام وأبعدتَهُم عن حقيقة الإيمان بالله وتوحيده. ولهذا حار المصلِحون ورجال الإرشاد في مكافحة الفساد والبدع التي انتشرت بين الأتراك والطوائف التابعة لهم من الأكراد والظاظا والشراكسة والبوشناق والأقلية العربية في العصر الحاضر، من جرّاء الطريقة النقشبندية. لأنّ الإصلاح يتوقّف على معرفة أسباب الفساد وجذوره وطرق انتشاره وضروب كفاحه... وإتّما بهذا النوع من المعرفة يتمكّن المصلِح من كشفه وتعريفه وقمعه. فما دام المعروفون بِسِمَةِ العلم والقائمون بمهمّة الدعوة والإرشاد؛ مادام هؤلاء أنفسهم يجهلون مسيرة فساد شعبهم العقديّ خلال الأزمنة التاريخية، إذن لا يُعقل أن تكون لهم قدرةٌ على تصحيح ما قد فسد من عقائد بني قومهم ولو بذلوا قصارى جهودهم بمجرد النكير على البدع والأباطيل.

نعم، لقد غفل كثيرٌ من رجال العلم عن كيفية اسلام الأتراك، ومدى ادراكهم لحقيقة هذا الدِّين في أوّل أمرهم معه، وعلى أيّ دين كانوا قبل ذلك، وهل علقت بهم معتقدات من دياناتهم السابقة وأبقت أثراً في طوائفهم التي دخلت تحت حكمهم وسلطانهم وما إلى ذلك من أمور...

لقد ثبت بالدلائل القاطعة أنّ الغالبية العظمى من الأوّلين الذين أسلموا من هؤلاء القوم لم يدخلوا ساحتَهُ عن رويةٍ، ولم يتلمّسوه بتدبُّرٍ، ولم يتلقّوا تعاليمَهُ بتعقّلٍ وإمعانٍ. وإتّما أقبلوا عليه إقبال القطيع الظمآن على الماء العذب الفُرات وقد أضناه العطش، فما كاد يرتوي من زلاله حتّى صدّه الراعي فسقاه ملحاً أجاجاً؛ وهذا يعني أنّ قبائل الأتراك على كثرة عددها أقبلت على الإسلام في أوّل أمرها، فجاء إسلامهم تقليداً أعمى لمن كان يرأسهم ويتزعمهم. فما زال كثيرٌ منهم يتقلّب بين ما ورثه من معتقداتٍ شامانيةٍ ونزعاتٍ برهميةٍ وتقاليدٍ مانويةٍ ومزدكيةٍ. ذلك لأنّ الأتراك يمتازون بشدة الانقياد إلى ملوكهم وزعمائهم في كلّ دهرٍ، سواء أكانوا على الحق أم على الباطل. فلم تتغيّر هذه الخصلة فيهم إلى يومنا هذا. مما يدلّ على ذلك تمسُّكهم بزعميمهم الذي شارك في القضاء على الدولة العثمانية ذات الطابع الإسلاميّ. فأراد أن يخلع رِبْقَةَ الإسلام من أعناقهم، فلم يزدهم ذلك إلا محبةً فيه على الرغم من اعتزازهم بالإسلام؛ مع علمهم بأنّه ينحدر من سلالة خزرية تشرّبت العقيدة اليهودية منذ قرون.

ولكن ما دام أنه تركي الأصل فباتت صلتهم به قوية حتى اتخذوه إلهًا كما قد اتخذوا شيوخهم آلهة من دون الله.

نعم إن الأتراك استقبلوا الإسلام في أول أمرهم طيبةً به نفوسهم؛ فلما أسلم ملكهم صئوك بُوغراخان (ت. 348 هـ.)³ ملك الدولة القراخانية التركية، وتسمى بـ"عبد الكريم". دخلوا معه في دين الله أفواجًا، وأسلموا عن بكرة أبيهم.

هذا، وقد أسلمت جماعاتٌ غفيرةٌ من مختلف الأجناس البشرية عبر التاريخ، إلا أنه لم تسبقهم أمةٌ دخلت حظيرة الإسلام بجمهورها، ولم تظفر بهذا الفضل والشرف العظيم غير الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام في أول أمرهم.

لابدّ وقد أثار الإسلام يومئذٍ هيجانًا في نفوسهم، ودبت في جميع مجالات حياتهم حركةٌ انسحبوا معها إلى مُعطفاتٍ لعلهم خرجوا بذلك عن الخطّ الإسلاميّ المستقيم دون أن يشعروا بخطورة الأمر! لأنهم كانوا يومئذٍ في بداية الطريق، ينظرون إلى هذا الدين الجديد كعادتهم في النظر إلى دينهم القديم بفروق بسيطة. ثم إن ذلك التدفق العارم والاندفاع الكليّ إلى هدي الإسلام، لم يترك لهم فرصةً في الوهلة الأولى ليتدبروا حقيقة الدين الحنيف إلا قلة منهم. فيبدو أنهم قد اعتنقوا الإسلام على همجيةٍ وسطحيةٍ من العقلية المتخلفة والجهل المتفشّي بين جمهورهم وهذا أفضى إلى التشبّث بما كانوا عليه في سابقهم من رواسب الشرك ومخلفات الوثنية وتقاليد الكفرة من آباؤهم الأولين.

لما نُقارن بين السابقين الأولين من الأتراك ومشركي قريش في موقفهم من الدعوة الإسلامية الأولى نجدُ بعدًا كبيرًا بين الفريقين في ذلك. فإن الأتراك أقبلوا على الإسلام كالسيل العارم منذ أول تبشير تلقوه من دعاةٍ لا شهرة لهم في سجلّ التاريخ. بينما الكتب حافلة بما ابتلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المحنة والأذى على يد قومه الذين وقفوا في وجه الإسلام ووقف العدو اللدود. واستعملوا العنف والشدة ضدّ أصحابه، وأذاقوهم ألوانًا من التعذيب والنكال. ولكن أكثرهم في نهاية المطاف أسلموا لله وأقاموا حدوده واتخذوا من دينه نظامًا لحياتهم؛ وضربوا من البسالة والبطولة والفداء في سبيله أمثالًا لم يدانيهم فيها قوم لا قبلهم ولا بعدهم.

ولهذا، تشرّبت العربُ الإسلامَ عن حقيقته ولم يتغيّر تفسيرهم للدّينِ حتّى يومنا هذا، على الرغم من ضلالةِ حُكّامِهِمْ وَسَفَهِ زعمائِهِمْ فيما اقتبسوه من الأمم الكافرة لشعوبِهِم من سياساتٍ ضالّةٍ وأنظمةٍ فاسدةٍ.

أما الأتراك، فيبدو أنهم في غمرة تلك الضّجّة التي ثارت في صفوف مُجتمَعِهِمْ على أثرِ الدعوةِ الموجهةِ إليهم لم يفتنوا إلى حقيقة ما يهتف به الإسلامُ من التوحيدِ الخالصِ لله ربّ العالمين. فظنّوا أنّه دينٌ كسائر الأديان، وإن كان يمتاز ببعضِ تعاليمِهِ الخاصّةِ التي أعجبتهم واتفقت مع طبيعتِهِمْ. كالطهارةِ وصلاةِ الجماعة. لأنّ الأتراك، همُ أشدُّ الناسِ اهتمامًا بالنظافة وأفضلهم نظامًا في الحياةِ الاجتماعيّةِ، فتأثّروا بضوابطِ الإسلامِ وقوانينه وتشريعاته، قبل أن يتأثّروا بعقائده ووجدانياته. ولهذا، لم يهتّموا بمسائل التوحيد في الخطوة الأولى من إسلامِهِمْ، وإنما التّهوا بما شرّعه الإسلامُ من صلاةِ الجُمُعةِ والجماعةِ والطهارةِ وطاعةِ أولي الأمر، وآدابِ المعاشرةِ وما أشبه ذلك من أمور العبادة، وما يختصُّ بتنظيم الحياةِ الاجتماعيّةِ والعلاقات البشرية.

وبهذا، يتبين لنا أنّه لما غفل المسلمون الأولون من الأتراك عن حقيقة توحيد الله تبارك وتعالى (وهو لبُّ الإسلام، ومفتاحُ الخلاص، ووسيلةُ النجاة والسعادة في الدارين). وبدلوا اهتمامهم فيما يظهر من الدّين ويتفق مع طبيعتِهِمْ، وجَدُوا صلةً بين هذه الأمور وبين ما كانوا عليه في سابقِ أمرِهِمْ؛ لأنّهم كانوا على دينِ اسمه «الشّامانيّة» فكانوا يعتقدون في رهبانِهِمْ أنّهم ينفعون ويضرّون من دونِ الله، ويشفعون لهم عند الأرواحِ الإلهيّةِ المهيمنةِ ويتصرّفون عنها في الكون. وكذلك كانوا يتأمّلون ويتفكّرون في حكمةِ الله على أساليبِ الديانةِ البوذية والبرهميّة.

فما كان منهم إلّا أن استحدثوا طرائقَ صوفيّةً ورثبوها لها آدابًا وأورادًا وأذكارًا مزجوا فيها بين أمورٍ أخذوها من الإسلام. مثل كلمة التوحيد، واسمِ الجلالة، والتحميد، والتسبيح، والتكبير... وأخرى ورثوها من دياناتهم السابقة من الشامانيّة والبوذية والزرادشتيّة والمزدكيّة والمناويّة⁴ وورثوا منها رواسب وثنيّة مثل: «هُوشِ دَرَدَم، ونَظَرَبَرَقَدَم، وسَفَرَدَرُوطَن... إلخ» فخلطوا هذا بذاك بعد أن أنّمّوها بتفسيراتهم الشاذة الغريبة، ورثبوها ودوّنوها في أسفارٍ وأقاموها على هيئةٍ من الآدابِ والدعاءِ والتعبُد؛

كالرَّابطة، وَالْحَتْمَةُ الْخَوَاجِكَانِيَّةُ، والتَّوَجُّهُ، والسلوك والرهبنة... فكانت من أهم نتائجها الطريقة التقشبنديّة.

* السبب الثاني في ظهور هذه الطريقة: هو الخلفيات التاريخية والاجتماعية السائدة في الفترة والمنطقة اللتين نشأت فيهما هذه الحركة الصوفية.

لا شك في أنّ الأحداث متسلسلة من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل. فلا بدّ إذن أن يكون لِمَا وقع في سالف العصور آثارٌ وعواقبٌ انعكست على ما تلاها. أو لا بدّ أن يكون لكلِّ حدثٍ أصلٌ وسبب؛ بل أسباب يرجع إليها. وهذه سنّة الحياة.

فما دامت الطريقة التقشبنديّة هي حدثٌ من الأحداث الهامة، وواقعٌ أشغل العقول والضمائر منذ حقبةٍ تقرب من سبعة قرون، إذن لا بدّ من أن نتناولها، فنعود بها إلي أيام نشوئها من خلال الحلقات المتسلسلة التي تربط حاضرها بماضيها، وأن نتباحث في الوقت ذاته بظروف المنطقة التي عاش فيها الأتراك قبل دخولهم في الإسلام وبعده.

إنّ المنطقة التي كان يسكنها آباء الأتراك الأوّلون (وهم الهياطلّة) تبدأ من تخوم الهند شرقاً، وتنتهي عند ضفاف بحيرة آرأل على امتداد الساحة الواقعة بين النهرين الشهيرين: سيحون وجيحون. تضمّ هذه المنطقة عدداً من المدن العريقة، مثل بُخارى، وسمرقند، وطاشقند، وفرغانة، ومرو، وترمز، وجرجان، وسجستان وأجزاء من بلاد خوارزم.

أما تاريخ المنطقة، فيشوبه غموض حتى ميلاد عيسى عليه السلام، لأنّ أيام الأتراك قبل الإسلام قد خلّت من الحركات العلميّة والثقافية والحضارية. وبذا كانت المصادر شحيحةً بين أيدي الباحثين ولم تمدهم بما كان عليه الأتراك في تلك القرون الخالية. ولم يؤرّخ لهم قوم بالقدر الذي كتب عنهم علماء العرب المسلمين كأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري⁵ وأبي جعفر محمد بن جرير الطبري⁶ وابن

5 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة الطبع الأولى: 1/322. بيروت/1993.

6 المصدر السابق 190/3.

الأثير عزّ الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم الشيباني⁷ وأبي الفداء اسماعيل بن عمر القرشي المعروف بابن كثير⁸ وغيرهم. ولعلّ العالم الروسي: فريدريك ويلهلم راذلوف (1837-1918م.)⁹ قد أولى الحياة الدينيّة عند الأتراك في جاهليتهم بحديثٍ واسعٍ أكثر من أيّ باحثٍ آخر.

فقد ثبت من خلال ما عثر عليه الباحثون وما شرحه علماء التاريخ أنّ الأتراك قد اعتنقوا ديناً بعد دين عبّر تاريخهم. وكلّما وجدوا مساعاً ليبدّلوا دينهم نزحوا من ساحته - وهم يحملون جُلّ آثاره - وركنوا إلى دين آخر فخلطوا بينهما، فتقلّبوا هكذا في أمواج الديانات والمعتقدات بصرف النظر عما بينها من التناقض والتضارب حتّى وجدوا أنفسهم في رحاب الإسلام بدءاً من النصف الثاني للقرن الأوّل من الهجرة النبوية. فلم يكن تعاملهم مع الإسلام مختلفاً عن تعاملهم مع دياناتهم السابقة. فحملوا جماً من معتقداتهم الوثنيّة، وتقاليدهم الموروثة من عهد الجاهليّة الأولى، كما سوف نشرحه إن شاء الله تعالى عبّر الفصول التالية.

لقد كان الأتراك يقدّسون موتاهم في القرون الأولى من جاهليتهم، ويعبدونهم. نشأ هذا الاعتقاد وهم على دين اسمه "الشامانيّة"، خاصّة فإنّهم كانوا يقدّسون "الشامان". والشامان عندهم كالعزيز أو القدّيس عند النصارى فكانوا يعتقدون أنّ الشامان يعلم الغيب ويتصرّف في أحوال الجوّ؛ فينزل الغيث، ويرسل الرياح متى شاء، ويمنع الآفات، أو يسلط المصائب والأهوال على من يشاء.

ومن جملة ما كانوا يعتقدونه أيضاً في شامانهم: أنّهم يتصلون بإله السماء فيتلقّون منه الوحي. أمّا من أراد أن يكون له حظٌّ من هذه المكانة بينهم، نزح إلى خلوةٍ ومارس الرياضة على الطريقة الصوفيّة فأصبح شاماناً بعد مدة، يحذّر الناس من لعنته وينظرون إليه نظرة الإجلال والتوقير. فلما ارتدّ هؤلاء القوم عن الشامانية إلى البوذية، ازدادوا تمسُّكاً واعتقاداً برهبانهم في الدين الجديد، ذلك أنّهم تمكّنوا عن طريق الترجمة من الإطلاع على مناقب رهبان البوذية وما قيل فيهم من كراماتٍ ومعجزاتٍ وآثار. فتجمّع في عقولهم زكّامٌ بالغٌ من الأساطير التي تمحورت حولها ديانتهم، واستيقنتها أنفسهم، حتّى إذا

7 المصدر السابق 523/2.

8 المصدر السابق 373/1.

9: Friedrich Wilhelm Radlof

مستشرق روسي من أصل ألماني. ولد في برلين، و مات في بيروجراد Petrograd. تخرج من جامعة برلين، وحاز شهادة الدكتوراه في العلوم الفلسفية من جامعة جينا عام 1858م. على أثر نجاحه في تأليف رسالة تحت عنوان: (أثر الدين في مجتمعات

آسيا Ubar Den Einfluss der Religion auf die Worker Aslens له بحوث و مؤلفات عدة.

أسلموا وجدوا ضالّتهم المنشودة فيما سمعوا من معجزات الرسول ﷺ، فاتخذوا منها منطلقاً ليصبغوا ما في قلوبهم من رواسب الشرك بصبغة الإسلام. فلم يلبثوا أن اعتقدوا في بعض الصالحين كما كانوا يعتقدون في شامانيتهم ورهبانهم سابقاً من بركاتٍ وكراماتٍ وخوارق؛ فأقاموا على أضرحتهم بُنياناً لم يعهده المسلمون قبل إسلام الأتراك.

ثم حرّفوا مفهومَ لفظِ الوليّ في القرآن بتفسيرٍ لم يرد عن السلفِ الصالح. إذ أن الوليّ ليس هو الذي يتصرّف في قدر الله، وينوب عنه في إدارة الكون، ويعلم الغيب، وينزل الغيث، ويمنع الآفات، أو يُسلط العذاب على من يشاء كما يزعمون. وإنما أولياء الله، هم الذين قال تعالى فيهم: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} * الذين آمنوا وكانوا يتّقون¹⁰ ولكنهم حرّفوا المعنى بتأويلاتهم وتفسيراتهم التي بنوها على معتقداتهم الموروثة من العهد الوثني. وهكذا نشأت مُعظم الطرق الصوفيّة على أيدي الأتراك كنتيجةٍ للأسباب التي ما زلنا نواصل شرحها. ومن أهمّها، تلك الخلفيات التاريخية التي تراكمت في عقلية هؤلاء القوم، والمحدثت عبّر أطواره حتى طغت على المفاهيم القرآنية بتفسيرات باطنية متطرّفة، فشوّت مَحْيَاهَا، وأذهبت الكثير من جمالها وطلاقتها وواقعيتها.

* السبب الثالث في ظهور الطريقة النقشبندية: هو بُعد المسافة بين مراكز الحكم والعلم وبين المنطقة التي نشأت وانتشرت فيها الطريقة.

لما انتزع الإسلام جذور الشرك وأزاحه عن مهبط الوحي والإلهام، وبدأت أنوار التوحيد تُشرق من الحرمين على أطراف الجزيرة العربية، فنبعت مناهل الحكمة وتدققت من صدور أئمة السلف وانصبّت على صفحات الكُتُب بمداد العلماء من التابعين؛ فلم يلبث أن سادت دولة العلم في بلاد اليمن والعراق والشام ومصر في مدّة أقلّ من خمسين سنة بعد الهجرة النبوية. وفي أثر ذلك أصبحت كلُّ منطقةٍ من هذه البلاد مركزاً للعلوم والفنون الإسلامية.

ولقد كان المسلمون الأوائل أشدّاء على الكفّار والمشركين ومن كان على نهجهم من المُحدّثين في الدين والمتلاعين بنصوصه من خلال تأويلاتٍ ماكرة. ولا يُستبعد أن يكون أهل الحِلّ والعقد منهم قد أحبطوا أيّة بدعةٍ قد ظهرت في أيامهم بسرعةٍ وعنّف. فهكذا كانوا حتى في العهد الأموي، وكذلك

في المرحلة الأولى من العهد العباسي. إذ يبرهن على ذلك موقف الخليفة المقتدر من حسين بن منصور الحلاج لما علم أنه زنديق يتربص بالإسلام ليعبث به ثاراً لدين آبائه المجوس الذين قضى عليهم المسلمون، فأمر به فقتل.¹¹

وما إن اتسعت أرض الإسلام، ودانت به فئات غير ذات رُشدٍ وذوقٍ سليمٍ من أهالي المناطق النائية عن مراكز الحكم والعلم والحضارة الإسلامية وخاصةً بعد فتح خراسان وبلاد ماوراء النهر؛ سرعان ما بدأ الانحراف عن الخط الإسلامي المستقيم، وصار يدبُ وينتشرُ بين الناس كلما وجدوا هرطقةً تُدكِّرهم بماضيهم نزعاً إليها نفوسهم ظناً منهم أنها من صميم الإسلام. وربما لم تكن الدولة يومئذٍ تتمتع بالقدرة والهيمنة الكافية لكبح جماح المبتدعين والمُحدثين بسبب بُعد المسافة بين مراكز الحكم وبين تلك المناطق المترامية القاصية؛ أو ربما لم يكن لأصحاب السلطة اهتماماً بسلامة الدين، وقصر تعاليمه على الكتاب الكريم، والسنة المطهرة كما فهمها سلفنا الصالح ﷺ.

فهذه أيضاً من الدواعي التي أسفرت عن انتشار حياةٍ روحانيةٍ غريبةٍ عن الإسلام تحت ستار الرُهد والاستغناء عن الدنيا، وممارسة الرياضة والتشفيف ولُبس المسوح. ثم تطورت الأوضاع حتى ظهر عددٌ كبيرٌ من الطرائق الصوفية في القرون التالية، وانتشر بعضها على ساحاتٍ واسعةٍ فأقبل عليها جمهورٌ من الناس، وطاشت حكمة العلماء في وجهها، إما مخافةً أو عجزاً أو جهلاً؛ إلى أن قويت صولة هذه المنظمات الصوفية وتضاعفت قوتها. وغلبت على العاقل والغافل محبتها بالرغم من نبوغ شخصيات من أهل العلم والفضل في تلك المناطق من أمثال: الإمام الهروي، إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن القرباب¹²، وعلي بن محمد بن الحسين البزدوي¹³، وشمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي

11 راجع قصته في المراجع التي ذكرها:

* عمر رضاء كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 645/1 . بيروت - 1993م.

* أنور الجندي، المؤامرة على الإسلام ص/ 57، 174. دار الاعتصام، الطبعة الثانية، القاهر - 1978م.

* عبد القادر حبيب الله السندي، الصوف ص/ 636، 716. مكتبة ابن القيم الطبعة الأولى. المدينة المنورة - 1990م.

* صبيح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام ص/ 307. دار الكتب اللبنانية، الطبعة الثانية. بيروت - 1985م.

12 راجع ترجمته في معجم المؤلفين. عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 356/1 ترجمته.

13 المصدر السابق 501/2.

بكر السرخسي¹⁴، وأبي حفص عمر بن محمد النسفي¹⁵، والإمام الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري¹⁶، والعلامة مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني¹⁷ وغيرهم.

فيبدو هكذا بوضوح، سببٌ ثالثٌ من أسباب ظهور الطريقة النقشبندية في بلاد «ماوراء النهر»، ولكنها كانت محصورة في تلك المناطق طوال سنواتٍ عديدة؛ إلى أن اعتنقها الأتراك العثمانيون ومن كان تحت حكمهم من الأكراد وحثالة العرب الذين يقطنون في المنطقة الكردية. وذلك بعد الحملة التي قام بها خالد البغدادي¹⁸ لنشر هذه الطريقة في لباسٍ جديدٍ وباستيحاءٍ من الديانات الهندية، وبمساعدةٍ ودعمٍ من السلطة العليا للدولة العثمانية كما سنشرحه في نهاية الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

* السبب الرابع في انتشار النزعات التصوفية عامةً وظهور الطريقة النقشبندية خاصةً في بلاد الأتراك هو جهلهم بلغة القرآن كما هي الحالة نفسها بالنسبة للأكراد وغيرهم من سائر العناصر العجمية.

أسلم الأتراك وهم لا يفهمون شيئاً من القرآن الكريم لاختلاف اللغة، ولا تزال العجمة تمنعهم عن فهم كتاب الله إلى اليوم! ويبدو أنهم تلقوا الضرورات من الدين عن طريق الترجمة في الخطوة الأولى من إسلامهم. أما الترجمة وإن كان لها أثرٌ ودورٌ في تبليغ الرسالات، إلا أنها قد لا تفي بالحاجة خاصة لتفصيل الأمور الدقيقة لأنّ فهم المعاني المقصودة في مثل هذه الأحوال يزداد أهميةً ويتوقف على كفاءة المترجم وصحة الترجمة. فإذا كان المترجم قاصراً، أو غير ذي مهارةٍ وحُكمةٍ في مهمته جاءت الترجمة مشوبةً بأخطاء، ومعيوبةً بغموض؛ فتعقد الأمر على المخاطب. هذا، ولا ندري أكانت الترجمة يومئذٍ وافيةً لأداء مهمة التبليغ والقيام بأعمال التعليم أم لا، خاصةً فإنّ تعليم مسائل التوحيد للإنسان الذي عاش في ظلمات الشرك طوال عمره، وفوق ذلك يجهل لغة الرسول ﷺ؛ فإنّ تعليمه من أشدّ الأمور صعوبةً وتعقيداً.

14 المصدر السابق 52/3.

15 المصدر السابق 571/2.

16 المصدر السابق 558/3.

17 المصدر السابق 849/3.

18 المصدر السابق 667/1.

وإلى جانب هذا، فإن الأتراك يختلفون عن كافة المجتمعات بموقفهم السليبي من اللغات الأجنبية؛ فتجاوز الأمر إلى لغتهم؛ حتى أصبحت هي نفسها بعد إهمالهم إياها وتلاعُبهم بها عُرضةً لنكبات الدهر. ولا يزالون يعانون شتات شملها إلى اليوم. وربما يرجع سبب هذا الموقف إلى الروح العسكرية الراسخة فيهم من قديم الزمان. فإن الأتراك يعتزُّون دائماً بأنهم قومٌ مقاتلون، وبأنهم لم يخضعوا لسيادة أقوامٍ آخرين عبر تاريخهم. فإن تفاخرهم بأجدادهم وتشاغلهم بذكريات أيام عزهم بصورة دائمة قد جعلهم يحتقرون بقية الشعوب وما يميّزها عنهم من صفات القومية، كاللغة والدين وبعض التقاليد.

هذه الطبيعة المتأصلة في الأتراك كانت لها آثارٌ سلبية في نظرهم إلى مفهوم المعرفة، فلم يهتموا باللغة العربية من قديم الزمان؛ أو بالأحرى لم يتلقَّوها بالأسلوب المتبع عند العرب. وإنما فتصروا على حفظ قواعد الصرف والنحو، فاتخذوا من العربية لغةً لمحض قراءة نصوص الدين فحسب، دون الكتابة والحوار. وقد اعتادوا تسمية اللغة العربية في تحاورهم بـ «لغة القرآن» على لسان المعتزّين منهم بالإسلام، وذلك تناسياً لصلتها الخاصة بالشعب العربي، بل على سبيل الاحتقار لهم! فقد أسفرت عن هذا الشعور نتيجة غريبة وهي أن أكثر المُقرّين منهم بالانتماء الإسلامي يقدسون اللغة العربية، فلا يرون مزاولتها من السهل، أو من الأمور الجائزة لغير رجال الدين!

لهذا، قام بعض الجهلة منهم المنتحلين سمّة العلم، فتصدّوا للعبث بمسائل الدين واختلقوا أنواعاً من البدع. فانتشرت بسهولة، لجهل المجتمع بلغة القرآن. لأنه لم ينتبه كثيرٌ من الناس، إلى أنّ هذه الأمور المُحدثة لا تمتُّ بصلة إلى الإسلام، أو أنّها مستورثة من الشامانية والبرهمية والمزدكية والمناوية وغيرها من أديانهم السابقة فزادت هذه الخزعبلات انتشاراً، وازداد الناس إقبالاً عليها إلى أن استغلها بعض الصوفية. فوجدوا فيها ضالتهم، وربّوا على أساسها طرائق ومذاهب شتى مثل: البكتاشية، والبنجارية، والبيرمية، والخروفية، والخفيفية، والخلوتية، والجراحية، والكلشنية، والروشنية... مما هي جميعاً من صنّع الأتراك، كما يبدو من أسمائها التركية، إلى جانب ما أسستها أعجام الفرس فجاءت من جملتها الطريقة النقشبندية.

* السبب الخامس في ظهور الطرُق الصوفية، ومنها النقشبندية: هي الفتن التي حدثت في عصر الصحابة وأثرت على النفوس حتى نشأت من جزائها بعد القرون فرقت وأحزاب باطنية ومذاهب غالية عديدة كل حزب بما لديهم فرحون.

الفتنة الأولى والكبرى في تاريخ المسلمين لاشكَّ هي مقتلُ الخليفةِ الراشدِ عثمانِ بنِ عفَّانٍ رضي الله عنه. ثم تليها الحروبُ التي جرتْ بين عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان؛ ثم اغتيال عليِّ بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

دخل الشقاق بدواعي هذه الفتن صفوفَ المسلمين وهم من الطبقة الأولى من أمة الإسلام. بيد أنهم لم يختلفوا يومئذٍ إلا في المسائل السياسية والاجتهادية بالاستناد إلى الكتاب والسنة، تجمعهم العقيدة الحنيفة إذ ذاك، مهما تفرقت كلمتهم؛ فانقسموا إلى فرقٍ ثلاثٍ: الشيعة، والخوارج، والزهاد الذين تورعوا وصبروا، واستأنسوا بروح الله وعكفوا على العبادة هرباً مما وقع فيه غيرهم من الطمع والافتتان بحطام هذه الدنيا وملذاتها ومناصبها؛ كما يُقرُّ ويعترف بهذه الحقيقة أحدُ أعلام الصوفية في عصرنا السيد محمود أبو الفيض المنوفي إذ يقول: «وأما سبب شيوع التصوف في الإسلام، فهو أنه لما حصل الخلاف على الخلافة والنزاع بين عليٍّ ومعاوية، ثم الخلاف بين بني أمية وبين العباسيين؛ قد صارت الخلافة ملكاً عضوضاً وسلطاناً يتنافس عليه أهل النفوس الضعيفة المحبة للدنيا ومتاعها الزائل، ترفع البقية المخلصة الباقية من الصحابة والتابعين عن إيثار ما يفنى على ما يبقى، ورجعوا إلى أنفسهم عاكفين على مدارس الكتاب الكريم.»¹⁹

وإذا كان لموقف كلِّ قرفةٍ من هذه الفرق الثلاث شأنٌ انطلقت منه فئاتٌ غالبيةٌ ممن جاء بعدها فإن صوفية كلِّ عصرٍ قد تشبهوا بالزاهدين السابقين من أمثال: أبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي²⁰؛ وعبد الله ابن المبارك المروزي وهو تركي الأصل²¹؛ والفضيل ابن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي²²؛ وأبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي²³؛ وأبي نصر بشر بن الحارث بن علي بن

19 السيد محمود أبو الفيض المنوفي، معالم الطريق إلى الله ص/49. دار تحفة مصر للطبع والنشر. القاهرة - 1969م.

20 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 1/771.

21 المصدر السابق 2/271.

22 راجع ترجمته في الأعلام، خير الدين زركلي 5/153. دار العلم للملايين الطبعة 11. بيروت - 1995م.

23 المصدر السابق 7/269.

عبد الرحمن المروزي الحافي²⁴؛ وأبي الحسن سريّ ابن المغلس السقطي²⁵؛ وأبي محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى التستري²⁶؛ ومن كان على نهجهم من الورع والتقوى رحمة الله عليهم أجمعين.

أنتحل صوفية العراق مذهب هؤلاء الصالحين بعدهم في القرن الثاني من الهجرة. وصوفية العراق جلهم من أصول مجوسية من العنصر الفارسي، لا صلة لهم في حقيقة الأمر بالزاهدين المذكورين سابقاً، وإنما انتحلوا أسلوبهم في الإعراض عن الدنيا بظاهرهم وهم يتبنون أغراضاً خطيرةً في باطنهم. دفعتهم النزعة الشعبوية إلى هدم الدين الحنيف بدس سموم الشرك في العقيدة الإسلامية، ولكن بأسلوب أكثر حُبثاً ومكرًا ودهاءً وهو الأسلوب الصوفي بخلاف ما كان عليه الزنادقة من الشعراء والأدباء ذوي الأصول الفارسية بإيقاع الفتنة بين المسلمين وتشكيكهم، عن طريق تصوّرات فلسفية ظاهرة المعالم. كبشار بن برد بن يرجوخ العقيلي (96-168هـ.)؛ وعبد الله ابن المقفع (روزبه بن دادويه 106 - 142 هـ/724-759م.)²⁷؛ وأبي نواس الحسن بن هناء بن عبد الأوّل بن صباح (145-199 هـ./762-813م.)²⁸؛ وأبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي (?-200 هـ./؟-815م.)²⁹؛ وأبي عبيدة معمر بن المثنى (110-209 هـ./728-824م.)³⁰؛ وأبي العتاهية إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان (130-213 هـ./747-826م.)³¹. كان هؤلاء الشعوبيون مجاهرين بأفكارهم وتصوراتهم بخلاف الصوفية. أمّا الصوفية، فإنّ السريّة التي كانت أعمالهم تتوارى بقناعها، تجعلهم في أمان من أيّ شكّ قد يثور حولهم؛ بل غالب الناس كانوا يُعظّمونهم ويُعدّونهم من أصحاب الفضائل والكرامات، لما يرون من إعراضهم عن زينة الحياة الدنيا وطيباتها. لأنّ كراهية نعيم الله كانت هي القسطاس الذي يُقيّم الناس به مستوى الفضيلة والسمو الروحي والأخلاقي يومئذٍ.

هكذا استطاع صوفية العراق منذ بداية ظهورهم أن ينجحوا في تشويه الوجه المُشرق للإسلام بهذا الأسلوب الدسّاس، على حين غفلة من المسلمين الذين هجمت عليهم الفتنة يومئذ من كلّ حدبٍ

24 المصدر السابق 54/2.

25 راجع ترجمته في وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق الدكتور حسان عباس 357/2. دار الصادر. بيروت - 1978م.

26 المصدر السابق 429/2.

27 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضاء كجالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 31/2

28 المصدر السابق 596/1.

29 المصدر السابق 7/1.

30 المصدر السابق 901/3.

31 المصدر السابق 374/1.

وَصَوَّبِ وَهُمْ فِي وَسْطِ مِنَ الْفَوْضَى مِنْ أَمْرِهِمْ. فَاسْتَمَرَّتْ حَيَاكَةُ الدَّجَلِ وَالْكَذِبِ عَلَى لِسَانِ السَّابِقِينَ مِنْ أَهْلِ الزُّهْدِ وَهُمْ بَرَاءٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَضَلَالَاتِهِمْ، حَتَّى أَسْلَمَ الْأَتْرَاكُ.

فَمَا لَبِثَ أَنْ بَرَزَتْ جَمَاعَةٌ حَشَوِيَّةٌ بَيْنَهُمْ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَبِلَادِ «مَآوَرَاءِ النَّهْرِ». فَزَادُوا عَلَى هَذِهِ الْأَكَاذِيبِ وَالذَّجَلِيَّاتِ مَا تَمَجَّجَهُ الْأَسْمَاعُ. ثُمَّ تَطَوَّرَ مِنْهَا فَنٌّ مِنْ فُنُونِ التَّحْرِيفِ وَالتَّرْوِيرِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّضْلِيلِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِمَنَاقِبِ الْأَوْلِيَاءِ.

وَأَخْطَرَ مَا وَضَعَهُ الصُّوفِيَّةُ مِنَ الْأُمُورِ الْهَدَامَةِ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ: بَدْعُهُ «السِّلْسِلَةُ» الَّتِي اخْتَلَقَهَا بَعْضُهُمْ فِي عَصُورِ الظَّلَامِ، وَرَبَّمَا لِيَجْعَلَ مِنْهَا صِلَةً يَدَّعِي بِهَا الْإِنْتِسَابَ وَالانْتِمَاءَ إِلَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِيَسْتَعْلَلَ بِهَا ضَمَائِرَ النَّاسِ وَلِيَتَدَرَّجَ بِمُسَاعَدَتِهِمْ إِلَى تَحْقِيقِ مَا هُوَ مِنْ وَرَائِهِ. فَسَيَأْتِي شَرْحُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَهِيَ أَيْضًا مِنْ صُنْعِ زَنَادِقَةِ الْعَجَمِ. اغْتَرَّ بِهِمُ الصُّوفِيَّةُ وَالْمَشْعُودُونَ مِنْ قَدَمَاءِ الْأَتْرَاكِ لِجَهْلِهِمْ.

* السبب السادس في ظهور الطريقة النقشبندية: هي الدواعي النفسية المتخفية للأتراك من وراء الصراع التاريخي الذي طالما يجري بينهم وبين العرب على احتكار الإسلام واستغلاله في كسب المصالح السياسية.

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَيِّزَاتِ الْأَتْرَاكِ، أَنَّهُمْ لَا يُدْعُونَ لِسِيَادَةِ مَنْ لَيْسَ مِنْ قَوْمِهِمْ. وَلَا يَنْقَادُونَ إِلَى رِئَاسَةِ أَجْنَبِيٍّ. وَكَأَنَّهُمْ قَدْ جَبَلُوا عَلَى الْأَنْفَةِ وَالْحَمِيَّةِ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ وَالسِّيَاسَةِ. قَدْ يَخْتَلِفُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَشَدَّ الْاِخْتِلَافِ. وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا يَلْتَفُونَ حَوْلَ الرَّجُلِ الْقَوِيِّ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَيَنْهَضُونَ بِأَمْرِهِ فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ نُحُوضَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ. وَالغَرِيبُ، أَنَّ الْمُفِرَّ مِنْهُمْ بِالْإِنْتِمَاءِ الْإِسْلَامِيِّ، يَنْتَصِرُ لِلْكَافِرِ وَالْفَاسِقِ مِنْ بَنِي جِلْدَتِهِ فِي وَجْهِ الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِ حِزْبِهِ. يَبْرَهِنُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مَا أَخَذَتْهُ الْحُكُومَاتُ التَّرْكِيَّةُ مِنَ الْأُهْبَةِ فِي سِيَاسَتِهَا ضِدَّ الْمُعْتَرِزِينَ بِالْإِسْلَامِ فِي الدَّخْلِ وَالخَارِجِ وَبِاسْتِمْرَارِهِ. وَمِنْ آخِرِ عَكُوسِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ، قِيَامُهَا بِمُسَاعَدَةِ الْمُنْشَقِّينَ مِنَ الْعُنَاصِرِ ذَاتِ الْأَصُولِ التَّرْكِيَّةِ فِي أَفْغَانِسْتَانَ ضِدَّ حُكُومَةِ (طَالِبَانَ)³² الْإِسْلَامِيَّةِ عَامَ 2001م. إِنَّ الْحُكُومَةَ التَّرْكِيَّةَ لَمْ تَقُمْ بِدَعْمِ الْأَتْرَاكِ الْأَزْبَكِ فِي أَفْغَانِسْتَانَ لِمُجَرَّدِ مَا كَانَتْ حُكُومَةُ (طَالِبَانَ) تَمَارِسُ التَّعَسُّفَ وَالتَّطَرُّفَ فِي سِيَاسَتِهَا، بَلْ كَانَ رَدًّا فَعَلًا مِنْ مُنْطَلَقِ الْعَصَبِيَّةِ التَّرْكِيَّةِ انْتِصَارًا لِلأَتْرَاكِ الْأَفْغَانَةِ ضِدَّ خُصُومِهِمُ الْبِشْتُونَ.

32 طالبان: إسم أطلق على الحكومة الأفغانية التي شكلتها جماعة من طلبة الجامعات الإسلامية ذات الطابع القديم والمختلف في باكستان، وذلك بدعم من الوهابيين.

هذه الخصلة جعلتهم ينافسون العرب في السياسة والسيادة، ويصارعونهم على السلطة في الوهلة الأولى من إسلامهم. غير أن الأتراك قد وجدوا أنفسهم دائماً أمام عقبتين في وجه العرب.

العقبة الأولى: هي اللغة العربية. لأن العربية غلبت على جميع لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام بحكم كونها لغة القرآن والعلم والحضارة. فلم يستقم اعوجاج اللغة التركية تحت هذه الغلبة على امتداد تاريخ الأتراك المسلمين وخاصة لما زادت اللغة الفارسية من حيفها على اللغة التركية وزاحمت فيها آثار العربية، فقدت التركية أهيتها حتى اختنقت وتفرقت إلى لهجات، بل إلى لغات مختلفة. وبشهاد اليوم على هذه الحقيقة استخدام الترجمة في الحوار بين رؤساء بعض الدول التركية في المُلتقيات والاجتماعات الدولية. مثل تركيا وكازاخستان. كما لا تتفق أجديات هذه الدول بخلاف العرب. فإنهم بالرغم من شتات شملهم والشقاق الذي بينهم على الصعيد السياسي والدولي، ما زالوا يتكلمون بلغة واحدة، ويستخدمون أجدية واحدة.

وإذ نعود إلى موضوع النقشبندية، فإن هذه الطريقة أسسها الأتراك قبل سبعة قرون في مدينة بخارى، وهي عاصمة وطنهم القديم. ولا شك أنهم أسسوها لتكون نسخة أخرى للإسلام، ليميزوا بها عن العرب والفرس في عبادة الله. فاتخذوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه رمزاً لطريقتهم، كي يلمحوا بذلك أنهم على نقيض للفرس الشيعة، كما اتخذوا اللغة الفارسية كلغة العبادة في هذا الدين المختلق لفقير لغتهم وعدم اتصافها بالكفاءة اللازمة لاستقبال ما جاء به القرآن الكريم من مفاهيم عالمية. ووضعوا لهذا الدين آداباً ومبادئ تختلف تماماً عن أركان العبادة والدعاء في الإسلام، بغية أن يستقلوا بوجهة نظرهم إلى الإسلام بخلاف ما يفهمه العرب.

أما العقبة الثانية: التي يعانها الأتراك هو مفهوم الدين. ومع أن الإسلام دين عالمي لا يجوز أن يستغله شخص أو قوم ليتأجروا به أو ليطبعوه في أشكال خاصة، كما لم يفكر به العرب، - ولم يتمكنوا من ذلك لو أرادوا أن يحصروه في نطاق قوميتهم - إلا أنهم كانوا ولا يزالون أكثر فهماً لمعاني القرآن الكريم، ولا غرو أنه نزل بلغتهم. أما الأتراك وتباعهم من أقليات عجمية فإنهم لا يفهمونه إلا عن طريق الترجمة الكتابية أو بالاستماع إلى علمائهم. ولا شك أن لهاتين العقبتين تأثيراً عظيماً على أحاسيسهم، وإن لم يجهر به عامتهم. ولا يستبعد أن يكون في باطنهم ما قد يُثيرهم بدافع هذين

الأميرين حتى يتخلصوا من تأثير العرب بلغة قوية ودينٍ مُستقلٍّ دوغما ارتدادٍ عن الإسلام، ولكن مختلفٍ عن إسلام العرب!

لقد قام البرهان على هذه الحقيقة بصورة لا مجال للشك فيها، وذلك باعتراف رجلٍ يُعظمه ملايين الناس في تركيا اسمه فتح الله جولان، أدلى في مقالٍ له نُشر في صحيفة «الزمان» التركية، جاء فيه بالحرف الواحد: عَرَفَتِ الدُّنْيَا (أَيَّ البَشَرِيَّةِ): «إِسْلَامَ العَرَبِ والعَجَمِ، فَلَمَّ يَقَعَا مَوْقِعَ الإعْجَابِ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا سَتَتَعَرَّفُ عَلَى إِسْلَامِ الأَتْرَاكِ وَسَوْفَ يُعْجِبُهَا».³³

لا شك أيضاً أن الأتراك (ونعني بهم بقايا العثمانيين من أصحاب السيادة في تركيا اليوم) قد عملوا الكثير لتحرير لغتهم من قيود العربية والفارسية، ولكن لم يتمكنوا من ذلك. كما لم يتمكنوا من توفير أسباب الاستقرار لها. فإن ظهور الطُرق الصوفية هي في الواقع من نتائج هذه المنطلقات العصبية والعرقية، وانعكاساً لأغراضٍ قوميةٍ وعنصريةٍ. خاصة الطريقة النقشبندية، فإن في ثنايا آدابها ومعاملة أتباعها وانتمايهم أماراتٍ ومَعَالِمَ تُنبئُ عن حقيقة منطلقات هذه الطائفة وأغراضها العصبية القومية في صورٍ غير خافية على أهل البصيرة. وربما هي من أقدم أسبابها؛ وفي ذلك شواهدٌ عديدةٌ، حسبنا الاستدلال بواحد منها:

نقل عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني³⁴ بطريق الرواية عنمن تُنسب إليه الطريقة النقشبندية وهو محمد بهاء الدين البخاري³⁵. نقل أنه قال: «نمت ليلةً فرأيتُ الحكيمَ آتَا قَدَسَ سره. وكان من أكابر مشايخ التُّرك وهو يوصي بي درويشاً. فلما انتهتُ بقيتُ صورةً الدرويشِ في مخيلتي. وكانت لي جدةٌ صالحةٌ فقصصتُ عليها هذه الرؤيا، فقالت: سيكون لك يا ولدي من مشايخ التُّرك نصيبٌ»³⁶

إن هذه الكلمات، تُعبِّرُ عن حقيقة ما قد تبنت هذه الطريقة التركية عبر تاريخها بصورة ملخصة، وقد تحقق ذلك. وهو أن المجتمع التركي قد حدّد وجهة نظره في الإسلام منذ القديم بتفسيره الباطني المتمثل

33 النص التركي للترجمة أعلاه: Dünnya şimdiye dek Arap ve Acem Müslümanlığını tanıdı ve sevmeydi. Artık Türk Müslümanlığını tanıyacak ve sevecek.

مفتحين من صحيفة «الزمان» التركية الصادرة بتاريخ: 07/يناير/2005، الجمعة، الصفحة: 17؛ ضمن مقال للكاتب حسين كورتجا

34 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 310/2.

35 راجع ترجمته في الفصل الرابع.

36 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 129. القاهرة - 1308 هـ.

في تعاليم هذا المذهب الصوفي على وجه الخصوص وبموقفه العصبي (إلا من عصمه الله منهم، وقليل ما هم!).

* التَّغْيِرَاتُ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ *

إنه يُسْتَبَعَدُ أن تكون الطريقة النقشبندية قد اشتهرت بهذا الاسم في حياة محمد بهاء الدين البخاري الذي تُنسَبُ إليه الطريقة. لأنَّ الطرق الصوفية إنما تُدعى بأسماء مؤسسيها بعد موتهم عادةً. وهذا يُعْتَبَرُ من جملة الإشارات التي تُنبئ عن تغيّراتٍ عديدة طرأت على الطريقة النقشبندية، وتدلّ في الوقت ذاته على أنَّ الطرق الصوفية عامّةً والنقشبندية خاصّةً، لا تقوم آدابها وأركانها وطقوسها على نصوصٍ من الكتاب والسنة. بل وإن كانت لها أصولٌ ومبادئ، فإنّها في الحقيقة ليست إلا من صُنِعِ الرُّوحَانِيَّينَ الَّذِينَ استطاعوا أن يفرضوها على أتباعهم بحكم شهرتهم. ثم اقتنع بها المریدون والمفتنون ممن حولهم فاتخذوها مناسكاً لهم، وعملوا بها حتى ظنّ معشرٌ من رعاي الناس أنّها فرائضٌ أو سننٌ من صميم الدين.

ثم لم يلبث أن تولى رئاسة الطريقة رجالٌ روحانيون آخرون، زادوا على ما اختلقه السابقون من الآداب والشروط. فزادوا عليها تارة، وحذفوا منها تارة حين زينت لهم أنفسهم ذلك. وهكذا جرت عادتهم من القديم إلى اليوم. فكان لهذه الآداب أثرٌ كبيرٌ في نفوسِ المهجِ الملتقين حول شيوخ النقشبندية بما اثار في عواطفهم من الشوق إلى هذه الطريقة، ودفعتهم إلى بثِّ الدعاية لها، وجذب مزيدٍ من الناس إليها. فكلما استفاد الروحانيون من حصيلة ما ابتدعوه، ازدادوا بذلك حنكةً وتحققوا من أنّهم كلما أشغلوا العقول بتكثيف الطقوس والإكثار من الآداب ازدادوا هيبةً ومحبةً وشهرةً وذهبت صيئتهم. إلا أنّ محاولة تطویر الطريقة هكذا غيّرت مجراها من فترة إلى أخرى، وكسّتها لباساً جديداً حتى وصلت بها إلى ما هي عليها اليوم.

وجدير بالإشارة أنّه لا يتأتى ذلك إلا لمن يمتاز بالمهارة واللباقة في إقناع النفوس وبملك زمام الآلاف فيتمكّن من إلقاء هيئته ومحبته في قلوبهم، بحيث لا يجدون مساعاً ليتساءلوا عن حقيقة هذه المُخَدَّنَاتِ والبدع؛ وهل لها أساس من الدين أم لا؟ إذ أنّ لبعض شيوخ الطريقة فنوناً من الحيل يسحرون بها حتى

عقول العلماء، فضلاً عن الجهلاء؛ كما قد نجحوا في الاستيلاء على الشريف الجرجاني³⁷ بالرغم من باعه الطويل في العلوم، وكذلك ابن عابدين (فقيه بلاد الشام)، إلا أن هذه الصفة لا تشمل جميع شيوخ الصوفيّة. بل إن بعضاً آخر منهم لم يعرفوا الخدعة في حياتهم ولم يتصوّروها لحظة - ليس ذلك لِمَا فيهم من السمو الروحي والأخلاق العالية، والسلوك الرفيع، بل - لاستغراقهم فيما يسمونه «العشق الإلهي» وربما هي حالة من الجنون. لذلك من رآهم من الجهلة، أو من ذوي العاطفة، أعجب بهم، واغترّب بما هم فيه من الغياب والتشوّف، والعزلة عن الناس، والشعوذة، وإهمال أمور الدنيا. فظنّ المعجبون بهم أنّهم أولياء الله وخاصته، ووصفوهم بالعقّة والقناعة وعزّة النفس، فبالغوا في توقييرهم وتعظيمهم، حتّى أسندوا إليهم ما لم يكن فيهم من الفضائل والبركة والكرامة. كلّ ذلك من جهل الناس بمفهوم الزهد والتّقوى. أمّا في الحقيقة فليس لهما صلة بالعزلة من الناس، وإهمال أمور الدنيا، وحالات الجنون التي يصفها العامة بالاستغراق والعشق الإلهي. خاصّة فإن أكثر شيوخ الطريقة النقشبندية يتصفون بالطبيعة الجامدة، والصمت الطويل، والمسكنة والطأأة. تلك عادتهم تسري فيهم عبر الأجيال خلفاً عن سلف. لأنّ من أراد منهم أن يختار له خليفة من بين خاصته آثر منهم المتميّز بالصفات المذكورة. أمّا من كان على نقيض تلك الصفات فلا حظّ له من هذه الفرصة غالباً. وهذا ما قد أفضى إلى اغترار كثير من جهلة الناس بالمظاهر التقليدية للشيوخ النقشبندية. فهابوهم حتّى التّبست عليهم تلك الصورة الجامدة بالوقار والسكينة. كما التّبس عليهم الحق بالباطل لاستسلامهم لهذا التأثير، واقتناعهم بكلّ ما فرّع سمعهم من هفوات الشيوخ وخزعبلاتهم. وهذا ما زاد في جرأة الرّوحانيين حتّى تصرفوا في أمور طريقتهم بالذات، كما تصرفوا في تعاليم الإسلام بالتأويل والتحريف.

ومما يؤكّد أنّ الطريقة النقشبندية تعرّضت للعبث (- وكل ما فيها لون من ألوان العبث -، فزيدت فيها شعارات ومقولات وتفسيرات وتعدّدت فيها هرطقات وبدع ومستحدثات مع الزمان)؛ أنّها تسمت من برهة إلى أخرى بأسماء مختلفة كما يشهد على ذلك رجل من أكابر المتأخّرين لهذه الطريقة وهو محمّد بن عبد الله الخاني³⁸ مؤلّف كتاب «البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية». يقرّ المؤلّف بهذه الحقيقة مستندلاً بعبارة نقلها من كتاب «الحديقة النديّة في آداب الطريقة النقشبندية»

37 راجع ترجمته في معجم المؤلفين. عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 515/2.

38 المصدر السابق 460/3.

لمؤلفه محمد بن سليمان بن مراد بن عبد الرحمن العبيديّ البغداديّ³⁹ جاء في مستهلّ هذا المقطع: «اعلم أنّ ألقاب السلسلة تختلف باختلاف القرون... إلخ»⁴⁰ فبلغ ما ذكره المؤلفان من هذه الألقاب التي اختلفت عَبْرَ القرون إلى ثمانية أسماءٍ متباينةٍ وهي: الصّدِّيقيَّة، والطَّيْفوريَّة، والخُواجِجانيَّة، والنقشبندية، والأحراريَّة، والمجدديَّة، والمظهرية، والخالدية.

ومن اختلاق بعض الشيوخ في هذه الطريقة: أنهم أخذوا جملةً من المفاهيم والمعتقدات التي جعلت من هذه الطريقة ديناً مستقلاً عن الإسلام، وهي الرابطة، والختمة الخُواجِجانيَّة، وبدعة الدِّكر (مع حبس النَّفس)، وعدّ الأورادِ بِالْحَصَى وبإعدادٍ معينة، وملاحظة الصورة الفتوغرافية لشيخ الطريقة، والاتصال بموتى الروحانيين ما يسمونه «الأوسية»⁴¹ وبعض من آداب المريد مع شيخه عندهم⁴². وتصوّرات فلسفية استورثوها من الأديان السالفة، فقرروها شيئاً فشيئاً عَبْرَ القرون؛ كفكرة «وَحْدَةِ الوجود» و«وَحْدَةِ الشُّهُود» وَالْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ؛ وغيره كثير ومفصّل في كتبهم كما سيأتي شرح هذه الأمور وتحليلها في الفصول الآتية إن شاء الله.

كلّ ذلك، وضعوه لترسيخ هيبة الشيخ في نفوس الناس من المريدين وغيرهم، لتدلّ له رقابهم، وتخضع لعظمته قلوبهم؛ على أنّه ينوب عن الله في أرضه، ويتصرّف في ملكه وخلقه، حتّى أصبح كثير من الجهلة العوامّ لا يكادون يصدّقون أنّ الشيخ أيضاً يبول ويتغوّط ويمارس الجنس كأحد من الناس!

* المناطق التي انتشرت فيها الطريقة النقشبندية ودواعي انتشارها.

39 المصدر السابق 3/331

40 راجع المصادر الآتية:

* محمد بن عبد الله الحان، الهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 12. طبعة مصر - 1241 هـ.

* محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة الندية في الطريقة النقشبندية ص/ 22، 23. مكتبة الحقيقة، إسطنبول-1992.

* عباس الزاوي، مولانا خالد النقشبندي، مجلة الجمع العلمي الكردي، عدد 1. ص/ 709، 723، 725. بغداد - 1973.

41 راجع الفصل الثالث، باب الأوسية.

42 راجع الفصل الثاني، باب آداب المريد مع شيخه.

إنّ هذه الطريقة لم تحظَ باهتمامِ الناس من أيّ شعبٍ في أرض الإسلام بالقدر الذي نالت من الإقبال بين الأتراك. ولا عجب أنّهم مختلفوها ومؤيدوها منذ البداية إلى اليوم. فانتشرت في المناطق التي قام فيها حُكْمُهُمْ، واستحكم فيها سُلْطَانُهُمْ بعد انهيار الدولة العباسية وظهور السلاجقة الأتراك على مسرح التاريخ.

يقول الشيخ قسيم الكُفْرُويّ في رسالة أعدّها باللّغة التركيّة تحت عنوان «النقشبندية ظهورها وانتشارها»⁴³ وكان الشيخ قسيم هذا، من أعلام المُثَقِّفِينَ ومن أشهر مشايخ هذه الطائفة في تركيا. يقول في افتتاحية كتابه: «إنّ القدماء من شيوخ النقشبندية كانوا من أهالي تركستان وما وراء النهر. ولذلك تسرّبت عادات هذه المنطقة وتقاليدُها إلى الطريقة النقشبندية».

فإذا أنعمنا النظر في هذا المقال وجدنا فيه ثلاث نقايط هامةٍ وجديرة بالدراسة والتحليل.

النقطة الأولى: كون الطليعة من رجال هذه النحلة قد ظهوروا في منطقة تركستان وهو الموطن الأصليّ للأتراك.

والنقطة الثانية: أنّ الطريقة قد امتصّت الكثير من مخلفات الأديان والعادات والتقاليد المتبّعة في هذه المناطق عبْر القرون.

والنقطة الثالثة: أنّ الطريقة قد انتشرت في الوهلة الأولى على ساحة المنطقة نفسها بحكم ظهور مؤسّسها في تلك النواحي.

إذاً، نستطيع أن نقول إنّ الطريقة النقشبندية قد بدأت في توسّعها من الموطن الأصليّ للأتراك منذ أيام ظهورها. ثم انتشرت في كلّ ساحة قام عليها حكمهم بدايةً من بلاد ما وراء النهر، وخراسان، فمروراً بالمناطق الهندية. ثم بعد تقدّم السلاجقة إلى الأناضول لأوّل مرّة يمتّت الطريقة وجهها إلى هذه الأرض التي استقرّ الأتراك فيها وأقاموا عليها الدولة العثمانية بعد أن زالت دولة بني سلجوق.

جاء في بعض المصادر للباحثين الأتراك أنّ الشيخ عبد الله الإلهي هو الذي قام لأول مرة بنشر الطريقة النقشبندية في المملكة العثمانية ما بين 1481-1512م. وقام بمحاولة التأليف بين الطريقة النقشبندية والطريقة الملامية وعاش في عهد السلطان بايزيد الثاني بن السلطان محمد الفاتح، ثمّ تابعه حيدر بابا في نشر هذه الطريقة أيام السلطان سليمان القانوني. مع هذا يقول الدكتور رشاد أونگوران، «لقد كان من المعروف - إلى الآونة الأخيرة - أنّ الطريقة النقشبندية دخلت منطقة آناضول لأول مرة على يد مُلّا إلهي،⁴⁴ كما كان من المعروف أيضًا؛ أنّ أول تكيّة للنقشبنديين في هذه الساحة هي التي بُنيت في سيماء من ضواحي مدينة الكداهية؛ إلا أنّ حسين حسام الدين أفندي المعروف بعدي زاده قد سجّل في تاريخه أنّ أول تكيّة للنقشبنديين في البلاد العثمانية هي التي بُنيت في مدينة آماسيا عام 1404-1405م. باسم تكيّة محمود شلي؛ واحتلّ منصب المشيخة لأول مرة في هذه التكيّة الخواجه ركن الدين محمود البخاريّ الذي كان من خلفاء شاه نقشبند»⁴⁵

على الرغم من دقة أسلوب الباحث رشاد أونگوران، فقد وردت كلمات له يدّعي فيها ما يؤدّي إلى الشكّ من حقيقة كلّ ما جاء على لسانه حول الطريقة النقشبندية. وهذه كلماته:

«إنّ الطريقة النقشبندية التي أسّسها الشيخ بهاء الدين نقشبند، لها سلاسل، تتصل عن طريقها بأبي بكرٍ وعليٍّ»⁴⁶

يستند الدكتور رشاد في هذا الإدّعاء الجريء إلى أربعة مراجع من كتب المتأخّرين؛ وهي في حدّ ذاتها خالية من القيمة العلمية في مثل هذا الإسناد. وبالنسبة لمزعمة «سلسلة السادات»، فسند شرحها في بداية الفصل الرابع إنّ شاء الله تعالى.

ورد في «موسوعة إسطنبول»⁴⁷ - مادة النقشبندية - أنّ هذه الطريقة بدأت تدبّ في صفوف المجتمع العثمانيّ منذ أواخر عهد السلطان محمد الفاتح. واستقى كاتب هذه المادّة أكرم إيشن، من كتاب

44 هو خليفة عبد الله الأحرار. راجع ترجمة الأحرار في الفصل الرابع، الحلقة الثامنة عشرة من سلسلة الطريقة النقشبندية.

45 Dr. Reşat Öngören, XVI. Asırda Anadolu'da Tasavvuf: TDV. İSAM. TEZ 297.7 45

46 المصدر السابق ص/88.

Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi 47

اسمه: Otman Baba Velâyetnâmesi. وأفاد فيه أنه كانت للنقشبنديين في تلك المرحلة تكيئة بمدينة آق سَرَاي (وهي في أواسط آناضول على مقربةٍ من مدينة قونية)؛ ولكنه يعترف في الوقت ذاته بعدم أيّ معلومات تُدَكِّرُ النَّشَاطَاتِ الْأُولَى لِلطَّائِفَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ عَلَى السَّاحَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ.

كذلك ورد في نفس الموسوعة أنّ السلطان محمدًا الفاتح «إنما اهتمَّ بالنقشبنديين الذين كانوا يومئذٍ خارجَ مملكته، وتولَّى حِمَايَتَهُمْ، وقام بدعوة بعض مشاهيرهم من أمثال نور الدين عبد الرحمن الجامي وعبيد الله الأحرار، ليتمكن بذلك من الوقوف أمام تهديدات الشيعة الإيرانيين...» وَرَدَّعًا لانتشار عقائدهم بين السُّنَنِيِّينَ الْأَتْرَاكِ. كما يبدو موقفه السلبيُّ المحتقِرُ من الشيعة من تسميته ولده «با يزيد»، ذلك لِئُعِظَّهُمْ وَيَجْرَحَ مشاعرهم!

نفهم من عبارات الكاتب أكرم إيشن في هذه الموسوعة أنّ الطريقة النقشبندية لم تتجاوز حدود العاصمة العثمانية (إسطنبول) في مراحلها الأولى وحتى ظهور الخالدين. ومهما كانت، فإنَّ أَوَّلَ شيءٍ من آثار هذا التيار الصوفيّ بمدينة إسطنبول تعود إلى جهود عبد الله الإلهي وخلفائه الخمسة وهم: أحمد البُخَارِيّ، وعابد شلي، ولطف الله الأسكوي، وبدر الدين بابا، ومصلح الدين الطويل...

لقد استطاع مصلح الدين الطويل أن يُجَبِّبَ هذه الطريقة إلى السلطان أبي يزيد بن السلطان محمد الفاتح الَّذِي عُرِفَ فيما بعد بلقب «الصوفيّ أبي يزيد الوليّ»؛ وبذل عابد شلي جهوده في سبيل التأليف بين الطريقتين النقشبندية وَالْمَوْلَوِيَّةِ. إلاّ أنّ ترسيخ دعائم الطريقة النقشبندية الأحرارية بمدينة إسطنبول في تلك المرحلة إنما تحقّق بجهود أحمد البُخَارِيّ الَّذِي يُعْتَبَرُ من أبرز خلفاء عبد الله الإلهي. وهو أصلاً زميله ورفيقه الَّذِي سافر معه إلى سمرقند وانخرط في سلك هذه الفرقة معه؛ ولكن يبدو أنّ عبید الله الأحرار قد أخضعه لأوامر عبد الله الإلهي عندما كلّفهما بنشر طريقتيه في إسطنبول. فلما عزم عبد الله الإلهي على السفر إلى المناطق الغربية من المملكة العثمانية لنشر الطريقة استخلفه في إسطنبول.

دخلت الطريقة النقشبندية في لباس جديد وتحت اسم «المجددية» إلى إسطنبول بدلالة رجل مشلول الساقين اسمه مراد بن علي بن داود الأُرْبُكِيّ؛ كان من خلفاء معصوم الفاروقي. على الرغم من الشلل

الذي كان قد أصابه منذ طفولته قام برحلاتٍ طويلةٍ وطاف أهمّ العواصم من البلاد الإسلاميّة، ثمّ مات في إسطنبول عام 1720 من الميلاد.

أمّا دواعي انتشار هذه الطريقة؛ فهي أمورٌ مثيرةٌ للاستغراب جدًّا؛ فمن أهمّها، أنّ هذه النحلة تتميّز من سائر الفرق الصوفيّة بآدابها وأركانها وطقوسها التي قلّ من يملك نفسه من مواليتها بعد ممارستها لهذه الآداب. لأنّها تبعث في قلب المبتدئ شوقًا لا حدّ له، خاصّة إذا كان قليل الثقافة، عاطفيًّا، ضعيف المنطق، متخلّف العقليّة، أو يعاني مشكلةً؛ كما إذا كان مهجورًا، أو من مُدمني الكحول والمخدّرات، أو أصابته نكبة؛ سرعان ما ينجذب إلى هذه الطريقة ويجد في رحابها ما يسّليه ويخفف من كربه وآلامه. فينخرط في سلكهم. ومنهم من تأخذه الحيرة والإعجاب، فينبهر بما يشهد من توفير المرّيين وإجلالهم لشيخ الطائفة وتفانيهم في سبيله واستعدادهم الأكيد لتحقيق أوامره بأدنى إشارة منه، فيتابع أنفاسه عندما يقابل شيخ الجماعة وهو يُقبَلُ في هيئته الخاصّة ومظهره «التورائيّ السّاحر»، كأنّه يهبط من السماء بأجنحةٍ من النور الأخضر يتلألأ في موكب من الملائكة، فيتجلّى في صورة لطيفة شعشعائيّة مُقدّسةٍ لكلّ واحدٍ من جمهور أولئك الحاقين من حوله» المفتنين به من فقراء العلم والمعرفة الحياري،

لذا، لم ينضم إلى هذه الطائفة أحد من أصحاب الشخصية الهزيلة والرأي الضعيف، إلا ورضي بالخضوع والعبودية والتذلّل والفناء لشيوخها. فلا يكاد ذهنه يخلو من تصوّره ولا قلبه من محبّتهم، ولا لسانه من ذكرهم، فينبهر لعظمتهم الموهومة عقله حتّى يراهم في درجة الأنبياء والمرسلين ويُقسِمُ بِهَمَّتِهِمْ، ويقشعرّ جلده عند ذكر أسمائهم مع يقينه الكامل بهم أنّهم ينوبون عن الله في أرضه ويتصرّفون في ملكه وخلقه. تعالى ربّنا عما يصفه الفاسقون.

ومن أسباب انتشارها، جهلُ عامّة الأتراك ومن يليهم من الأكراد، وحثالة العرب الذين يقطنون في المنطقة الجنوبيّة من تركيا. جهلهم بلغة القرآن، وجهلهم بحقيقة التوحيد ومخاطر الشرك.

ومن أسباب انتشارها، العصبية القومية التي تتمثل في احتقار كل ما يمتُّ إلى العرب بصلةٍ من عادةٍ أو مظهرٍ أو اتجاهٍ؛ كنتيجةٍ للدعايات الكثيرة الهدامة التي قام ولا يزال يقوم بها يهود سالونيك منذ مائة وخمسين عامًا، مما شجّع كثيرًا من رجال السياسة والمنتقنين على إثارة تتركب الدين الإسلامي بين الفينة والأخرى، وتضليل الناس بأنّ الإسلام الذي تدين به الأكرية السنية إنما هو دينٌ عربيٌّ بحتٌ، لا يفهمه ولا يطمئن إليه أبناء الشعب التركي⁴⁸.

إنّ هذه المؤامرات الخطيرة في الحقيقة وإن لم تكن للنقشبنديين بها علاقة مباشرة، ولكن الذين يبذلون جهودهم في حياكتها، يستغلون هذه الطائفة دائمًا في اكتساب القوة والهيمنة لتوجيه الشعب وترويضه على سبل المروق، وسلخه عن الإسلام تمامًا.

ولا يخفى أنّ عددًا كبيرًا من الشخصيات السياسية ورؤساء الأحزاب، يستعرضون مكرهم في مواسم الانتخابات لاستمالة مشائخ الطريقة النقشبندية كي ينالوا مساعدتهم وتأييدهم في اغتصاب الحكم واحتلال المناصب؛ وليتمكّنوا بذلك من توجيه الشعب وترويضه واستخدامه ضدّ الإسلام والمسلمين. لأنّهم لا يجدون لتحقيق أهدافهم ما يحتاجون إليه من مالٍ ورجالٍ إلا عند شيوخ الطريقة النقشبندية. ولهذا يعملون على إشاعة صيتٍ من يمكن التعاون معه من هؤلاء الشيوخ. ولا يتكلّف الجانبان من ثمن هذا التعاون، سوى ما ينفقه السياسيون في سبيل الدعاية للشيخ، فيتواطأ معهم عدد من رجال العمل الأثرياء، يُذيعون شهرته في المجالس والمحافل بوسائل مختلفة. ويستخدمون في هذه الحملة بلعائهم من رجال الخطابة والكتابة. فما يلبث حتى تزدهم القوافل في الطرق المؤدية إلى تكيته وتلتفّ الساق بالساق في سباق التبرك بتقبيل «اليد المباركة الناعمة التي لا عظم فيها» - على حدّ زعمهم -.

فبحكم الطبع، لا يزور أحد من العوامّ شيخًا في تلك الزحمة التي يرى فيها آفاقًا يتلهف كل واحد منهم ليمسّ يده بشفتيه إلا علقت به نفسه، ونزعت إليه عواطفه، وامتلأ بمحبته قلبه، فكاد أن يسجد له لولا مخافة مقتٍ يُصيبه.

يرجع السبب في ذلك إلى ما ذكرنا آنفاً من المظاهر الخلابة الجذابة التي يتراءى الشيخ فيها للناس من اللباس والحشم والجماهير الملتفة حوله بالإضافة إلى ما يفعله من طأطأة الرأس وقلة الكلام، والزهد المتصنع وكثرة العبادة والآداب التي يفرضها على المرید.

فقد انتبه سلاطين الأتراك، ورجال السياسة منهم خاصة في المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني أن الطريقة النقشبندية تتصف بسحر وجاذبية في جلب قلوب الناس وتسخيرهم. ولهذا قد اهتم خلفاء بني عثمان بمشائخ هذه الطائفة بداية من السلطان محمود الثاني. وقد تابعهم في هذه السياسة رجال السلطة اليهودية أيضاً في العهد الجمهوري. فأدى هذا الاهتمام إلى انتشار الطريقة على ساحات شاسعة من البلاد.

وإذا مرّت بهذه الطريقة فترات زادت في بعضها نشاطاً وانتشاراً وفي بعضها انحطاطاً وتقلصاً فقد بسطت سلطانها اليوم على أرض تركيا وهي تستغل جهل الناس وحرص رجال السياسة، كما تهدد العقيدة الحقّة، والقلة المؤمنة من أبناء هذه الديار.

الفصل الثاني

* آداب الطريقة النقشبندية، ومصايرها، وميزاتها.

- * البيعة وآداب المشيخة، وآداب المرید مع شيخه عند النقشبنديين، والغاية منها.....
- * آداب الذكر عندهم.....
- * الذكر بلسان القلب.....
- * الرابطة.....
- * شروط الرابطة وصورة أدائها.....
- * أول من أحدث الرابطة.....
- * الغاية من الرابطة.....
- * عقوبة المخلّ بآداب الرابطة.....
- * أسلوبهم وطريقة استدلالهم في إثبات الرابطة، ومقالاتهم في الدفاع عنها، وما قيل في ردها.....
- * من أهم ما كتب في مسألة الرابطة.....
- * من آدابهم: الذكر على أساس اللطائف الخمس.....
- * الحلقة السريّة التي تُسمّى عندهم «ختم خواجهكان».....
- * المصطلحات الفارسيّة في الطريقة النقشبندية وأسرارها.....



* مبادئ الطريقة النقشبندية بالفارسيّة، وهي أحد عشر مبداءً

1. هُوشِ دَرْدَمِ.....
2. نَظَرُ بَرِ قَدَمِ.....
3. سَفَرِ دَرُوطَنِ.....
4. خَلَوْتُ دَرِ اَنْجَمَنِ.....
5. يَادُ كَرْدُ.....
6. بَارِ كَشْتِ.....
7. نِگَاهِ دَاشْتِ.....
8. يَادُ دَاشْتِ.....
9. وُقُوفِ رَمَانِي.....
10. وُقُوفِ عَدَدِي.....
11. وُقُوفِ قَلْبِي.....



الفصل الثاني

* آدابُ الطريقةِ النقشبندية، ومصادِرُها، وميَزاتُها.

طَرَأَتْ عَلَى هذه الطريقةِ تَغْيِراتٌ واستمرَّت فيها الاستحالةُ خلالَ القرونِ السبعةِ الماضيةِ، فزِيدَ فيها وُحِدَ منها ما لم يعرفه الأولون من أمورٍ سُمّوها آدابًا وأركانًا على حساب الإسلام. وقد أَلْعَوْا بعضَ ما أقرّه أسلافُهُمْ. وهذا من طبيعة التصوف الذي انبثقت منه سائرُ المنظّماتِ الباطنيّةِ، والمذاهبِ الغاليةِ، والجماعاتِ الإباحيةِ والتنظيماتِ الإرهابيةِ، وفرخت زنادقةً أرادوا هدم الإسلام وإثارة الفتن بين صفوف المسلمين.

اتَّخَذَتِ الطريقةُ النقشبنديةُ اللّغةَ الفارسيّةَ كأداةٍ للدّعاء والعبادة؛ ولا غرابة في ذلك. إذ أنّ قداماء الأتراك كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر وهي مجاورة للمنطقة الإيرانية التي تحول بينها وبين بلاد العرب، فتأثروا بثقافة الفرس وحضارتهم تأثراً بالغاً لأسباب عدّة:

منها، أنّ الفُرسَ كانوا قد أسلموا قبلهم؛ ومنها أنّ الشعبَ الفارسيّ يمتاز بحضارة عريقة، بينما الأتراك لم تكن لهم ثقافةٌ ولا حضارةٌ تُوحّدُ صفوفهم، وتجمع كلمتهم، وهم قوم لا أبجدية له، بل كانوا قبائل متفرقةً بدويّةً تنتقل من مكان إلى مكان آخر تبعاً للظروف المناخيّة، يعيشون تحت خيامٍ من لبادٍ، ويتتبعون المراعي لأنعامهم. كانت قبائل الأتراك في القرون الوسطى متميزةً جدّاً، لا تجمعهم لغةٌ واحدةٌ ولا دينٌ واحدٌ، ولذلك كانوا أسوأ حالاً من عرب الجاهليّة في النزاع والقتال. ولقد كانت الحروبُ سجلاً بينهم حتى بعد إسلامهم. فلمّا اعتنقوا الإسلام تأثروا فوراً بالثقافة الفارسيّة وحضارتها بحكم الجوار بعد أن جمع الإسلام بين صفوفهم وجعل منهم مجتمعاً قوياً. غلبت بذلك اللّغةُ الفارسيّةُ على لغتهم الأصليّة حتى صارت هي اللّغةُ الرسميّةُ للدولة السلجوقية التركيّة⁴⁹

49 يقول الأستاذ العلامة الدكتور فؤاد كوبرولو: «إنّ الأتراك قد أخذوا الكثير من تعاليم الإسلام بواسطة أعجام الفرس، وليس من العرب مباشرة». وهذا نص كلامه باللّغة التركيّة:

Türkler, İslâmiyetin birçok unsurlarını doğrudan doğruya Araplardan değil, Acemler vasıtasıyla aldılar. Türk Edebiyatında İlk Mutasavvıflar, Edition 8.Pg. 21.
Department of Religius Affairs, Ankara-1993.

ولاهية ما في هذا النص فقد نقله الباحث عمر دمرجان نقلاً حرفياً إلى ثانياً كتابه الذي ألفه حول دراسة اللغات الأجنبية في تركيا تحت عنوان: Dünden Bugüne Türkiye'de Yabancı Dil.

فقد ورد في كتب رجال النقشبندية ما يبرهن على إقرارهم هذه اللغة. منها ما جاء في كتاب «البهجة السنية» لمؤلفه محمد بن عبد الله الخاني. إذ يقول في أوّل مقاطعه : «وأكثر كلام أهل الطريقة معرّب من اللغة الفارسية». ⁵⁰ بينما لغة الإسلام هي العربية بقريظة كونها لغة القرآن قال الله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} ⁵¹ وقال تعالى: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} ⁵² وقال تعالى: {كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا} ⁵³

هذا، وفي كتاب الله آيات أخرى تبرهن على أنّ لغة الإسلام هي العربية. كما يجب على أهل العلم وضع مصطلحاتهم باللغة العربية في كلّ مجالات الحياة المختلفة، وخاصةً ما يمتّ لمسائل الدين بوشيجة. وهي لغة الرسول صلى الله عليه وسلم في الوقت ذاته. {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} ⁵⁴

ومع هذا، فإن قدماء النقشبندية قد اصطاحوا لمناسكهم أسماء غريبة كما سنشرحها فريباً إن شاء الله تعالى؛ تلك الأسماء التي وضعوها على غير سبيل المؤمنين اختلاقاً من تلقاء أنفسهم ونزعةً وحناناً واشتياًفاً إلى ما كان عليه أسلافهم قبل الإسلام؛ وربما تقليداً لمن كانوا يجاورونهم من رهبان البرهمية، إعجاباً بخشوعهم في ذكر الله. لأن رهبان البرهمية يضربون مثلاً عجيباً من الخشوع أثناء الدّكر كما أنّهم أزهد الناس في الدنيا وأقلهم طمعاً وأطولهم صبراً على الجوع والرياضات الشاقة المنصوصة في الديانة البرهمية.

إنّ للطريقة النقشبندية آداباً غريبة وأركاناً عجيبة يختلط فيها الحق بالباطل، ويلتبس فيها المعاني على الغافل والجاهل، بل على العالم والعامل، ولا يُدرِك مقاصدها ولا مصادرها إلا من وفقه الله للهداية والإيمان الصادق ورزقه المعرفة بكنهه المستنقعات التي استقى منها أئمة هذه الطريقة.

50 محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 3. طبعة مصر - 1241هـ.

51 سورة الشعراء/193، 194، 195.

52 سورة النحل/103.

53 سورة طه/113.

54 سورة النساء/115.

أما هذه الآداب، فإنها تنحصر في ثلاثة أبواب رئيسة: آداب المشيخة، وآداب المريد مع شيخه، وآداب الذِّكْرِ. إلا أنهم يشترطون البيعة قبل كل شيء. وهي الركن الأعظم عندهم.

* البيعة، وآداب المشيخة، وآداب المريد مع شيخه عند النقشبندية، والغاية منها.

البيعة أو المبايعه. معناها: المعاقدة والمعاهدة. فيرونها شرطاً لا مناص منه لمن يريد الدخول في الطريقة. وبذلك يكون المريد قد أعطى ميثاقاً غليظاً للشيخ الذي اتَّخذه مرشداً لنفسه فيلتزم القيام بعده بكل ما يأمره به شَيْخُهُ أَنْ يَفْعَلَ، وإن كان حراماً.⁵⁵

ومن الغريب إنَّه لا يقتصر هذا الشرط على مريد الطريقة فحسب. بل يجب على كلِّ أحدٍ أن يبايع شيخاً، ويستسلم له تماماً. «لأنَّ العبد، بينه وبين ربه حجاب يمنع من الاستفاضة» (حسب اعتقادهم). يقول محمد أمين الكردي الأربلي في هذه المسألة: «فالشَّيخ العارف الواصل وسيلة المريد إلى الله، وبابُهُ الَّذِي يدخل منه على الله. فمن لا شيخ له يرشده فمرشده الشيطان»⁵⁶

55 للإطلاع على أوقافهم في موضوع انقياد المريد للشيخ بصورة مطلقة، راجع المصادر الآتية:

* محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة عالم الغيوب ص/ 528. طبعة مصر - 1384 هـ.

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الحائري، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص/ 20. مكتبة الحقيقة. إسطنبول - 1992م.

* غلام علي عبد الله الدهلوي، مكاتيب شريفة: المکتوب السادس عشر، ص/ 33. مكتبة الحقيقة. إسطنبول - 1992م.

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ 20 مخطوطة دمشق - 1213 هـ.

56 راجع موضوع ضرورة الانساب إلى شيخ من شيوخ الطريقة في اعتقاد النقشبنديين ضمن المصادر التالية:

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ 26 مخطوطة دمشق - 1213 هـ.

* أحمد القاضي، رسالة في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 36. مخطوطة 1249 هـ.

* محمد بن سليمان البغدادي، الحقيقة الندية ص/ 39. مخطوطة بغداد/ 1234 هـ. مستسخة من قبل مكتبة الحقيقة. إسطنبول-1992م.

* أحمد ضياء الدين الجُمُوشخانوي، جامع الأصول ص/ 61، 116. ط. 1276 هـ.

* محمد بن عبد الله الحائري، اللهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 4 طبعة مصر - 1319 هـ.

* محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة عالم الغيوب ص/ 525. طبعة مصر - 1384 هـ.

* أحمد الفاروقي السرهندي، المنتخبات، المکتوب رقم/61

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الحائري، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص/ 12. مكتبة الحقيقة. إسطنبول - 1992م.

* علي قدری، الرسالة البهائية (ترجمة: رحى سرين) ص/ 133 إسطنبول-1994م.

* A. Faruk Meyan, Şah-ı Nakşibend. Pg. 35 Çile Publishing İstanbul-1970

ومعنى هذا؛ أن كلّ من لم ينخرط في سلوكهم ولم يستسلم لشيخ من مشائخهم فهو تابع للشيطان. أي إنّه ضالّ ومضلّ، كما يعدّون خروج المرید من عهد الشيخ خروجًا من الإسلام.

فهذا رأيهم في جميع المسلمين وإن كذبوا ذلك ودافعوا بأنّ غرضهم هو أنّ الإنسان لا محالة يحتاج إلى من يعلمه الضروريات من الدين والدنيا حتّى يتبيّن له الحقّ من الباطل وليميّز بين الحلال والحرام فيعمل المعروف ويجتنب المنكر. فإنّ دفاعهم بمثل هذا الأسلوب لا يطابق ما يقصدونه من مفهوم البيعة. وأمّا المرشد عندهم في الحقيقة ليس هو الأستاذ الذي يعلمُ الفقه والعقيدة والفنون ويهدّب الأخلاق. بل إنّما هو -على حد قولهم- «العارف بالله والواصل إلى الله». وما أكثر وصفهم لشيخوخهم بهذه الكلمات. مع أنّه لم يرد في الكتاب ولا في سنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم ما يفيد أنّ العبد مأمور ومكلّف بمعرفة الله، أو يمكنه أو يجوز أن يعرف الله حق معرفته، أو يصل إليه وصولاً في منتهى الغاية. بل قال الله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَبْرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} ⁵⁷ إذاً فإن معرفة الإنسان تنحصر في حدود رؤيته لآيات الله دون أن تتجاوز إلى ذات الله سبحانه. كما أنّ وصول الإنسان إليه محال. تعالى ربّنا عن ذلك علوّاً كبيراً. وإنّما الإنسان مأمور ومكلّف بعبادة الله تعالى كما قال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} ⁵⁸

مع هذا البيان الواضح بشهادة آيات الله، فإنّ عامّة الصوفيّة بما فيهم النقشبنديّون، يعتقدون «المعرفة بالله» أمرًا جائزًا للإنسان، وأنه بإمكان العبد أن يتعرّف إلى ذات الله؛ فيشترطون لذلك أمورًا يمارسه المرید بعد أن يبائع شيئًا ويأخذ منه الميثاق الذي سموه «البيعة».

أمّا مسألة البيعة، فإنّها من أهمّ مسائل الفقه الإسلاميّ تتعلّق بنصب إمامٍ للمسلمين، متّصفٍ بالإسلام والعقل والذكورة والبلوغ والشجاعة والكفاءة وسلامة الأعضاء؛ يقوم بمصالحهم وتنظيم أمورهم، وبإقامة العدل وتنفيذ الأحكام بإنصاف المظلومين، والدفاع عن أرض الإسلام وعرض المسلمين بميثاق يتعهدون على أساسه أن يُطيعوه في حكمه ويناصروه في دفاعه تطبيقًا لما جاء في

57 سورة النمل 93.

58 سورة الذاريات 56.

كلامه تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }⁵⁹

أما النقشبندية فقد تأولوا هذا المفهوم بما يتعارض والنصوص القرآنية. فقد جعلوا منها ميثاقاً يتعاقد على أساسه مريد الطريقة مع شيخ الطائفة على أن يقوم بكل ما يأمره ولو كان حراماً.

ويأتي على رأس مَنْ عبثوا بمفهوم البيعة رجلٌ هنديُّ اسمه أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين. فقد بالغت الصوفية في تفخيم هذا الروحاني الهندي حتى لقبوه بشاه ولي الله الدهلوي. يقول في ثنايا كتاب له، سمّاه: القول الجميل في بيان سواء السبيل:

«فالحق أن البيعة أقسام: منها بيعة الخلفاء، ومنها بيعة التمسك بجبل التقوى، ومنها بيعة الهجرة والجهاد، ومنها بيعة التوثق في الجهاد. وكانت بيعة الإسلام متروكة في زمن الخلفاء. أما في زمن الرّاشدين منهم، فلأن دخول الناس في الإسلام في أيامهم كان غالباً بالقهر والسيف، لا بالتأليف وإظهار البرهان ولا طوعاً ولا رغبةً. وأما في غيرهم، فلأنهم كانوا في الأكثر ظلمة فسقة لا يهتمون بإقامة السنن. وكذلك بيعة التمسك بجبل التقوى كانت متروكة. أما في زمن الخلفاء الرّاشدين، فلكثرة الصحابة الذين استناروا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم وتأدّبوا في حضرته، فكانوا لا يحتاجون إلى بيعة الخلفاء...»⁶⁰

يتخذ الدهلوي سبيل الدخول في مسألة البيعة سرياً ومكراً من خلال هذه الصيغة الملتوية المارحة، ويؤاوغ بهذه العففة ليختلق صلةً بين ما صدر من الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين ما يأمر به شيوخ النقشبندية من تعاليم البوذية والبرهمية؛ ثم يتناسى أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إنما كان أصحابه يُبايعونه ليتولّى أمورهم، وخاصةً ليجندهم بصفتهم رئيساً يمتاز بشخصيته السياسيّة والعسكريّة والروحيّة. وأين هذه الصفات للشيوخ النقشبندية؟ فهل يُتصور لعقل أن يقارن بين هذه الشخصية العالمية العظيمة وبين أيّ شيخٍ من شيوخ النقشبندية الخاملين المعزولين البعيدين عن كلّ مجالات الحياة ونشاطاتها. وهل لهؤلاء المساكين سلطةً سياسيّة، وقوةً

59 سورة النساء/59.

60 أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين (شاه عبد الله الدهلوي)، القول الجميل في بيان سواء السبيل: قونية - 2001. الإصدار: 251 76 22 (0332)

يستخدمونها في تنفيذ الأحكام، وإنصاف المظلومين حتى يجوز مبايعتهم؟ وهل استطاع أحد منهم حتى اليوم أن يمنع الكفار والمنافقين من الظلم والقهر والقتل والإبادة ضد المسلمين؟!!! تُرى مَنْ يكون هؤلاء الشيوخ، وَمَنْ يَعْتَدُّ بهم حتى يبايعهم الناسُ فيولّوهم أمورهم؟!!

فإنّ الدهلويّ يتعمّد فيما سبق من كلماته ليدسّ في مفهوم البيعة ما لا يمتُّ به صلةً أبداً، وأبعد من ذلك فإنه يكتّم حقيقةً عظيمةً أجمع عليها علماء التاريخ: وهي انعقاد مبايعة جمهور الصحابة للخلفاء الراشدين. نعم لم يتولَّ أحدُهم أمر المسلمين إلّا بعد مبايعة جمهور الصحابة له (وإن تأخرت عنها جماعة منهم لأسباب). إذاً فقد جاء الدهلويّ بكذبٍ ظاهرٍ بشهادة البراهين التاريخية حين قال: «فلكثر الصحابة الذين استناروا بصحبة النبيّ صلى الله عليه وسلّم وتأدّبوا في حضرته، فكانوا لا يحتاجون إلى بيعة الخلفاء.»⁶¹

لقد أفرد محمّد أمين الكرديّ الأربليّ باباً في كتابه «تنوير القلوب» يشتمل على اثنين وعشرين شرطاً يجب أن تتوفر فيمن يتصدّر لأخذ العهد على المريدين وقبولهم في الطريقة النقشبندية. ومن هذه الشروط ما ينسجم مع روح الإسلام ويقع موقع القبول عند المسلمين. كقوله في الشرط الأول «أن يكون عالماً بما يحتاج إليه المريدون من الفقه والعقائد بقدر ما يزيل الشبه التي تعرض للمريد في البداية ليستغنى به عن سؤال غيره»⁶²

ولعلّ كثيراً من الناس يقتنعون بمثل هذا المقال الذي لا تخلو عبارات شيوخ هذه الطريقة منها؛ يقيناً بأنّ غايتهم لا تتجاوز إجماع أهل العلم والبصيرة في حاجة الإنسان إلى مَنْ يُعَلِّمُهُ وَيَدْرِبُهُ وَيَهْدِيهِ بالطرق المتعارف عليها. إلا أنّك إذا تابعت كلماتهم واستقصيت ما ينطوي عليه بعض المقاطع من عباراتهم، ظهرت لك حقيقة ما يقصدون من وراء ذلك مما قد سنّها لهم بعض كُبرائهم الذين وقعت عظمتهم في قلوب العامة حتى أذعنت لهم، بحيث لم يشك أحد في صدقهم وأمانتهم وورعهم وعلو مكانتهم عند الله رجماً بالغيب؛ فاتّبعهم الخلف من شيوخ هذه الطريقة تقليداً صرفاً. وأقوى دليل على

61 وقد تكون العبارات التي نقلناها آتياً من الكتاب المسمّى (القول الجميل في بيان سواء السبيل)، موضوعة على لسان مؤلّفه، وكذباً وزوراً عليه. لأنّ هذا الكتاب قد تعرّض لتخريف شنيع، خاصّة في طبعه الذي تولاها بعض الأتراك في مدينة قزوين الزنكية بعنوان (الفكر الإسلامي عند الإمام وليّ الله الدهلويّ وما ابتكره من العمل النموذجي). وقد قرّبت الناشر عن تسجيل اسمه واسم المطبعة ودار النشر في الكتاب. وأتماّ ظهرت لنا حقيقة هذا التخريف حين فُجئتنا بخلاف مقاطع هامّة من كلام الدهلويّ في الرابطة. (لمزيد من المعرفة حول هذا التخريف، راجع المبحث: خالد البغداديّ ومعارضوه)

62 محمّد أمين الكرديّ الأربليّ، تنوير القلوب في معاملة عالم العيوب، ص/ 506. طبعة مصر - 1384 هـ.

هذا الواقع الخطير قول المؤلف وهو يشرح الشرط الرابع عشر من آداب المشيخة - وهذا نصه: «يجب عليه أن يمنع المريدين عن التكلم مع غير إخوانهم إلا لضرورة»⁶³

والغرض من قوله «غير إخوانهم» هم الذين ليسوا من أتباعه؛ سواء أكانوا من المنتسبين إلى غيره من مشائخ الطرق الصوفية أم كانوا ممن لم يدخلوا في سلك الطريقة أصلاً.

ومن أين لشيخ الطريقة أن يفرض سلطانه على جماعة من الناس فيستبد بها، فيتحكّم في إرادة أفرادها ويحرّمهم من الحديث مع غيرهم؟ من أين له هذا التحكّم أو الوصاية؟ وما حجته في ذلك من الكتاب والسنة؟ وأين هذا الكلام من قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}⁶⁴ فهل من مقتضى الإصلاح أن يمنع شيخ الطريقة أتباعه من التكلم مع من ليس من جماعته من المسلمين، أم إنه من دواعي الشقاق وتفريق ذات بين المسلمين؟ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»⁶⁵ فهل يمكن ذلك إذا منع شيخ الطريقة أتباعه من مجالسة الناس ومعاشرتهم، بل وحتى من التكلم معهم؟ إذاً فما السبيل لقيام الناس بالتعاون فيما بينهم امتثالاً لقوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}⁶⁶ إذا منع كل شيخ جماعته من التكلم مع غير إخوانهم؟

يظهر من كل هذا: أنّ شيوخ الطريقة النقشبندية قد ألغوا المؤاخاة التي عقدها الله بين المؤمنين فضربوها بعرض الحائط بإقرار محمد أمين الكردي عليهم: بأنّه يجب على شيخ الطريقة أن يمنع المريدين من التكلم مع غير إخوانهم. وهذا يعني، أنّ جماعة كل شيخ إخوة فيما بينهم؛ أمّا من سواهم، فأنهم أجناب ورثمة أعداء!

63 المصدر السابق ص/ 526.

64 سورة الحجرات/10.

65 البخاري، رقم الحديث: 5552؛ مسلم، رقم الحديث: 4686

66 سورة المائدة/2.

يتابع الكرديّ مقالته في سرد شروط المشيخة، فيقول في الشرط الرابع عشر: «أن يجعل له خلوة ينفرد بها وحده، ولا يمكن أحدًا من مريديه أن يدخلها إلا من كان خصيصًا عنده»⁶⁷ يقول في الشرط السادس عشر: «أن لا يمكن مريدًا من أن يطلع على حركة من حركاته أصلاً، ولا يعرف له سرًا، ولا يقف له على نوم ولا طعام ولا شراب ولا غير ذلك. فإن المريد إذا وقف على شيء من ذلك ربما نقصت عنده حرمة الشيخ»⁶⁸

إذًا يتضح من هذه التوجيهات أنّ الغاية من وراء ما يُضمّره شيوخ النقشبندية بهذه الآداب، ليس إلا إلقاء الهيبة في نفوس الجمهور وتسخير قلوبهم، وليشتغل الناس بذكرهم، ولتخضع وتذلّ الرقاب لعظمتهم. وليس أدلّ على هذا، ما جاء في فصل آداب المريد مع شيخه من كلام المؤلف نفسه إذ يقول:

«واقصرنا على بعض المهمّات، وأعظمها أن يُوقّر المريد شيخه، ويعظّمه ظاهرًا وباطنًا معتقدًا أنّه لا يحصل مقصوده إلا على يده. وإذا تشتت نظره إلى شيخ آخر، حرّمه من شيخه، وانسدّ عليه الفيض. ومنها أن يكون مستسلمًا منقادًا راضيًا بتصرفات الشيخ، يخدمه بالمال والبدن. لأنّ جوهر الإرادة والحبّة لا يتبيّن إلا بهذا الطريق. ووزن الصدق والإخلاص لا يعلم إلا بهذا الميزان. ومنها أن لا يعترض عليه فيما فعله، ولو كان ظاهره حرامًا. ولا يقول: لم فعلت كذا؟ لأنّ من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح أبدًا... إلخ»⁶⁹

ثم يسجّل المؤلف نقلًا عن بعضهم شعرًا في هذا الصدد، ومطلعه:

«وكن عنده كالميت عند مغسل* يقلّبه ما شاء وهو مطاوع»⁷⁰

67 محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة عالم الغيوب، ص/ 506، 526. طبعة مصر/1384هـ. طبعة مصر/1384هـ.

68 المصدر السابق ص/ 526. لمزيد من المعرفة حول أقوالهم في آداب المشيخة، راجع المصادر التالية:

* محمد بن عبد الله الحانّي، اللهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 28. طبعة مصر - 1319هـ.

* محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة عالم الغيوب، ص/ 524. طبعة مصر/1384هـ. طبعة مصر/1384هـ.

* عبد الحميد بن محمد بن محمد الحانّي، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص/ 9. مكتبة الحقيقة، إسطنبول - 1992م.

* علي قدرّي، الرسالة الهانوية (ترجمة: رجمي سرين) ص/ 13. إسطنبول-1994م.

* Dr. İrfan Gündüz, Ahmed Ziyaüddin Gümüshanevi. Pg. 237-246 İstanbul-1984

69 محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة عالم الغيوب، ص/ 528. طبعة مصر/1384هـ. طبعة مصر/1384هـ.

70 المصدر السابق ص/ 528.

نعم هكذا ينصح شيوخ الطريقة النقشبندية. وبهذا الإقرار والاعتراف يتبين أن موقفهم من المريد ليس كموقف الأستاذ المعلم من تلميذه. إذ يبذل الأستاذ للطالب من حصيلة علمه، ويلقنه القواعد، ويشرح له ما يخفى عليه من غريب الموضوع لدروسه، ويسلط له من دقائق مسائلها. ويقوم بحلّ عويصاتها وهو لا يألو جهداً في الإجابة على سؤاله، ويتحمّل المشقة حرصاً منه على تعليمه وتأديبه وتهذيبه ليحلّ محله في إرشاد الناس، ولينطلق بإرادته الحرّة في وجوه الخير مستنيراً ومনিيراً بالعلم والمعرفة. ولكنّ شيوخ النقشبندية يريدون أن يصبّوا المريد في قالب هذه الطائفة ويصهروه في بوتقتها ليُدخلوه تحت رقابتهم المطلقة بما يسمّونه آداب الطريقة. فيصبح المريد بذلك مُعرّضاً للاستغلال بشخصيته وبكل ما يملك من مالٍ وجاهٍ؛ وقد يُستخدَم في تحقيق آمالٍ لا يمكن ضبطها وتحديدها. ولا يخفى دور المريدين بعد تسخيرهم في نشر الطريقة، وإذاعة شهرة شيخ الجماعة وإلقاء هيئته وعظمته في قلوب الناس وبسط سلطانه على المجتمع.

ومن شاء أن يتأكّد من هذا الواقع فله أن يزور تكيّة⁷¹ من تكاياهم ثم يقارن بينها وبين أيّ بيتٍ من بيوت العلم.

* آداب الذكر عند النقشبندية.

الدُّكْرُ في اللّغة: هو استحضارُ شيءٍ في الذهن معهودٍ فيما سبق؛ أو النطقُ به. وهو تحريك اللّسان لأداء المنطوق به ولو بصوتٍ خافضٍ. وفي الاصطلاح: هو ترديدُ أسمٍ من أسمائه تعالى أو النداءُ به،

71 التكيّة: قيل أصله «التكيّة»؛ من وكا-يكا. كوطا-يطا. جمعها: تكايا. ومنه انكا-على شى- أي اعتمد وتحمل عليه. و أوكا إيكاء: أي نصب له متكأ. ومنه توكأ. كما جاء في الآية الكريمة: {قَالَ هِيَ غَضَائِي: أَنْوَكَا عَلَيَّهَا...} (18/20). يعلب أن مصطلح التكيّة، وضعها الصوفية انطلاقاً من هذا المعنى؛ بعد أن استوحاه الواضع من الكلمة المذكورة. لأنّ مفهوم التكيّة. يشمل هذا المعنى أيضاً. ولأنّ التكيّة مكان خاصّ، تجتمع فيه الصوفية. وهي بمنزلة المتكأ لهم. إذ يأوون إليها. و يقومون بإجراء حفلاتهم وطقوسهم فيها. هذه الكلمة شائعة بين صوفية الأتراك. يقابلها كلمة «الرباط» بين صوفية العرب، وكلمة «خاقاه» بين صوفية الفرس والهند. ظهرت التكايا بعد عصر السلف الصالح مع بداية الانحراف عن التوحيد الخالص، بدافع تقليد الأعجام الذين اعتنقوا الإسلام بدون روية. فطغوه بتصوراتهم. وابتدعوا ما ليس منه. قيل: إنّ أول ما بناه الصوفيّة ليعبدوا فيه على ما اشتهت له نفوسهم هو تلك الدوّيرة التي أقامها بالبصرة أحمد بن عليّ المهديّ ت200، تلميذ عبد الواحد بن زيد تلميذ الحسن البصريّ، وكان له كلامٌ في القدر. هذه الدوّيرة هي أول ما بُني في الإسلام للعبادة غير المساجد للانقياء على البكر والشعاع. ثم بعد انتشارها في ديار الإسلام عُرفت باسم التكيّة وجمّعها تكايا. ظهرت التكايا على غرار الصوامع التي يتعبد فيها الرهبان. كانت التكايا قد تطوّرت في أواخر العهد العثمانيّ، وأصبحت مجتمعات كبيرة من الماني والمراقق. تضمّ عدداً من الغرف والحجرات. منها الصحن الرئيس الذي فيه الخراب ومقام الشيخ، وانفصل الموصول بالشتاك. وهو القفص الذي يجلس فيه السلطان أثناء الحفلة. إنّ عدد التكايا الموجودة فقط بإسطنبول في عهد السلطان عبد الحميد، كان قد بلغ 311 تكيّة. وكان يقوم بتنظيم شؤون التكايا على مستوى المملكة العثمانية مرجع روحانيّ بعنوان «الجلس الأعلى لمنائح الطرق الصوفية». ثم أُلغي هذا المجلس وجميع التكايا والزوايا في بداية العهد الجمهوريّ يوم 30. نوفمبر. 1925م. بقانون رقم/677.

أو قراءة شيء من القرآن الكريم في أوقات معينة. والذكر توقيفي كسائر العبادات، لا يجوز إلا بالكيفية التي وردت في السنة. وضوابطها منصوصة في آثار السلف الصالح.

أما عند النقشبندية فله تعريفٌ يتعجب منه العاقل المنصف العارف بمعنى كلمة الذكر ومفهومها. وله آداب يستغربها كل من له علم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وإنما ابتدعوها من تلقاء أنفسهم دونما حجة يعتمدون عليها، وقد استوحاها بعض كبرائهم من الأديان القديمة، فبناها المتأخرون منهم على أثر سادتهم، زعموا أن الله أمر بالذكر على هذه الصورة المزيقة.

* الذكر بلسان القلب عند النقشبندية

يقول أحد رؤسائهم -وهو يشرح كيفية الذكر عندهم- ويزعم أن له اثنين وعشرين أدباً؛ يقول في سياق كلامه:

«- الثالث عشر: تغميض العينين، وإصاق اللسان بسقف الحلق، والأسنان بالأسنان، والشفة بالشفة، وإطلاق النفس على حاله.»؛

«- الرابع عشر: ذكر الله الله... بلسان القلب الخيالي فقط، بلا ملاحظة نقش ولا حبس نفس أصلاً. أعني أن يتخيل لقلبه لساناً يقول الله الله... وهو يسمع.»؛

«- الخامس عشر: استحضار مسمى هذا الاسم المقدس، وهو الذات العلية الإلهية في القلب»⁷² نعم هذه كانت نبذة من آداب الذكر عند هذه الطائفة. والله سبحانه برئ من ذلك. إذ يقول تبارك وتعالى: {وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} ⁷³ فتبين أنه لا يتم الذكر إلا بالقول. أي بإخراج الحروف من مخارجها مع صوت أدناه أن يُسمع الذاكر نفسه. وإلا بطل الحكم بالقول، واختفت الحكمة، واقتصر الأمر على مجرد التصور والتفكير؛ مع أن المراد من الآية الكريمة هو القول دون الجهر، وليس التصور والتفكير؛ وإن كان

72 عبد المجيد بن محمد بن محمد بن عبد الله الحان، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص/3. مكتبة الحقيقة. إسطنبول - 1992م.

73 سورة الأعراف، 205.

المطلوب من الذَّاكِرِ أن يكون حاضر القلب متأملاً في معنى كل كلمة يذكرها. وفي هذا الباب يقول الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أنّ الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها واجبة كانت أو مُسْتَحَبَّةً، لا يُحَسَّبُ شيء منها ولا يُعْتَدُّ بِهِ حَتَّى يَتَلَفَّظَ بِهِ بِحَيْثُ يُسْمَعُ نَفْسَهُ إِذَا كَانَ صَحِيحَ السَّمْعِ لَا عَارِضَ لَهُ»

74

إِذَا، فَالذِّكْرُ شَيْءٌ وَالْفِكْرُ شَيْءٌ آخَر. وقد جمع الله بين هذين المفهومين في آية واحدة وهو مثال رائع من الإعجاز القرآني، وإفحام لمن عمي قلبه فالتبس عليه الأمران. وبين سبحانه وتعالى الفرق بينهما في مضمون قوله:

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ⁷⁵» أما الذِّكْرُ بالقول «دون الجهر»، ففيه تعظيم لجنابه تعالى. إذ يعلم الله ما يجول في خلد الإنسان وما ينطق به لسانه سرّاً كان أو جهراً. وكذلك فيه اجتناب من السمعة والرياء.

وما جاء في الآية المذكورة من قوله «ودون الجهر» فليس معناه تعطيل اللسان من الذِّكْرِ وإنما فيه توضيح لوصف طريقة الذكر وذلك أن لا يكون جهراً ولا خفياً بل يكون دون الجهر، وفوق الخفاء.

أما ما استحدثته النقشبندية من بدعة الذِّكْرِ القلبيّ فإن فيها سرّاً لا يكاد يطّلع على حقيقته أحد من متأخري مشائخ هذه الطائفة لجهلهم بما تعرّضت له طريقتهم من استحداث وتبدلات، وما استوحش من الأديان والفلسفات من أفكار وتفسيرات، وما تسرّب إليها مع الزمان من مصطلحات دخيلة وتعبيرات غريبة.

ذلك أنّ الطريقة النقشبندية قفزت إلى الهند في القرن العاشر الهجري، فاستوحش من الديانة البرهمية والبوذية بعد أن نشأت في بلاد ما وراء النهر وتأثرت هناك بالشامانية والمزدكية، والمناوية في سابقها

74 محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النوويّ الدمشقيّ (631-676هـ)، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ص/ 14، مع مختصر شرح بن علان. دار العربيّة للطباعة والنشر. بيروت. نسخة أخرى بعنوان: حلية الأبرار و شعار الأخيار

في تلخيص الدعوات والأذكار المستحقة في الليل والنهار المعروف بالأذكار النووية، ص/ 42. تحقيق علي الشريحي وقاسم النوري. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى بيروت-1992م.

75 سورة آل عمران/190، 191.

خاصّة فإنّ رجال هذه الطائفة، بدءاً من محمّد الباقي الكابليّ ومنّ بعده إلى عبد الله الدهلويّ المعروف بشاه غلام علي، كلّهم من أهل الهند، وكلّهم متأثرون بالرهنة الهندية بإقرار مشاهيرهم. ومنهم قسيم الكُفرويّ. إذ ينقل لنا صورةً جليّةً من حياة الروحانيّ الشهير بين أهل هذه النحلة، شمس الدين حبيب الله ميرزا مظهر جانِ جانان. وهو من الطبقة الثانية عشرة بعد محمّد بهاء الدين البخاريّ مؤسس هذه الطريقة. يقول الكُفرويّ: «إنّه كان يقتصر على التغذي من العُشب والثمرات، ويعيش في أماكن خالية من البشر، ولا يرتدي إلا قميصاً»⁷⁶

إذاً يتبيّن لنا بوضوح أنّ هذا الرجل لم يكن على سنّة محمّد صلى الله عليه وسلّم، بل كان على سنّة بوذا الراهب مؤسس الديانة البوذية.

وإذا كانت حياة رجال هذه الطائفة صورةً من حياة رهبان البرهمية والبوذية، فلا محالة أنّ عقائدهم وعباداتهم أيضاً كانت طبقاً لعقائد أولئك الرهبان وعباداتهم ومناسكهم، خاصّة بعد أن قامت عشرات من الدلائل القاطعة على ذلك. فثبت أنّ موضوع الدّكر في الطريقة النقشبندية، وإن كان يتناول اسم ذات الله تبارك وتعالى أو كلمة التوحيد؛ إلا أنّ أسلوب أداء الدّكر فيها مأخوذ من الديانة البوذية والبرهمية على الطريقة الجوكية (أي البوغيّة) كما سيأتي شرحه في باب الرابطة إن شاء الله تعالى.

تدعو المناسبة هنا (وقبل الانتقال إلى مسألة الرابطة) أن نتطرّق ثانيةً إلى موضوع الدّكر القلبيّ عند النقشبندية مع «حبس النّفس» وهي نقطة هامّة جدّاً.

فعندما نعود إلى المصدر السابق أي إلى كتاب (السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية) لأديب الطائفة عبد المجيد بن محمّد الخانيّ، نجد أنفسنا أمام ذلك التعريف الغريب نفسه للدّكر القلبيّ مع إضافة شروط أخرى أشدّ غرابة من الشروط السابقة.

يباشر عبد المجيد الخانيّ في تعريف هذا الشكل من الدّكر القلبيّ فيقول:

«الثاني، ذِكْرُ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ. والمرادُ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ، كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). وهذا الذكر المبارك يعلمه المرشد للمريد بعد ذكر اسم الذات باللطائف والتمكّن من سلطان الذِّكْرِ. وآدَابُهُ، هي آدابُ الذِّكْرِ الأوَّل؛ غير أنه بعد أن يلصق اللسان والأسنان والشفة كالأوَّل، يجبس النَّفْسَ تحت سرّته ويتخيّل منها نقش (لا) ممتدّة إلى منتها دماغه، ويتخيّل من دماغه نقش (إله) ممتدّة إلى كتفه الأيمن، ويتخيّل من كتفه الأيمن نقش (إلا الله) ماراً بها على اللطائف الخمس ضارباً بلفظ الجلالة على القلب منفذاً إلى قعره بقوة يتأثر بجزارتها جميع البدن مع ملاحظة معنى هذه الجملة. وهو أنه لا مقصود إلا ذات الله تعالى. وينفي بشق النفي جميع الأحداث الإلهية. وينظرها بنظر الفناء ويثبت بشق الإثبات ذات الحق تعالى. وينظره بنظر البقاء. ويقول في آخرها بلسان القلب (محمد رسول الله). ويقصد بها أنه متّبع له ويكرّرها على قدر قوّة نَفْسِهِ، ويُطلق نَفْسَهُ من فمه على الوتر من العدد. وهو المسمّى عند ساداتنا بالوُفُوفِ العدديّ»⁷⁷

كان هذا تعريفُ عبد المجيد بن محمد الخانيّ للذِّكْرِ القلبيّ عند النقشبندية، دون أن يكون لهم سندٌ يُثبتون به صلة هذا الشكل من الذكر مع القرآن والسنة.

ولكن ما دام المؤلف يرشد الناس إلى ذكر الله بهذه الكلمات «وذكر الله أفضل كلّ شيء» إذن فلا غرابة فيها عند أي إنسان ساذج جاهل بهذا الأسلوب الماكر، ولا بطُرُق الدسّ وتأثيراتها، واستحالة الأمور إلى صورٍ وأشكالٍ مشوّهة مع الزمان؛ وكيف يلتبس الحق بالباطل على الناس من حين إلى آخر.

نعم قد لا يستغرب كثير من جهلة الناس هذا التعريف الدجليّ المدلسّ ولا يقدرّون خطورته «لأنّ اليهود والنصارى والجنوس أيضا يذكرون الله ويحبّونه ويعبدونه كالمسلمين» فما عسى الغرابة في هذا التعريف؟

ولكن أهل الإيمان الصادق والتوحيد الخالص والعلم الغزير لابدّ وأن يستغربوه ويتسائلوا عن «حبس النَّفْسِ» خاصّة أثناء الذكر. هذا ومن الأهمية بمكان، ومن الغرابة جدّاً، أنّ علماء المسلمين لم ينتبهوا

77 عبد المجيد بن محمد بن عبد الله الخاني، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص/32-33. مكتبة الحقيقة. إسطنبول - 1992م.

«الوقوف العددي»، مصطلح من مصطلحات النقشبندية. وهو اسم ركن من أركان السلوك عندهم، و عددها أحد عشر ركناً. سيأتي شرحها قريباً إن شاء الله تعالى في باب «مبادئ الطريقة النقشبندية بالفارسية» في نهاية هذا الفصل.

إلى هذه الهرطقة مع أنها قديمة⁷⁸ في عقائد الطائفة النقشبندية. يدل ذلك على غفلة كثير من أهل العلم عَبَرَ عصور الظلام. فلم نَعْتَرُ على شيء عن هذه المسألة في مؤلفاتهم ومصنّفاتهم سوى ما قد سجّلهُ العلامة أبو الحسن الندويّ بإيجاز في ثنايا الجزء الثالث من كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام». إذ يقول في مقطعٍ منه وهو يشرح التطورات التي حدثت في الطرق الصوفية المنتشرة على الساحة الهندية وخاصة الطريقة الشطارية وفرعيتها؛ فيقول: «وينتمي الفرع الثاني إلى شيخ علي بن قوام الجنوريّ - المعروف بشيخ علي عاشقان السرائي ميري - بينه وبين الشيخ عبد الله الشطاري واسطتان. قد مَرَجَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَعَالِيمَ «يوكا» بِالتَّعَالِيمِ الصُّوفِيَّةِ، وَاخْتَارَتْ مِنَ الْأُوَلَى بَعْضَ الرِّيَاضَاتِ وَالْأُورَادِ، وَحَبَسَ النَّفْسَ، وَلَقَّنَتْ هَذِهِ التَّعَالِيمَ الْمُرِيدِينَ وَالسَّالِكِينَ كَمَا ضَمَّتْ إِلَى الطَّرِيقَةِ «عِلْمَ السَّمْبَاءِ» وَقَدْ جَاءَتْ تَفَاصِيلُ هَذِهِ الْأُورَادِ وَشُرُوحُ الرِّيَاضَاتِ الْخَاصَةِ فِي الرِّسَالَةِ الشُّطَّارِيَّةِ الَّتِي أَلْفَهَا الشَّيْخُ بَهَاءُ الدِّينِ الْأَنْصَارِيُّ الْقَادِرِيُّ. وَتَوْجَدُ قَصِيدَةٌ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الشُّطَّارِيِّ فِي كِتَابِهِ «كَلِيدُ مَخَازِنَ». مِفْتَاحُ الْخَزَائِنِ. تَفِيدُ عَقِيدَةً وَحِدَةً الْوُجُودِ، وَعَدَمَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمَسْجِدِ وَالْبَيْعَةِ وَالْمُسْلِمِ وَالْبَرْهَمِيِّ»⁷⁹

يقول الندويّ في مقطعٍ آخر من كتابه المذكور: «وهنا في الهند -التي كانت منذ آلاف السنين مركز اليوك، والتنسك والرهبانية- واجه الصوفية الواردون من الخارج، اليوكيين المحتكين المرتاضين الذين كانوا ضاعفوا قوة نفوسهم ومتخيلتهم عن طريق حبس الأنفاس والتأملات اليوكية المعروفة لديهم. فتعلّم بعض المتصوفة المسلمين منهم هذا الفن»⁸⁰

إلا أنّ مسألة «حبس النفس»⁸¹ تحتاج إلى شيء من التوضيح هنا بمناسبة المقام، تمحيصاً للموضوع، وإجلالاً لأيّ شكٍ قد يُخَاتِلُ ذهن الباحث عن حقيقة هذه النحلة.

78 علي بن الحسين الواعظ الكاشفي البيهقي، رذحات عين الحياة ص/41. صاري كز، إسطنبول-1291هـ.

79 أبو الحسن علي الحسيني الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص/27/3، 28. دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية. الكويت-1994م.

80 المصدر السابق ص/217.

81 لمزيد من المعرفة في مسألة «حبس النفس والذكر القلبي» راجع المصادر الآتية:

* علي بن الحسين الواعظ الكاشفي البيهقي، رذحات عين الحياة ص/41. صاري كز، إسطنبول-1291هـ.

* خالد البغدادي، الرسالة الخالدية ص/67. (ترجمة: شريف أحمد بن علي؛ النسخة المتداولة بين أتباع محمود أسطى عثمان أوغلو في إسطنبول)

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/48. مخطوطة دمشق - 1213 هـ.

* محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية، ص/48. طبعة مصر - 1319هـ.

* محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة الندية في الطريقة النقشبندية ص/81. مكتبة الحديقة، إسطنبول-1992.

* محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام العيوب، ص/514. طبعة مصر - 1384 هـ.

من المعلوم أنّ الإنسان قد اكتشف ببحوثه وتحريّاته وتجاربه منذ الماضي السحيق إلى اليوم آفاقاً من أساليب المعالجة لأزماته. ولا شكّ في أنّه قد حقّق أهدافاً عملاقةً يتمتّع بما قدّمت له في العصر الحاضر من السرعة والرفاهية والرخاء. إلا أنّه مع هذا قد وجد نفسه في وسط ضجّة هائلة من الأحداث التي هي في الحقيقة صنّعة يديه. وهو أمام هذه العاصفة في ارتباكٍ غريبٍ، ومعاناةٍ شديدةٍ واضطرابٍ رهيبٍ لا يدري كيف ينجو من وطئته.

ومن جملة ما اهتدى إليه العقلُ البشريُّ من أساليب توفير الطمأنينة والهدوء، ثمّة تطبيقات غريبة من الطبِّ البديلِ وأشكال من الرياضة الذهنية، اكتشفها رهبان الديانات الهندية في القرون الماضية من خلال ممارستهم وتجاربهم عبْرَ فتراتٍ طويلة من التقيّف والإنزواء والتأمل والتّركيز، وما أشبه ذلك. فأضفوا عليها صبغةً من التصوف والروحانية؛ وذلك على سبيل المحاولة للاتّصال بما وراء الطبيعة، حتّى غدت تلك الممارسات من الآداب والأركان في الديانات البرهمية، واعتقدوها مجوس الهند. وسُمّيت أخيراً «اليوغا»⁸² وقد اختلف فيها الناس: هل أمّا دينٌ، أم أشكالٌ مستحدثةٌ من الرياضة الذهنية

* عبد المجيد بن محمد بن محمد بن عبد الله الحانج، السعادة الأبدية فيما جاء به الفشيدية، ص/ 33. مكتبة الحقيقة. إسطنبول-1992م.

* علي قنري، الرسالة النهائية (ترجمة: زحيم سرين) ص/ 13، 26، 39-48. إسطنبول-1994م.

82 «اليوغا» بتعريف أهله: «هي رياضة جسدية نفسية فكرية؛ فيها يخضع الإنسان جسمه بوظائفه الإرادية طبعاً والأرادية بالسيطرة العنسية إلى محض إرادته. وبواسطتها تنصل روحه بروح الرب مسرّ الكون العظيم. فهي، - أي اليوغا - إذن (صلة الوصل) بين الإنسان وخالفه. وأصل الكلمة من اللغة السنسكريتية الهندية القديمة؛ وتعني هذا المعنى». هذا التعريف مقيس من كتاب «اليوغا» للمؤلفين: المستشرق ج. تونديرو، و ب. ريال. مكتبة المعارف. بيروت-1988م. يقول المؤلفان في مقدمة نفس الكتاب: «فاليوغا طريقة مهندسة تُعلّمنا فنّ اكتساب الصبر والهدوء والسيطرة، والمراقبة الذاتية، و تكسيبنا التركيز وحسن التفكير... إلخ.» إنّ الضبط الشائع لهذه الكلمة في جميع المصادر المدوّنة بالحروف اللاتينية ورد على شكل «اليوغا» yoga؛ والذي يمارس هذه الرياضة يسمّى «يوكي» أو «يوكين». أما في كتب الباحثين والمصنّفة من العرب والمستعربين، فقد جاءت هذه الكلمة على اختلاف من الضبط. مثل: «الوجك» و «اليوك» و «اليوكا». وردت هكذا في بعض أعمال العلامة أبي الحسن الندوي. وجاءت هذه الكلمة على شكل «اليوغا» في ترجمة إلياس أيوب للكتاب الذي ألفه ج. تونديرو و ب. ريال. تحت عنوان: The Yoga. والممارس لهذه الرياضة، فقد جاء التعبير عنه مختلفاً أيضاً. مثل «الوجي» وجمعه «الوجكية»؛ كما وردت التسمية بم على هذا الشكل في رسالة الشيخ معروف البودهي البرنجي الذي طعن بما في خالد البغدادي؛ وكذلك «اليوك» و «اليوكية» و «اليوكيون-اليوكيين» هي صيغ الجمع ل «اليوكي»؛ أمّا الصيغة الشائعة للمفرد هي «اليوغي». وجمعهما «اليوغية-اليوغيون-اليوغيين»؛ واسم هذه الرياضة «اليوغا». و لإطلاع على مواقع هذه الكلمة في المصنّفات راجع المصادر الآتية:

* محمد بن عبد الله الحانج، البهجة السنّية في آداب الطريقة الفشيدية، ص/ 6. طبعة مصر - 1319هـ.

* محمد مطيع الحافظ-نزار أباطة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري ص/ 304. دار الفكر المعاصر؛ بيروت..

* TDV İSAM. 922.97 HAFT.T. 29819-1 İstanbul-1949

* أحمد البقاعي، رسالة في آداب الطريقة الفشيدية ص/ 33. مخطوطة (مصدّرة) ضمن مجموعة الزمرد العنقاء.

* TDV. İSAM. 297-7 NİM. Z 46644

* أبو الحسن الندوة، رجال الفكر والدعوة في الإسلام. 27/3، 42، 168، 217.

* Hüseyin Hilmi Işık, Vahhabiye Nasihat Pg. 105. Edition II. İstanbul-1970

* Erich Fromm. Zen Buddhism and psychoanalyses (All of them)*

* Sir James Bolevard, Meditation (All of them)*

* منير بعلبكي، موسوعة المورد (إنجليزي-عربي)، 187/10. دار العلم للملايين؛ الطبعة الثانية. بيروت-1992م

* Feriduddin Aydın, Tarikatta Rabata ve Nakşibendilik. Pg. 269. Edition II. Süleymaniye Fondation. İstanbul-2000

والنفسية، منها «حبس النَّفس»؛ وما عسى الحكمة والفائدة في حبس النَّفس؟ وهو في الحقيقة إخراج البدن وإرغامه على فعل يخالف طبيعته. لا جرم أن هذا السؤال يخامر الإنسان بحكم الطبع. لأنَّ في حبس النَّفس مضايقة على الرئتين وإخناق لهما وتعطيل لوظيفة هامة تقومان بها في سبيل استمرار الحياة.

إلا أنَّ الأمر ليس في هذا المستوى من البساطة والسطحية كما تظنّه العامة. بل إنَّ «حبس النَّفس» وبالأحرى «المراقبة على عمل التَّنفس» من وجهة نظر الطب النفسي الجسديّ، هو أمر هامّ جدًّا وخطوة أساسية في تمارين «اليوغا» التي هي في حدّ ذاتها رياضة ذهنية ونفسية يمارسها كثير من الناس بصورة عقلانية صرفة دونما إلحاقِ صفةٍ دينيةٍ أو روحانيةٍ بها. ذلك للتخلّص من الاضطرابات النفسية، ولتوفير الطمأنينة والهدوء والصحة البدنية والعقلية كما أنّها تروّض الإنسان على الصبر والسيطرة على الأعصاب بصورة طبيعية قد أقرّها علماء الطب المعاصر.

يقول شخصيتان من خبراء هذا الفن في وصف نمط من أنماط هذه الرياضة:

«إنّه شكل لا يبحث عنه إلاّ القليل من الناس وهو يتطلّب شروطاً خاصّة من الحياة. ولا يدركه إلاّ المتصوفون العظام؟»⁸³

يجب هنا أن لا نتغافل عما يتداعى هذا التوضيح الذي انطلق قدماء النقشبنديين من منهله في حقيقة الأمر فبنوا على جذور هذه الفكرة شرطاً من تعاليمهم. وجعلوا ما استقوا منها أدباً من آداب طريقتهم في الدِّكرِ القلبيّ، وزعموا أنّ له أساساً من الكتاب والسنة وذلك بمتان عظيم.

إنَّ «حبس النَّفس» في مصطلح النقشبنديين معناه إمساك النَّفس داخل الرئتين قَدْرَ لحظات وهو «التَّنفسُ اليُوغِيّ» الموزون المتوافق بعينه في الأصل والمنشأ كما يقول المستشرق ج. توندريو وزميله -عالم النَّفس- ب. ريال:

«ولا بدّ لِلتَّنفسِ اليُوغِيّ من أهميّة في احتفاظ هواء الشهيق داخل الرئتين لفترة معينة»⁸⁴

وإليك وصفه على لسانهما . بشرط أن تتذكر الآن ما نقلناه سالفاً من كتاب «السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية» لأديب هذه الفرقة، عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني؛ حتى تتمكن من الوقوف على المشابهة التامة بين «حَبْسِ النَّفْسِ» في الذِّكْرِ النقشبندي وبين «التَّنْفُسِ الْيُوغِي» الهندي البرهمي بالمقارنة بينهما. يقول الباحثان:

«إجلِسْ منتصبَ الجسمِ متدليَّ الدِّرَاعَيْنِ. اشهق مع تركيزِ فكرِكَ على طريقِ الهواءِ (حسبما ورد أعلاه) احتفظ بهواءِ الشهيقِ لمدةِ ثانيتين، أو ثلاثِ ثواني على الأقل. وهذا هو سرُّ وميزةُ هذه الطريقة عن سابقها. لا حظ بأنك تصبح أثناء هذا الاحتفاظ متوتراً. فترتفع كتفك وينشد جسمك. جرب واسترخ. إزفُرْ الهواءَ خارجاً من الأنفِ دوماً. احتفظ برئتيك فارغتين لمدةِ ثانيتين أو ثلاثة. ثم أعد الكرة من جديد بالشهيق الواعي. هذا التمرين يسمح لك بصورة خاصة أن تدرك الفكرة، ولم يبق لك سوى التنفيذ حوالي عشر مرات يومياً»⁸⁵

أليس هذا الذي جعله النقشبنديون مبدءاً من مبادئ ذكرهم؟ وهل يكتفون به عناداً ومكابرةً حتى لا يدخلوا بذلك في عداد المشركين من اليوغية الهندوس عن وعي واختيارٍ وقصدٍ؟ كلا والله! ولكن الجهل قد بلغ بهم إلى حدّ، لو سمع منك غوثهم الأعظم كلمة «اليوغا» لتعجب واستغرب؛ ولربما ظنّ أنّها اسم لنوع من الوحش أو النبات، أو العقاقير (كما حدث ذلك أثناء حوار مع أحد شيوخهم). ولو سألت أحداً منهم عن معاني كلمات:

Nirvana, Meditation Trence, Mantra، وما شاكلها من مصطلحات مجوس الهند، لرأيت شاكساً عينيه إليك وقد بُتّ؛ ولكنّه يكاد يُزلُّكَ بنظره الحادّ وقد خيم عليه صمتٌ من حيرةٍ مشوبةٍ بالحقد، تُعزِّزُ عما في ضميره من تساؤلات وأحاسيس غريبة، وهو اجس معقّدة، وتصورات وأفكار؛ حتى هو بالذات لا يدري كيف يتخلص من المأزق الذي انجس فيه أمام هذا السؤال الطارئ بسبب جهله معاني هذه الكلمات التافهة أو ربما طأطأ رأسه وكأنّه يستشير الشياطين ليستوحي منهم أخبث ما في

84 المصدر السابق ص / 47.

85 المصدر السابق ص / 48، 49.

قاموسهم من كلمات الشتم واللعن والتهكم ليقذفك بها بعد قليل انتقاماً منك على سؤالك؛ وتهدئةً للنار التي تتوقد في صدره غضباً عليك!

إذاً كيف بشيوخ النقشبندية مع هذا الجهل أن يتحققوا مما تسرّب إلى طريقتهم من تعاليم الديانة البرهمية عبر القرون؟

أما «حَبْسُ النَّفْسِ» أو المراقبة عليها بشروطٍ حدّدها، وأقرّها علماء الطبِّ النفسيِّ الجسديِّ بعد دراسات وبحوث وتجارب كما هو منصوص في مصنّفاتهم فإنّه حقيقة عقلانيّة تجرّبة وعلميّة ثابتة بالبراهين، ولا صلة بين هذه الحقيقة مباشرة وبين الجانب الروحانيِّ من الدين الإسلاميِّ كما لا يعقل أن تمّت إلى التصفوّ بشيءٍ.

أما تطبيق هذه الطريقة العلميّة لأغراض صحيّة، فإنّ الحديث عنه ليس من اختصاص بحثنا، وإنما هو موضوع الطبِّ النفسيِّ الجسديِّ. إلا أنّ هذه الظاهرة الغريبة التي انتشرت في الآونة الأخيرة، ترجع في الأصل إلى تعاليم الديانتين الوثنيتين: البوذيّة والهندوسية. وهي من الأعمال ذات الصلة الوثيقة بالصهيونية، تُستعرض في أشكالٍ وأنماطٍ من الرياضة البدنيّة والروحية، وقد افتتحت منظمة اليوجا فرعاً لها في القاهرة عام 1975، وكان يقوم بالتدريب به شاب من الفلبين وفتاة أمريكية، وقد استطاع الاثنان أن يجذبا إلى مقرّ هذه المنظمة عدداً من الشباب الجامعي للتدريب على اليوجا والإعداد للقيام بنشاط اجتماعي لتوعية أهالي القرى والمدن. وفي 16/7/1975 قبض رجال الأمن على الفتى والفتاة بعد أن اتّضح قيامهما بنشاط ديني وسياسي والدعوة لتميّيع الأديان والانتقاص من القيم الروحية، واتّضح أنّ هذه المنظمة تمّولها جهات صهيونية وأنّها فرع لمنظمة مركزها الرئيس في إسرائيل.

ولكن ينبغي هنا التأكيد على أنّ «حَبْسَ النَّفْسِ» ليس هو الأمر الوحيد الذي استقاه قدماء النقشبندية من تعاليم اليوغية البرهمية؛ بل تركيزُ الفكر على جسمٍ بعينه أو تحيُّله من غير اتصال، أيضاً هو من الأمور التي أخذتها الطائفة النقشبندية من تقاليد الهندوس دون أدنى شكّ، وهو المعبرُ عنه عندهم باستحضار صورة الشيخ في الخيال، والمصطلحُ في عقائدهم باسم «الرابطة»

* الرَّابِطَةُ.

وما أدراك ما الرابطة! ألا إنها لفتنة عظيمة انفجرت في العراق فنشبت بشاراة طارت إليها من الهند بعد عودة خالد البغدادي من مدينة دلهي عام 1226هـ.

كان قد سافر إليها من العراق سنة 1225هـ. إلا أن هذه الرحلة لم تكن صدفةً ولا كأبي سفر مُعتاد، بل ومن الأهمية بمكان، أنها وقعت في مرحلة استيلاء الإنجليز على الساحة الهندية حيث يأبي دماغ الرجل المسلم الواعي أن يصدّق بمصادفة هذا الأمر دون برنامج سابق! فعاد البغدادي بأفكارٍ جديدةٍ وآراءٍ غريبةٍ مستوحاةٍ من البوذية والبرهمية. فبدأ يبيثُ النقشبندية على أساسها باسم الطريقة الخالدية. وابتدع لها ركنًا سمّاها «الرابطة»، بعد أن لم تكن الرابطة شيئًا معهودا ولا مسموعًا في الطرق الصوفية المنتشرة بين المجتمعات العجمية في المملكة العثمانية. فأثار ضجةً في مختلف أنحاء البلاد بهذه البدعة الخطيرة، وما دسّ معها من مستحدثات منكرة لم يكن القصد منها في الحقيقة إلا ضرب الإسلام من أساسه. فالقصة طويلة سنشرحها في ترجمة خالد البغدادي ضمن الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

أما الرابطة في عقيدة البغدادي فهي من أعظم الأركان في الطريقة التي استحدثها بعنوان «الخالدية» إذ يغضب أشد الغضب على من وصفها بالبدعة فيقول:

«إن بعض الغافلين عن أسرار حق اليقين يعدّون الرابطة بدعة في الطريق ويزعمون أنها شيء ليس لها أصل ولا حقيقة. كلاً! إنما أصل من أصول طريقتنا العلية النقشبندية. بل هي أعظم أسباب الوصول بعد التمسك التام بالكتاب العزيز وسنة الرسول»⁸⁶

86 ورد نص هذه الرسالة ضمن المصادر الآتي ذكرها:

* محمد مطيع الحافظ-تزار أباطة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري ص/ 313. دار الفكر المعاصر؛ بيروت

* علماء المسلمين والوقايين (مجموعة فيها خمس رسائل، من منشورات Isık Kitabevi). الرسالة الأخيرة منها. إسطنبول-1978م.

* رسالة تذكار الرجال، الجزء الأول ص/ 44. جمعها عبد الكريم البياري المدرس، منشورات المجمع العلمي الكرمان، مكتبة الحقيقة إسطنبول-1992م. (هذه الرسالة منضمة إلى رسالة أخرى اسمها مكاتب شريفة لعبد الله الدهلوي، كلاهما بين دفتين

في مجلد واحد).

* كذلك نسخة منها موجودة بماتش كتاب الرشحيات مع شرحها باللغة التركية، طبعة صاري كز/ إسطنبول-1291هـ.

* محمد أسعد الصاحب، بغية الواجد، ص/ 73.

جاءت هذه الكلمات في مستهل رسالة بعثها إلى محمد أسعد أفندي الإسطنبولي، إذا صحَّ ممن أسندها إليه. فقد عبث المؤلف في هذه الرسالة بالمفاهيم، فجمع فيها بين كلمات ومصطلحات شتى؛ وآراء متباينة ومتناقضة وهو يحاول أن يجعل بين طريقتيه وبين الإسلام صلةً. وذلك من أساليب الباطنية. لأنهم يتعرّضون في كلِّ عصرٍ لهجماتٍ عنيفةٍ من علماء المسلمين، فإذا عجزوا عن مقاومتهم لجأوا إلى مدِّ الجسور بين مذاهبهم وبين الإسلام ليبرروا بها حجّتهم.

فقد شنَّ البغدادي هجوماً على من عدَّ الرابطة بدعةً، ثم دافع عنها بقوله: «كلاً، إنّها أصل من أصول طريقتنا... إلخ». قد يكون البغدادي صادقاً في هذا المقطع من كلامه. لأنَّ ما جاء على لسانه بلفظ «الطريقة»، فإنها (بجميع مبادئها وفلسفتها وطقوسها وصورة أدائها) من اختلاقي الصوفية. إذن لا غرابة في إضافة أشكالٍ أخرى من البدع إلى مبادئ الطريقة وأصولها متى شاء زعيمها الذي يُدّعي له جمهور المرئيين.

أمّا قوله «بل هي أعظم أسباب الوصول... إلخ»، فإنها جرأة على الله وجناية على الإسلام، وبهتانٍ عظيمٍ على كتاب الله وسنة رسوله! صلى الله عليه وسلم.

نعم، يجوز عقلاً أن تكون الرابطة أصلاً من أصول الطريقة النقشبندية. إذ هي في الحقيقة ديانة مستقلة بأصولها وآدابها وأركانها وطقوسها، ولكن طُلِّيت من خارجها بصبغة من الإسلام. إذن فلا مانع من أن يضيف إليها الروحانيون ما طاب لهم من آداب وأصول أو يلغوا منها شيئاً.

أمّا محاولة البغدادي من وجهة نظر الإسلام في قوله: «بل هي أعظم أسباب الوصول... إلخ» فإن ذلك رأيه الخاصُّ. وقد اعتاد رجال الطرق الصوفية هذا الأسلوب قديماً. وغايتهم منها: أنّ المرئيد إذا استسلم لشيخه بكمال الإنقياد وسلك وفقاً للخطة التي تنصُّ عليها فلسفة التصوف، ظفّر بالوصول إلى الله! بينما الكتاب والسنة، لا نجد فيهما شيئاً يؤكد على وصول العبد إلى الله بسلوكه على آداب الصوفية واشتراكه في طقوسهم. بل الذي يظفر به العبد ويحظى من الفوز (بالعمل الصالح) هو رحمة الله ومغفرته ورضوانه والأجر الحسن والجنة ونعيمها كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ

وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ⁸⁷ وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}⁸⁸ وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ نَعِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا، وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}⁸⁹

هذا، وفي كتابِ الله آياتٌ كثيرةٌ غيرها تبرهن على أن الفوزَ برحمةِ الله ورضوانه وجنته ونعيمه إنما يتوقفُ على العملِ الصَّالحِ الذي ورد البیانُ عن طرائقِ أدائه في الكتابِ والسنةِ بالتفصيلِ والتوقيفِ. ويتبينُ بفضلِ هذه الآياتِ وبكلِّ وضوحٍ: أن ما يُسمَّى بـ «الرَّابِطَةِ النَّقْشِبَنْدِيَّةِ» ليس من العملِ الصَّالحِ في شيء. ثم المراد من مفهوم «العملِ الصَّالحِ» في الإسلامِ واضحٌ في منتهى الوضوح من خلال ما جاء في الآياتِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ. وهي أداءُ الفرائضِ من الصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاةِ والجهادِ وما يتصل بها من السننِ والنوافلِ والصدقاتِ؛ وكذلك تركيةِ النفسِ الإنسانيةِ بالفضائلِ والسيرةِ الحسنةِ وَالسُّلُوكِ الْمِثَالِيِّ الرَّفِيعِ، كالصبرِ، والقناعةِ، والرُّهْدِ، والعفةِ، والحِيطَةِ، والتَّبَصُّرِ، والوعْيِ وَالجُرْأَةِ، وَحُبِّ التَّعَلُّمِ، وَحُبِّ النَّظَافَةِ، وَصَفَاءِ السَّرِيرَةِ، وتوقيرِ ذي الشيبِ من المؤمنين، والرَّحْمَةِ بِالصَّغَارِ وَالصُّعْفَاءِ وَالْمَرْضَى، وَالشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ من سائرِ الإنسِ والأحياءِ - بشروطها- وَاللِّطَافَةِ وَالْحِلْمِ وَلِينِ الْجَانِبِ فِي الْمَعَامَلَةِ، وتشميتِ العاطسِ، وإفشاءِ السلامِ، وبشاشةِ الوجهِ، ومواساةِ المغمومين، وتعزيةِ المحزونين، وتسلييةِ المهمومين، والإحسانِ بِالْجُودِ وَالْكَرَمِ وَالْإِفْتِدَاءِ؛ والتحلِّيِ بِالْأَدَبِ وَالْوَقَارِ، والتعاونِ مع أهلِ التوحيدِ، ومشاركةِ المؤمنين في السراءِ والضراءِ، ومساعدتهم على تحقيقِ كلِّ هدفٍ يخدمُ وحدةَ المسلمين، ويجمعُ صفوفهم ويمهدُ السبيلَ لتوفيرِ الحريةِ والعدالةِ الاجتماعيةِ والأمنِ والسَّلامِ وَالهُدُوءِ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالسَّعَادَةَ وَالرِّخَاءَ وَالازْدَهَارَ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ..

هذه كلها، هي المراد بها من كلمة «العملِ الصَّالحِ» الواردة في مواطن كثيرة من القرآن الكريم وعلى صيغٍ مختلفةٍ يضيقُ المقامُ عن حصرها.

87 سورة التوبة/20، 22.

88 سورة المائدة/9.

89 سورة لقمان/8، 9.

أما قيام العبد بإجراء مراسم النقشبندية على وفق ما ورد في شرح مصطلحاتهم «هُوشُ دَرَدَم، و نَظَرُ قَدَم، و سَفَرُ دَرَوَظَن، و خَلَوْتُ دَرَأَجْمَن... إلخ» بقصد العبادة فإنه خروج على الإسلام لا جرم، وتحريف لدين الله!

ومن جملة ما عبث به البغدادي وخلط في عباراته المذكورة أيضا: إنه اختلق صلةً موهومةً بين الرابطة وبين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فحاشا لله، أن يكون في كتابه، أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أدنى شيء يشير إلى رابطة الباطنية. بل كتاب الله براء من هذه الفرية. {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}.⁹⁰

كانت هذه خلاصةً لنشوب فتنة الرابطة منذ أن أصبحت ركناً من أركان هذه النحلة بعد عودة خالد البغدادي من بلاد الهند، فشوهه تطوّر كبيرٌ وتغيّر جذريٌّ في عقائد الطائفة النقشبندية عقب هذا الحدث كما أثار خلافاً كبيراً ونزاعاً شديداً بين هذه الفرقة، وبين رجال الطريقة القادرية. وهي أيضاً فرقة من الفرق الباطنية.

أما تعريف الرابطة، فقد جاء في الرسالة المذكورة نفسها لخالد البغدادي، وهو يقول:

«إذ هي في الطريقة عبارة عن استمداد المرید من روحانية شيخه الكامل الفاني في الله بكثرة رعاية صورته ليتأدّب، ويستفيض منه في الغيبة كالحضور. ويتم له باستحضاره الحضور والنور وينزجر بسببها من سفاسف الأمور»⁹¹

لقد ورد في هذا المقطع من كلام البغدادي ثلاث نقاطٍ خطيرةٍ لا تتمّ الرابطة إلاّ بها عند النقشبندية: أوّها: أن يستمدّ المرید من روحانية شيخه؛ وثانيها: أن يكون الشيخ فانيا في الله (!؟)؛ وثالثها: أن يستحضر المرید صورة الشيخ في ذهنه. وهكذا تظهر خطورة هذه العقيدة بتمام معناها؛ خاصّة عندما يدّعي أصحابها أنّهم مسلمون!

90 سورة فصلت/42.

91 خالد البغدادي، رسالة في تحقيق الرابطة (ضمن كتاب: علماء المسلمين والوقايون - مجموعة فيها خمس رسائل، من منشورات إيشيك كتاب أوي). الرسالة الأخيرة منها. إسطنبول-1978م.

* شروط الرابطة وصورة أداءها.

فقد جاءت تعريفات متفرقة في رسائل مختلفة لمؤرخي شيوخ النقشبندية حول شروط الرابطة وصورة أدائها. فالحقيقة، وإن كان عددٌ منهم قد دَوَّنوا آدابَ طريقتهم، كخالد البغدادي ومن سار على أثره من أمثال محمد بن عبد الله الخائي وحفيده عبد المجيد بن محمد الخائي، ومحمد أمين الكردي، وجماعة من الترك؛ إلا أننا لم نَعثُرْ لأحد منهم حتى الآن على كتابٍ يضم بين دفتيه جميع ما أُدْخِلَ في عقيدة هذه الطائفة منذ بدايتها إلى اليوم. ولهذا نجد شروط الرابطة وصورة أدائها متفرقة في رسائل مختلفة جمعناها في هذا الباب. وهو دليلٌ آخرٌ على أنّ كلَّ من أراد من الشيوخ أن يفرض هيمنته على جماعة من هذه النحلة جاء بشيء جديد. وهكذا استمرت مسيرة هذه الطريقة ومصير أهلها على أيديهم، يتصرفون في توجيههم، وفي آداب ما تلقوه من ساداتهم؛ يزيدون فيها تارة، وينقصون منها تارة أخرى، مما لا يستقر الأمر معهم حتى يتمكن أحد من جمع مبتدعاتهم في كتاب واحد.

* خلاصة ما قيل في صورة أداء الرابطة وشروطها:

أولها: أن يكون المریدُ قد بايع «شيحاً فانياً في الله» - على حدِّ قولهم - وقد وقعوا هنا في تلفيق شديد ينافيه العقل السليم. إذ أنّ المرید الذي يقصد شيحاً لبياعه، فهو ما زال جاهلاً بأمور الطريقة عندهم. إذن فكيف به أن يتأكد من أنّ الشیخ الذي قصده قد فني في الله؟! فضلاً عن أنّ مثل هذه الهرطقة حربٌ علانية.

هذا هو أسلوبهم المضطرب المتذبذب في الصياغة والتعبير عموماً وفي اختلاق الآداب والأركان لطريقتهم خاصة. يُطلقون الكلمة على عواهنها بصرف النظر عما سوف يطلع عليها أهل العلم والخبرة فيفتضح أمرهم؛ وذلك إما عن جهلٍ أو إما عن حظِّ نفسٍ والله أعلم بما في صدورهم.

ثانيها: أن يكون المرید طاهراً من الحدث الأكبر والأصغر. وإمّا اشترط من اشترط منهم الطهارة مكرراً، ليواري هذه البدعة بلباسٍ من شعار الإسلام، وهو الوضوء، ولتكتسب الرابطة بذلك صفةً شرعيةً،

وصورةً من صور العبادة، تفادياً لأيّ شكّ قد يدبّ في مشاعر المسلمين وتضليلاً للغافلين. على الرغم من أنّه لم يتصدّد أحدهم قائلاً بأنّها عبادة إلاّ رجل من أصل تركيّ اسمه مصطفى فوزي. وهو من أتباع أحمد ضياء الدين الكُموشخَانَوِيّ.⁹² قال في بيت من رسالته المنظومة باللّغة التركيّة تحت عنوان «إثبات المسالك في رابطة السالك» ومآله بالعربيّة: «الرابطة فريضة من جملة الفرائض التي عدّها أربع وخمسون فريضةً، وهي دليل العاشقين»⁹³

وثالثها: أن يكون الباب مغلقاً. يستدلّون في ذلك بحديث⁹⁴ وحقيقة الأمر ليس كذلك؛ وإنّما ابتدعوا هذا الشرط أسوة برُهبان البرهمية الذين ينزعون إلى الخلوات استعداداً للتأمل والتركيز. علماً بأن العبادة في الإسلام علنيّة كالصلاة والصوم والحجّ والزكاة والأضحية والجهاد بمختلف أشكالها. وإنّ في ذلك لحكمةً بالغةً ودروساً وعبراً وتعليماً وتهذيباً للجمهور.

أمّا إغلاق الباب، فإنّه من أمر البرهمية والرهبانية. والرهبانية سلوكٌ روحانيّ متطرّف، وجمود، وخمول وعزلة وتقسّف. لها أشكال متباينة من الرياضة الذهنيّة والبدنيّة؛ مؤدّاها الكراهية للحياة ونصرتها وجمالها ونعيمها التي خلقها الله ليتمتع بها عباده بوجوه مشروعة. ولا تمتّ الرهبانية بصلّة إلى الإسلام. وإنّما الإسلام دين حنيف، ربّانيّ، علنيّ، ونظام حياةٍ؛ وسلوكٌ رفيعٌ؛ وعبادة، وطهارة، وفضيلة، وسياسة، ودراسة، وعلم، وبحث، ومعرفة، وهداية، ونورٌ من وحيه تعالى. {يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}⁹⁵

أما «التّركيز» فما هو بشيء في الإسلام؛ وليس له أدنى علاقة بما جاء في مواطن كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} وقوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} وما في هذا المعنى... وأمّا «رابطة النقشبندية»، إنّما هو نوع من تمارين «اليوغا»، كما سبق البحث عنه في موضوع «حبس

92 راجع ترجمتهما بالفضل في المصدر التالي: Dr. İrfan Gündüz, Ahmed Ziyauddin Gümüşhanevi, Hayati ve Eserleri.

93 النصّ التركيّ للبيت المذكور باللّغة العثمانية و بالحروف العربيّة: «ألي درت فرصدان بريندر رابطة * أهل عشقك رهبريندر رابطة.» مقتبس من رسالة إثبات المسالك في رابطة السالك لناظمها مصطفى فوزي، ص/ 19. إسطنبول-1324هـ.

ومن الغريب أن اسم الرسالة مصوّغٌ بالعربيّة وفيه من السجع، بينما محوّدٌ مصوّغٌ بالتركيّة.

94 جاء في تنوير القلوب لحمد أمين الكردي الأربليّ في فصل «ختم الخواجگان». قال: «إغلاق الباب. وبعضه حديث الحاكم عن يعلى بن شداد. قال: هل فيكم رجل غريب؟ قلنا لا يا رسول الله! فأمر بفتح الباب و قال ارفعوا أيديكم.» ص/

النَّفْسِ». وأما ما يتعلق بمفهوم «التَّركيزِ»، فيقول المؤلِّفان: المستشرق ج. توندرينو، وعالم النفس، ب. رثال في كتابهما «اليوغا».

« التَّركيزُ: وهو تثبيت الفكر على نقطة واحدة، أو شيء، أو فكرة، أو عن المطلق». ويقولان أيضاً: «هو مقدرتك على تثبيت الفكر على نقطة خاصّة معيّنة»⁹⁶

فتبيّن بهذا أنّ التركيز، ليس شكلاً من أشكال العبادة؛ ولا فيه طلب لمرضاة الله تعالى بمحض هذا المعنى، وإن كان مُستوحى من الديانات الهندية. وإنما هو بمجرد فعله تمرينٌ ذهنيٌّ عقلائيٌّ غايته: السيطرة على الأعصاب، ليتحكّم الإنسان بها على نفسه، فيقودها إلى ما فيه صلاحه. وقد تكون فيه مصالح كثيرة - على أن لا يتعدى هذا الحد غايته - كترويح الذهن، وإجلاء الهموم والغموم، ورفع الأعباء عن العقل والجسم، خاصّة وفي عصرنا الذي تعاني نفسيّة الإنسان في ظروفه القاهرة المدمّرة للأعصاب من جرّاء ما يشاهد، أو يقرع سمعه من أحداثٍ داميةٍ، وقلاقلٍ واضطراباتٍ وضجيج. فقد شاع بين الناس استعمال العقاقير والمخدّرات والكحول؛ وانهمكوا في اللّهُو والمجون والدعارة كنتيجة لهذه الأسباب. لأنّ الإنسان المعاصر التعيس الذي لم يعد يحظى من قوّة الإيمان بالله واليوم الآخر، فقد ضعفت صلته وثقته بربه وتلاشت معنوياته، وبالتالي أصبح في دوامة عمياء تساوره الهواجس، وينتابه القلق، وتزدحم أفكار رهيبية في ذهنه.

فإذا كان مراده الخلاص من مشاكله النفسية، والقضاء على ما يعاني من التوتر والأرق والخوف والقلق، كحلٍّ طبيٍّ؛ لا نجد في الإسلام ما يمنعه من القيام بتمارين رياضية لا تتعارض في شكلٍ من أشكالها مع شيء من تعاليم الإسلام.

ولكن شيوخ النقشبندية قد جاوزوا به هذا الحدّ إلى تثبيت الفكر على صورة الشيخ. فجعلوا منه شرطاً أساسياً للرابطة.

أما مَنْ رأى منهم إغلاقَ البابِ أقربَ إلى الإخلاصِ في العبادة، فأنهم أصلاً لا يعبدون الله وحده - وإن نفوا هذا الاتهام بشدّة- بل موقفهم من مشائخهم يتميِّز بإجلالٍ خاصٍّ، يظهر من خلال ما يصفونهم ويرابطونهم في صورة من الإشراك بالله.

هذا، ولا يتمّ الإخلاص لله سبحانه إلا بالتوحيد الخالص ونفي جميع الأنداد. إذ لا إخلاص مع الإشراك. ثم إنّ الإخلاص لا يتوقّف على الإسرار في العبادة، وإلاّ وجب حظر الإعلان في سائر الطاعات وذلك مخالف للشرع، إلا في أمورٍ خاصّة ونادرة، كالتطوُّع والتصدُّق، تفادياً لطلب السمعة والرياء. وهذا لا يُسحبُ على سائر العبادات.

ورابعها: أن يختار المرید محلاً تغلب فيه الظلمة إذا كان الوقت نهاراً. أو يعدّه بصورة خاصّة، كإسدال الستائر على النوافذ أو إطفاء المصابيح إذا كان الوقت ليلاً.

وخامسها: أن يغمض المرید عينيه أثناء الرابطة.

وسادسها : أن يراقب أنفاسه في كلّ زفيرٍ وشهيق.

وسابعها: أن لا يتحرّك من مكانه.

وثامنها : أن يستحضر صورةً شيخه في خياله على المنوال الذي سبق في موضوع التركيز. وعلى هذا الشرط مدارها.

وتاسعها: أن يستمدّ من روحانية شيخه. والمرید مُلزَمٌ بأداء الرابطة لشيخه في معظم أوقاته. وإلاّ فهو مُهدّدٌ بانقطاع البركة عنه!

فإنّ جميع هذه الأمور مستوحاة من البيانات الهندية ما عدا الشرط الثاني لسبب ذكرناه آنفاً.

* أوّل مَنْ أحدث الرابطة.

إنَّ أوَّل مَنْ تصوَّرَ هذا الشكْلَ المخصوصَ لربط المرید بالشیخ فی الطریقة النقشبندیة. هو عبید الله الأحرار وإن كانت جماعةً من هذه الطائفة تدعی أنَّها مأثورة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فلا نعثر على اسم من نطق بهذه الكلمة قبل الروحاني المعروف بـ «الأحرار» وذلك، ورد بحث الرابطة مرتين في كتاب الرشحات.⁹⁷ جاء فيهما أنَّ الأحرار أوصى بها فحسب. ولم يزد المؤلف على ذلك مما يدل على أنَّ الرابطة لم تكن أمرًا هامًا ولا «ركنا عظيمًا» من أركان هذه الطریقة يومئذ كما يدلُّ على أنَّ هذه الفكرة تطوّرت مع الزمان وخاصةً بعد أن قفزت الطریقة النقشبندیة إلى الهند في عهد الباقي بالله الكابلي. ثم بعد ذلك تناولها شیوخ هذه الطائفة الذين نشأوا في تلك البلاد، وبنوها على أسس مستوحاة من البرهمية والبوذية المنتشرتين في الهند. إلا أنَّ الرابطة لم تكن أمرًا هامًا في عهدهم أيضًا إذ لم يتناولها إلاَّ رجلا من منهم. أحدهما أحمد الفاروقی السرهندی المعروف بين أتباع هذه النحلة بـ «الإمام الرباني». فقد جاء في رسالة فارسية له، بعثها إلى شخص اسمه أشرف الكابلي، جاء فيها:

«إنَّ هذه الرسالة موجَّهة إلى خواجه أشرف الكابلي في بيان أنَّ الرابطة أنفع للمريد من الذكر. أمَّا التي كتبها الأصدقاء، فقد نظرتُ في مضمونها، وأطّعت على الأحوال المسطورة فيها. واعلموا أنَّ رابطة الشيخ لكلِّ مرید بلا تكلف ولا تصنع هي دلالة على مناسبة تامّة بين المرشد والمرید. وهي سبب للإفادة والاستفادة ولا طريق للوصول أقرب من طريق الرابطة. ومن سلكها فهو سعيد.»

«لقد ورد في كتاب الفقرات لخواجه أحرار... إنَّه قال: القول هنا باعتبار النفع. يعني ظلَّ المرشد أنفع للمريد من أن يشتغل المرید بذكر الله... إلخ»⁹⁸

إذًا يتضح لنا أنَّ الرابطة لم تكن في عهد الرباني ركنًا من أركان الطریقة النقشبندیة؛ فضلًا عمَّا قبله. وإنَّما خالد البغدادي هو الذي وضع لها تعريفًا خاصًا، وزاد على هذا التعريف من جاء بعده من خلفائه كما وضعوا لها شروطًا ورتبوا على هيئة من النسك حتى اعتقدها جماعة من أتباعهم أمَّا

97 علي بن الحسين الواعظ الكاشفي البيهقي، رشحات عين الحياة ص/ 354، 360. صاري كز، إسطنبول-1291هـ.

98 وهذا النصُّ الأصليُّ باللُّغة الفارسية للرسالة المذكورة ورقمها: 187. : «خواجه محمد أشرف كابلي صدور ياقه؛ در بيان آنکه طریق رابطة، أقرب طرق موصله است. و در بیان آنکه رابطة نافع تر است مریدرا از ذکر گفتن. أو کتابت که یارانرا نوشته بودند بنظر در آید. أحوال مسطورة مطلق كشت. بدانند كه حصول رابطة شيخ هرمیدرا ني تكلف و بي تعمل علامت مناسبت تام است در میان بير و مرید كه سبب افاده و استفاده است. و هیچ طریقی اقرب بوصول از طریق رابطة نیست. تا كدام دولتمندرا بان سعادت مستعد سازند. حضرت خواجه أحرار... در فقرات می آزند كه سایه رهبر به است از ذکر حق. به گفتن باعتبار نفع است. یعنی سایه رهبر نافع تر است مریدرا از ذکر گفتن... إلخ». نسخة

شكل من أشكال العبادة. وسعى كثير منهم لأدائها والدفاع عنها تقرّباً إلى الله، وهم يجهلون أنّه لا يتقرّب العبد إلى الله إلا بما جاء في كتاب الله وستّة رسوله صلى الله عليه وسلّم من أشكال العبادات كما يجهلون أنّ الكتب المنزلة قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم إنّما حرّفها اليهود والنصارى بأمثال هذه البدع {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْمَلُونَ} وقد قال الله تعالى فيهم: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْزُوا بِهِ ثَمَّ قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}⁹⁹

أما الرجل الثاني الذي تناول الرابطة بعد عبادة الله الأحرار، هو تاج الدين بن زكريا بن سلطان الهندي زميل أحمد الفاروقي. جاءت في عُجَالَتَيْنِ له عباراتٌ مختصرةٌ حول الرابطة. منهما الرسالة المعروفة بـ«التاجية». قال في مقطع منها:

«الطريقة الثانية: طريقة الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة وتحقق بالتجليات الذاتية. فإنّ رؤيته بمقتضى -هم الذين إذا رأوا ذكروا الله- تفيد فائدة الذكر. وصحبته بموجب -هم جلساء الله- ينتج صحبة المذكور، وإذا تيسر صحبة مثل هذا العزيز، ورأيت أثره في نفسك، فينبغي لك أن تحفظ ذلك الأثر الذي تشاهد فيك بقدر الإمكان. وإن حصل لك بركة ذلك الأثر. هكذا تفعل مرة بعد أخرى، متى تصير تلك الكيفية ملكة لك. وإن لم يظهر من صحبة ذلك العزيز أثر، ولكن حصلت به محبة وانجذاب، فينبغي أن تحفظ صورته في الخيال وتتوجه للقلب الصنوبري، حتّى تحصل لك الغيبة والفناء عن النفس. وإن وقفت عن الترقى، فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن في خيالك وتعتبر من كتفك إلى قلبك أمراً ممتداً. وتأتي بالشيخ على ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك فإنّه يرجي لك بذلك حصول الغيبة والفناء»¹⁰⁰

وقال تاج الدين بن زكريا فيما دونه تحت عنوان «آداب المشيخة والمريدين»: «فطريق الرابطة -وهي رابطة القلب مع الشيخ-: فرؤيته بمقتضى -الذين إذا ذكر الله- تحصل لهم الفائدة كما تحصل الفائدة من الذكر بموجب -هم جلساء الله- لأنّ الشيخ كالميزاب، ينزل الفيض من بحره المحيط. وإن وجد

99 سورة البقرة: 75-79.

100 تاج الدين بن زكريا الهندي، الرسالة التاجية. مكتبة جامعة إسطنبول - خزنة الآثار النادرة، رقم/3640

الفتور في الرابطة، فيحفظ صورة شيخه في خياله بموجب -المرء مع من أحب- فيحفظ الصورة، يتحقق ويتّصف المرید بأوصافٍ وأحوالِ الشيخ كما كان له»¹⁰¹

هكذا يبدو أن الرابطة لم تعد هذا الحدّ من التّطوّر إلا بعد مُضيِّ ثلاثمائة عامٍ على موتِ عبیدِ الله الأحرار؛ أوّل من نطق بهذه الكلمة، حتّى جاء خالد البغداديّ فبناها على شروطٍ عدّة ذكرناها آنفاً؛ وجعل منها «أصلاً من أصول الطريقة النقشبندية»؛ كما يبدو في الوقت ذاته من هذه العبارات الرّكيكة الجافّة الخالية من آثار الدّوق السّليم أنّ شيوخ هذه الطائفة كانوا ولا يزالون بمنأى عن العلم والمعارف والبلاغة والثّقافة...

* الغاية من الرابطة

الرابطة من حيث الغاية ليست إلا وسيلة لترويض المرید على تبعية الشيخ بكلّ ما يملك من نفس ومال ومقدرة. ويؤكد على هذه الحقيقة ما قد ورد في مقولات شيوخ الطريقة من ترغيب المرید على الاستسلام المطلق للشيخ. بل وإنّ طاعة المرشد عند هذه الطائفة، من أهمّ آداب المرید مع شيخه. وقد جعلوها شرطاً مفروضاً على كلّ من ينخرط في سلّكهم كما مرّ ذكره في باب «البيعة». كذلك رابطة الشيخ (أي استحضر صورته في الدّهن) أفضل من ذكر الله عندهم، كما ورد في فقرات الأحرار.

إذاً يجب هنا التفريق بين كلمتي «البيعة» و «الاتباع» إذ لا مساعٍ للاتباع في «آداب المرید مع شيخه» وإتّما المطلوب من المرید أن يكون تبعياً وليس مُتبعاً لأنّ المتّبع يتماشى مع المتّبع عن وعيٍ ووافقته عن فكرٍ وتعقّلٍ بعد استكشاف العلل ومقارنته الأسباب، وبحته في المقدمات؛ ليستخلص النتائج منها بالحكم والتصديق وهذا من صفات المؤمنین المتسنّين بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ كأصحاب سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم، رضوان الله عليهم أجمعين. أمّا الإنسان التبعي فليس أمره كذلك. وإتّما هو مسلوب الإرادة، مضطرّ لا خيار له، ولا علم له بما قد سلّب منه. ولكنّه ليس كمن هو

101 من المصدر السابق أيضاً؛ إلا أنّ عبارات هذا الشيخ الهنديّ قد جاءت في منتهى الرّكاكة والتكلف؛ تدلّ على قرينه العجمية وطبعه الجلف وخطئه النافه من العلم. و بالتالي يبرهن على أنّ الخلط و العبث والتعريف الذي تعرّضت له

المفاهيم الإسلاميّة الأصلية، إنّما هي صنعة أصحاب تلك الطبيعة الغليظة التي لم يبنكوا بسببها من المعرفة الصحيحة بحقيقة الإسلام حتّى دفعهم أهواؤهم إلى اختلاق بدعٍ وهرطقاتٍ استقوها من عقائد أهل الشرك. فندسوها إلى الدين الخفيف جهلاً أو فساداً، والله أعلم ببيّانهم.

مضطهداً مقهوراً ومكرهً على فعل شئ أو تركه؛ ولا مثل من تحكّم فيه ظالم لا طاقة له به؛ ولا كمن هو مولّع بشخص لحسنه وجماله؛ ولكنّه مغفلٌ مطبوعٌ، جَذَبُهُ دَجَالٌ من ورائه، فألقى عليه محبته وهيبته بدعاياتٍ خلابةٍ ودعواتٍ مأكرةٍ وحيلٍ شيطانيةٍ كما يفعله بعض شيوخ الصوفيّة من طأطأة الرأس، والتصنع في اللباس والكلام، وأمر المريدين بأورايدٍ غريبةٍ ومناسكٍ دخيلةٍ مثل عدّ الأذكارِ بالحُصِيِّ والمِسْبَحَةِ، وبكمياتٍ معينةٍ يحددها لهم. ذلك أنّ للكثرة والحجم تأثيراً عظيماً على نفسية الإنسان الجاهل. إنّه يوقر الهامة الضخمة، خاصة إذا كانت فوقها عمامة من لفائف مكدّسة؛ يتهيب الزحام، وينجرف من وراء الدهماء وهو دوماً ذنّب؛ لا رأي له يستقلّ به؛ وهو رمز الحماقّة في التصفيق عندما يصقّق الناس، وإن كان لا يدري لماذا يصقّقون، ولماذا يطبلون! ولهذا يجوز أن نقول إنّ الرابطة وسيلةٌ خاصّة لاصطياد هذا النوع من العامّة وربطه بالشيخ بحيث لا يكاد ينفكّ منه. وإنّ رآه يرتكب الحرام،¹⁰² ويطيعه في معصية الله مع أنّه «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي مَعْرُوفٍ»¹⁰³

* عقوبة المخلّ بآداب الرابطة عند النقشبندية.

تتميّز الطريقة النقشبندية بين سائر طرائق الصوفيّة بنظامها وآدابها التي ساعدتها على التوسّع والانتشار في صفوف ملايين الناس عبّر القرون. وهي كفيّلة بقيامها ودوامها حتّى هذه الساعة بحكم هيمنتها على القلوب وترسيخ عقائدها في قريرة النفوس. ويعود السبب الأساسي في ذلك إلى الآداب التي تقوم عليها علاقة الخلف بالسلف وموقف المريد من الشيخ في هذا المذهب الخطير.

لقد سبق الكلام في باب تعريف الرابطة وشروطها، بأنّ المريد يجب عليه أن يكون على صلة دائمة مع شيخه بأداء الرابطة له. «وإلا انقطعت البركة عنه» فهو يرى نفسه مهتداً بذلك إذا فتر باله عن شيخه ولو لحظة. هذا من جملة اعتقادهم في مسألة الرابطة. وقد أحدث بعض المتأخّرين من شيوخ هذه الطائفة شرطاً آخر في الطريقة ليتأكّد به صلة المريد بالشيخ أكثر مما هي في البداية. وذلك أن يحمل المريد نسخة من الصورة الفوتوغرافية لشيخه معه. فينظر إليها كلّما وجد فرصة. وهم أتباع سليمان حلمي طونخان، وأتباع الملائ عبد الحكيم البلوانسي.¹⁰⁴

102 راجع موضوع البيعة

103 عن علي ابن أبي طالب. رواه مسلم. رقم الحديث: 3423.

104 كل من الطائفين منتشر في تركيا. للطائفة السليمانية مراكز ضخمة معمورة في المدن الرئيسية وعلى رأسها إسطنبول. يهتمون بتحفيظ القرآن خاصة، وهذا مما يزيل الشكوك حول معتقداتهم ويؤكد ثقة العالين بهم. وأما جماعة عبد الحكيم

وإذا كانت الرابطة من أعظم أركان الطريقة النقشبندية، فإن القاعدة الأساسية فيها (بالنسبة للخليفة المأذون) أن لا يأمر المريدين برابطة نفسه، إذا كان شيخه لا يزال على قيد الحياة. بل يجب عليه أن يأمرهم برابطة مَنْ أذن له بالخلافة.

أما إذا خالف النائب هذه القاعدة فإنه يُعدُّ ممن نقض العهد. وَيَحْكُمُ عليه شَيْخُهُ بِالطَّرْدِ من الطريقة. وهو أشدّ عقوبةً عندهم. لأنّ من طُرِدَ من الطريقة، فإنه يُعدُّ كذلك مطرودًا من باب الله ومن باب رسوله في اعتقادهم؛ فيتبرؤون منه، وإن لم يرد في مدوناتهم ما يفيد أنهم يحكمون عليه بالكفر.

وبهذا يفتضح سرُّ آخر من أسرارهم بأنهم يتقلّبون في أمواج من التعارض والتناقض وتزداد الشقة بذلك بينهم وبين الإسلام. لأنّ المسلم لا يجوز له أن يتبرأ من المسلم ما لم يجده قد خلع رقبته الإسلام من عنقه.

أما الطرد في الطريقة النقشبندية، كما شرحناه فيما أصدرنا تحت عنوان: «موقف ابن عابدين من الصوفيّة والتصوف»¹⁰⁵ فإنه موضوع هامّ وعقوبة شديدة عند هذه الطائفة.

ويبدو أنّ الذي أحدث هذه القاعدة هو خالد البغداديّ. فقد جاء فيما كتبه بعض النقشبنديين، أنّ خالدًا طرد عبد الوهاب السوسي¹⁰⁶ إذ كان نائبًا عنه في مدينة إسطنبول. لأن عبد الوهاب أمر المريدين برابطة صورته، فأصبح بذلك منافسًا لمن يستخدمه. بينما كان يجب عليه حسب آداب الطريقة أن يأمرهم برابطة خالد البغداديّ الذي أحدث قاعدة الطرد، كما أحدث للرابطة شروطًا وآدابًا خاصّة. فتطوّر النزاع بينهما إلى حدود خطيرة. كما سنشرحه في نهاية الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

البُغْدَادِيّ (البغدادي)، فلهم مركز رئيسي في مدينة أديامان Adiyaman. وهي مدينة مهمّات القديمة الواقعة على جنوب شرقي تركيا. هم وفودٌ ينتشرون في أنحاء تركيا للدعوة إلى الانخراط في صفوفهم. وهم أساليب ماهرة في نشر دعوتهم، يهتمون خاصةً بمن أصابته نكبة في ماله أو عمله أو قريبه، وهو في حاجة إلى من يُعِينُهُ. يُتَقَلَّبُونَ جلسات في البيوت ويتكيزن في محاوراتهم التبشيرية خاصةً من ذكر الكرامات العجيبة التي يدعون أنّها صدرت عن شيخهم وبطريق غسل الدماغ. يوجهون دعوتهم - في النُفُجِ الأول - إلى حفلة الناس من المغفلين والجهلة والذين يعانون من حالات نفسية. إنّما يهتمون بجمع من في هذه المستويات البسيطة من الناس، أولاً: لسهولة ذلك؛ وثانياً: لإعطاء صورة بريدون بما أنّ الناس يهتمون على شيخهم؛ وثالثاً: إنّه غوت العالمين ينصرف في ملك الله فيكشف العموم عن البائسين... وهذا ما يفتح المجال لاعتقاد المقلّين والمفتحين بهم في النهاية! هذه الطائفة مركز بقرية اسمها المنزل على مقربة من مدينة أديامان. ومن الأهمية بمكان أنّ هذه الطائفة خطورة بالغة فقد خضاعة الإسلام في الساحة التركية.

105 رسالة تحليلية و انتقادية رددا فيها على ما جاء في رسالة «سل الحسام الهنديّ لنصرة مولانا خالد النقشبنديّ» للمؤلف المذكور.

106 راجع موضوع «خلفاء خالد البغداديّ، و أسلوب تعامله معهم»، في نهاية الفصل الرابع.

كذلك نائبه الذي كان قد أرسله إلى داغستان -وهو إسماعيل الشيرواني- لما بلغ خالدًا أنّ خليفته هذا يأمر المريدين برابطة نفسه (بدل أن يأمرهم باستحضار صورة شيخه -خالد-)، وجّه إليه كتابًا يهدّده فيه. فقد نقلتُه جماعةٌ من النقشبنديّين بنصّه الكامل ضمن ما جرت به أقلامهم من رسائلٍ دونوها في شؤون طريقتهم.

لا شك أنّ الطريقة النقشبندية قد اكتسبت مناعةً بهذه الضوابط التي هي بمنزلة نصوص من كتاب الله عندهم. إذ لها حرمة عظيمة في اعتقادهم، كما لها إمكان التنفيذ من قبل مشائخهم في كلّ ساحة انتشروا فيها.

* استدلالهم في إثبات الرابطة ومقالاتهم في الدفاع عنها وما قيل في ردّها.

لقد حاول عدد من مشائخهم أنّ يدافعوا عن الرابطة، فبدلوا ما عندهم من جهود، وأفرغوا ما يملكون من طاقة تندesh منها العقول. ذلك أبوا إلاّ يكون لها أساس من الكتاب والسنة؛ فضايق بهم الأمر حتى استدلّوا بآيتين كريمتين من كتاب الله، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} ¹⁰⁷ وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ¹⁰⁸ وأتبعوها بحديث «المرء مع من أحبّ» ¹⁰⁹

بهذا الأسلوب الغريب أرادوا أن يثبتوا الرابطة ويجعلوها شكلاً من أشكال العبادة في الإسلام. ولكن فشلوا في محاولتهم. وقام عليهم الدليل من خلال ما استدلّوا به. إذ لا نجد بين طبقات المفسّرين من علماء الإسلام أحدًا أشار إلى الرابطة (وبشكلها الذي رسمها زُهَبَانُ هذه النحلة) في تفسير الآيتين المذكورتين، ولا محدثًا رَمَرَ إليها بكلمة واحدة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلّم.

107 سورة المائدة/35.

108 سورة التوبة، / 119.

109 متفق عليه. البخاري، رقم الحديث/5702، مسلم، رقم الحديث/4779.

فيبدو وبكل وضوح أن أحدَهُم لم يُرهِق نفسه حتى بمراجعة مصدرٍ واحدٍ من تفاسير علماء الإسلام ليتأكد من معنى الآيتين المذكورتين.

أما انصرافهم عن مراجعة كتب التفسير على كثرة عددها، فليس من علامة ثقتهم بما عندهم، أو لإعجابهم بما سوّلت لهم أنفسهم فحسب، بل يبرهن ذلك على مبلغهم من العلم بطرق الاستدلال. لأن من استدللّ بآية كريمة وجب عليه في الخطوة الأولى أن يتأكد من سبب نزولها. ثم يترتب عليه أن يتحرى المناسبة بينها وبين الموضوع الذي يربطه بها.

إن الآية الكريمة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} هي تنمّة لما قبلها. وهو قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ. ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا. وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ¹¹⁰

فقد ورد في عددٍ من مصادر التفسير بأن هذه الآيات نزلت في المشركين، وليس فيها أدنى دلالة تُمتُّ برابطة النقشبنديين. فالعجب العجب من أمر هذه الطائفة، أنهم كلما وجدوا عالماً من علماء الإسلام يستدلّ بآية كريمة على شركٍ من يدعي أنه مؤمن وهو يتمرغ في أوحال الزندقة والإشراك بالله على مرأى من الناس، جُنَّ جُنُونُهُمْ، وثاروا عليه، وتصنعوا بالدفاع عن أنفسهم: أن «حمل هذه الآية الكريمة منه على عوام الموحدين زور وافتراء وتلبيس»؛ وكيف بهم أنهم قد تشبثوا بآية كريمة نزلت في المشركين فاستدلوا بها في إثبات رابطتهم وليس بينهما أدنى قرينة؟! ¹¹¹ لقد روى البخاري ومسلم في سبب نزول الآية المذكورة أنفاً «من حديث أبي قلابة عن أنس بن مالك: أن نَفَرًا مِنْ عُكَلٍ ثَمَانِيَّةٍ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ فَاسْتَوْحُّمُوا ¹¹² الْأَرْضَ، فَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ فَتَصِيبُونَ مِنْ أَبْوَاهَا وَأَلْبَانِهَا؟ قَالُوا بَلَى. فَخَرَجُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَاهَا وَأَلْبَانِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِي

110 سورة المائدة/33، 34.

111 للإطلاع على نحو هذه المناجزة بين الأطراف المتنازعة من النقشبنديين والوهابيين، راجع كتاب شواهد الحق لمؤلفه يوسف بن إسماعيل النبهاني: الباب الثالث. (الرسالة الثانية من مجموع الكتيبات المطبوعة بعنوان: علماء المسلمين والوهابيون)

مكتبة إيشيك طباعات متكررة/إسطنبول.

112 أي استنقلوا الأرض، فلم يوافق هواؤها أبدانهم.

وَأَطْرَدُوا النَّعَمَ. ¹¹³ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمْ، فَأَذْرَكُوا. فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ، فَقَطَّعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسَمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ؛ ثُمَّ نُبِدُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا» ¹¹⁴

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ¹¹⁵ فقد أجمع العلماء على أنّ هذه الآية وما قبلها نزلت في غزوة تبوك، حيث لا يغيب على ذي لبّ ما تتضمن هذه الآيات من توبة الله سبحانه على النبي والمهاجرين الذين اتبعوه في ساعة العسرة، وكذلك على الثلاثة الذين خَلَفُوا. وهم كعب بن مالك، ومُرَارَةُ بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي.

نعم هذه الحقائق لا تغيب عن أيّ ذي علم بكتاب الله تعالى، ولكن غابت عن شيوخ النقشبندية. ولا نقول أنّهم أرادوا بذلك أن يحرفوا كتاب الله ظلماً وعدواناً، فتواطؤا فيما بينهم على تأويل هذه الآية في إثبات الرابطة؛ ولكن نقول: إنّهم تورطوا في هذا المأزق اغتراراً بمن افتري على الله كذباً. واقتفوا أثر مَنْ تَعَمَّدَ بِهَتَانًا عَظِيمًا، فسوّلت له نفسه أن يستدلّ بهذه الآية الكريمة ليُصِقَ تلك الهرطقة الْمُقْتَبَسَةَ وَالْمُقَلَّدَةَ مِنْ عَقِيدَةِ سَحَرَةِ الهند بعقيدة المسلمين. وهذا من غبائهم وإعجابهم بمن أصبح محلّ الثقة منهم فيه حتى ولو حرّف كتاب الله! فاتَّبِعُوهُ وخالفوا الجمهور بهذا الرأي السقيم في تفسير الآيتين المذكورتين، وشدّوا بذلك عن الجماعة أيّما شدوذا!

أما علماء الإسلام فقد جاءت نظرتهم منسجمة متقاربة في تفسيرهما من حيث الأصل وإن اختلفت ألفاظهم كما سنتبين من عبارات نقلناها من تصانيف عدد منهم تمحيصاً للأمر:

قال أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

{وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} يقول: اطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة هي الفعيلة. من قول القائل توسّلتُ إلى فلان بكذا أي بمعنى تقربتُ إليه. ومنها قول عنتره:

¹¹³ أي استاقوها غصياً.

¹¹⁴ مسلم، رقم الحديث/4779

¹¹⁵ سورة التوبة/119.

«إن الرجال لهم إليك وسيلة* أن يأخذوك تكحلي وتخضبي»

وقال في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة: «وإنما معنى الكلام {وَكُونُوا مَعَ الصَادِقِينَ} في الآخرة باتقاء الله في الدنيا (...). فَسَّرَ ذَلِكَ مَنْ فَسَّرَهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ بِأَنْ قَالَ مَعْنَاهُ: كونوا مع أبي بكر وعمر أو مع النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين رحمة الله عليهم.»

«حدثنا ابن وكيع عن يزيد بن أسلم عن نافع. قال: قيل للثلاثة الذين حُلفوا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَادِقِينَ} محمد وأصحابه»¹¹⁶

ومن هؤلاء المفسرين صاحب الكشاف أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري؛ قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

«الوسيلة: كل ما يتوسل به. أي يُتقرب من قرابة أو صنيعه أو غير ذلك. فاستُعيرت لما يُتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي.»

وقال في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة: «{مَعَ الصَادِقِينَ}... وهم الذين صدقوا في دين الله قولاً وعملاً أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}. وقيل هم الثلاثة. أي كونوا مثل هؤلاء في صدقهم ونياتهم»¹¹⁷

ومن أعلام المفسرين أبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الرازي؛ قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة «كونوا متقين عن معاصي الله متوسلين إلى الله بطاعات الله.»

¹¹⁶ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن.

¹¹⁷ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقبول في وجوه التأويل.

وقال في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة: «{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} يعني مع الرسول وأصحابه في الغزوات؛ ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت»¹¹⁸

ومن كبار المفسرين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الحزرجي الأندلسي؛ قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

«قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} الوسيلة: هي القربة؛ عن أبي وائل والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء و السدي وابن زيد وعبد الله بن كثير، وهي فعيلة من توسلت إليه أي تقربت. قال عنتره:»

«إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك تكحلي وتخضبي»

والجمع الوسائل قال:

«إذا غفل الواشون عُدنا لوصولنا * وعاد التصافي بيننا والوسائل»

ويقال: منه سلتُ أسأل. أي طلبتُ. وهما يتساولان. أي يطلب كل واحد من صاحبه؛ فالأصل الطلب؛ والوسيلة القربة التي ينبغي أن يطلب بها. والوسيلة درجة في الجنة وهي التي جاء في الحديث الصحيح بها في قوله عليه السلام: «فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»

وقال المصنف أيضا في تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة الإسراء وهي قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ..}

« قال: نفر من الجنّ أسلموا، وكانوا يُعبدون. فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم، وقد أسلم نفر من الجنّ، فاسلم الجنّيون، والإنس الذين كانوا يعبدون لا يشعرون؛ فنزلت ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ..﴾»

وقال في تفسير الآية التاسعة عشر بعد المائة من سورة التوبة:

«قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن شقيق، عن عبد الله، وهو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي أصدقوا وألزموا الصدق تكونوا من أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا ومخرجًا. وقال الإمام أحمد، حدّثنا أبو معاوية، حدّثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا. أخرجاه في الصحيحين»¹¹⁹

ومن هؤلاء المفسرين، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي؛ قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون إلى قرابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي. من وسل إلى كذا، إذا تقرب إليه، وفي الحديث: الوسيلة منزلة في الجنة.»

قال المصنّف في تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ..﴾ «هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله القربة بالطاعة - أيهم أقرب - بدل من واو يبتغون. أي يبتغي من هو أقرب منهم إلى الله تعالى الوسيلة، فكيف بغير الأقرب! ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كسائر العباد. فكيف تزعمون أنهم آلهة؟!»

وقال البيضاوي في تفسير الآية التاسعة عشر بعد المائة من سورة التوبة؛ «{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} فيما لا يرضاه {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} أي في دين الله نيةً وقولاً وعملاً»¹²⁰

ومنهم أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي؛ قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة: «{وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} هي كل ما يتوسل به، أي يقترب من قرابة أو صنعة، أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك السيئات.»

وقال في تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة الإسراء: «{يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} يعني أنّ آلتهم أو لك يبتغون الوسيلة، وهي القرية إلى الله عز وجل. (أَيْهِمْ) بدل من واو يبتغون. و(أي) موصولة. أي يبتغي من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب! أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون. فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير.»

وقال في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة:

«{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} في إيمانهم دون المنافقين؛ أو مع الذين لم يتخلفوا؛ أو مع الذين صدقوا في دين الله نيةً وقولاً وعملاً. والآية تدلّ على أنّ الإجماع حجة، لأنّه أمر بالكون مع الصادقين. فلزم قبول قولهم»¹²¹

ومنهم علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشحي المعروف بالخازن. قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

«قوله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} أي خافوا الله بترك المنهيات؛ {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} اطلبوا إليه القرب بطاعته والعمل بما يرضى وإنما قلنا ذلك، لأنّ مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما. أحد النوعين ترك المنهيات، وإليه الإشارة بقوله -اتَّقُوا اللَّهَ-؛ والثاني التقرب إلى الله

120 أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

121 أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل.

بالطاعات. وإليه الإشارة بقوله -وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ- والوسيلة فعيلة من وسل إليه إذا تقرب إليه ومنه قول الشاعر:»

«(إنّ الرجال لهم إليك وسيلة) أي قرابة. وقيل معنى الوسيلة المحبة. أي تحببوا إلى الله عز وجل.»

وقال الخازن في تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة الإسراء:

«قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} أي الذين يدعونهم المشركون آلهة: {يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ..} أي القرية والدرجة العليا. قال ابن عباس: هم عيسى، وأمه، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم. وقال عبد الله ابن مسعود: نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، ويعلم الإنس بذلك فتمسكوا بعبادتهم. فعيرهم الله وأنزل هذه الآية. وقوله تعالى: {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله، فيتوسلون به. وقيل أيهم أقرب بيتغي الوسيلة إلى الله، ويتقرب إليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة.»

وقال المصنف في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة:

«قوله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} يعني في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم. {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} يعني مع من صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت وتركوا الغزو»¹²²

ومن مشاهير المفسرين المعول عليهم أبي الفداء عماد الدين الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير؛ قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

«يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه. وهي إذا قرنت بالطاعة، كان المراد بها الإنكفاف عن المحرم وترك المنهيات. وقد قال بعدها: {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس: أي القرية. وكذا قال مجاهد، وأبو وائل، والحسن وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي وابن زيد.»

قال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ..} وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر:

«إذا غفل الواشون عُدنَا لوصلنا* وعاد التصافي بيننا والوسائل.»

«والوسيلة: هي التي يُتوصل بها إلى تحصيل المقصود. والوسيلة أيضًا علَمٌ على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم.»

وقال ابن كثير في تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة الإسراء:

«عن ابن مسعود في قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ..} قال نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجنّ، فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يَعْبُدُونَهُمْ لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية.»

قال المصنّف في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة بعد أن نقل حديثًا مطولاً عن الإمام أحمد مرفوعاً من طرف كعب بن مالك الذي نزلت فيه ومن معه الآية {وَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا... إلخ} قال عبد الله ابن عمر: «(اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) مع محمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه»¹²³

ومن علماء التفسير أبو طاهر مجد الدين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

«{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} الدرجة الرفيعة. ويقال اطلبوا إليه القرب في الدرجات، والأعمال الصالحات.»

123 أبو الفداء عماد الدين الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم.

وقال في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ { أَطِيعُوا اللَّهَ فِيْمَا أَمْرَكُمْ (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) مع أبي بكر وعمر وأصحابهما في الجلوس والخروج بالجهاد»¹²⁴

ومن مشاهير علماء الترك في فن التفسير محمد بن محمد بن مصطفى المعروف بابي السعود العمادي قال في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ { لَمَّا ذُكِرَ عِظْمُ شَانِ الْقَتْلِ وَالْفَسَادِ وَبُيِّنَ حُكْمُهُمَا، وَأَشِيرَ فِي تَضَاعِيفِ ذَلِكَ إِلَى مَغْفِرَتِهِ تَعَالَى لِمَنْ تَابَ مِنْ جُنَايَتِهِ، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَتَّقُوهُ تَعَالَى فِي كُلِّ مَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصي التي من جملتها ما ذكر من القتل والفساد، وبفعل الطاعات التي من زمرتها السعي في إحياء النفوس، ودفع الفساد والمسارعة إلى التوبة والاستغفار. «وابتغوا» أي اطلبوا لأنفسكم «إليه» أي إلى ثوابه والزلفى منه، «الوسيلة» هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويقترب إلى الله تعالى من فعل الطاعات، وترك المعاصي، من وسل إلى كذا، أي تقرب إليه بشيء... إلخ»

وقال العمادي في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا { خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجاً أولياً. وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك خاصة - اتقوا الله - في كل ما تأتون وما تذررون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر المغازي دخولاً أولياً؛ { وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نيةً وقولاً وعملاً؛ أو في كل شأن من الشؤون»¹²⁵

124 أبو طاهر عبد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي القيروزآبادي، تنوير المقاس في تفسير ابن عباس.

125 أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.

ومن مصادر التفسير المعتمدة عند عامة المسلمين وحتى عند النقشبندية أنفسهم، تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. جاء في تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة بإيجاز وهذا نصه:

«{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ { أَي خَافُوا عِقَابَهُ بِأَن تَطِيعُوهُ - وَابْتَغُوا - اطلبوا - إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ - مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ. »

أما الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة فقد جاء تفسيرها بالنص التالي:

«{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ { بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) فِي الْإِيمَانِ وَالْعَهْدِ بِأَن تَلْزَمُوا الصِّدْقَ»¹²⁶

وقد جاء في تفسير هيئة من الشيعة الإمامية تحت إشراف آية الله ناصر مكارم شيرازي نحو ما قال المفسرون من أهل السنة في تفسير الآيتين المذكورتين. وهذا ما تيسر تعريبه من عباراتهم -باللغة الفارسية- لتفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة المائدة :

«{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ { أَي اتَّخَذُوا وَسِيلَةً لِلتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ وَاخْتَارُوهَا. (...) إِنَّ -الْوَسِيلَةَ- فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ أَعْلَاهُ لَهَا مَعَانٍ كَثِيرَةٌ وَوَاسِعَةٌ. فَإِنَّ كُلَّ سَعْيٍ بَاعَثَ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الْبَابِ الْمُقَدَّسِ لِلرَّبِّ تَشْمَلُهُ الْوَسِيلَةُ. أَمَّا الْأَهَمُّ مِنْهُ فَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْأَكْرَمِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ عَمَلٍ جَمِيلٍ وَخَيْرٍ. »

وقالوا في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة بإيجاز:

«{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ { اجْتَنَبُوا عَنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»

127

ثم ورد في تفسيرهم تفصيلاً عن أهل الصدق، وأنه يجب ملازمتهم.

126 جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين.

127 تفسير نمونه، بإشراف آية الله ناصر مكارم شيرازي.

كانت هذه نُبذة من تفسير العلماء البارزين في هذا الفن من عناصر مختلفة. وعلى الرغم من اختلاف لغاتهم الأصلية، ومذاهبهم ومواطنهم، فقد أجمعوا على أنّ الوسيلة الواردة في سورتي المائدة والإسراء هي كلّ عمل يقرب العبد إلى الله من فعل الخيرات وترك المعاصي. ولم يربط أحد منهم ولا من غيرهم من علماء التفسير، ولا من علماء الحديث بين كلمة الوسيلة وبين مفهوم الرابطة المعهودة بأدنى صلة، كما هي الحال بالنسبة لقوله تعالى: {وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ} الوارد في سورة التوبة. كذلك جاء في تفسير العلماء له على نقيض ما جاء في تأويلات النقشبنديين الذين بذلوا جهودًا بالغة ليمدّوا الجسر بين رابطتهم المستوحاة من البرهمية، وبين آيات الله بطرق ملتوية يستحيل أن يوافق عليها أهل العلم والبصيرة.

إنّ الخلاف الذي أثبتّه الباحثون بين الصوفية وعلماء الإسلام قديمًا وحديثًا، في الحقيقة لم يقتصر على أمور هامشية كما يظنّه البعض؛ بل تجاوز إلى حدود بعيدة في جميع الجهات بدءًا من التّطرّف في ذات الله تعالى وانسيافًا إلى التعبير عن أسرار الكون والحياة وإلى تأويل آيات القرآن من محكماتها ومتشابهاتها خاصّة، كما سبق في تفسير الآيتين المذكورتين. فقد ابتدعوا طريقة خاصّة في تفسير القرآن سُمّيَ بالتفسير الإشاري، فاتسعوا بذلك في تأويل الآيات إلى حدود خرجوا بها عن إجماع أئمة التفسير. ذلك ليستدلّوا بها على صحّة ما اختلقوه من معتقدات شاذّة، وما استقوّه من مستنقعات الأديان من أفكار وفلسفات غريبة كلّما أشارت لهم أنفسهم؛ كقراءتهم «كلّ شيء» -بالرفع- في قوله تعالى: «إنا كلّ شيء خلقناه بقدر»، ليستدلّوا بذلك على صحّة فكرة «وحدة الوجود»، وليقولوا «إنّ الله هو كلّ شيء في هذا الكون» .

لقد جرت أقلام طائفة من متأخري هذه الفرقة في إثبات الرابطة وهم فريقان: فريق منهم أفردوا الرابطة وحدها في عُجالات، دون غيرها من مباحث هذه النحلة؛ وفريق منهم تناولوا الرابطة كشرط من الموضوع، وتطرّقوا إلى ما بدا لهم من شتى مسائل التصوف على اختلافها.

* من أهم ما كُتِبَ في مسألة الرابطة

أما الذين أفردوا الرابطة واقتصروا عليها، فقد عثرنا لهم على تسع عُجالاتٍ.

منها، رسالة في تحقيق الرابطة.¹²⁸

لقد سبق فيما ذكرنا أنّ هذه الرسالة خطاب كتبها خالد البغداديّ باللّغة العربيّة وبعثها إلى أحد مريديه في إسطنبول إذا صحّ الإسناد. وهو السيد محمّد أسعد أفندي نقيب الأشراف ورئيس هيئة المعارف يومئذ، ومؤسس مكتبة آياصوفيا.

فقد أثار المؤلّف مشكلة الرابطة بهذه الرسالة على حين لم يكن لها شأنٌ وذكّر في أوساط الصوفيّة حتّى أيّامه، وإنّ ورد شيء قليل منها في الرسالة التاجية لتاج الدين بن زكريا الهنديّ، وعلى الرغم من أنّ المؤلّف لم يزد شيئاً في تعريف الرابطة على ما جاء في التاجية إلاّ أنّه قد بذل جهداً بالغاً في إثباتها بنقل عسوائيّ من أقوال مَنْ سبق من الرجال من أمثال الزمخشري، والإمام أكمل الدين، والغزاليّ، والسهروردي، والشهاب بن حجر، والجلال السيوطي، وغيرهم. فقد اختار من أقوال هؤلاء ما أعجبه، واستدلّ بها على شرعية الرابطة دون أن تكون بينهما أدنى مناسبة أو قرينة. مما يدل ذلك على خبطه في عمياء، كما يثير الشكّ في أنّ هذه الرسالة قد تكون من صنع من أسندها إلى خالد البغداديّ لأغراض لا نعلم حقيقتها؛ فدرس فيها من أباطيله مالا يُستساغ لأمثال البغداديّ لأنه لم يكن جاهلاً إلى هذا الدرك من العمى والضلال.

وعلى الرغم من أنّ المؤلّف لم يحدّد شيئاً كشروطٍ للرابطة ولا ذكر شيئاً لأداء صورتها في هذه الرسالة، فقد اختلقها مَنْ جاء بعده من خلفائه.

من جملة ما دوّنه النقشبنديون في هذا الموضوع، كتاب «الرحمة الهابطة في ذكر اسم الذات والرابطة». كتبه الحسينُ الدوسريّ. قال في مستهلّه:

«أما بعد، فهذه الرسالة، قد ألفتها سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف. ووريتُ نسبتها إلى غيري لغرضٍ قَصْدْتُهُ، والأعمال بالنيات»

يعترف الدوسريّ من خلال هذه الكلمات بحقيقة تبوح بحقائق أخرى رهيبة عن هذه الطائفة وأغراضها. إذ أنّ من وقع نظره على هذه العبارات، فقرأها بوعي، لابدّ وأن يتساءل في نفسه عمّا أجبر الدوسريّ حتى استباح الكذب لنفسه فاسند هذه الرسالة إلى غيره فترة من الزمن ثمّ رجع عن هذا الاسناد، وهو الذي ألفتها بإقراره.

نعم ما الذي أجبره على هذا التزوير، حتى تنكّر وورى نسبة كتابه إلى غيره، مع أنّه من أقدم خلفاء خالد البغداديّ الذي يعظّمهم النقشبنديون تعظيم الأنبياء والمرسلين، ويعدّوهم من أصحاب الفضائل والأخلاق السامية والصدق والأمانة والبركة والكرامات! أم تُبرهن هذه الحقيقة الدامغة في واقع الأمر، أنّ الرابطة لم تكن شيئاً معهوداً في المجتمع الإسلامي حتى جاء بها خالد من ديار الهند؛ فبدأ هو وخلفاؤه يجسّون النبض حول أحاسيس المسلمين، ويتحرّكون بحيلة، وبخطوات مرحلية لتطبيع المشاعر وترويض النفوس، محاذرين من أن يتعرّضوا لردودٍ عنيفة.

رتّب الدوسريّ كتابه هذا على سبعة أبواب، وخصّ منها الباب الثالث والرابع والخامس والسادس بالرابطة. ثمّ تفلّسَفَ وعبثَ وهاجمَ وحاولَ في شرح ما هو بصدده راعياً فيها من مُنْطَلَقِ إنسانٍ متطرّفٍ ومُرتَبِكٍ ومغتاضٍ؛ كأنه يصرخ، ويسبّ المعارضين لمشربه، ممّا تذبذب من جرّائه كلامه، وتفرّق مرامه. كقوله «أقول لم يقل أحد من أهل التصوف بوجوب الرابطة ولا باستحبابها لِذَاتِهَا»¹²⁹

فجاء كلامه تكديباً واضحاً لِمَا زعم مصطفى فوزي في كتابه «إثبات المسالك في رابط السالك»: «أنّ الرابطة فريضة من جملة الفرائض التي يبلغ عددها أربعاً وخمسين فريضة.»

ثم قال الدوسري: «نحن لا نستدلّ للرابطة من دليل. ودليل مَنْ قَدَدناه من العلماء كاف واف بالمقصود. فالإنكار متوجّه إلى الجنيد والجيليّ والدسوقي ونحوهم الذين قرّروا الرابطة بكيفيتها»¹³⁰

لقد انطلق الدوسريّ بهذه الكلمات من منطلق رخيص «ليصطاد عصفورين بطلقة واحدة» كما قيل في المثل التركيّ. ذلك ليثير المعترض الغيبيّ فيدفعه إلى مستنقعات الصوفيّة حتّى يتمرّغ في أوحالها فيتباحث عما إذا سبق من الجنيد والجيليّ والدسوقي أن تكلموا بشيء في رابطة النقشبندية ثم يعود صفر اليدين.

إنّ مثل هذه المحاولة، لا يغني شيئاً عن الشاك في أمرهم، إلّا الخسارة في العمر. لأنّ الدوسريّ لو كان واثقاً من نفسه لما غادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها من أقوال أولئك الثلاثة ونقلها؛ مع أنّها لا تقوم مقام دليل على بدعيّة الرابة إطلاقاً.

وفي الباب الرابع قال الدوسريّ: «إنّ الرابطة من جملة الوسائل الموصلة إلى الحضور في عبادة الله، والوسائل لها حكم المقاصد.»

ثم بعد إسهاب وإطناب في امتداح الرابطة أتى بإجابة على سؤال مفروض. وهو قوله:

«فإنّ قال الأخ المنكر . تاب الله عليه .: قد عرفنا على هذا القول، أنّ الرابطة تعلق القلب. وهذا القول يمنع. والحبّ في الله واجب ومحبة الصالحين ثابتة؛ لكن من أين لكم أنّ استحضار صورة رجل في الذهن ولو كان من الصالحين تحصلُ به هذه المطالبُ كلّها، وأنّ استحضاركم بسبب تعلق القلب، وأنّه جائز؟»

«والجواب عن هذا من وجوه: الأوّل قولك:»

« من أين لكم استحضار صورة رجل في الذهن تحصل به هذه المطالب كلّها؟»

«أقول: إن هذه المطالب تحصل لنا بما ذكرناه، كما حصلت لك أضدادها باستغراقك في معبودك الذي نبهناك عليه. ولكنها تعمى القلوب التي في الصدور.»

هكذا يظهر ما في ضمير الدوسريّ فتطير من كلماته شرارات الغضب على كل من يتساءل عن رابطته، بإزاء ما في أسلوبه من مجازفة وتكلفٍ وعُجبيةٍ وعجرفةٍ وتمييع. فيجعل من هذه الرسالة لعنةً يتناول بها إلى كل من يشك في علاقة الرابطة بالإسلام، أو ربما تعود عليه الرسالة نفسها نقمةً من كل من يلقى نظرةً فيها.

ومن هذه العجالات، وُريقاتٌ عُنوانها «تبصرة الفاصلين عن أصول الواصلين»¹³¹ سوّدها رجل لم يعد قدره، يدل على ذلك ما تبعثت على هذه الوريقات من عجمةٍ وهفوةٍ وخلطٍ وهرجٍ واضطراب.

تخبط كاتبها التعيس . سليمان زُهدي . وتلجج فيما قذف على هذه الصفحات من كلمات لا ترائط بينها ولا نظام ولا نسق، واستهلّ المسكين بالعتاب والتكثير على الطاعن في الرابطة. وربما تخيل خصماً لا وجود له في الحقيقة. كل ذلك يدل على ما ابْتُلِيَتْ بِهِ هذه الطائفة من رُعبٍ وفزعٍ ودُعرٍ وارتباك. وما استولى عليهم من خوفٍ يتوقعون بسببه في كل لحظة أن يداهم المسلمون وهم مستغرقون في رابطتهم!

نقل الرجل قسطاً كبيراً من رسالة الرابطة للبغداديّ. ثم نقل الآيتين المذكورتين وهو يحاول مستميتاً لإثبات الرابطة على أساسهما بتعبيره الذي نسجه من تركيبات متنافرة، وسياقٍ لا يتفق مع قواعد اللغة العربية وآدابها، فجاءت كلماته ركيكةً مُعقّدةً حالت دون ظهور ما هو بصدده لغرابة الإستعمال؛ وأضفى أسلوبه الوعرُ غموضاً على كلامه، مع غلظته وقسوته في اللهجه فتحولت إلى حجةٍ قامت عليه فدلّت على ما هو أهله.

ومن هذه الرسائل الغريبة أيضاً، كتاب منظوم باللغة التركية اسمه «إثبات المسالك في رابطة السالك»¹³² يشتمل على 1123 بيتاً من الرمل. كتبه شاعرٌ نقشبندِيٌّ من جماعة أحمد ضياء الدين الكُموشْخَانَوِيّ في إسطنبول؛ اسمه مصطفى فوزي¹³³ ورَّتبهُ على ثمانية أبوابٍ بعد توطئةٍ وجيزةٍ استهلَّ بها.

يمتاز هذا الشَّاعرُ بدفاعه الشديد عن الرابطة وتأكيدِه على أنَّها من جملة الفرائض. زعم ذلك في البيت الثامن من كلماته الواردة ضمن الباب السادس تحت عنوان «بيان رابطة المرشد» وانفرد برأيه هذا، عن جميع النقشبندِيِّين؛ بحيث لم يتصدَّ أحدٌ من رجال الطائفة لآ قبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ بمثل هذا الدَّعوى.

ينتمي هذا الرجل إلى أحمد ضياء الدين الكُموشْخَانَوِيّ، كما ذكرنا آنفاً. وهو من الطبقة الثانية بعده. أخذ العهدَ من حسن حلمي بن عبد الله القسطنطيني¹³⁴ الذي هو من خلفاء الكُموشْخَانَوِيّ. فاخرط بذلك في سلك الخالديين. ولا بد هنا من التنبيه على أنَّ حسن حلمي المذكور، ليس هو حسن حلمي بن علي، وَالِدِ الشَّيخِ زَاهِدِ الكُوثرِيّ؛ علماً بأن كليهما منتسبان إلى أحمد ضياء الدين الكُموشْخَانَوِيّ. وقد يلتبس على بعض الباحثين اسمُ أحدهما بالآخر.

للشَّاعر مصطفى فوزي صحبة مع الشيخ زاهد الكوثرِيّ الشهير بتصانيفه وبلهجته القاسية وتطاوله على العلماء.

ومن هذه العُجالاتِ، رسالةٌ أعدَّها رجل اسمه عبد الحكيم الأرزوايُّ، كتبها باللغة التركية عام 1342 هـ.¹³⁵ وهو ثاني مَنْ أَلَمَّ بِأَدَابِ الرابطة وصورة أدائها بعد محمد أمين الكردي. ثمَّ شرحها، وخلط ما خلط في طي هذه الرسالة أكثر من كلِّ مَنْ سبقه ومن جاء بعده.

132 هي رسالة في سبعين صفحة، ألفها تركية، مطبوعة بالحروف العربية سنة 1324 هـ.

133 راجع ترجمته في الكتاب الآتي ذكره: Dr. İrfan Gündüz, Gümüşhanevi Ahmed Ziyâüddin, Hayatı ve Eserleri- Postscript no.I Seha Publishing İstanbul-1994.

134 المصدر السابق، ص/ 144، 145. كذلك راجع إرغام المرید للكوثرِي ص/ 100.

135 سماها «رابطة شريفه رسالسي» وهي مطبوعة بالحروف العربية. نسخة منها موجودة في مكتبة بايزيد. إسطنبول-1342 هـ. تحت رقم/243435. طُبعت أخيراً بالحروف اللاتينية، بعد أن نقلها الشاعر نجيب فاضل قيصاكوراك، إلى اللهجة

التركية المعاصرة.

قال الأرواسي في مستهل رسالته بعد ما أورد الآية الكريمة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } قال بالحرف الواحد: «الرابطة طريق مستقل للوصول إلى الله» ثم قال على سبيل التعريف لها: «الرابطة هي ربط القلب بإنسانٍ كاملٍ مكملٍ واصلٍ إلى مقام المشاهدة متحققٍ بالصفات الإلهية الذاتية. وهي عبارة عن حفظ صورة ذلك الشخص في خزانة الخيال بحضوره وغيابه»¹³⁶

وفي رسالة بعثها إلى أحد مُريدِهِ، اسمه سعيد، اهتم الأرواسي بمسألة الرابطة فيها اهتماماً بالغاً. فعرفها، وشرح أركانها، وصورة أدائها، وفوائدها؛ وقارنها مع الذكر، وحدد مدتها برُبْع ساعة من الزمن.¹³⁷ بينما يقول الشيخ سيداً الجزري: «لأحد ذلك. وأقله خمس دقائق»¹³⁸ وردت هذه الكلمات في رسالة للجزري سماها «الضابطة في الرابطة» كما سيأتي بيانها.

ومن أهم ما ورد في رسالة الرابطة للأرواسي، أقوال في رابطة المرید للشيخ الميت. لأن هذه الطائفة تعتقد «أن الشيخ إذا مات أصبح طليقاً من قيود الجسد، كالسيف المسلول من غمده. وبذلك ازداد تأثيراً، وازداد نفعاً للمريد»¹³⁹ وفي هذا الباب نقل الأرواسي عن أبي الحسن الشاذلي،¹⁴⁰ يستدل بأقواله.¹⁴¹ ويحاول إثبات الرابطة بها.

ومن هذه الرسائل، عجالة لأحد المتأخرين من شيوخ الأكراد اسمه سعيد بن عمر الزنجاني. اشتهر باسم الشيخ سيداً الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر.

إنه كتب هذه العجالة إجابة على سؤال من شخص اسمه الملاً محمد شريف، يستفسره الرابطة. وهذا دليل يؤكد على أن كثيراً من الملالي (وهم علماء الأكراد¹⁴²) لا يزالون يجهلون أمر الرابطة بل

136 الزمن الترجمة الحرفية في تعريب هذه الألفاظ. وهذا نصها الأصلي باللغة التركية: «رابطة: صفات إلهية ذاتية إله متحقق، مقام مشاهدة به واصل بر كامل و مكمل إله ربط قلب ألبوب، حضور و غيابه أو ذاتك صورتني خزانة خياله حفظ إنصكدر عبارندر». ص/ 14.

137 المصدر السابق، ص/ 11.

138 سعيد سيداً الجزري، الضابطة في الرابطة، ص/ 6.

139 للمزيد من المعرفة حول هذا المعقد، راجع موضوع: الولاية، والولي، وتصرف الميت. من الفصل الثالث

140 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 467/2. بيروت - 1993 وكذلك فيه أسماء مصادر أخرى وردت فيها ترجمته. راجع أيضاً: التصوف، عبد القادر السندي ص/ 327-409. مكتبة ابن

القيم، المدينة المنورة-1960م.

141 عبد الحكيم الأرواسي، رابطته شريفه رسالتي ص/ 19. مكتبة بايزيد، إسطنبول-1342 هـ. رقم/243435

142 ملالي: جمع نال، وهي صفة تُطلق على رجال الدين في اللغة الكردية والفارسية بمعنى الشيخ في اللغة العربية.

ويشكّون فيها؛ وأنّ هذه الهرطقة لا يُقرّها ولا يعتدّ بها أحد سوى النقشبنديين؛ وأنّ كثيراً من الناس يسمعونها لأول مرة كما نفهم من استفسار الملامم محمد شريف، على الرغم من رعونة الجُرّيّ في محاولة إقناعه إذ يقول:

«اعلم يا أخي أسعدك الله، أنّ أمر الرابطة الشريفة مشهور وسرّها في الرُّبْر مذكورٌ ومسطورٌ. ولكن نذكر نبذة من ذلك اطمئناناً للقلب، واستئصالاً للرّيب، ناقلين من كتاب نور الهداية والعرفان»

أما كتاب نور الهداية والعرفان، هذا الذي استقى منه الجُرّيّ، فقد ألفه محمد أسعد صاحب، وهو ابن محمود، شقيق خالد البغداديّ، كتبه ردّاً على محمد صديق خان بن الحسن البُخاريّ، وقد تطرّق الباحث العراقيّ عباس العزّويّ إلى هذه المسألة فقال:

«هاجم السيد محمد صديق خان بن الحسن الحسيني البُخاريّ أمير مملكة بهوبال في الهند (الرابطة والتوجّه). فتصدّى للرّدّ عليه وعلى أمثاله محمد أسعد صاحب ذاده في كتابه -نور الهداية والعرفان في سر الرابطة والتوجه وختم الخواجگان. أمّ تأليفه في دمشق، في أول المحرم سنة 1305 هـ. وتمّ طبعه في المطبعة العلميّة بالقاهرة في شهر رمضان سنة 1311 هـ»¹⁴³

كانت هذه كلمات عباس العزّويّ حول الكتاب المذكور. بيد أنّ لنا مع هذا الكتاب قصّة طويلة تختصرها لتكون عبرة لأولي الألباب.

فخلاصتها: أن دراسة هذه البدعة لما اقتضت مراجعة عددٍ من المصادر المتوفّرة التي لها علاقة بموضوعنا، وعثرنا على اسم هذا الكتاب في مواطن كثيرة من كتب النقشبندية كما كنّا نسمعه أحياناً من خلال حديثهم، قمنا بالسعي في طلبه سعياً حثيثاً؛ ولكن لم نعثر حتّى على نسخة واحدة منها، على الرغم من تباحثنا عبر سلسلة المكتبات الرسمية والخاصة بكافة أنحاء تركيا، وما أكثرها!

ثم لجأنا في آخر المطاف إلى الشيخ عمر فاروق أفندي، نجل الشيخ سيّد الجُرّيّ الذي استقى من الكتاب المذكور. فلم يُجد هذا الاتصال أيضاً بنتيجة؛ كما لم نجد تفسيراً للاستغراب الذي أحاط

بمشاعرنا أمام هذا اللُّغز، إلا ما قيل: أن مؤلّف هذا الكتاب مرفوضٌ عند طائفةٍ من النقشبنديين في تركيا. فما عثروا على شيء من آثاره إلا محوه وأفنوه بسرعة. ذلك «لأنّه كان متميّزاً عن سائر شيوخ هذه الطائفة بتفكيره العلميّ وأسلوبه العصريّ». وهذا يتعارض مع العقلية النقشبندية الجامدة!

في الحقيقة عثرنا على سلسلة من مقالاته التي نُشِرت في جريدة الرّأي العام، وطُبِعَت سنة 1334 هـ.¹⁴⁴ يتطرق في هذه المقالات إلى موضوعاتٍ شتى، لا يكاد القارئ يشعر بأدنى أمانة بين ألفاظه أن كاتب هذه المقالات شيخٌ نقشبديّ، إلا سطره الأخيرة التي ختم بها كلامه؛ وهي قوله: «خادم سجادة طريقة السادة النقشبندية، والقائم مقام الحضرة الخالدية المجدّية بدمشق الشام: اسعد صاحب»¹⁴⁵

ولكنّ من جانب آخر، تُنبئ هذه الكلمات بصورة جليّة عن مدى إعجاب هذا الرجل بنفسه وتعاضمه وتلوّنه في لباسٍ من التواضع! وربما السبب الذي أثار المنافسة بينه وبين بقية رؤوس النقشبندية هو موقفه هذا؛ كما جاء في دراسةٍ للباحث David Dean Commins أنه طَرَفٌ في هذه المُنافسة.¹⁴⁶

كتاب «نور الهداية والعرفان»، تسود على أسلوبه محاولة جدلية لإثبات الرابطة، وهذا يخالف مبادئ الصوفيّة التي تقوم على التقليد الخض والتطفل والاستسلام للروحانيين السابقين، والتقيّد بمقولاتهم – مع ما فيه من مخالفةٍ صريحةٍ للكتاب والسنة – علماً بأنّ النقشبنديين وإن كانوا يهاجمون من لا يوافقهم، إلا أنّهم يحذرون الطريقة الجدلية في مناظرة الخصوم والمعارضين أشدّ الحذر، خوفاً من أن تفتضح أسرارهم بتطوّر الجدل. وإلاّ فإنّ تركيا في الحقيقة هي جنة النقشبنديين. لهم مؤسّسات إعلامية ضخمة في هذا البلد، تقوم بنشر وتوزيع كمياتٍ عظيمةٍ من كتب الطائفة ومجلاتها وصحفها، وبثّ عقائدها، والدفاع عن سمعتها. لذا لا يجوز عقلاً أن يرفض النقشبنديون كتاباً يعاضدهم ويؤكّد على صحة دعواهم، لولا أسبابٌ لم نتأكد من صدقها، غير ما نقلناه منها.

144 مقالات اسعد صاحب، مكتبة السليمانية خزانة جلال أوتكان رقم 292 إسطنبول.

145 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 1/351، 3/129. بيروت – 1993 وكذلك فيه أسماء مصادر أخرى وردت فيها ترجمته.

David Dean Commins, Islamic Reform Politic And Social Change in Late Ottoman Syria / New York- 1990..... 146

وكلّ هذه، في الحقيقة ما هي إلا مؤشّرات تنبئ عمّا تتوارى به الطائفة النقشبندية من غموض وكنمان، وما تُضمّر ضدّ غيرها من أسرار وأفكار لا أمان من عواقبها!

يُنقَلُ الجَزْرِيُّ ما ينقل من هذا الكاتب ومن رسالةٍ للبغداديّ في إثبات الرابطة حتّى ينتهي من عجالتِه «الضابطة في الرابطة» على طريقة أسلافه من الحشوية؛ ولا يأتي بشيء من تلقاء نفسه إلا كلمات في سطور معدودة. وبذلك يفتح بابًا للشك على نفسه، بالرغم من غزارة علمه بالعقائد وباعه الطويل في الفقه الإسلاميّ ومعرفته الجامعة بالآداب، وما دوّن فيها ودّرّس ودّرّس طوال عمره.

ومن هذه الرسائل، عجالةٌ أعدّها باللّغة التركيّة أحدُ أساتذة كلية الإلهيات¹⁴⁷ بجامعة مرمر في إسطنبول، اسمه عرفان جندوز. فسماها: Tasavvufi Bir Terim Olarak Râbita ve Tevesül أي، الرابطة كمصطلحٍ تصوفيّ. إلا أنّها غير مطبوعة.¹⁴⁸ (وهي منسوخةٌ على الآلة الكاتبة ومحفّظةٌ في مكتبي الخاصّة)

حاول المؤلّف فيها إثباتَ شرعية الرابطة بمبررات منطقية وبأسلوب معاصر. فاستهل بكلام مفاده:

«إنّ في هذا الموضوع شيئاً يظهر كخاصيّةٍ مشتركةٍ بين الثقافات. يجوز انطلاقاً منها . أن يقال: إنّ للمسلمين أيضاً طريقةً وأصولاً في هذا الباب، وأنهم ربّوا لها نظاماً على هيئة الرابطة»¹⁴⁹

يتبيّن من هذه المحاولة بوضوح، أنّ المؤلّف يُقَرِّبُ الرابطة إلى عقل الإنسان المعاصر في غلافٍ جديدٍ. وذلك على حدّ قوله: «هي الخاصيّة المشتركة بين الثقافات المتباينة». وكأنّه يقول: مهما اختلف الناس في عقائدهم فإنّهم لا محالة يلتقون في قيمٍ متشابهةٍ ويشتركون في أسس متجانسة. فالرابطة إذن هي معدودة من تلك القيم الإنسانية المشتركة، يلتقي بها المسلمون مع بقيّة المجتمعات التي لا تدين

147 كلمة «كلية الإلهيات» تسمية مأكرة أطلقها حكام النظام العلماني على كليات العلوم الإسلامية في جامعات تركيا. وهي حلقة من سلسلة المؤامرات التي يتعمدها النظام لتحرّيف القيم الإسلامية وعزل المسلمين الأتراك عن الحركة الإسلامية

العالمية وفقاً للخطة السياسيّة التي رسمها يهود سالونيك.

148 نسخها الأصلية موجودة في خزانة.

149 الترمز الترجمة الحرفية في تعريب هذا المقطع من كلام الدكتور عرفان جندوز. وهذا نصّه باللّغة التركيّة: Kùltürlerarası ortak bir özellik gibi gözükün bu konuda müslümanların da bir yolu ve bir

usülü bulunduğü ve bunu da rabita şeklinde sistemleştirdikleri söylenebilir.

بالإسلام! يظهر من هذه المحاولة بصراحة أنّ المؤلف يرى ما يدعو المسلمين إلى المشاركة مع غير المسلمين في بعض مُعْتَقَدَاتِهِمْ، ويعدها من القِيمِ الإنسانية المشتركة، وإن كان ذلك خروجًا على الإسلام

ويسترسل المؤلف على نحو هذا الأسلوب، غير أنّه يعود إلى ضميره برهَةً، فيأبى إلا أن يعترف بأن «المصادر التي تُنبئُ عن الرابطة إنّما هي مِنْ صَنِيعِ الأيدي في الماضي القريب جدًّا».

إنّ هذا الاعتراف لهو أقوى البراهين التي تقوم على المنظرين من رجال هذه الطريقة الذين لا يتورعون عن الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله على أصالة هذه البدعة ليدسّوها في الإسلام!

وآخر ما صدر في موضوع الرابطة، كتاب أعدّه أربعة أشخاصٍ من بُسْطاءِ النقشبنديين بالتعاون فيما بينهم. كتبوه باللّغةِ التركيّةِ وبالحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ لأنّهم يجهلون اللّغةَ العربيّةَ، وطبعوه تحت عنوان: Kur'an ve Sünnet Işığında Râbita أي «الرابطة والتّوسُّلُ في ضوء القرآن والسنة» إلا أنّه يضمّ ركائماً من هفواتٍ وتفسيراتٍ شاذّةٍ وتأويلاتٍ دَجَلِيَّةٍ، تمخّصَ الكتابُ عنها في قَتَمَةٍ من الأباطيل. أَكْثَرُهُ مُقْتَبَسٌ من هَدْيَانَاتٍ عِدَدٍ من ملاي المنطقة الكرديّة. فهو بغيته ليس في الحقيقة إلا خليطاً من سُورٍ متشيعي الأكراد، أكثر من أن يوصف بتأليف مدوّن في ضوء الكتاب والسنة.

ومن هَرْفٍ هؤلاء المنتحلين صفةً أهلِ التّأليفِ، أنّهم ذكروا الغزاليّ مع أولئك الملاي فأنزروه إلى دركهم، وعدّوا أبا علي الفارمديّ من النقشبنديّين. مع أنّه قد مات قبل تأسيس هذه الطريقة بثلاثمائة عام!

أمّا الذين تناولوا الرابطة كشطٍ من تفاصيل آداب الطريقة النقشبندية. فقد عثرنا على نحو ثلاثين رسالة لهم، أقدمها كتاب الرشحات.¹⁵⁰ ألفه علي بن الحسين الواعظ الكاشفي البيهقي إلا أنّ الرابطة

150 ضبطه: «رشحات عين الحيات». ألفه -باللّغة الفارسيّة- علي بن الحسين الواعظ الكاشفي البيهقي (1462-1533م): ترجمه إلى اللّغة التركي -اللهجة العثمانيّة- قاضي مدينة إزمير في عهد السلطان مراد بن السلطان سليم العثماني.

واسم المترجم: محمد المعروف بن محمد الشريف العباسي. تمّت الترجمة عام 993 هـ. وقد طبع هذا الكتاب بالحروف العربيّة في إسطنبول عام 1291 هـ. وهو متّكور في كشف الطنون 903/1. و الرشحات كتاب تقدّسه النقشبندية. وهو أوّل كتاب

دوّنه في آدابهم. كما هو المصدر الأساسي الذي تعتمد عليه هذه الديانة الصوفيّة.

لا تَعُدو في هذا الكتاب عن وصيةٍ بسيطةٍ جدًّا؛ أوصى بها عبيدُ الله الأحرارُ، مُؤَلَّفَ الرَشحاتِ، كما لا نجد لها تعريفًا ولا تفصيلًا في هذا الكتاب.

ثم تليه من حيث الأقدمية رسالتان لتاج الدين بن زكريا الهندي وقد مرّ ذكرهما. وكذلك خطابٌ لأحمد الفاروقي السرهندي وجهه إلى شخص اسمه أشرف الكابلي. مرّ ذكره أيضًا بنصّه الكامل.¹⁵¹

أما بقية الرسائل المذكورة للفريق الثاني، فإنّ كلّها مسطورةٌ بعد هذه الأربعة. وهي على سبيل الإجمال:

- (1) شرح السلسلة المرادية للدرويش أحمد الطربزوني، مدوّنة بالعربية.¹⁵²
- (2) الرسالة المدنية، كتبها نعمة الله بن عمر، باللّغة العربية أيضًا. وهي ضمن مجموعةٍ من مثيلاهما بين دفتين تحت عنوان «الزمرّد العنقاء».¹⁵³
- (3) ترجمة الرسالة الخالدية المنسوبة إلى خالد البغداديّ، ترجمها إلى اللّغة التركيّة (باللهجة العثمانية) رجل اسمه شريف أحمد بن علي.¹⁵⁴
- (4) الحديقة النديّة في الطريقة النقشبندية والبهجة الخالدية. كتبها محمد بن سليمان البغداديّ بالعربية. وهو من خلفاء خالد البغداديّ.¹⁵⁵
- (5) رسالةٌ في آداب الطريقة النقشبندية كتبها بالعربية أحمد خليل البقاعي. وهي أيضًا ضمن مجموعة «الزمرّد العنقاء»

151 راجع الغامش رقم/97.

152 هي رسالة مخطوطة مسجلة تحت رقم/721 بمكتبة السليمانية-إسطنبول (خزّانة كججي ذاده)

153 نسخة منها موجودة في خزانة.

154 لها شروح كثيرة. منها نسخة مسجلة تحت رقم/278. بمكتبة السليمانية-إسطنبول (خزّانة: دوجوملو بابا) لم تقف على أصل هذه الرسالة على رغم ما يزعمه النقشبنديون أنّ أصلها مدوّنة باللّغة العربية.

155 ورد البحث عن هذا الكتاب في مصادر عديدة. منها على وجه الخصوص: رسالة ألقها عباس الغزّاريّ بعنوان «مولانا خالد النقشبندي» وهي مطبوعة ضمن مجلّة الجمع العلمي الكرديّ -العدد الأوّل. بغداد-1973م. تناول المؤلّف الكتاب

المذكور في الصفحة رقم: 708. و723. من هذه الرسالة والحديقة النديّة هي من جملة الكتب التي تمّ بطبعها ونشرها مؤسسة ضخمة للنقشبنديين مركزها في إسطنبول؛ يرأسها عقيد متقاعد مدسوس في صفوفهم من قبل النظام الحاكم.

6) صحيفة الصفا لأهل الوفاء. كتبها بالعربية رجل اسمه سليمان زُهدي، ولكنّه فاشل لجهله بلغة الضّاد.

7) هُجّة السالكين وبهجة المُسلّكين لنفس الشخص المذكور. وهي وُريقاتٌ خاليةٌ من القيمة العلميّة.

8) البهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية، كتبها بالعربية محمّد بن عبد الله الخانيّ. وهو من خلفاء خالد البغداديّ. لها نسخٌ منتشرة في المكتبات الرسميّة والخاصّة.

9) السعادة الأبديّة فيما جاء به النقشبندية كتبها بالعربية عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ وقد نُسبتْ هذه الرسالة إلى جدّه محمّد بن عبد الله الخانيّ وذلك خطأ.¹⁵⁶

10) الرسالة القدسيّة. منظومةٌ باللّغة التركيّة العثمانيّة. تتألّف من 1328 بيتاً.¹⁵⁷ نظمها شخص اسمه عصمت غريب الله. وهو من أتباع عبد الله المكيّ، خليفة خالد البغداديّ. كان غريبُ الله هذا، رجلاً خاملاً؛ لا يُعرَف عن حياته شيءٌ. تنتمي إليه جماعةٌ معروفةٌ بالتزمتِ في إسطنبول. يرأسها حالياً رجل اسمه محمود أسطى عثمان أغلوا.

11) المجد التالّد¹⁵⁸ كتبها بالعربية إبراهيم الفصيح، وله تحفة العُشاق في إثبات الرابطة أيضاً. وهو من خلفاء خالد البغداديّ. فقد تحمّس الفصيح في هذه المحاولة فقال: كتبْتُها في إثبات الرابطة التي هي من أعظم أركان الطريقة الصوفيّة ومدار أمرهم. (...) مقتصرًا فيها على بيان الأدلّة الشرعيّة الدّالة على وجودها في السنّة النبويّة».

156 أصدرت مكتبة الحقيقة هذه الرسالة بطريقة التصوير ضمن مجموعة أخرى من مثيلاتها (وهي الحديقة النديّة في الطريقة النقشبندية، محمد بن سليمان البغداديّ؛ والحجج البيّنات في ثبوت الاستعانة بالأموال، لعليّ محمّد البلخي؛ وجماع الحقائق في أصول الحقيفة، لشخص غير مشهور اسمه عبد الوهاب؛ ...) ومكتبة الحقيقة هي إحدى المؤسسات التي يديرها عقيد متقاعد من العصر التركيّ اسمه Hüseyin Hilmi Işık، دمه النظام الحاكم بين صفوف النقشبنديين لتوجيههم والنسكن من السيطرة عليهم.

157 تتولّى طبع هذه الرسالة ونشرها جماعة متعصبة من النقشبنديين. غالبيهم من سلالات حديقة العهد بالإسلام من بقايا الشعب البُتُطُسيّ اليوناني من أهالي مدينة طرنبزون و ضواحيها الذين اعتنقوا الإسلام دون روية في عهد السلطان محمّد الثاني العثمانيّ. اتخذوا من مسجد إسماعيل آغا بإسطنبول مقرّاً ومركزاً. طُبعتْ هذه الرسالة أخيراً بعد الاستنساخ من مخطوطة مع ترجمة الرسالة الخالديّة ضمن مجلّد واحد، تداولها أفراد الجماعة المذكورة.

158 نسخة من رسالة «المجد التالّد في مناقب الشيخ خالد» موجودة في المكتبة السليمانية بإسطنبول؛ مسجّلة تحت رقم: 4/1161، بخرانة إسماعيل حقيّ إزميرلي. كتبه إبراهيم الفصيح. وهو من خلفاء خالد البغداديّ. قامت مكتبة الحقيقة بنشرها ضمن مجموعة من رسائل المتأخرين من شيوخ النقشبندية في مجلّد واحد تحت عنوان «مكتاب شريفة» عام 1992م. وقد ورد أيضاً اسم هذه الرسالة في بحث عباس العزاويّ ضمن مجلّة الجمع العلميّ الكرديّ ص/ 725. كما نظّرق العزاويّ إلى رسالة تحفة العُشاق في الصفحة: 718 من نفس المصدر. وهي أيضاً من تأليف إبراهيم الفصيح. هذه الرسالة نسخة أخرى في المكتبة السليمانية مسجّلة تحت رقم/ 896 بخرانة إزمير.

12) جامع الأصول، كتبها بالعربية أحمد ضياء الدين الكُموشخَانَوِي وهو خليفة أحمد بن سليمان الأرواديّ من خلفاء خالد البغداديّ. أكثر عباراته خالصةً من آثار العُجمة.¹⁵⁹

13) رسالة المشغوليّة.¹⁶⁰ كتبها شخص اسمه أحمد سعيد المجددي. لكنّه غير معروف في الأوساط العلميّة وحتىّ بين الصوفيّة. ترجم هذه الرسالة إلى العربيّة رجل من مدينة مغنيسيا التركيّة اسمه علي نائلي. غير أنّها أيضاً شبه مجهول، وحتىّ لغة التّأليف مجهولة.

14) تنوير القلوب في معاملة علاّم الغيوب. كتبه باللّغة العربيّة محمّد أمين الكرديّ الأربليّ. ألفه من قسمين. الأوّل في فقه الشافعية، والثاني في مسائل التصوف، والطريقة النقشبندية.¹⁶¹

15) إرغام المرید.¹⁶² كتبه زاهد الكوثريّ المشهور بتصانيفه وهجماته على العلماء؛ كتبه شرحاً على النظم الذي أنشأه سابقاً بعنوان «النظم العتيد لتوسّل المرید». تطرّق المؤلّف إلى موضوع الرابطة في الصفحة 65 من كتابه المذكور.

16) مقاصد الطالبين. كتبه شخص اسمه محمّد رائف عام 1888 م. باللّجة العثمانيّة، وقد تمّ نقله أخيراً إلى اللّجة التركيّة المعاصرة. وله نُسخ مطبوعَةٌ بالحروف اللاتينيّة.

17) الرسالة الأُسعدِيّة للشيخ أسعد الأربليّ. وهو مأذون من طه الحريريّ خليفة طه الهكاريّ. كتب شرطراً منها بالعربيّة، وشرطراً بالتركيّة.¹⁶³

18) مکتوبات أسعد الأربليّ. هي مراسلاته وخطاباته الكتابيّة التي بعث بها إلى أتباعه. يبلغ عددها 156 رسالة، تتبلور من خلالها العقليّة المتخلفة لهذا الشيخ النقشبنديّ؛ إذ لم يهتم بقضية من قضايا

159 ورد البحث عن كتاب جامع الأصول في دراسة ضخمة حول شخصية الكُموشخَانَوِي أعدها الدكتور عرفان جدوز. و تمّ طبعها ونشرها من قبل دار السخاء للنشر عام 1984م. في إسطنبول.

160 نسخة من هذه الرسالة موجودة في مكتبة جامعة إسطنبول تحت رقم/85253

161 إنّ النقشبنديين الأتراك لا يهتمون بهذا الكتاب؛ وهو شبه مرفوض عندهم. مع أنّه أفضل الكتب صياغةً، وعباراته سلسلة مستساعة. أمّا هذا الموقف السلبيّ للنقشبنديين الأتراك، فإنّ له سببين. أحدهما أنّ المؤلّف كرديّ الأصل وعربي النشأة؛ وهم يكرهون الأتراك والعرب (الأقليل منهم، وهم أهل التوحيد الخالص). وسوف نشرح أسباب هذه الكراهية في الفصل الخامس إن شاء الله تعالى. والسبب الثاني لهذا الموقف السلبي، هو أنّ المؤلّف شافعيّ المذهب؛ علماً بأنّ الأتراك يتبعون مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، إلى حد جعلوا من هذا المذهب ديناً مستقلاً عندهم. يعترضون به تمايزاً عن العرب خاصة.

162 قامت بطبع هذه الرسالة ونشرها مؤسسة وفتية للنقشبنديين في إسطنبول عام 1996م. يشرف عليها عقيد متقاعد. وهي مع كتاب الهجة السنّة محمد بن عبد الله الحان، ضمن مجلّد واحد. تقوم بتوزيعها مكتبة الحقيقة.

163 نسخة من هذه الرسالة موجودة في مكتبة جامعة إسطنبول، مسجّلة تحت رقم 13/438.

المسلمين في كلّ هذه الرسائل. وبلغت الغفلة منه عما كان يجري في أيامه إلى حدّ لم يشعر بصراخ الداهية التي كانت وشيكة الوقوع، حتّى ذهب هو أيضًا مع الطليعة الأولى ضحيّتها، كما سنشرح عاقبته في نهاية الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

جاءت في بعض هذه الرسائل توضيحات له حول آداب الطريقة النقشبندية؛ كالرابطة واللّطائف والذكر وما إليها؛ وجاء في عدد منها تفسيراته لرؤيا بعض مريديه.

(19) الأخلاق التصوفية.¹⁶⁴ سلسلة أعدّها محمد زاهد كُونُكُو باللّغة التركيّة، وهي مطبوعة بالحروف اللاتينية.

(20) ترجمة أحمد ضياء الدين الكُموشخانويّ دراسة أعدّها الدكتور عرفان جندوز باللّغة التركيّة.

(21) كتاب مدوّن باللّغة التركيّة اسمه Tarikat-i Nakşibendiyye Prensipleri. ورد على الغلاف أنّه نُقل إلى التركيّة بقلم مفتي متقاعد اسمه رحمي سرين؛ وأنّ الاسم الأصليّ للكتاب Risâle-i Bahâiyye. ومؤلفه علي قدري. غير أنّ مسألة الترجمة غامضة. لأنّ عمليّة إجراء التعديل على اللّهجة العثمانيّة أيضًا تعتبر عند بعض الأتراك المعاصرين نوعًا من الترجمة. ولذلك لم نتأكد عما إذا دونه المؤلّف باللّغة العربيّة (وهذا بعيد الاحتمال)؛ أم كتبه باللّهجة العثمانيّة. قد طُبِع هذا الكتاب في إسطنبول عام 1994م. يتألّف من 293 صفحة، وقد ربّبه المؤلّف على مقدّمة وخمسة فصول. ورد في الصفحات 54-56 شرح في مسألة الرابطة.

(22) روح الفرقان. كتاب غريب أقدم على صياغته عدد من النقشبنديّين وعلى رأسهم رجل اسمه محمود أسطى عثمان أوغلو. تصدّوا فيه لتفسير القرآن بأسلوب باطنيّ جريّ وتأويلاتٍ أثارت جمهور المسلمين في تركيا عام 1992م. دونه باللّغة التركيّة، لأنّ معرفتهم بالعربيّة قاصرة على قراءة نصوص معيّنة فحسب. أمّا التعبير فإنّهم عاجزون عنه تمامًا.

164 تطرّق المؤلّف إلى موضوع الرابطة في الجلد الثاني ص/ 271-275 من هذه السلسلة. تقوم بطبع ونشر هذه الكتب مؤسسة للنشر بعنوان: دار السخاء في إسطنبول.

لقد استدلّوا في هذا التفسير الغريب بآيات كريمة على إثبات رابطة النقشبندية. وتصرفوا في تأويل كلام الله حسبما بدا لهم في مواطن كثيرة من هذا الكتاب الخطير الذي يُتَوَقَّعُ أن يُثِيرَ ضجةً في صفوف عامّة المسلمين إذا ما تُرجم إلى العربية أو شاع ما فيه.

إنّ هذه الرسائل والكتب ليست مما يُلَفِتُ نظرَ العلماء والمتّقين؛ ولا لحتوياتها قيمة في ديوان العلم أو في ميزان العقل، بل ذكرنا أسماءها باختصار علي سبيل المساعدة للباحثين. وثمة موسوعات أخرى غيرها، وردت في سطور قليلة منها تعريفات وجيزة للرابطة، مع الإشارة إلى أنّها من كلام الصوفيّة وآرائهم، وتأويلاتهم.

* من الآداب عند النقشبندية: الذكر على أساس اللطائف الخمس.

لقد سبق توضيحٌ ملخّصٌ في آداب الذكر عند النقشبندية مع التنبيه في البداية بأنّها أمور يستغربها كلّ من له علم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم، ويفزع من خطورتها ومن جرأة من استقاها من مستنقعات الشرك وألصقها بعقائد المسلمين.

إلى جانب هذه الآداب، فقد اختلق كبارهم مصطلحاتٍ أخرى غريبةً أطلقوها على مُسمّياتٍ باللطائف. زعموا أنّها موجودة وموزّعة في بنية البشر وحملوها معانٍ لم نعثر على قرينة تبرهن على وجودها في جسد الإنسان، إلّا القلب. كما لم نجد لها قرينة بالذكر في الكتاب والسنة سوى القلب أيضاً. وهذه اللطائف خمسٌ في اعتقادهم كما جاء في عدد من كتبهم، منها تنوير القلوب لمحمد أمين الكردي إذ يقول.

«وأول تلك اللطائف، القلب. وهو تحت الثدي الأيسر بقدر إصبعين مائلاً إلى الجنب على شكل الصنوبر. وهو تحت قدم آدم عليه السلام؛ ونوره أصفر. فإذا خرج نور تلك اللطيفة من حذاء كتفه وعلا، أو حصل فيه اختلاج، أو حركة قوية فيلقن بلطفة الروح وهي تحت الثدي الأيمن بإصبعين مائلاً إلى الصدر، وهي تحت قدم نوح وإبراهيم عليهما السلام. ونورها أحمر. فالذكر في الروح

والوقوف في القلب. فإذا وقعت الحركة فيها واشتعلت، فيلقن بلطفة السر، وهي فوق الثدي الأيسر بإصبعين مائلاً إلى الصدر، وهي تحت قدم موسى عليه السلام، ونورها أبيض. ويكون الذكر فيها، والوقوف في القلب فإذا اشتعلت أيضاً فليلقن بلطفة الحُفَيِّ، وهي فوق الثدي الأيمن بإصبعين مائلاً إلى الصدر، وهي تحت قدم عيسى عليه السلام، ونورها أسود. فإذا اشتعلت أيضاً فليلقن بلطفة الأُحْفَى. وهي في وسط الصدر؛ وهي تحت قدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ونورها أخضر. فليشتغل بها كما تقدم»¹⁶⁵

إنّ من يطلع على هذه الكلمات ويتأمل فيها، لابدّ أن يتساءل عن مصدر هذه الأقاويل إذا كان يشعر بمسئولية ما يترتب عليه في وجه كلّ من يريد أن يعث بالكتاب والسنة، ويأتي ما شاء من تلقاء نفسه أو ينقل رواسب الشرك من الديانات والفلسفات فينسبها إلى الإسلام باسم الدين، ثم يدرّب الناس على فعلها زعمًا منه أنها ذكر الله! أليس اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والهندوس وسائر المشركين يعبدون الله؟ إذن ما الفرق بين المسلم والمشرك إذا أراد المسلم أن يعبد الله كما شاءت له نفسه، وليس كما رسمه الله له وفعله الرسول صلى الله عليه وسلم؟! ألا يكون المسلم قد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إذا سنّ لنفسه عبادة لم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. خاصّة الذكر عند النقشبندية على أساس هذه اللطائف الخمس، فإنّ الإنسان يتعجّب عندما يطلع على صورة أدائها.

أما خطورة هذه البدعة فإنها لا شكّ تزداد عندما نجدها ممزوجة بكلمة التوحيد ومقصودًا بها ذكر الله تعالى كما تظهر فيما ورد ضمن رسائلهم. هل يُعقل أن النقشبنديين أنفسهم يستطيعون حلّ هذه الألغاز فضلًا عن غيرهم؟ ولعلّ السر في اشتهاار بعض السحرة والمشعوذين منهم بصفة أولياء الله بين عوام الناس يكمن في مثل هذه الألفاظ الخرافية المختلقة.

ولا يفوتنا الإشارة هنا بالمناسبة إلى أنّ الإقدام على التصرّف في مبادئ الطريقة أمر لا يملكه أيُّ شيخ من شيوخ هذه الفرقة إلّا من غلبت شهرته على أمثاله. كخالد البغدادي والطبقة الأولى من خلفائه.

165 محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ 513-514. طبعة مصر - 1384.

لمزيد من المعرفة حول مسألة اللطائف عند النقشبنديين راجع المصادر التالية:

* Dr. İrfan Gündüz, Gümüşhanevi Ahmed Ziyaüddin Pg. 183-205. Muhammed Es'ad Erbilî, Mektubât 257-403 Erkam Publishing, İstanbul-1993

* علي قدری، الرسالة الهاتية (ترجمة: رحي سري) ص/ 37. إسطنبول-1994م.

وإنما الكلمة النافذة للشيخ المشتهر بين عامتهم. لأنه بمنزلة المجتهد عندهم. ولهذا نكتشف أن مصدر الشرف والمكانة والكرامة والبركات إنما هي الشهرة الغالبة في هذه الطريقة. فمن ملكها ملك أمر الطائفة كله. وإلا ليس بإمكان أي شيخ من شيوخ النقشبندية أن يقوم بوضع مثل هذه الألفاظ من تلقاء نفسه إلا أن يكون قد سيطر على دماغه أحد من أكابر هذه الفرقة الذين نسجوا لهم ألواناً من الأساطير بأمثال تلك الحيل نفسها على يد من سبقهم. وهكذا بالتسلسل خضع الخلف للسلف بالطاعة العمياء. واعتقد اللاحقون بالسابقين ما يعتقد النصارى في رهبانهم أنهم ينوبون عن الله في مغفرة الآثام. بل ازدادوا على النصارى أن شيوخهم يتصرفون في ملك الله وملكوته وكتابه وكلامه.

إن هذه العقيدة تنبت في قلب كل نقشبندي نحو شيخه وتتحول إلى إيمان راسخ لا يشوبه وهم ولا شك. ولهذا لا يستغرب ما يأمره به شيخه إطلاقاً ولو استبدل دينه كل يوم بدين جديد!

* الختم الحواجگانی

وكذلك من طقوس هذه الطائفة أنهم يقيمون حلقة سرية في أوقات معينة يسمونها «ختم حواجگان» وكلمة «حواجگان»: - كما يترجمها محمد أمين الكردي- «جمع فارسي لـ «حواجه» بواو ثم ألف. ولا تُقرأ الواو، وإنما أوتي بها لتفخيم المد. والحواجه بمعنى الشيخ»¹⁶⁶

وأما رأيهم واعتقادهم المتعلقان بهذه الحلقة وآدابها على لسانهم، فيقول في ذلك عبد المجيد بن محمد الحاني «اعلم أن لهذا الختم المبارك شرطين: الأول أن لا يحضر فيه أمرد ولا أجنبي، ليس داخلاً في طريقتنا لئلاً يخل نظامه. الثاني: أن يغلق الباب. وله آدابها. منها تغميض العينين؛ والاستغفار خمساً وعشرين مرة؛ والجلوس متوركاً عكس توزك الصلاة كما تقدم؛ وملاحظة الرابطة الشريفة الآتي بيانها. وأركانه قراءة الفاتحة سبع مرات؛ ثم الصلاة على النبي مائة مرة؛ ثم قراءة «ألم نشرح» تسعاً وسبعين مرة؛ ثم سورة الإخلاص ألف مرة وواحدة؛ ثم الفاتحة أيضاً؛ ثم يهدي ثواب ذلك إلى صحيفة النبي صلى الله عليه وسلم وإلى آله وأصحابه والأولياء والمشائخ الكرام»¹⁶⁷

166 المصدر السابق ص/ 520.

167 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحاني، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية ص/ 15

كذلك ورد مثل هذا الكلام في بعض وريقاتٍ لِمُتَأَخَّرِي هذه الطائفة مِّن عاشوا بعد خالد البغداديِّ فاقتبس بعضهم من بعض كما يبدو. ويستدلُّون على شرعية هذه الحفلة بحديث كما مر في باب الرابطة.

إلّا أنّ حقيقة هذه الحفلة ليست كما يشرحها النقشبنديون في مثل ما سجلناه آنفا من عباراتهم. بل هي شكل من تقاليد الباطنية، بقيت بظاهرها في حدود هذا الرمز. إذ من الواضح البين أنّ إغلاقهم للباب¹⁶⁸ عادةً استورثوها من قدمائهم من رؤوس الباطنية الذين كانوا يقومون بعقد اجتماعات سرية لضرب المسلمين وإفساد عقيدتهم، وهدم دولتهم ولكنهم وضعوا لها آداباً من الذكر والتلاوة والصلوات، تقيّة وحذرًا من أن تفتضح أسرارهم إثر مدهمةٍ قد تقوم بها سلطات المسلمين. ثم شاء الله أن اختفت المقاصد مع الزمان، وبقيت الآداب على هيئتها بعد أن تعرضت الطريقة النقشبندية لاستحالات وتغيّرات عديدة على حسب اتجاه الروحانيين الذين آلت إليهم أخيراً أزمّة الطريقة، وهم من أهل التقشف والعزلة والرهينة. يجهلون ما مرّت بها طريقتهم عبر القرون من ألوان التبدلات. إنّما هذا الجهل هو الذي يؤدي بهم حتى يدعي المعاصرون من أئمتهم، أنّ عقائدهم وعاداتهم وحفلاتهم متواترة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم غافلون بذلك عن أنّ طريقتهم تتميز عن الإسلام حتى بلغتها.

يذكر الكردي في مقالته السابقة أنّ كلمة «خواجه» فارسية. وهذا يُنبتنا مرةً أخرى بأنّ للفرقة النقشبندية لُغتها الخاصة في مناسكها، ودعائها، وطقوسها... تختلف عمّا للمسلمين كما سبقَت الإشارة إليها في بداية الفصل الثاني. إذ يعترف بهذه الحقيقة كثير من رجالهم. ومنهم محمد بن عبد الله الخاني، يتطرّق إلى هذه المسألة في فصلٍ خاصٍ فيقول:

«إنّ للقوم مصطلحات لا بدّ لسالكي طريقتهم من ضبطها ومعرفتها والعمل بمضمونها. ولما كانت هذه الطريقة الشريفة قد ظهرت في بلاد «ما وراء النهر» واشتهرت فيها، وكان أعزّة تلك البلاد يتكلّمون بالفارسية جرى أكثر تلك المصطلحات على لسانهم بتلك اللّغة».

* المصطلحات الفارسية في الطريقة النقشبندية وأسرارها.

ثم يشرع الخانيّ في سرد هذه المصطلحات المُخْتَلَقَة والموضوعة باللّغة الفارسيّة، وهي مبنى طريقتهم. وقبل أن ندخل في بيان المقاصد الحقيقية للنقشبنديّين من هذه المصطلحات، وإفشاء ما أكتنه صناديدُ الطائفة في بطونهم من أغراضٍ، وما يتربّصون من وراء الرابطة خاصّة، يجب أن نؤكّد على أنّ جميع ما أحدثه النقشبنديّون باسم الذكر وما أقرّوه من أورادٍ وآدابٍ وشرائطٍ في السّيَرِ وَالسُّلُوكِ الرُّوحَانِيّ، كلّها تختلف اختلافاً كبيراً عن أذكار النبيّ صلى الله عليه وسلّم، ونوافله الشريفة ومناسكه الطيّبة الطاهرة. إذ لم يكن بين دعائه وأذكاره وأشكالِ تَعَبُّدِهِ شيءٌ ممّا اختلقته النقشبندية من الرابطة، والختمة الحُجُوجَانِيَّة، والاستمداد من أرواح الموتى وأمثالها. وإمّا حياته الروحية عليه السلام مشرقة، واضحة، وبيّنة؛ كحياته في أمور دنياه، مضبوطة في كتب الرجال بروايات الثقا، ومتواترة عبّر الأجيال بين المسلمين.

على سبيل المثال فان كتاب «الأذكار» للإمام الجليل محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي، حافلة بباقاتٍ من أزاهير دعائه الطيّبة وأذكاره العاطرة ونوافله ومناسكه الشريفة المنسجمة مع روح القرآن الكريم. فإننا لا نجد في هذا الكتاب القيم ولا فيما سبقه ك «عمل اليوم والليلة» للإمام أبي عبد الرحمن النسائي وكتاب «عمل اليوم والليلة» للإمام أبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق السني. لا نجد في هذه المصادر شيئاً اسمه الرابطة. ولا نجد فيها ما تفعله الفرقة النقشبندية من الحفلات السرية المعروفة بينهم بـ «الختمة الحُجُوجَانِيَّة» ولا ما تعتقده من «الاستمداد بالروحانية» و«الاستغاثة بالموتى» والتعبّد على أسلوب الهنادك بالتقشّف والرهينة. فحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يكون قد عمل شيئاً ممّا كان يعملُه رهبان الجوس والنصارى من أشكال العبادات والنسك.

* مباني الطريقة النقشبندية.

إن كثيراً من الناس يعتقدون أنّ الطريقة النقشبندية طريقة سُنِّيَّة؛ ولكن «السُّنِّيَّة» المعروفة والمنتشرة التي جعل بعضُ الكلاميين منها مصطلحاً أطلقوه على السواد الإسلاميّ الأعظم ليميزوه عن بقية الفرق التي تدّعي الإسلام؛ نعم هذه السُنِّيَّة التقليديَّة نفسها لا تمثل السُنَّة في الحقيقة، ولا توافق الإسلام الخالص؛ بل تختلف عنه بكثير من جوانبها؛ وتتضارب مع روح الكتاب والسُنَّة، فضلاً عن أنّ بين الطريقة النقشبندية والإسلام مقارعة شديدة تترأى بوضوح إذا ما تمّت أدنى مقارنة بينهما.

هذا بالرغم من أنّ بعض الروحانيين قد أصرّوا على أنّ الطريقة النقشبندية هي الإسلام نفسه، وفي هذا يقول محمد بن عبد الله الخاني:

«اعلم أيّها الطالب لمعرفة الله تعال - وفقنا الله وإياك - أنّ معتقد ساداتنا النقشبندية قدس الله أسرارهم الزكية، هو معتقد أهل السنة والجماعة. ومبنى طريقتهم على حفظ أحكام الشريعة المطهرة»¹⁶⁹ بينما هذه الكلمات عينها تُكذِّبُ الناطقَ بها، وتفضحها فيما يدّعيه بأشدّ ما يقوم الدليل على صاحبه. ذلك إنّهُ قد أتى بصيغة غريبة من الدعاء في عباراته. وهي «قدس الله أسرارهم» إذ لا نعثر على أدنى شيء يبرهن على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أو أحداً من أصحابه قد نطق بمثل هذه الصيغة في دعائه. بل هذا من أسلوب الغلاة والباطنية. فإنهم يعظمون مشائخهم. وربما تكون هذه العادة قد شاعت بين خاصّتهم مع الزمان بتأثير النصارى. لأنّ المسيحيين يقدسون رهبانهم ويصفونهم بالقداسة.

وما أدلّ على أنّ الطريقة النقشبندية تتعارض مع الإسلام بكلّ مَقْوَمَاتِهَا ومفاهيمها؛ من اعترافهم التي تتمثل في كلّ كلمة سجّلوها على سبيل التعريف والتوضيح لمصطلحاتهم. منها مثلاً قول بعضهم: «ومبنى هذه الطريقة العلية على العمل بإحدى عشرة كلمة فارسية: ثمانية منها مأثورة عن حضرة الشيخ عبد الخالق العُجْدَوَانِي. وهي: هُوش دَرْدَم، نَظَرُ بَرَقْدَم، سَفَرُ دَرُ وَطَن، خَلُوتُ دَرَأُجْمَن، يَادُ كَرْد، بَارَز كَشْت، نِكَاهُ دَاشْت، يَادُ دَاشْت»¹⁷⁰

169 محمد بن عبد الله الخاني، لهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 3 طبعة مصر - 1319هـ.

170 محمد أمين الكرديّ الأربلي، توير القلوب في معاملة غلام الغيوب ص/ 506-507. طبعة مصر - 1384 هـ. ورد تعداد هذه المبانى الأحد عشر في المصادر التالية من كتبهم بما فيها المصدر السابق:

* علي بن الحسين الواعظ، رضحات عين الحيات ص/ 32-41:

* محمد بن عبد الله الخاني، لهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 50-54 طبعة مصر - 1319هـ:

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 112-117؛

نعم هكذا يظهر بإقرار أئمتهم أنّ مبادئ طريقتهم كانت في البداية ثمانية. ثم أضاف إليه محمد بهاء الدين البخاريّ ثلاثةً أخرى فصار بعدها أحد عشر مصطلحاً. وهي تركيبات فارسيّة، فيها أجزاء عربيّة للضرورة.

فقد ذكر بعضهم هذه المصطلحات على غير الترتيب الذي جاء في تنوير القلوب، ومنهم محمد بن عبد الله الخانيّ وحفيده عبد المجيد بن محمد بن محمد الخانيّ؛ ولكن ترتيب الحفيد أيضاً لم يأت موافقاً تماماً لترتيب جدّه. إذ أورد الحفيد كلمة «نَظَرُ بَرَقَدَمٍ» في المرتبة الرابعة؛ و«هُوشُ دَرَدَمٍ» في المرتبة الخامسة في تعداد المصطلحات المذكورة. بينما كان جده قد جعل «هُوشُ دَرَدَمٍ» هي الرابعة. و«نَظَرُ بَرَقَدَمٍ» هي الخامسة.¹⁷¹

ولا نقصد الاستدلال بهذا الخلاف البسيط على بطلان دعواهم ما دام كلّهم يتفقون في أصل باطلٍ بُنِيَتْ طريقتهم على أساسه. كما تظهر هذه الحقيقة إلى العيان بوضوح بعد استكشاف المقاصد البعيدة التي آتتها قدماء الطائفة في طيّ شروحهم لهذه المصطلحات.

يقول الكرديّ في شرح هذه المصطلحات:

«أما «هُوشُ دَرَدَمٍ»: فمعناه حفظُ النَّفْسِ عن الغفلة عند دخوله وخروجه وبينهما. ليكون قلبه حاضرًا مع الله في جميع الأنفاس. لأنّ كلّ نَفْسٍ يدخل ويخرج بالحضور فهو حيٌّ موصول. وكلُّ نَفْسٍ يدخل ويخرج بالغفلة فهو ميّت مقطوع عن الله»¹⁷²

* Dr. Selcuk Eraydin, Tasavvuf ve Tarikatlar, Pg. 376-380. Istanbul-1994 *

* Faruk Meyan, Sah-i Naksibend Pg. 69-78 Cile Publishing Istanbul *

* علي قدری، الوسيلة البهائية (ترجمة: رحيم سرين) ص / 77-93. إسطنبول-1994م.

171 محمد بن عبد الله الخانيّ، لهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية، ص / 50-52. طبعة مصر - 1319هـ؛ عبد المجيد بن محمد بن محمد الخانيّ، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص / 112-117.

172 محمد أمين الكرديّ الأربليّ، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص / 506. طبعة مصر - 1384 هـ.

لقد يبدو من ظاهر هذه الكلمات أنّها موافقة للحق في الوهلة الأولى؛ إذ فيها حثّ على صحوة القلب، ونكير على الغفلة إلى حدّ يستطيه المؤمن. ولكن بعد إمعان الفكر في شكل هذا التركيب وأسلوب تفسيره، لا يخفى على العالم الماهر بروح الكلمات أنّ هذه الصيغة ماكرة تُنبئ عن ضلالاتٍ دسّتها الزنادقة في ثنايا تلك الألفاظ، مع احتفاظها بمخلفاتٍ من عقائد البراهمة والبوذية. والحال هذه، فقد أُنذرتنا الله تعالى عن الغفلة بأشدّ وأبلغ ما يتعظ به الإنسان، فقال سبحانه: {وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَلِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} ¹⁷³ كما نمانا سبحانه عن طاعة صاحب القلب الغافل، فقال: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} ¹⁷⁴ وفي مواطن أخرى كثيرة من كتاب الله ورد التشنيع بالغافلين، مما يؤكّد أنّ المؤمن بالقرآن، والمحظوظ بمعرفة معانيه، والمواظب على تلاوته، والمستنير بهديه، لن يفتقر إلى كلمة «هُوشِ دَرْدَمِ»، ليكون حاضر القلب مع الله؛ ولن يلتفت إلى هذه الكلمة التي ظاهرها خير من باطنها لأسباب:

منها: أنّ واضع هذا المصطلح (حسب إسنادهم) ليس من علماء المسلمين الذين أعلنت الأمة عن ثقافتها بهم. كالأئمة الأربعة المجتهدين ومن جاء من بعدهم من المتقدمين والمتأخرين؛ من أمثال محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ومحمد بن الطيب الباقلائي، والإمام النووي وغيرهم رحمة الله عليهم أجمعين؛ بل كان صوفيًا مات في بخارى عام 575 من الهجرة. وقد يكون شخصيةً خياليةً لا حقيقةً لوجوده.

ومن هذه الأسباب: الانحراف عن مسلك السلف الصالح في الأصول. ذلك أنّ جميع العلماء سواءً الفقهاء منهم والمحدثين، حتى المدلسين والزهاد والمعاصرين لهم، لم يختاروا وضع مصطلحاتهم إلا باللغة العربية، بخلاف النقشبنديين الذين يدعون السير عليّ نهجهم.

فالقشيريّ مثلاً، مع أنّ الطائفة النقشبندية تعدّ من كبار الصوفيّة وتبالغ في تعظيمه، وتستقي من آثاره في كثير من المناسبات، نعم هذا القشيريّ لم نعثر على شيء في رسالته من هذه المصطلحات الفارسيّة الغريبة. فقد ورد في رسالته الشهيرة من شقّ مصطلحات الصوفيّة كالقبض، والبسط،

173 سورة الأعراف/205

174 سورة الكهف/28

والجمع، والفرق، والفناء، والبقاء، والغيبة، والحضور، والصحو، والسكر، والذوق، والشرب، والسرّ والتجلي، والمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة، وللوائح، والطواع، واللّوامع، والمجاهدة، والخلوة، والعزلة، والفتوة، والولاية، والمعرفة، والمحبة، والشوق وغيرها مما يضيق المكان عن استيعابها، ولكن لا نجد فيها حتى مصطلحاً واحداً من تلك التي وضعتها زنادقة العجم كقولهم: «هُوش دَرْدَم، نَظَر بَرَقَدَم، سَفَر دَر وَطَن، خَلَوْتُ دَرَأَنجَمَن... إلخ.»

وكذلك من الأسباب المثيرة للشك فيما يحتويه مصطلح «هُوش دَرْدَم»، بل وما تبدو من علامات الخطورة فيما يُقصدُ من هذا التركيب، أنه رمز لمرحلة من مراحل الرياضة النفسية والوجدانية على طريقة الجوس البرهمية والبوذية؛ يقتنع السالك بعد كمال هذه الرياضة بالاتحاد، وينسلخ من التوحيد تمامًا كما ستبدو هذه الحقيقة بعد دراسة البقية من هذه المصطلحات، وإظهار ما تتواري خلفها من أغراض مدسوسة.

أما خلاصة ما يُقصد من هذه الرياضة الخاصة (وإن كذبها النقشبنديون وردّوها بعنف)، فما هي في الحقيقة إلا محاولةً لتمهيد السبيل حتى يقَر السالك في نفسه عند نهاية المطاف: أن الله قد حلّ فيه، أو هو حلّ في الله - سبحانه عمّا يصفه الفاسقون - وذلك ليس إلا مقدّمة لعقيدة وحدة الوجود كما يبرهن على هذه الخطّة إدماج الباطل في قلب الحق ضمن مزيج من ألفاظٍ واردة في شرح هذا المصطلح بأسلوبٍ مأكّر قلّ من ينتبه إلى الخطورة الكامنة فيها، وهي عقيدة «الفناء في الله»

إذاً فلنعد مرةً أخرى إلى ما سجّله الكردي من تفسير لهذا المصطلح تمحيصاً لما نتوقع فيه من مقاصد خفية تتعارض مع ظاهره.

يقول الكردي، «فمعناه: حفظ النَّفس عن الغفلة عند دخوله وخروجه وبينهما، ليكون قلبه حاضرًا مع الله.»

حقاً، إن الغفلة عن الله مقبوحه، وقد سبقت الإشارة إليها آنفاً بشهادة الآيات البيّنات من كتاب الله عزّ وجلّ؛ ولكن الاجتناب عنها، هل ينبغي أن يكون بهذه الطريقة، أم للإسلام في ذلك طريقته الخاصة؟

فإذا طلبنا الجواب عن هذا السؤال وجدناه بصراحةٍ وجزالةٍ في مواطن كثيرة من كتاب الله العزيز.

منها على سبيل المثال قوله تعالى: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ¹⁷⁵

قد أمر الله في هذه الآية الكريمة بالنظر إلى آثار رحمته تحذيراً عن الغفلة، وترغيباً في حضور القلب؛ وحثَّ الإنسان على ذلك ليعتبر بما خلقه الله وأبدعه، وأنه كيف يحيي الأرض بعد موتها بقدرته تعالى حتى يلين قلبه، وتتأثر عاطفته، وليثبت على إيمانه بأنه الخالق البارئ الواحد الفرد الصمد الذي ليس كمثل شيء.

ولكنَّ الغاية من كلمة «هُوشِ دَرْدَمُ»، وامتّماتها ليست هذه بتاتاً. بل الغرض الحقيقي المكنون في عمق هذه الكلمة إنما هي ترسيخ عقيدة «وحدة الوجود» في قلب سالك الطريقة بترويضه من خلال تمرينات جوكية. وهي كثيرة مشروحة في كتبٍ عديدةٍ بلغاتٍ مختلفةٍ، أقدمها كتاب «السُّطْرَايَات» للزاهب الهندي باتانجالي (Patanjali). لأنه لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أمرٌ مفروض بمراقبة كلِّ نَفْسٍ، ولا بيانٌ فيما أنّ حضور القلب مع الله موقوف على مثل هذه المراقبة

وبالإضافة فمن أرهق نفسه بمقارنة آداب النقشبندية مع أمثالها الموجودة في الديانات الهندية، وجد المطابقة التامة بينهما «وكفى الله المؤمنين القتال».

«أَمَا «نَظَرُ بَرَقْدَم»: فمعناه أنّ السالك، يجب عليه أن لا ينظر في حال مشيه إلا إلى قدميه؛ ولا في حال قعوده إلا بين يديه. فإنَّ النظرَ إلى النقوشِ والألوانِ يُفْسِدُ عليه حاله ويمنعه مما هو بسبيله. لأنَّ الذّاكر المبتدئ إذا تعلقَ نظره بالمبصرات اشتغل قلبه بالتفرقة الحاصلة من النظر إلى المبصرات لعدم قوّته على حفظ القلب.» ¹⁷⁶

175 سورة الروم/50

176 محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ 506. طبعة مصر - 1384 هـ.

كانت هذه ألفاظ محمد أمين الكردي الأربلي أحد رؤوس النقشبندية وهي واضحة إلى حد لا يقبل التأويل، إلا أن من وراء هذه الألفاظ غايات مشبوهة، ودسائس خطيرة لا يتمكن من كشف الستار عنها إلا من أنار الله قلبه بهدي القرآن والسنة. ذلك أن ما جاء في هذه العبارات من نصيحة المرید المبتدئ «أن لا ينظر في حال مشيه إلا إلى قدميه ولا في حال قعوده إلا بين يديه» لا يتضمن شيئاً مما جاء في قوله تعالى: {وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} ¹⁷⁷ بل لا علاقة بين الأمرين. إذ أن القصد في هذه الآية الكريمة، هو الاقتصاد. قال ابن كثير: {وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}: «أي امش مشياً مقتصدًا ليس بالبطيء المتبسط، ولا بالسريع المفرط؛ بل عدلاً وسطاً بينين».

إنما قدمنا هذه المقارنة، إحباطاً لما قد يعتمد أحدهم فيسرغ إلى الاستدلال بهذه الآية الكريمة لتبرير باطله بالحق كما هو دأبهم.

أما الغرض الأصلي من هذا المصطلح ليس إلا ترويض السالك المبتدئ على الخنوع والذل والمسكنة؛ حتى ينسدد عليه أبواب اليقظة والوعي، فيتقبل كل ما يأمره شيخه دون اعتراض؛ فيصبح في النهاية عبداً مطيعاً لا يخالفه أبداً؛ وإن كلفه باقتحام حرمة، أو اقتراف جريمة؛ كما سبق الحديث عنه في باب آداب المرید مع شيخه.

وبجانب هذا، فإن إصرار الإنسان على إثبات نظره أمامه، لم يرد إلا في الصلاة. وهو مطلوب أيضاً أثناء الدعاء. أما في غيرهما من حالات الإنسان، وخاصة إذا كان مشغولاً بأمر من أمور دنياه فلا. لأن الإنسان إما يكون في حال السير يتنقل من مكان إلى آخر لغاية يريد تحقيقها؛ أو يكون جالساً مع أصحابه أو شركائه أو أهله في غالب الأوقات. وفي كلتا الحالتين ينبغي للإنسان أن يلتفت إلى جهات مختلفة عند كل حدث جديد، من صوت أو حركة أو ضوء؛ ليتأكد مما يجري حوله؛ وليتخذ الموقف اللازم من حيطة أو استعداد على حسب ما يقتضي. ولكن الذي يخفى على غالبية الناس هنا، أن إثبات النظر إلى أقرب مكان من الأرض نحو الأمام في حالتها المشي والقعود بصورة متواصلة، هي من أهم الشروط لصلاة «البوغا» في الديانات الهندية. وفي ذلك مقاصد: منها ترويض الإنسان على الذلة والمسكنة. وهما من الفضائل في الديانة البوذية التي تستمد من حياة بوذا الحكيم Buddha. و«يقال إنه رأى وهو في التاسعة والعشرين، ولأول مرة، عجوزاً خرفاً، ورجلاً مريضاً، وناسكاً مترحلاً، وجثة

ميت. فهالته مظاهر الحياة هذه التي لم تقع عليها عيناه من قبل، فانسلخ عن ماضيه وتنسك. ولكنه ما لبث أن اطرح، بعد ست سنوات، حياة التنسك الصارم، واستغرق في التأمل العميق المفضي إلى التَّنَوُّر. وسرعان ما اجتمع حوله عددٌ من المريدين كانوا نواة جماعة «الرهبان المتسولين» التي أسسها»

إنّ هذه العبارات المنقولة من موسوعة المورد لمثير البعلبكي، تدلنا إلى طبيعة الرهبنة الهندية على تمام حقيقتها، وما لِسَالِكِيهَا من الإهمال، وإسقاط التدبير، والتأمل العميق الذي يقتضي إثبات النظر على نقطة معيّنة طوال ساعات مديدة... وهذا لاشكّ استخفافٌ ظاهرٌ بسنة الله تعالى. علماً بأنّ الرهبنة والتسوّل هما الذلّة والمسكنة بعينهما، وهما من العقوبات التي أخذ الله بها بني إسرائيل عند ما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} ¹⁷⁸

هذا، ومن المعجزات الكامنة في هذه الآية الكريمة، أنّ المجتمع الهندي-البرهمي قد حكم بالذات على نفسه بالذلة والمسكنة جزاءً بما وقع فيه من الشرك البواح. لأنّ هذا المجتمع يتميز من جميع أصناف المشركين في العالم بتقاليده التي تُعدُّ من أشد مظاهر المقاومة للفطرة الإنسانيّة السليمة. إذن فأولى بمن تشبّه بهم، أن يأخذهم الله تعالى بنفس العقوبة.

كذلك من المقاصد التي تكمن من وراء هذه الرياضة الهندية المتمثلة في إثبات النظر، هو «التركيز». ومؤداه: الانصراف من هموم الدنيا والآخرة، تخلّصاً من متاعها ومشاقها؛ وفقاً لتعاليم «بودا الراهب الذي صدمته مشكلة آلام البشريّة، فقرّر أن يقطع صلته بالماضي ويبحث عن الحقيقة السامية في التأمل» ¹⁷⁹ «وكان بودا يعتقد أنّ الألم ينجم عن الرغبة. وأنّ التخلّص من الرغبة يأتي بانتهاج (الطريق الثماني النبيل) الذي يتمثل بالسيرة الحسنة، والفعل الحسن، وأنّه من الممكن نتيجةً لذلك بلوغ النيرفانا Nirvana. وهي حال من السعادة القصوى.» ¹⁸⁰

178 سورة البقرة،/61.

179 موسوعة بحجة المعرفة، المجموعة الثانية، 135/3. للإطلاع على أقوالهم الواردة حول مفهوم العزلة عند القشيبدين راجع المصادر التالية:

أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيريّ النيسابوري، الرسالة القشيرية ص/ 54. الطبعة الثانية القاهرة .1959م.

* أحمد ضياء الدين الكُوثُوخَانَوِيّ، جامع الأصول ص/ 110. ط. 1276 هـ.

* علي قدري، الرسالة الهانوية (ترجمة إلى اللغة التركية: رحي سرين) ص/ 22. إسطنبول-1994م.

180 المصدر السابق ص/ 136.

وأما السعادة القصوى (أي النيرفاناً) تلك التي طالما تتحدث عنها البوذيون ويسعون من وراءها؛ إنما هو «الفناء في الله» بعينه عند الصوفيّة.

إذاً يتّضح لنا بصورة جليّة أنّ مصطلح «نَظَرُ قَدَمٍ» وما يشتمل عليها من المعاني الفلسفيّة، هو مُقتَبَسٌ من البوذية دون شكّ. وأنّ الإسلام بريءٌ من هذه الهرطقة؛ كما يبرهن على ذلك حياة النبيّ عليه السلام، وحياة أصحابه عليهم الرضوان. إذ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد قام بمهامّ وأعمال عجز العلماء والمؤرّخون عن حصرها. فقد قاد الجيوش، واحتلّ منصب أول رئيسٍ للدولة الإسلاميّة، وراسل الملوك، وهادن العدو، وأبرم العقود والمعاهدات، وقضى بين الناس، وحكم بالعقوبات، وأمر بتنفيذها إلى غير ذلك من الأمور التي تستوجب الحركة والانتباه والإلتفات إلى حيث يقتضي. كلّ ذلك يبرهن على أنّ مقولة «نَظَرُ قَدَمٍ» بدعةٌ دخيلةٌ استقوها من رهبان البوذية والبرهمية.

181
«ومن تشبهه بقوم فهو منهم».

أما «سَفَرُ دَرَوْطَنٍ»، -وهو المبدأ الثالث للطريقة النقشبندية- فيقول محمّد بن عبد الله الخائيّ في تفسير هذا المصطلح: «فالمعنى المراد بها إنّ ينبغي أن يكون سفر السالك من عالم الخلق إلى جناب الحقّ سبحانه وتعالى»¹⁸²

لقد سلك الخائيّ طريقاً ملتويّاً باختيار هذه الكلمات ليستعرض بها من فنون لباقته في التعمية. بيد أنّه لا يعزب عن العقول النيرة «أنّ السفر من عالم الخلق إلى جناب الحقّ» عقيدة باطلة، «ما أنزل الله بها من سلطان». لأنّ قولهم «السفر من عالم الخلق» يعني الخروج والنزوح والتطهّر من الطبيعة المخلوقية، والتدرّج إلى مقام الخالقية، والاندماج في الله! وهذا هو المقصود بعينه من كلمتهم «الفناء في الله». ولكن جاءت هذه الكلمة في صيغة جديدة كما هو دأبهم.

هذا وقد تناول محمّد أمين الكرديّ كلمة «سَفَرُ دَرَوْطَنٍ»، وفسّرها بصيغة أكثر مرونة؛ وربما تفادياً لأيّ ردٍّ قد يواجهون من جرّاء ما يحتمله تفسير الخائيّ لهذه الكلمة من عقيدة وحدة الوجود، والحلول والاتّحاد المتتملّ في قولهم: «الوصول إلى الله»، و«الفناء في الله».

181 أبو داود-لباس- رقم الحديث: 3512، مسند الكثيرين من الصحابي، رقم الحديث: 4868.

182 محمّد بن عبد الله الخائيّ، الهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 52. طبعه مصر - 1319.

فقال الكرديّ «فمعناه الانتقال من الصفات البشرية الخسيصة إلى الصفات الملكية الفاضلة.»

غير أنّ هذه الكلمات جاءت على خلاف ما ذهب إليه الخائيّ؛ وهذه من تناقضات النقشبندية. وما أكثر من تكذيب أحدهم للآخر. وهي من أعظم الحجج القائمة عليهم.

وأما «خَلُوتَ دَرَّ أَنْجَمَنْ»: فمعناه «الخلوة في الخلوة» على حسب تعبيرهم. وهو المبدأ الرابع للطريقة النقشبندية. فقد راوغ الخائيّ في تفسير هذا المصطلح المشبوه، وتفنّن في تحميل المعاني السامية عليه. فقد جاء في مقطع من كلامه «أنّ الخلوة نوعان: الأول؛ الخلوة من حيث الظاهر. وهي اختلاء السالك في بيتٍ خالٍ عن الناس، وعوده فيه؛ ليحصل له الإطلاع في عالم الملكوت، والشهود في عالم الجبروت. لأنّ الحواسّ الظاهرة إنّ احتبست عن أحكامها؛ انطلقت الحواسّ الباطنة لمطالعة آيات الملكوت، ومكاشفة أسرار الجبروت. والنوع الثاني؛ الخلوة من حيث الباطن. وهي كون الباطن في مشاهدة أسرار الحقّ، والظاهر في معاملة الخلق بحيث لا تُشغله معاملة الظاهر عن مشاهدة الباطن. فيكون الكائن البائن. وهذه هي الخلوة في الحقيقة كما أشار إليه تعالى في قوله: {رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}»¹⁸³

هكذا استدلّ الخائيّ في النهاية بكلام الله تعالى في غير مورده. لأنّ الآية المذكورة لا علاقة لها إطلاقاً «بمن يختلي في بيت خالٍ عن الناس ويقعد فيه ليحصل له الإطلاع في عالم الملكوت». والله تعالى يقول: {فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} ¹⁸⁴ وقد خُتِمت الرسالة في جنس البشر بمحمد صلى الله عليه وسلّم

أمّا الذين أشار الله إليهم في الآية المذكورة فإنما هم رُسلُ الله الأمناء على سرّه المكلفون بتبليغ رسالاته، وليس أولئك الكهنة الذين تنسب إليهم الصوفية أنواع الكرامات والحوارق.

183 محمد بن عبد الله الخائيّ، الهجة السنّة في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 53. طعة مصر - 1319هـ.

وأما لفظ «يَاذُكْرُدُ»: وهو خامس المباني للطريقة النقشبندية. فيقول محمد أمين الكردي في تفسيره لهذا المصطلح: «فمعناه تكرار الذكر على الدوام، سواء باسم الذات أو النفي والإثبات»¹⁸⁵ لا شك فيما أن ذكر الله أفضل الأعمال. وقد قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}¹⁸⁶ وقال تعالى: {وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}¹⁸⁷ وقال تعالى: {وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا}¹⁸⁸ وقال تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}¹⁸⁹ وجاءت في القرآن الكريم آيات أخرى تحت على ذكر الله.

إلا أن الغرض من الذكر في الطريقة النقشبندية يختلف عما هو المقصود في القرآن اختلافاً كبيراً. ولا يَفْطَنُ إلى هذا الاختلاف إلا من رزقه الله المعرفة الواسعة بعقائد مجوس الهند، ومدى تأثيره على الطريقة النقشبندية في مسألة الذكر.

لأن الذكر في الإسلام بكل معناه اللغوي والاصطلاحي، ليس هو الذكر الذي يَفْصُدُ به واضح مصطلح «يَاذُكْرُدُ». فإن الذكر في الإسلام هو الصلاة المفروضة والمسنونة، وتلاوة القرآن، والدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد يُطلق على أوراد معروفة بترديد أسمائه تعالى الواردة في القرآن الكريم وغيرها من تسييح وتحميد وتهليل وتكبير وما إلى ذلك. ولكن بالأعداد التي وردت في السنة الصحيحة.

فالمقصود بهذا الذكر، ليس إلا توحيد الله تبارك وتعالى وتنزيهه من كل ما لا يليق بشأنه سبحانه، والإقرار بالعبودية له وحده.

أما الذكر في الطريقة النقشبندية بمعناه الحقيقي، فليس هذا الذي عددناه، ولا الغرض الحقيقي هو توحيد الله أو العبودية له؛ بل المقصود الأصلي الذي لا يعرفه إلا الروحانيون منهم، هو طلب «المعرفة بالله» ومحاولة الوصول إليه، كما هو في الديانة البوذية. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً. ذلك أن المعتنقين لشعبة من هذا الدين الوثني يعتقدون «أن الله يحلّ في أي صورة يختارها من صور أفراد

185 محمد أمين الكردي الأربلي، توير القلوب في معاملة غلام الغيوب ص/ 507. طبعة مصر - 1384 هـ.

186 سورة البقرة/152.

187 سورة البقرة/152.

188 سورة منزل/8.

189 سورة الرعد/78.

الإنسان ليكمّلها ويطهرها»¹⁹⁰ ولهم أورد وأذكار يردّدونها بأعداد كبيرة تُقدَّرُ بالآلاف طلباً لتلك الغاية مع القيام بعمل التركيز على شيءٍ معيّن.

فقد اطلع بعض رجال الدراسة والبحث على هذه الرياضة البوذية-البرهمية. يقول أحدهم: «أما عن ترويض نفوسهم، والتحكّم بقواهم العقلية، فهم يمارسون بالإضافة إلى تلك الرياضات طرقاً شتى مثل قطع العلائق والروابط المجتمعي، والخلوة الطويلة في مكان مقفر، وحبس الشهيق في الصدر وتحديق النظر في شيءٍ ثابت لا تبارحه العين، وترديد كلمة معينة على نغم واحد، وحصر الذهن في موضوع معيّن لا يتعداه الفكر... إلى غير ذلك من الممارسات والتجارب التي يتوصّلون بها إلى طرد كافة المؤثرات والمشاكل عن الأذهان، وإخراج الطاقات البدنية والعقلية عن وظائفها الأساسية وتجميعها لحساب غرض واحد: وهو الخروج عن المظهر العام للناس في كل شيء، واختراق القوانين المألوفة للحياة الطبيعية؛ والعجيب في أمر هؤلاء السحرة الذين يتبعون تلك الرياضات البدنية الشاقة والإنتحارات الذهنية المتكررة، أنّ أحدهم يصير بعدها وكأنه قد تلاشت فيه حدود الأشياء، وتساوت في نظره الأضداد؛ فهو لا يحب ولا يكره، ولا يعرف ولا يُنكر، ولا يسرّ ولا يحزن، وهو يذهل عن نفسه حتّى لا يشعر بما يصدر عنه من انفعالات أو يدخل عليه من مؤثرات؛ ولعلّ بفعل ذلك تتولّد عنده القدرة على الإتيان بأعمال السحر أو التخيل أو التنويم، فيراه الناس قادراً على أن يهدئ الأسد الغاضب بنظره، ويلعب النمر الجائع فلا يأكله، ويختفي عن أنظار المشاهدين وهو في وسطهم يحدثهم ويسألهم، ويقرأ الأفكار في الأذهان حتّى يتوهّم البسطاء أنّه يرى البعيد ويعلم الغيب...»¹⁹¹

فقد اقتبس قدماء النقشبندية هذه الظاهرة من البوذية، وقمّصوها مصطلح «يادكرد» وحملوها معنى الذكر، وجعلوها ركناً من أركان طريقتهم. لذا يستحيل على الجهلة بطباع الأديان منهم أن يكتشفوا سرّ هذا الاقتباس، وخاصّةً الشيوخ المعاصرين من الأتراك والأكراد لهذه الطائفة أغلبهم جهلة لا ثقافة لهم، فلا يتأتّى لأحدهم أن يقارن بين الأديان والمعتقدات، فيكشف ما تسرّب من بعضها إلى بعض، وما طغى بعضها على بعض، تجلّى بمعتقدات متباينة وأشكال مختلفة عبر القرون. ومع ذلك لا يُفرّق شيوخهم بين «العبادة لله» و«المعرفة بالله». بينما الأوّل منهما، هو مراد الله الذي خلق الإنس والجنّ لأجله. أمّا الثاني فهو مستحيل بمعنى التوصل إلى المعرفة بذات الله.

190 عبد القادر بن شبعة الحمد، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، ص/76.

191 سبيع عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، ص/155.

إنّ من الأوراد المعروفة في الديانة الهندية أربع كلمات مقدّسة في اعتقاد الهنادكة، وهي: Om, mani, padme, hum. يردّها دراويشهم ورهبانهم بأعداد كبيرة ومحددة تقدّر بالآلاف، بحيث يغيبون عن أنفسهم بتأثير التكرار. وأحياناً تظهر منهم أفعال غريبة وأطوار عجيبة وخوارق للعادة يتأثر بها الناظرون ويندهش منها المشاهدون. كالمشي على الجمر، وسحق الزجاج بالأسنان وابتلاع فتاتها، وطعن الجسم برُمحٍ أو غيره... فقد شاعت هذه الأشكال من الشعوذة بين الصوفيّة أيضاً، وبخاصّة المنتسبين منهم إلى الطريقة القادرية والرفاعيّة.

أمّا حال الغياب، فإنها كذلك تعرض لبسطاء النقشبندية بعد تكرارهم للأوراد التي يكلفهم بها شيخهم فيغيبون عن أنفسهم مدّةً ويظنون بعد الصحوّة أنّ الله قد حلّ فيهم، ويسمّون هذه الحالة «الفناء في الله». فتتمثل هذه البدع بكلّ ما سبق الحديث عنه في كلمة «يادكرد».

أمّا لفظ «بازكشت»: فمعناه في اللّغة الفارسيّة، الرجوع. فهو من متمّات «يادكرد». يقصد النقشبنديون بهذا المصطلح رجوع الذاكر إلى المناجاة بعد إطلاق النّفس. لأنهم يجسّون النّفس أثناء رياضة «اليوغا» كما تفعله اليوغية أثناء صلاة «اليوغا». إلّا أنّ من حيّل رؤوس هذه الطائفة، أنّهم قد سنّوا نداءً يستأنف بها الذاكر رياضته من جديد. وهي قولهم: «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبني». فقد مزجوا هذه الصيغة في آدابهم، تحسّيناً لها، وليجعلوا منها سبباً بين بدعتهم والإسلام؛ وليضفوا عليها سربال الأوراد الشرعيّة، تعمية على المغفّلين.

أمّا في الحقيقة، أنّ جميع المصطلحات بما فيها «بازكشت»، لا تمتّ إلى الإسلام بصلة؛ لا لفظاً ولا معنىً. كما يتبيّن ذلك من الأغراض المقصودة من هذه الألفاظ والمعاني الكامنة فيها؛ خاصّة إذا نُزعت منها المفاهيم المُقتبسة من الإسلام.

أما لفظ «نِكَاهْدَاشْت»: فمعناه اللغويُّ في القاموس الفارسي: الحراسة والحفظ. وعند النقشبنديين: هو «أن يحفظ المرید قلبه من الخواطر ولو لحظةً».¹⁹² يقصدون بذلك في ظاهر كلامهم الاحتراز من الغفلة. والحقيقة غير ذلك. فإن كلمة «نِكَاهْدَاشْت» مبدأ هامٌّ في العقيدة النقشبندية. وفي الوقت ذاته هو من الشروط المهمة التي يتوقف عليها «التركيز» لأداء رياضة «اليوغا». إذ لا يمكن إطلاقاً أن يحقق الإنسان حالة التركيز التام إلا بمراعاة خمسة أمور، وبالتزام دقيق.

الأول منها: الجلوس على هيئة معينة، وهو الشكل المعروف بـ«اللوطوس Lotus» عند الجوكية «اليوغية». في مقابلة «الجلوس على عكس التورك في الصلاة»¹⁹³ عند النقشبندية. والثاني: النفس الموزون بإيقاع طبيعي. والثالث: تثبيت الفكر على شيء بعينه. والرابع: الاسترخاء التام. والخامس: منع الحواس من التذبذب. وذلك بالابتعاد إلى مكان لا حركة فيه ولا صوت ولا ضياء. وقد استوحى النقشبنديون الشروط السالفة من «اليوغا»، وعليها بنوا أسس طريقتهم، ومنها «نِكَاهْدَاشْت»؛ وهو في مقابلة الشرط الثالث المذكور آنفاً. أي «تثبيت الفكر على شيء معين» حتى تتحقق بذلك حالة التركيز ومنها تتطور إلى حالة أخرى تسمى «الغيوبية الواقعة وراء الخبرة البشرية = Transcendental absence». وهي «الجدبة» عند النقشبندية.

أما لفظ «يَادَدَاشْت»: وهو المبدأ الثامن للطريقة النقشبندية وآخر الكلمات الثمانية التي وضعها عبد الخالق العُجْدَوَانِي؛ فمعناه على لسان محمد أمين الكردي: هو «التوجه الصرف المجرد عن الألفاظ إلى مشاهدة أنوار الذات الأحادية، والحق إنه لا يستقيم إلا بعد الفناء التام والبقاء السابغ»

إذا - بعد هذا القدر من الإطلاع على الجانب المستور لهذه الطريقة -، من البساطة جداً أن يظلل الإنسان متسائلاً عما إذا كان النقشبنديون يريدون بهذه الرياضة عبادةً لله: إقراراً بأنه الواحد الأحد

192 محمد أمين الكردي الأربلي، توير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ 507. طبعة مصر - 1384 هـ.

193 راجع المصادر التالية لمزيد من المعرفة حول هذا الشكل من الجلوس:

* محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 38.

* أحمد البقاعي، رسالة في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 42.

* سليمان زهدي، الجموعة الخالدية ص/ 4.

* سليمان زهدي، فحجة السالكين ص/ 30.

* عبد المجيد بن محمد الخاني، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية ص/ 12.

* أحمد ضياء الدين الكُمُوشْخَانَوِي، جامع الأصول ص/ 146.

الفرد الصمد الذي ليس كمثلته شيء؛ وحاشاه أن يحلّ في شيء من خلقه؛ أم يسعون للفناء فيه، والوصول إليه، والانصهار في ذاته، والاتحاد معه؟!!

إنّما هذه العقيدة هي خلاصة ما جاء به الخُلُوِيُّونَ الزنادقة من أمثال حسين بن منصور الخلاج، وفريد الدين العطار، ومحي الدين بن عربي، وعبد الحق بن إبراهيم بن سبعين المرسي، وسليمان بن علي بن عبد الله التلمساني، والحسين بن علي بن هود، وعبد الكريم الجيليّ ومَنْ على شاكلتهم من زنادقة العرب والعجم. فقد زعموا أنّ الله عين كلّ شيء؛ وهو هذه المخلوقات على كثرتها واختلاف أنواعها وأجناسها وألوانها وأحجامها ومعانيها ومبانيها وأصولها وفروعها من إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ وكبيرٍ وصغيرٍ ورطبٍ ويابسٍ وطاهرٍ ونجسٍ.

إنّ قدماء النقشبنديين وخاصّتهم لا يختلفون عن هؤلاء في هذا الاعتقاد. ولكن لا يصل إلى ذلك المستوى أحدٌ (في رأيهم) إلاّ إذا التزم آداب السّيرِ والسُّلوكِ وفق المصطلحات الأحد عشر. فمتى تدرّج المرید في هذه المراتب وبلغ إلى منتهى المنازل وتحققت فيه حالة «يَادْدَاشْتُ»، أصبح فانيًا في الله وتأكد من أنّ الله قد حلّ فيه، وأنّه جزءٌ منه، وأنّه كلّ شيء. تعالَى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

نعم هذه هي حقيقة مرادهم، وإنّ دافع المتأخرون المعاصرون من شيوخ النقشبندية عن ساداتهم بأنهم لم يقصدوا ذلك. بلى، إنهم على هذا الاعتقاد؛ وتشهد عليهم مراسلاتهم الخاصّة وأخبارهم التي سجّلها أسلافهم بالذات، ونقلوها عنهم صراحةً. منها ما قد فشت أسرارها وافتضح، ومنها ما لم تزل تحت ستار الكتمان في ذمّة خواصهم. أمّا جهل عامّتهم بهذه الحقائق فله أسبابٌ سوف نشرحها في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

أمّا المباني الثلاثة الأخيرة التي وضعها مؤسس هذه الطريقة محمد بهاء الدين نقشبند؛ فالأوّل منها: هو «الوقوفُ الزمانيُّ». وجاء تفسيره على لسان محمد أمين الكرديّ «إنّه ينبغي للسالك بعد مُضِيّ كلّ ساعتين أو ثلاث، أن يلتفت إلى حال نفسه كيف كان في هاتين الساعتين أو الثلاث.»¹⁹⁴

لاشك أنّ هذه المراقبة النفسية امتداد للحالات التي يمرّ بها السالك (أي المريء النقشبندي) عبر الرياضه الصوفية وسلوكها وفقاً لما سبق شرحه من آداب هذه الطريقة كما يُفهم من تعريف الكردي لهذا المصطلح. ويعني هذا إنه لا بدّ للدرويش القائم بهذه الرياضة أن يتأكد من نفسه في نهاية كلّ ساعتين أو ثلاث ساعات، هل تحقّق له الفناء في الله والبقاء بالله، أم لا يزال في ريب من ذلك، ولا يكاد يجد نفسه متلبساً بالبشرية. فإذا وجد أنه لم يقتنع بعد، وجب عليه أن يواصل رياضته حتى يقفّر في نفسه أن الله موجود في كلّ ذرّة من الكائنات، وبالتالي فيكون قد حلّ فيه وأصبح السالك هو الفاني في الله والباقي به. هذا من أصول اعتقادهم وإنّ كنتموا ذلك عند غيرهم واحتاطوا عند العوامّ منهم.

أمّا «الْوُقُوفُ الْعَدَدِيُّ» و «الْوُقُوفُ الْقَلْبِيُّ»، فإنّهما من متمّات «الوقوف الزماني». إذ على السالك أن يحافظ على عدد الوتر في الذكر بالنفي والإثبات عبّر مراحل الرياضة. علماً بأنّ الغرض الأصليّ من هذا الذكر ليس إلّا تحقيق حالات نفسية معيّنة. وهي «التركيز الفزيولوجي Consantration = physiologic ومنه التطوّر إلى حالة «الغيوبة = Transcendental absance». لأنّ السالك إنّما يتطبّع تماماً بالصبغة التي يريدها شيخه عندما يكون قد تدرّج إلى هذه الحالة النفسية في نهاية المطاف.

كلّ هذه المقولات المشبوهة، مؤداها إذلال كرامة الإنسان، وإلحاق الضمور بعزّته، وتحويله إلى بهيمة مُدْرِيّة على الطاعة العمياء. وليس فيها شيءٌ ممّا أمر به الإسلام من التواضع والإحترام والإطمئنان والمروءة والسكينة والوقار. وإذا تأملنا غاية ما في هذه المقولات من التوجيه على لسان شيوخ النقشبندية، وجدنا الصواب منها ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم بأفصح عبارة وأفضلها وأجزها، وفي أساليب القرآن من تمام البيان والتحقيق ما ليس في هذه المقولات وغيرها مثله. قال تعالى: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا.¹⁹⁵

الفصل الثالث

* مفاهيم، ومصطلحات، ومعتقدات أخرى عند هذه الطائفة.

-
- * التصوف.....
 - * السَّيْرُ وَالسُّلُوكُ.....
 - * العشق الإلهي.....
 - * المعرفة بالله.....
 - * الفناء والبقاء.....
 - * وحدة الوجود.....
 - * وحدة الشهود.....

- * الولاية، والولي، وتصرف الميِّت.....
- * المكاشفة والإلهام، وعلم الغيب.....
- * الأُوَيْسِيَّةُ.....
- * الكرامة، والمناقب.....
- * مفهوم التوسل في معتقد النقشبندية وما ركبوا عليه من أمور.....



الفصل الثالث

* مفاهيم ومصطلحات ومعتقدات أخرى عند هذه الطائفة.

إنَّ الطَّرَائِقَ الصُّوفِيَّةَ عَامَّةً، (بما فيها الطريقة النقشبندية) هنَّ أصلاً منظَّماتٌ شبه سرِّيَّةٍ، بل هنَّ أديانٌ مشبوهةٌ نشأتْ - في حقيقة الأمر - لضرب الإسلام من الداخل على يد زنادقة متنكرين بلباس الزهد والعفة والإخلاص. لهذا، كلما تعمَّقنا في البحث من وراء حقيقة الطَّرَائِقِ الصُّوفِيَّةِ وَجَدْنَا أنفسنا أمامَ رُكَّامٍ من مخلِّفات الأديان والفلسفات تتمثَّل في مفهوم التصوف.

* التصوف:

أما التصوف، فإنه نَفَقَ مُظْلِمٌ تتزاحم فيه أفكارٌ غامضةٌ وعقائدٌ غريبةٌ وتأويلاتٌ خطيرةٌ وفلسفاتٌ دخيلةٌ وألفاظٌ مُعَقَّدةٌ وأساطيرٌ عجيبةٌ وحكاياتٌ رهيبَةٌ تراكمتُ في مجلِّداتٍ من كتب الصوفية وانتشرتُ بين آلافٍ مؤلِّفةٍ من أصحاب النفوس الضعيفة والمغفلين الذين لم يفتنوا إلى ما فيه من أخطار على الإسلام والمسلمين ضمن ذلك المزيج الباطني المُخْتَلَقِ.

«ينبغي أن يُفْهَمَ جيِّدًا أنَّ التصوف لا يعني الزهد في الدنيا أو تركية النفس وتصفيتها، وإنما هو فلسفة كاملة شاملة وعقيدة لها معالمها الخاصة بها. ولم يكن المتصوفة هم أول من ابتدعوا التصوف واخترعوه، بل هو فكرة فلسفية قديمة جدًا، كان لها أتباعها في اليونان والهند والصين والفارس. وكان في البوذية والهندوسية واليهودية والنصرانية متصوفتها الخاصة بها. ولم يوجد التصوف بين المسلمين إلا بعد ترجمة كتب الفرس واليونان والهنود إلى العربية. والدارس لعقائد الصوفية يجد لها أصلا في الديانات السماوية والوضعية الأخرى. فوحدة الوجود عند المتصوفة مستمدة من الهندوسية، والحلول والفناء في ذات الله مستمد من النصرانية التي تؤمن بحلول ذات عيسى البشرية بالذات الإلهية. وكذلك عقيدة الحقيقة المحمدية مأخوذة من تصورٍ مشابهٍ للنصرانية حول عيسى ومكانته في الدنيا...»¹⁹⁶

لقد اختلف الباحثون في ردِّ كلمة التصوف إلى أصولٍ متباينة، وكلٌّ حَمَلَهَا معنىً على حسب رأيه وظنِّه؛ وغَفَلَ جميعُهُم عن أصلها الحقيقي كما سنفضحهم بالدليل القاطع في نهاية البحث إن شاء الله تعالى.

زعم فريقٌ منهم: أنَّ التصوف مشتقٌّ من الصفاء أو الصفو. فقد وقعوا بهذا الزعم في ورطةٍ كشفت عن جهلهم باللغة العربية؛ إذ أنَّ الأصلَ الثلاثيَّ للتصوف يتركب من الصادِ والواوِ والفاءِ (صَوَفَ)، بينما الأصلُ الثلاثيُّ للصفاء أو الصفو يتركب من الصادِ والفاءِ والواوِ (صَفَوَ). وبهذا قد افتضحوا إلى حدٍّ لا مجال للاعتبار برأيهم وهم أصحابُ هذا المستوى من السطحية والجهل.

وقال فريقٌ منهم: إنَّ كلمة «التصوّف» تعودُ إلى «الصُّفَّة» الّتي كانت جماعةً من فقراءِ الصحابةِ يأوون إليها؛ بينما الربطُ بين هاتين الكلمتين غيرُ جائزٍ بوجهٍ من الوجوه. فالمناسبةُ الاشتقاقيةُ ممنوعةٌ. لأنَّ «التصوّف» (إذا فرضناه كلمةً عربيةً وهي غيرُ عربيةٍ إطلاقاً كما سيَتضحُ في نهايةِ البحثِ بالدليلِ القاطعِ)، فأصلُهُ الثلاثيُّ يترَكَّبُ من الصادِ والواوِ والفاءِ (صَوَفَ). أمّا الأصلُ الثلاثيُّ لكلمةِ «الصُّفَّة»، فإنّه يترَكَّبُ من الصادِ والفاءِ مضعّفاً (صَفَفَ). فالخلافُ بين الكلمتين ظاهرٌ لا يتركُ المجالَ لأيِّ مناقشةٍ.

ثمَّ المناسبةُ بين المفهومين من حيث المعنى، ممنوعةٌ أيضاً. لأنَّ «التصوّف» مصطلحٌ اختلفت الآراءُ في تعريفه وشرحه، وعجز الناسُ عن فهمِ حقيقتهِ حتى اليوم. أمّا «الصُّفَّة»، فإنّها كانت بيتاً بسيطاً مسقوفاً بقضبانِ النخلِ يسكن فيه الضعفاءُ من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم

ثمَّ المناسبةُ بين الصوفيّةِ وأهلِ الصُّفَّةِ ممنوعةٌ أيضاً. لأنَّ الصوفيّةَ يعيشون ويتعبّدون على أساسِ قهرِ النفسِ بالجوعِ، والرهبنةِ، ولبسِ المسوحِ، وترديدِ الأورادِ على الطريقةِ البوذيةِ، ورابطةِ الشيخِ، وحلقاتِ الذكرِ، والسماعِ والرقصِ... لا يعتدّون في كلّ ذلك بمبدأ «التوقيفية» في الإسلام. بينما كان أصحابُ الصُّفَّةِ كلّهم يفتنون برسولِ الله صلى الله عليه وسلّم في سيرهم وسلوكهم وكلامهم، وتعبّدهم وأخلاقهم وتعاملهم.

وقال فريقٌ آخرُ: إنَّ أصلَ التصوّفِ مشتقٌّ من الصوفِ الَّذي كان منه لباسُ رجالٍ رفضوا زينةَ الدنيا وملذّاتها، وعرفهم الناسُ بالتواضعِ والقناعةِ والاستقامةِ في أمرِ الآخرةِ.

إنَّ الربطَ بين كلمتي الصوفِ والتصوّفِ بهذه المناسبةِ واهيةٌ جدّاً. لأنَّ التواضعَ والقناعةَ والاستقامةَ لا يتوقّفُ على لبسِ الصوفِ، ولا على لبسِ القطنِ؛ بل الأخلاقُ في الإسلامِ سلوكٌ متكاملٌ قد حدّده الكتابُ والسنةُ.

أمّا كلمةِ التصوّفِ، فإنّها في الحقيقةِ منقولةٌ من اللّغةِ اليونانيةِ. وضبطها: الثيوصوفيةُ (Theosophy)، على غرارِ كلمةِ الفلسفةِ. لأنّها أيضاً يونانيةٌ، وضبطها: الفيلسوفيةُ (Philosophy)، كما جاء في موسوعةِ الموردِ لمؤلّفه منيرِ البعلبكي. يقول المؤلّفُ:

«يُقصدُ بالتيوصوفيةِ بالمعنى العامِّ: معرفة الله من طريق الكشف الصوفيِّ أو التأملِ الفلسفيِّ، أو من طريق الكشف الصوفيِّ والتأملِ الفلسفيِّ معًا. وهي بهذا المعنى ظاهرةً قديمةً عرفتها الأديانُ على اختلافِها».

هكذا افتضح أصحابُ الأسانيدِ الواهيةِ الذين بنوا آراءهم في مسألةِ أصلِ التصوُّف، على اجتهاداتٍ ونظريَّاتٍ وفرضيَّاتٍ لا تقوم على برهانٍ من الكتابِ والسنةِ، ولا على دليلٍ علميٍّ ثابتٍ؛ ربما لقلَّةِ علمهمُ بالأديانِ، والفرقِ والعقائدِ وتطوّراتها، وجَهْلهمُ بظاهرةِ الاستحالةِ وما يتعرَّضُ له المعتقداتُ من التحريفِ مع الزمانِ، وكذلك جَهْلهمُ باللغاتِ الأجنبيةِّ.

لقد نشأت الطريقة النقشبندية كسائر الطرائق الصوفية في هذا الدهليز وتغذت من مستنقعات التصوُّف فتطوّرت عبْر القرون من شكلٍ إلى شكلٍ، وتغيّرت من لونٍ إلى لونٍ؛ كلما زيد فيها أو ألغِي منها. فحملت من غُثاءِ عددٍ من الأديانِ، وجرفت من رواسبها على امتداد مجراها في تاريخ الشعب التركيِّ بعد إسلامهم إلى أن امتلأت حاويتها بأصنافٍ من عقائد الهنود والنصارى واليهود؛ وإن استنكر هذه الحقيقة صناديدُ الطائفةِ وعفاريئها بملامةٍ ومعاتبَةٍ وعُنفٍ وردودٍ. وما أدلّ على تحريفهم للإسلام ما قد نسبوا إليه من مفاهيمٍ ومصطلحاتٍ ومُعتقَداتٍ دخيلةٍ لا تمتُّ بصلةٍ إلى الإسلام في واقع الأمر.

وقد حان الوقت وناسب المقام لشرح ما تبنته النقشبندية من أغراضٍ وما اختلقتُه من مفاهيمٍ باطنيةٍ أخرى، فأقامت على أساسها سلسلةً من آدابٍ وأركانٍ تعتمد على تلك المفاهيم، وهي: السَّيرُ والسُّلوكُ، والعشقُ الإلهيُّ، والمعرفةُ بالله، والفناءُ والبقاءُ، ووحدةُ الوجودِ، ووحدةُ الشهودِ، والولايةُ، والوئيُّ، وتصرفُ الميِّتِ، والإلهامُ، والأوَّسِيَّةُ، والكرامةُ، والمناقبُ، والاستغاثَةُ بالهوتى، وتقديسُ قبورهم، وزيارتها، والتَّبَرُّكُ بِهَا، والتوسُّلُ بِهَا.

* السَّيرُ والسُّلوكُ.

أما السَّيْرُ وَالسُّلُوكُ، فهو مصطلح هامٌّ عند النقشبندية. وقد يذكرون واحدًا منهما بقصد الجمع بينهما كما اختاره أحمد ضياء الدين الكُمُوشَخَانَوِيّ.¹⁹⁷

قال السيد محمود أبو الفيض المنوفي - وهو أحد أدياء المتصوّفة وأعلامهم في عصرنا - قال في كتابه المعروف بعنوان «معالم الطريق إلى الله»:

«معنى سلوك الطريق، التحقّق بمقامات اليقين وأحوال القرب من الله عزّ وجلّ بالعلم والعمل والمقام والحال سلوكًا على يد شيخٍ عارفٍ بمعالم الطريق ومفاوزه، فيدلّ السالك على السبيل الأقرب إلى الله بما يرشده إليه من أنواع الرِّياضة والذكر والخلوة وغير ذلك.»¹⁹⁸

هذا هو المراد العامّ الظاهر من السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ في التّصوُّف. أمّا عند النقشبندية فينحصر السلوك في الخلوة. وقد أفردها بعضهم في فصلٍ مستقلٍّ كمحمد أمين الكرديّ، إذ يقول:

«اعلم أنّه لا يمكن الوصول إلى معرفة الأصول وتنوير القلوب لمشاهدة المحبوب إلاّ بالخلوة خصوصًا لمن أراد إرشادَ عبادِ الله إلى المقصود.»

يتبيّن من كلام الكرديّ هنا مرّة أخرى أنّهم يختلفون مع جمهور المسلمين في معاملة ربّ العالمين. ذلك أنّهم لا يقصدون عبادة الله بشهادة هذا الإقرار. وإنّما يريدون الوصول إليه ويتغنون مشاهدته. وعلى الرّغم من هذا التصريح فإنّ فريقًا منهم يُخفون ما في صدورهم، وفريقًا يجهلون الغرض الحقيقيّ الذي يُضْمِرُهُ قُدَمَاؤُهُمُ الَّذِينَ لهم الهيمنة على نفوس عامّة النقشبنديّين. ألا وهو الحلول والاتّحاد.

ولهم في هذه المسيرة طرقٌ ملتويةٌ وآدابٌ مشبوهةٌ تتمثل في رياضاتٍ هندية، أحدثوا لها أغلفةً من مفاهيم الإسلام وقيمه، بحيث لا ينتبه إلى مقاصدهم مَنْ قَصُرَ علمُهُ أو غلبت عليه الثقة فيهم بما يشاهد في مظاهرهم من السكينة والوقار والورع والصالح.

197 أحمد ضياء الدين الكُمُوشَخَانَوِيّ، جامع الأصول ص/ 107.

198 السيد محمود أبو الفيض المنوفي، معالم الطريق إلى الله ص/ 299. دار النهضة-القاهرة.

وهذه الرياضة التي يسمونها (خلوة) يدعون أنهم إنما يمارسونها أسوةً بالرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله قبيل بعثته. ويقولون: «وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخلو بغار حراء حتى جاءه الأمر بالدعوة»¹⁹⁹ ويتناسون أنه عليه السلام لم يفعل ذلك بعد البعثة، ولا أمر أحدًا من أصحابه بالخلوة (التي تختلف عن الاعتكاف). وإنما كانت خلواته قبل البعثة اندفاعًا وجدانيًا ينساق معه بتوفيق من الله واستعدادًا لما سوف يتحمّله من أعباء النبوة؛ وأما كانت حالة استثنائية خاصة به دون غيره، اقتضت في بداية أمره.

أما الذي يريده النقشبنديون، فليس إلا استغلال مفهوم الخلوة بهذه الذريعة، ليمكنوا بها من ضمّ شعارات هندية إلى شعائر الإسلام تحت ستار العبادة والتقرب إلى الله بتقليد السحرة والمشعوذين من الجوكية (اليوغية) والفقراء الهنود.

وللخلوة عندهم عشرون شرطاً مشروحةً في كتبهم.²⁰⁰ لا حاجة لهم في إثباتها بشيء من كتاب الله، ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد باح بالسيرة المقصود من السيرة والسلوك بعض المعاصرين منهم، وخاصة جماعة غالية من هذه الطائفة في إسطنبول. وذلك لما وجدوا عامة المسلمين في شغل عنهم فتصدّوا لتفسير كتاب الله بأسلوب باطني، أصدروه باللغة التركية تحت عنوان «روح الفرقان» عام 1992م.، وتطرقوا فيه إلى السيرة والسلوك.

ومن جملة ما جرت به أفلامهم بهذا التفسير الشاذ، قولهم (مُعَرَّبًا):

«إنه بعد ما يضمحلّ جميع ما سوى الله من نظر السالك بفضل المولى وكرمه بحيث لا يكاد يرى غير الله شيئاً أجنبيّاً - اسمًا كان أو صورةً - تحقّق له الفناء في الله، أي الانصهار في ذاته. وحصلت بذلك الدولة، وانتهت الطريقة، واكتمل السيرة إلى الله (أي المشيئة المعنوية نحو المولى)»²⁰¹

199 محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ 493.

200 المصدر السابق ص/ 493.

201 روح الفرقان، بقلم جماعة عددتهم سنة أشخاص من النقشبنديين الأتراك ص/ 63/2. دار سراج إسطنبول . 1992م. وهذا نص عبارتهم باللغة التركية:

كانت هذه تَرْجَمَةٌ حَرْفِيَّةٌ لِنُبْدَةٍ من كلامهم في تفسير السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ، ولا يحتاج إلى تعليق. وخلاصة ما ينبغي أن يؤكد في النهاية عما يتعلّق بهذا التفسير الجريء، أنّهم يختلفون عن المسلمين بعقيدتهم في ذات الله أكثر من اختلاف النَّصَارَى عن المسلمين في هذه العقيدة.

* العشقُ الإلهيُّ

أما العشقُ الإلهيُّ، فهو من أهمِّ مباحث الصَّوْفِيَّةِ. فقد جرى كلامهم حوله نشرًا ونظمًا كما في تائيَّةِ عمر بن الفارض،²⁰² وديوان المُلَّا أحمد الجزري الكردي، وأشعار رابعة العدويَّة.²⁰³ وقد كثرت في هذه المسألة هذياناتهم قديمًا وحديثًا. غير أنّ هذا التعبير لم يكن شيئًا مُتَدَاوِلًا بين قدماء النقشبندية، فانتشرت هذه الفكرة في أوساطهم منذ أمدٍ غير بعيد، وربما بتأثير بعض الشيوخ منهم. إذ أنّ كلّ ما يقوله شيخ الطَّريقَة، ويخْتَلِقه من تلقاء نفسه لا يُعَدُّ بِدَعَاةٍ عندهم، وإن تعارضت أقواله مع نصوص الكتاب والسنة؛ ولأنّ شيخ الطَّريقَة لا ينحصر مجاله في حدود اختصاص معيّن، ولا تقتصر مهمته في نطاق الاجتهاد والتفسير والتأويل فحسب. بل هو في اعتقاد الطائفة «وكيل الله ونائبه»²⁰⁴ يتصرّف كيف يشاء، ويتفوّه بما يبدو له. إذن فله أن يُضِيفَ إلى مبادئ الطَّريقَة وآدابها وأركانها وطقوسها ما يشاء، أو أن يُلغِي منها ما يشاء. وهذا ما جعل الطَّريقَة تتغيَّر فيها أمورٌ بين الفينة والأخرى.

فقد أفرد محمّد أمين الكردي فصلًا في المحبَّة والشوق والوجد. وقال في مقطعٍ منه:

Mevlânın fazl-u keremiyle masiva (Allah Teala'nın dışındaki her şey) salikin nazarından tamamen kalkıp gayriyi (yabancıları) görmekten isim ve resim kalmayınca muhakkak fenafillâh (Allah-u Teala'da eriyip gitmek) tabir edilen devlet hasıl olmuş ve tarikat hali sona ermiş olur. Ve böylece seyr-i ilallah, mevlaya doğru olan manevi yürüyüş tamamlanmış olur.

202 راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضاء كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 568/2. بيروت - 1993م.

203 راجع ترجمتها في الأعلام، خير الدين زركلي، الطبعة 11. ص/ 10/3. دار العلم للملايين. كذلك فيه أسماء مصادر ورد فيها ترجمتها.

204 تفسير «روح الفرقان» باللغة التركية لجماعة من النقشبنديين الأتراك ص/ 74/2. إسطنبول. 1992م.

«اعلم أنّ الحيين على ثلاثة أقسام: عوامٌ وخواصٌ، وخواصٌ الخواصِّ. فأما العوامُّ فمحبّتهم له تعالى لوفور إحسانه، وأما الخواصُّ فمحبّتهم خالصةً عن الشوائب. وأما خواصُّ الخواصِّ، فمحبّتهم عبارةً عن التعشُّق الذي به ينمحي العاشق عند تجلّي نور معشوقه.»²⁰⁵

لقد يظهر من خلال هذه الكلمات أنّ النقشبنديين اكتشفوا أخيراً أسلوباً ثانياً لتفسير ما يعتقدونه من وحدة الوجود والحلول والاتحاد. ألا وهو «العشق الإلهي». لأنهم يقصدون بذلك الانصهار في ذاته تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

إنّ تشبّثهم بمثل هذه الفكرة تطوّر جديدٌ وغريبٌ. لأنّ النقشبنديين، من أهمّ مزاياهم الصمّت والتأمل والذكر القلبي بالتركيز على أسلوب الجوكية (اليوغية) في الديانة البوذية - البرهمية. وأنهم لم يلتفتوا منذ القديم إلى الأشعار والغزل كما قد اتخذوا موقفاً معارضاً للرقص والسماع عبر تاريخهم. لأنّ الحركة من أكبر موانع التّركيز. وإلا ليست معارضتهم للرقص والسماع من منطلقٍ إسلاميٍّ صحيح في حقيقة الأمر.

أما تعبير العشق في كون الإنسان أن يعشق الله، فقد كان من ضلالات الأقدمين من متصوّفة العراق. كانوا يتفوّهون به في غزلهم. ولم يعبا بهم علماء الإسلام يومئذٍ لحسّة شأنهم وقلة عددهم. ولكن هذه الفكرة قد أصبحت اليوم خطراً على العقيدة الإسلامية بعد أن تبناها النقشبنديون. علماً بأنّ العشق في اللغة يفيد معنى الاشتياق إلى الجنس المقابل بقصد النكاح والجماع. ولم يرد في الكتاب والسنة ما يفيد أنّ العبد يجوز له أن يعشق الله. بل ورد فيهما الترغيب في محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم. إذ قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} ²⁰⁶

ورغم السبيل الذي طرقه النقشبنديون في تأويلهم لمفهوم «العشق الإلهي»، فإنّه لم يُغن عنهم في الوقوع فيما يكتمه خاصّتهم ويجعله عامّتهم من نزعات باطنية بهذا التأويل الشاذّ لمفهوم العشق. لأنّ كلمة العشق تختلف اختلافاً كبيراً عما تفيد كلمة المحبة في التعبير عن عواطف الإنسان. فإنّ المحبة بمعناها المتعارف هو إحساس عاطفيّ نبيل، لا يشوبه ميل شهويّ وابتدالٍ جسديّ. وأما مفهوم العشق، فإنه

205 محمد أمين الكردي الأربلي، توير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/487.

206 سورة آل عمران/31.

ينبئ عن نزعات آثمة وهواجس شهويةٍ تتور في النفوس المتلهفة بالغرام والهيام، والمشتاقة إلى إشباع الرغبات الجنسية وما يتصل بها.

ولقد دأب شعراء الصوفية دائماً على وصف الله بصفات المرأة الجميلة الفتانة؛ يحملونها عليه أنه يتجلّى في جمال غزليّ خلّاب، يفتن به العاشقون؛ ويتخيّلونه في صورة من الأنوثة بشعور تتلظى إليها نفوسهم وهي تراودهم عن نفوسهم. حاشا لله!!!

بينما نجد النقشبنديين على درجة من الإفراط والمبالغة بأولئك الشعراء المتبدلين من الصوفية ويشاركونهم في العقيدة والموقف بإقرارهم لمفهوم «العشق الإلهي» على غرار ابن الفارض والملاّ الجزري وأمثالهما.

* المعرفة بالله

وأما فكرة «المعرفة بالله» عند الصوفية، فهي عقيدة خطيرة تبنّاها الأقدمون منهم؛ ثم تطوّرت منها سائر عقائد القوم. إذاً فهي بمنزلة القاعدة الأساسية لها.

فقد أفرد القشيري في هذه المسألة باباً وهو من قدماء الصوفية وأعلامهم. قال في رسالته المشهورة:

«وعند هؤلاء القوم المعرفة: صفةٌ من عَرَفَ الحقَّ سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدّق الله في معاملاته. ثم تنقّى عن أخلاقه الرديئة وآفاته...»²⁰⁷

من الأهمية بمكان، أنّ هذا التعريف لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية لو لا أنّ القشيري تحيّل في إيراد هذه العبارة أنّ جعلها تعريفاً لمفهوم «المعرفة بالله». بل كان أولى به أن يقول

«الإيمان: صفةٌ من أيقن بالحق سبحانه وعَرَفَ أسماءه وصفاته، ثم صدّق الله في معاملاته.»

هكذا يتبين بوضوح أن الصوفية قد حرّفوا عقائد الإسلام بحيلٍ دقيقةٍ قلّ من انتبه إليها في أيامها. وبذلك سنحت لهم الفرصة فطوّروها بتدرّجٍ عبر القرون حتى التبسّت المفاهيم الدخيلة والعقائد الخطيرة بالمفاهيم القرآنية على عوامّ المسلمين فانحدر من هذا الالتباس ركّام البدع والأباطيل على كثر الزمان فتكوّنت منها جبالٌ عجز المسلمون في هذا العصر عن التخلص منها.

أما في الحقيقة، فإن مقولة «المعرفة بالله» ليست من الإسلام في شيء، ولا ورد في الكتاب والسنة ما يؤكّد ذلك. بل دعا الله عباده أن يؤمنوا به قبل كلّ شيء. والآيات في ذلك كثيرة. ثم أمرهم بالعمل الصالح والتقوى. إذ لم يرد في القرآن أمر بـ «المعرفة بالله» على الإطلاق. بينما الأمر بالإيمان ورد فيه أكثر من أن يُحصى. كقوله تعالى: {فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ²⁰⁸ ولم يقتصر الأمر في توجيه الدعوة للكافرين إلى الإيمان فحسب، بل قد أمر الله المؤمنين كذلك أن يؤمنوا به (وإن كان ذلك من باب تكميل الكامل وليس من باب تحصيل الحاصل) فقد قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} ²⁰⁹

هكذا فالآيات في الدعوة إلى الإيمان كثيرة وفي هذا القدر كفاية. كذلك وردت آيات بينات في الدعوة إلى عبادة الله سبحانه.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. (بقرة/21). وقال تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا... (نساء/36). وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. (الحج/77)

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث مُعَاذًا رضي الله عنه على اليمن قال إنك تقدّم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله

208 سورة الغاين/8.

209 سورة النساء/136.

فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرُدًّا عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ
(رواه البخاري)

أما قوله عليه السلام «فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ»، معناه فإذا عرفوه بصفاته التي جاءت في كتابه العزيز، وهو الإيمان به، وليس التعرف إلى كُنْهِ ذاته.

وهنا يتبادر إلى الذهن أن يُطرح سؤال هام، وهو: لماذا دعا الله عباده للإيمان به عن طريق النظر إلى آثاره والمعرفة بصفاته والعبادة له فحسب، ولم يكلفهم بالتعرف إلى ذاته؟

لو أنّ المسلمين استيقظوا من غفلتهم واستطاعوا أن يُدركوا ما لم يدركه أسلافهم في عصور الظلام من أسباب الانحراف، وطرحوا حتى هذا السؤال البسيط مرة واحدة فحسب؛ لاصطدموا بحقائق مذهشة اختفت عنهم؛ أدناها أنهم قد أصبحوا اليوم قلة حتى بين صفوف المصلين في مساجدهم. لأنهم إنما يعبدون الله تصديقاً لما جاء من عنده وإقراراً بالعبودية له؛ بينما تختلف الغاية في محاولة الآخرين من العبادة تمام الاختلاف. لأنهم لا يعبدون الله إلا ليتعرفوا على ذاته وليحلّوا فيه. تعالى ربُّنا عن ذلك علواً كبيراً.

نعم كيف تجوز المعرفة بذات الله؟ كيف يجوز للإنسان أن يحيط الله الخالق الأزلي الأبدي، والإنسان بكامل وجوده حادثٌ ومخلوق؟... هل يجوز أن يتسع عقل الإنسان المخلوق العاجز المحدود حتى يستوعب ربّ العزة بذاته؟ وما دليل من يدعي ذلك من المنقول والمعقول؟ ألم ينه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التفكّر في ذات الله تبارك وتعالى؟²¹⁰ لأنّ الإنسان عاجزٌ عن الإحاطة بكُنْهِ ذاته عز وجل. وإنما هذا العجز هو ذلك الحاجز الرهيب الذي يعترض سبيل الإنسان التّعيس، ويقف في وجهه على مدى حياته، لا يبرح أمامه في كل لحظة. تلك هي المشكلة العظيمة التي تكمن فيها أسرار الكفر والإيمان، بل وأسرار الكون والحياة بتمامها. ذلك أنّ الإنسان لو استطاع أن يجد أدنى سبيلٍ للتحقق من ذات الله سبحانه عن طريق المشاهدة أو التجربة، لما اضطرّ أن يواجه أعباء الحياة والممات بكلّ

210 روى أحمد مرفوعاً والطبراني وأبو نعيم عن عبد الله بن سلام. قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله. فقال لهم فيم كنتم تفكرون؟ قالوا نتفكر في خلق الله. قال لا تفكروا في الله، وتفكروا

مرارتها. ولكن الله تعالى يقول: {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ²¹¹ وإنما يتوقف حسن العمل . أولاً وقبل كل شيء . على الإيمان بالغيب . وهو الإيمان بذات الله تعالى في حدود المعرفة بصفاته، وبالنظر إلى خلقه وآثاره دون أن يتعدى الأمر إلى المعرفة بذاته، وهي محال . كذلك قال الله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} ²¹² إذا فكيف بالإنسان أن يتمكن من الإحاطة بذات الله وهو لا يحيط بشيء من علمه إلا بما شاء! لأن علاقة المؤمن بالله لا تعدو عن التسليم الخاضع له تعالى؛ وهي منحصرة في حدود اليقين التام به والعبادة الخالصة له فحسب .

هذا ويتبين جلياً بأن الذين يرون معرفة الله من الأمور الجائزة والممكنة، يدعون أنها قد تحققت لبعض ساداتهم . إذ يخلعون عليهم صفة العارف بالله . {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} ²¹³ يتبين أنه قد بلغ الحمق والغباء بهم إلى درجة، أنهم يدرسون عقائد المسلمين في مدارسهم ويتداولون كتب أعلامنا؛ كشرح العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، وكتاب التوحيد للإمام أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي، وكتاب التمهيد من تصانيف أبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي ورسالة العقائد النسفية لأبي حفص عمر بن محمد التسفي، وشرح العقائد التسفية للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني. ومع هذا، لا ينتبهون إلى أن الإيمان ينافي عقيدة «المعرفة بذات الله». إذ أن الله سبحانه وتعالى «ليس بعرض ولا جسم ولا جوهر ولا مصور ولا محدود». كما ورد في العقائد النسفية. وخلاصة هذا: أن الإنسان المخلوق الحادث العاجز والمحدود، يستحيل عليه أن يحيط بالله، ويتعرف إلى ذاته الأزلي الأبدي الذي ليس بمحدود.

إن الصوفيّة قد خبطوا في تناقض شديد إلى درجة أنهم يدرسون كتب المسلمين ويدرسونها ويحفظون منها، ثم يعتقدون ما يجعلهم في مقام بين الصدق والكذب، بحيث إذا صدّقوا ما قد درسوا من كتب المسلمين، شهدوا على أنفسهم بالكذب في مصطلحهم ومعتقدهم بما سمّوه «المعرفة بالله»؛ وإذا صدّقوا هذه الفرية، أصبحوا من المكذّبين لما درسوا من عقائد المسلمين.

211 سورة الملك/2

212 سورة الفرة/255

213 سورة الكهف/5

هكذا فإنّ النقشبنديين أيضاً قد تورّطوا في هذا المأزق تبعاً لبقية الصوفيّة. والدليل عليهم، أنّهم يُكثرون من وصف ساداتهم بـ«العارف بالله».

* الفناء والبقاء.

وأما «الفناء والبقاء» في عقيدة الخاصّة منهم دون عامّتهم، فإنّها بمنزلة الحلقة الأخيرة بعد «المعرفة بالله». ويتصوّر أنّهم يلتقون فيها بذات الله «لأنّهم قد عرفوا الله حق معرفته، فاستحقّوا بذلك أن ينصهروا فيه فيتحقّق البقاء»، حاشا لله!!! وذلك بعد المرور بجميع مراحل السّير والسُّلوك؛ من البيعة والخلوة وممارسة الذكر الخفيّ والرابطة ومراعاة «المباني الأحد عشر» وما يتصل بها من آداب وأركان سبق شرحها في الفصل الثاني. إلاّ أنّهم لا يُفشون سرّ عقيدة الفناء بهذا الوضوح خوفاً من استنكار المسلمين وردود فعلهم. بل يمتنعون الكلام في هذه المسألة وأمثالها احتياطاً وتقيّة، ويُخفون ما في صدورهم حتّى عن عوامّهم فضلاً عن المسلمين.

إنّ فكرة «الفناء في الله والبقاء بالله» ليس أمراً حديثاً عند الصوفيّة. بل تكلم به الأقدمون منهم كالقشيريّ. إلاّ أنّ عقيدة الفناء قد تطوّرت عند هؤلاء خاصّة. فإنّ النقشبنديين قد أوّلوها بل حرّفوها عن معناها الذي أراده السابقون.

وعلى سبيل المثال فقد قال القشيريّ «أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف الحمودة»²¹⁴

إنّ هذه كلمة حقّ أرادوا به باطلاً. إذ أنّ إسقاط الأوصاف المذمومة وإبقاء الأوصاف الحمودة قد وصّى بهما الإسلام، ولكنهم لجأوا إلى الالتواء والتلبيس عند ما أطلقوا اسم «الفناء» على إسقاط الأوصاف المذمومة؛ وأطلقوا كذلك اسم «البقاء» على إبقاء الأوصاف الحمودة. لأنّهم فتحوا بهذا

المصطلح المبتدع بابًا، استغله أخلافهم فأدخلوا منه سيلاً من رموز الزندقة والضلال كما مرّت الإشارة إليها، وهي تنحصر في عقيدة الاتحاد مع الله عند خاصّتهم. والدليل على ذلك نعتهم لساداتهم بصفة «الفاني في الله والباقي بالله». بينما لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولا عن أحد من الصحابة أنّه وصف شخصاً بهذا النعت.

لقد تظهر أمارات التطور والتحريف في هذا المفهوم أيضاً بعد أن اختلقها قداماؤهم الأولون؛ كما قد حرّفوا وطوّروا الكثير مما وضعها ساداتهم على مدى تاريخ النقشبندية. ذلك أنّ الأقدمين منهم عند ما جاؤوا بهذه الزندقة لم يزيدوا على أنّها ترك الأوصاف الذميمة والبقاء على الأوصاف الحميدة. علماً بأنّ هذا البيان لم يكن حافزاً مثيراً لانتباه المسلمين يومئذٍ. لأنّ الاجتناب عن الأوصاف الذميمة والبقاء على الأوصاف الحميدة شيء مرغوب فيه، وإنّ سُمّي بالفناء والبقاء. غير أنّ المسلمين لما سكتوا عن هذه التسمية الشاذة؛ ولم يتوقعوا أنّ من ورائها حيلة سوف تعود بعواقب وخيمة، يتخذها المتأخرون ذريعة لبناء عقائد أخرى باطلة على أساس مفهوم الفناء، فتطوّر الأمر حتى زعم بعضهم «أنّ الفناء هو أن يتخلّص العبد من غائلة ما سوى الله. ومعنى ذلك: أنّ الفناء هو غياب الصفات البشرية في صفات الحق، كما أنّ الفناء في الرسول، هو غياب الصفات الإنسانية في صفات الرسول.»²¹⁵ لأنّ صفات الرسول أيضاً صفات إلهية عندهم.

إنّ هذه الكلمات في الحقيقة لا تحتاج إلى أيّ تعليق ولا توضيح ولا تفسير. ولقد زاد المتأخرون من تطوير هذه الزندقة حتى قسموها على ثلاث مراتب: الفناء في الشيخ، والفناء في الرسول، والفناء في الله. قال نعمة الله بن عمر حول هذه الهرطقة، وهو من معاصري خالد البغداديّ. قال في كتابه «الرسالة المدنية»²¹⁶ في باب الرابطة:

Dr. Selçuk Eraydın, Tasavvuf ve Tarikatlar Pg. 197 İstanbul-1994... 215

وهذا نصّ كلامه حرفياً: Resul'de fani olmak ise insanî sıfatların peygamber'in sıfatlarında kaybolması; Allah'ta fani olmak: beşerî sıfatların, Hakk'ın sıfatlarında kaybolması; kaybolması demektir.

لمزيد من المعرفة حول مفهوم الفناء في اعتقاد النقشبندية راجع المصادر التالية:

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ 43. مخطوطة دمشق - 1213 هـ. (الرسالة الثانية من مجموعة «الزمر العفاء») TDV. İSAM. 297. 7

* أحمد القاضي، رسالة في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 51. (الرسالة الثانية من مجموعة «الزمر العفاء») TDV. İSAM. 297. 7 44.466

* روح الفرقان، بقلم جماعة عددهم ستة أشخاص من النقشبنديين الأتراك ص/ 63/2. دار سراج إسطنبول. 1992م.

216 أصدر كتابه بهذه التسمية على سبيل الانتقاد لأبن عربي في تسميته كتاباً له بعنوان «الفوحات المكية». فبت بهذا مرة أخرى أن النقشبنديين على اختلاف في كثير من حديثهم، وعباراته، ومواقفهم؛ وأنهم في دوامة خطيرة من التعارض

والتناقض والتلفيق والتضارب. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

«وإذا تأملت مجرد ذكر القلب، لا يعدل عليه شيء. فهذه النعمة تحصل بالحبّة بين المريد وشيخه من الجانبين. لأنّ الفناء في الشيخ مقدّمة الفناء في الرسول؛ والفناء في الرسول مقدّمة الفناء في الله والبقاء بالله.»²¹⁷

هكذا تطوّرت الطريقة النقشبندية واستمرّت في مسيرتها بين تبديل وتحريف وزيادة ونقصان واقتباس وتكييف وتأويل وتقليد وتعطيل على يد شيوخ هذه الطائفة إلى أن ألبسوها كسوة من هذا التأويل الخطير للفناء والبقاء خلافاً لمن وضعهما من قدماء الصوفيّة. وبهذا الأسلوب الذي يدلّ على عدم استقرار الطريقة النقشبندية، كنمو تارةً مقصودهم الحقيقيّ من هذين المفهومين، وتارةً باحواً به كما جاء في المواهب السمرديّة لمحمد أمين الكرديّ الأربليّ نقلاً عن أحمد الفاروقيّ، وهذا نصُّ كلامه:

«وجدتُ الله عين الأشياء كما قال أرباب التوحيد الوجوديّ من متأخري الصوفيّة. ثم وجدتُ الله في الأشياء من غير حلول ولا سريان. ثم ترقيت في البقاء. وهو ثاني قدم في الولاية. فوجدتُ الأشياء ثانياً. فوجدتُ الله عينها، بل عين نفسي. ثم وجدته تعالى في الأشياء بل في نفسي؛ ثم مع الأشياء بل مع نفسي.»²¹⁸

كذلك جاء من نحو هذا في كتاب خطير دونه جماعة من النفسبنديين باللّغة التركيّة تحت عنوان «تفسير روح الفرقان»²¹⁹

* وحدة الوجود.

أمّا فكرة «وحدة الوجود» فإنّها مذهبٌ فلسفيّ قديم. قالت بها جماعة من قدماء فلاسفة اليونان. وهم؛ بارمينيديس، وزنون، وأفلاطون، وبلوتينوس، وطائفة الرواقيين. ثم اغترّ بهذه الفكرة واعتنقها بعض المتصوّفة؛ كحسين بن منصور الحلاج، ومحي الدين بن عربي، وسليمان بن علي بن عبد الله

217 نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ 43. (الزمر العقاء) TDV. İSAM. 297. 7 46644

218 محمد أمين الكرديّ الأربليّ، المواهب السمرديّة ص/ 182.

219 التفسير المذكور ص/ 63/2.

التلمساني، وابن الفارض، وفريد الدين العطار، وعبد الكريم الجيلي، ويونس أمراه التركماني ومن علي شاكلتهم.

تتمثل فكرة وحدة الوجود في القول: بأن كل شيء في الكون ليس إلا أجزاءً من الله، وأنه ليس ثمة فرق بين ما هو خالق وما هو مخلوق. يستدل أصحاب هذه العقيدة (وهم جل الصوفية) بقوله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} ²²⁰ يعنون بذلك أن كل شيء في السماوات والأرض من صغير وكبير، وإنسي وجني وملائكة ودواب ونبات وجمادٍ ورطبٍ ويابسٍ وطاهرٍ ونجسٍ، إنما هي جميعاً أجزاءً متفرقةً من الذات الإلهية؛ وأنواعٌ وألوانٌ وعكوسٌ من سحره وجلاله وجماله؛ وهو عينها وحقيقتها؛ وليس في الوجود إلا الله. بهذه العقيدة يتناولون قوله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} ²²¹ ويتأولونها ويقصدون بهذا في معتقدِهِمْ: أن الله هو هذه الأشياء والأعيان والكائنات بتمامها، وهياتها وأشكالها وأبعادها وأجسامها وأحجامها وهي كثرةٌ في وحدةٍ ووحدةٌ في كثرةٍ. ومن ذلك قول عمر بن الفارض:

وجهٌ تعدد في المرائي * وبه تحير كل رائي
فالكائنات بأمره * موج على صفحات ماء
فالأمر أمر واحد * فيه التقارب والتنائي.

ويقول محي الدين بن عربي « ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات الذم؛ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها، كلها حق له كما هي صفات المحدثات حق للحق». ²²²

كانت هذه خلاصةً لما سبق. وقد عني بالموضوع أهل البحث واختلفوا فيه بين رادٍ ومدافع. ففي مقدمة من رد عليهم، العلامة علي القاري. له رسالة قيمة بعنوان «الرد على القائلين بوحدة الوجود». ²²³ ومن تناول هذا الموضوع على سبيل الدفاع عنه، شخص اسمه عمر فريد كام. له «رسالة

220 سورة القرة/115

221 سورة الحديد/3.

222 محي الدين بن عربي، فصوص الحكم ص/ 80.

223 تحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، مكتبة مركز البحوث الإسلامية. إسطنبول. TDV. İSAM.297.7 ALİ-R.

وحدة الوجود» باللغة التركيّة²²⁴. وقد تطرّق إلى هذا البحث أبو الحسن الندويّ في المجلّد الثاني من كتابه المعروف «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»²²⁵

أمّا موقف النقشبنديين من هذه المسألة، فإنّ تعظيمهم وإجلالهم للوجوديين والحلوليين يدل على استحسانهم لفكرة وحدة الوجود والحلول والإتحاد. إذ لا يكاد أحد منهم يرضى بما ورد عن العلماء من الطعن في الحلاج، وابن عربي وغيرهما من الوجوديين والحلوليين. بل يتعاطون حديثهم في مجالسهم مع الاحترام والتوقير لشأنهم، ويطالعون كتبهم، ويعدّونهم من أهل الفيوضات الربانيّة والكرامة والبركة؛ ويقولون عن الحلاج إنّّه شهيد، ويصفون ابن عربي بـ«الشيخ الأكبر».

والأغلب أنّ ذلك ناشيء عن جهلهم بما تتضمنه عقيدة وحدة الوجود من زندقة وإلحاد في صفات الحق سبحانه بما يستحيل عليه، إلى سخافات يتجافى لسان المؤمن عن النطق بها. لأن شيوخ النقشبندية - في حقيقة الأمر - هم أبعد الناس عن ساحة العلم والمعرفة، وأكثرهم خملاً، وأشدهم تعصّباً، كما سنشرح أحوالهم، ونبيّن سلوكهم، ونقل معلومات شافية عن مستوياتهم وشخصياتهم في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

هذا، وإن لم يكن للنقشبنديين إلمام كبير بعقيدة وحدة الوجود مباشرة، ولكنهم يدخلون في عداد مَنْ يُقرُّ بهذه العقيدة على أقلّ تقدير؛ وذلك لأسباب ثلاثة:

أولها: أنّهم يُوقِّرون مَنْ ذهب هذا المذهب كما سبق الحديث عنه آنفاً.

وثانيها: أنّ كثيراً من عقائدهم منبثقة من الديانة البوذية التي تعتمد على عبادة المخلوقات. فالبوذيّ يعبد الشجر والحجر والقرد والبقر. وكذلك النقشبنديّ يؤلِّه الشيخ ويقدّسه في حياته وبعد مماته إلى درجة لا يراه محتاجاً إلى رحمة الله؛ بل يراه مستغنياً عنها ومُنزّهاً من أن يدعو له بالمغفرة، بأن يقول «رحمة الله» أو «رحمة الله عليه» إن كان قد مات. ولكن يقول «قَدَسَ اللهُ سِرَّهُ». إذ يعدّه جزءاً من الله.

224 تحقيق الأستاذ المساعد أدهم جبه جي أغلو، منشورات رئاسة الشؤون الدينية رقم: 91/324. أنقره-1994م. تناول المؤلف هذه العقيدة مقارناً بين تعريف الصوفيّة وتعريف الفلاسفة لعقيدة وحدة الوجود المعرّ عنها بكلمة Pantheisme.

يبد إليه تنقّي في النهاية رأي الصوفيّة فيها ووصفهم بأهل العرفان فأصبح هو الآخر مدافعاً من وراء عقيدة وحدة الوجود، ولكن بصيغة تزيهية لجنايه تعالى. (ص/ 115-121).

225 دار القلم، الطبعة الثانية، الكويت-1994م. ص/ 30، 31، 118، 170، 217، 239، 248، 251، 258.

يدلّ على اعتقادهم هذا، ما نقله إبراهيم الفصيح في مستهلّ كتابه «تحفة العشاق» إنّهُ «قال القاضي عياض في الباب الرابع من القسم الثاني في الشفاء نقلاً عن أبي بكر القشيري: أنّ الصلاة من الله لمن دون النبيّ رحمة؛ وقال الشارح الشهاب: أي طلب أن يرحمه الله. وأما النبيّ فمرحوم بأعلى أنواع الرحمة، فهو غير محتاج لأن يُدعى له بها.»

وقد جاءت عباراتٌ في موسوعةٍ للنقشبنديين ضمن ترجمة طه الهكاريّ تفيد أنّهم يترحمون على من لا يزال في قيود نفسه، ويقدّسون مَنْ كان قد حظي بالنجاة من قيودها على حسب زعمهم. كذلك كلّ شيء يتصل به فهو مقدّس عندهم؛ حتّى كلبه وقطّاه، بل وحتّى مخاطه وبوله وفضلاته! وكثيراً ما يعبر المرید عن محبّته وصداقته وتفانيه لشيخه بقوله «أنا من كِلابِ السّادات»²²⁶ هذا لفظ خالد البغداديّ بالذات. فما بالك بالمرید البدويّ البدائيّ!!

كذلك يعتقد النقشبنديون بالفناء والانصهار في الذات الإلهية. ومعنى ذلك أنّ المخلوق يحلّ فيه، أو هو يحلّ في المخلوق. إذا يجوز عندهم أن تكون الأشياء أجزاءً منه؛ أو أن يكون هو هذه الأجزاء المتفرقة في الكون. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وثالثها: سببٌ تاريخيٌّ وعصبيٌّ. وهي أنّ الحلاج كان فارسيّاً الأصل يكره العرب، ويرى أنّ دولة آباءه انقرضت على أيديهم. فكان شعوبياً يتعصّب لقومه الجوس، حتّى دفعته أغراضه النفسية وحقده على إشعال ثورة على الدولة العباسية، استعداداً للإطاحة بها، إلى أن كُشفت أسرارُه ومؤامراتُه التي كان يخبئها ويخفيها من وراء حياة صوفية متصنّعة، فقتل.

كذلك النقشبنديون (الأتراك على وجه الخصوص) يكرهون العرب، ويعتقدون أنّ جميع العرب وهابيون وعصاة خارجون على الدولة العثمانية «المقدّسة» في اعتقادهم. ذلك لتعصّبهم القومي الذي أدّى إلى نتائج خطيرة. منها أن الأغلبية من العنصر التركيّ اليوم قد أصيبت بمركّب النقص، لغلبة اللّغة العربيّة على لغتهم عبر حُقبةٍ تقرب من ألف سنة. وهم يبحثون في الآونة الأخيرة عن سبيل

226 محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز (ابن عابدين)، «سل الحسا الهنديّ في نصرة مولانا خالد النقشبنديّ»، مجموعة رسائل بن عابدين، الجزء الثاني، سل الحسا الهنديّ في نصرة مولانا خالد نقشبنديّ 2/310 (28) PDF

التخلّص من هذا التأثير. ويرى الكثير من المارقين من أبناء هذا الشعب «أنّ الخروج من هذا المأزق لا يمكن إلاّ أن يحلّ المجتمع التركيّ ربة الإسلام من عنقه تمامًا». وإذا كان اليوم تتحدّى جموع غفيرة من ملاحدة الأتراك بهذه الفكرة الخطيرة عن جدّ، واستعداد، فان للتعبّ القوميّ الذي أثاره النقشبنديون تأثيراً كبيراً في إبداء هذه الجرأة والغرسة. وهذا التعبّ هو القاسم المشترك بينهم وبين الحلّاج. وفي هذا دلائل كثيرة. فقد أفتى شيخ لهم أخيراً «بأنّ الصلاة باطلة عند الإقتداء بإمام وهابيّ، ولا يجوز الإقتداء بأئمة الحرمين؛ لأنّهم وهابيون!» فزجر مردييه عن ذلك وألزمهم بإعادة الصلاة إذا اضطرّ أحدهم أن يقتدي بإمام عربيّ في ديار الحجاز.

وقد أثر موقفهم السلبيّ هذا على معظم الشعب التركيّ، بحيث لا يكاد أحد منهم يشعر في نفسه بمحبّة العرب إلاّ قلّة، ولا يدور حديث العرب في مجلس من مجالس النقشبندية الأتراك إلاّ وضربوا مثلاً من قذارتهم وخيانتهم للدولة العثمانية. لأنهم يقدّسونها ويعدّونها صانعة أمجادهم على أنّهم ورثتها دون بقيّة العناصر من المسلمين. ولهذا يحمّلون قسطاً كبيراً من مسؤولية سقوطها على العرب الذين عملوا على استقلالهم وانفصلوا عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى؛ كما يقدّسون أضرحة سلاطينها، ويعدّون زيارة قبورهم من القُرَبات. إذ يعتبرونهم جميعاً من أولياء الله الصالحين. (أى من أولئك الأولياء الموصوفين في عقيدتهم الخاصة.)

كذلك يوقرون ابن عربيّ بسبب المصاهرة. لأنّه أقام في مدينة قونية. وهي من كبريات مدن تركيا منذ القديم. وتزوّج من والدة صدر الدين القنويّ التي كانت أرملة. والصدر القنويّ، من مشاهير متصوّفة الأتراك، الذين تفخر بهم النقشبندية. وهو ممن شرح فصوص الحكم، ونحى منحى مؤلفه.

تتأكد الإشارة هنا إلى أنّ الذين يتعصّبون للحلّاج وابن عربيّ وابن عطاء الله الإسكندريّ وأمثالهم، إنما يدافعون عنهم وعن أفكارهم لسببين رئيسيين.

أولهما: أن فريقاً من العرب المتبحرين في اللّغة العربية وآدابها الذين أصبحوا من فحولها، قد غبطوا طائفة من أدباء الصوفية وشعرائهم، وافتتنوا بسحر ما نسجته أقلامهم، وأحسّوا بتأثير بالغ في نفوسهم، فأنهمكوا في مطالعة تصانيف هؤلاء الصوفية حتى خطفت أبصارهم لمعة جمالها الأدبيّ البارع، وحات عقولهم في عمق معانيها النابعة من حكمة فلاسفة الأغرقيق، فاهتزت نفوسهم لهديرها ونبراتها،

وحنّت عواطفهم وفارت لأطراد أبوابها وحسن تراكيبها الموزونة المرصوفة في بناء عباراتها وهم قلة. كجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وعبد الوهاب الشعراي، وعبد الغني النابلسي.²²⁷

ذلك أن مشاهير صوفية العرب، وعلى رأسهم ابن عربي، قد انتقوا ألفاظاً من قاموس هذه اللغة كأهم استخرجوا الجواهر من بحورها. فكتبوا ببيانٍ زاخرٍ، وأسلوبٍ خلّابٍ فاخرٍ، نظموا يواقيت الكلام في جيد السطور، ونثروا من درر الكلمات على الصفحات؛ فجاء تعبيرهم ناطقاً عن أروع تصوّرات النفس البشرية وخيالاتها. فاستطاعوا بذلك أن يدسّوا السمّ في العسل، كما سوّلت لهم أنفسهم؛ فنفذوا إلى أعماق قلوبٍ مريضةٍ، وتسربوا إلى قرارة نفوسٍ ضعيفةٍ حتى شاع صيئتهم، وبلغت شهرتهم الآفاق، فظنّ جمهورٌ من الناس أنّ هؤلاء الصوفية هم أحبّاء الله وخاصّته، آتاهم الله الحكمة بهذه البلاغة التي تبهر العقول. فلم يكد أحدٌ قادراً بعد ذلك على إحباط ما أذاعوا من الباطل المنوّه في صورة الحقّ المشوّه، فغدا هذا الإعجاب والاعتقاد بهم أمراً متصلّباً في ضمير معشرٍ من أناسٍ عاطفيين في كلّ عصرٍ تسلسل عبّر الأجيال حتى اليوم.

وثاني هذين السبيين: أنّ فريقاً آخر من بسطاء المتعلّمين المتطبّعين بالتقليد المحض والمحرومين من الذوق والنظر والاعتبار، انخدعوا بما حاكّت أقلامُ الفريق الأوّل من عبارات الدفاع عن الزنادقة، وما تفوّهوا به من مدائح لهم، وما أطبوا في مناقبهم وماآثرهم المختلقة، وما بالغوا في الثناء عليهم والإعجاب بهم. فاستيقنت أنفسهم وصاروا لهم من التابعين. وغالب هؤلاء المقلّدين هم الشيوخ الجهلة للطائفة النقشبندية.

بالإضافة إلى هذا، فإنّ فكرة «وحدة الوجود» لها جاذبية شديدة في سحر العقول وتشويش العواطف وتخدير الأدمغة، فينساق من وراء أحلامها التائهون في دياجي الشبهات، ويلهث المتحمّسون نحو سرايها فيحسبون أنّ هذه الفكرة حكمة منبثقة من الوحي الإلهي انصبّت على قلوب هؤلاء الصوفية من ملكوت الله. فلا يتوقّعون منهم أن كانوا قد نطقوا بشيء فيه معصية الله، لما في قلوبهم من عظمة أولئك الزنادقة، حتى لو وجدوا في عباراتهم من ألفاظ الكفر والإلحاد، ترى المنبهرين بهم من

227 إنّ هؤلاء الثلاثة الذين غلبتهم العاطفة في مدح ابن عربي، فقد تحسّسوا في الدفاع عنه، فصنّف السيوطي كتاباً في ذلك تحت عنوان «درة الغي عن طعن ابن عربي»، ولكن يبدو أنّه قد رجح من رأيه في هذا الدفاع حسباً أنّه بعض المعاصرين من أهل البحث والتحقيق. أمّا الشعراي فقد أطب في مدحه لابن عربي بذكر ماآثره ما يقوم مقام الدفاع عن عقيدته ضمن كتابه الذي سماه «الكربت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر». وكذلك عبد الغني النابلسي، قد تصدّى بحماس بالغ للدفاع عنه في كتابه الذي سماه «الراد المتين على منتقى العارف بالله محي الدين» ومثله عدد آخر من أمثال هؤلاء الثلاثة الذين جرفتهم العاطفة إلى هذه الساحة، فقد جمع أصمّاتهم بعض المتصنّرين من الأتراك في عجلة له.

النقشبنديين يدافعون عنهم: أنّ هذه الألفاظ فيها حكّم ومعانٍ لا يدركها إلاّ أهلُهُ، أو صدرت منهم في حالةٍ من السكر لا يفهمها ولا يقدرها غيرهم!

ولكن بالرغم من هذا الدفاع الواله، فإنّ ألفاظهم مفهومةٌ ومقاصدهم واضحةٌ كلّ الوضوح كقول الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا * نحن روحان حللنا بدنا.
فإذا أبصرتني أبصرتُهُ * وإذا أبصرتُهُ أبصرتنا.²²⁸

ومنها ما قال ابن عربي؛ «فإنّ العارف من يرى الحقّ في كلّ شيء؛ بل يراه عين كلّ شيء.»²²⁹ وقد فرط في جنب الله بكلام صريح لا مجال للتأويل فيه. فقال «فهو الأوّل والآخِر والظاهر والباطن، فهو عين ما ظهر، وعين ما بطن في حال ظهوره، وما ثمّ من يراه غيره، وما ثمّ من يبطن عنه؛ فهو ظاهر لنفسه، باطن عنه. وهو المسمّى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات.»²³⁰

ولما عرض كتاب «فصوص الحكم» على سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني الصوفيّ وقيل له: «- كلّ ما في هذا الكتاب يخالف القرآن!»

أجاب بقوله: «- القرآن كلّهُ شرك، وإنما التوحيد في قولنا.»

هكذا دافع التلمسانيّ عن ابن عربي وعن فكرة وحدة الوجود في الوقت ذاته. ولمّا قيل له: «- فما الفرق بين أختي وزوجتي؟».

قال: «- لا فرق عندنا، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام، قلنا حرام عليكم.»²³¹

228 الحسين بن منصور الحلاج، طواسين ص/ 34. (نقلاً من كتاب اسمه «هذه هي الصوفية»، للشيخ عبد الرحمن الوكيل ص/ 53. دار الكتب العلمية، بيروت-1984م).

229 محي الدين بن عربي فصوص الحكم ص/ 192. (نقلاً من كتاب: «الفكر الصوفيّ في ضوء الكتاب والسنة» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص/ 75. مكتبة ابن تيمية الكويت، الطبعة الثانية)

230 المصدر السابق ص/ 76، 77. (نقلاً من كتاب: «الفكر الصوفيّ في ضوء الكتاب والسنة» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص/ 83. مكتبة ابن تيمية الكويت، الطبعة الثانية)

231 صالح المقلبي، العلم الشامخ ص/ 569. نقلاً من كتاب «التصوّف في ميزان البحث والتحقيق» للمؤلّف عبد القادر سدي ص/ 439.

كانت هذه عدد من الدلائل الواضحات على عقيدة وحدة الوجود. وهي قطرة من بحر. وما من شخصٍ رزقه الله العقل والبصيرة والمعرفة باللّغة العربيّة إذ يطلّع على هذه العبارات، فلا يشكّ في أنّ عقيدة وحدة الوجود ليست إلّا كما قال بعضهم:

«وما الكلب والخنزير إلّا إلهنا * وما الله إلّا راهب في كنيسة»²³²

لذا من زعم: «أنّ ما جاء في كتب الصوفيّة من أمثال هذه العبارات، إنّما هي كلمات صدرت منهم في حالة سكرٍ وغلبةٍ من العشق الإلهي، لا يقف على حقيقتها إلّا أهلها!» فقد شهد على نفسه أنّه كاتم لما يُضمّرهُ من الحرب على الله كما يفعله قدماء الروحانيين من النقشبندية عن قصدٍ، فيتبعهم بقية الشيوخ وآلاف من المريدين الجهلة تقليدًا بهم في هذا الاعتذار.

لهذا، فإنّ النقشبنديين أيضًا يدخلون في عداد الوجوديين بالتأكيد؛ لحسن ظنّهم بآبن عربيّ وأمثاله. يدلّ على ذلك تعظيمهم لهذه الطائفة وثناؤهم عليها في مواطن كثيرة من حديثهم، خاصّة من اشتهر منهم بالعلم والثقافة. وقليلٌ ما هم!

لم ينج أحد منهم من هذا التأثير، لرسوخ نزعة التقليد الأعمى فيهم، فلم تكن محبتهم أو كراهيتهم لشيءٍ إلّا تقليدًا بمن اعتقدوا فيه. لذلك تجدهم دائمًا يبالغون في إظهار أحاسيسهم سواء في محبتهم أو في بغضهم وكراهيتهم. كزاهد الكوثريّ. وهو من متعصبي هذه النحلة كما يبدو ذلك واضحًا من عباراته في كلّ ما قد دوّنه وصنّفه. فقد انعكس إعجابُهُ بنفسه واغترارُهُ بعلمه في مواطن كثيرة من كلماته اللادعة ولهجته القاسية وتحدياته وهجماتِهِ على أهل العلم واحتقاره لهم. لا يخلو كتاب من كتبه إلّا وفيه استخفافٌ بعالم، أو طعن في رجلٍ من أهل المعرفة والاجتهاد. وربما كان اتّخاذه الموقف المتنافر من أهل التوحيد في كلّ مناسبة، انتقامًا منهم، ليشفي بذلك غليله وليستريح من كبتة بسبب كتمانهِ لما كان يعتقد من فكرة وحدة الوجود. يبرهن على هذه الحقيقة ما قد سجّله أبو الفضل بن عبد الله القنويّ في مقدّمته لكتاب «الردّ على القائلين بوحدة الوجود» تأليف علي بن سلطان القاري. فقال:

232 محمد مجاهد الدين بن عبد الغني بن حسن بن إبراهيم البيطار. تكملة النجفات الأقدسية في شرح الصلوات العظيمة الإدرسية؛ نقلًا من كتاب «هذه هي الصوفيّة» للشيخ عبد الرحمن الوكيل ص/ 64؛ وكتاب «الفكر الصوفيّ في ضوء الكتاب

والسنّة»، للشيخ عبد الرحمن عبد الحائق ص/ 153؛ (على إنّه من كلام فريد الدين العطار)؛ وكتاب: معالم الهدى إلى فهم الإسلام، للدكتور مروان إبراهيم القيسي. ص/ 69.

«ويحسن بي قبل أن أُهَيَّ هذا التقديمَ أن أُشيرَ إلى شيءٍ يهَمُّ الباحثَ في ترجمةِ جهميِّ عصره وسوءِ علماءِ بلدهِ الكوثريِّ وقصته مع مصطفى صبري، وذلك أنه جرت بينهما من الخصومة العلمية ما يجدر أن يُكْتَبَ في كتاب مستقلٍّ، ولكني سأذكر من ذلك نبذاً لعله لم يشر إليها كاتب قبلي ما علمت:»

«فقد أخبرني الأستاذ أمين القدسيّ، وهو كاتب وباحث قنويّ يتقن العربية أن الكوثريّ يُطن اعتقادَ مذهب أهل وحدة الوجود، وبخاصّة يوم هاجر إلى مصر، فبلغ بي العجب يومئذ غايته؛ إذ المعروف عن الكوثريّ أنه حامل لواء التنزيه بزعمه، فكيف يقول بمذهب الوحدة وهو أشنع التجسيم، وأخبث التمثيل؟! وقال لي: إنه سمع ذلك من خاله علي القدسيّ، وهو من علماء التُّرك الذين هاجروا إلى دمشق، وإنه جرت مناظرة بين الكوثريّ وعليّ القدسيّ في وحدة الوجود، الكوثريّ يؤيدها والقدسيّ ينكرها، حتّى كان من آخر ما قاله القدسيّ للكوثريّ في المجلس: أنت تقول بقول أهل الوحدة، فأنا أستاذك لأذهب إلى بيت الخلاء لأقضي حاجتي، فغضب الكوثريّ وعرف مقصده، وقال أمين: إن من أدلة اعتناقه هذا المذهب كتابه (إرغام المرید) في التصوف، فطلبت الكتاب وقرأته، فرأيت من الطامة ما ينضم إلى سجله المحترق تجهماً فيه من تصديق بدع المتصوّفة وخرافاتهم وتقديس مشائخهم ما شئت.»

* وحدة الشهود

وأما فكرة «وحدة الشهود»، فهي أيضاً بدعة فلسفيّة مماثلة لهرطقة «وحدة الوجود». أول من قال بها من قدماء النقشبندية، هو أحمد الفاروقيّ السرهنديّ المعروف بين أتباعه بـ «الإمام الربانيّ». أثار هذه الفكرة فتدّرع بها للردّ على عقيدة «وحدة الوجود» على حسب ما ادّعى المفتتون به. يبدو أنّهم قد حاولوا بذلك أن يُبرِّزوا ساحتَهُ ممّا أصاب ابن عربي وأمثاله من الوجوديين من الطعن بالتكفير والإلحاد، حتّى لا يتعرّض هو الآخر لتشنيع أهل التوحيد. بينما الفاروقيّ أيضاً تحبّط في متاهاتٍ أخرى لا تقلّ خطراً عما وقع فيه الوجوديون قبله. إذ أنّ رسائله الشهيرة المتداولة بين المغتربين به، والمعروفة بعنوان «المكتوبات» شاهدة على ما قد بثّ ودسّ من أنواع البدع في عقائد المسلمين بهذه الرسائل، وهي أصلاً مستوحاة من ديانات مجوس الهند، كما سنشرحها في ترجمته إن شاء الله تعالى.

والغريب، أن بعض المغفلين قد انخدعوا بدعاية: أن «وحدة الشهود» صيغة دفاعية عن العقيدة الحنيفة ضد هرطقة «وحدة الوجود». بينما هي نفسها هرطقة أخرى وبدعة غالية ليست من الإسلام في شيء. إذ أن كلمة «وحدة الشهود» تعبير غامض، حتى لو كان المراد به «وحدة المشهود»؛ ولكن بأي صفة؟ فإن النقشبنديين لم يذكروا شيئاً بوضوح يُبين لنا أن وحدة الشهود يعني: وحدة جميع الأشياء المشهودة على صفة المخلوقية لله الخالق الواحد المنزه عن المشابهة بالمشهود.

فقد قال رجل من كبرائهم في صدد هذه العقيدة «أن الممكن في التوحيد الشهودي، مرآة لشهود ذات الحق سبحانه».²³³ ولكن إذا كان مراده من هذه الصيغة: أن وجود المخلوق يدل على وجود الخالق، فلماذا لم يعبر عن مقصوده هكذا بوضوح على طريقة علماء الإسلام، ولم يقتبس آية مناسبة للموضوع، مثلاً كقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ... إِنْ خُفِيَ}؛ ولكن صاغ عبارته بذلك الأسلوب الدسّاس الغامض على طريقة الروحانيين!!!

لأن عقيدة «وحدة الشهود» في حقيقة الأمر ليست إلا نسخة أخرى من عقيدة «وحدة الوجود». ولكنهم جاؤا بها في لباس جديد، وتكلفوا أخيراً هذه الصيغة الماكرة في الدعاية لها بعد أن فشلوا في محاولة دعوتهم لعقيدة «وحدة الوجود». وذلك ليلبسوا الحق بالباطل على البسطاء بحيلة أخرى في بداية الأمر، إلى حين تتحقق لهم الهيمنة على دماغ من ينخرط في سلكهم ويعتق عقيدتهم بعد مرحلة من الرياضة. وهذا دأبهم في الاصطياد الباطني

يشرح السرهندي هذه العقيدة التي ابتدعها بقوله: «إنما يتحقق التوحيد الشهودي بالفناء ونسيان ما سوى الله، فيستطيع السالك أن يتقدم من البداية إلى النهاية دون أن يظهر له شيء من العلوم والمعارف المتعلقة بالتوحيد الوجودي؛ بل يحتمل أن يُنكر هذه العلوم».²³⁴

233 غلام علي عبد الله الدهلوي، مكاتب شريفه (باللغة الفارسية) ص / 174. مكتبة الحقيقة إسطنبول-1992م. وهذا نص كلامه بالفارسية: «در توحيد شهودي، وجود ممكن آينه شهود حق سبحانه مي شود».

234 أحمد الفاروقي السرهندي، المكتوبات (الرسالة رقم/272). ص / 505. باكستان-1392هـ. النسخة الفارسية التي أعيدت طبعها في تركيا. مكتبة إيشاك. إسطنبول-1977م. راجع المصادر الآتية لمزيد من المعرفة حول عقيدة السرهندي

فيما اختلق باسم «التوحيد الشهودي»: Dr. Selçuk Eraydın, Tasavvuf ve Tarikatlar Pg. 295. İstanbul-1994 ; A. F. Serhindi, Mektubât :

(Translation: Abdulkadir Akçiçek) ; V/2. Letter No. 314.

إنّ هذه العبارة المنقولة من إحدى رسائل الفاروقيّ التي يرُدُّ بها على عقيدة «وحدة الوجود»، فيها كفاية عن حقيقة وحدة الشهود في الوقت ذاته، وكذلك عن معتقدات الفاروقيّ جملةً وتفصيلاً، وهو من أكابر النَّقْشَبَنْدِيَّيْنَ. إذ يبدو فيها واضحاً أنّه مُتَرِّ بعقيدة الفناء في الله، ثمّ بالسلوك. وهو فنٌّ ماكر وأسلوب خطير من أساليب المتصوّفة عامّة والنَّقْشَبَنْدِيَّيْنَ خاصّة لترويض المبتدئ على أفكارهم واتجاهاتهم..

إنّ مقولة «وحدة الشهود»، في الحقيقة تعبير دخيل مثل كلمة «وحدة الوجود». لا صلة لها بمفهوم الإسلام. إذ لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين لهم بإحسان؛ أنّهم نطقوا بمثل هذا التعبير. ثم إنّ الغرض الحقيقي من هذا التعبير لا يبدو بسهولة. وهو كلام غامض. يتشوّش فيه المتأمل. بينما الإسلام ومفاهيمه واضحة جليّة، تتبدّى حتى للأميّ فضلاً عن العالم؛ كما قال تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}؛²³⁵ وقال تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}؛²³⁶ وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}؛²³⁷ وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}؛²³⁸ وقال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}؛²³⁹ وقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ}؛²⁴⁰ وقال تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}؛²⁴¹ وقال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ}؛²⁴²

أما بسطاء النقشبندية فأنهم على نقيض من هذه الصراحة اللاتحة في كلّ آية من القرآن الكريم. يأتون بكلام غامض ربما لا يفهمونه بالذات. لأنهم لا يدرون ماذا يقصدون به؛ ولأنهم كثيراً ما يُطْلَقُونَ الكلمة من غير تعقل، إمّا لجهل مزدوج: وهو الجهل المركب الذي لا علم لصاحبه بجهل نفسه، أو إمّا بسبب التقليد الأعمى الذي قد يتعرّض له حتى الرجل العالم لثقته الشديدة بمن يقلده كموقفهم من

235 سورة آل عمران/118.

236 سورة الحديد/17.

237 سورة البقرة/242.

238 سورة البقرة/266.

239 سورة آل عمران/103.

240 سورة آل عمران/138.

241 سورة النحل/89.

242 سورة يونس/24.

243 سورة القمر/17، 22، 32، 40.

الوجوديين. نراهم يتدعون فكرة «وحدة الشهود» لكي لا يتورطوا فيما وقع فيه ابن عربي وأمثاله من الوجوديين؛ ثم نراهم على أشد هينة من الإجلال والتعظيم لهم.

في الحقيقة، إن جميع النقشبنديين هم بسطاء الصوفية وحثالهم. لذا، هم أقل الفرق الباطنية مرونة، وأشدهم تقليداً وتعصباً. يبهرون بأحسن كلمة ينطق بها متحزقاً من صناديدهم. فيتأولونها، ويشرحونها، ويحشدون في بطنها تفسيرات غريبة يتعجب الإنسان من محاولتهم.

هذه التبعية هي التي دفعتهم من وراء كاهن هندي، فظنوا أن بدعته التي زينها لهم باسم «وحدة الشهود» تعني تنزية الخالق عن صفات المخلوق. بينما هذه التبعية تتجاوز حدود حسن الظن إلى تقليد لا مبرر له. إذ أن الوجوديين والشهوديين لو أخلصوا لله في تنزيهه سبحانه عما يصفون، لتقبلوا بحدود ما قال تعالى عن نفسه، وما ذكر من صفاته؛ كقوله جلّت عظمتُهُ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ..}.²⁴⁴ وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}.²⁴⁵ وقوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}.²⁴⁶ وقوله تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَذَرُوكُمْ فِيهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ*} له مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.²⁴⁷

نعم لو أن النقشبنديين اقتنعوا بهذه الآيات البيّنات - وما أكثرها في كتاب الله - لكفتهم مؤنة القول بـ «وحدة الشهود» في محاولاتهم لتنزيه الخالق عن صفات المخلوق. ولكن غرضهم في حقيقة الأمر ليس تنزيه الله سبحانه عما لا يليق بشأنه تعالى. ولأنهم لو كانوا صادقين في ادّعائهم: أن أحمد الفاروقي إنما تصدّى بهذه المقولة، ليردّ على ابن عربي؛ لما ثبتوا على تعظيمهم للوجوديين بعد ذلك ومنهم ابن عربي، ولنبدوا ما أضلّهم به سادتهم وكبرائهم من عقائد البراهمة وتقاليد البيوعيين؛ ولدخلوا صفوف أهل التوحيد وأخلصوا لهم، وساندوهم في جهادهم ضدّ الفرق الضالّة والمتطرّفين والزنادقة والمشرّكين.

244 سورة القرة/255

245 سورة الأنعام/73

246 سورة النحل/17.

247 سورة الشورى/11، 12.

* الولاية والولي في معتقد النقشبنديين.

إن مفهوم الولاية والولي - بالوصف الصوفي - مسألة خطيرة جداً؛ أثارها الروحانيون منذ عصور. وقد نسجوا حولها ما نسجوا من أنواع الأساطير في بطون الكتب ما لا يتمكن الإنسان من إحصائها.

فقد تشبثوا بآية من كتاب الله العزيز بالتحديد، فتناولوها بالتأويل على سبيل الإثبات لما أرادوا من وراء هذا المفهوم. وهي قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.²⁴⁸ إن معنى هذه الآية الكريمة واضحة جلية في الحقيقة؛ لا يحتاج إلى أي شرح أو تفسير. فقد بين الله سبحانه صفات الولي في آيتين بعدها. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} * هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.²⁴⁹

لذا لم يجد علماء الإسلام ضرورة أي تفسير آخر بعد هاتين الآيتين غالباً، لكمال وضوحها وتبادرها إلى الذهن بسهولة. أما من أبي منهم إلا ليقول شيئاً، فقد اضطر أن يُعيد الآية نفسها، أو جزءاً منها؛ - كما فعل ابن كثير رحمه الله - ولكن ليس ذلك مساعدةً منه للقارئ على فهم معنى الآية؛ بل تأكيداً لشأنها، وردعاً لمن قد يهمس إليه الشيطان ليوقعه في العبث بها وتأويلها بما لا تتحمل. {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}.²⁵⁰

لذا قال ابن كثير - رحمه الله - وربما ليس بقصد التفسير، بل تفادياً لأي لبس قد يتورط فيه قاصر الفهم، وتنبهها على تأويلات المشعوذين من الصوفية قال:

248 سورة يونس/62.

249 سورة يونس/63، 64.

250 سورة آل عمران/7.

«يخبر تعالى أولياءه - وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون - كما فسّر رُهم؛ فكلُّ مَنْ كان تقياً، كان وليّاً؛
وأَنَّهُ لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما ورأَهم في الدنيا.»²⁵¹

نعم كان هذا معنى الآية في حقيقة الأمر. غير أنّ عامّة الصوفيّة وخاصةً النقشبنديين لم يتورّعوا عن
تحريف معنى هذه الآية الجليلة على الرغم من وضوحها. بل تصوّروا لِلْوَلِيِّ شخصيةً أسطوريةً كما
سنشرحها في باب الكرامة عندهم.

إنّ الأولياء في اعتقاد النقشبنديين ليسوا هم الذين وصفهم الله بأربعة نعوت فحسب، في تلك الآيات
الآنفة الذكر. بل هم رجالٌ عمالقةٌ لا تُدرِكُ عُقُولُ البَشَرِ أسرارَهُمْ وَجَلالَةَ شَأْنِهِمْ. الكائناتُ بأسرها
مُسَخَّرَةٌ لِمَشِيئَتِهِمْ. «فالملائكة تهبط إليهم بالطعام والشراب؛ والوحوش والكواكب تخافهم وتطأطيء
رؤوسها لهم، والأرض تُطوى لهم، فيطوفون في أرجائها بمثل لمح البصر.»²⁵²

هكذا، فإنّ التّصوُّرَ الصُّوفِيَّ لِلْوَلِيِّ أقرب إلى الخيال المحلّق، بل قد يتجاوزه. فلا حقيقة لهذا التصور
طبعاً. لأن الخيال لا حدود له. يسرح الإنسان فيه ويحلّم ما يخلو له، وقد يعتاد على ذلك، وعندها
يغدو رهين مَرَضِ نَفْسِيٍّ، فيصدّق كلّ ما يجول في خاطره من وساوس النفس ووحى الشياطين. ومتى
بلغ هذا المرض فيه مبلغه، صار لا يشكُّ في صحة شيء من تلك الأساطير التي نسجتّها الصوفيّة؛
بطلت عنده سنّة الله في نظره. فانه في هذه الحالة سواء زعم أنّه مؤمن بالله أو كافر أو مشرك، يعاني
ازدواجيةً غريبةً في عقيدته وسلوكه وآرائه وأعماله. وبالتالي لا يكاد يعبأ بالإنسان المتّصف بالإيمان
والتقوى. (وهما من صفات أولياء الله). لأنّ الإيمان والتقوى - بالمنظور القرآني - لا يكاد يمثّل شيئاً
في اعتباره. خاصّةً فإنّ الإيمان بالله يستوجب القيام بأمور ينافي إيمان الصوفيّ كالأمر بالمعروف، والنهي
عن المنكر، وإقامة حدود الله على أرضه، والجهاد في سبيله... أمّا الصوفيّ، فإنّ إيمانه يأمره بالسَّيرِ
وَالسُّلُوكِ البُوعِيّ-البرهميّ، وَالغُزْلَةَ وَالتَّقَشُّفِ، وَالغِيَابِ وَالتَّعْطِيلِ الَّذِي يسمونه الفناء والبقاء إلى غير
ذلك مما لا مساس له بالإسلام.

251 أبو الفداء إسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم 213/4. دار فخرمان إسطنبول-1984م.

252 سبيع عاطف الزين، الصوفيّة في نظر الإسلام ص/ 157. (إنما وصف المؤلف شخصية الولي على حسب عقيدة الصوفيّة، أراد أن يفضحهم بالكشف عن عقيدتهم حول هذا المفهوم.)

لهذا، فإنَّ شخصيَّةَ الْوَلِيِّ الَّذِي وصفه الله بالإيمان والتقوى، وأنه لا يخاف ولا يحزن؛ تختلف اختلافًا كبيرًا عن تلك الشخصيّة التي تتّصف بالولاية في عقيدة الصوفيّة عامّة والنقشبندیّة خاصّة. لأنه يستحيل في عقيدتهم المزدوجة أن يكون الله هو المُسَيَّر الوحيد للكائنات بأجمعها؛ وإن هم ينطقون بكلمة التوحيد. فإنَّ هذا النطق عادةً تقليديّةً في خاصّتهم وكبرائهم. وربما هي وسيلةٌ للتّقيّة. والبرهان قائمٌ على ازدواجية العقيدة عند النقشبنديين: «بأنهم لا يشكّون قيد غملةٍ في استقلال أوليائهم عن الله، ولا في استغنائهم عنه بتصرفاتهم في الكون، وهم أجزاءٌ منه». ويعتقدون «أنَّ كلاً منهم يُحيي ويميت ويَرْزُق ويُحْرِمُ وَيَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!». لذا لم ترض نفوسهم بأن تقتصر صفات الْوَلِيِّ على عدم الخوف والحزن وعلى كونه مؤمناً تقيّاً فحسب، بل تعدّوها بخلع صفات ذاتيّة إلهيّة على أوليائهم، ونسبة القدرة الحارقة إليهم. ومعنى ذلك أن الْوَلِيَّ عند النقشبندیّة «هو وكيلُ الله في أرضه، وخليفته القائمُ بالتصرف عنه»²⁵³ كما جاء في تفسير جماعةٍ منهم في إسطنبول. وإنما أرادوا بهذه المقولة: أن الْوَلِيَّ يتصرّف في مُلكِ الله كما يشاء. وقد أنشد بعضهم باللّغة التركيّة أبياتاً لا تترك مجالاً للشكّ فيما يقصدونه من وراء مفهوم الْوَلِيِّ. وإليك ما تيسر لنا تعريته من كلمات هذا الشاعر الصوفي نظماً:

إنَّ الْوَلِيَّ له التصرّف في الحياة وبعدها؛
إيّاك قول مُعَبِّدٍ الْمُغْتَرِّ: - إنه ميّت.
الروح سيف الله والبدن المُكْتَفَى غِمْدُهُ؛
فالصارم المسلول أنشط، والمُعَمَّدُ بيّت.²⁵⁴

نعم لا يشكّون قيد غملةٍ فيما جاء ضمن هذه الأبيات. ذلك أن الْوَلِيَّ في معتقدهم إذا مات خلصت روحه من كُدُورات الجسم الكثيف، وتحررت من قيودها، وغدت أكثر استعداداً وقدرةً على تنفيذ ما تريده. لذلك يضربون لها المثل بالسيف المسلول.

253 محمود أسطى عثمان أوغلو وعدد من بطانته، تفسير «روح الفرقان (باللغة التركيّة)» ص/ 74/2. مكتبة سراج، إسطنبول-1992م.

254 هذا هو النصّ الأصليّ باللّغة التركيّة للأبيات المذكورة المعربة:

İki cihanda tasarruf ehlidir çünkü veli
Deme kim bu mürdedir bunda nice derman ola
Rûh şemşîr-i Hudâdır ten gîlâf olmuş ona
Ta ki a'lâ kâr eder bir tiğ kim üryan ola

Ahmet Yasar Ocak, Menâkıbnâmeler Pg. 7 . Ankara-1992

ولهم عباراتٌ ملفّقةٌ في هذه المسألة. قد مزّجوا فيها بين الحقّ والباطل. يقول بعضهم «فمذهب أهل الحق: أنّه تبقى الكرامة بعد الموت كما أنّ النبوة لا تنقطع بعد الموت». ²⁵⁵

لقد نسيَ المنتعقُ بهذه الألفاظ أو جهلَ (وهو أقرب للجهل): إنّ لا وجهَ للتشبيه بين الكرامةِ والنُّبوةِ؛ ولا بين الكرامة والإيمان إطلاقاً. وإنّما للتشبيه وجهٌ بين الولاية والنُّبوةِ، وكذلك بين الكرامة والمعجزة. لأنّ النُّبوةَ صفةً ذاتيةً كالولاية؛ وليست صفةً فعليةً كالمعجزة (وهي من براهين النُّبوةِ). أمّا الكرامة (بمعنى الخوارق حسب اعتقاد الصوفيّة)، فإنّها صفة فعلية كالمعجزة، وليست صفةً ذاتيةً كالولاية (وهي سبب الكرامة، أي سبب حدوث الخوارق على يد الوليّ في معتقدتهم أيضاً). ولأنّ مفهوم الكرامة في مصطلحهم يشتمل على الخوارق التي تُمثّل الصفة الفعلية وليست الصفة الذاتية. فهي بالنسبة للوليّ عندهم كالمعجزة للنبيّ، وكالسحر بالنسبة للساحر. إذاً فكيف يجوز التشبيه بين الكرامة والنُّبوة؟!!

لا شكّ يظهر مستوى هذا الصوفيّ ونصبيّه من العلم بوضوح، من خلال تلك المقارنة الواهية. لهذا، فإنّ جماهير أهل العلم والمعرفة لو اجتمعوا ليقوموا بالحجّة على كلّ ما ادّعاه الصوفيّة، لعجزوا عن إحصائها، فضلاً عن دحضها وإحباطها. وهذا من أكبر الأسباب التي تفسح لهم المجال وتُنبتُ في نفوسهم الجرأة فترديهم في الغيّ والتمادي.

إنّ الصوفيّة عامّةً والنقشبنديين خاصّةً يُدافعون عن عقيدتهم في مسألة الوليّ والولاية بإصرار، ويلجئون إلى تأويل الآيات والأحاديث كي تستقيم لاستدلالهم وحجاجهم. فقد أظهر بعضهم عقيدته في الولاية بِجُرأةٍ حيث ادّعى أنّ الولاية أفضل من النبوة. ²⁵⁶ إنهم لا يختلفون أصلاً في هذه العقيدة. ولكنّ شيوخيهم يمتاطون في إظهار هذا المعتقد الخطير، خاصّةً إذا كان عندهم أحد من المسلمين!

255 حمد الله الداجوي، البصائر لمكري النوسل بالمقابر ص/ 15. فشاور/1965م. أعيد طبعه من قبل مكتبة الحقيقة في إسطنبول - 1989م.

256 لمزيد من المعرفة حول اعتقادهم في مسألة الوليّ والولاية، راجع المصادر الآتية:

ربما لجأ النقشبنديون الأتراك إلى هذا التصور الرهيب، ليتمكنوا بذلك من التحدي على أن منهم أولياء، يفوقون الأنبياء بدرجات؛ ليتخلصوا بذلك من تبعية العرب في الدين والثقافة. وليبرروا حجّتهم في تعظيم كبرائهم والدعاية لهم، ولتستطيع كل جماعة منهم العمل على تصعيد شيخها وتفخيمه إلى أن تعترف بقيّة الفرق الباطنية به، فيدخل اسمه في قائمة أولياء الصوفيّة. ولهذا ليس من الأمور الخفية (كما ورد بقلم بعضهم)، «أن كلّ مريدٍ لابدّ يعتقد الولاية في شيخه».²⁵⁷ رجماً بالغيب؛ وبالرغم من انتفاء الإطلاع على وجود صفة الوليّ في شخصٍ بعينه، متفقّ عليه عند قدمائهم.²⁵⁸ وهذا برهان آخر على تحبّطهم جميعاً في عمياء، وتقلّبهم في أمواج من التلفيق والتناقض والتضارب مع أنفسهم.

يتكلّفون كلّ هذه المحاولة مع ما فيها من المسؤولية العظيمة، ليدّعوا في النهاية أن شيخهم قطب الفرد، وغوث الزمان، وغياث الخلائق، تظهر على يده ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت من الخوارق، وأنه لو أراد أن يقلّب الجبال ذهباً لفعل، وأنه إن مَشَى على البحر لما أصاب نعلهُ شيء من البلل، وأنه لو دَعَا على قومٍ لجعل الله عاليهم سافلهم. وأنه يحضر الصلاة في الأوقات الخمس بالمسجد الحرام في الحين الذي هو في بلده، ولو كان بينه وبين الحرم بُعد المشرق والمغرب، وأنه يحضر جبهة القتال في طليعة جيوش الإسلام ينصرهم على عدوّهم، وكيت وكيت!

يرهن على هذه الحقيقة ما يُرَدِّدُهُ عوامُّ النقشبندية من الأكراد بلغتهم «شَيْخٍ مَهْ دِكَارَهُ صُولِ جَنَّتِي وَ جَهَنَّمِيَانِ زَهْفُ فَرَقُ بَكَه.»؛ ذلك يعني: أنه باستطاعة شيخنا أن يميّز بين نعال أهل الجنة وأهل النار. أي له علم بالغيب في هذا التمييز حتى ولو لم يعاين أصحاب النعال.

إنّ المفتنين بكلّ شيخ من شيوخ النقشبندية يحاولون بمثل هذا التعبير ليذكروا من صفاته التي لا يمتاز بها شيخ آخر، اعتزازاً به. وهكذا تجري المنافسة، وأحياناً يتطوّر الحديث بين الجماعات التابعة لشيخ هذه الطائفة بالأسلوب نفسه، فيؤدّي إلى مضاعفات من الخصومة والبغض والشحناء..

إن هذه المنافسة قد أورثت النقشبنديين معتقداتٍ غريبةً ومتنوعةً حول مفهومي الوليّ والولاية، وفي النظر إلى شخصية شيخ الطريقة. فإنهم مختلفون في فهم هذه المسائل، وكذلك مواقفهم وتعاملهم مع

257 مقتبسٌ ومعرّبٌ من الكتاب الصادر بعنوان: Dr. Selcuk Eraydin Tasavvuf ve Tarikaklar Pg. 93 Istanbul-199

258 المصدر السابق والصفحة المذكورة.

مشايخهم بهذا السبب يختلف اختلافاً بارزاً من جماعةٍ إلى أخرى؛ بعضهم يقدّسون مشايخهم ويعظّمونهم تعظيم العبد لربّه، وربما يعتقدون فيهم جزءاً من الإلهية؛ وبخاصّة الأكراد من هذه النحلة يحلفون برؤوس مشايخهم وبقبورهم وكذلك بأنسابهم. فيقولون:

«بِسْرِي شَيْخُ». أي أقسمُ بِهامةِ مولانا الشيخ. ويقولون «بِجَدِّي شَيْخُ». أي أقسم بنسب مولانا الشيخ؛ أو أقسم بآبائه. ويقولون «بِكُمْبَتَا شَيْخُ». أي أقسم بالقبة التي على ضريح مولانا الشيخ. ذلك من عاداتهم الشائعة أنّه إذا مات شيخ من مشايخهم أقاموا على قبره قُبَّةً - إلاّ من أوصى بخلافه، وقليل ما هم - ثمّ ركبوا على لحده صندوقاً من الخشب، فزيتوه بالأقمشة، وجعلوه مزاراً يشدّون إليه الرحال، ويتبرّكون به، ويحملون إليه مجانينهم ومرضاهم استشفاءً به، كبقية الطوائف من الصوفيّة. ولبعض جماعاتٍ منهم عاداتٌ أخرى؛ كالضرب على الدفوف، والتغني بمناقب الشيخ أمام الموكب أثناء تشييع جنازته من المصلّى إلى المقبرة. وهي بدعة اعتادها النقشبنديون من سكّان مدينة سِعرذ الواقعة بأقصى جنوب شرقي تركيا.

وكذلك من صيغ القسم عند الأكراد النقشبنديين قولهم «بِأَوْجَاخَا شَيْخُ»²⁵⁹ أي أقسم بموقده، (كناية عن أسرته). وربما يستمدُّ هذا القسم من عقائد أسلافهم الذين كانوا عليها في العهد الوثني. لأنّ الأكراد كانوا مجوساً، يعبدون النار ويقدّسون موقدها قبل الإسلام تبعاً للفرس؛ فتسرّبت عكوسها إلى ما بعد الإسلام، وأخذت طابعاً دسّاساً لا يفتن لحقيقته إلاّ قليل من أهل العلم والبحث.

كانت هذه نبذة من مميزات الوليّ وصفاته والخوارق المزعومة عن أولياء الصوفيّة وموقفهم من شيوخهم. وليت شعري من رأى منهم بعينه - ولو شخصاً واحداً -، لعلّ ظهر منه مرّةً واحدةً شيء من هذه المزاعم!
وعند ما نتساءل، فنقول:

259 إن كلمة (أوجاخ، أو أوجاق) معناها في اللغة التركية: موقد النار. وهو مصطلح هامّ، في معتقد الأتراك وعاداتهم وتقاليدهم. جاءت في ذلك شرح للباحثين وأهل الدراسة. منها ما ورد في موسوعة Meydan Larousse المجلد التاسع ص/

462-458. ورد فيها شرح طويل باللغة التركية حول هذا المصطلح. وهذا تعريب عبارات يسيرة منها: «الموقد يمثل مكاناً هاماً في معتقد العامة. وهو ملجأ منبع، لا تقرب منه الأرواح المنزّدة والأجنّة والقوى الخبيثة التي يُفرغ من سونها، على

حسب معتقد الناس. أمّا هذا المعتقد، فهو امتداد لعهد العبادة للنار». من هذه العبارات أيضاً: «يعتقد أهل الطرق الصوفيّة بجمعها، وبخاصّة الطريقة الكناشية والمولوية يعتقدون بأنّ الموقد رمز للميمنة والركبة. ويُعتبر جانب الموقد مقام الوليّ المعوت

(آتش باشي) أي رئيس النار. وأما تم مباشرة العمل في التكيّة كل يوم بالابتهاال إلى الموقد. ويُعتبر حجر الموقد أساساً للتكيّة والمكان الأقدس منها. ويُقفل هذا الحجر إذا كان خالياً من الغبار. أو يُقفل اليد عنها بعد مسحها إذا كان معيّراً». كما لا

يخفى على من له إلمام بالتاريخ، أنّ الجيش في العهد العثماني حتى زمن السلطان محمود الثاني كان يسمّى «بيني جري أوجاغي» أي «موقد جيش الإنكشارية» نسبةً إلى الطريقة الكناشية التي يُعتبر موقد النار عند أهلها مكاناً مقدّساً كما مر.

. هل الأولياء، هم الذين {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}. كما وصفهم الله تعالى في كتابه؛ أم هم الذين تُنسب إليهم إظهار الخوارق كأهم خُلُقُوا لذلك! كما وصفهم أتباعهم؟!

تختلف إجابة كلِّ فردٍ من هذه الطائفة عن إجابة الآخر عند مثل هذا السؤال، بحيث يدهش الإنسان من أمرهم ولا يستطيع أن يجد الاتفاق بين ما يقول اثنان منهم فضلاً عن الاتفاق بين هذه الفرق المتشابهة في الظاهر. وهذا ما جعل الإثبات والتحقق من معتقدات الصوفية أمراً مستحيلاً على الباحثين وأهل الدراسة والتنقيب. ولعلَّ اختلاف رجال البحث في تحليل قضايا الصوفية. ناشيء عن هذه الفوضى السائدة في عالم المتصوفة.

وبالخلاصة، يبدو وبكلِّ وضوح أنَّ الولاية في اعتقاد الصوفية ليست هي الصفة الذاتية التي يُكرم الله بها عبده المؤمن التقيِّ بما أنه لا يخاف ولا يحزن. بل الولاية عندهم هي صفةٌ يكتسبها الإنسان بعد مجاهداتٍ ورياضاتٍ شاقّةٍ بتعذيب النفس والجوع والسهر والصمت والعزلة إلى أن يتحقق له الفناء ثم البقاء، فيكون بذلك من أصحاب النفوس الفاضلة حتى إذا نُزِعَتْ روحُه من بدنه صار من «المدبرات أمراً» أي «ملحقة بالملائكة، أو تصلح هي لتكون مدبرة»²⁶⁰

«فقد ظهر من هذه العبارات أنَّ للأولياء بعد الوفاة مددٌ روحانيٌّ»²⁶¹ عند الصوفية.

لم تكن الطائفة بهذا القدر، بل أفرط بعضهم في جنب الله وفي جنب رسوله عليه السلام، حتى تقول على لسانه بأنه قال «إذا تحيرتم في الأمور، فاستعينوا بأهل القبور».²⁶² نقلوه على أنه حديث، كما وردَ بلفظه في الصفحة الثانية والثمانين من المجلد الثاني لتفسير «روح الفرقان»؛ بينما أنكر بعضهم الآخر على من أسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورماه بسخافة العقل. ومن جملة ما سقاه بعضهم بعضاً: محاولة حمد الله الداجوي وهو من متصوفة بلاد الهند. نقل الداجوي عن شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي مقطوعاً في هذا الصدد. قال فيه «وكذا في حملها على النفوس الفاضلة

260 حمد الله الداجوي، البصائر لمنكري التوسل بالمقابر ص/ 43. فشاوور-1965م. أعيد طبعه من قبل مكتبة الحقيقة في إسطنبول-1989م.

261 المصدر السابق ص/ 16. (قد أخطأ المؤلف في إعراب هذه الكلمات، فقد جاء اسم أن مرفوعاً بدل أن يكون منصوباً. والصحيح هو: أن للأولياء بعد الوفاة مدداً روحانياً)

262 المصدر السابق ص/ 15. (نقل أحمد الداجوي عن الألوسي كلاماً ينكر فيه على المستدل بالحدِيث المقتري، ثم قال الداجوي: هذا الكلام يشير إلى ضلالة الألوسي)

إيهاً صحّة ما يزعمه سخفة العقول من أنّ الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وإنقاذ الغريق والنصر على الأعداء وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد على معنى أنّه تعالى فوّض إليهم ذلك. ومنهم من خصّ ذلك بخمسة من الأولياء والكلُّ جهلٌ، وإن كان الثاني أشدَّ جهلاً.²⁶³

هكذا أقوالهم وحكاياتهم ونقولاتهم تتناقض وتتضارب وتتذبذب في اضطراب بين الإفراط والتفريط، في كثير من المواطن وإن ظهرت في صورة الحق في بعض الأحيان لقصور النظر فيها؛ كما في مسألة الوليّ والولاية.

* المكاشفة والإلهام وعلم الغيب في اعتقاد النقشبنديين.

إنّ من جملة الصفات التي يعتقدونها النقشبنديون في شيوخهم على سبيل تمييزهم من العامّة، علم الغيب. فقد أفردوا في كتبهم أبواباً بعنوان الكرامات؛ وذكروا ضمن مناقب شيوخهم ما لا يُحصى من قصص المكاشفات والإلهامات وعلم الغيب، نَحَارُ منها العقول. منها كتاب «الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية» لرجل من متأخري هذه الزمرة يُدعى عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني. لقد نقل في ثنايا كتابه أفضح ما يمكن أن يتصوّرهُ الإنسان من أساطير اختلقها النقشبنديون عبّر تاريخهم. يقول في صدد كرامات أحمد الفاروقي المعروف بين النقشبنديين بـ «الإمام الربّاني»:

«لقد خصّه الله تعالى بفضيلة نشر العلوم الدينية، والكشف عن أسرار العلوم اللدنية». ²⁶⁴

والعلوم اللدنية، هي التي يقصد بها الصوفيّة علم الغيب. لذا، ميّز الخاني بينها وبين العلوم الدينية. وهي العلوم الإسلامية النابعة من قلب القرآن العظيم، المستمدّة من الوحي الإلهي، والمعروفة بمقدّماتها وتفصيلها: من توحيد وفقه وتفسير وحديث وما يتعلّق بها.

263 المصدر السابق ص/ 44.

264 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 181.

إنَّ النقشبنديين يحتقرون هذه العلوم الشريفة كسائر الصوفيّة؛ ويُفضّلون عليها ما أسَمَوْهُ بـ"العلوم اللدنيّة". وهي في اعتقادهم إشراقٌ رُوحانيٌّ، وَعَرَفَانِيٌّ وَوُجْدَانِيٌّ يُفيض على قلب السّالِك من عند الله بالقاء ربّانيٍّ عن طريق الإلهام. ويتفلسفون في تحقير العلوم الدينيّة المعتمِدة - بجانبها الكسبيّ - على الحسّ، والعقل، والتجربة، والنظر، والقياس.. يزعمون أنّ مجرد المعرفة عن طريق هذه المسّميات لا تؤدّي إلى كُنْه أسرار الكون والحياة وإدراك الحقيقة الخفية من وراء الطبيعة. فيبلغ تحقيرهم للعلوم القرآنية إلى حدود السخرية بها؛ كما جاء في نفس المصدر المذكور آنفاً ضمن ترجمة محمد زاهد السمرقنديّ أحد شيوخ هذه الطائفة في قصة اتصاله بعبيد الله الأحرار الذي نصبه شيخاً على أن يكون خلفاً من بعده على أتباعه. يقول الحائِيُّ نقلاً عنه:

«فلما وصلنا إلى قرية شادمان، أقمنا فيها أياماً من شدّة الحرِّ. فبينما نحن كذلك إذ حضر إلينا سيّدنا الشيخ رحمته وقت العصر فذهبنا لزيارته. فسألني من أين أنت؟ فقلتُ من سمرقند. فطفق يحدثنا أجمل الحديث. وذكر خلال كلامه جميع ما أكننته في سرّي فرداً فرداً. حتى أخبرني عن سبب سفري إلى هراة²⁶⁵. فلما وجدتُ ذلك تعلق قلبي به كلّ تعلقٍ. ثمّ قال لي: إن كان مقصودك طلب العلم فهو متيسّر هنا. فتبيّنتُ أنّه ما من خاطرٍ إلّا وقد اطّلع عليه هذا ولم يخرج من قلبي محبة السفر إلى هراة. فلما كوشف بذلك قال لي أحد أتباعه إنّ مشغول بالكتابة، فتربّص قليلاً. فلما فرغ قام من مقامه وأقبل نحويّ ثمّ قال: - أخبرني بجليّة أمرك، هل مرادك من هراة تحصيل الطريق أو العلم؟ فدهشتُ من جلالته وسكتُ. فقال له ريفيقي: - بل الغالب عليه الطريق، وإنّما جعل العلم تسترّاً. فتبسّم وقال: - إن كان كذلك فهو أفضل وأحسن»²⁶⁶.

إنّ هذه العبارات، من أمعن النظر فيها، وجد أنّها تُغنيهِ عن مجلّداتٍ من أساطير هذه الطائفة وخُرافاتها وسخافاتهما واحتقار شيوخها للعقل، وسخرتهم من العلم والشريعة المطهّرة. ولا يعزب عن الباحث الحنك، أنّ غاية كبرائهم من مدحهم للشريعة المحمّديّة في بعض المواطن من كلامهم، ليست إلّا وسيلة دعائيّة يلجؤون إليها على سبيل الحيلة، تفادياً لما يتوقّعون من ردود داخل الطائفة وخارجها. خاصّة فإنّهم يحدّثون تبيّظاً وانتفاضة العلماء الذين تورّطوا بالانحراف في صفوفهم دون علم بحقيقة تعاليم هذه الطريقة وفلسفتها!

265 هراة: مدينة في أفغانستان.

266 المصدر السابق ص/175.

لقد بلغت مجازفات الخائبي في مسألة الإلهام وعلم الغيب والمكاشفة إلى حدود الازدراء بالعقل، فاسترسل في سرد «كرامات مشائخه» ليخلع بها أنماطاً من آيات الثناء والمدح على رجل اسمه محمد زاهد السمرقندي. وهو أحد رؤوس هذه الطائفة. ثم استخدم الخائبي قدرته الأدبية في تنميق عباراته وتنسيق كلماته فقال:

«فهو المفرد العلم في العلم والقلم الذي قام بأعباء الأسرار والإمداد، وتدبير دولة إرشاد العباد. فتبارك من شيد بالإلهامات الصادقة قدره، وسدد بالكرامات الخارقة أمره».²⁶⁷

هكذا في اعتقادهم أن جميع شيوخهم يطلعون على الغيب، ويعلمون ما في الصدور بالكشف والإلهام.

أما الإلهام، فهو في الحقيقة مفهوم غامض، احتاط العلماء في إبداء الرأي حوله؛ وامتنع الكثير منهم عن الخوض فيه. جاء تعريفه في المعاجم بخلاصة يمكن الجمع بينها تقريباً: أنه إلقاء من الله في نفس الإنسان أمراً يبعثه على فعل الشيء أو تركه. كأنه ألقى شيء في روعه فالتهمه. وكلمة «ألهمه الله» أي لقنه إياه؛ و«ألهمه شيئاً» أي أوعزه إليه وأوحاه.

قال مصطفى بن محمد الكستلي في حاشيته على شرح العقائد للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني تفسيراً لقول النسفي «والإلهام عند أهل الحق؛ قال إحترازاً عما نقل عن بعض المتصوفة وبعض الرافضة أنه من أسباب العلم مستدلين بقوله تعالى: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}»²⁶⁸ والجواب، أن المراد إعلامها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، أو بدلالة العقل.

فقد اتضح من هذه العبارات مرة أخرى أن علماء الإسلام في كل عصرٍ قد حذروا المسلمين عن الاغترار بتأويلات المتصوفة والرافضة.

* الأويسية

267 المصدر السابق ص/174.

268 سورة الشمس/8.

أما الأويسية: فإنها مصطلح غريب ومثير، اختلقها النقشبنديون ليتخذوه ضرباً آخر من دعوى علم الغيب لشيوخهم. يزعمون أن عدداً من قدمائهم تلقوا علومهم من روحانية من ماتوا قبلهم؛ ويصفونهم بـ «الأويسية» فيقولون لكلٍ منهم «شيخ أويسي» نسبةً إلى أوييس القريني. وهو «أويس بن عامر بن جزء بن مالك القريني، من بني قرن بن ردمان بن ناجية ابن مراد، أحد النساك العباد المقدمين من سادات التابعين. أصله من اليمن يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره. فوفد على عمر بن الخطاب؛ ثم سكن الكوفة وشهد وقعة صفين مع علي رضي الله عنه. ويرجح الكثيرون أنه قُتِلَ فيها»²⁶⁹. قيل إنه كان يتشوق لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم. فلم يستطع إليه سبيلاً. وعلى هذا، زعم النقشبنديون أنه تلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علومًا بظهر الغيب. فاتخذوا من هذه المرعمة ذريعةً ليختلقوا بها ما اشتتهه نفوسهم بوضع هذه الأسطورة المتمثلة في كلمة: «الأويسية».

يقول عبد المجيد بن محمد الخائي في هذا الصدد:

«اعلم أن الإمام بهاء الدين الشاه نقشبند، أخذ الذكر الخفي عن روحانية الشيخ عبد الخالق العجذواني (...) ولم يجتمع معه في عالم الأجسام. لأن بين الإمام بهاء الدين والإمام عبد الخالق العجذواني (...) خمس وسائط من رجال السلسلة العلية كما مرّ آنفاً. وكذلك الشيخ أبو الحسن الخرقاني المتقدم ذكره أخذ الطريقة المرضية عن روحانية الإمام أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (...)؛ وذلك في ظهوره له في عالم السير إلى الله تعالى. فإن الروحانيات تجتمع في ذلك كاجتماعهم في المنام، وبعد الممات. وهو عالم اللاهوت الخارج من عالم الأجسام والأرواح. الخلق كلهم - الأحياء والأموات - في ذلك العالم. منهم من يدبر الله له جسمًا في عالم الأجسام وهم الأحياء؛ ومنهم من لا يدبر الله له شيئًا من الأجسام، وهم الأموات. ومن لم يُنفخ فيه الروح مما لم يُسوّ جسمه. ولما كان هذا الأحذ من الروحانيات، نبهنا عليه. لأنّ أبا الحسن الخرقاني لم يجتمع بجسمانية أبي يزيد البسطامي (...) لأنّ بينه وبينه زمنًا بعيدًا. فإنّ أبا يزيد توفي سنة إحدى وستين ومائتين. وقيل أربع وستين ومائتين. وأبوالحسن ولد بعده بكثير. وأبو يزيد (...) أيضًا ليس خرقه الطريق ظاهرًا وباطنًا من روحانية الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه كما تقدّم في الشيخ أبي الحسن. وما اشتهر بين بعض أهل الطريق من خدمة الشيخ أبي يزيد (...) للإمام جعفر عليه السلام وصحبه له، غير صحيح. لأنّ وفاة الإمام

جعفر الصادق عليه السلام، قبل ولادة الشيخ أبي يزيد (...) وكلّ مَنْ أخذ من الروحانيات، يسمّى «أُوَيْسِيًّا»
في اصطلاح ساداتنا النقشبندية.²⁷⁰

من أنعم النظر في هذه العبارات، وفي ضوء الإيمان والعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، حار جرأة شيوخ هذه الزمرة على الله تعالى، كيف يتقوّلون على الدين بهذا القدر من التحرر من ضوابط الكتاب والسنة وهما بين أيدينا. ليت شعري إن كانوا صادقين مع أنفسهم في القول بهذه المعتقدات الغربية؛ وهل يتمتع أحدهم بالفطرة السليمة أو يملك عقله ووعيه في تلك اللحظة التي يتفوه بمثل هذه الكلمات؟ أليس من العجيب أنهم لا يدخرون وسعاً في إشعار الناس بتمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتفكرون لحظة عمّا إذا صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أوصى الأحياء بأن يتلقوا علومهم من الأموات؟ ومن ذا الذي يعلم شيئاً من أحوالهم سوى الله؟

قال الله تبارك وتعالى: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ}.²⁷¹ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.»²⁷² فإذا كان عمل الإنسان ينقطع بموته تماماً إلا من هذه الأشياء الثلاثة التي ليست من نتيجة فعله المباشر، وإنما هي بالواسطة؛ فكيف به أن يعلم غيرُه بعد موته كما في حياته!

ولكن النقشبنديين لم يتوقفوا عند هذه الحدود، بل لا حدود لتصوراتهم وخيالهم، كما سوف تتبلور أمام عيوننا أكثر وضوحاً عبر متابعتنا لدراسة بقية معتقداتهم حول مفهوم الكرامة والتوسل والتبرك بالقبور والاستمداد من الموتى.²⁷³

270 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 9؛ كذلك راجع الصفحة 128 من نفس المصدر.

271 سورة الفاطر/22.

272 مسلم - الوصية.

273 لمزيد من المعرفة حول هذا الاعتقاد راجع المصادر الآتية:

* خالد البغدادي، رسالة في تحقيق الزائطة (آخر رسالة من مجموع الكتيبات المطبوعة بعنوان: «علماء المسلمين والوهابيون») ص/ 3، 6، 11. مكتبة إيشك طبعات متكررة. إسطنبول.

* أحمد القاضي، رسالة في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 10. (الرسالة الثانية من مجموعة «الزمر العنقاء») TDV. İSAM. 297.7 NIM.Z 46644

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية. ص/ 14، 23.

* حمد الله الداوي، البصائر لمكري التوسل بأهل المقابر. (الكتاب بعموم مضمونه)

* مفهوم الكرامة في معتقد النقشبندية.

إن قسطاً كبيراً من نشاطات الطريقة النقشبندية يتمثل في اختلاق حكايات بهلوانية وأساطير عجيبة دونها بعنوان الكرامات ضمن مناقب أوليائهم. وهي مشحونة في بطون كُتِبَهم، لم يطلع عليها كثير من علماء المسلمين الذين لم يعاصروهم أو لم يجاوروهم. أما المتأخرون من أهل العلم، فإن كثيراً منهم أيضاً لا علم لهم بهذا الجانب من الطريقة النقشبندية. ذلك لأنهم لم يعبوا بهذه الطائفة ولم يخاطبوا شيوخها أنفةً واستنكافاً. فحلاً الجؤ بذلك لأصحاب الأقلام من هذه النحلة وسنحت لهم الفرصة حتى نسجوا ما طاب لهم من أفانين القصص الأسطورية، وحشدوا ما استطاعوا منها في طيات كتبهم على سبيل التنويه بعظمة أسلافهم ومكانتهم عند الله. وقد تأثر بهذه الكتب كثير من المتعلمين والملاهي وجمهير من العوام الذين وجدوا في حكايات الشيوخ ما تنبهر بها عقولهم البسيطة الساذجة. ولربما سرى ذلك التأثير إلى عدد من متأخري الفقهاء فأظهروا حسن ظنهم بهذه الطريقة مثل ابن حجر الهيثمي، وعليّ القاري، وابن عابدين وغيرهم، لما خفي عليهم من أمور يكتمها كبار زعماء النقشبندية ولا يُبدونها حتى لمن يليهم من شيوخ الطائفة الذين هم من الدرجة الثانية؛ خاصة التطورات والتغيرات التي حدثت في عقائدها وآدابها عبر المرحلة الأخيرة على يد خالد البغدادي وبطانتها، لم يعلمها السابقون. ثم اتخذ شيوخ النقشبندية أقوال بعض أولئك الفقهاء حجةً في الدفاع عن طريقتهم؛ ومنهم محمد بن عبد الله الحايي، فقد نقل عبارة من فتاوي ابن حجر الهيثمي في الصفحة الثامنة من كتابه البهجة السنية جاء فيها: «وذكر العلامة المتبحر الشيخ ابن حجر الهيثمي المكي رحمه الله تعالى في خاتمة الفتاوى الطريقة العلية النقشبندية مستطرذاً من بحث آخر معبراً عنها بقوله: الطريقة العلية السالمة من كدورات جهلة الصوفية، وهي الطريقة النقشبندية.²⁷⁴»

من كتبهم التي حشدوا بين طياتها أنواع الأساطير باسم الكرامات: «الحدائق الوردية في حقائق الأجلاء النقشبندية»، لعبد المجيد بن محمد بن محمد الحايي؛ وكتاب «المواهب السرمدية في مناقب السادات النقشبندية»، لمحمد أمين الكردي الأربلي؛ و«جامع كرامات الأولياء»، ليوسف بن إسماعيل النبهاي؛ و«الأنوار القدسية في مناقب النقشبندية» لمؤلفه ياسين بن إبراهيم السنهوتي وغيرها. فقد نسجوا على

²⁷⁴ قد اقتبس محمد بن عبد الله الحايي هذه العبارة من الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيثمي من الصفحة 240.

صفحات هذه الكتب ما يثير غيرة كلِّ مؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يُستبعد أن يتخذ نفس الموقف منها من يحترم العقل من غير المسلمين أيضاً.

أما الكرامة في حقيقتها، فهي كلّ منحةٍ يُكرمُ اللهُ بها عبده المؤمن التقيَّ ليكافئه بها على سعيه المقبول؛ أو ليجعلها وسيلة الهداية لبعض عباده وعبرةً لأولي الألباب. غير أنّ الكرامة، يستحيل أن تكون محلّة بسنة الله، كما لم تكن معجزات الأنبياء محلّة ومبطلّة لها. لأنّ نواميس الكون والحياة كلّها جارية على نسق واطراد وضعها الله سبحانه على شكل مترابط ومتكامل لا يتم نظامها ويقاؤها إلاّ بهذا الترابط والتكامل؛ بحيث إذا بطل قانون واحد من تلك القوانين اختلّ نظام العالمين وساد الفوضى على الكائنات بأسرها وقامت الساعة. كما أنّ المعجزة والكرامة من تقديره تعالى، وتبدير منه تتحقّقان، وبقدرته وهيمنته تتأثران على نفوس من كُتبت له الهداية إلى الصراط المستقيم؛ {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}.²⁷⁵

إنّ الكرامة مع ندرة وقوعها في صورة حدثٍ خارقٍ للعادة قد يستعرضها الوليُّ ليتحدّى بها المنكرين والملحدّين على أنّه صادقٌ في دعوته إلى شريعة النبيّ الذي يتبعه ما عسى أن يهتدوا للإيمان بالله واليوم الآخر وما جاء به النبيّ من عند الله. وهذا يرهن على أنّ الكرامة لا ينبغي إظهارها للمؤمنين؛ كما لا مساعٍ للاحتجاج بها في وجههم؛ لأنّهم مؤمنون بجميع ما يؤمن به صاحب الكرامة؛ ولأنّ القصد لتحصيل الحاصل لغو.

إنّ الكرامة في اعتقاد النقشبنديين ليست هي منحةُ الله التي يُكرمُ بها عبده المؤمن التقيَّ ليكافئه على سعيه المقبول، أو ليجعلها وسيلة الهداية لبعض عباده الضالين. بل هي عندهم أمّاطٌ من الخوارق وألوانٌ من قبيل السحر؛ يدعون أنّ شيوخ الطريقة يُظهِرونها، فيتميّزون بها عن سائر الناس على أنّهم من أولياء الله، ومن خاصّة عباده المصطفين. كما يعتقدون أنّ شيوخهم يتصرّفون بها في ملك الله، تؤيّدُهم على دعواهم تلك الأعمال الخارقة التي تصدر عنهم. كالمشي على الماء، والطيران في الهواء، وقطع المسافات الشاسعة في لمح البصر، وتحقيق النصر للجيوش وغيرها مما لا يمكن حصره.

ولكن هذه الأقاويل، لم تتعدّ حدودَ الزعم المحض، ولم يتحوّل شيء منها إلى واقعٍ مُشاهدٍ حتى الآن. وذلك حجّةٌ دامغةٌ على كلّ من تورّط فاستسلم لهذا الاعتقاد الباطل؛ سواء أكانت الحجّة تتسم بقيمةٍ في اعتبارهم أم لا. فليس وراء بيان الله ورسوله بيان، ولا قرية بعد عبادان.

لقد دعت المناسبة هنا أن ننقل من كُتُبِ النقشبنديين أمثلةً ممّا كتبه بعنوان الكرامات وأسندوها إلى شيوخهم؛ لنقلها ليتأكد القارئ من مدى خيالاتهم وتصوّراتهم، وموقفهم المستخفّ من العقل والحقائق العلمية، واستهزائهم بسنة الله التي خلق الحياة والممات والكون والفساد على أساسها.

يقول عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني - وهو أديب النقشبنديين وداهيتهم - إذ يترجم بمدائحه المسجعة لإمام طريقتهم محمد بهاء الدين المعروف بينهم بـ«شاه نقشبند». يقول «لم يدع نفساً إلا بأنفاسه القدسيّة زكّاه، ولا نارَ همّةٍ إلا بأسراره الحمديّة أذكّاه، ولا ظلّمةً جهلٍ إلا بأنواره البهائيّة أخفّاه، ولا شبهةً خاطرٍ إلا ببراهينه الجليّة نفّاه، إلى كراماتٍ كريماتٍ وآياتٍ عظيماّتٍ طالما أحيّت من القلوب مواثمها وآتت الأرواح أقواتها، ارتضع ثدي التصرفات الغوثية وهو في المهدي صبيّاً، وتضلع من رحيق مخنوم العلوم الختمية بأكواب الإرثية، فلو لم نُختم النبوة لكان نبياً»²⁷⁶

هكذا يقول الخاني في معرض ترجمته لمؤسس طريقتهم، وهكذا يعتقد في هذا الشخص الذي ربما ليس لوجوده أثر من الحقيقة؛ أو قد يكون درويشاً بسيطاً لم يلتفت إليه أحد في حياته أصلاً؛ ثم حظي من الشهرة مع الزمان وعبر قرونٍ بعد أن اتخذ بعض المتحدّلقين رمزاً لبث معتقداته بين السفلة والرعا، فنسجت حوله سجلاتٌ من الأساطير حتى عظمته آلاف من الناس بالتقليد الصّرف، لم يكن عبد المجيد الخاني آخرهم.

يوصل الخاني في سرد مناقبه فيقول:

«وَحَكَى سَيِّدُنَا علاءُ الدين: أَنَّ الشَّيْخَ تاجَ الدينِ أَحَدَ أَصْحَابِ الحَضْرَةِ البَهَائِيَّةِ، كَانَ إِذَا أَرْسَلَهُ الشَّيْخُ إِلَى حَاجَةٍ مِنْ قَصْرِ العِرْفَانِ²⁷⁷ إِلَى بُخَارَى، يَعودُ بِبُرْهَةٍ قَلِيلَةٍ. وَذَلِكَ إِنَّهُ كَانَ إِذَا غَابَ عَنِ أعْيُنِ المَرِيدِينَ يَطِيرُ فِي الهَوَاءِ. قَالَ وَأَرْسَلَنِي يَوْمًا فِي أَمْرٍ إِلَى بُخَارَى، فَذَهَبْتُ عَلَى هَذِهِ الكَيْفِيَّةِ فَوَجَدْتُ الشَّيْخَ فِي طَرِيقِي. فَرَأَيْتُ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ، فَسَلَبَهَا مِنِّي؛ فَلَمْ أَقدِرْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ أَفْعَلَهَا أَبَدًا»²⁷⁸

يستطرد الخاني في صدد كرامات هذا الشيخ قائلاً:

«ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ سَافَرَ إِلَى خَوَارِزْمَ، وَفِي خِدْمَتِهِ الشَّيْخَ شَادِي. فَلَمَّا بَلَغَا نَهْرَ حَرَامٍ، أَمَرَهُ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى المَاءِ؛ فَخَافَ الشَّيْخَ شَادِي. فَأَمَرَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَلَمْ يَفْعَلْ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً عَظِيمَةً، غَابَ بِهَا عَنِ نَفْسِهِ بُرْهَةً. فَلَمَّا أَفَاقَ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى وَجْهِ المَاءِ وَمَشَى وَالشَّيْخُ خَلْفَهُ. فَلَمَّا جَاوَزَاهُ، قَالَ أَنْظُرْ هَلْ ابْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ خَفِّكَ أَوْ لَا؟ فَنَظَرَ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ بَلَلًا أَصْلًا بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.»²⁷⁹

وينقل الخاني عن أحمد الفاروقي السرهندي المشهور بين النقشبنديين بـ«الإمام الربائي» إنه قال «أطلعني الله على أسماء من يدخلون في سلسلتنا من الرجال والنساء إلى يوم القيامة؛ وأن نسبتني هذه تبقى بواسطة أولادي إلى يوم القيامة حتى أن الإمام المهدي سيكون على هذه النسبة الشريفة.»²⁸⁰

وقال أيضًا «أطلعني الله على قبور الأنبياء المبعوثين إلى أرض الهند بحيث أرى أنوارًا ساطعة من قبورهم.»²⁸¹

ويُسجَلُ الخاني أن هذا الشيخ «نظر مرة إلى السماء وهي تُمَطَّرُ، فقال لها أقلعي إلى وقت كذا، فحبس المطر إلى ذلك الوقت.»²⁸²

277 قصر العرفان، اسم للقرية التي ولد فيها محمد مجاهد الدين البخاري على ما يزعمه النقشبنديون؛ وهي على مقربة من مدينة بخارى، لاتعدى المسافة بينهما عن خمس كيلومترات؛ وليس قصرًا بمعنى البناية الفخمة كما ظنه عبد الرحمن دمشقية.

فقد أخطأ فيما سجّله في الصفحة 34. ريل رقم/1 من دراسته «النقشبندية». دار طيبة، الرياض-1984م.

278 عبد الجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 139.

279 المصدر السابق/140.

280 المصدر السابق/182.

281 المصدر السابق/182.

282 المصدر السابق/182.

وينقل المؤلف أيضاً عن الابن الأكبر للسرهندي، محمد سعيد أنه قال: «كثيراً ما كان يخبرني الشيخ بالأمر، خيراً كان أو شراً قبل وقوعه، فيقع كما يقول، بلا تفاوت أصلاً.»²⁸³

إنّ هذا الشيخ الذي كان مطلعاً على السرائر، وعالمًا بمغيبات الأمور، والذي «كان يخبر ابنه بالأمر خيراً كان أو شراً قبل وقوعه فيقع» (على حدّ اعتقادهم)، كما ينقل الخائي؛ ليت شعري لماذا لم يهتم بمستقبل المسلمين، ولم يُخبرهم بما سوف يلاقونه على أيدي الظلمة من استعمارٍ واضطهادٍ وإرهابٍ وقمعٍ وإبادة؟! فهلاًّ أخبر أمة الإسلام بالحروب التي اندلعت بعده، حتّى يأخذوا حذرهم ولا يذهبوا ضحية ما دارت عليهم رحاها وأزهقت الملايين من الأرواح البريئة!

إنّهم بحكم طبيعتهم لن يسكتوا عن هذه الحاجة، ولربما تراهم يلجؤون إلى الكتاب والسنة في الحين الذي يضربونهما بعرض الحائط، وهم يردّون في محاولة المتّهم البريء: أنّ الغيب لله. ويتناسون بذلك جميع ما قاله إمامهم السرهندي وغيره من شيوخهم من دعوى علم الغيب!

* حقيقة مفهوم الغيب.

أما الغيب، فإنّه مفهوم هامّ ومعقّد، ومشكلة عظيمة أشغلت عقول البشر منذ القديم. لقد دار الجدال حول الغيبات بمختلف أساليبه بين العلماء والفلاسفة والكلاميين والمتصوّفة، فأعيت فيها مذاهبهم.

الغيب في اللّغة هو عكس الشهادة؛ وهو الأمر الخفيّ وليس العدم. فإنّ العدم مفهوم فلسفيّ آخر.

283 المصدر السابق/182. مزيد من الإطلاع على أقوالهم حول مفهوم الكرامة، راجع المصادر التالية:

* أبو القاسم عبد الكريم ابن هوزان بن عبد الملك بن طلحة القشيريّ النيسابوري، الرسالة القشيرية ص/ 173. الطبعة الثانية. القاهرة. 1959م.

* أحمد ضياء الدين الكنؤوشخاتوني، جامع الأصول ص/ 166. ط. 1276 هـ.

* داوود بن سليمان البغدادي، المنحة الوهية في رد الوهابية ص/ 32. الطبعة الثالثة، مكتبة الحقيقة إسطنبول-1994م.

* يوسف بن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء (الكتاب بتمامه).

* مصطفى أبو سيف الحدادي، غوث العباد ببيان الرشد ص/ 289-296. بشاور-1385 هـ. (مطبوع مع كتاب البصائر مؤلّفه حمد الله الداوي، ضمن مجلد واحد).

* خالد البغدادي، الرسالة الخالدية ص/ 75. (ترجمة: شريف أحمد بن علي؛ النسخة المتداولة بين أتباع محمود أسطى عثمان أوغلو إسطنبول).

ويختلف الغيب إلى قسمين رئيسيين باختلاف ماهيته. الأول منهما، الغيب الممتنع أو المطلق. وهو ما يستحيل إدراكه على العقل البشريّ تمامًا، وإن سُمّي، أو أُخبرَ عن قرائنه. كالروح، وأحوال ما بعد الموت، وأشراط الساعة وقيامها، وحياة الآخرة؛ بالإضافة إلى كلّ ما هو مستغرق في علم الله وحده على انفراد. وتسمّى هذه الأمور بـ «حقائق ما وراء الطبيعة = Metaphysic». تلك التي لا سبيل إلى الإيمان بها إلاّ عن طريق ما أنزل الله على رسله من الوحي. ولا يُدرِك الإنسان شيئًا من حقيقة هذه المسّميات الغيبية في هذه الحياة الدنيا إلاّ ما شاء الله أن يُظهرَ عليها طائفةً من عبادِه. وهو {عالمُ الغيبِ فلا يُظهرُ على غيبه أحدًا إلاّ من ارتضى من رسولٍ} ²⁸⁴ وهم المكلفون من الملائكة والبشر خاصة دون غيرهم من بقية الإنس والملائكة وعموم الجنّ.

أما النوع الثاني من الأمور الغيبية، فهو الذي يجوز إدراكه ببداهة العقل البشريّ، ولكن بوسائلها الخاصة التي لها ضوابطها. إلاّ ما تُكنّهُ الصدور {والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}؛ ²⁸⁵ وكذلك ما هو آتٍ؛ فإنّ علمه عند الله {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ²⁸⁶ {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ²⁸⁷ {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ..} ²⁸⁸ {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ²⁸⁹ ويمكن أن نسمي بقية الغيبات في هذا الكون المادّيّ بـ «الحقائق الطبيعية المجهولة» إذ هي خاضعة لنواميس الكون وما يتبعها من قوانين المنطق والعلوم التجريبية، دون أية علاقة للكهانة بها. وإتّما يتمكّن الإنسان من إدراك شيء على حقيقته إذا ملك الوسيلة التي تُقَرِّبُ ذلك الشيء إلى ذهنه؛ فيتحوّل من مجهول إلى معلوم. ولكن ليست كلّ هذه الوسائل ميسورة، مع أنّها ممكنة. بل كثير منها صعب المنال، وبعضها داخل في المجهولات أيضًا. فيتعقد الأمر هنا، وتشتدّ الأزمة على بعض الناس عندما تتعرّض أموالهم للسرقة وأمثالها وهم يجهلون الفاعل، فيلجؤون إلى السحرة والمشعوذين وشيوخ الطرائق الصوفية للكشف عن ضالّتهم. فيكلّفهم ذلك مالاً ووقتاً، ويُرهِقُهم. وأحيانًا يضيق الأمر ذرعًا برجال الأمن في إثبات الجرائم والجنايات، فلا تكاد تُسْعِفُهم تلك الأجهزة الفنية التي يستخدمونها للكشف عن أسرار المجرمين؛

284 سورة الجن/26.

285 سورة العنكبوت/4؛ سورة الملك/13.

286 سورة النمل/71؛ سورة سبأ/29؛ سورة ياسين/48؛ سورة الملك/25.

287 سورة السجدة/28.

288 سورة الكهف/23، 24.

289 سورة لقمان/34.

فيندفع بعضهم بضغوطٍ غرائزه الوحشية إلى استعمال العنف والتعذيب لانتشال الاعترافات من المتهمين بطرقٍ قسريةٍ.

كلّ ذلك ناشيء عن جهلهم بأساليب الوصول إلى المجهول الذي يطاردونه. وقد يكون بسبب عجزهم عن العلم بشيءٍ ممكن في حد ذاته، مستعصٍ عليهم. وكلّما دام العجز عن اكتشاف الوسائل، امتنع العلم بالمجهول. وهذه القضايا مرتبطة أصلاً بقانون السببية؛ وهو في تسلسل دائم ومعقّد. لأنّ كلّ شيءٍ في هذا الكون قائمٌ بشيءٍ آخر، محتاجٌ إليه. فالاحتاج إليه هو السبب؛ - وقد يسمّى علّةً في اصطلاح الكلاميين - وأما المحتاج فهو المعلول.

وعلى هذا النسق والنظام تجري الأحداث وتتفاعل الأشياء بين تناقضٍ، وتناسبٍ، وتوالدٍ، وتكاثرٍ، وتناقضٍ؛ إلى غير ذلك من التقلّب والتغيّر والتجدّد والتقاؤم والتطوّر. وهي آيات في آياتٍ دالّة على قدرة الخالق الباري العظيم، وعجائب تجلياته، وحسن إبداعه {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} ²⁹⁰

ولكنّ النقشبنديين نراهم غير مقتنعين، لا بسنّة الله التي أقامها سبحانه على أساس العليّة، ولا بالنصوص القرآنية التي تُنبئنا بقانون السببية ²⁹¹ في الحين الذي توكّد على أن الغيب لله وحده. فإنّ الأساطير - التي حشدوها في طيات كتبهم على سبيل الكرامة لشييوخهم ونسبة علم الغيب إليهم -، شاهدة على موقفهم المتناقض مع ما جاء في كتاب الله من انفراده تعالى وحده بعلم الغيب كقوله سبحانه {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} ²⁹² وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ؛ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} ²⁹³ وقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ..} ²⁹⁴ وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ

290 سورة النمل/88.

291 راجع الآيات الآتية:

* سورة يوسف/68

* سورة الكهف/65، 84، 85، 89، 92.

* سورة الأنبياء/8.

* سورة العلق/5.

292 سورة آل عمران/179.

293 سورة الأنعام/50.

294 سورة الأنعام/59.

لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ،
 إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ²⁹⁵ وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ
 لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ²⁹⁶ وقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ
 إِلَّا اللَّهُ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ²⁹⁷

لابدّ وأنّ عددًا من أهل العلم والبحث يتساءلون في أنفسهم عن الحكمة المكنونة في الغيب؛ أي ما هو القصد الحقيقي من وجود عقبة الغيب أمام الإنسان تمنعه من العلم بواقع كثير من الأشياء والأحداث لا يكاد يتجاوزها، وهو في تساؤلٍ وقلقٍ وجهلٍ وحيرةٍ على كثر العصور إلى هذا اليوم الذي يتمتع فيه باستخدام آلاتٍ وأجهزةٍ رهيبة السرعة في الاتصال والمواصلات؛ ولا يكاد يتمكن من أن يزعرع هذه العقبة من مكانها بعد.

لقد فات هؤلاء أن يلاحظوا برهنةً قليلةً: لو كشف لهم ما سيلاقونه في مستقبلهم من جميع الأحداث، حلّوها ومرّوها على هيئة شريط سينمائي. فما عسى كان أمرهم وهم يشاهدون فيها أنفسهم تنقلب من نعيمٍ إلى عذابٍ وبالعكس! وما رأيك فيما لو كان قد رُفِعَ الحجابُ عنك وأنت مراقب، فشاهدت يومئذٍ مسبقاً جميع ما سوف يمرّ بك في حياتك من الوقائع حتى آخر لحظةٍ أنت فيها؟!!

هل تريد أن تختبر نفسك كما لو اطلعت إلى مُستقبلك بتمامه، فعلمت بالتأكيد مثلاً أنّك بعد عشرين سنةً سوف تحتلّ منصبَ رئيس الدولة ثم لم تلبث تتعرض لمؤامرة اغتيالٍ فتذهب ضحيتها بعد أن تقضي أعواماً في المعتقل، وأياماً تحت التعذيب؛ هل تتمكن بعد العلم بهذا المستقبل الغريب الذي ينتظرك، أن تملك شعورك فتستمرّ في مسيرة حياتك بصورةٍ عاديةٍ؟ فما بالك بالناس لو علم كلهم جميعاً بما سوف يلقونه من نعيمٍ وعذاب، ومكاسبٍ وخسارات، وسعادةٍ وشقاءٍ! ألا يقتضي ذلك أن يعيش كلّ فرد من بني البشر بعد العلم بمستقبله في ارتباكٍ وخوفٍ وذعرٍ وفضعٍ؟.. وهل يشهد بعد ذلك عالم البشر إلا الفوضى والجنون والحراب والدمار؟!!

295 سورة الأعراف/188.

296 سورة يونس/20.

297 سورة النمل/65.

إنّ هذه الفرضيات تقودنا إلى فهم شيء من الحكمة المكنونة من حقيقة الغيب. وذلك برهان عظيم على أنّ الغيب لله وحده دون غيره؛ كما هي حجة دامغة على كلّ من اعتقد علم الغيب في أولياء الصوفيّة.

* مفهوم التوسّل في معتقد النقشبنديين وما ركبوا عليه من أمور.

التوسّل لغةً: هو أن يتمسك الإنسان بشيءٍ يتغي به الوصول إلى غايته؛ فيكون ذلك الشيء هو الذي يسمّى الوسيلة.

وفي اصطلاح علماء التوحيد والتفسير: هي القربة إلى الله. وهو الإيمان الصادق والعمل الصالح. هذا هو المراد من لفظ الوسيلة، كما أثبتنا ذلك بأدلة واضحة في بابه.²⁹⁸ من خلال تفسيرات منقولة لعدد من مشاهير العلماء.

يمكن إضافة أضعاف هذه النماذج التي تُبرهن على اتّفاق العلماء على تفسير مفهوم الوسيلة والتوسّل في الآيتين المذكورتين كما تُبرهن على حصر معنى الوسيلة في القربة والزلفى، وأنّ التوسّل منحصر في التقرب إلى الله بالإيمان الصادق والعمل الصالح فحسب.

غير أنّ النقشبنديين لا يقتنعون بهذه البراهين؛ لاستخفافهم بعلماء الإسلام وعلومهم. وتشهد على ذلك هفواتهم في احتقار العلماء؛ كقول محمّد بن سليمان البغدادي:

«وهؤلاء العلماء الذين تركوا مخالطة بعضهم موجب للفتح على القلب في طريق الله تعالى، هم المتفكّهة الذين قدّمنا ذكرهم قبل ذكر الفقهاء. وهم موجودون في كلّ زمان من عصر الإمام الشافعيّ، بل من قبله إلى يوم القيامة. خذهم الله تعالى وأذهم، إنّ لم يكن لهم نصيب في الهداية والتوبة.»²⁹⁹

298 راجع الغوامش من رقم/ 104 إلى 115.

299 محمّد بن سليمان البغدادي، الحديقة النديّة في الطريقة النقشبندية والبهجة الخالديّة ص/ 96، 97. (أعيد طبعه من قبل مكتبة الحقيقة. إسطنبول-1992.

هكذا يصبُّ جام غضبه على «المتفكِّهة». يقصد بهم الذين لا يوافقونهم، ويستثنى طائفةً أخرى يسميها «الفقهاء» وهم المتواطئون معهم على تأويلاتهم الشاذة، وتحريفهم للمفاهيم القرآنية. لعلَّ سببَ هذه العداوة، هو أنَّ النقشبنديين يجدون في تمسك العلماء بالفقه الإسلاميِّ وبنصوص الكتاب والسنة، عقبةً كبيرةً أمام محاولاتهم في العبث بقيم الدين الحنيف ومفاهيمه. إذ لا يتناولون آيات الله ليتبعوا ما تشابه منها، إلا اصطدموا بهذه العقبة كما مرَّ في تفسير العلماء لكلمة «الوسيلة».

يبدو أنَّهم سوف يصرون في عنادهم كسائر أتباع الفرق الباطنية، على الرغم من أنَّهم سيلاقون معارضةً شديدةً من علماء الإسلام أبدًا ما داموا يتشبثون بكلِّ ما قد وضعها أسلافهم من أشكالٍ غريبةٍ للتعبُّد. مثل «الرباطة»، و«الختمة الحُواجِجانية»، وممارسة «الأركان الأحد عشر» وغيرها من أوراد مزخرفة، وأدعيةٍ منفوخةٍ مستحدثةٍ، وأذكارٍ مبتدعةٍ؛ يدندنون بها على غرار «المانترا mantra» في الديانات الهندية. بل وقد يتشبثون بوسائلٍ أخرى على هذا الأسلوب العناديِّ الذي أبعد الكثير من الناس عن ساحة الإسلام، كما شرعوا لأنفسهم التوسلَ بالأموات وقبورهم، والتبرُّك بها، فزعموا أنَّهم لم يقصدوا بكلِّ ما ذكروا إلا وجهَ الله. مع أنَّ طلبَ وجهِ الله لا يجوز إلا باتِّباع ما قد رسمه الله ورَسُولُهُ من أشكال السعى والعمل، دون غيرها من صورِ التعبُّد والتنسُّك والرهبانية التي ابتدعتها اليهود والنصارى والمجوس.

هذا وجدير بالإشارة إلى أنَّ عموم الضلالة - خاصة في المسائل الاعتقادية - ينشأ من التأويل أكثر من التعطيل. وهما من أسباب التحريف. وأثر الجهل فيهما أكثر بأضعاف من أثر القصد والتعمُّد. وأنَّ الجاهل تابعٌ للمتعمِّد وبطانتِه وعملائِه بالتقليد الأعمى عادةً. وما أكثر أبناء الجهل في كلِّ أرض! بذلك يستفحل الأمر. لأنَّ الدجاجلة يصطادونهم بكلِّ سهولةٍ. فيتفاقم الشرُّ بسبب انسحاب جماهير البسطاء من ورائهم؛ فيزدادون بهم قوَّةً وجُراةً.

ومن العواقب الوخيمة لجهل الإنسان، وتبعيته بالتقليد الأعمى فيما يتعلَّق بموقفه من الله: أنَّه يشعر بضعفٍ بالغٍ أمام مخلوقٍ عظَّمهُ الناسُ حتَّى جعلوا منه إلهًا؛ فيراه ملاذًا يلجا إليه ليُنْفَسَ به عن نفسه التَّعيسَةَ كرنها، وليجيرها باللُّجوءِ إليه من عدوِّها؛ وليفرَّ إلى هَذَا الصَّنَمِ كلِّما استوحش، ويطلب منه الفرج كلما ضاق به الأمر ذرعًا، ويشكو إليه كلِّما اشتدَّ حُزْنُهُ وآلامُهُ، وليتسلى به إذا داهمتهُ الهوموم.

وإنما فشت بين الناس فتنة هذا الاعتقاد الفاسد بسبب ذلك الضعف الناشيء من الجهل بحقيقة ما أنزل الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من آيات عديدة في المشركين كقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} ³⁰⁰ وقوله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} ³⁰¹ وقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا بَجَّاتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} ³⁰² وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ؛ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ؛ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} ³⁰³ وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَائِكُمْ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} ³⁰⁴

يدافع النقشبنديون عن أنفسهم بشدة عند ما تتلى هذه الآيات على مسامعهم، فيثورون غضبًا واستنكارًا بأنها نزلت في المشركين. نعم، ولكن ألا يعلمون أنه لا يدعوا أحدًا من دون الله إلا مشرك؟! أفلا يكونون قد شهدوا على أنفسهم بهذا الذنب العظيم؛ إذ يصدقون من تعمد الكذب على لسان النبي صلى الله عليه وسلم. فزعم أنه قال «إذا تحيرتم في الأمور، فاستعينوا بأهل القبور.»

وردت هذه الكلمات في كتاب ألفه محمد زاهد كوتكو، شيخ جماعة من النقشبنديين في إسطنبول. ³⁰⁵ فما دامت هذه الطائفة تعتقد أن شيخ الطريقة وكيل عن الله، كما ورد ذلك في تفسير «روح الفرقان» لجماعة أخرى منهم؛ ³⁰⁶ ما دام هذا اعتقادهم في شيوخهم، وأن جميع شيوخهم أولياء الله وخاصته - رجماً بالغيب - إذن فلا مانع عندهم من أن يطلب المرید قضاء حاجته، ومغفرة ذنوبه من شيخه فضلاً عن أن يتوسل به إلى الله في كل سؤاله.

300 سورة الأعمام/40، 41.

301 سورة الأعراف/191، 192.

302 سورة الإسراء/67.

303 سورة الحج/73.

304 سورة الفاطر/14.

M. Zahid Kotku, Tasavvufi Ahlak 2/277, Seha Pub. Ist-1982. 305

306 روح الفرقان، بقلم جماعة عددهم ستة أشخاص من النقشبنديين الأتراك ص/ 74/2. دار سراج إسطنبول. 1992م.

أما موقف بعضهم في الدفاع عن النقشبندية في هذا المعتقد كما نقل يوسف بن إسماعيل النبهائي³⁰⁷ عن شيخ آخر على شاكلته «إنه يجوز التوسل بأهل الخير والصلاح»³⁰⁸ فإنما هو محاولة يمهّد بها السبيل ليقول في النهاية «ولا يظنّ عامّي من العوامّ فضلاً عن الخواصّ، أنّ نحو سيدي أحمد البدوي يُحدّث شيئاً في الكون، وإنما يرون أنّ رتبهم تقصر عن السؤال من الله تعالى فيتوسلون بمن ذكر تبرّكاً بهم كما لا يخفى.»³⁰⁹

هكذا يقولون. لأنّ كلاً من أحمد البدوي وأمثاله من الشيوخ مستجاب الدعوة عندهم؛ لا يشكّ في ذلك أحد منهم؛ ولأنّ كلّ من اشتهر بينهم بالولاية - مهما كانت طريقة هذا الاشتهار - حتى ولو بوساطة المافيا، أو باستغلال رجال السياسة والتجارة - لا بدّ وأنّ الله يستجيب دعوته في اعتقادهم.

أما إذا قيل لهم: - أنّ الفلان الذي تعدّونه من أولياء الله، وتعظّمونه، وتتوسلون بجاهه، فما دليلكم على صحّة اعتقادكم هذا فيه، وكيف تعلمون أنّ الله لا يردّ دعوته؟ فيكون ردّه عنيفاً وبلهجة من ركب رأسه؛ كقول الخليلي:

«ولا يُنكر ذلك إلا من ابتلى بالحرمان، أو سوء العقيدة نعوذ بالله!»³¹⁰

هذا هو المنطق الصوفيّ والمنهج النقشبنديّ عند كلّ موقفٍ. ومن هذا المنطلق فقد خاض أديبهم يوسف بن إسماعيل النبهائي مثار الدفاع عن التوسل الفاسد والاستغاثة والتبرّك بالمخلوق حيّاً وميتاً، وذلك بكتابه: شواهد الحق، وجامع كرامات الأولياء. فحشد فيهما ما زينت له نفسه من الغثّ والسمين حتى اشتهر بالشعوذة والتنطع وإثارة الخرافات.

307 راجع ترجمته في الأعلام، خير الدين زركلي 218/8. دار العلم للملايين طبعة 11 - بيروت - 1995م.

308 يوسف بن إسماعيل النبهائي، شواهد الحق ص/ 142. (الرسالة الثانية من مجموع الكليات المطبوعة بعنوان: «علماء المسلمين والوقائيون») مكتبة إشك طابعات متكررة. إسطنبول.

309 المصدر السابق/142

310 المصدر السابق/142.

الفصل الرابع

* حقيقة ما تُسمّيه النقشبندية «سلسلة حُواجِگان»، وأسماء الذين هم بمنزلة حلقاتها المقدّسة في اعتقاد هذه الطائفة.
* مزعمة «سلسلة السادات».
* الروحانيون في هذه الطريقة المعروفون بـ «رجال السلسلة».
* شخصياتهم، ومستوياتهم العلميّة والاجتماعيّة، وترجمة أحوالهم بالتفصيل.

-
1. أبو بكر الصديق رضي الله عنه.....
 2. سلمان الفارسي رضي الله عنه.....
 3. قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.....
 4. جعفر الصادق بن محمد الباقر رضي الله عنهما.....
 5. أبو يزيد البسطامي.....
 6. أبو الحسن الخرقاني.....
 7. أبو علي الفارمدي.....
 8. أبو يعقوب يوسف الهمداني.....
 9. عبد الخالق العُجْدُوَانِي.....
 10. عارف الزبُوْكَرِي.....
 11. محمود الإنجيرْفَغْنَوِي.....
 12. علي الرّامِثِي.....
 13. محمّد بابا السّمّاسِي.....
 14. أمير كُلالُ بن حمزة.....
 15. محمّد بهاء الدين البُخاريّ المعروف بـ «شاه نقشبند».....
 16. محمّد علاء الدين العطار.....

17. يعقوب الجرخي.....
18. ناصر الدين عبيد الله الأحرار.....
19. محمد زاهد البدخشي.....
20. درويش محمد السمرقندي.....
21. محمد الخواجي الأمكنكي.....
22. محمد باقي بالله الكابلي.....
23. أحمد الفاروقي السرهندي المعروف بـ «الإمام الرباني».....
24. محمد معصوم الفاروقي.....
25. محمد سيف الدين الفاروقي.....
26. نور محمد البدواني.....
27. شمس الدين حبيب الله ميرزا مظهر جان جانان.....
28. غلام علي عبد الله الدهلوي.....
29. خالد البغدادى المعروف بين النقشبندية بـ «ذي الجناحين».....
- * خالد البغدادى ومعارضوه.....
- * خلفاء البغدادى وأسلوب تعامله معهم.....
- * مميزات الشخصية لشيوخ الطريقة النقشبندية ومستوياتهم العلمية والثقافية.....



الفصل الرابع

* حقيقة ما تسميه النقشبندية «سلسلة خُواجگان» وأسماء رجالها
 * مزعمة «سلسلة السادات»؛
 * الروحانيون في هذه الطريقة؛ أسماءهم، وشخصياتهم، ومستوياتهم
 العلمية والاجتماعية.

* حقيقة ما تسميه النقشبندية «سلسلة خُواجگان»، أو «السلسلة
 الذهبية»

يزعم النقشبنديون أنّ جميع معتقداتهم وأساليب تعبدتهم مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه والسلف الصالح عليهم الرضوان. كما يدّعي ذلك محمد أمين الكردي الأربلي - أحد رؤوس هذه الطائفة - فيقول «إنّ طريقة السادة النقشبندية هو معتقد أهل السنّة والجماعة. وهي طريقة الصحابة عليهم السلام على أصلها، لم يزدوا فيها، ولم ينقصوا منها».³¹¹

هكذا يقولون ليتذرّعوا بهذا الإدّعاء أنّ شيوخهم إنّما تلقّوا هذه الأصناف الدخيلة من المعتقدات والأشكال الغريبة من الطقوس والعبادات؛ إنّما تلقّوها بعضاً عن بعض، وطبقة عن طبقة، متسلسلاً بالتصاعد إلى النبي عليه السلام (على زعمهم). يدّعون أنّ النبي عليه السلام هو الذي لقّن الطريقة

311 تجد نفس العبارة في المصادر التالية:

* خالد البغدادي، رسالة في تحقيق الزائطة، ص/13 (راجع: عباس الغزوي، مولانا خالد النقشبندي، مجلة المجمع العلمي الكردي، ص/708)

* محمد أمين الكردي الأربلي، المواهب السرمندية ص/3.

* محمد بن عبد الله الحانج، اللهجة السنّة في آداب الطريقة النقشبندية ص/3.

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الحانج، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/3.

أبا بكرٍ ﷺ لأول مرة! ثم تسلسلت منه بالتدريج حتى وصلت إلى شيخهم الذي يلازمونه في الوقت الحاضر، كما سنعرض من مقولاتهم في ذلك اقتبسناها من مصادرهم.

إنّ هذه الدعوى التي لا حقيقة لها في ميزان العلم ولا في ميزان الإسلام، يعتقدونها كل مؤلّع بتعاليم هذه الطريقة اعتقاداً أكيداً. وكثير منهم يحفظون أسماء كبرائهم بالتسلسل المذكور في مصادر هذه الطائفة، ويسمونها بـ «سلسلة السادات»؛ وكذلك بـ «السلسلة الذهبية».

* مزعمة «سلسلة السادات»

يقول عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، «سمعتُ أسماء سادات سلسلة الطريقة الجليلة؛ جعلتُ أتشوقُ للوقوف على تراجم أحوالهم المقدّسة مدّةً غيرَ قليلةٍ. وإذ لم أرها مجتمعاً باللّغة العربيّة في كتاب واحد. لأنّ أكثرهم من بلاد الفرس والهند وتلك المعاهد. عزمتُ وأنا للعزم بألفٍ، سنة ثلاث وثلاثمائة وألفٍ. على أن أجمع أحوالَ مَنْ ترجموه؛ وأخدمَ بالترجمة مَنْ لم يخدموه، بادئاً بالمبدأ الفياض، وخاتماً بسيدي الوالد.»³¹²

إنّ من يُلقبُ نظرةً على هذه العبارات المُزخرفة، لا يخفى عليه ما قد اعترف صاحبها، وما أقرّ وشهد على نفسه بالذات وبلسانه وقلمه، حتى قال: إنّه سمع «أسماء ساداته ولم يرها مجتمعاً باللّغة العربيّة في كتابٍ واحد، لأنّ أكثرهم من بلاد الفرس والهند». علماً بأنّ هذا الرجل من أكبر شيوخ النقشبندية في أيامه التي عاشها ما بين 1847-1900م. من الميلاد. وهذا مع أنّه من أسرة نقشبندية شهيرة في بلاد الشام.

ألا يبرهنُ هذا الاعترافُ الرهيبُ من رجلٍ بارزٍ بين أساطين هذه النحلة، على «أنّ هذه الأسماء ما زالت غريبةً عليه - وعلى النقشبنديين بأسرهم فضلاً عن جمهور المسلمين-؛ وغيرَ مجتمعٍ باللّغة العربيّة في كتابٍ واحدٍ؟! إذا فكيف بهذه العُصبة من الصوفيّة المجهولين الحاملين أن يكونوا قد لبسوا الخرقه، وأخذوا العهد خلفاً عن سلف؛ وما عسى دليل النقشبنديين بعد هذا الاعتراف الصريح أن

312 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الخدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 2.

يكون هؤلاء قد نقلوا تلك المعتقدات الدخيلة، والمبادئ والآداب المختلقة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم عبر هذه السلسلة المزعومة؟! ثم كيف هؤلاء الدراويش المساكين أن يكونوا بمنزلة أولئك العلماء من سائر الطبقات؛ من المحدثين والفقهاء والمفسرين واللغويين والأطباء والرياضيين والأدباء والحكماء الذين شاع صيتهم، وبلغت الآفاق شهرتهم، بما كتبوا وصنفوا وألفوا ودرسوا وارشدوا حتى امتلأت مكتبات العالم بآثارهم القيمة، وانتشرت معارفهم في أرجاء المعمورة، كما تبرهن على هذه الحقيقة ما نشهده اليوم من تطورات هائلة في حضارة العصر الحاضر التي هي من امتداد علومهم وتأثير جهودهم؛ وعكوس لامعة من أشعة ذكائهم ودهائهم. فأين أولئك الذين يتشوف الحايي للوقوف على تراجم أحوالهم المقدسة! أين بهم من هؤلاء الفحول، ومن الأئمة المجتهدين أعظم الأمة؟ وما عساها قد عملت تلك الشردمة العاطلة من صوفية الفرس والهند لأجل أمة الإسلام ومستقبلها ياترى؟!

سوف نطلع إن شاء الله على قائمة أسماء هؤلاء الشيوخ الذين تُعظمهم النقشبندية، وتعدُّهم من الذين اصطفاهم الله على العالمين حتى «استطاع بعضهم أن يتصل بأرواح البعض الآخر في عالم اللاهوت، ويتلقى منه العلوم والأوامر» (على حد قولهم)؛ فينصب نفسه شيخاً على النقشبندية. سوف نطلع على أسمائهم وصفاتهم وشخصياتهم وصراعاتهم مع منافسيهم، ونصيبهم من العلم والهداية؛ كما سوف نطلع على تصرفات كل منهم في هذه الطريقة، وذلك في الأبواب الآتية إن شاء الله تعالى.

يقول محمد أمين الكردي الأربلي، «ينبغي للمريدين أن يعرفوا نسبة شيخهم ورجال السلسلة كلها من مرشدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم. لأنهم إذا أرادوا أن يطلبوا المدد من روحانيتهم، وكان انتسابهم إليهم صحيحاً حصل لهم المدد من روحانيتهم. فمن لم تتصل سلسلته إلى الحضرة النبوية، فإنه مقطوع الفيض، ولم يكن وارثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم».³¹³

كان هذا هو نموذجاً آخر للمنطق الصوفي النقشبندي الغريب الذي لا يحتاج إلى أي تعليق، والذي تبدو من خلاله نظرهم إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وقسطاسهم في تحديد الوراثة له.

أما أسماء رجال هذه السلسلة المزعومة، فقد ذكرها عبد المجيد بن محمد الخائي على سبيل الإجمال فقال:

«وهي السلسلة المتصلة من أبي الأرواح الأكبر، الرؤوف الرحيم الأبر، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى حضرة الصديق الأعظم؛ إلى سيدنا سلمان الفارسي؛ إلى سيدنا القاسم حفيد أبي بكر الصديق؛ إلى سيدنا جعفر الصادق؛ إلى سيدنا أبي يزيد البسطامي؛ إلى سيدنا أبي الحسن الخرقاني؛ إلى سيدنا أبي علي الفارمدي؛ إلى سيدنا يوسف الهمداني؛ إلى سيدنا عبد الخالق العجذواني؛ إلى سيدنا عارف الربوگري؛ إلى سيدنا محمود الإنجیرفغنوي؛ إلى سيدنا علي الرامثني؛ إلى سيدنا المير كلال؛ إلى سيدنا محمد بابا سماسي؛³¹⁴ إلى سيدنا محمد بهاء الدين . الشاه النقشبندي؛ إلى سيدنا علاء الدين العطار؛ إلى سيدنا يعقوب الجرجي؛ إلى سيدنا عبيد الله الأحرار؛ إلى سيدنا محمد الزاهد؛ إلى سيدنا الدرويش محمد؛ إلى سيدنا الخواجكي محمد الأمكنگي؛ إلى سيدنا محمد الباقي بالله؛ إلى سيدنا أحمد الفاروقي السرهندي؛ إلى سيدنا محمد المعصوم؛ إلى سيدنا سيف الدين؛ إلى سيدنا نور محمد البدواني؛ إلى سيدنا حبيب الله مظهر؛ إلى سيدنا عبد الله الدهلوي؛ إلى سيدنا خالد العثماني؛ إلى سيدنا الجد محمد الخائي؛ إلى سيدنا الوالد محمد الخائي».³¹⁵

أما زعم النقشبنديين بأن طريقتهم هكذا تسلسلت إليهم من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر شيوخهم في كل عصر، فإنه كلام باطل لا يُعتد به، ولا يستحق النظر فيه. فقد وردت على لسان بعض شيوخهم بالذات كلمات شبه اعتراف بهذه المزعومة. ألا وهو الشيخ قسيم الكفروي، الذي احتل مكاناً مرموقاً بين جموع كبيرة من النقشبنديين، ونال شهرة واسعة، وقضى حياته في دراساتٍ وبحوثٍ علميةٍ بجانب ما حظي من المكانة بين رجالات السياسة والثقافة طوال خمسين عاماً في تركيا.

³¹⁴ إن هذا الترتيب فيه خطأ بسيط. وهو أن نجد البابا السماسي، يجب ذكره قبل المر كلال. ويغلب أن هذا الخطأ جاء في الطباعة وليس من المؤلف.

³¹⁵ هذه السلسلة واردة في عدد من كتب الفرقة الخالدية من النقشبنديين. نقلناها مما عثرنا عليها من تلك الكتب؛ وهذه أسماءها، مع أرقام الصحف التي وردت فيها «السلسلة»:

* خالد البغدادي، ديوان شعره: الأبيات: 703-707؛ 1153-1205.

* محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة النبوية ص/ 7-9.

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبنديين ص/ 6.

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبنديين ص/ 3-6.

* محمد أمين الكردي الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ 500-502.

* زاهد الكوثري، إرغام المرید (بتمامه). هذه الرسالة، منضمة إلى كتاب البهجة السنية لخدم بن عبد الله الخائي في مجلد واحد؛ تم استساخهما وطبعهما بين دفتين من قبل مكتبة الحقيقة. إسطنبول-1992م.

يقول الكُفْرُويّ في رسالته التي حصل بها على شهادة الدكتوراه عام 1949م. بجامعة إسطنبول، يقول، « إنَّ أقدمَ الأسانيدِ للسَّلْسِلةِ بين الصوفيّة، هو إسنادُ جعفر الخُلديّ.»³¹⁶ ذلك يعني أنّ سلسلتهم منقطعة الأسانيد قبله. هذا، إذا كان الغرض من إسناد الخُلديّ هو السلسلة النقشبندية خاصّة بغضّ النظر عن سلاسل بقيّة الطرق الصوفيّة. وقد يكون الغرض عامًّا. فيتفق إذاً جميعهم على هذه المرزعة.

وعلى الرغم من هذا الاعتراف، فإنّه لا يستقيم مع الواقع التاريخيّ. إذ أنّ الطريقة النقشبندية لم تكن قد تكوّنت بعدُ في أيّام جعفر الخُلديّ. وذلك أيضًا بإقرارٍ صريحٍ من قسيم الكُفْرُويّ نفسه إذ يقول:

«بما أنّ تاريخ التأسيس للطريقة النقشبندية قد تمّ إثباته بالاعتماد على المصادر الموجودة، أنّها قد تكوّنت في عهد الغزنويّين؛³¹⁷ فقد ثبت أنّ الطريقة إنّما اكتسبت طابعها الحقيقيّ منذ حكم هذه السلالة. ولذا أصبحت التطوّرات التي مرّت بها الطريقة منذ البداية حتّى عهد يوسف الهمدانيّ هي الموضوع الأساسيّ للدراسة.»³¹⁸

هكذا انقشع الظلام عن أسرارهم بإقرارهم واعترافهم على لسان شخصيةٍ من أعلم رجالاتهم المشهورين في العصر الحاضر، وكفّى الله المؤمنين القتال.

* الروحانيون.

316 هذا نصّ مقاله باللّغة التركيّة على حسب ما نقله من محمّد بن إسحاق بن محمّد بن إسحاق النديم، الفهرست ص/ 183.

Sufler arasında görülen en eski isnad (silsile) Cafer el-Huldi (Öl.348)'nin isnadıdır.

Kasım Kufralı, Nakşibendiliğin Kuruluşu ve Yayılışı. Postscript. İstanbul-1949 Türkiyat Enstitüsü No. 337.

317 الدولة الغزنوية أسسها محمود بن سبوك تكين (970-1030م). كان جريئًا ناجحًا في سياسته. بايع الخليفة العبّاسيّ القادر بالله، فأقرّه على ملكه. انتصر على ملوك الهند (986م)؛ ثم على ملك الدولة السامانية؛ فوسّع نطاق بلاده. اهتمّ بحماية السنيّة التقليديّة في مواجهة نشاطات الشيعة؛ فأناحت الفرصة بذلك لتطوّر الحركات الصوفيّة التي هي الجانب الروحيّ للسنيّة التقليديّة. وطغت اللّغة الفارسيّة في عهده على اللّغة التركيّة حتى تدهورت هذه الثانية، على الرغم من أنّ محمودًا

الغزنويّ كان تركيّ الأصل. راجع ترجمته في المصادر الآتي ذكرها:

* موسوعة ميدان لاروس التركيّة (مادة محمود غزنلي) 242/8.

* محمود شاكر، التاريخ الإسلامي 190/6؛ ترجمة فريد الدين آيدن 154/5.

Kasım Kufralı, Nakşibendiliğin Kuruluşu ve Yayılışı. (Introduction). 318
Türkiyat Enstitüsü No. 337. İstanbul-19449

الروحانيون في هذه الطريقة المعروفون بـ«رجال السلسلة»؛ شخصياتهم، ومستوياتهم العلمية والاجتماعية، ومعتقداتهم، واتجاهاتهم، وترجمة أحوالهم بالتفصيل.

إنّ من أصول الطريقة النقشبندية، أخذ العهد على المرید؛ أى إدخاله في سلك هذه المنظمة الصوفية. وهو من أكبر مهام شيخ الطريقة في كلّ بقعة ينشرون فيها دَعْوَتَهُمْ منذ أن شرعوا هذا المبدأ لمذهبهم. وعلى هذا الأساس يدّعي كلّ من تصدّى لمشيخة هذه الطريقة أنّه أخذ الإجازة والرخصة للقيام بهذه المهمة كما يقول محمد أمين الكردي الأربلي:

«قد تشرفت بأخذ العهد والإجازة بالتوجه ثم بالإرشاد وتلقين الذكر بعد السلوك أعواماً في الطريقة النقشبندية عن القطب الأرشد والغوث الأجد شيخنا وأستاذنا الشيخ عمر... إلخ؛ ويعدّد أسماء رجال السلسلة الذين ذكرناهم أنفاً؛ يعدّدهم واحداً بعد واحدٍ بالتصعيد على غرار سلسلة الرواة عند المحدثين، حتى ينتهي إلى اسم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيقول، «وهو عن النبي صلى الله عليه وسلم»³¹⁹.

يظهر اعتقادهم من خلال هذه الصيغة بصورة واضحة، أنّ الرسول عليه السلام، هو الذي بنى أساس طريقتهم، ونَفَخَ سرّها في روع أبي بكر {إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}³²⁰ كما يؤكّد ما جاء في الحدائق الوردية لعبد المجيد بن محمد الخاني، أنّهم على هذا المعتقد من غير شك. إذ يقول الخاني:

«ثُمَّ سَرَى هَذَا السِّرُّ، وَتَحَوَّلَ مِنْ إِمَامِ الْأُمَمِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خَلِيفَتِهِ الْأَوَّلِ، وَمَنْ عَلَيْهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا الْمَعْوَلُ، سَيِّدِ سَادَاتِ الطَّرِيقَةِ الْإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رضي الله عنه»³²¹.

لابدّ وأن نتساءل هنا: أنّ النبي عليه السلام، ما دام هو الذي قد بنى أساس الطريقة النقشبندية، ووضَعَ اللبنة الأولى لتكوينها - على حدّ زعمهم واعتقادهم - فهل ثبت عنه عليه السلام أنّه قد نطق حتّى بكلمة التصوّف ولو مرة واحدة في حياته الشريفة، بغضّ النظر عن أن يكون قد تحدّث عمّا

319 محمد أمين الكردي الأربلي، توير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/501-502؛ كذا محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة التديّة في الطريقة النقشبندية ص/7-9.

320 سورة التوبة/40.

321 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/88.

ابتدعته الصوفيّة عامّةً والنقشبندية خاصّةً من رموزٍ ومصطلحاتٍ ومبادئٍ وآدابٍ وأذكارٍ ومفاهيمٍ، حشوا بها بطونَ ركامٍ من الكتب! وهل شهد شاهدٌ من أهل العلم والثقة والإيمان والأخلاق والإخلاص، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد تكلم عن الطريقة النقشبندية أو عن أدنى شيء من أصولها وآدابها؛ كـ«الرّابطة»، و«الختمة الخوّاجانية»، وعدّ الأوراد بالحصي، والجلوس بعكس التورك في الصلاة، والاستمداد من روحانية الموتى، والتبرك بقبورهم؛ وهل ورد شيء من مصطلحاتهم الفارسيّة ولو في حديث واحد من تلك الأحاديث الموضوعية المكذوبة على لسان الرسول صلى الله عليه وسلّم، فضلاً عن الصحاح؟!

إذاً فما حجّة النقشبنديين فيما يدّعون - بدون تأمل - : أنّ سرّ طريقتهم قد انتقل من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى خليفته أبي بكر الصديق؟ ولماذا يجعلون أبا بكر هو الحلقة الأولى من سلسلتهم، فيحتاطون أن يبدأوا بالنبيّ عليه السلام؟ أم يحذرون من أن ينزلوا به منزلة صوفيّ خاملٍ متزمتٍ!

حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يوصفَ بما ينافي جلالته قدره؛ بل «كان خلقه القرآن».³²² وقد خاطبه الله تعالى بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} ³²³ وكتاب الله بين أيدينا؛ وهو العروة الوثقى، والحبل المتين، والبرهان المؤيد، والشاهد المجسد الذي يجبرنا من خلال إعجازه وتصويره وإيجازه وتفصيله وعكوسه النورانيّ على مدى كرامة الرسول صلى الله عليه وسلّم، وشرفه العظيم ومهمته العالية، ورسالته الخالدة، وقلبه الطاهر وسلوكه الربانيّ الرفيع، وشخصيته الفذة التي ملأت العالمين بأخبارٍ وآثارٍ وأنوارٍ وأطوارٍ لا تسعها كتب الصوفيّة؛ ولا تدنو من ساحل بحره المحيط عقولهم. {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى} ³²⁴

فهو - عليه أفضل صلوات الله وأتمّ تسليماته - في الحقيقة برئى كلّ البراءة من أن يكونَ هو الذي نفخ سرّ الطريقة النقشبندية في روع أبي بكر الصديق ﷺ. ولا يكاد يصدّق هذه المقولة أحد اطّلع على شيء من سيرته الطيبة وعرف مضمون النبوة ومفهوم الرسالة؛ خاصةً فإنّ سيّدنا محمّداً صلى الله

322 عن عائشة ؓ، رواه مسلم، رقم الحديث/1233.

323 سورة القلم/4.

324 سورة النجم/30.

عليه وسلّم هو أفضل النوع البشري وأعظمه وأكرمه؛ اصطفاه الله لحمل آخر رسالاته فقال له: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ³²⁵ فهو - لا شك - أجلُّ من أن يفهمه الطائشون المفتنون بعقائد الهنود، المتربصون في كلِّ مُعترك بذريعة الانتساب إليه.

سلسلة أسماء الذين يزعم النقشبنديون أنّ طريقتهم انحدرت بوساطتهم.

* الحلقة الأولى من هذه السلسلة:

يتشّث النقشبنديون بأبي بكر الصديق ﷺ، على أنّه هو الحلقة الأولى من سلسلة رجالهم؛ ويزعمون « أنّ ألقاب السلسلة تختلف باختلاف القرون» ³²⁶ وأنّ طريقتهم كانت تسمّى «الطريقة الصديقيّة» في مرحلتها الأولى، بدايةً من عهد أبي بكر الصديق ﷺ إلى عهد أبي يزيد البسطاميّ. وهو الحلقة الخامسة من هذه السلسلة عندهم.

أمّا هذه التسمية، لا شك في أنّها وضع محض؛ لا برهان لهم في إسنادها إلى أبي بكر الصديق. ولا في نسبتها إليه قيمة علمية أو دينية. لأنّ التصوّف لم يكن له أيّ أثرٍ في حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وإنّما كانوا في سلوكهم وتعبّدهم، وسعيهم ومعاشهم في جميع مجالات الحياة يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ ويسيروا على هديه لا محالة. وكانوا كما وصفهم الله في آخر سورة الفتح بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} ³²⁷ ويقول سبحانه فيهم أيضًا {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ³²⁸ ويقول تعالى فيهم أيضًا:

325 سورة الحانية/18.

326 راجع المصادر الآتية:

* محمد بن عبد الله الحانّي، اللهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية، ص/ 12. طبعة مصر - 1319هـ.

* محمد بن سليمان البغدادي، الحقيقة الندية في الطريقة النقشبندية ص/ 21. مكتبة الحقيقة، إسطنبول-1992.

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الحانّي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 8.

327 سورة الفتح/29.

328 سورة الأعراف/157.

{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} ³²⁹ كانت حياتهم الروحية محدّدة بضوابط الوحي وإرشادات الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ فلم يكن من شأن أحدهم أن يزيد في دين الله شيئاً، أو يُلغِي منه شيئاً أصلاً. فقد مُثِّلَ التزامهم التام في بيت من تلك القصيدة المشهورة التي تَعَنَّى بها أهل المدينة يوم طَلَعَ البدرُ عليهم من ثنَيَاتِ الوداع. وهذا قولهم:

وَتَعَاهَدْنَا جَمِيعًا يَوْمَ أَفْسَمْنَا الْيَمِينَ،
لَنْ نُخُونَ الْعَهْدَ يَوْمًا وَاتَّخَذْنَا الصَّدَقَ دِينَ.

ومن الحجاج الدامغة على النقشبنديين، عجزهم عن إقامة أدنى دليل على أنّ أبا بكر الصديق قد نطق بكلمة «التصوّف» ولو مرة واحدة على مدى حياته؛ فضلاً عما إذا كان له علم بالنقشبندية وعقائدها وتعاليمها وطقوسها.

أمّا حياة أبي بكر الصديق ﷺ، فإنها غنيّة عن الشرح لكثرة ما في بطون الكتب من سيرته الطيبة الحسنة، وشهرته الواسعة بزهده وتقواه وبطولاته الخالدة وشجاعته وافتدائه في سبيل الله، وعقله الراجح في السياسة والتعامل. وهو من السابقين الأولين في الإسلام. صَحَبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصدقٍ وأمانةٍ في جميع المواقف، وآزره ونصره وذاق ألواناً من العذاب على ذلك، وشهد معه المشاهد كلها، وثبت في صفوف القتال بجانبه، واحتلّ مقامه في القيادة والرياسة للأمة بعد وفاته. هذا هو أبو بكر الصديق الصحابي الجليل رضي الله تعالى عنه.

فإنّه برئ من أن يتصوّره الإنسان على هيئة صوفي جامدٍ صامتٍ مُطَّاطٍ وَقَابِعٍ على نفسه. بل إنّه بصفته رئيس الدولة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وسلّم، كان في حركة دائبة ونشاطٍ مستمرٍ. حملته مهمته العالیه ومسؤوليته العظيمة أن يخوض مثار الأحداث، وأن يكون على أهبة الاستقبال لأيّ تطوّر قد يحدث. لذا فهو بعيد كلّ البعد عما يتصوّره النقشبنديون من الشخصية الصوفية فيه. في الحقيقة ليس بينه وبين تلك الشخصية المختلقة وجه من المشابهة؛ ولا وجود لصلة تربط بينه وبين النقشبنديين؛ ولا يتعدى زعم شيوخ هذه الطائفة في نسبتهم إليه عن زعم الرافضة في نسبتهم إلى أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه. ومثلهم في هذا الإنتماء المزعوم كمثل الوهابيين في انتمائهم إلى الإمام الجليل أحمد بن حنبل رحمه الله وإلى العلامة ابن تيمية الحرابي عليه الرحمة والرضوان، وهم في الحقيقة أبعد الناس عنهما! (إن كان هذا الأخير بريناً مما يُنسب إليه من التجسيم والتشبيه).

* الحلقة الثانية من سلسلتهم.

يَعُدُّ النقشبنديون سلمانَ الفارسي رحمه الله هو الحلقة الثانية من سلسلة ساداتهم. وهذه من مميزات الفرق الباطنية. فكل فرقة منها إما تدعي النسبة إلى شخصية بارزة من الصحابة، أو إلى آل بيت النبي الطاهرين، لتخفي بهذه النسبة الزائفة حقيقتها ومكائدها.

يقول عبد المجيد بن محمد الخاني في الحدائق الوردية «ثم تلقى سر هذه النسبة الشريفة منه (أي من أبي بكر الصديق) سيدنا سلمان الفارسي رحمه الله».

استرسل الخاني في قصة حياته العجيبة وما كان عليه قبل الإسلام وكيف اعتنق المسيحية بعد أن كان مجوسياً في شبابه. وذكر ما ذكر من أيام إقامته عند عددٍ من القساوسة في الشام والموصل ونصيبين والعمورية؛ ثم قص إسلامه وبقية حياته في الإسلام بالتفصيل؛ نقلا من رواية أبي الفرج «بسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما»³³⁰ حتى إذا اقترب من نهاية كلامه قال «ثم توفي رحمه الله، وذلك سنة ست وثلاثين، أو أربع وثلاثين في داء البطن في المدائن في خلافة عثمان رحمه الله؛ وعمره مائتان أو ثلاثمائة وخمسون سنة. أما الأول، فعليه عند المؤرخين المعول»³³¹ ولم يذكر لنا أسماء هؤلاء المؤرخين. ولا شك في أن هذا القول لا يستقيم، إذ فيه مبالغة يستغربها أهل العلم والخبرة، كما نستغرب نحن: أن الخاني لم يذكر شيئا حول تلقي هذا السر الذي سرى إلى سلمان الفارسي من أبي بكر الصديق، وكيف أصبح نقشبندياً أو صوفياً؛ بعد أن كان صحابياً جليلاً، وربما لم يسمع في كل حياته الطويلة من أحدٍ نطق بكلمة التصوف، فضلاً عن النقشبندية ومصطلحاتها الفارسية على الرغم من أنه كان فارسي الأصل! وهل كان يتعبد على أساس الرابطة، والختمة الخوجانينية، وعد الأوراد بالحصى؛ وهل كان

330 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 94.

يعلم شيئاً حول عقيدة الفناء والبقاء والأويسية وما إلى ذلك من تعاليم النقشبندية وفلسفتها وطقوسها...

يتبين من هذا أيضاً، أنّ نسبة سلمان الفارسيّ إلى هذه السلسلة باطلة؛ لا برهان لهم في إثباتها بصورة قطعية.

* الحلقة الثالثة من سلسلتهم.

ورد في عددٍ من كتابات النقشبنديين أنّ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، هو الحلقة الثالثة من سلسلة ساداتهم. ويعتقدون «أنّه تلقى سرّ هذه النسبة» من سلمان الفارسيّ. وهذا يعني بتعبيرٍ آخر: أنّ القاسم عليه السلام يُعدّ من الصوفية. بينما تشهد الوثائق أنّه كان فقيهاً جليلاً من أولئك السبعة المشهورين بالعلم والفضل.³³² ولم يتمكّن النقشبنديون من الاستناد إلى أيّ دليل على أنّ يكون القاسم قد انخرط في صفوف منظمة باطنية سرّية، كما لم تكن الطريقة النقشبندية قد خرجت في عهده إلى حيز الوجود بعد. ولا نجد في كتبهم أنّه أقر شيئاً من تعاليمهم ومصطلحاتهم وطقوسهم بما فيها «السلسلة». وهذا أمر في منتهى الغرابة. لذا تعمّد النقشبنديون الإغضاء عن نسبة شيء من تعاليمهم إليه. بل اقتصروا على مدحه أنّه «العالم المفتي الفقيه الورع الزاهد الحجّة النبيه... إلخ.»³³³ وهذا لا يختلف فيه معهم أحد من أرباب البحث والخبرة بين أهل السنّة والجماعة.

وردت ترجمة القاسم بن محمد في وفيات الأعيان لابن خلكان³³⁴ كما وردت في مصادر أخرى، وهي خالية تمام الخلوّ من كلّ ما أسند إليه من أنّه تلقى سرّ الطريقة أو التصوّف من سلمان الفارسيّ وما

332 الفقهاء السبعة المشهورون بين سادات التابعين هم: القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق؛ وخارجه بن زيد بن ثابت الأنصاري؛ وسعيد بن المسيّب؛ وعروة بن الزبير؛ وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود (وعتبة هو أخو عبد الله بن مسعود

الصحابي)؛ وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام (والحرث بن هشام، أخو أبي جهل. هو صحابي أيضاً)؛ وسليمان بن يسار.

333 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحايّ، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/96.

334 أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ 4/59. تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت-1978م. كذلك وردت ترجمته في المصادر التالية: طبقات ابن سعد، 187/5. بيروت-

1963م؛ أبو نعيم الإصفياني، حلية الأولياء/183. بيروت-1967م؛ ابن حجر العسقلاني، فتاوى التهذيب، 8/333. حيدرآباد-1325هـ؛ ابن العباد، شذرات الذهب، 1/135. بيروت-1979م؛ خير الدين زركلي، الأعلام، 181/5.

بيروت-1995م.

يتبع هذا الإسناد من احتمالات أخرى؛ كالتعبّد على أساس الرابطة، والختمة الخَوَاجِغَانِيَّة، والتمرينات اليوغية وما إليها.

* الحلقة الرابعة من سلسلتهم.

يعتقد النقشبنديون: أنّ الإمامَ جعفرَ الصادقَ بنَ مُحَمَّدَ الباقر هو الحلقة الرابعة من سلسلتهم؛ كما أشار إلى ذلك عبد المجيد بن مُحَمَّد الخائي بقوله «ثُمَّ سَرَى سِرُّ هَذِهِ النِّسْبَةِ الشَّرِيفَةِ - أَي مِنَ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ - إِلَى شَبْلِهِ سَيِّدِنَا جَعْفَرَ الصَّادِقِ.»³³⁵ ويبالغون في تعظيمه بأوصافٍ يستبشعها أهل المروءة والإيمان. والشَّيْبَلُ اسْمٌ يُطَلَّقُ عَلَى وَلَدِ الْأَسَدِ. تَنْطَعُ الْخَائِيُّ بِمَثَلِ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ الْمَجَازِيِّ تَنْوِيهًا إِلَى الْقَرَابَةِ الرَّحْمِيَّةِ بَيْنَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ وَقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ الصِّدِّيقِ. ذَلِكَ لِأَنَّ جَعْفَرَ، أُمَّهُ هِيَ: أُمُّ فُرُوعِ بِنْتِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ الصِّدِّيقِ. وَأُمُّهَا - أَيُّ جَدَّتُهُ مِنْ قَبْلِ أُمِّهِ - هِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَجْمَعِينَ، فَإِذَا كَانَ هَذَا أَسْلُهُ وَالصِّدِّيقُ جَدُّهُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فَلَا يَتَصَوَّرُ فِي مِثْلِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ - وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي دِينِهِ وَقَرَبِهِ مِنَ الدَّوْحَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ - أَنْ يَكُونَ رَجُلًا صُوفِيًّا نَقَشْبِنْدِيًّا يَتَعَبَّدُ عَلَى أَسْلُوبِ مَجُوسِ الْهِنْدِ بِطَرِيقِ الرَّابِطَةِ وَالخَتْمَةِ الْخَوَاجِغَانِيَّةِ، وَعَدَدِ الْأُورَادِ بِالْحَصَى وَأَمْثَالِهَا مِنْ أَشْكَالِ مَنَاسِكِ الْبَاطِنِيَّةِ الْحَشَّاشِينَ.

يوصل الخائي طريقته المزخرقة وكلماته المُسَجَّعة في وصف جعفر بن مُحَمَّد بقوله «ناهيك بإمامٍ وَرَثَ مَقَامِ النَّبُوَّةِ وَالصِّدِّيقِيَّةِ، فَازْدَهَرَتْ فِي طَلْعَتِهِ أَنْوَارُ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ.»³³⁶

لا شك أنّ عامّة أهل الإسلام يذكرون هذه الشخصية الكريمة بالثناء عليه والرحمة له من الله، وينظرون إليه بعين التوقير والإجلال. ولكن أهل العلم والبحث لم يعثروا على أدنى شيء يبرهن على إنتمائه إلى فرقة من الفرق الصوفيّة. ولا أثبت أحدٌ أنّه تكلم في التصوّف ومصطلحاته؛ أو تعبّد على نحو ما يتعبّد به النقشبنديون، كترديد لفظة الجلال خمسة آلاف مرة يوميًا، أو إجراءها على القلب بدون تلقّفٍ بها، أو التركيز على جسمٍ أو صورةٍ... إلخ.

335 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 37.

336 المصدر السابق، ص/ 37.

في الحقيقة أنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام، لم يرد في ترجمته أنّه كان يعلم شيئاً عمّا يمارس النقشبنديون من هذه الأمور وما اختلقوها من مفاهيم دجلية؛ كالأويسية، والفناء، والبقاء، والاستمداد من روحانية الشيوخ، وما إلى ذلك من بدعٍ وخرافات وقصصٍ بهلوانية باسم الكرامات على كثرة ما قد تُرجم له. 337

* الحلقة الخامسة من سلسلتهم.

يزعم النقشبنديون أنّ أبا يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان البسطاميّ هو الرجل الخامس من سلسلتهم. وبسطام، «يقال أنّها أول بلاد خراسان من جهة العراق وقومس». 338 «كان جدّه مجوسياً ثم أسلم» 339 ويغلب أنّ الخلط والتذبذب الذي يظهر في مقاطع من كلامه يبرهن على تأثير أسلافه الجوس. لأنّ تأثير المعتقدات والعادات والتقاليد قد يستمرّ عبر حياة الأسرة ويتسرّب إلى طبقاتٍ من أجيالها؛ ولو اعتنق الأحفاد معتقداتٍ جديدةً تختلف عما كان عليه آباؤهم الأوّلون.

وقد يكون أستاذه أبو علي السندي 340 هو الذي أوقعه فيما جعل بعضُ الباحثين يرمونه بالزندقة. ومن هؤلاء الباحثين، عبد القادر بن حبيب الله السندي. فقد نقل عن طبقات الأولياء لابن ملقن مقاطع من مقولات البسطاميّ؛ ينتقده تارةً بالمخالفة الصريحة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ وتارةً يشنّ عليه تمسّكه بالرهينة؛ 341 وتارةً يحمل قوله على الكفر والإلحاد والزندقة؛ واستقى من «البداية إلى النهاية» للإمام ابن كثير، ومن «الميزان» للإمام الذهبي. حيث ينقل بعضهم عن بعضهم في هذه المصادر أنّه «حكّي عن البسطاميّ شطحات ناقصات. وقد تأوّها كثير من الفقهاء والصوفيّة، وحملوها على محامل بعيدة. وقال بعضهم: إنّ قال ذلك في حال الإصطلام والغيبة. ومن العلماء من

337 المصادر التي وردت فيها ترجمة الإمام جعفر الصادق: أبو نعيم الإصفهاني، حلية الأولياء 192/3. بيروت-1967م؛ شمس الدين سامي، قاموس الأعلام 820/3. إسطنبول-1306هـ؛ محمد بن سعد، طبقات 187/5. بيروت-1960م؛ الخافظ الذهبي، تذكرة الحقاظ 166/1. حيدرآباد-1956م؛ مؤمن الشبلنجي، نور الأبصار ص/ 60. القاهرة-1948م؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان 327/1. بيروت-1978م؛ ابن العماد شذرات الذهب 220/1. بيروت-1979م؛ عمر رضاء كحالة، معجم المؤلفين 145/3. بيروت-1957م؛ خير الدين زركلي، الأعلام 126/2. بيروت-1995.

338 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحانج، الحدايق الوردية في حقايق أجلاء النقشبندية ص/ 105.

339 أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ 531/2. تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت-1978م.

340 أبو علي السندي رجل لا ذكر له في الأوساط العلمية. ورد اسمه في المراجع التالية ضمن كلمات عابرة: الحدايق الوردية في حقايق أجلاء النقشبندية-عبد المجيد بن محمد الحانج ص/ 101؛ موسوعة ميدان لا روس التركية، مادة: بايزيد

البسطاميّ؛ 2192/

بدّعه وخطّاه، وجعل ذلك من أكبر البدع، إنّه تدلّ على اعتقاد فاسدٍ كامنٍ في القلب، ظهر في أوقاته والله أعلم.»³⁴²

يعتقد النقشبنديون فيه إنّه سلطان العارفين، وينقلون عنه أنّه قال: «سبحاني ما أعظم شأنني.»³⁴³

يقول عبد المجيد بن محمد الخانيّ «كان أبو يزيد البسطاميّ يشير عن نفسه أنّه قطب الوقت.»³⁴⁴ غير أنّ له مقولة تبرهن على حسن اعتقاده وكمال معرفته ومثانة أسلوبه على طريقة أهل العلم في توضيحه لمعنى التكبير. فقد قيل عنه - إذا صحّ - «إنّه سمع رجلاً يكبر. فقال:

«- ما معنى الله أكبر؟ قال:

- الله أكبر من كلّ من سواه. فقال أبو يزيد:

- ليس معه شيء فيكون أكبر منه! قال:

- فما معناه؟ قال:

- معناه: الله أكبر من أن يقاس بالناس، أو يدخل تحت القياس، أو يدركه الحواس.»³⁴⁵

لعلّ أقواله الموافقة لحدود الكتاب والسنة وردّت عنه قبل أن يفارق العلماء ويتّصل بالصوفيّة. وعلى الرغم من كلّ ما أُسند إليه من الحقّ والباطل لم يثبت عنه دليل قاطع أنّه ادّعى الأويسيّة، ولا أنّه تعبّد على أساليب النقشبنديّة؛ كالعمل بالرّابطة، والحثمة الخوّاجانيّة، وتعداد الذكر بالحصي وأمثالها... ولو كان قد عمل ذلك، وثبت عنه، لذكروه في كتبهم بالذات على سبيل الحجّة. كما لم يثبت عنه شيء يدلّ على إنّه أقرّ سلسلة الطريقة. ولكن المؤلّف يقول «وهو أويسيّ التربية. فإنّه ربّته

342 المصدر السابق ص/232.

343 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الخدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/99.

344 المصدر السابق، ص/98.

345 المصدر السابق ص/100.

روحانية سيّدنا جعفر الصادق. ووصل إليه هذا السّرّ الجليل منه بالروحانية - كما قدّمنا - لأنّ سيّدنا جعفر، كانت وفاته سنة ثمانٍ وأربعين ومائة. وهي قبل ولادة أبي يزيد بنحو أربعين سنةً كما رأيت. ثمّ إنّ كلّ مَنْ ربّته روحانية أحد السادات، يقال له أويسيّ؛ نسبةً لسيّدنا أويس القرني، سيّد التابعين. فإنّه على القول بوجوده وهو الصحيح المؤيّد بالأدلة المعتمدة والكشف الصريح؛ ربّته روحانية سيّد العالمين بالخصوص.³⁴⁶ يبدو أنّ هذا الرأى اختلقه بعض النقشبنديين على حساب الآخرين دون علمهم، فتقول على لسان كلّ من جعفر الصادق وأبي يزيد البسطاميّ في دعوى هذه النسبة بينهما. وهذا برهان قاطع على المستوى الأخلاقيّ الذي يميّز به أفراد هذه الطائفة، حتّى المتعلّمون منهم.

يزعم النقشبنديون: أنّ طريقتهم سمّيت بـ«الطيفورية» بدايةً من عهد أبي يزيد البسطاميّ إلى زمن عبد الخالق العجّادواي؛ نسبةً إلى اسمه (طيفور). بيد أنّ هذه التسمية غير مؤثّقة. إذ أنّ كلاً من هذين اللّقبين: «الصدقيّة» و«الطيفورية»، لم يرد ضمن تراجم الشخصيتين المقصودتين بهما على الإطلاق. أمّا التقدير، بأنّهما كانا على أدنى شيء من العلم بنسبة الطريقة النقشبندية إليهما أو نطقاً بهذين اللّقبين، أو حتّى سمعا بهما، فإنّ ذلك باطل إطلاقاً؛ لن يملك أحدٌ من عقلاء النقشبندية الجرأة على الدفاع عن هذه الدعوى الواهية إلاّ الجاهل منهم!

لقد ثبت هكذا واتّضح مرّةً أخرى وبهذه الصراحة، أنّهم قد أضافوا إلى تعاليم الدين مالا يُحصى من مفاهيم ومصطلحاتٍ وعقائدٍ اقتبسوها من دياناتٍ مختلفةٍ لا صلة لها بالإسلام؛ كما قد ألغوا مبادئ هامةً من أصوله وأبطلوها؛ وخالفوا مبدأ التوقيفية في الإسلام، وتصرفوا فيه بدون حدود. كذلك ابتدعوا أسماءً جديدةً، ومصطلحاتٍ غريبةً كلّما وجدوا لذلك مساعاً من تلقاء أنفسهم. وتقولوا على بعضهم البعض؛ بل وحتّى على النبيّ صلى الله عليه وسلّم، ومن يليه من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين؛ كإسنادهم الطريقة النقشبندية إلى الصحابة والتابعين؛ وإدّعائهم: «إنّ طريقة السادة النقشبندية هو معتقد أهل السنّة والجماعة. وهي طريقة الصحابة رضويّين على أصلها، لم يزيدوا فيها، ولم ينقصوا منها.»³⁴⁷

346 المصدر السابق ص/105. وردت ترجمة أبي يزيد البسطامي في المصادر الآتي ذكرها: أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية ص/67. القاهرة-1969م؛ أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء. 33/10. بيروت-1967م؛ أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية ص/14. القاهرة-1959م؛ أبو الفرج ابن الجوزي، صفات الصغوة 4/89. حيدرآباد-1355هـ؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ 531/2. تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت-1978م؛ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال/481. القاهرة-1963م؛ عبد الله بن أسعد اليافعي، مرآت الجنان وعبرة البقطن 2/173. حيدرآباد-1339هـ.

هكذا دخل النقشبنديون في دوامة خطيرة حارت العقول من أمرهم.

* الحلقة السادسة من سلسلتهم.

ترجم النقشبندية أن أبا الحسن علي بن أبي جعفر الحرقائي هو الحلقة السادسة من سلسلتهم. يقول عبد المجيد بن محمد الخاني، «ثم تلقى سر هذه النسبة الشريفة من سيدنا أبي يزيد أيضاً بالروحانية، سيدنا أبو الحسن الحرقائي»³⁴⁸ «وهو أويسي التربية، ربته روحانية سيدنا أبي يزيد البسطامي»³⁴⁹

ينقلون عنه أنه قال: «أطلب القصة لتظهر الدموع. فإن الله يحب الباكين.»³⁵⁰ هذه الكلمة تُدكرنا بقوله تعالى: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}³⁵¹ وذلك إذا كان غرضه من القصة ما لا يتعارض مع الروح القرآني.

وينقلون عنه أيضاً أنه قال «كل شيء يطلب العبد به الله، فالقرآن أحسن منه؛ فلا تطلبوا الله إلا به». وهذه كلمة حق. فيبدو من هذه المقولات، أن الشيخ أبا الحسن الحرقائي كان رجلاً من الصالحين بخلاف من تصفه النقشبندية من الشيوخ الروحانيين. ويحتمل أنهم قد طمعوا في استغلال شهرته فأضافوا اسمه إلى أسماء مشائخهم دون أن تكون له علاقة بهذه الطريقة. إذ أن الطريقة النقشبندية لم يكن لها وجود في زمانه. ويغلب أنه من أصل فارسي كأبي يزيد البسطامي.

قيل إنه عاصر السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين، ونال محبته وتوقيره. إلا أنه غير مذكور في المصادر المعتبرة لسير الأعلام وتراجم الرجال. ولم يذكره القشيري في رسالته ضمن الأعلام وهو معاصره. وقد ذكر البسطامي؛ (وهو شيخ الحرقائي في اعتقاد النقشبنديين). وبخاصة فإن أبا القاسم القشيري هو أستاذ أبي علي الفضل محمد الفارمدي الذي يدعي النقشبنديون أنه تتلمذ على أبي الحسن الحرقائي في الوقت ذاته، وصار خليفته في الطريقة!

348 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/105.

349 المصدر السابق ص/106.

350 المصدر السابق ص/105.

351 سورة التوبة/82.

كلّ هذه المُعطيات التي تبرهن على تعارضٍ رهيبٍ في أقوال النقشبنديين ودعواهم في نسبة طريقتهم إلى أشخاص، لم تكن فكرة النقشبندية ولا شيء من تعاليمها موجودةً في عهدهم، تدلُّ في الوقت ذاته على أنه لو كان لأبي الحسن الخرقاني وجودٌ حقيقيٌّ، لذكره المصنّفون ضمن تراجم الأعلام، وعلى رأسهم القشيري.

لذا قد يكون هذا اسمًا مُتخلِّقًا لشخصيةٍ خياليةٍ لا حقيقة لها. وهذا يؤكّد أيضًا على مدى زعم النقشبنديين في دعواهم عن صحّة هذه السلسلة.

* الحلقة السابعة من سلسلتهم.

يزعم النقشبنديون أنّ أبا عليّ الفضل بن محمد الفارمديّ هو الحلقة السابعة من سلسلتهم، وأنّه «تلقّى سرّ هذه النسبة من أبي الحسن الخرقاني».³⁵²

ورد في بعض المصادر «أنّه صحّب القشيريّ، وأخذ عنه حجة الإسلام الغزاليّ»³⁵³ ترجمت له جماعة من المصنّفين. منهم؛ تاج الدين السبكي،³⁵⁴ وعبد الحيّ بن أحمد بن محمد بن العماد العكبريّ الحنبليّ،³⁵⁵ وياقوت الحموي،³⁵⁶ وعلي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير.³⁵⁷

يغلب الظن أنّ أبا عليّ الفارمديّ هو عربي الأصل كأستاذه أبي القاسم القشيريّ. بيد أنّه تشرّب العقيدة الصوفية بدافع نشأته في منطقة خراسان التي كانت ملتقى الجموع للعقائد الوثنية منذ القديم. إلّا أنّنا لا نعر على أيّ دليل يبرهن على إقراره بهذه السلسلة وعن تعبده على غرار النقشبندية. قيل

352 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحان، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/106.

353 المصدر السابق ص/71.

354 تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية 304/5. القاهرة-1964.

355 ابن العماد، جذرات الذهب في اخبار من ذهب 355/3. بيروت-1969م.

356 ياقوت الحموي، معجم البلدان 829/3. القاهرة-1325هـ.

357 ابن الأثير، اللباب في تذيب الأنساب 191/2. القاهرة-1359هـ.

إنّه كان وجيهاً عند الوزير السلجوقي حسن بن علي المعروف بـ«نظام الملك»، ولكن ابن خلكان لا يذكره حيث يذكر مكانة شيخه أبي القاسم القشيري عند نظام الملك.³⁵⁸

* الحلقة الثامنة من سلسلتهم.

هذه الحلقة يمثلها في اعتقاد النقشبنديين رجلٌ اسمه أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين الهمدانيّ. يزعمون أنّه أخذ سِرَّ هذه الطريقة من أبي عليّ الفضل بن محمد الفارمديّ. فيكون بذلك معاصراً لمحمد بن محمد الغزاليّ، ومُصاحباً لنفس الأستاذ الذي أخذ عنه الغزاليّ، مع ذلك لا نَعْتَرُ على ما يُثَبِّتُ اجْتِمَاعَهُمَا.. وهذا أمرٌ غريبٌ يبعثُ الشكوكَ فيما أورده بعضُ النقشبنديّين من ترجمة هذا الرجل. ذلك، مِنْ شَأْنِهِمْ: أنّهم يحرصون على إشاعة فضائل مشائخهم بكلّ وسيلةٍ. ولا يألون جهداً في إسناد ما ليس فيهم من صفاتٍ عالياتٍ، ويبحثون عن أدنى قرينة تجمع بين شيوخهم وبين مشاهير العلماء. ولا يقصدون من ذلك إلاّ العمل على توسيع نطاق الشهرة لرجالهم.

هذا، فلو كان الهمدانيّ قد اجتمع بالغزاليّ لظهر ذلك بوضوح من خلال التراجم. - لأنّ الهمدانيّ أيضاً من تلامذة الفارمديّ على حدّ قول النقشبنديّين - ولكان ذلك وسيلةً لمباهاتهم. لأنهم يملكون الفرصة بذلك ليزيدوا من مبالغتهم في المدح والثناء على هذا الرجل بمجرد صلته بالغزاليّ الذي ملأ الآفاق بشهرته!

وقيل أنّ الشيخ عبد القادر الجيليّ اجتمع به وهو شابٌ يدرس في النظامية. إنّ هذا الاحتمال يُنبؤنا عن ضعف ما قد نسجه النقشبنديّون حول الهمدانيّ من حكاياتٍ وأقاصيصٍ خياليّةٍ لا يمكن أن تظهر الحقيقة من خلالها. كما جاءت تلفيقات بين كلمات المترجمين للهمدانيّ. فقد ورد في الحدائق الوردية «أنّه تفقّه علي مذهب الإمام الشافعيّ».³⁵⁹ مع هذا يدّعي شخصٌ آخٍ لرجال هذه الطريقة «أنّه كان على مذهب الإمام الأعظم».³⁶⁰ أي على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه.³⁶¹

358 أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ 129/2. تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت-1978م.

359 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 107.

360 حسن لطفي ششود، مناقب الأولياء (باللغة التركية) ص/ 7. مكتبة صلاح بيلجي، إسطنبول-1958م.

يقول الأستاذ فؤاد كوبرولو (باللغة التركية وقد عربناه كما يلي): «أما الهمدانيّ، فإنه كان طويلَ القامة، أزهرِيّ اللون، أشقر اللحية، رجلاً نحيفاً، يكتسي ثوباً من صوفٍ مُرَقَّعٍ. لا يهتمّ بأمور الدنيا ولم يتردد على الملوك. يُنفقُ كلَّ ما يصيب من مالٍ. لم يقبل من أحدٍ شيئاً، ولم تكن له معرفة باللّغة التركيّة. (...). يصنع العقاقير لتهدئة الآلام ومعالجة الجراح، ويكتب التمام للشفاء من الحمى.»³⁶² ويقول المؤلّف أيضاً:

«إنّ الشيخ يوسف الهمدانيّ، الذي ينتمي إلى أسرة همدانيّة مجوسية اعتنقت الإسلام منذ ثلاثة أجيال، لم يكن من أولئك المتصوّفة الأعاجم الذين عملوا على تأليف العقائد الهنديّة مع العقائد الإسلاميّة بتصوّراتهم المطلقة من العنان. ولكنّه كان مُتعمِّقاً في العلوم الشرعيّة، وكان عالماً بالحديث. ولهذا كان يفضّل الكتاب والسنة على كلّ شيء.»³⁶³

هذه النقولات تبرهن على شخصيّة الهمدانيّ من كلّ وجهٍ وبكلّ وضوحٍ حيث لا يحتاج إلى أيّ تعليقٍ آخر. وعلى الرغم من كثرة الحكايات المنسوجة حول هذا الرجل، فإنّه لم يرد عنه أنّه تكلم بشيءٍ يوهم أساليب التعبّد المبتدعة من قبيل الطائفة النقشبندية. وجاءت ترجمته في عدد من المصنّفات.³⁶⁴

* الحلقة التاسعة من السلسلة النقشبندية *

361 إن معظم الأتراك يعتقدون أنّ أبا حنيفة أفضل الأئمة. كما سوف نشرح هذا الاعتقاد في بداية الفصل الخامس إن شاء الله تعالى. ويدعي الكثير منهم: إنّه تركي الأصل رجلاً بالغيب، ولا برهان لهم في ذلك. لأنّه لم يرد عن أبي حنيفة أنّه تكلم بكلمة تركيّة، أو كتب لفظاً بهذه اللّغة. بل الشائع إنّه فارسي الأصل. ولا تتعجب من إدعاء أشدّ غرابة منه، عثرنا عليه، فرأينا بحكم المناسبة أن نذكره. وذلك: أنّ ضابطاً عسكرياً في الجيش التركي برتبة جنرال يدعى فاروق جواترك، يقول في كتاب له: «إنّ محمداً صلى الله عليه وسلّم ينحدر من سلالة إبراهيم النبي عليه السلام. أما إبراهيم الخليل، فإنه تركي الأصل. هاجر من مدينة أورفا (الواقعة بجنوب تركيا) إلى بلاد العرب هارياً من ظلم ثمود. وبني الكعبة مع ولده إسماعيل. هذه حقيقة تاريخية. ولهذا فإنّ الرسول عليه السلام ينتمي إلى أصل تركي.» وفيما يلي نص هذه الترجمة باللّغة التركيّة:

Hız. Muhammed, Hız. İbrahim'in neslinden gelir. Hız. İbrahim ise Urfa'dan Zalim Nemrud Elinden kaçıp Arabistan'a yerleşir. Oğlu İsmail ile Mekke Şehrini kuran bir Türk olduğu tarihi hakikatlarıdır.

Orgeneral Faruk Güventürk, Din İşleri Altında Nurculuğun İyüzü Pğ. 69 Ankara-1993

Prof. Dr. Fuad Köprülü, Türk Edebiyatında İlk Mutasavvıflar, Pğ. 69 Ankara-1993 362

363 المصدر السابق ص/115.

364 المراجع التي وردت فيها ترجمة الهمداني: خير الدين زركلي، الأعلام 220/8؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب 110/4؛ يوسف بن إسماعيل البهاني، جامع كرامات الأولياء 289/2؛ عبد المجيد بن محمد الحاني، الخدائق

الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية . 106؛ علي بن حسين الواعظ؛ رشحاح (باللغة العثمانية) ص/ 17

ورد في مصادر المتأخرين من هذه النحلة: أنّ الحلقة التاسعة من سلسلتهم هو عبد الخالق العُجْدُوَائِيّ. وهو أول رجلٍ تركيَّ النشأة بين قدماء هذه السلسلة. وهو الذي أحدث ثمانية أركانٍ للطريقة كما مرّ في باب «مبادئ الطريقة النقشبندية» من الفصل الثاني. قال محمد بن عبد الله الخائيّ في هذا الصدد:

«ومن تلك المصطلحات: الكلمات القدسية المأثورة من حضرة الخواجة عبد الخالق العُجْدُوَائِيّ، وهي إحدى عشرة كلمة. وعليها مَبْنَى طريقة السادات النقشبندية».³⁶⁵ وعدّ كلاً على حدة كما نقلناها من مصادرهم فيما سبق.

جاء في تراجم النقشبنديين لعبد الخالق العُجْدُوَائِيّ أنّه ولد في قرية عُجْدُوَان - وهي على مقربة من مدينة بُخَارَى - وأنّ نسبه يتصل بالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه؛ وأنّ والده الشيخ عبد الجميل كان من سكّان مدينة ملاطية (الواقعة اليوم في شرقي تركيا). ثم سافر إلى بُخَارَى. بينما نحن لا نعر على ترجمة له في التصانيف المعتمدة. وهذا ما يزيد من الشكوك حول كلّ ما قيل عنه خاصة فيما ورد أنّه درس تفسير القرآن العظيم عند الشيخ صدر الدين البُخَارِيّ. لأنّ ما ورد عنه من البدع يثير الوهم حول جهله بالإسلام إذا صحّ قول من زعم أنّه الذي وضع المصطلحات الثمانية. وتؤكد ذلك روايات غريبة أخرى وردت عنه.

منها «إنّه قال: لما بلغت اثنين وعشرين سنة أوصى الخضر عليه السلام الغوث الهمدانيّ بتربيته».³⁶⁶

ورد في مواطن أخرى من تراجم النقشبنديين له أنّه «جاء الخضر عليه السلام إليه، فقال له أنت ولدي، ولقنه الوقوف العدديّ وعلمه الذكر الخفيّ؛ وهو أنّه أمره أن يغمس في الماء ويذكر بقلبه: لا

365 * محمد بن عبد الله الخائي، الهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/50.

366 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/111.

إنّ أسطورة الخضر التي وردت على لسانه ضمن مناقبه المنقولة بقلم عبد المجيد الخائي، ترهن على مدى خرافة ما اختلقه القصاصون من شيوخ النقشبندية حول اسم هذا الرجل ليجعله حلقة هامة من حلقات سلسلتهم. أما هذه الأسطورة، فهي مشهورة و متكررة في كتب الصوفية. يقول عبد الرحمن عبد الخالق: «يبدو أنّ أول من افترى القصة الصوفية للخضر هو محمد بن علي بن الحسين الترمزي المسمى بالحكيم المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري (الفكر الصوفي/134)». ويقول أيضاً: «لقد تمخّل الخضر إلى قصة خرافية كبيرة أشبه بقصة ما يستؤمنه بالسورمان الذي يطير في كلّ مكان، ويلقي بالأصداف والخلان في كلّ البلدان، ويشرخ للناس ما شاء من عبادات وقرابات، ويلقن الأذكار و ينشئ الطرق الصوفية، ويعمد الأولياء والأقطاب، ويؤي من يشاء ويعزل من يشاء». (المصدر السابق). ويقول سميح عاطف الزين: «الخضر، فهو عندهم إمام الأولياء والسالكين، يلتقي به الشيوخ عياناً كما يزعمون، وينلقون عنه الأسرار، لأنه لم يموت، ولن يموت إلى آخر الزمان؛ وهو يقم بالمسجد الأقصى، ويطوف بالأقواص، ويحضر في كلّ مكان، ولذلك فهو يلتقي الصوفية عند ذكره: عليه السلام!!» (الصوفية في نظر الإسلام/169). كذلك قد أشار الباحث التركي أحمد باشار أوجاك إلى أنّ هذه الأسطورة مستوحاة من

إله إلاّ الله محمد رسول الله. ففعل كما أمره. ودام عليه فحصل له الفتح العظيم، والجذبة القيومية³⁶⁷.

لا شكّ في أنّ الإسلام بعيد كلّ البعد عن مثل هذه المهرطقة اليوغية؛ كما لا شكّ في أنّها شعبة من تمرينات رهبان البرهمية، أثارها الرجل كخطوة أولى لتمهيد السبيل إلى وضع ما أشارت له نفسه من تلك المصطلحات البرهمية، ودسّها في عقائد الإسلام (إذا صحّت الروايات إنّه الذي وضعها). وقد تعاقبت بعدها ألوانٌ متباينةٌ من أفانين الشعبة لرجال هذه الطائفة من أمثاله. فامتألت كُتُبُهُم بما إلى أن وجد المسلمون اليوم هذه الطائفة عقباً خطيرةً في وجه الإسلام، خاصّة على الساحة التركية حيث لا قبل لهم بها!

يطلق على هذا الرجل أسم «رئيس الخواجگان»³⁶⁸ أي رئيس شيوخ هذه الطريقة. ويقول النقشبنديون أنّ طريقتهم أخذت اسم «خواجگانیة» بدايةً من عهده حتى زمن محمد بهاء الدين البخاريّ المعروف عندهم بـ «شاه نقشبندي». وكلمة «الخواجگان» فارسية. وهي جمع خواجه «بتفخيم الخاء المفتوحة. وتُرسَم بالواو ولا تُقرأ، وإنّما هي علامة التفخيم»³⁶⁹.

ومن الحكايات الأسطورية التي نسجتها النقشبنديّة: ما جاء في موسوعة أعدّها طائفة تركية من هذه النحلة يطلق عليهم اسم «The Modernist Naacshabandis» أي النقشبنديين العصريين. ورد في موضع من موسوعتهم «أنّ عبد الخالق العجْدُوَائيّ كان يصلّي الصلوات الخمس في المسجد الحرام، ويرجع في لمح البصر إلى مدينة بخارى»³⁷⁰.

يبدو أنّ عدّة مصطلحات فارسية أخرى قد دخلت في قاموس النقشبنديّة بجهود هذا الرجل. منها كلمة «خانقاه». يقول في ذلك عبد المجيد بن محمد الخائيّ ضمن ترجمة عبد الخالق العجْدُوَائيّ:

367 المصدر السابق.

368 محمد بن سليمان البغداديّ، الحديقة الندية في الطريقة النقشبنديّة ص/ 50.

369 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائيّ، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ 111.

«ثم سافر إلى الشام، وأقام بها مدة أعوام، وبنى ثم خانقاه. وهي كلمة فارسية بسكون النون بمعنى الزاوية». ³⁷¹

هذا على الرغم من كل ما أسند إليه من حق وباطل فإنَّ عبدَ الخالقَ العُجْدُوَائِيَّ لم تثبت عنه أدنى إشارة توهم الرابطة والختمة الخواجكانية، وتعداد الذكر بالحصى، والقول بسلسلة الروحانيين؛ عدا ما أُخِدت في الطريقة من مصطلحات فارسية ترمز إلى الأركان التي أقامها لأول مرة.

إلا أنَّ إحداثه لهذه المصطلحات الغربية في لباس مناسك دينية يرهن بكل وضوح على أنَّ الطريقة النقشبندية قد أخذت من البداية تستقي من فلسفات وديانات وعقائد شتى، وأنها قد استمرت عبر تاريخها على هذا المنوال.

* الحلقة العاشرة من سلسلتهم.

جاء في موسوعة النقشبنديين العصرانيين، أنَّ عارفاً الرَبُوكَرِيَّ هو الحلقة العاشرة من سلسلتهم. إلا أنَّ التصانيف المعتمدة لتراجم الرجال خالية من هذا الاسم. وقد لا يتجاوز هذا الاسم عن شخصية خيالية. لأنَّ عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاوي الذي أفرغ طاقته في جمع معلومات حول رجال السلسلة، حتَّى هو بالذات عجز عن المعرفة بتاريخ ولادة هذا الرجل وتاريخ وفاته. فسطورهُ شاهدة على هذا العجز. لأنَّه لمَّا استهلَّ بجمع آيات الثناء والمدح على هذه الشخصية الغامضة فقال: «عارفٌ ظهر أنوارٌ صادقٍ فجَّره. فأشرقَتْ بعد الغروب شمس المعارف في عصره» ثمَّ قال «ولد سنة...» ³⁷² ولم يذكر شيئاً بعده؛ فلم يؤرِّخ لولادته ولا لموته. كما تؤكد كلماته الأخيرة على هذا الغموض؛ إذ يقول: «وله عدَّة خلفاء. ولم أقف لهم على أسماء». ³⁷³ فكيف به أن يقف على مناقبه وأحواله وأطوار حياته بالتفصيل إذا صح له وجود حقيقي ما دام لم يقف حتَّى على اسم من أسماء

371. عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاوي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/111.

372. المصدر السابق ص/119.

373. المصدر السابق ص/119.

خلفائه! فعلى الرغم من هذه المناقضة والتعارض، ومن هذا العجز الذي نلمسه من خلال كلمات الخائي وما تتوارى فيه هذه الشخصية من غموض، يحاول المؤلف ليجعل منه شخصية حقيقية فيقول: «أصله من بخارى. وكان مستغرقاً في تحصيل علم الظاهر.³⁷⁴ فلقي الشيخ مرة في السوق، قد اشترى حملاً وحمله³⁷⁵ فقال له أنا أحمل عنك. فأعطاه إياه. فلما وصل إلى بيته، التفت إليه وقال له تأتي بعد ساعة حتى آكل الطعام معك. فلما انصرف، لم يجد في قلبه ميلاً للعلم. بل وجد متصرفاً لخدمة الشيخ. فعاد إليه في الوقت، فتقبله. وقال له أنت ولدي. وعلمه الطريق. فاشتغل به وترك الذهاب إلى أستاذه. فكان كلما رآه أستاذه عنقه وشمته على ترك العلم، وأمره بالحضور إلى المدرسة وهو يقبل ولا يجيبه بشيء. فاتفق أن اقترب أستاذه ذات ليلة كذا وكذا من الكبائر. فلما التقيا في النهار أطال لسانه عليه على العادة. فقال له: - يا سيدي كنت في الليلة كذا وكذا من الفسق، والآن تمنعني عن طريق الحق. فخرج الأستاذ خجلاً عظيماً؛ وعلم مراتب الصوفية وأحوالهم. وحضر عند الشيخ عبد الخالق في الحال وتاب وأخذ طريقته وصار من المقبولين لديه».³⁷⁶

يحاول الخائي بهذه الكلمات ليؤكد على أن هذا الرجل كان يعلم الغيب ويطلع على عورات الناس في ظلمات الليل ويعلم ما يصنعون وهم في بيوتهم. غير أن الخائي غفل عما حطّ من شأن هذا الرجل عند ما قال: «فلما انصرف لم يجد في قلبه ميلاً للعلم (...). وترك الذهاب إلى أستاذه».³⁷⁷ أى أعرض عن دراسة العلم وانحماك في تقليد الصوفية.

كانت هذه خلاصة من قصة الحلقة العاشرة من سلسلة النقشبندية على لسانهم بالذات!

* الحلقة الحادية عشرة من السلسلة النقشبندية.

374 يطلقون اسم «علم الظاهر» على العلوم المبنية من القرآن الكريم والسنة النبوية. وإنما يستعملون هذه التسمية على سبيل الإستحسان هذه العلوم الشريفة وأهلها. وترهن على هذا، تسميتهم للفقهاء والحذّين والمفسرين بـ«علماء الرسوم».

لأنهم يدعون علماً آخر يستونونه «علم الباطن» أو «العلم اللدني». وهذا تدخل الطريقة النقشبندية في عداد «الفرق الباطنية».

375 من غرائب هذه الطريقة أن يُروى «أن شيخاً من شيوخهم خرج إلى السوق واشترى حملاً وحمله...» لأن كل شيخ من شيوخهم اليوم يتمتع بشهرة وجاه يحسده الملوك عليهما. وهذا إلى درجة: إنه لو أراد أن يخرج يمثل هذه الحاجة إلى السوق لاصطدم بمقاومة عيفة من رجال حاشيته المقربين. وربما هدّته بطانته دون أن يشعر بهذا النزاع أحد من مرئيه العاديين فضلاً عن غيرهم. وذلك خوفاً على زوال جاهه وشهرته. لأن عظمة شيخهم ضماناً لمصالحهم، يوقرهم إمكانيات يستحيل عليهم أن يحظروا شيئاً منها بطرق عادية. وهذا يجعلهم أن يحرصوا على محافظة هذه العظمة؛ بل وأن يبدلوا ما لديهم من كل وسيلة لإشاعة صيته. لأن مصالحهم تنمو وترداد كلما يتسع نطاق هيمنته، وتتقلص بتقلصه. أما إذا كان قد تأزم الأوتون من أهل النواصع، كما ينقلون في تراجمهم؛ فقد أصبح المعاصرون منهم على خلاف أسلافهم بما يتمتعون من الرخاء والعيش الرغيد؛ وما يملكون من ثروات طائلة، وأموال مدخرة وقصور وحشم وخدم وشهرة يغطيها الملوك. وهذا من أكبر البراهين على تناقضهم مع أنفسهم.

376 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/118.

377 المصدر السابق.

ورد في مصادرهم أنّ الحلقة الحادية عشرة من سلسلتهم هو محمود الإنجيرفغنوي. و«إنجيرفغني» قرية من ضواحي مدينة بخارى.

يستهلّ عبد المجيد بن محمد الخاني ترجمته بالمدايح كعاداته في ترجمة سائر شيوخ الطريقة. وهذه صيغة من كلماته المسجّعة:

«مرشدٌ تفجّرت من بين أصابعه مياهُ الحكمة، أنعم الله تعالى بوجوده على قلوب هذه الأمة (...). فهو أعظم نعمة وأعمّ رحمة».³⁷⁸

ثم يقول «كان مع جلالة قدره يشتغل بصناعة البناء. فلما أقيم مقام سيّدنا الشيخ عارف، انقطع لهداية الخلق إلى الحق، وقد عدل إلى الذكر الجهريّ منذ مرض أستاذه لمقتضى خُلُق الوقت والخلق».³⁷⁹

فعلى الرغم من هذا التنطّع الذي استعرضه الخانيّ لينوّه بمدى تواضع هذا الشيخ الذي «كان مع جلالة قدره يشتغل بصناعة البناء»؛ على الرغم من هذه المحاولة، لا يكاد يقننّ أيّ ذي عقل، أنّ الفغنويّ كانت له مكانة مرموقة، وأنّه كان من العلماء فترك منصّة العلم واشتغل بصناعة البناء تواضعاً، أو لأيّ سبب معقول!

أمّا الذكر الجهريّ الذي يجهله كثيرٌ من الناس، فيناسب هنا وبهذا المقتضى أن يُسلطّ الضوء على هذا النوع من الذكر بأنّه مخالف للكتاب والسنة. لأنّهم يجتمعون في أوقات معيّنة، ويقومون بحلقات استعراضية في التكايا، يرفعون أصواتهم ويترنّمون بترديد لفظة الجلال أو كلمة التوحيد بإيقاعات ونغمات خاصّة؛ يُشرفُ عليهم شيخهم أو من ينوب عنه، فيوجههم بالانتقال من صيغة إلى أخرى، فيستمرّ الذكر على هذا المنوال مدّة غير قصيرة؛ وقد يُعشى على بعضهم بدافع ثوران العاطفة، أو بسبب تراكم مادّة الأكسجين في الأوعية الدموية نتيجة السرعة في توالي الشهيق والزفير.

378 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الخدائق الوردية في حقائق أجلاء الفقهية ص/119.

379 المصدر السابق ص/119.

ينحدر الفغنويّ من أصلٍ تركيٍّ كسائر شيوخ هذه الطريقة الذين برزوا في منطقة ماوراء النهر المعروفة بـ «بلاد تركستان».

قيل إنّه عاش في مدينة بُخارى وضواحيها؛ ومات عام 715 من الهجرة. لم يؤرّخ له أحد من مشاهير المترجمين وعلماء التاريخ والأنساب. وإنما وردت كلمات وجيزة حوله ضمن تراجم النقشبنديّين.

* الحلقة الثانية عشرة من السلسلة النقشبندية.

هو عليّ الرامتيّ المعروف بـ «خواجه عزيزان». ولد في قرية «رامتن» التي هي على بُعد فرسخين من مدينة بُخارى. يدلّ ذلك على أنّه تركيّ الأصل. لم يقف الباحثون على تاريخ ولادته، ولا على معلومات واسعة عن حياته؛ سوى ما قال بعضهم إنّه كان نساّجًا، عاش مدةً طويلةً في هذه المنطقة ومات فيها عام 721 أو 728 من الهجرة. قيل وافته المنية وهو ابن مائة وثلاثين سنة!

اختلفت الآراء فيما إذا كان عليّ الرامتي من أهل التصوّف أم من أهل العلم. يبدو هذا الخلاف من مقولةٍ شعريةٍ يردّها النقشبنديّون، وهي قولهم: لَوْ لِحَالٍ لَمْ يَكُنْ فَضْلٌ عَلَيَّ قَالَ لَمَّا * كَانِ أَعْيَانُ بُخَارَى عَبَدَ نَسَاجِ عَلِيّ.

وعلى الرغم من الغموض الذي يوارى حياة هذا الرجل، فقد وردت مقولات عنه مضيئة تبرهن على سلامة اعتقاده، وعسى أن تكون الرواية صحيحةً.

تُنسَبُ إليه رسالةٌ مسجّلةٌ تحت رقم 2/265 بمكتبة السليمانية - خزانة طاهر آغا - في إسطنبول. ربما ليس من كلامه جميع ما نُقِلَ عنه، ما دامت شخصيته لا تتبلور بالدلائل القاطعة. كما يغلب أن يكون النقشبنديّون قد طمعوا في نسبته إلى قائمة الروحانيين بسبب ما كان له من السمعة الحسنة في عهده مع عدم علاقته بهم؛ والله أعلم بالصواب.

هذا ولم يرد عنه أنّه تكلم بأدنى شيء عن الرابطة، ولا عن الختمة الخوّاجكائية، ولا عن تعداد الذكر بالحصى، ولا عن السلسلة النقشبندية.

* الحلقة الثالثة عشرة من السلسلة النقشبندية.

كان للرامتني خلفاء أربعة. اسم كلّ منهم محمد. وكان أشهرهم محمد بابا الذي حلّ مكان شيخه وأصبح هو الحلقة الثالثة عشرة لهذه السلسلة على ما جاء في الحدائق الوردية لعبد المجيد بن محمد الخاني.

ولد ونشأ محمد بابا في نفس المنطقة وهو أيضاً تركي الأصل، من سكان قرية «سمّاس» الواقعة بقرب مدينة بخارى. وهي على مسافة ثلاثة أميال منها، وعلى ميل واحد من قرية «رامتن» التي كانت مقرّ شيخه. ولهذا يسمّى صاحب الترجمة محمداً بابا السمّاسي.

وكلمة «بابا» يعني «الأب» في اللغة التركية. ومن عادة الأتراك أنّهم ينادون كبار السن بهذه الكلمة على سبيل الاحترام. كما يُطلقونها على بعض رجال الصوفية، وعلى بعض أصحاب القبور الذين تقدّسهم العامة، ويتبرّك غالب الناس بأضرحتهم في تركيا؛ لاعتقادهم أنّهم أولياء الله وخاصّته. فيبدو أنّ الشيخ محمداً، هذا الذي يعدّه النقشبنديون الحلقة الثالثة عشرة لسلسلتهم هو أيضاً من أولئك الباباوات القديسين على غرار عادة النصارى الذين ينادون أوليائهم بهذا العنوان مما يؤكّد أنّ الطريقة النقشبندية قد اقتبست أيضاً من المسيحية قليلاً أو كثيراً؛ وإن لم يكن ذلك بقدر ما استقت من البرهمية والبوذية من أشكال المناسك والتعبّد.

هذا ومن الغريب أن عبد المجيد بن محمد الخاني قد أراد أن يؤرّخ لولادة محمد بابا ولوفاته، فقال، «ولد سنة...»؛ ثم قال «توفي سنة...»³⁸⁰ ولم يسجل بعدهما شيئاً، مما يدلّ على أنّه لم يتمكّن من الوقوف على تفاصيل حياته، وأنّ هذا الاسم قد يكون علماً على شخصية خيالية لا حقيقة لها. لأنّ وثائقهم وحتى كتاب الرشحات الذي هو أقدم مصادر النقشبنديين لا يشتمل على شيء يستحق الذكر من أخباره. كما لم يرد عنه أيضاً أنّه تعبّد على أساليب النقشبندية، أو تكلم بشيء عن أشكال عباداتهم

كالرّابطة، والختمة الحُوجَانِيَّة، والتوجُّه، وتعدادِ أَلْفَاظِ الْوَرْدِ بِالْحَصَى. قيل تُوِّفِيَ السَّمَاسِيُّ عام 755 من الهجرة بالقرية نفسها.

* الحلقة الرابعة عشرة من السلسلة النقشبنديّة.

ورد فيما كتبه النقشبنديّون أنّ الحلقة الرابعة عشرة من سلسلتهم هو رجلٌ اسمه كُلال بن حمزة. ويزعمون أنّه ينحدر من سلالة الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ وأنّ أباه حمزة هو الذي غادر موطنه الأصليّ؛ إذ كان مقيمًا بالمدينة المنورة؛ فقصده بلاد ماوراء النهر، حتّى وصل منطقة بُخَارَى، فأقام هناك بقريّة اسمها أَفْشَنَه. إلّا أنّ الصُّبَابَ الَّذِي يغمّر حياة رجال هذه السلسلة في تلك الحقبة، يُخَيِّمُ على هذه الأسرة أيضًا؛ فلم تكد تتبلور صورتها. فالَّذِي يتناقله أتباع هذه الطائفة عن كُلال بن حمزة، ليس إلّا لفيّفاً من الأساطير. ومن جملة هذه الأَقاصيص الّتي وردت في موسوعة لهم باللّغة التركيّة، حكاية غريبة حول تسمية هذا الشيخ؛ وهي: « أنّ رجلاً من الصالحين نزل ضيفاً عند أبيه حمزة، إذ هو في بطن أمه. فبشّره بغلام ينال شهرةً عظيمةً، وأوصاه أن يسمّيه كُلالاً».

غير أنّ هذه الكلمة عجميّة تقابل «صانع القُحْف الخرفيّة» في اللّغة العربيّة. وهذا الأمر يثير الشكوك في جلّ ما نُقِلَ عن صاحب الترجمة. منها، أنّه اشتغل بصناعة القُحْف. وهذا استدلال باطل. لأنّه سُمِّيَ بهذا الاسم وهو وليد لا يعلم شيئاً من هذه الدنيا؛ لا من قحوفها ولا من نُحْفِهَا. ومنها، أنّ شيوخ النقشبنديّة يأنفون أن يمارسوا حرفةً من حرف العامّة استنكافاً. وذلك للحفاظ على مكانتهم، وشهرتهم، وهيبتهم بين الناس.

إنّ النقشبنديّين إمّا يقصدون بمثل هذه الأَقصوصة أن يروّجوا الاعتقاد بين الناس بعلم الغيب لساداتهم، فلا يكادون ينفكّون من هذه النزعة كأهمّ جبلوا على ذلك. ويتوزّطون هكذا في تناقضاتٍ كثيرة. منها أنّ مفهوم الكرامة تكاد تنحصر عندهم في خرق العادة. كالعلم بالغيب، وطّيّ الزمان والمكان، والهيمنة على نظام الكون.

ينسب النقشبندیون صفة «الأمير» إلى كلال بن حمزة في مصادرهم. ولا نجد لهذا الوصف مناسبةً ملحّةً. إذ لم يسبق أنه تولى إمارةً أو مهمّةً سياسيةً أو إداريةً. سوى أنه كان في شبابه «اشتغل بفنّ المصارعة فكان يجتمع عليه أرباب الشجاعة وأولو المعاركة والنظارة. فاتفق ذات يوم أنّ رجلاً من الواقفين خطر بباله أنّ هذا سيّد شريفٍ. فكيف يشتغل بالمصارعة، ويسلك سبيل أهل البطالة! فلم يلبث أنّ غلب عليه النوم؛ فرأى في منامه أنّ القيامة قد قامت، وأنه وقع في وحلٍ عظيمٍ؛ فغرق فيه إلى صدره، واضطرب اضطراباً عظيماً؛ وفتح فرعاً كبيراً. فأتى إليه السيّد الأمير وأنقذه من هذه الورطة. ثمّ أفاق؛ فالتفت إليه السيّد الأمير وقال له:»

«- أرايت همّي وعلمت ما معنى المصارعة؟!»³⁸¹

هكذا قد التفت حول الأمير كلال بن حمزة أحابيلٌ من غرائب الحكايات والأقاويل، ولا يمكن تمييز صحيحها من باطلها.

وقد تكون تسميته بـ «الأمير» بسبب العلاقات التي جرت بينه وبين تيمورلنك. إذ ورد في موسوعة النقشبندیين: «أن الأمير كلال بن حمزة، بعث رسوله الشيخ منصوراً إلى الملك تيمورلنك، يجرّضه على استيلاء بلاد خوارزم. فامتثل تيمور لأمره فوراً؛ فانطلق زاحفاً بجيشه على منطقة خوارزم. ونجا بذلك من خطة اغتيالٍ كان قد دبّرها أعداؤه. إذ أنّهم وصلوا إلى معسكره وقد غادره. فلم يتمكّنوا منه».³⁸²

يستدلّ النقشبندیون الأتراك بهذه القصة أنّ الملك تيمور عرف أنه كانت نجاته بفضل كلال بن حمزة، فيعدّونها من جملة كراماته. ويزعمون أنّ الملك تيمور قد أراد أن ينصبه أميراً؛ فلم يوافقه استعفاً وزهداً في الدنيا وحطامها. وعلى الرغم من كلّ هذه الحكايات، فإنّ كلال بن حمزة لم يرد عنه أنه تعبد على أساليب النقشبندیين؛ أو تكلم عن آدابهم ومصطلحاتهم؛ لم يرد عنه ذلك حتّى في الوثائق التي خلفها شيوخ هذه الطائفة.

381 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحان، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/123.

* الحلقة الخامسة عشرة من السلسلة النقشبنديّة.

إنّ هذه الحلقة يمثّلها شخص يعظّمه النقشبنديّون، ويصفونه بأسمى درجات الكمال؛ ويعتقدون فيه أنّه ترقّى إلى أعلى مدارج الولاية وكاد أن يكون نبياً! وينسبون إليه طريقتهم ويتسابقون في الثناء عليه.

هذا الرجل هو محمّد بهاء الدين بن محمّد بن محمّد البُخاريّ المعروف بين هذه الجماعة بلقب «شاه نقشبند» أو «خواجه نقشبند».

يتفنّن عبد الجيد الخانيّ في مدحه وتعظيمه بعباراته المسجّعة، فيقول:

«بحر من العرفان لا ساحل له؛ نسجت أمواج أمواه العلوم الربانيّة حلله؛ وفاض على العالمين بحر برّه؛ فأروى بأرواح إمداده جميع الكون بحره وبرّه».

يسترسل المؤلف على هذا النمط إلى أن يقول:

«إرتضع ثدي التصرّفات الغوثية وهو في المههد صبيّاً؛ وتصلّع من رحيق مخنوم العلوم الختميّة بأكواب الإريثة؛ فلو لم تُختم النبوة لكان نبياً».³⁸³

إنّ هذا الأسلوب الغريب المتكلّف، لغنيّ عن أيّ تفسير أو تعليق يُراد به تعريف ما يعتقدّه الشخص النقشبنديّ في هذا الرجل خاصّة، وفي جميع مشائخه عامّةً. وهذا من أقوى البراهين في الوقت ذاته على مدى حظّ النقشبنديّين من الدين والأخلاق والإيمان والإسلام.

على الرغم من أنّ النقشبنديّين قد بالغوا في وصفه ومدحه وكراماته ومناقبه بأقصى جهودهم، فإنّ ترجمة هذا الرجل لم يرد في المصادر المعتمدة وكُتِبَ ثقة الباحثين والمؤرّخين. وهذا يثير الشكوك في

صحة ما نُقِلَ حول شخصيته من كلِّ الوجوه. وإثما جميع ما نُقِلَ إلينا عن حياته من الأقاويل والأقاصيص فهو مقتبسٌ من كتاب الرشحات لرجلٍ حشويٍّ منهم لم يعاصره.

لا يخفى أنّ مشاهير الرجال من سائر طبقات البشر على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم ومعتقداتهم وثقافتهم، قد وردت أسماؤهم في كتب الوفيات والتراجم والأنساب والتواريخ. ولم يخلُ عصرٌ ممن أَرخ لأصحاب الشهرة مهما كانت اتجاهاتهم ومعتقداتهم ومواقفهم. لذا من الغريب أن يضيق تاريخُ البشر الذي قد حوى آفاقاً مؤلفةً من أسماء الأنبياء والعلماء والأدباء والفتاحين والرواد والمصلحين والعباقرة والثوار والطغاة؛ وحتى المشهورين من أهل السفه والمجون والخلاعة والبخل والتطفل؛ من الغريب جداً أن يضيق تاريخ البشر عن استيعاب مناقب هذا الرجل الذي بذل النقشبنديون ما عندهم من طاقات وجهود في الحديث عن عظمته وجلالة قدره. وذلك لإذاعة صيته وإشاعة اسمه وشهرته الكاذبة المُختلقة.

فقد قال عبد المجيد بن محمد الخانيّ في علو منزلته وشأنه ومكانته:

«فَأَعْظَمُ بِهِ مِنْ مَجْدٍ خَفَقَ قَلْبَ الْخَافِقِينَ فَرِحًا بِهِ؛ وَأَصْبَحَتْ أَكْأَسْرَةُ الْمُلُوكِ وَقَوْفًا فِي رِحَابِهِ؛ وَمَلَأَ صَيْتَ إِرْشَادِهِ الْمَلَأَ؛ فَلَا وَرَيْكَ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا اسْتَمَدَّ مِنْ إِمْدَادِهِ حَتَّى وَحُوشَ الْفَلَا. فَهُوَ الْغَوْثُ الْأَعْظَمُ، وَعَقْدَ جَيْدِ الْمَعَارِفِ الْأَنْظَمِ، أَنْزَحَتْ بِأَنْوَارِ هِدَايَتِهِ أَعْيَانَ الْأَغْيَارِ، وَعَادَتْ الْأَشْرَارُ بِبِرْكَةِ أَسْرَارِهِ مِنْ أَخْيَارِ الْأَعْيَانِ وَأَعْيَانِ الْخْيَارِ»³⁸⁴

إلى هذه الدرجة يببالغ الخانيّ في إجلاله، ويتكلّف بهذا الأسلوب المزخرف لغرض لا سند له في إثباته، إذ لا تقوم دعائته هذه على أساس من الحقيقة؛ ولا أصل لما يدّعيه بملء شذقيه؛ ولا حتى لكلمةٍ من مقاله. لأنّ خواجه نقشبند، لا ذكر له في طبقات رجال العلم. ويُستَبَعَدُ أن يكون قد اشتهر في حياته. ولربما كان درويشاً مسكيناً يتصدّق عليه الناس؛ فعاش زمنًا في تلك المناطق بين قبائل الأتراك يتكفّف من هذا وذاك؛ ثمّ رُوِّجَتْ حول اسمه حكاياتٌ نسجها القصاصون من أمثال الأسرة الخانيّة للوصول إلى مآربهم من جمع المال والثروات، وازدياد الشهرة والجاه، واستغلال الضمائر؛ واستمالة القلوب؛ فتطوّرت الأقاويل؛ وتضخّمت الروايات مع الزمان؛ إلى أن تكوّنت من هذه الحكايات قاعدةٌ

بُنِيَ عليها اختلاق شخصيات أسطورية وأشكال من عقائد غريبة، ومناسك متباينة تختلف عن شعائر الإسلام، سُمِّيَتْ أخيراً بـ «الطريقة النقشبندية». كما يعترف معتقوها بالذات أن هذه التسمية وقعت بعد محمد البخاري المعروف بـ «شاه نقشبند».³⁸⁵

إن شخصية محمد بهاء الدين البخاري أيضاً من خلال ما ورد عنه بقلم أتباعه لهي من أقوى الدلائل على مدى بُعد هذه الطريقة عن حدود الإسلام.

وربما كان خواجه نقشبند رجلاً تقياً صالحاً ولكن أتباعه اختلقوا له صورة غير التي كان عليها، فأشاعوها بين جموع البسطاء لإكثار العدد - وهو مطلب كل منظمة -؛ فظهرت شخصيته في صفات رجل مشعوذ، مبتدع ومتوغل في أنواع الضلالات. إذ ينقل عنه الخاني أنه قال:

«أمربي (أي أمربي شيخي) أن أشتغل بخدمه كلاب هذه الحضرة بالصدق والخضوع، وأطلب منهم الإمداد. وقال لي إنك ستصل إلى كلب منهم تنال بخدمته سعادة عظيمة، فاغتمت نعمة هذه الخدمة ولم آل جهداً بأدائها حسب إشارته، ورغبةً ببشارته؛ حتى وصلت مرةً إلى كلب، فحصل لي من لقائه أعظم حال، فوقفت بين يديه واستولى عليّ بكاءً شديداً، فاستلقى في الحال على ظهره، ورفع قوائمه الأربع نحو السماء. فسمعت له صوتاً حزيناً، وتأوّهًا وحنيناً؛ فرفعت يدي تواضعاً وانكساراً، وجعلت أقول آمين، حتى سكت وانقلب».³⁸⁶

إن هذه القصة إذا صحّت عنه فلا تدلّ إلا على ضلالته وفرط شقاوته وخروجه عن جادة الحق. لأن موقفه من الكلب بالصورة المذكورة لا تدلّ على امتثاله بما ورد في السنّة النبوية من الشفقة على خلق الله؛ بل كان موقف احترام وتوقير للكلب واستمداد منه. وهذا لا يتفق مع روح الإسلام. بل هو من تقاليد مجوس الهند. فإنهم يعبدون الدواب. ولذلك قد حرّموا أكل اللحم على أنفسهم. فاقصر

385 راجع المصادر التالية:

* محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة الندية ص/ 22.

* محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 12.

* عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 8-9.

386 المصدر السابق ص/ 129، 130.

النقشبنديون الأولون على تعظيم الكلاب أسوة بهم دون تحريم اللحم. إلا أن المتأخرين من هذه الطائفة قد تصرفوا في تعاليم أسلافهم فغيروا منها الكثير

أما الإمداد والاستمداد، فإتّهما من جملة معتقداتهم الهامة وحلقة من الحلقات الأساسية لضوابط الإيمان في الديانة النقشبندية. يتمثل هذا المبدأ الروحاني في مفهومهم بوجود قدرة إلهية فائقة يمتاز بها أولياؤهم؛ يفرجون بها عن المغمومين والمكروبين والمقهورين بنواب الدهر من مريديهم؛ ويتصرفون بها في حكم الله وملكه - على حدّ اعتقادهم -.

إذا فكيف برجل يطلب الإمداد من كلبٍ وقد يراه ولياً من أولياء الله نائباً عنه بالتصرف؛ أو حتى مخلوقاً في منزلة الإنسان الذي كرمه الله وفضّله على جميع الخلائق، وأنعم عليه بالإيمان والعلم والعمل الصالح؛ فكيف برجل هذه حاله حتى يستحقّ الثناء أو يدخل في عداد المؤمنين؟!

ثم ينقل الخاني في موضع آخر من ترجمته أنه «دعاه بعض أصحابه في بخارى. فلما أذن للمغرب قال للمولى نجم الدين دادرؤك:

«- أتمثل كل ما أمرك؟ قال: نعم. قال: فان أمرتك بالسرقة تفعلها؟ قال: لا. قال: ولم؟! قال: لأنّ حقوق الله تكفرها التوبة، وهذه من حقوق العباد. فقال: إن لم تتمثل أمرنا فلا تصحبنا! ففزع المولى نجم الدين فزعاً شديداً، وضافت عليه الأرض بما رحبت، وأظهر التوبة والندم، وعزم على أن لا يعصيه أمراً».³⁸⁷

هذا هو «الغوث الأعظم» عند النقشبنديين؛ «فلولم تُختم النبوة لكان نبياً» (في اعتقادهم). يفرض على مریده أن لا يعصيه أمراً، وإن أمره بالسرقة! وهنا يتبين بكمال الوضوح أنّ شيخ الطريقة عند هذه الطائفة «هو وكيل الله ونائبه في ملكه»؛ له أن يتصرف بما يشاء، وله أن يحلّ الحرام ويحرّم الحلال. لا يشكّون من ذلك قيد نملة وإن كتموه ظاهراً. فإنّ التقيّة عند خاصّتهم أشد من تقيّة الرافضة!.

ولا يُسْتَعْرَبُ كما لو يتأول النقشبنديون مفهوم السرقة في هذه القصة، فيقولون قِيلاً: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً صدر منه أن تصدى بجماعة من أصحابه للاستيلاء على قافلة أبي سفيان التجارية. وذلك محاولة لصوصية من قبيل السرقة لولا أن كانت بوحى من الله تصديقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ..} ³⁸⁸ إذن فهي بادرة تحوّلت من عملية غصب إلى عملية جهادية؛ أى من معصية إلى طاعة بمجرد توجيهه من الله! فالشيوخ أيضاً لا يتصرفون إلا بتوجيه من الله.

ليس من الغريب أصلاً لو تصدى أحدهم بمثل هذا الدفاع المفترض. إذ أنّ باب التأويل عندهم مفتوح على مصراعيه، وأنّ تأويلاتهم لا تقلّ عن هذه الفرضية الواهية بطلاناً.

ورد في مصادر النقشبندية أنّ أركان طريقتهم الثمانية التي كان قد وضعها عبد الخالق العجذواي،³⁸⁹ أضاف إليها خواجه نقشبند ثلاثة أخرى فعدت بذلك أحد عشر ركناً.

كانت هذه خلاصة لما سجّله النقشبنديون حول هذا الرجل وما اعتقدوا فيه وما قالوا عنه بروايات أتباعه. فالذنب على من نقل واعتقد، إذا كان هو بريئاً عما نسب إليه {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} ³⁸⁹

أمّا وضعه الاجتماعي فقد ورد في موسوعة للنقشبنديين أنّه من أبناء الأسرة الهاشمية؛ وأنّه يتصل نسبه بالحسين بن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنهما. فقد يكون هذا من أهمّ الأسباب التي استغلها دعاة النقشبندية في نشر مذهبهم بين الناس. سواء أكانت هذه النسبة صحيحة أم لا، فإنّ كثيراً من الناس طالما اتخذوا الإنتساب إلى البيت الهاشمي وسيلةً لاستغلال ضمائر الناس في تحقيق المصالح عبّر القرون؛ وخاصةً في المناطق التي عمّ فيها الجهل والبدع وانتشر فيها المغرضون وأرباب الحيل يدعون الإنتساب إلى الأسرة الهاشمية لاستمالة قلوب البسطاء والرعاع. يبدو أنّ نزعة الإنتساب إلى الهاشميين قد شاعت بعد أن عرفت هذه الأسرة بالسيادة الخاصة وأصبح الإعتزاز بالآباء المشهورين من العادة. ويشير إلى ذلك ما ورد في مقدمة الناشر للكتاب المعروف «أنساب الأشراف» تأليف أحمد بن يحيى

388 سورة الأفال/7

389 سورة السجدة/25

البلاذري أنه «يطلق الشريف في اللغة على الرجل الماجد، أو من كان كريم الآباء. ثم أُطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم شاملاً العلويين والجعفرين والعباسيين. ومن الناس مَنْ قصّره على ذرية الحسن والحسين على أنّ التخصيصَ بآل البيت وبخاصّةٍ نسل علي، لم يشتهر إلا في القرن الرابع الهجريّ؛ ويغلب أنه كان في أواخره».

فما أكثر الأدعياء من أمثال ميمون بن ديسان القُدّاح اليهوديّ الذي كان يدّعي أنه هاشميّ، فما أكثر أمثاله بين الأعجم وفي البلاد التي انتشرت فيها الطرقُ الصوفيّة، وازدادت فيها نشاطاتُ السحرة والمشعوذين!

أمّا جميع ما نُقل إلينا من مناقب خواجه نقشبند وأقواله، فإنه لا يخلو عن الشكّ في النسبة إليه. ولم يثبت منه شيء بالدليل القاطع أنه من كلامه، مما يغلب أنه كان أمياً. يدلّ على ذلك قيامه بخدمة أمير اسمه خليل آتا مدة ستّ سنين بعيداً عن العلم وأهله؛ حتّى آل ملكه إلى الزوال.

أمّا نسبته إلى البيت الهاشميّ، فمشكوك فيه أيضاً. لأنّ أبناء هذه الأسرة، قلّ من يجهل منهم اللغة العربيّة. بينما بلغنا «أنّ جدّته قد بشرته بنصيبٍ يناله من شيوخ التُّرك»، حين فسّرت له ما قصّ عليها من منامه. وهذا من قبيل الاعتزاز بالعشيرة. ولا يعتر الإنسان إلا بقومه؛ كما ينطبق نفس الأمر على شيخه كلال بن حمزة أيضاً.

وهنا تعترضنا عبّر هذا التحليل موجّه من التعارض بين مواقف النقشبنديين وأقوالهم ورواياتهم، سوف نتطرّق إليها في بابها بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

هذا، ومع أنّ النقشبنديين لم يتوانوا عن نقل كثيرٍ من حكايات أسطورية بعنوان الكرامات ضمن ترجمة خواجه محمد البخاريّ، ولكنهم قد أمسكوا عن تسجيل أدنى إشارة تدل على أنه تكلم عن الرابطة، أو الختمة الحوّاجكانيّة، أو السلسلة، أو عدّ ألفاظ الورد بالحصيّ، إلا ما سبق إليه الكلام أنّ المصطلحات الثلاثة التي أضيفت إلى أركان الطريقة النقشبندية، هو الذي وضعها على ما ورد في مصادرهم. وهي «الوقوف الزمانيّ» و«الوقوف العدديّ» و«الوقوف القلبيّ»³⁹⁰

* الحلقة السادسة عشرة من السلسلة النقشبنديّة.

جاء فيما كتبه النقشبنديّون، أنّ هذه الحلقة يمثّلها رجل خوارزميٌّ من سگان بُخاريٍّ اسمه علاء الدين العطار.

يغلب أنّه تركيٌّ الأصل كسائر الروحانيّين الذين ظهرُوا في هذه المنطقة. إلاّ أنّ حياته وشخصيته الحقيقية غير مذكورة في تراجم الرجال. وعلى الرغم مما يزعمه المتأخرون من شيوخ هذه الطائفة أنّه «اختار التجردَ لتحصيل العلوم في مدارس بُخارى حتى نبغ في جميع الفنون وبلغ منها فوق ما تتعلّق به الظنون...»³⁹¹ إلاّ أنّ هذه الرواية لا سند لها، كما تبدو في الوقت ذاته أنّها بعيدة عن الحقيقة. لأنّ علاء الدين العطار، لو كان له أقلّ نصيب من العلم لظهرت ثمراته، وَلَوْصَلَتْ إلينا ضمن إنتاج مَنْ عاصره من العلماء كالشريف الجرجانيّ الذي نقل عنه نور الدين عبد الرحمن الجامي أنّه قال:

«لما اتصلتُ بالشيخ زين الدين عليّ كلال، خلصتُ من الرفض؛ ولما وصلتُ إلى الشيخ علاء الدين العطار عرفتُ الله تعالى».³⁹²

وقد يسأل سائل: بأنّ عالماً مثل الجرجانيّ يعترف بقدر هذا الرجل، ويقول «لما وصلتُ إلى الشيخ علاء الدين العطار عرفتُ الله»، مع أنّ هذه الكلمة لا يجرؤ على التّفوّه بها إلاّ الزنادقة؛ لأنّهم يعنون بها التعرّف إلى ذات الله؛ فكيف يجوز لنا أن لا نشكّ في أمر الجرجانيّ؟

قلتُ: أقرّ الجرجانيّ أولاً على نفسه بهذه الكلمات الواردة عنه بالذات أنّه إنّما خلص من الرفض لما اتّصل بالشيخ زين الدين عليّ كلال. ومعنى ذلك أن غزارة علمه - التي تشهد عليها تصانيفه القيمة - لم تُغن عنه شيئاً، فلم تخلص به من ضلالة الرفض، ولكنّه خلص بعد ما اتّصل بالشيخ زين الدين! لقد تظهر عقلية الجرجانيّ وطبيعته العاطفية بكمال الوضوح من خلال هذا التحليل. فهو كما

391 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحان، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ 144.

392 المصدر السابق ص/ 150.

393 خيروالدين زركلي، الأعلام، ج. 5/ 7. دار العلم للملايين الطبعة 11. بيروت - 1995م.

قيل «علمه أكثر من عقله» فكيف إذن نضعه موضع ثقة وهو يأتي باعتراف أشد وبالاً عليه إذ يقول «لما وصلتُ إلى الشيخ علاء الدين عرفتُ الله تعالى. وقد مرَّ أن شَرَحْنَا مفهومَ «المعرفة بالله» في عقيدة الصوفيّة.³⁹⁴

كان علاء الدين العطار من أبناء رجلٍ غنيٍّ في مدينة بُخَارَى. «لما توفّي والده ترك ثلاثة أنجال. خرج من ميراثه لأخويه.»³⁹⁵ واختار أن يدخل غمار التصوف بإيعاز من محمد بهاء الدين البخاري. وأعرض عن ملازمة العلم كعديدٍ من رجال هذه السلسلة.

طالما بذل النقشبنديون جهودهم ليحشدوا من أخبار قدمائهم في طيات ما قد صنفوه. ولكنهم لم يتوصلوا إلى معرفة تفصيلية عن حياة عددٍ كبيرٍ منهم. لأنّ شيوخهم الذين عاشوا قبل أحمد الفاروقي السرهندي، في الحقيقة لم يكونوا من ذوي الجاه والشهرة في العهد والمنطقة اللتين قضوا فيهما حياتهم. بل كلّ ما نُسب إليهم من الفضل والكرامة والعلم والزهد، إنّما افترضه واختلقه ذوو الأهواء من أخلافهم الذين طمعوا في الاشتهار بعد ما علموا أنّهم لن يتمكنوا من ذلك إلاّ بالانتساب إلى من يُوقّره الناسُ. فنسجوا حكاياتٍ أسطوريةً حول أسماء بعض الدراويش الذين كانوا قد ذهبوا مع الريح، ولم يعلم أحد أين وقعت عظامهم ورفاتهم. ثم افترضوا لهم أضرحةً فبنوا عليها قباباً ضخمةً هابت منها الناس وعظمتها وقدسنتها.

ومن جملة هؤلاء الدراويش، علاء الدين العطار. فإنّ الحكايات المنسوجة حوله، لا يتسلى بها العاقل ولا يقتنع بها العالم. ومع ذلك لم يرد ضمن هذه الترجمة أدنى إشارة إلى أنّ علاء الدين العطار قد تعبد على أسلوبهم أو تكلم عن مصطلحاتهم وتعاليمهم وآدابهم.

* الحلقة السابعة عشرة من سلسلتهم.

هذه الحلقة يمثلها رجل اسمه يعقوب بن عثمان بن محمود الجرجي.

394 راجع مفهوم «المعرفة بالله» في باب «مفاهيم ومصطلحات ومعتقدات أخرى عند هذه الطائفة» من الفصل الثالث.

395 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحايي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 150.

ولد الجرجي بقرب غزني. وهي مدينة من مدن أفغانستان. تقع بين قندهار وكابل. وتوفي في قرية هلفنو في تلك المناطق عام 851. من الهجرة. وأما تاريخ ولادته، فلم يتمكن أحد من إثباته حتى النقشبنديون أنفسهم. إلا أن من بين رجال هذه الطائفة في تلك الحقبة لعل أبرز شخصية جرى قلمُ البحث في أحواله هي شخصية يعقوب الجرجي لأسباب هامة.

منها، قيل إنه درس وتعلم «ورحل لتحصيل العلوم إلى هراة، ثم إلى مصر المحروسة، وتلقى العلوم الشرعية والعقلية عن علمائها. ومن أعظمهم علامة عصره الشيخ شهاب الدين الشيرازي»³⁹⁶

هكذا ينقل عبد المجيد الخاني في ترجمته. ومهما كانت هذه الأقوال بعيدة الاحتمال فقد نسبت إلى يعقوب الجرجي رسالة عنوانها «الرسالة الأنسية»، تدل على أنه كان يحسن القراءة والكتابة ولو بالفارسية، - إذا صح إسنادهما إليه - لأنه لو صح ذلك، لكان ورد اسمه ضمن تراجم الرجال في تصانيف الباحثين غير النقشبنديين. وعلى أقل تقدير، فإن أول باحث منهم علي بن الحسين الواعظ قد اهتم بهذا الرجل، وأولاه شأنًا في كتابه «الرشحات» وهو أقدم مصدر يعتمد عليه النقشبنديون.

جاءت في كشف الظنون عباراتٌ يقول فيها المصنف «رشحات عين الحياة - فارسي - في مناقب النقشبندية ورسوم طريقتهم ضمناً. حسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي المشتهر بالصفوي. قال «ولما شرفت بصحبة الشيخ ناصر الدين خواجه عبيد الله مرة سنة 889 (تسع وثمانين وثمانمائة)، وأخرى في سنة 893 (ثلاث وتسعين وثمانمائة)، وكتبت ما استفدت في مجلسه الشريف، أردت أن أجمع في ضمن مناقبهم العلية»³⁹⁷

ثبت بهذا أن باحثاً مؤرخاً يخبر أنه اجتمع بشيخ من قدماء هذه الطائفة مرتين. وهو عبيد الله الأحرار الذي حلّ مقام يعقوب الجرجي شيخاً للطائفة النقشبندية. وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى. يدل هذا على شأن الجرجي في الوقت ذاته.

396 المصدر السابق ص/155.

397 مصطفى بن عبد الله (حاجي خليفة)، كشف الظنون 903/1. وزارة المعارف. تركيا-1941.

ومن الأسباب التي تُثير الاهتمام بهذه الشخصية، هو أنه معاصرٌ لخواجه نقشبند - الذي تُنسب إليه الطريقة النقشبندية-؛ وأنه صاحبه وتلقَى منه آداب هذه الطريقة.

فإن اعتقاده العميقَ بأستاذ أستاذه خواجه نقشبند، يبدو من خلال ما ينقل عنه بالذات، فيقول:

«أقبل عليّ بوجهه الكريم؛ فوجدتُ له هيبَةً في نفسي وعظمةً في قلبي، وجلالةً في نظري حتى لم أطق الكلامَ في حضوره. فقال لي قُدس سرُّه؛ ورد في الأخبار: العلم علمان؛ علم القلب وذلك العلم النافع، عِلْمُهُ الأنبياءُ والمرسلون؛ وعلم اللسان، وذلك حجة الله على خلقه. وأرجو الله تعالى أن يكون لك نصيب من علم الباطن. ثم قال ورد في الخبر إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلونها وينظرون إلى قلوبكم.»³⁹⁸

إن نسبة هذه العبارات إلى خواجه نقشبند، وإن كانت لا تقوم على برهان قاطع، ولكنها تدل على معرفة دقيقة للتأقل، على أنه يمتاز بمهارة في فنون الأدب والبلاغة والإنشاء، - طبعاً إذا كانت هذه الترجمة العربية مطابقةً للنص الفارسي من كلام يعقوب الجرجي -

ولعلَّ أهم الأسباب التي تُثير الاهتمام بشخصية يعقوب الجرجي، هو أنه أول من نطق بكلمة «الرَّابطة» وإن ظلت الرَّابطة محصورةً في نطاق تصوّر محدودٍ في عهده.

كلّ هذه المعطيات نستدلّ بها على أنّ لهذا الرجل دوراً هاماً في بناء هذه الطريقة الصوفية. لأنّه قد رأى في نفسه حقّ التصرّف، فأضاف إليها مبدئاً أصبح فيما بعد من أهم أركان العقيدة النقشبندية.

* الحلقة الثامنة عشرة من السلسلة النقشبندية.

هذه الحلقة لا تقلّ شأنًا عن الحلقة السابقة للسلسلة بدءاً من خواجه نقشبند. يمثلها رجل اسمه ناصر الدين عبيد الله الأحرار بن محمود بن شهاب الدين.

ولد خواجه أحرار عام 806 من الهجرة الموافق 1403 من الميلاد بمدينة طاشكند في غضون الحروب التي نشبت بين تيمورلنك وبين أبي يزيد يلدرم بن مراد العثماني. وتوفي عام 895 هـ. الموافق 1490م. بمدينة سمرقند. وهو تركي الأصل كسائر رجال السلسلة الذين ظهوروا في تلك المنطقة. ويزعم بعضهم أن أمه تتصل بعمر بن الخطاب نسباً.

يمتاز الأحرار بمكانته الاجتماعية وقدرته المالية على الرغم من إعراضه عن الدراسة والتعلم. جاء في ترجمته أنه تَرَبَّى في حجر خاله الشيخ إبراهيم الشاشي. ويقول الأحرار عن خاله هذا:

«لم يأل جهداً في أن أتعلّم حتى أرسلني من طاشكند إلى سمرقند رجاء ذلك. فكنْتُ كلما ذهبتُ إلى الدرس أصابني مرض يمنعني عنه. فذكرتُ له حالي: وإنك إن كلفتنني بالتحصيل ربما أموت. فتوقّف، وقال يا ولدي أنا لم أعلم حقيقة حالك، فاذهب وافعل ما تريد. وأردتُ أن أقرأ يوماً فرمدتُ عيني؛ ولم أزل كذلك خمسة وأربعين يوماً. فحينئذ تركتُ، ولم أصل في القراءة إلا إلى المصباح في النحو.»³⁹⁹ ولعلّ الكتاب المذكور هو المصباح للإمام ناصر الدين عبد السيد المطرزي المتوفى سنة 610 هـ.

بهذا تهندي إلى أن شيوخ النقشبندية قد أَلْمُوا بالدراسة والتعلّم بدءاً من عبيد الله الأحرار على الرغم من احتقارهم للعلوم العقلية واكتفائهم بقليل منها. وَرَدَ في مکتوبات الربّاني أنّ للخواجه أحرار رسالة فارسية بعنوان «الفقرات»⁴⁰⁰

يمتاز عبيد الله الأحرار خاصّة بعلاقاته مع ملوك عصره، ويتداخله في مناسباتهم وخلافاتهم. يقول في ذلك عن نفسه:

«لو أُنِّي تصدّرتُ للمشيخة ما أبقيتُ لأحد من مشائخ العصر مريدًا؛ ولكنّ الله أمرني بأمر آخر. وهو إنقاذ المسلمين من شرّ الظلمة وأيدي المخالفين. ولهذا خالطتُ السلاطين ابتغاء تسخيرهم لنفع المسلمين.»⁴⁰¹

399 المصدر السابق ص/157: علي بن الحسين الواظ الكاشفي البيهقي، رضحات عن الحياة ص/424.

400 أحمد الفاروق السمرقندي، المکتوبات. 187.

حقاً ليس للإنكار على هذا القول من سبيل، لولا قال «ولكن الله أمرني». إلا أن الأحرار لم يتوقف عند هذا الحد؛ بل تجاوزه بادعاء غريب، قال فيه:

«أعطاني الحقُّ تعالى في التصرف قوةً عظيمةً بحيث لو أرسلتُ ورقةً إلى ملك الخطي وهو يدعي الألوهية، لجا حافياً بلا توقف. ومع هذا لا أتصرف في ملكه تعالى بقدر ذرة؛ بل أقف عند حدِّ أمره عزَّ وجلَّ. فإنَّ من آداب هذا المقام أن تكون إرادتك تابعةً لإرادته جلَّ وعلا، لا العكس.»⁴⁰²

يتظاهر الأحرار في نهاية هذه العبارات باعتقادٍ لا يخالفه مسلم. وهو الذي أظهر في قوله «أن تكون إرادتك تابعةً لإرادته جلَّ وعلا.» ولكنَّ هذا الاعتقاد يتعارض مع ما أفصح به في مستهلِّ كلامه «أعطاني الحقُّ تعالى في التصرف قوةً عظيمةً...!»

انتقلت إلينا جلَّ المعلومات الخاصة بالأحرار عن طريق عليِّ بن الحسين الواعظ صاحب كتاب الرشحات وهو عدیل نور الدين عبد الرحمن الجامي، أى زوج أخت امرأته.⁴⁰³ ومَرَّ ضمنَ ترجمة يعقوب الجرخي، أنه زار عبيد الله الأحرار مرتين كما ورد في موسوعةً للنقشبنديين، أنه أقام سنين في مجالس الأحرار.⁴⁰⁴ ولا غرو أن من أسباب شهرة الأحرار، احتفاء العلماء به؛ وعلى رأسهم نور الدين عبد الرحمن الجامي. وَرَدَّ في الرشحات أنه اجتمع به أربع مرَّات وراسله مراراً.⁴⁰⁵ وما قيل عنه أنه تدخلَ في مصالحة الملوك، يغلب أن له أساساً من الصحة. حيث جاء ذلك في كتاب الرشحات بصراحةٍ وتفصيل.⁴⁰⁶

إنَّ عبيد الله الأحرار هو ثاني من أقرَّ الرابطة من رجال هذه الطائفة؛ وزادها شأنًا في الطريقة. لأنَّه بدأ يلقنُها المريدين كما يشهد على ذلك قول عبد المجيد بن محمد الخاني إذ يقول:

401 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 166.

402 المصدر السابق ص/ 166.

İslâm Alimleri Ansiklopedisi 13/263 403

404 المصدر السابق 123/13، راجع ترجمة عبد الرحمن الجامي، خير الدين زكلي، الأعلام 3/296.

405 علي بن الحسين الواعظ، رشحات عين الحياة ص/ 213-215.

406 المصدر السابق ص/ 425، 426.

«المير عبد الأوّل هو صهره الأطهر، والوارث لسره الأنور؛ اشتغل برابطته سبع سنين.»⁴⁰⁷ ولكن لا نعتقد أن تكون الرّابطة قد تحولت إلى ركن للطريقة في تلك الحقبة على خلاف ما يدّعيه النقشبنديون. ويزعمون أنّ الطريقة تسمّت بالأحرارية بدايةً من عهده إلى زمن أحمد الفاروقيّ السرهنديّ.

كلّ هذه المعطيات تبرهن على أنّ عبید الله الأحرار كان رجلاً مرموقاً، ذا شأنٍ ومكانة في بلاد ماوراءالنهر؛ وكان أوسع شهرةً من أسلافه؛ بحيث قفزت الطريقة النقشبندیّة إلى إسطنبول بجهود تلميذٍ له يُدعى عبد الله الإلهي.

وَرَدَ في رسالة للشيخ قسيم الكُفرويّ: أنّ ملوك المغول الذين ظفروا بإقامة دولةٍ لهم في الهند، كانوا على صلةٍ قويّةٍ بأبناء عبید الله الأحرار وخلفائه، أسوةً بسيرة آبائهم مع الأحرار.⁴⁰⁸

* الحلقة التاسعة عشرة من السلسلة النقشبندیّة.

هذه الحلقة هو القاضي محمّد زاهد البدخشيّ. استخلفه الأحرار لمكانته عنده؛ وربما لقرابته إلى يعقوب الجرخيّ (شيخ الأحرار). لأنّ قاضي محمّد زاهد هو ابن أخت يعقوب الجرخيّ.

توفي البدخشيّ سنة 936 من الهجرة، الموافق لعام 1529 من الميلاد بقريّة الوحش من ضواحي قصبّة الحصار على مقربة من مدينة سمرقند. أمّا تاريخ ولادته، فإنّه مجهول.

407 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحان، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 169.

صحب عبيد الله الأحرارَ اثنا عشر عامًا و«صنّف كتابًا في فضائله وشمائله سمّاه سلسلة العارفين وتذكرة الصديقين.»⁴⁰⁹ وينسب إليه كتاب آخر بعنوان «المسموعات»⁴¹⁰ جمع فيه ما سمع من شيخه عبيد الله الأحرار.

يبدو من عبارات مَنْ ترجم له أنّه قد درس وتعلّم، ولكنه أعرض عن دراسة العلم بعد أن التقى بخواجه أحرار؛ فانتفى إلى التصوّف والسلوك في الطريقة النقشبندية.

هذا ومع أنّه معروف بالقاضي، لا نعلم ما إذا تولى منصب القضاء في حياته، أم كان ذلك مجرد لقبٍ أطلق عليه لمناسبة ما. إنّ البدخشيّ والحلقين بعده، لم يتمتّعوا بالشهرة المتعارفة لشيخ النقشبندية بدءًا من الأحرار حتى يومنا هذا؛ وربما لعدم توغّلهم في التصوّف والشعوذة.

* الحلقة العشرون من السلسلة النقشبندية.

يلوح لنا من خلال متابعتنا لسلسلة الروحانيين في هذه الطريقة، أنّ القرابة الصهرية والنسبية بدأت تؤثر على رأيهم بعد إمامهم خواجه نقشبند وأصبح استخلاف الأقارب من العادة الشائعة عندهم. بينما كانوا سابقًا يتلقون عقائدهم من أبعد الناس إليهم، وحتى من الأموات - على حدّ قولهم -.

إذ نكتشف أنّ محمدًا البدخشيّ قد حلّ مكان عبيد الله الأحرار. ولعلّه أحرز هذا المقام لقربته ممن استخلف الأحرار كما ذكرنا آنفًا. ثمّ نكتشف أن محمدًا البدخشيّ هو الآخر قد استخلف الدرويش محمدًا السمرقنديّ، وهو ابن أخته. فصار الدرويش بهذا الاستخلاف هو الحلقة العشرين للسلسلة النقشبندية.

إنّ هذا الرجل لا نجد له ولا لشيخه ذكرًا في تراجم الرجال. وهو تركي الأصل كسائر أسلافه الذين ظهروا في هذه المنطقة.

409 * عبد الحميد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 175.

مات الدرويش محمد السمرقندي عام 970 من الهجرة الموافق لسنة 1562 من الميلاد. أما تاريخ ولادته، فلم يقف عليه أحد حتى النقشبنديون أنفسهم.

* الحلقة الحادية والعشرون من السلسلة النقشبنديّة.

جرت العادة نفسها في استخلاف هذا الرجل أيضاً إذ هو ابن درويش محمد السمرقندي؛ ولا ذكر له في التراجم، سوى ما جاء في بعض وريقات النقشبنديين أنّ اسمه محمد الخُواجكي الأُمكَنكي - بالكاف الفارسيّة -، وأنّه ولد عام 918 من الهجرة الموافق لسنة 1512 من الميلاد؛ ومات عام 1008 هـ. الموافق لـ 1599 من الميلاد.

يبدو أنّه قد قضى جميع حياته في قرية أمكَنه بضواحي مدينة بخارى؛ وعاش تسعين عاماً معزولاً عن الدنيا وخاملاً في هذه القرية.

* الحلقة الثانية والعشرون من السلسلة النقشبنديّة.

قفزت الطريقة النقشبنديّة من بلاد التُّرك إلى الساحة الهندية بوساطة هذه الحلقة. وهو الباقي بالله الكابلي، خليفة محمد الخُواجكي الأُمكَنكي.

ولد الباقي بالله سنة 971 من الهجرة (1563م.) بمدينة كابل عاصمة أفغانستان اليوم. ومات عام 1012 هـ. الموافق 1603 م. بمدينة دلهي (جهانآباد) الهندية.

ورد في مصادر النقشبنديين أنّه سافر إلى سمرقند، وتعلّم على الشيخ صادق الحلوائي. ولكن لا ذكر له ولا لهذا الشيخ في تراجم الرجال. وأعرض عن الدراسة استخفافاً بالعلم كعامّة أسلافه بإقرار من ترجم له من أعيان هذه الطائفة. مع ذلك يحاول النقشبنديون أن يُفخّمُوهُ ويجعلوه من ذوي الشأن والمكانة في عصره كعادتهم في مدح سائر مشائخهم.

ورد في موسوعة لهم «أنَّ شخصيةً اسمه عبد الرحمن خان المشتهر بـ (خانِ خانان)، كان على كمال المحبة له وعالقًا به.»⁴¹¹ وكلمة «خان خانان» فارسية معناها ملك الملوك. غير أننا لا نعثر على شيء من الاشتهار لهذا الاسم في تلك الحقبة والمنطقة. بل كانت مقاليد الأمور يومئذ في الساحة الهندية بيد الطاغية المغول جلال الدين محمود المشتهر بـ «أكبر شاه»، ملك الدولة التيمورية. ومعلوم أنَّ الملك المذكور كان شديد العداوة للمسلمين من جراء ما وجد في شيوخ الصوفية من التعصب والتطرف. فدفعه الأمر إلى قهر المسلمين وإذلالهم واضطهادهم، ومساندة المشركين الهندوس.

ومن جملة هذه المبالغات في تفخيمه والدعاية له قول عبد المجيد الخاني: «فأقبلت إليه الأمم بما جذبهم من علو الهمم وقوة التصرفات الإلهية...». ويدعي أنَّ قبره على غربي مدينة دلهي عند أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم⁴¹² والحقيقة أنَّ النبي عليه السلام لم تطأ قدمه الأراضي الهندية أصلاً!

كان الباقي بالله على طبيعة لا يأنس إلا في الخرائب، يبحث عن أهل المسكنة من الدراويش والكسالى باعتراف من ترجم له من مفتني هذه النحلة⁴¹³

أمره شيخه الأُمكَنگي بالرجوع إلى بلاد الهند. فرجع وزاول نشاطه في بثِّ عقائد النقشبندية حتى اتصل به رجل سرهندي اسمه أحمد الفاروقي. كان ذلك من أكبر حظوظه. لأنَّه إنَّما اشتهر بجهود السرهندي الذي لعب دورًا هامًا في استمالة قلوب الناس إليه بأسلوبه الخاص. ولمَّا اشتهر مريده السرهندي، اشتهر هو الآخر بدوره.

وما قيل أنَّ الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «شاه ولي الله الدهلوي» قد مدحه في كتابه «الانتباه في سلاسل الأولياء»⁴¹⁴ لا عبرة به، ولا ذكر لهذا الكتاب ضمن قائمة مصنفات أحمد بن عبد الرحيم الواردة في كُتب التراجم المعتمدة.⁴¹⁵ كما أنَّ الدهلوي هذا، هو أيضًا لم ينبج من التأثير

411 المصدر السابق 75/16.

412 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 178.

İslâm Alimleri Ansiklopedisi 16/67 413

414 المصدر السابق 80/16.

415 راجع ترجمته: خير الدين زركلي، الأعلام 149/1. دار العلم للملايين الطبعة 11. بيروت - 1995م. * عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين: 169/1، 809. مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى، بيروت - 1993م.

بالعقائد الهندية على ما يبدو من محبته لشيوخ الصوفية رغم باعه الطويل في علوم الحديث. وربما رجع عن رأيه فيهم.

وقد جاء في الحدائق الوردية لعبد الجيد بن محمد الخاوي أن خالدًا البغداديّ قد زار ابنه عبد العزيز الدهلويّ، أيّامَ إقامته بالهند، فاستقبله بحفاوة. وَرَدَ ذلك ضمنَ ترجمة خالد البغداديّ في الكتاب المذكور. من الجدير بالإشارة هنا، إلى أنّ هذه النزعة هي القاسم المشترك بين غالب علماء الهند، حتى السلفيين منهم. ولهذا نلمس من آثار التسامح مع الصوفية فيما كتبه أبو الحسن الندويّ وغيره من النابغين على الساحة الهندية.

أمّا قيام الباقي بالله بدعوة الناس إلى الطريقة النقشبندية في بلاد الهند، فغير واضحة المعالم، على خلاف ما يدّعيه النقشبنديون. وربما كانت دعوته على غير الأسس التي وضعها رجال هذه الطائفة. لأنّ النقشبنديين أنفسهم لم يذكروا: هل إنّه كان يمارس الرهينة على أساس المبادئ الأحد عشر، وهل كان يأمر بإقامة حفلة «ختم الخواجگان» سوى ما ورد في الموسوعة المذكورة: أنّه كان يأمر مريديه بملاحظة صورته في ذهنهم فحسب.⁴¹⁶

* الحلقة الثالثة والعشرون من السلسلة النقشبندية

لقد بذل النقشبنديون قصارى جهودهم في تفخيم من جعلوه رمزاً لهذه الحلقة من سلسلتهم حتى سمّوه «الإمام الربانيّ». ولا يجوز عرفاً أن يكون هو الذي عظم نفسه بهذا العنوان على الرغم مما نُقل عنه وعن غيره من شيوخ هذه الطائفة من مدائح ذاتية لا تُستحسن من أهل العلم والشأن بحجة التحدث بنعمة الله. وهذا يدلّ على المستوى الأخلاقيّ لأرباب هذه النحلة، وأنهم كيف يتصرفون بالمدح والذم..

أما اسمه الذي لم يشتهر به بعد أن طغى عليه عنوانه الشائع المذكور آنفاً، فهو أحمدُ بنُ عبدِ الأحدِ الفاروقِ السرهنديِّ. يزعم النقشبنديون أنه ينحدر من سلالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.⁴¹⁷

وُلِدَ السرهنديّ عام 971 من الهجرة الموافق لسنة 1563 من الميلاد؛ وذلك في عهد «أكبر شاه»⁴¹⁸ ثالث ملوك الدولة التيمورية المغولية في الهند. شاهد تلك الأحداث الرهيبة التي أقدم على إجرائها «الملك أكبر شاه» للقضاء على الإسلام. غير أننا لا نعثر على مقاومةٍ أكيدةٍ وجادّةٍ للسرهنديّ في وجهه إلاّ القدر اليسير الذي جاء في سطور ضمنَ مقدّمة كتابه «إثبات النبوة»⁴¹⁹ وعلى أيّ حال فإنّ دفاعه عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم في وجه سلطان جائر ومارق، لا شكّ يُعدُّ مثلاً من البطولة والغيرة الإيمانية الصادقة لولا أنه عبث بالقيم وأطال واسترسل في مسائل فلسفيةٍ كلاميةٍ أربكَ بها كثيراً من الناس حتى التبس عليهم الحق بالباطل.

يتنافس النقشبنديون في مدحه وإجلاله وتقديسه بأساليب غريبة على الإسلام. منهم محمد مراد بن عبد الله القازاني⁴²⁰ الذي عرّب مكتباته.

يقول القازاني:

«فهذه درر مكنونات منيفة برزت من أصداف عبارات المكتوبات الشريفة للإمام الربانيّ، والغوث الصمدانيّ، والقطب السبحانيّ، والعارف الرحمانيّ، نقطة دائرة الإرشاد، رحلة الأبدال والأوتاد، قدوة الكمالات الأفراد، واقف الأسرار الإلهية، كاشف الدقائق المتشابهات القرآنية، برهان الولاية الخاصة المحمّدية.»⁴²¹

417 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 179.

418 هو محمود جلال الدين أكبر شاه بن همايون بن ظهير الدين محمد بابر شاه. ولد عام 1542م. وتولّى السلطة عام 1556م. وهو ابن 14 عامًا. و مات في سنة 1605م. راجع ترجمته في كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، الجزء الثالث ص/ 63-111. لأبي الحسن الندوي؛ دار القلم؛ الكويت-1994م؛ التاريخ الإسلامي، لمؤلفه محمود شاكر، الجزء الثامن ص/422-424.

419 كتبه عام 989هـ. نشرته مكتبة الحقيقة في إسطنبول عام 1994م.

420 راجع ترجمته: خير الدين زركلي، الأعلام 95/7. دار العلم للملايين الطبعة 11. بيروت - 1995م؛ وهو معرّب الرضحات أيضاً.

421 محمد مراد القازاني³ المنتخبات، الديباجة ص/ 2. مكتبة الحقيقة، إسطنبول-1994م.

هذا الأسلوب، قد اعتاده النقشبنديون في حديثهم عن كل من اتفقت كلمتهم على تعظيمه خاصة بعد موته. ذلك أنّ المشهورين من شيوخهم، لم يكن أحدهم قد ذاع اسمه في حياته بالوجه الذي يذكره ملايين النقشبنديين بعد موته بهذا الأسلوب إلا قليل. كعبيد الله الأحرار وخالد البغدادي. لا شك تُنبؤنا عاداتهم هذه، عن العقلية التي تسود على اتجاههم وتفكيرهم في الإنسان وقيمتها الشخصية. ولكن الذي لا بدّ هنا أن نتساءل عنه، هو قسطاسهم في تعظيم الإنسان وتبجيله بأوصاف لا يقره الإسلام بوجه من الوجوه. فليت شعري كيف عرف القازاني أنّ أحمد السرهندي «واقف على الأسرار الإلهية»؛ وما عسى هي تلك الأسرار؟!

هذا، وحتى ربّ العزة جلّ سلطانه لم يمدح الذين اصطفاهم على العالمين من عباده المرسلين بأمثال هذه الألفاظ مع جلاله قدرهم ومكانتهم عنده. وعلى سبيل المثال، فقد قال سبحانه في خطابه لنبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.⁴²² ولم يقل له إنك واقف على أسراري. كذلك مدح طائفة من الأنبياء فقال: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكَلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ.⁴²³ ولم يقل إنهم واقفون على أسراري.

ويقول عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني في مدح السرهندي أيضاً:

«دُرَّةُ إِكْلِيلِ الْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِينَ، وَغُرَّةُ جَبِينِ الْأَصْفِيَاءِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ، كَنْزُ فِضَائِلِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ، وَجَامِعُ فِرْقَانِ الْمُحَمَّدِ وَالْمَكَارِمِ وَالشَّرَفِ، طُورُ التَّجَلِّيَاتِ الذَّاتِيَّةِ، وَسِدْرَةُ مَنْتَهَى الْعُلُومِ الْأَحْدِيَّةِ، وَمَنْهَلُ مَعَارِفِ الْوَرَاثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَمَظْهَرُ إِرْشَادِ الْحَقَائِقِ الْأَحْمَدِيَّةِ...»

ولكن الخاني لم يتوقف عند هذا الحد؛ بل ازداد تكلفاً وتنطعاً فقال:

422 سورة القلم/4

423 سورة الأنعام/83-86

«أخبر بوجوده رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم فقال، يكون في أمّتي رجل يقال له صلة. يدخل بشفاعته كذا وكذا...»⁴²⁴

على الرغم من إطناب النقشبنديين في مدح هذا الرجل وتعظيمه وإجلاله، وما حشو في بطون كتاباتهم من قصصٍ أسطوريةٍ بعنوان مناقبه وكراماته، فإننا لم نجد في كتب أرباب الدراسة والبحوث التاريخية شيئاً يبرهن على صدق هؤلاء الدراويش المنتطعين، سوى سطورٍ يسيرةٍ لبَاحِثَيْنِ⁴²⁵ لا تعدو عن ذكر مولده وموته وأسماء مؤلفاته فحسب.

أما أبو الحسن الندويّ الذي أفرد مجلداً خاصاً في ترجمته، فلا عبرة به.

أولاً: لأنّه معروف بموقفه الحياديّ، وإعجابه بكلّ من اشتهر، سواء أكان على الحق أم على الباطل؛

ثانياً: إنّهُ من أبناء وطن السرهنديّ، ومن المتشرّين عقائد الديوبنديّة، وهي طريقة صوفيّة خطيرة تستقي مع الطريقة النقشبنديّة من منهل واحد. فلا غرابة إذن في إمامه بصاحب الترجمة أكثر من أي باحث أجنبي، خاصّة فإنّ الطبيعة المضطربة للعنصر الهنديّ لا بدّ وأنّ يكون للندويّ أيضاً منها نصيب ولو بأقلّ نسبةٍ.

فقد شرح الندويّ أوضاع المرحلة التي عاش فيها السرهنديّ، وذكر المشاكل بالتفصيل، والمرارة التي ذاقها المسلمون يومئذ على يد الطاغية «أكبر شاه» المغولي ضمن الجزء الثالث من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام». إلاّ أنّه استقى أكثر معلوماته الخاصّة بالسرهنديّ من مصادر النقشبنديّين الحشويّين المتوغّلين في السجع والأساطير. وبالخلاصة يظهر أنّ الندويّ ليس من عادته الانتقاد، ولو على سبيل التنبيه والتصحيح.

424 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحايّ، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 178-179.

425 خير الدين زركلي و عمر رضا كحالة.

أما السرهندي، فقد ترك ورائه أكداً من رسائل متفرقة، بعثها إلى هذا وذلك؛ لم يستقر في جميعها بجانب الصواب دائماً، بل تذبذبت أقواله بين الحق والباطل كما سيشهد القارئ هذه الحقيقة في نماذج مختلفة منها أوردناها فيما يلي للمقارنة.

كتب السرهندي جميع رسائله باللغة الفارسية سوى عدد قليل منها جداً. وعربها رجل اسمه محمد مراد القازاني. إن هذه الرسائل في الواقع لا تمثل أية قيمة علمية أو ثقافية أو أدبية بمحتوياتها. لأنها لا تأتي بشيء جديد، ولا تنحل بها مشكلة من مشاكل المسلمين؛ ولا تظهر المقاصد فيها بوضوح. يؤكد على هذه الحقيقة استغناء رجال العلم عنها. فلا تكاد تجد عالماً من علماء المسلمين يعتد بها أو يستدل بشيء من مضامينها. وإذا كان بعض الناس يتدارسونها، فإنهم جموع من البسطاء والنقشبنديين الذين لا يدخلون ضمن أهل العلم في حقيقة الأمر.

يتبين بوضوح أن أحمد الفاروقي السرهندي لم يبال بما سيُسفر عن كلماته وعباراته التي ألقاها على عواهنها وسجلها بين الفينة والأخرى على هيئة رسائل وجهها للناس. فجاءت آراؤه متضاربة في الغاية. وعلى سبيل المثال، يقول في رسالة بعثها إلى شخص اسمه نظام التهانيسري:

«اعلم أن مقربات الأعمال إما فرائض، وإما نوافل. فالنوافل لا اعتبار لها في جنب الفرائض أصلاً. فإن أداء فرض من الفرائض في وقت من الأوقات أفضل من أداء النوافل ألف سنة.»⁴²⁶

هذه كلمة حقٍ ربما لا يختلف فيها أحد من المسلمين معه. ولكن يناسب هنا أن ننتقل إلى رسالة أخرى من مكاتباته التي وجهها إلى شخص اسمه محمود. يقول فيها:

«فاعلم أيها المخدم⁴²⁷ ولا بد للإنسان من ثلاثة أشياء حتى تتيأس النجاة الأبدية: العلم، والعمل، والإخلاص. والعلم على قسمين: قسم المقصود منه العمل. وقد تكفل بيانه علم الفقه؛ وقسم، المقصود منه مجرد الاعتقاد واليقين القلبي. وذكر هذا القسم في علم الكلام بالتفصيل على مقتضى

426 محمد مراد القازاني، المنتخبات، مکتوبات الرياني، الرسالة رقم/29؛ أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام الجزء الثالث ص/220.

427 كلمة «المخدم» عربية. اصطلاحاً الأتراك والفرس بمعنى الولد. وقومها أتيا المخدموا أي يا ولدي، أو يا بني.

آراء أهل السنّة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية. ولا إمكان للتّجاة ولا مطمع لأحد فيها بدون إتباع هؤلاء الأكابر. فان وقعت المخالفة لهم مقدار شعرة، فالأمر في خطر أي خطر! وهذا الكلام قد بلغ من الصّحة مرتبة اليقين بالكشف الصحيح والإلهام الصريح».⁴²⁸

لقد ظهر في سطره الأخيرة من هذا التفسير الصوفي أنّ غرضه الحقيقيّ لم يكن التأكيد على تلك الأشياء الثلاثة الهامة، وإتّما كان همه وقصده أن يجلب الانتباه إلى الكشف والإلهام ليس إلا! ذلك لأنّ عامة الصوفيّة، والنقشبنديين على وجه الخصوص، لا يتكلّمون عن شيء إلاّ ويربطونه بعلم الغيب، ولا يتصدّون للحديث في أمر إلاّ ويجعلون له قرينةً بعلم سابق، ولا ينقلون من قولٍ أو عملٍ عن شيوخهم إلاّ ويحملونه على إشارات ورموز منهم لما سوف يقع في مستقبل من الزمان على أنّها من كراماتهم. وهكذا لو نطق أحدهم بكلمة حقّ لا يبرح حتى يعبث بها فيجعلها مما ثبت بشهادة أهل الكشف والإلهام؛ كما سبق في عبارات السرهنديّ أنّها؛ في الحين الذي لم تكن هناك أدنى مناسبة بين الموضوع الذي طرق إليه السرهنديّ، وبين الكشف والإلهام على الإطلاق. وهذه الحقيقة ثابتة بإقراره في كلامه المنقول بالذات. إذ قال بعد ما قسم العلوم إلى شطرين: «قسّم، المقصود منه العمل، وقد تكفّل بيانه علم الفقه؛ وقسم، المقصود منه مجرد الاعتقاد واليقين القلبيّ. وذكر هذا القسم في علم الكلام بالتفصيل.»

إذاً، فما الذي يحتاج هنا إلى الكشف والإلهام؛ وما هي العلاقة بين هذه الألفاظ، وبين قوله «وهذا كلام قد بلغ من الصّحة مرتبة اليقين بالكشف الصحيح والإلهام الصريح»!!؟

ولهذا السبب، من نظر في دفاع أبي الحسن الندويّ عنه بأنّه «أثبت عجز العقل والكشف وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية»⁴²⁹ اطّلع بالتأكيد، على مدى ارتباك السرهنديّ والاضطراب الذي في كلامه، وتناقضاته مع نفسه؛ وأدرك أيضاً أنّ أبا الحسن الندويّ قد أحسن الظنّ بهذا الرجل دون رويّة وبلا اعتماد على أي حجّة، بل قد باء بفشل ذريع في هذا الدفاع العاطفيّ الرخيص.

428 محمد مراد القازاني، المنبغيات، من مکتوبات الرّياضيّ الرسالة رقم/59.

429 أبو الحسن الندويّ، رجال الفكر والدعوة في الإسلام 171/3. دار القلم الكويت-1994م.

لقد بلغ عددُ مكتوباته سنًّا وثلاثين وخمسمائة رسالة تشتمل على ما سجّل من الغث والسمين؛ ووجهها إلى ناسٍ أكثرهم الملاي والدراويش وأبناء الخانقاهات المُقْبَعُونَ على أنفسهم في جَوِّ من الرهينة، ومبتعدون عن الحياة الاجتماعية والسعي والإنتاج. وله عُجالاتٌ وكُتبياتٌ وَرَدَ أسماؤها في ترجمته، وهي:

رسالة المبدأ والمعاد، وإثبات النبوة، والمعارف اللدنية، وَرَدُّ الشيعة.

عاش السرهندي في عهد الطاغية المغول عدوّ الإسلام والمسلمين محمود جلال الدين المعروف بـ «أكبر شاه» الذي كان متأثرًا بالديانة البرهمية والزرادشتية، حتى خلع ريقه الإسلام من عنقه واختلق دينًا شيطانيًا على أساس الكفر بالوحي والنبوات. فدعا الناس إليه؛ فلم يستجب له إلا ثمانية عشر رجلًا؛ على الرغم من إمكاناته الواسعة للدعاية والدعوة وتسحير العقول. فزاده ذلك غضبًا على الإسلام. فأوقع بالمسلمين وأرهبهم بأبشع مظاهر القهر و أشدّ أساليب الإذلال والتنكيل.

من الجدير بالإشارة هنا للمناسبة إلى أنّ هذا الملك الدمويّ الجاهل الزنديق إنما وقع في أحابيل الشيطان بتأثير من كانوا حوله يومئذ من علماء السوء وشيوخ الصوفية المتنافسين في احتلال المناصب والمتنازعين على المصالح؛ وبسبب ما كان يشهد من الخلاف والصراع بينهم؛ والابتدال في سلوكهم؛ والانحراف في عقائدهم وأفكارهم؛ مما جعله يفقد ثقته بهم. هذا على كثرة شيوخ الطرق الصوفية في الساحة الهندية؛ وعلى الرغم من اشتهاار عدد منهم بالغوثة والقطبية في تلك المناطق؛ ومع هيبتهم على الناس وقدرتهم في توجيه المجتمع؛ بحيث لو اتفقت كلمتهم لأرغموه على أن يمسّ بظُرِّ أمِّه! لأنّه كان يعظّمهم ويقف منهم موقف الإجلال والتوقير في المرحلة الأولى من حكمه. وليس معنى هذا أنّ السرهندي لم يعارضه. ولكنّ مشائخ الطرق الصوفية عامّة، والسرهندي خاصّة لم يكونوا على شيء من صفات النبيّ صلى الله عليه وسلّم وأصحابه من أخذ الأمور بالحكمة والحيطه؛ وبذل المال والمُهَجّة في ساعة الكفاح؛ والوقوف في وجه العدو بروح البسالة والبطولة؛ والمعرفة بفنون الجهاد والقتال حتّى يتمكّنوا من ردّ الأمور إلى نصابها. لأنّ حياة الروحانيين تتميّز بالعزلة والصمت والمسكنة والرهبانية؛ فهي تختلف عن حياة الأنبياء والمرسلين، والتابعين لهم في سنّتهم وسلوكهم الذين لا يبخلون بأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله عند ما يترتب عليهم البذل بمقتضى الحال والظروف. فإنهم أولياء الله {أَلَا إِنَّ
أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ⁴³⁰

أما أولياء الصوفية، فلم يسمع أحد من المؤمنين أنهم دخلوا معركةً وقاتلوا لحظةً في سبيل الله. فهذا الغزالي . على سبيل المثال . الذي تُعظّمه الصوفية بعنوان «حجة الإسلام»، وتبالغ في تفخيمه والثناء عليه، وتُشيد بذكر تصانيفه؛ «إنه كان خلال الحروب الصليبية مشغولاً في خلوته تارةً في منارة دمشق وتارةً في صخرة القدس، يغلق باهما عليه في مدةٍ تزيد على سنتين. بل إن الغزالي شهد سقوط القدس في أيدي الصليبيين، وعاش اثني عشرة سنة بعد ذلك، ولم يشر إليه في كتبه». ⁴³¹

فلما تولى نور الدين جهانكير بن «أكبر شاه» السلطنة فور موت أبيه لم يكن يومئذٍ للسرهندي شخصية بارزة في أوساط العلماء بالساحة الهندية، ولا كان يمتاز بشهرة لدى علماء البلاط الملكي. أقرّ الندوي بالذات عن هذه الحقيقة، في كتابٍ أفردهُ لذكر حياة السرهندي ومع أنه لم يدخل في هذا الموضوع إلا ليعظّم من شأنه، وليؤكد أنه «الإمام الرباني»! اعترف بالواقع فقال: «إنه لم يتوصّل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحاب السلطة، وسياسة الدولة فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين، وتوجيه الميول والنزعات إلى الإسلام». ⁴³²

فمادام السرهندي لم يتوصّل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحاب السلطة يومئذٍ ولم يستطع أن يحرك ساكنًا؛ بإقرار هذا الباحث الهندي المُعجِب به، والمؤكّد على وصفه بـ «مجدّد الألف الثاني»؛ فما عسى إذن هي الأعمال التجديدية التي قام بها السرهندي؛ وما هي آثاره و إنجازاته - وقد بلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا يوم ترثع جهانكير على عرش المملكة - !!؟ هذا بالإضافة إلى أنّ الملك جهانكير إمّا أمر باعتقاله بعد مضيّ أربعة عشر عامًا على تولّيه السلطنة. وذلك سنة 1028 من الهجرة؛ وقد بلغ السرهندي يومئذٍ من العمر سبعًا وخمسين عامًا. زد على ذلك أنّ السبب الحقيقي لاعتقاله ليس كما قيل هي مضامينُ رسالته الموجهة إلى شيخه، ومحتوياتها الخطيرة التي أثار غضب الملك لما فيها مخالفة صريحة لروح الكتاب والسنة، كما ليس رفضه سجدة التحية للسلطان هو السبب الأصلي

430 سورة يونس/63.

431 الدكتور مروان إبراهيم القيسي، معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص/ 91. الطبعة الثالثة. إسطنبول-1992م.

432 أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام/3، 139. دار القلم. الكويت-1994م.

لاعتقاله بخلاف ما يزعمه النقشبنديون. بل الذريعة التي اتخذها الملك لإصدار الأمر باعتقاله، هو ما كان يجري بينه وبين رجال البلاط من علاقات خاصة، وما كان من حبّهم وإجلالهم له، كما يقول الندوي⁴³³ «وما زال سلاطين المغول يتوجّسون خيفةً من مغالاة الناس في اعتقادهم وحبّهم وإجلالهم للمشائخ، والتفافهم حولهم، وتهافتهم عليهم تهافت الفراش على النور».

كلّ هذه الحقائق تدلّ على أنّ السرهنديّ لم يستحق ذلك الشأن العظيم الذي يُعزى إليه بصفة «المجدد لألف الثاني». في الحقيقة إنّ النقشبنديين وخدمهم، هم الذين خلّعوا هذا العنوان عليه ليستفيدوا من طينته وليواصلوا مسيرتهم بهذا الأسلوب من الاستغلال. ولو كان السرهنديّ مجدداً بالمعنى الحقيقيّ لحرر الإسلام عما أُلصق به من بدع البرهمية والبوذية؛ ولحارب شيوخ الصوفيّة الذين كانوا يدسّون تعاليم «اليوغا» في العقائد الإسلاميّة، كما يبرهن على هذه الحقيقة ما جاء في كلام أبي الحسن الندويّ بالنسبة للطريقة الشطارية. إنّه يقول:

«وقد مزجت هذه الطريقة لأوّل مرة تعاليم اليوكا بالتعاليم الصوفيّة، واختارت من الأولى بعض الرياضيات، والأوراد، وحبس النفس؛ ولقنت هذه التعاليم المريدين والسالكين؛ كما ضمت إلى الطريقة علم السيمياء. وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد وشروح الرياضيات الخاصة في الرسالة الشطارية التي ألفها الشيخ بهاء الدين إبراهيم الأنصاري القادري، وتوجد قصيدة للشيخ محمد الشطاري في كتابه (كليد مخازن) - مفتاح الخزان - تفيد عقيدة وحدة الوجود، وعدم التفريق بين المسجد والبيعة، والمسلم والبرهمي»⁴³⁴

أمّا ربانية السرهنديّ، فهي أيضاً صفة لا نجد لها وجهاً من وجوه المشابهة بالربانية الجامعة لصفات المؤمنين في كتاب الله العزيز. وإمّا الربانيون هم {الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} * الَّذِينَ يقيمون الصلاة وممّا رزقناهم يُنفقون⁴³⁵ هم {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}⁴³⁶ هم الذين يعترفون بذنوبهم، ويقرون بالعجز والتقصير، ويرفضون الشهرة والسمعة والأبهة

433 أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام 144/3. دار القلم. الكويت-1994م.

434 المصدر السابق، 3/26، 27.

435 سورة الأفال/2، 3.

436 سورة آل عمران/173.

والخدم والحشم، ولا يطمعون في الثراء والمكانة عند الناس؛ بل يحرصون ليحفظوا بما عند ربهم؛ و{لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} ⁴³⁷ هم الذين قال الله تعالى فيهم: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} ⁴³⁸

أما الذين بدّلوا دين الله بفكرة «وحدة الوجود» و «وحدة الشهود» و «الكشف» و «الإلهام» و «الأويسية»؛ وحرّفوه بممارسة أشكالٍ من مناسك مجوس الهند؛ كصلاة «اليوغا» التي سموها «الرّابطة»، و «الخمسة الخُواجِغانية»، وعدّ الأذكار بالحصى، والتركيز على صورة شيخ الطريقة وما إليها من تقاليد عبدة الأوثان وطقوسهم؛ فكيف بنا أن نعدّهم من أبناء الأمة المحمّدية والملة الإبراهيمية الحنفاء؛ فضلاً عن أن يستحقّ أحدهم صفة المجدّد لهذا الدين وهو غارق في عالم التصوّف والشعوذة والوهم والخيال!!

إنّ هذا العالم الغامض الوعر المشبوه الذي نصطدم ببعض معالمه من خلال رسائل السرهنديّ، يثير انتباهنا نحو بلاد الهند الشهيرة بمجتمعاتها المتباينة، ولغاتها وعاداتها المتنوّعة، وتقاليدها الغريبة، وعقائدها الخليطة، وفلسفاتها المعقّدة، ورهبانها ومتصوّفاتها وسحرها الطائشة المتزاحمة، وما إلى ذلك من مظاهرٍ عجيبةٍ لا تتّصف بها بلدٌ آخرٌ في بقية أنحاء العالم. وكذلك هذه الحقائق تفتح لنا نافذةً هامّةً إذا أطللنا منها على العالم الهنديّ بكلّ مظاهره، وبختمنا في طيّات تاريخه بعمقٍ وإمعانٍ اصطدمننا بحقيقةٍ رهيبةٍ أخرى. وهي أن الأكثرية من المجتمع الإسلاميّ في تلك المناطق، قد تأثّروا قليلاً أو كثيراً بالأفكار والديانات والعقائد والعادات والتقاليد الغربية المتباينة والمتزاحمة على امتداد ساحاتٍ شاسعةٍ في الديار الهندية. وإذا كان «الملك أكبر» قد انبهر بالديانة البرهمية والزرادشتية تماماً، فإنّ ذلك لا يعني أنّ السرهنديّ لم يتأثر بشيءٍ منها وعلى الرّغم من دفاعه عن الشريعة المحمّدية وتحريضه على متابعة السنّة النبويّة من خلال رسائله المذكورة، إلاّ أنّنا نعثر في الوقت ذاته على مقالاتٍ له تستمدّ من لبّ تلك العقائد الوثنيّة. وكأنّها تتسرّب من قلوب الفلاسفة والرهبان. يقول في إحدى هذه المقالات:

83 سورة القصص

438 سورة الأحزاب/23

«اعلم أنّ العناية الإلهية جذبتني جذب المرادين أولاً، ثم يسّرت لي طي منازل السلوك ثانياً؛ فوجدتُ الله سبحانه أولاً عين الأشياء؛ كما قال أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفيّة؛ ثم وجدتُ الله في الأشياء من غير حلولٍ ولا سريانٍ؛ ثم وجدتُ سبحانه معها بمعية ذاته؛ ثم رأيتُهُ بعدها؛ ثم قبلها. ثم رأيتُهُ سبحانه وما رأيتُ شيئاً. وهو المعنى بالتوحيد الشهودي المعبر عنه بالفناء. وهو أول قدمٍ توضع في الولاية، وأسبق كمالٍ في البداية. وهذه الرؤية في أي مرتبة من المراتب المذكورة تحصل أولاً في الآفاق، ثم ثانياً في الأنفس. ثم ترقيتُ في البقاء. وهو ثاني قدمٍ في الولاية. فرأيتُ الأشياء ثانياً. فوجدتُ الله عينها بل عين نفسي. ثم وجدتهُ تعالى في الأشياء، بل في نفسي؛ ثم مع الأشياء بل مع نفسي. ثم قبل الأشياء بل قبل نفسي. ثم بعد الأشياء بل بعد نفسي. ثم رأيتُ الأشياء وما رأيتُ الله تعالى أصلاً. وهي النهاية التي هي الرجوع إلى البداية والعود إلى مرتبة العوام. وهذا المقام هو أتمُّ مقامٍ دعوة الخلق إلى الحق، وأكمل منازل التكميل والإرشاد لتمام المناسبة للخلق المقتضية لكمال الإفادة والاستفادة.⁴³⁹

هل يجد من ذاق حلاوة الإيمان بالله واليوم الآخر، هل يجد مسحةً من كلام أهل اليقين الصادق في هذه العبارات الخطيرة التي تُنبئ عن غطرسة قائلها وتطاوله في وجه الحق سبحانه؟! تُرى ما الذي جعله يتحدّى بهذا الادعاء الجريء؛ وما الذي دفعه ليمرّد على الله بهذه الكلمات التي لا تدلّ بوجه من الوجوه على إيمانه بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء؛ وما الذي أغراه حتى وجد نفسه مضطراً لتزخرف له ما لم يقل به رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم، ولا أحدٌ من الصحابة والتابعين، ولا أحدٌ من العلماء المحققين الذين لم يخرجوا عن جادة الحق!

لعلّ السبب - على حسب رأيه - أنّ الذي حُيّل إليه هو نعمة من الله (!) لأنّه يذكر في مستهل مقال آخر له، الآية الكريمة {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}⁴⁴⁰ ثمّ يستطرد قائلاً: «كنتُ في حلقة الذكر مع أصحابي فخطر لي أيّ في قصور ونقص. فألقني إليّ في الحال: أيّ قد غفرتُ لك ولمن توّسل بك بوساطة أو بغير واسطة إلى يوم القيامة.⁴⁴¹

439 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحايي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء القشبنديّة ص/ 180.

440 سورة الضحى/11.

441 أحمد الفاروقي السمرندي، رسالة المبدأ والمعاد ص/ 11.

يبدو بوضوح من هذه العبارات أنّ السرهنديّ كان يعاني حالاتٍ نفسيةً خطيرةً، إذ بلغت به المعاناة حتّى ادّعى أنّ الله أوحى إليه وقال له «إني غفرتُ لك ولمن توسّل بك بوساطة أو بغير واسطةٍ إلى يوم القيامة».

هذه الألفاظ الجريئة لا شكّ قد أحبط أعمالَ الباحثين الذين شتموا عن ساق الجدّ ليدافعوا عن السرهنديّ بأنّه لم يخرج من دائرة الكتاب والسنة؛ خاصّة الذين شاركوا النقشبنديين في خلع العناوين المصطنعة عليه، ووصفوه بالقطيبة والغوثية، بل وبالمجددية؛ كما يبرهن على سطحية البحث الذي تناول فيه أبو الحسن الندويّ حياة السرهنديّ، وعمّا كتب في الجزء الثالث من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام. فإنّ الندويّ -على الأقل- قد ألّف هذا الكتاب بدون رويةٍ وتعمّق. ولا يفوقها بهذه المناسبة أن نذكر اسمَ باحثٍ آخر لم يغفل عمّا ارتكب السرهنديّ من الجنايات على الإسلام، وهو حسن بن علي العجمي، ألّف كتاباً سماه: العصب الهندي لاستئصال كفريات أحمد السرهندي. شرّح فيه ما يُعني القارئ عن كلّ ما كتّب عن السرهنديّ مدحاً وذمّاً.

يزعم النقشبنديون، أنّ السرهنديّ جاء ليجدّد الإسلام؛ وليعيد له طراوته وحيويته. ولهذا يعظّمونه بعنوان «المجدّد الألف الثاني». كما يُطلقون بهذه المناسبة اسمَ «المجددية» على الطريقة النقشبندية، بدايةً من عهده إلى زمن خالد البغداديّ. ولكنّ التاريخ يشهد على ما قد ذهب من جمال الإسلام وصفائه على يد السرهنديّ وخلفائه ربما أكثر مما أذهب به الطغاة الذين أنزلوا ضربات قاصمة بالإسلام والمسلمين من أمثال الملوك الأمويين، والعبديين، وهولاكو، وتيمورلنك، وأكبر شاه، وموشي غوميل السالونيكّي!

وبالخلاصة فإنّ رسائل السرهنديّ وعجالاته تشتمل على أفكارٍ غريبةٍ، وعقائدٍ خطيرةٍ، وآراءٍ متناقضةٍ، وأساليبٍ فلسفيةٍ وكلاميةٍ؛ يرتبك بها الجاهل ويتعجب منها العالم وتستشكل على المخلص في حياته، فلا يكاد يستخلص صحيحها من سقيمها ليبرهن به على ما يعتقد في قائله من الاستقامة وحسن الالتزام بالكتاب والسنة. وبالتالي فإنّ حسن الظن به لا يُعني عن الباحث المحايد في محاولته لإبراء ساحة السرهنديّ مهما تأوّل أقواله.

لاجرم أنّ أحمد الفاروقيّ السرهنديّ كان ذا شأن، ولكن ليس بعلمه؛ بل بالتفاف جمهور من حثالة الناس حوله؛ كغالب شيوخ هذه الطائفة. وربما لهذا السبب كان له تأثير على بعض الملوك ورجال السلطة. فقد جاء في موسوعة للنقشبنديين أنّه أرسل كتاباً كان قد ألفه بعنوان «رد الروافض»، أرسله إلى عبد الله خان، ملك الأوزبك؛ يندّد فيه بالشيعة، ويرميهم بالحمق والسخافة؛ ويطلب من الملك المذكور أن يرسل كتابه هذا إلى العباس الصفوي شاه إيران. فإذا اعترف بما فيه وتاب، فيها. وإلاّ وجب قتاله.⁴⁴² فامتثل الملك عبد الله خان لأمره وعرض الكتاب على شاه إيران؛ ولكنّ الشاه رفض المطلوب منه بحكم الطبع. إذ ليس من السهل أن يتخلّى الإنسان عن عقيدة تشرّبها إلى أعماق ضميره منذ نعومة أظفاره، فيتبرأ منها في لحظة مهما كانت باطلة، ليعتنق عقيدة جديدة؛ وبخاصّة إذا اصطدم بإكراه على ذلك. ولا يخفى أنّ أعمال الإرشاد والدعوة لا تنتهي بالنجاح إلاّ بأسلوبه الخاص الذي أوضحه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ⁴⁴³

ولكن يبدو أنّ الملك عبد الله خان قد اختار أسلوب الملوك على الأسلوب القرآنيّ الحكيم بتأثير السرهنديّ. ذلك {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} ⁴⁴⁴ فما كان من الطرفين إلاّ وحمي الوطيسُ بينهما ذهبت في غمرته آلاف من الضحايا!

تأصل بعض الرافضة في قلوب النقشبنديين بعد هذه الواقعة وأصبح ميّزة تتّصف بها السنيّة التقليديّة وانتشر بانتشار الطريقة النقشبنديّة. وهو السبب الرئيس للخلاف والصراع والحروب المستمرة بين الأتراك والفرس عبر العصور. ولكنّ كثيراً من الناس يجهلون أنّ هذه العداوة التي بثها السرهنديّ بين أتباع هذه النحلة، لم تنبت في قلبه لما كان يرى في عقيدة الشيعة من الخروج على الإسلام؛ بل نشأت بسبب منافستيه لبعض رجال البلاط الملكيّ الذين كانوا من الشيعة. لقد كان بين السرهنديّ وبينهم صراع شديد على المصالح. فغلب تأثير الفريق الشيعي منهم على الملك جهانكير حتى أوعزوا إليه بتنكيهه؛ فأمر باعتقاله في قلعة «كُوَالِبَار»، لبث فيها ثلاث سنين.

لابدّ وأن نشير أخيراً إلى أنّ أحمد الفاروقيّ السرهنديّ هو رجلٌ وجوديٌّ بشهادته على نفسه وإطرائه على كبير الوجوديين محي الدين بن عربي؛ إذ يقول:

«قد كُشِفَ لي التوحيد الوجوديّ وأُلقيَ إلىّ علوم كثيرة ومعارف جمّة ورقائق وافية من هذا المقام؛ ولاحت لي معارفٌ مُظهِرِ الصفة العلميّة الشيخ الأكبر... وتشرفْتُ بالتجليّ الذاتيّ الذي بيّنه الشيخ وجعله نهاية العروج وخصّه بخاتم الولاية مفصلاً وموضّحاً».⁴⁴⁵

هكذا يبدو جليّاً أنّه قائلٌ بوحدة الوجود، وواقفٌ موقفَ الإجلال من محي الدين بن عربي، بخلاف ما ادّعى البعض من هذه الطائفة: «إنّه برئٌ من تلك العقيدة، وإنّه إنّما قال بوحدة الشهود ليرهن به عن بطلان وحدة الوجود». ومهما كان، فإنّ فكرة «وحدة الشهود» أيضاً عقيدة غامضة.

وإنّ فرضنا أنّ غرضه من «وحدة الشهود» هو وحدة المشهود، أي هو إقرارٌ بوحدة الموجودات القابلة للشهود بصفة المخلوقة على سبيل تنزيه الخالق الباري عن إحاطة العبد به في نطاق ما يُبصره؛ فإن هذا الغرض، بل هذا الإقرار لا يقوم مقام حدّ جامع لكافة المخلوقات. وإنّما يشتمل على كلّ ما يدخل في نطاق البصر فحسب، ويخرج من هذا الحدّ بقيّة المخلوقات من المحسوسات وغيرها؛ فضلاً عن أنّ كلمة «وحدة الشهود» تعبيرٌ كلاميّ غريب ومعقّد، لم يرد في الكتاب والسنة، ولم يتكلّم به أحد من السلف الصالح.

إنّ هذه الأفكار الدخيلة، وأنماطاً أخرى من أمثالها إنّما تسرّبت إلى الطريقة النقشبندية في عهد أحمد الفاروقيّ وخلفائه، فتحولت هذه الطريقة إلى دينٍ مستقلٍّ برسومها وطقوسها وآدابها وأركانها، خاصّةً بحكم كون هؤلاء الرجال من عناصر هنديةٍ مجبولة على التقليد بسبب صلتهم الدائمة مع البراهمة والسيخ والبوذيين في الهند. وهي ساحة نائية عن قلب بلاد الإسلام. وأنّ الإسلام إنّما انتشرت في تلك المناطق عن طريق الوفود من رجال التجارة والسياسة الذين لم يكونوا أصلاً من أهل العلم والإختصاص في الدعوة والإرشاد؛ ولم تكتمل فيهم الكفاءة في توجيه المشركين إلى الدين الحنيف

بالوجه الصحيح؛ وإن فرضنا أن عددًا كبيرًا من تجار المسلمين قد احتسبوا لله في نشر الرسالة المحمدية بين مجوس الهند عبر العصور.

هكذا تغذت الطريقة النقشبندية بالعقائد الخلية في ديار الهند وامتت على قاعدة من تعاليمها مدة مائتين وخمسين عامًا منذ عهد السرهندي حتى وجدت من يقفز بها إلى الساحة العراقية عام 1811م؛ وبيئتها في ربوع المملكة العثمانية. ألا وهو خالد البغدادي الذي طورها وصبها في قالب آخر مع خلفائه كما سنشرح أحوالهم فيما يلي كلاً على حدة إن شاء الله تعالى.

* الحلقة الرابعة والعشرون من السلسلة النقشبندية.

استخلف أحمد الفاروقي ابنه محمدًا المعصوم؛ فأصبح هذا الخلف بذلك هو الحلقة الرابعة والعشرين من سلسلة الروحانيين للطريقة النقشبندية. وصار استخلاف الأولاد والأقارب بعد الفاروقي من العادة الشائعة بين كبار هذه الطائفة؛ كما تحولت عائلات شيوخ النقشبندية إلى سلالات مقدسة، ذات مكانة مرموقة ومتفوقة على طبقات الناس في المجتمعات العجمية الخليفة من الترك والکرد والفرس والهنود والمغول والأقليات القوقازية نتيجة هذه العادة.

ولد المعصوم عام 1007 من الهجرة الموافق لسنة 1599 من الميلاد بقرية «مُلك حيدر» التابعة لمدينة سرهند، ومات في هذه المدينة عام 1079 من الهجرة الموافق لسنة 1668 من الميلاد.

كان محمد المعصوم أيضاً على عقيدة الوجودية كوالده. ولكنه جاء بتفسير باطني جديد لهذه العقيدة فطورها بإضافة مفهوم «القيومية» إليها. إلا أن هذا التفسير لم يحظ بشيء من الاهتمام والشيوع بين الصوفية. بل ظل مهملاً في تضاعيف ما كتبه وخلفه من رسائل غير ذات قيمة لا يلتفت إليها اليوم أحد حتى النقشبنديون. ذلك أن مفهوم «القيومية» فكرة غامضة معقدة جداً؛ يأبي التصور البشري أن يستوعبها، لصياغتها بنسج من هفوات غريبة وعبارات متشابكة بأسلوب صوفي صلب ومركز.

ومن جملة ما سجّله محمّد المعصوم في هذا الصدد - على ما نقله عبد المجيد بن محمّد الخائي -، قوله: «القيوم في هذا العالم، خليفة الله تعالى ونائب منابه؛ والأقطاب والأوتاد والأبدال والأفراد مندرجون تحت ظلاله».⁴⁴⁶

هكذا قال بصراحة، وهذا يدل على عقيدته بالاختصار.

وما رُوِيَ عنه في تراجمه على سبيل الكرامات والخوارق الظاهرة على يده، كتحويل الورق إلى الذهب والفضة وما أشبهه⁴⁴⁷ يبرهن على أنّه كان يتعاطى السحر والشعوذة. وذلك ليس ببعيد عن الشيوخ ذوي الأصول الهندية.

* الحلقة الخامسة والعشرون من السلسلة النقشبندية.

عاد الاستخلاف في الأسرة الربّانية ثانية فأنتجت لهذه الطريقة شيخاً ثالثاً، وهو سيف الدين بن محمّد المعصوم الفاروقيّ الذي يُعدُّ هو الحلقة الخامسة والعشرين من سلسلتهم.

ولد سيف الدين عام 1049 من الهجرة الموافق لسنة 1630 من الميلاد بمدينة سرهند؛ ومات بها سنة 1098 الموافقة لعام 1696 من الميلاد.

تعلّم سيف الدين على عمّه محمّد سعيد الفاروقيّ. وتولّى تربية الملك «أورنكزيب علمكبير بن شهاب الدين محمّد شاه جهان»، ملك الدولة المغولية الهندية. ثم ترّبّع على عرش النقشبندية بعد أبيه، واتّخذ أسلوب جدّه في بثّ عقيدته عن طريق المراسلة. بلغ عدد رسائله مائة وتسعين مكتوباً جمعها ابنه محمّد الأعظم.

يغلب أنّ الشهرة التي امتاز بها سيف الدين، لم تكن بسبب تفوّقه في العلم والمعرفة؛ وإنما كانت وراثية. لأنّه لم يتغيّر به شيء في الطريقة النقشبندية ولا حدث أيّ تطوّر وازدهار في الدولة المغولية الهندية في عهده.

446 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/192.

* الحلقة السادسة والعشرون من السلسلة النقشبنديّة.

هذه الحلقة يمثلها رجل اسمه نور محمد البدواي.

لم يتصل ذكره بأيّ إنجاز أو نجاح أو بطولة حظي المسلمون بشيءٍ من آثارها. أمّا ما قصّته النقشبنديّة من حكايات أسطورية على سبيل الكرامة له، فإنّها ليست مما يُعتدُّ بها.

يبدو أنّه كان رجلاً خاملاً، مغموراً، نازعاً إلى التطرف والشعوذة. حُكي أنّه «أدخل مرةً رجله اليمنى إلى بيت الخلاء، فانقبض ثلاثة أيام من مخالفته للسنة»⁴⁴⁸ كما حُكي أنّه «لكثرة ما كان يُطأطئ رأسه ويُقبَع، تقوس ظهره»⁴⁴⁹.

يبالغ عبد المجيد بن محمد الخائي في مدحه بأسلوبه المسجع، فيقول: «وافتخر به فريق الطريق شرقاً وغرباً، فانظر كيف سلّم نفسه للسيف لينال شهادة السعادة وسعادة الشهادة ويحيا الحياة الأبدية (من قتلته فأنا ديتة)»⁴⁵⁰

تفتن الخائي هنا في استعراض بلاغته - إذ هو أديب النقشبنديين -؛ فاستعمل كلمة «السيف» على سبيل المجاز في قوله «فانظر كيف سلّم نفسه للسيف...» وهو في الحقيقة ليس إلا الشيخ سيف الدين الفاروقي. ولكن الخائي استعار منه معنى السيف الذي هو السلاح التقليدي المعروف.

هذه الصيغة المنسوجة بلهجة المكر ولغة الحيلة، قد يرمز إلى حقيقة رتبها الخائي في صورة لغزٍ لكي لا يتبلور الأمر أمام كلّ النَّاس فيُصبح موضوع النقاش والتحليل والتأويل، حفظاً على سُمعة الروحانيين في المجتمع، وخشية أن تسقط هيبتهم من قلوب الناس.

448 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخائي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/201.

449 المصدر السابق.

450 المصدر السابق ص/200.

ذلك أنّ قوله «فانظر كيف سلّم نفسه للسيف...» يحتمل معنيين: أحدهما حقيقيٌّ. وهو أنّ نور محمدًا البدوائيّ قد قُتل بصورة فعلية. وهذا قد يكون له أساس من الصحة. لأنّ الربّانيّ كان قد شدّد النكير على الرافضة. فأدّى ذلك إلى عدائهم على خلفائه. كما قيل أنّ شمس الدين حبيب الله ميرزا مظهر جان جانان قد قُتل على أيديهم؛ وهو من خلفاء نور محمد البدوائيّ.

وثاني المعنيين مجازيٌّ، سبقت إليه الإشارة آنفًا. يعني ذلك: أنّ نور محمدًا البدوائيّ سلّم نفسه للشيخ سيف الدين الفاروقيّ، فنال بذلك مرتبة الشهادة. لأنّ ما تكابده في سلوكه تحت إشراف الشيخ سيف الدين يُعدّ نوعًا من الفداء بالنفس.

هذا الرجل الذي تكلف النقشبنديون في تبجيله وتعظيمه بأساليب مزخرفة، لا علم لأحد بتاريخ ميلاده على الرغم من زعمهم بـ «أنّ كشفَ حضرة السيد كان على غاية من الصحة».⁴⁵¹ فلم يسبق منه أن ذكر شيئًا فيه تصريح بتاريخ ميلاده. وقيل مات البدوائيّ عام 1135 من الهجرة الموافق لسنة 1722 من الميلاد.

* الحلقة السابعة والعشرون من السلسلة النقشبندية

يحمل سمة هذه الحلقة رجل اسمه شمس الدين حبيب الله ميرزا مظهر جان جانان. وهو هنديّ الأصل كمشائخه الأربعة الذين قبله. ويبرهن هذا الاسم الموزون على حقائق هامةٍ تميّز بها شخصيته وحياته؛ كما وردت في عبارات سجلها الشيخ قسيم الكُفرويّ، أحد البارزين بين شيوخ هذه الطائفة في عصرنا.

يقول الكُفرويّ عنه: «انتسب إلى البدوائيّ ولم يتجاوز عمره الثامنة عشرة. كان يرتدي بأدنى ما يستر به عورته، يجول في الصحاري ويأكل من ورق الشجر. وهكذا أمضى أربع سنين حياة الدراويش،

فأذاق أرباب الطريقة ألواناً من الحُبِّ الأفلاطوني⁴⁵². يبدو من هذه العبارات أنه لم يأكل اللحم لما تأثّر بعادات البوذيين ومعتقداتهم.

إذا تأملنا في هذه الشخصية، بعمقٍ وإمعان؛ لا نكاد نجد وجهًا من وجوه الشبه بينها وبين شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم. وإنما فيها ملامح ظاهرة من شخصية بوذا الراهب الذي تُنسب إليه الديانة البوذية. وهذه من البراهين التي تؤكد على أنّ الطريقة النقشبندية قد تأثرت بتعاليم البوذية إلى أبعد الحدود؛ وأخذت منها روحًا جديدةً بعد قفزها من بلاد ماوراءالنهر إلى الساحة الهندية منذ عهد الباقي بالله الكابليّ إلى زمن خالد البغداديّ الذي حملها من بلاد الهند إلى الشرق الأوسط وطورها إلى شكلها الذي هي عليه اليوم.

ولد جان جانان عام 1111 من الهجرة الموافق لسنة 1699 من الميلاد. وقُتِلَ غيلةً بمدينة دهلي عام 1195 من الهجرة الموافق لسنة 1781 من الميلاد. وذلك على يد نفر من الشيعة. وقيل كانوا من مجوس المغول.⁴⁵³

يزعم النقشبنديّون أنّه من البطن الثامن والعشرين من سلالة عليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ وأنّ المتأخّرين من آبائه كانوا أمراء. إلّا أنّ أباه ترك منصبه زهدًا، وأنفق أمواله الطائلة على الفقراء تصدّقًا. كلّ هذه المعطيات تبرهن أيضًا على التغيّر الذي دبت أمارته في أسرة جان حانان، والاتجاه الذي نزعَتْ إليها أسوةً بحياة الرهبان الهندوس.

وأما جميع ما قصّه النقشبنديّون من حكايات أسطورية على سبيل الكرامة له، فهي لا تتجاوز مزاعم غريبة عدّوها من علامات الصالحين ونسبها إليه؛ كما قد نسجوا من أمثالها لبقية الروحانيين. وهي في الحقيقة واردة في سير الرهبان والعابدين من أهل العزلة في سائر الأديان. ولم يكن الرهبان يومًا من الأيام ورثةً للأنبياء والصالحين الذين أناروا طرقَ الحياة السعيدة للناس في هذه الدنيا، ودلّوهم على العمل الصالح، وسلوك سبيل السلام إلى النجاة الأبدية. بل كان شأن الرهبان ومن على شاكلتهم من

452 وهذا النصّ الأصليّ لكلمات الكفراويّ باللغة التركيّة: ağaç çöllerde giyinerek sadece kadar avretti setredecek bu zat, yalnız Onsekiz yaşında Muhammed Bedevani'ye intisap eden

bu zat, yalnız avretti setredecek kadar giyinerek çöllerde ağaç yaprakları yemek suretiyle dört sene tam bir kalender hayatı yaşamış ve tarikat ehline eflatunî bir aşkın cilvelerini tattırıştır.

Kasım Kufralı, Nakşibendiliğin Kuruluş ve Yayılışı Pg. 91. İstanbul-1949

İslâm Alimleri Ansiklopedisi 17/49. 453

شيوخ الطرق الصوفية؛ كان شأهم العزلة، والتقشُّف، ولبس المسوح، وكراهية الحياة، ورفض نعم الله، وتعذيب الجسد بأنواع من الرياضيات الشاقة.

إنَّ هذا الشيخ الهندي، لا أثر له يُذكر. ولهذا لا نعثر على اسمه في مصنَّفات أهل البحث والدراسة، سوى كلماتٍ قليلةٍ سجَّلها أبو الحسن الندوي في الجزء الرابع من كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».⁴⁵⁴

أمَّا قصَّة حياته التي دوَّنها تلميذه غلام علي عبد الله الدهلوي بعنوان «المقامات المظهرية»، فإنَّ العقل الراجح غنيٌّ عن الاشتغال به.

* الحلقة الثامنة والعشرون من السلسلة النقشبندية

يستحق الإمام بشخصية الرمز الذي يُمثِّل هذه الحلقة؛ وهو غلام علي عبد الله الدهلوي. وذلك لسبب هامٍّ، يمكن تلخيصه بأنَّه استطاع أن ينهض بالطريقة النقشبندية في مرحلة حسَّاسة من الزمن لم يكن القيام فيها من السهل بنشاطات روحانية. وبخاصَّة فإنَّ الطريقة النقشبندية كانت قد بلغت الغاية من التوسُّع والانتشار. فالمعقول، أن يكون نهاية الكمال بدابة الزوال لكلِّ شيءٍ سوى الله، وكان الملحوظ أن يبدأ الإنحطاط في الطريقة النقشبندية فتقلُّص، لظروف الوقت والمنطقة. فإنَّ الأوضاع لم تكن تسمح لقيام أيِّ فكرة تتعارض مع روح النزاع، أو تتسم بالسلمية والهدوء والحياد. إذ أنَّ الوضع كان على أشدِّ حالٍ من الفوضى بين الجموع المتباينة في الساحة الهندية يومئذ. أمَّا الدين والنشاطات الروحية والفلسفية والعلمية والفنية، فإنَّها تختفي غالبًا في مثل هذه الظروف، لشغل الناس بالدفاع عن حياتهم وعرضهم وأموالهم. ولكنَّ الدهلوي على الرغم من ذلك تمكَّن من استمالة القلوب بدعاياته المتواصلة التي قام بها عن طريق المراسلات على غرار أحمد الفاروقي وابنه محمد المعصوم؛ كما تبرهن على ذلك رسائله التي بلغ عددها مائة وخمسة وعشرين قطعة، جمعها شاه رؤوف أحمد (وهو أحد خلفائه) بعنوان «المكاتيب الشريفة»

ولد غُلامٌ علي عبد الله الدهلويّ عام 1158 من الهجرة الموافق لسنة 1745 من الميلاد، في خضم الحركات الثورية والفتن المتفاقمة والحروب الدائرة بين ملوك الطوائف على الساحة الهندية وعلى حين من احتضار الدولة المغولية التيمورية. وكان من أشدّ هذه الفتن زحف المراهنة الجوس على مدينة دلهي عام 1760م. كان غُلامٌ علي يومئذ شاباً مراهقاً.

قضى غُلامٌ علي مرحلة شبابه في عهد خمسة من ملوك الدولة التيمورية⁴⁵⁵ الذين بلغت القلاقل والاضطرابات والأحداث الدامية غايتها عبر حكمهم. ولم تتمتع البلاد بشيء من الهدوء والاستقرار إبان هذه المرحلة حتى فرض الإنجليز سيطرتهم على البلاد الهندية بصورة نهائية؛ وذلك سنة 1214 من الهجرة الموافقة لعام 1799 من الميلاد، إثر معركة سرنكابتن و استشهاده سلطان تيبو.

على الرغم من هذا الجوّ الخانق، استطاع غُلامٌ علي أن يُثير اهتمام جمهورٍ من الناس من أولئك الذين لم ينبض في أحدهم عرق الحمية والإيمان أمام الكارثة التي حلت بالمجتمع الإسلامي يومئذ في الهند. كان يث الدهلويّ عقائد الأسرة السرهنديّة بحماس وجلد، ويعمل على إشاعة صيتها. يدلّ على نجاحه في مهمّته اجتذابه رجلاً من أكراد العراق، لينفت في روعه من هذه العقيدة، وليُلقِي على كاهله مسئولية القيام بنشرها. ألا وهو خالد البغداديّ الذي سوف نركّز على أحواله وأطواره وتلّونه إن شاء الله تعالى.

إنّ تأثير الديانات الوثنيّة يظهر بوضوح في عقيدة غُلامٌ علي عبد الله الدهلويّ أيضاً من خلال ما جاء في رسائله.

أولاً، إنّّه قائل بوحدة الوجود، ووحدة الشهود. فقد كتب جُرأةً واستمراراً وإصراراً؛ وأسهب واسترسل في هذه المسألة أكثر ممن تكلم فيها.⁴⁵⁶

455 هؤلاء الملوك هم: محمد شاه (1161-1331هـ)؛ أحمد شاه (1161-1167هـ)؛ عزيز الدين غلنگ (1167-1172هـ)؛ شاه عالم محمد أكبر الثاني (1172-1221هـ)؛ بهادر شاه آخر الملوك التيموري (1221-1278هـ)؛

456 هذه رسائله التي شرح فيها تفسيره لعقيد وحدة الوجود:

الرقم المسلسل	رقم الرسالة	رقم الصفحة	الرقم المسلسل رقم الرسالة	رقم الصفحة
1	18	36	6	69
2	26	46	7	70

ثانياً، تطرّق إلى آداب الطريقة النقشبندية وأركانها ومبادئها في عدّة من رسائله بمرونة و مرواغة، أوهم فيها القارئ أنها منبثقة من روح الكتاب والسنة. وبخاصّة ذكر في الرسالة التسعين من أهم مصطلحات هذه الطريقة. تلك المصطلحات الدخيلة المشبوهة. كالشهود، والوجود، والمشاهدة، واللطائف، والكشف، والأسرار، وحبس النفس أثناء الذكر، والرّابطة، والجذبة، وخرق الحجب، والفناء، والبقاء، والوحدة، والكثرة، والأنس، والوحشة، والاستغراق، والسكر، والولاية الصغرى والكبرى، والسير، والسلوك، والقيومية، والحقيقة المحمّدية والأحمدية، والذوق، والشوق، والتجلي، والمقامات العشر، والأركان الأحد عشر، وغيرها.

إنّ موقفه المتجاهل للواقع الذي كان يعيش في غماره، يبرهن على تأثره البالغ بتعاليم الأديان والعقائد السائدة في مجتمعه من البرهمية والبوذية. فإنّ رسائله شاهدة على ما يميّز به من روح الاستسلام والسبات والغفلة عمّا كان يجري حوله يومئذ. وهي من نتائج هذه العقائد الهندية الوثنية التي تُفضّل الخضوع والاستسلام على المقاومة والدفاع. ذلك أنّنا لا نعثر في مضمون جميع رسائله على كلمة واحدة فما فوقها، تُنبؤنا عن ردّ فعله ضدّ الغزاة الإنجليز المستعمرين الذين ارتكبوا الجازر الوحشية ضدّ سكان الهند، خاصّة المسلمين منهم؛ وانتهكوا الحرمات، وانقضّوا على البقاع الآمنة فأهلكوا فيها الحرث والنسل. كان موقف غلام علي الدهلويّ عكس موقف علماء الإسلام من هذه الحملات. وعلى سبيل المثال، فإنّ الشيخ احمد بن عبد الرحيم المعروف بشاه وليّ الله الدهلويّ - وهو من معاصري غلام علي ومن الأعلام الذين نبغوا في تلك المناطق -، نجده على منتهى درجات الوعي والحماس للدفاع عن دماء المسلمين وعرضهم،⁴⁵⁷ ويتحمّل المسؤولية، ويخاطب الملوك والأمراء بحماسة إسلامية، وهمة عالية، ويستنجد بهم لإيقاف أسباب الفساد، ويحاول بجهود متواصلة، وإيمان صادق، لتوفير الأمن والحرية في ربوع المجتمع الإسلامي. بينما نطلع على ما ورد عن غلام علي، أنّه يتهافت ويتخبّط ويعبث بالمفاهيم والقيم، ويتكلّم بلغة لم يتكلّم بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولا صحابته مع أنّه يتقن لغة القرآن، ويعده أتباعه من ورثة النبي صلى الله عليه وسلّم. هذا إلى جانب ما يتخطّى

3	61	67	8	75	94
4	64	69	9	89	132
5	68	76	10	90	152-151
			11	121	243-242

457 أنظر رسالته التي وجهها إلى أحمد شاه الدراني، ولي قندهار، يلتمس منه حماية بلاده. راجع كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لآبي الحسن الندوي 246/4.

الواقع بأسلوب متجاهل، ويتبى أمورًا لا تعود بخير على مجتمعه الذي يعاني الفساد والانحلال؛ ولا تُخرجهم من المأزق الذي تورط فيه أبناء أمتهم.

* الحلقة التاسعة والعشرون من السلسلة النقشبندية.

هذه الحلقة يمثلها رجلٌ من أهمّ الشخصيات البارزين في تاريخ الطريقة النقشبندية، وأكثرهم معرفة بالعلوم العقلية والنقلية، وأوسعهم شهرة بين الخاصة والعامة، وانجحهم تلونًا في استمالة قلوب الناس والاستيلاء على ضمائرهم وإلقاء هيئته عليهم. هذه الشخصية هو أبو البهاء، ضياء الدين خالد بن أحمد بن الحسين الشهرزوري البغدادي المعروف بين أتباعه بعنوان «مولانا خالد ذو الجناحين»⁴⁵⁸

ولد البغدادي عام 1192 من الهجرة الموافق لسنة 1778 من الميلاد بمحل اسمه «قره طاغ» على مقربة من مدينة السلیمانانية العراقية. ومات بالطاعون في مدينة دمشق عام 1242 من الهجرة الموافق لسنة 1826 من الميلاد.

نشأ وترقى ودرس مقدّمات العلوم التقليدية في المنطقة التي ولد فيها. ثم خرج منها لطلب المزيد من المعرفة. فقرأ على بعض المَلألي في تلك النواحي، أخذ عن الشيخ عبد الكريم وأخيه الشيخ عبد الرحيم البرزنجي، والشيخ محمد الكردي، والشيخ إبراهيم البياري، والشيخ عبد الله الخرباني، حتى أكمل دراسته التقليدية حسب العرف المتبع في تلك المرحلة من العهد العثماني. إذ لم تكن يومئذ مقررات تعليمية معتمّدة من قبل الدولة للمدارس الشعبية. ثم واصل دراسته في فنونٍ أخرى كالحساب والهندسة والهيئة زيادةً على أمثاله. وذلك تحت إشراف الشيخ قسيم السنندجي.

458 راجع ترجمته بالتفصيل في كتاب «علماء دمشق وأعيانها في قرن الثالث عشر الهجري» للدولقيين: محمد مطيع الحافظ ونزار أباطة، الجزء الأول ص/ 298-335. دار الفكر-دمشق. وبغامشه (ص/ 298) قائمة بالمصادر التي تناولت حياة

صاحب الترجمة. كذلك راجع مجلة المجمع العلمي الكردي، العدد الأول. بغداد-1973م. ص/ 697-727.

يَدَّعي بعض المترجمين له، أنَّه من سلاسة عثمان بن عفان رضي الله عنه.⁴⁵⁹ ويقولون في الوقت ذاته إنَّه من أبناء العشيرة الميكائيلية الكرديَّة⁴⁶⁰ وهذا كلام متناقض كما يبدو. لأنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه، هو ثالث الخلفاء الراشدين، عربيّ الأصل من بني أمية، وهم بطن من بطون قريش. أمَّا العشيرة الميكائيلية، فهي قبيلة كردية لا صلة لها بِقُرَيْشٍ ولا بشخصية عربية.

اشتغل خالد بالتدريس مدةً في السليمانية وبغداد. بيد أنَّ الباحث الحاذق الدقيق إذا اطَّلَع على ما قد خلَّف هذا الشيخ من رسائلٍ وحواشٍ وملاحظاتٍ، وما تناقلته اللُّسُنُ عنه من صفاتٍ، وسلوكٍ، وأقوالٍ، وتعليماتٍ موجهةٍ منه إلى مريديه وخلفائه؛ وإذا أنعم النظر في عباراته وعلاقاته؛ اصطدم بحقائقٍ رهيبةٍ، وعِلْمٍ بالتأكيد أنَّه كان يمتاز بمزاج متوترٍ، ونفس مترقبةٌ مُتَجَسِّسةٌ، وطبيعة نشيطةٍ دساسةٍ. كان خالدٌ ذا طموحٍ وعزيمةٍ لا حدود لهما. أثارتُه آمالُه إلى المغامرة بما لم يتجرأ على اقتحامه أحد من رجال الدين في عصره ولا بعده! هذه الطبيعة المستفحلة هي التي دفعتُه ليكون دائماً هو في الصورة. لذلك لم يتَّسم بالاستقرار، فلم يصبر على مواصلة البقاء في الأجواء العلميَّة. بل تلاطمت به الأفكار والتصوُّرات، فجعلته يتطلَّع إلى عالمٍ لا يحيط به الزمان والآفاق، ولا يسعه نطاق الكلمات للتعبير عن حدوده المترامية وجماله البارِع؛ اشتاقت نفسه إلى مثل هذا العالمِ لِئُرْفِرَ سمرَّدًا بجناحين من نورٍ في مقدِّمة موكبٍ من الملائكة فوق جناحه وَالتَّبْيُونُ يَغْبِطُونَهُ، كَمَا يَتَصَوَّرُهُ خَاصَّةُ النَّقْشَبَنْدِيِّينَ وَيَتَوَاطُؤُونَ عَلَيْهِ!

ربما كانت هذه النفسية الفعالة المتناشطة هي التي حالت بينه وبين الحياة العلميَّة، وأضرمت في قلبه النيران إلى طلب مَنْ يُصَدِّقُه و يبشِّره بقرب سعادته وتحقيق آماله الأبدية وأحلامه وتصوُّراته التي لا نهاية ولا حدود لها؛ وأهدافه التي لم يظفر بها صناديد الرجال من الرواد والحكماء والأباطرة، ولا حتى الأنبياء والمرسلون! لم يزل خالدٌ يجوب ويتجوَّل في هيامٍ واشتياقٍ إلى هذا المطلب الموهوم، ويتكهن بتفسيرٍ أدنى حدثٍ يجري حوله بهذه النفسية الغربية، إلى أن أدركه رجل من أهل الهند؛ ثم لم يلبث الهندي حتى أحسَّ بما يخامرُه، فأوعز إليه أن يرافقه إلى مَنْ سوف تتحقق على يده آمالُه في عاصمة الهند.

459 محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة الندية ص/42.

460 محمَّد مطيع الحافظ-نزار أباطه، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري، الجزء الأول، ص/298. دار الفكر المعاصر- بيروت

نقتطف الآن مقاطع من قصة دخوله في هذه المغامرة؛ فيقول وهو في المدينة المنورة يتأهب للحج: «وكنْتُ أفتش على أحد من الصالحين لأتبرك ببعض نصائحه لعلِّي أعمل بها كلَّ حين، فلقيتُ شيخاً يميناً متريّضاً عالماً عاملاً صاحب استقامة وارتضاء، فاستنصحتُهُ استنصاح الجاهل المقصر من العالم المتبصر فنصحني بأمورٍ منها: لا تبادر في مكة بالإنكار على ما ترى ظاهراً يخالف الشريعة. فلما وصلتُ إلى الحرم وأنا مصرٌّ على العمل بتلك النصيحة البديعة بكرتُ يوم الجمعة إلى الحرم، لأكون كمن قَرَبَ بدنة من النعم فجلست إلى الكعبة الشريفة لأقرأ الدلائل⁴⁶¹، إذ رأيتُ رجلاً ذا لحية سوداء عليه زيّ العوامِّ قد أسند ظهره إلى الشاذروان ووجهه إلىَّ من غير حائل فحدتني نفسي أن هذا الرجل لا يتأدب مع الكعبة ولم أظهر عيبه. فقال لي: أما عرفت أن حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة! فلماذا تعترض على استدباري الكعبة وتوجهي إليك؟ أما سمعت نصيحة مَنْ في المدينة وتأكيدُهُ عليك؟! فلم أشك أنه من أكابر الأولياء وقد تسترَّ بأمثال هذه الأطوار عن الخلق، فانكبتُ على يديه وسألته العفو، وأن يُرشدني بدلالته إلى الحق. فقال لي: فتوحك لا يكون في هذه الديار. وأشار إلى الديار الهندية، وقال: تأتيك إشارة من هناك فيكون فتوحك في تلك الأقطار. فأيستُ من تحصيل شيخ في الحرمين يرشدني إلى المرام، ورجعتُ بعد قضاء النسك إلى الشام»⁴⁶².

يستطرد المترجم قائلاً:

«وكان متشوقاً بعد رجوعه من الشام إلى مرشدٍ من فحول الرجال حتى جاء إلى السليمانية رجلٌ هنديٌّ يسمى «مِرْزَا رحيم الله بك» المعروف بمحمد درويش العظيم آبادي.⁴⁶³ أحد خلفاء الشيخ الدهلوي، فاجتمع به وعرض عليه مطلبه. فقال له: «إنَّ لي شيخاً كاملاً مرشداً عالماً عارفاً بمنازل السائرين إلى ملك الملوك، خبيراً بدقائق الإرشاد والسلوك، نقشبديّ الطريقة، مُجَدِّي الأخلاق، علماً في علم الحقيقة. فسِرْ معي حتى نرحل إلى خدمته في جهان آباد، وقد سمعتُ منه إشارةً بوصول مثلك ثم إلى المراد»⁴⁶⁴.

461 وهو كتاب دلانا الخيرات تأليف: أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي. يشتمل على صيغ من الصلوات والأدكار منقسمة على أيام الأسبوع. أكثر الصوفية وخاصة النقشبندية معادون على قراءتها وأخذها أوراداً، إلا أنهم يشترطون قراءتها

على استئذان من أحد الشيوخ المأذونين بها.

462 المصدر السابق، ص/ 299-300

463 هذه القصة نقلها عدة رجال من النقشبندية الذين تصدروا لترجمة خالد البغدادي، منهم قسيم الكفروزي في تركيا. سجل هذه الحكاية في الصفحة الثالثة بعد المائة من كتابه: Nakşibendiliğin Kuruluşu ve Yayılışı. حصل

المؤلف بهذا الكتاب على شهادة الدكتوراه من جامعة إسطنبول-كلية الآداب عام 1949م. وهذا الكتاب المدون باللغة التركية، أعده المؤلف على الآلة الكاتبة. وهي نسخة واحدة لا ثانية لها حتى الآن، مودعة في خزانة معهد التركيات بمدينة

إسطنبول، ومسجلة تحت رقم/337.

464 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحايي، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/226.

إنّ هذه العبارات فحسب تدلّ على شخصيّة خالد بكلّ ميّزاتها دلالةً كافيةً - وإن أهملنا جميع ما نُقل عنه وعن غيره حول صفاته وأخلاقه ومواقفه - يتضح لنا من خلال هذه الكلمات مدى جانبه العاطفيّ وتكهنه وميله إلى الكهنة وحرصه في طلب مَنْ ينفخ فيه الروح ليتأكد من أنّه على حقّ في كلّ ما يحلم ويتصوّر ويصبو إليه. فكان بحاجةٍ إلى من يحرك فيه النقطة الحساسةً بحذافة ويطلقه من عنانه ليكون هو مقصودَ العالمين على وجه البسيطة.

لسنا بحاجة هنا إلى نقل ما ذكّر هو وغيره من صفحات رحلته إلى الهند، وأخذِه رخصة المشيخة والخلافة المطلقة للطريقة النقشبندية من غلام علي عبد الله الدهلوي؛ ولكننا بحاجة إلى طرح أسئلة عدّة والبحث عن معلوماتٍ صحيحة تكون بمنزلة الإجابة عليها، لتتلور من خلالها شخصيّة هذا الرجل وأسرار رحلته إلى الهند.

نتساءل أولاً عمّا أطمع خالدًا في الاتصال بشيخٍ من صوفية الهند حتّى غادر وطنه وتكبّد ألوانًا من المشاق، وعرض نفسه لأخطار رهيبه مُدّة سنةٍ كاملةٍ حتّى وصل مدينة دلهي عاصمة الهند عام 1810م.

فما عسى كان يأمل أن يناله هناك من علم وفضل ومعرفة بقضايا جديدة؟ هذا مع أنّ المحيط الذي تركه وراء ظهره والمناطق المجاورة له في الشرق الأوسط، تمتاز بأصالتها التاريخية، وتراثها العلمي والثقافيّ الزاخر. وهي أرض الأنبياء والمرسلين والصحابة والحواريين، ومشاهير العلماء والصالحين. طالما يقصدها الباحثون ورجال العلم، والمستشرقون، وتتوافد إليها الطلبة دائمًا من بقية العالم الإسلاميّ.

أمّا بلاد الهند، فإنّها على نقيض هذه المزايا والصفات. وهي أرضُ مجوس البرهمية، عبدة الشجر والبقر والقرود والحجر؛ وطنُ أهل الرهبة والبطالة والمسكنة؛ مسرح المشعوذين البوغيين والسحرة والكهنة والعرّافين؛ نائبة عن قلب بلاد الإسلام ومهبط الوحي والإلهام. وإن كان في بعض نواحيها نشاطات علمية ولكنها لا تداني المدن الشهيرة بمكتباتها الغنية، ومدارسها العامرة مثل القاهرة وبغداد والقدس ودمشق. كما يقرّ بهذه الحقيقة علامة بلاد الهند الشيخ أبو الحسن الندويّ بالذات فيقول:

«ولقد تضافرت عوامل كثيرة؛ من أهمها بُعد الهند عن مراكز الإسلام الدينيّ والنقائيّ - بلاد الحجاز ومصر والشام والعراق -؛ ووصول الإسلام إلى الهند بعد تعرّجه على تركستان وإيران، وقلّة شيوع اللّغة العربيّة فيها؛ وعدم الاعتناء بنشر علم الحديث الذي لا يزال يَبْتُ روح الدين الصحيح ويميّز السنّة عن البدعة ويقوّي الشعور بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ويوجد ملكة الاحتساب الديني الصحيح؛ ومنها صعوبة السفر للحجّ والرحلة في طلب العلم إلى البلدان الأخرى؛ وبقاء أقلية المسلمين مغمورة في أكثرية غير مسلمين الذين كانوا متشبّثين بعقائدهم، متمسّكين بتقاليدهم وعاداتهم غير الإسلاميّة، وغارقين في الخرافات والأوهام. وتضافرت هذه العوامل كلّها على تحويل المسلمين مرتعاً خصباً للدعوات المضطّربة والفرق الضالة والمحترفين بالدين؛ خرجوا يمثّلون دورهم ويجرّبون حظّهم في إضلال المسلمين».⁴⁶⁵

نعم، إذا ما الذي دفع خالدًا إلى هذه المغامرة التي لم يجن من ورائها شيئاً انتفع به المسلمون من علم أو قوة أو أخلاق أو رُقِيّ وازدهار غير تلك الرياضيات والتأمّلات التي ركبَ ذنبَ الريح إلى الديار الهندية لأجلها واستغرق فيها عامًا، والتي مهّدت له طريق الشهرة والهيمنة على قلوب مئات آلاف الناس حسبما تفوّه به بعض معارضيه كما سنشرحه إن شاء الله تعالى.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال آخر. وهو أنّ غلامَ علي عبد الله الدهلويّ كيف علّم بوجود خالد البغداديّ حتّى أشار بوصوله كما نفهم من كلام رسوله مرزا رحيم الله بك، ذلك الرجل الهنديّ الذي زار خالدًا في السليمانية وأخبره بذلك حسبما يسجّله الخائيّ في حداثقه على سبيل الكشف والكرامة لِعِلامِ علي الدهلويّ. هذا، على الرغم من تلك المسافة الهائلة بين الهند والعراق، بالإضافة إلى الظروف التي كانت تحيط بقارة آسيا، والقلاقل والفتن والحروب التي كانت تجري على ساحات كبيرة منها يومئذ. ثم أيّ غيبيّ يصدّق بمثل هذه الكرامة المختلّقة على حساب هذا الصوفيّ الهنديّ الذي داهمت القوّات الإنجليزيّة بلادَهُ أمام عينيه وهو لا يهّمه إلاّ «وحدة الوجود، ووحدة الشهود، والفناء، والبقاء، والسكر، والعشق الإلهي، والتركيز، وحبس النفس» وما إلى ذلك من عقائد البرهمية وتعاليم البوذيّة ورياضيات البوغيين! ثم من يضمن أنّهُ لم يكن على صلة برؤوس قوات الاحتلال، ما دام لم ينله منهم سوء، بل كان هو وأصحابه في أمان منهم دون غيرهم من سكان البلاد! لا بدّ وأنّ هذا

السؤال الهامّ سوف يُشغِلُ بآلِ رجالِ البحثِ والدراسةِ إلى أن تظهر الحقيقة بكمال الوضوح إلى العيان إن شاء الله.

نتساءل ثانياً، ما الذي أنجزه خالدٌ في سبيل النهوض بالمجتمع الإسلاميّ الذي كان يعاني أزدلّ درجات الجهل والتخلّف والعمى. وهل أقدم - ولو بخطوة - على تخفيف بلايا عظيمة داهمت المسلمين من الداخل والخارج في أيامه على كثرة أتباعه المستعدين للفداء بأموالهم وأنفسهم في سبيله بأدنى إشارة منه؟!

و يناسب هنا أن نتطرّق إلى بعض المشاكل العظيمة التي كان المسلمون يقاسونها في تلك المرحلة الزمنية، وعلى سبيل المثال: كانت المنظمات السريّة، وعلى رأسها الحركة الفرماونية التي جندتها دول الغرب، وبدأت في تأسيس محافلها في المدن الكبيرة بالعالم الإسلاميّ في تلك الفترة، كمدينة سالونيك، والقسطنطينية، وقونيا، وقيروان، وإسكندرية، ودمشق، وبغداد، وإصفهان، وتبريز، وبومباي، ودلهي؛ كانت هذه المنظمة الخطيرة تحاول اصطياد الرجال البارزين في المجتمع الإسلاميّ من العلماء والسياسيين والأثرياء، وذلك لهدم القيم السامية بأيدي هؤلاء، وتشكيك المسلمين في دينهم وعقائدهم، بالإضافة إلى أنّ هذه الدول اتفقت على تمزيق الوطن الإسلاميّ، فزحفت على بلاد المسلمين، وارتكبت فيها مالا يمكن حصره من الجنايات والمجازر والاستهتار بجرمااتهم، بل استعبدهم بعد أن احتلت أراضيهم.

وعلى رأس هذه الدول المتغلبة كانت بريطانيا قد استولت على الديار الهندية في الفترة التي سافر إليها خالد ليصبح نقشبندياً فيرجع إلى بلاده بأسرار هذه الطريقة ويبثها بين الناس.

نتساءل ثالثاً، إذا كان خالدٌ رجلاً صوفيّاً - ومادام الإنسان الصوفيّ مغموراً في حياة من العزلة والتقصّف والرهنّة، تنحصر مهامّه في رياضات نفسية، وتأمّلات عميقة ذهنية، وتركيز واستغراق - إذن فلماذا كان يكتف ما الله مبديه على لسان خليفته محمد بن عبد الله الخانيّ في قوله:

«إنّ هذه الطريقة هي الملامية المناسبة لما يكون عليه من الصحو الصديقيّ، والرجوع إلى البقاء الأتمّ الحقيقيّ بدعوة الخلق وهدايتهم إلى الحق برئاستي الظاهر والباطن وفتح القلاع والمواطن». ⁴⁶⁶

هذه العبارات، لا يردّها إلاّ الملوك وقادة الجيوش؛ وليست من كلمات شيوخ الصوفيّة. وربما يبرهن على هذه النية المُبْتَنة ما قد سجّله الباحث العراقيّ عباس العزّاويّ في ترجمة خالد، بعد أن خلع عليه من المدح والإطراء فقال:

«وكان حكيمًا قادرًا على إحياء الدولة العثمانية من جديد، وإفراغها في قالب آخر، خصوصًا في حالتها البالغة من الوهن والفتور في جوارحها والعلل والأمراض الطارئة عليها، ولكن لم يركن إلى الدنيا وما فيها ولم يتدخل في شيء من شؤون الدولة». ⁴⁶⁷

هذه الكلمات التي تبدو وكأنّها قد طارت من بين شفّتي العزّاويّ دون أن يشعر بما قد أفشى من خلالها عن أسرار لغز هامّ جدًّا، لقد يكمنُ فيها جانب خطير من شخصيّة خالد البغداديّ وما كان يتّصف به من التلون وانتهاز الفرص! تشهد على هذه الحقيقية ما نقلناه آنفا من كلماتٍ فيها شبه اعتراف قالها خليفته محمّد بن عبد الله الخانيّ، وهي بمنزلة الإجابة عن كلّ التساؤلات في هذا الصدد. ولعلّ ما قاله بعض معارضيه على سبيل الطعن فيه، يوضّح لنا ما يغيب عن إدراكنا من خفايا هذه الشخصيّة. ذلك هو الشيخ معروف البرزنجيّ العراقيّ الذي ألف رسالةً بعنوان «تحرير الخطاب في الردّ على خالد الكذاب». ⁴⁶⁸ بعث بها إلى والي بغداد سعيد باشا. قال فيها بعد أن اتّهم خالدًا بالكفر والزندقة:

«إنّ الأكراد كلّهم قد اتبعوه. وملاً ببدعته الآفاق، وإنّه يدّعي التصرّف في الكائنات، ويدّعي علم الغيب، وإنّه ذهب إلى الهند فتعلّم من السحرة الجوكية ومن نصارى الإنجليز دينًا ظهر عندهم». ⁴⁶⁹

466 محمّد بن عبد الله الخانيّ، بهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية، (النسخة القديمة: ص/12)؛ (النسخة الجديدة: ص/13). مكتبة الحقيقة، إسطنبول-1996م. لقد نقل حفيذه عبد الجيد بن محمّد الخانيّ هذه العبارات بضغطها، ولكنه

سجل كلمة «الملامية» على شكل «الملايعة». الخدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، ص. 9

467 عباس العزّاويّ، مولانا خالد النقشبنديّ (مجلة المجمع العلمي الكردي العدد الأول ص/ 704). بغداد-1973م.

468 المصدر السابق ص/ 710.

469 * محمّد أمين السويدي، دفع الظوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم (دياجة)؛ مكتبة سليمان، خزنة أسعد افندي رقم/1404. إسطنبول.

* محمّد مطيع الحافظ - نزار أباطه، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري 304/1.

نحن لسنا بصدد استغلال هذه الكلمات لتقييمها حجّةً على خالد البغدادي. لأنّ الاستدلال بطعن المعارض يُبرّر المعارضة ضدّ الاستدلال، وقد يتسلسل منه الخلاف، ويتمخض عنه الفساد. هذا من الجانب المنطقي والأخلاقي، وكذلك من الجانب الواقعي. لأنّ البرزنجي كان شيخاً من رؤوس الطريقة القادرية، ذا شهرة في المنطقة العراقية، وربما خاف منافسة خالد البغدادي له و توقع أنّ دائرة محيطه سوف تتقلص باشتهار منافسه، فقاومه بالسعاية والشكاية والطعن فيه كما مرّ. وإلاّ فإنّ معارضته لم تكن حميةً إسلاميةً وحمائيةً خالصةً لأصالة الإسلام خشية أن تتعرض قيم الدين الحنيف للاستحالة والفساد بانتشار بدع النقشبندية. لأنّه أيضاً كان صوفياً من أمثالهم، بل كان أقدمهم في نشر البدع وإفساد تعاليم الدين الحنيف بوساطة الطريقة القادرية.

ولكنّ هذا الصوفي الخامل، كيف اهتدى إلى المعرفة بـ «السحرة الجوكية» وعلم أنّهم من أهل الهند، وأنّ «الجوكية» أي «اليوغا» نوع من السحر - كما يظنّه بعض الناس -، مع أنّه في حقيقته شكلٌ من عبادة مجوس البرهمية؛ قوامها التأمل، والتركيز والاستغراق وحبس النفس. فقد اصطلحها النقشبنديون بعنوان الرابطة، كما سبق شرحها في بابها.

نعم، من أخبر البرزنجي عن كلّ هذه الحقائق التي لم يسمعها شيوخ الطرق الصوفية في الشرق الأوسط، لسطحية مستواهم الثقافيّ وغفلة أكثرهم عن واقع المجتمعات وجهلهم بصنوف الأديان والمذاهب والفرق والمنظّمات!؟

زد على ذلك أنّ خالدًا البغداديّ بالذات، يُقرُّ في مقطعٍ من ديوانه: أنّ الناس أنكروا عليه عزّمه السفر إلى الهند محتجين على مغادرته بلاد الإسلام إلى ديار الكفر، يقصدون بذلك السلطة الإنجليزية.⁴⁷⁰

470 راجع ديوان خالد البغداديّ، (وهو باللغة الفارسية): البيّن: 46-47. مكتبة السليمانية، خزنة الحاج محمود أفندي رقم/3700. إسطنبول. وهذا نصّها:

«بسي تويح كردند أهل توران و خراسان * بدار الكفر رفتن جون بسندي كر مسلمان!»

بدهلي ظلمي كفرست كفتند و بدل كتم * بظلمت رو آكر در جستجوي آب حواني».

معناها باللغة العربية: عاتبني أهل طوران و خراسان، فالو: «ما بك ترحل إلى ديار الكفر إن كنت لمسلماً! ثم قالوا: إن مدينة دهي قد غشيتها ظلمة الكفر؛ فقلتُ بدلاً عن ذلك (أو قلتُ في نفسي): إن كنت تبحث عن عين الحياة فعليك بطلبها

تحت جنح الظلام».

هذا، بالإضافة إلى ما جاء في ثنايا كتاب ألفه محمد أمين بن عليّ السويديّ بعنوان «دفع الظلوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم» ردّاً على أبي سعيد عثمان الجليليّ الموصليّ؛ جاء في ثنايا كتابه كلامٌ منقولٌ عن الجليليّ يذمّ فيه خالدًا ويطعن فيه «أنّه ذهب إلى الهند وتعلّم من الجوكيّة ونصارى الإنجليز، ظهر عليهم؛ وظهوره صار سبباً لإزالة ملوك الهند المسلمين عن كراسيهم وتملكها النصارى...»⁴⁷¹

هذه الكلمات، ولو فرضنا أنّ فيها مبالغة، ولكن يُستبعدُ أن تكون كلها بهتاناً محضاً على خالد البغداديّ لأسبابٍ هامةٍ جداً.

منها: أنّ الطاعن أبا سعيد عثمان بن سليمان باشا الجليليّ كان من أمراء الموصل. وهذا يبرهن منطقيّاً . على أقلّ تقدير . أنّه كان رجلاً متفتحاً خبيراً بما كان يجري داخل البلاد وخارجها من أمور وأحداث بحكم منصبه ومسئوليته. وبالتالي فإنّه لا بدّ وقد استند إلى مبررٍ تجرّأ بحكمه على هذا الإسناد الخطير.

ومنها: أنّ ما نسبته الجليليّ إلى خالد البغداديّ من علاقته بالإنجليز، ومشاركته معهم ضد ملوك المسلمين في الهند؛ فإنّه أمر في منتهى الخطورة، يستوجب الاعتماد على ما يستحيل إحباطه من أقوى الدلائل والبراهين. لأنّه يُستبعدُ أن يقوم رجل صوفيّ عراقيّ غريبٌ في ديار الهند بمشاركة الإنجليز في القضاء على حكم المسلمين في تلك الديار؛ كما يُستبعدُ في الوقت ذاته أن يبادر هذا الأمير العالم المرموق بشخصيّته العلميّة ومكانته الاجتماعيّة فيخسر كرامته بمثل هذا الإسناد الواهي الذي يجعل من خالد الصوفيّ الغريب المسكين بطلاً يزيل الملوك عن كراسيهم، وهو في أرض من أبعد المناطق على وطنه وعشيرته، معزولاً عن السلاح والعتاد!

ولكنّ خالدًا البغداديّ يمتاز بشخصيّة رهيبةٍ كلّما انكشف للباحث منها جانبٌ أثاره البحثُ ليتابع فيه سيره، فلا يكاد ينتهي منه.

ومن ميّزات البغداديّ أنّه لم تسنح له فرصةٌ إلاّ وقد استغلّها ليزداد بها شهرةً إلى شهرته. ومن دلائل هذه النفسيّة الحريصة: أنّه اقتبس ثلاث كلماتٍ من لهجة سكان الهند فاستخدمها في إشباع أغراضه وتحقيق طموحاته.

الأولى منها: هي كلمة «مولانا» التي اتّصف بها ليفتحّم شأنه، ولم يكن من العادة استعمال هذه الصفة للعلماء أو الروحانيين في المجتمع العثماني؛ بل كان من عادة الفرس والهند. كما عُرف بهذا اللقب جلال الدين الرومي الذي هاجر إلى مدينة قونية من خراسان في العهد السلجوقي. فلم يتلقّب بهذا العنوان أحد من علماء آناضول تقليدًا به، على الرغم من شهرته البالغة. وقد انتقد خالدًا عددًا من خصومه على اتّصافه بهذا العنوان وعلى رأسهم العثمان الجليلي.

وثانيها: هي كلمة «صاحب». كان استعمالها شائعًا بمعنى الصديق على لسان المنتسبين إلى الإسلام في الساحة الهندية. فأطلق خالد هذه الصفة على أخيه محمود بعد عودته من الديار الهندية، فاشتهر أخوه بها؛ ثم انتقل إلى أسعد بن محمود حتى عُرف هو الآخر بهذا اللقب وناداه الناس بـ«الشيخ أسعد صاحب ذاده»

ثالثها: هي كلمة «ميان» (بكسر الميم وفتحها). استعمالها طائفة من مريديه بتأثيره. وهي أيضًا بمعنى صاحب والصديق.

يرهن حتى هذا التقليد الطفيلي النافه على نفسيّة خالد البغدادي وطبيعته. والله وحده يعلم كم بذل خالد من الجهود وما همس إلى أمناء سره ودعاته وبطانته من أوامر وتعليمات لاستمالة الناس إليه وإلقاء هيئته ومحبتة في قلوبهم بكلّ طريقة ووسيلة أجادوها. إذ أنّ أيّ فرد ذاع صيته في حياته، يستحيل أن يكون قد نال ما نال من الشهرة دونما رغبة منه واشتياق، ومن غير تحبّب منه وتصنّع إلى الناس، ما عدا أهل الإيمان الصادق والإخلاص من أولئك الذين يمتاز دعواهم بالشمول والعالمية؛ وهم الأنبياء والمرسلون وأنصارهم من الخواريين والصحابية والصديقين والتابعين لهم بإحسان.

إذًا فإنّ أسرار شخصيّة خالد البغدادي قضية مهمّة مرهونة بالإطلاع على واقعها من خلال بحثٍ مستقلٍّ يستوعب جوانبها الخفية بتمامها. ولا نبالغ إذا قلنا: أنّ هذه السلسلة من التوضيحات التي ما زلنا في متابعتها، لا تبخل بكشف القناع عن قسط كبير من هذه الشخصيّة وإزالة ما يواربها من سراويل الزهد والإخلاص والعبادة والتقوى؛ وذلك بأقصى قدر من التفصيل بدقائقها على حقيقتها؛ لتكون وثيقة تاريخية، وعبرة لأولي الألباب!

مكث خالد البغدادي في مدينة جهان آباد (دهلي) مُدَّة عام كامل. عدا ما أمضى من الوقت في السفر ذهابًا وإيابًا. لأنَّه بدأ رحلته عام 1224 من الهجرة وعاد سنة 1226هـ. يُقَرُّ بهذه الحقيقة من أرَّخ له من النقشبنديين أيضًا. ولكنه ماذا عمل وما ذا تعلَّم في هذه المُدَّة؟ على أي حال، فقد أجاب النقشبنديون عن هذا السؤال حسبما قصَّ عليهم البغدادي من ذكرياته. ولكننا لا نعثر على كلمة واحدة ما عسى يكون قد صرفها دفاعًا عن دماء المسلمين من سكَّان الهند وحمايةً لعرضهم وكرامتهم ضدَّ السلطة الإنجليزية التي لم تعرف الأمان ولا الاحترام لحقوق أهل الإسلام في تلك الديار. بينما نعثر على عبارات له في رسالته التي وجهها إلى عبد القادر الحيدري ردًّا على كتابه، يعبر فيها عن ابتهاجه بغلبة الجيش العثماني على العرب الوهابيين، وهذه كلماته:

«ثمَّ بشرُّم فيها دَاعِيكُمْ ببعض الأخبار السارة من جهة الحرمين الشريفين وغلبة عساكر الإسلام وانتظام أمرهم، وذلة الفرقة المخدولة الوهابية وقربهم على الدمار والبوار، ووقوفهم على شفا جرف هار».⁴⁷²

من عجائب قدر الله وآثار قدرته أنَّ الغلبة صارت في النهاية لجيش الوهابيين، وانتظم أمرهم حتَّى أعلنوا عن قيام دولتهم. أمَّا عساكر النقشبنديين، فإنَّهم باؤوا بفشل ذريع وأصبحوا هم الفرقة المخدولة، بخلاف ما كان يتوقَّعه غوثهم الذي يعظِّمونه بصفات لا يعتقدونها في أحد من الأنبياء والمرسلين. فلم يتحقَّق لهم النصر ليباهوا بذلك خصومهم على أنَّه من كراماته⁴⁷³. {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.⁴⁷⁴

472 راجع المصادر التالي:

* محمد أسعد الصاحب، بغية الواجد ص/ 172: الرقعة الثالثة والأربعون من مکتوبات خالد البغدادي؛ كتبها إلى خليفته عبد القادر الحيدري؛

ضياء يوسف العظمة، جيش رجال الطريقة النقشبندية بالعراق، المكتب العربي للمعارف.

* المصدر السابق، ص/ 183: الرقعة الخمسون من مکتوبات خالد البغدادي؛ كتبها أيضًا إلى خليفته عبد القادر الحيدري؛

* عبد الكريم البياري المدرِّس، منشورات الجمع العلمي الكرمان، (تذكُّار الرجال)، الرقعة السادسة والثلاثون. مكتبة الحقيقة إسطنبول-1992م. (هذه الرسالة منمضة إلى رسالة أخرى اسمها مکتاتب شريفة لعبد الله الدهلوي، كلناهما بين دفتين في

مجلد واحد.)

473 ولكن هذه الفتنة التي اشترك في إضرام نيرانها الجانيان، غدت من الأسباب الهامة لسقوط دولة المسلمين (الإمبراطورية العثمانية العظيمة) التي كانت محطَّ آمال المسلمين، ومصدر فخرهم واعتزازهم وذخر أمنهم وأمانهم.

474 سورة آل عمران/126.

اشتهر خالد البغدادي بعد عودته من الهند بصورة غير معهودة، وذهب صيته إلى أقصى بقاع المملكة العثمانية مما أثار الشكوك حوله في نفس الخليفة العثماني السلطان محمود الثاني بالذات وفي أوساط حكومته. لأن أتباع خالد البغدادي كانوا يسعون بحماسة شديدة لنشر طريقتهم في جميع أنحاء المملكة، وكانت لهم نشاطات كثيفة حتى في مدينة إسطنبول عاصمة الدولة.

فقد ورد على لسان أحد المؤرخين العثمانيين ما قد عرّبه عباس العزاوي كما يلي:

«منذ خمسة أشهر مضت، ورد إلى إسطنبول بعض خلفاء الشيخ خالد المتوطن في الشام، وهو من علماء السليمانية، وانتشروا في مساجد إسطنبول وجوامعها، وبتوا الدعوة إلى طريقتهم، فانسب إليها جماعة من أكابر إسطنبول وعلمائها، ونالوا شهرة في بلاد العرب والتُّرك، وصاروا يسمون دعائم (الخلفاء)؛ فأذاعوا هذه الطريقة، وسعوا سعيًا حثيثًا في ترويجها وكسب المريدين لها».

«وهي وإن كانت لا ضرر منها في الظاهر، فالأولى أن لا يُتْرَكَ المجال لتكثير (سواد الصوفية) وإقرارهم على هذا. والواجب يقتضي مراعاة الأحوال الموجودة والمعهودة في الإسلام».

«وعلى هذا نُفي من إسطنبول مشاهير الطريقة النقشبندية وأعوأهم في 21 من شهر رمضان سنة 1234هـ. 1817م. ليلاً. وجيء بهم إلى الميناء، وأركبوا في زورق إلى (قارتال)⁴⁷⁵ ومنها إلى سيواس⁴⁷⁶ فأحلّوهم فيها. وفي اليوم التالي نُفي من مشاهيرهم علي أفندي أُرْغُبي من علماء إسطنبول إلى (جَرَكُش) داخل مدينة أنقره. وصالح أفندي، وأحمد أفندي إلى (سيواس). ثم أُرسِلَ خليفة الشيخ خالد وأَعُوَانُهُ إلى أنحاء السليمانية على أن لا يعودوا إلى إسطنبول».⁴⁷⁷

«فأدى هذا التطور إلى إصدار الأوامر بالبحث والتحقيق مع خالد البغدادي، رئيس الطائفة. وذلك بإيعاز من أحد رجال الدولة يُدعى خالت أفندي».⁴⁷⁸ فقام بهذه المهمة داود باشا والي بغداد. إلا أنه

475 منطقة وميناء داخلي في الناحية الشرقية من مدينة إسطنبول ومحطة هامة بينها وبين مدينة بالوا.

476 سيواس (السيطة القديمة) مدينة عريقة في أوساط أناضول، ومحطة هامة بين شرق البلاد وغربها.

477 تاريخ لطفي 287/1. مكتبة السليمانية، خزانة الحاج محمود أفندي رقم/4755.

478 حالت أفندي (السيد محمود سعيد 1766-1823م). كان رجلاً وجيهاً عالماً بارزاً بين رجال الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني. تولى مناصب هامة وأقام سفيراً في العاصمة الفرنسية (1802-1806م). على الرغم من أنه لم يتعلم

اللغة الفرنسية. شخصيته جديرة بالإهتمام. لأنه كان حريصاً مغامراً خطيراً لم يستعظم أي عقبة على طريقه في التوصل إلى مأربه. كان له تأثير في تنفيذ حكم الإعدام في كل من علي باشا وأبنائه المعروفين بأسرة (تبه دتلي)، وكذلك في إعدام سليمان

أعرب في التقرير الذي أعده؛ أنّ خالدًا لا قصد له إلاّ إحياء السنّة السنيّة، وأنّه مشغول بإرشاد مرّيه، غير ساع بذلك إلى تحقيق أيّ مصلحة له. وأنّه بعيد كلّ البعد عن الشؤون السياسيّة». وتعهّد الوالي داود باشا في نهاية التقرير: أنّ خالدًا لن يتدخّل في أيّ شيء من شؤون الدولة أبدًا.⁴⁷⁹

اطمأنّت السلطة لا شكّ بعد هذا التحقيق الذي أثبتّ ولاء خالدٍ للخليفة. إلاّ أنّ في هذا الحدث مسألة هامّة. تلك أنّ نشاطات خالد البغداديّ بما فيها رحلته إلى الهند، والتطوّرات التي تعاقبتها؛ كانتشار صيته إلى الآفاق بسرعة، وإقبال الأعيان عليه، إذا لم يكن ذلك كلّ خطّة قد أعدّها أيادي السلطة العثمانيّة بالذات في وقت سابق لاستخدامها في أوّنه لجمع شمل الدولة، فإنّ وجود خالدٍ صدفةً وبغتةً بهذه الشهرة المتزايدة أصبح فرصةً ذهبيّةً للتوصّل إلى الغرض المنشود، وبخاصّة لما اتّفق مع هذه المرحلة الخطيرة التي تراحمت فيها الولايات على الدولة العثمانيّة، والتفتّ بخناقها حتى كادت تُشرف على الدمار.

وعلى سبيل المثال فإنّ الوهابيين أعلنوا الثورة على السلطة العثمانيّة في جزيرة العرب. فأرسلت الدولة إليهم محمّد علي باشا عام 1812م. كذلك وقعت ثورات عديدة في منطقة البلقان؛ من أشدها ثورة الصرب في بلغراد التي أرسل خرشيد باشا لإخمادها عام 1813م. ثم انعقدت جمعية سرية يونانية باسم: أتنيكي أتريا Ethniki Etaireia عام 1814م. لفصل المنطقة اليونانية عن الدولة العثمانيّة وإعلان استقلالها. وكانت الدول الأوربية قد اتّفقت في خضم هذه الثورات على إجبار الدولة العثمانيّة للاعتراف بالوجود السياسي للأقليات. ولم يكن الغرض الحقيقيّ للدول المتحالفة من هذا الإجبار إلاّ تمهيد الوسط لاقتسام الأراضي العثمانيّة فيما بينها.

كانت هذه نبذةً يسيرةً عن مشاكل الدولة العثمانيّة في الخارج. أمّا في الداخل، فإنّ الدولة كانت قد فقدت الهيمنة على المنطقة الكرديّة. وعندما كلّف السلطان عشائر الأكراد بحمل السلاح والالتحاق إلى معسكرات الدولة لتغطية الفراغ الذي بقي بعد القضاء على الجيوش الإنكشارية، رفضوا أمره، وأعلن بدرخان باشا (أمير كردستان) الثورة عام 1831م. وكانت الطائفة البيزيدية القاطنة بجبال

باشا والي بغداد، وإقالة صالح باشا، وثورة المورة. ثم في النهاية تم تنفيذ حكم الإعدام فيه أيضًا بتأثير مسيو صابستيان سفير الدولة الفرنسية في إسطنبول. فأمر به السلطان، فقتل في مدينة قونيا خنقًا بِنَعَةِ النقشبنديين هذا الحدث من كرامات الشيخ خالد البغدادي، وتحققًا لدعائه على حالت أفندي الذي كان قد سعي لدى السلطان محمود الثاني، وأشار عليه بأخذ الإحيات ضد خالد ووطنه.

سنجار بقرب مدينة الموصل، كانوا قد أعلنوا العصيان منذ عام 1830م. إنَّ الدولة العثمانية لم تكن قد تعرّضت إلى هذا القدر من المخاطر عبر تاريخها المديد.

إذاً فلم تكن مضايقة خالد البغدادي في مثل هذه الظروف من مصلحة الدولة بحكم الطبع. بل كانت الحكمة في استغلاله، وتجنيد أتباعه المنتشرين في أنحاء المملكة، واستخدامهم بجانب قوّات الدولة، ممّا دفعت السلطة إلى التعاون معه؛ كما تبرهن على هذه الحقيقة كلمات الباحث العراقي، عباس العزاوي بالنسبة لداود باشا والي بغداد، فيقول العزاوي «وبعد أن استولى على بغدادا وصار واليا عليها، استغلّهم سياسياً وجلب رضاهم...»⁴⁸⁰ خاصة وأنّ عقائد النقشبنديين لما كانت تختلف عن عقائد السلفيين اختلافاً كبيراً - والوهابيون يعدّون أنفسهم من السلفيين - استغلّت السلطة العثمانية هذا التنافر أكبر فرصة في تحريض خالد البغدادي وأتباعه على الوهابيين الثوّار، وكانت الأسباب متاحة لهذا الاستغلال.

إذ أنّ الموقع الجغرافي الذي اتخذته الفرقة الخالدية مركزاً لها يومئذ - وهو بلاد الشام والعراق - كان على تخوم منطقة الوهابيين، خاصة و أنّ هذا الموقع كان بمنزلة الدرع لمنطقة آناضول التركية ضد انتشار عقيدة التوحيد بدافع نشاطات النقشبنديين على امتداد هذه الساحات الشاسعة.

إنّ هذه الحقيقة ما زالت خافية على المثقفين العرب حتّى الآن، وأنّ البحوث العلمية التي قد خاض فيها علماء العرب منذ بداية النهضة الحديثة لم تتناول هذا الجانب من التطوّرات في أبعادها الواقعية والموضوعية، ذلك لأنّ الطريقة النقشبندية لم تنتشر في صفوف العناصر العربية بشكل ملحوظ. ولذلك لم ينتبه الباحثون العرب إلى مدى علاقات النقشبنديين بالسياسة وأهلها في الداخل والخارج، ولا إلى دورهم في محاربة الوهابيين، سواء في العهد العثماني وفي العهد الجمهوري. كما سنشرحه في بابه إن شاء الله.

إنّ الذين يدعون أنّ خالدًا جاء بتربية جديدة ونفخ في الناس روح الزهد والعفة والقناعة بفضل طريقته وآدابه الخاصة، فأدّى ذلك إلى هبوط ملحوظ في أحداث النهب والسلب والقتل، وساد الهدوء والأمن والطمأنينة في المنطقة الكردية بتأثير هذه الطريقة؛ فإنّ هذا الادّعاء قد يكون له أساس من

الصحة. إلا أنّ هذا الدفاع الحماسي العاطفي لا يبرهن على مشروعية الأساليب المخالفة لروح الإسلام بتاتاً؛ مهما كانت هذه الأساليب تتبع ما يُرشد إليه الإسلام نفسه من الفضائل والأخلاق السامية. فإنّها لا تعدو عن الإقرار بالإسلام وآدابه الأصيلة وعظمته وحقائيقه وربّانيته التي استوحيت منه النقشبندية أموراً كما استوحيت من أديان أخرى وعلى رأسها الهندوكية، إذن تسقط هذه الأساليب من الاعتبار تلقائياً في ميزان العقل والقياس المنطقي لأنّها تبقى زائدة على الإسلام وتفضله بدون حكمة؛ وتقع تلك الأساليب موقع دينٍ مستقلٍ. لأنه قد تكون ثمّة طرق لتدريب الإنسان على الصدق والقناعة والعفة وصفاء السريرة مع الشرك بالله. كما في الأديان الباطلة المحرّفة. فإنّ ذلك ليس من الحكمة في شيء. إذ لا يخفى أنّ اليهودية، والمسيحية، والبرهمية، والبوذية، والزرادشتية وغيرها من الأديان؛ كلّها تحرم الكذب، والغش، والسرقة، والإيذاء والقتل، والزنا؛ مع أنّها أديان محرّفة باطلة بحكم الله القاطع في كتابه العزيز. {إنّ الدين عند الله الإسلام}.⁴⁸¹ {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ}.⁴⁸²

أما اختفاء الوقائع الإجرامية بتأثير خالد البغدادي وطريقته، فإنه أمرٌ ثانويٌّ أسفر عن الطاعة المطلقة التي أظهرتها جماهير النقشبندية له ولخلفائه؛ والتي أثرت على نفوس الآلاف من غيرهم. وله سبب غريب جداً. يكمن سرّه في صلاةٍ خاصّة بهم تسمّى «الرّابطة» عندهم. وهي «التركيز» على صورة الشيخ بشروطٍ معيّنة سبق شرحها بالتفصيل في باب آداب الذكر عند النقشبندية من الفصل الثاني. ذلك لما انتشرت هذه العقيدة بجهود خلفاء البغدادي ودعاياتهم الكثيفة على الساحة الكردية التي كانت يومئذٍ مهدّدةً بأخطار اللصوص وقطاع الطّرق والحراميين، وأنجذب غالب الأكراد بدافع هذا التّيّار الصوفيّ إلى صفوف النقشبندية؛ لُوَحِظَ بعد ذلك انحطاطُ بالغٍ في أحداث النزاع والجنائيات في المنطقة. وهذا شيءٌ ليس ممّا يُستغرب. لأنّ هذه الصلاة السحرية لها تأثير عظيم في تهدئة الأعصاب وإماتة الشعور والقضاء على البطر والميول الشهوانية. نعم إنّ هذا الشكل الغريب من مناسك النقشبندية له تأثيرٌ بالغٌ في تهدئة ما يثور داخل الإنسان من نزواتٍ وخَلَجَاتٍ وهيجانٍ وأطماع. فقد أثبتت البحوث في علم النفس أنّ التّركيز على شيءٍ بعينه في فتراتٍ معيّنة وتكرارٍ مُطردٍ يربط المُركّز بذلك الشيء ربطاً لا يكاد ينفك عنه، إنّ كانت هذه الرياضة الذهنية قد دامت مُدّةً طويلةً؛ فيزداد

481 سورة آل عمران/19.

482 سورة آل عمران/85.

المركزُ وُلعا به وشغفاً، فينقطعُ من جميع ما كان قد شبَّ عليه من ذي قبل؛ ويتحوّل ارتباطه به إلى عبادةٍ وافتيانٍ وانصهارٍ وانحلالٍ في النهاية، فلا يلتفت بعد ذلك إلى شيءٍ من ملذاتِ هذه الدنيا.

فلما أثرت هذه التعاليمُ الخالدية السحرية في نفوسِ عامة الأكرادِ ودجنتهم وسلخت غلظة طبعهم، لا شك في أنهم تحوّلوا بعد ذلك إلى جماعاتٍ خاضعة، بل إلى قطائعٍ صوفيةٍ يُفضونَ للشيخ جناح اللؤلؤ من مُنطلقِ هذه العقيدة وليس من الاسلام!

وقد أثبتت التطوّرات التي شاهدها محيط النقشبنديين في تركيا، أنه ما من شيخٍ من مشايخ هذه الطائفة اهتم بتطبيق الرابطة وشدد على مرديه بملازمتها، إلا وقد انتشر صيته وتهاقت الناس عليه تهاقت الفراش على النار، ودامت المشيخة في أسرته جيلاً بعد جيلٍ، كالأرواسيين وأتباعهم من شيوخ الأكراد والتُّرك. وما من شيخ منهم استخف بأمر الرابطة ولم يُشدّد على مرديه بملازمتها، إلا انتهت أعماله بالفشل، وخسر أبناؤه من شهرتهم وسقطوا إلى منزلة عوام الناس في مدة قصيرة، كعائلات الشيوخ ذات الأصول العربية من النقشبنديين في جنوبي تركيا.

أما الغاية الحقيقية والنهائية من هذه الصلاة، إنما هي ترويضُ المرید على تبعية الشيخ و الاستسلام له بكل ما يملك من مال وجاه وروح؛ بكمال الرضى، وعن طيب نفسٍ وفداءٍ وإخلاصٍ، كما سبق شرحه بالتفصيل.

كل هذه المعطيات الهامة التي نُثبتُها ونتحقّقُها من خلال ميّزات خالد البغدادي وتأثير آدابه التي فرضها على أتباعه، تقودنا إلى التأكيد بأن السلطة العثمانية كانت في تلك المرحلة بحاجةٍ ملحةٍ إلى هذا الرجل الفريد في مكره ودهائه وذكائه ولباقته ومرونته وحذاقته في جذب الناس والاستيلاء على عقولهم، والتحكّم في إرادتهم. هذا الرجل الذي أصبح شيخاً روحانياً عملاقاً، استهوته قلوب مئات آلاف الناس وتعلقت به الضمائر، ومع ذلك ارتجفت من بطشه الفرائص، واقشعرت من هيئته الجلود، وافتننت بشهرته النفوس، وثارَت لاستغلال جاهه ومكانته الأطماع.

ولهذا لم تَدخِرِ السلطةَ وُسْعًا في تأييد خالد البغداديّ، والدعاية له، والقيام بنشر صيته سرًّا وعلنًا؛ ذلك لكسب تأييده بمقابلة المثل في إخماد الثورات التي انفجرت في المناطق الكرديّة والعربيّة يومئذ؛ ولتوفير الأمن والهدوء في ربوع البلاد.

إنّ هذا الموقف الذي قامت على أساسه العلاقات بين السلطة العثمانيّة وبين خالد البغداديّ، يُعْتَبَرُ هو العامل الأساسيّ لانتشار الطريقة النقشبندية الخالديّة في صفوف الأتراك والأكراد عبْرَ المرحلة الأخيرة من العهد العثمانيّ والعهد الجمهوريّ على السواء؛ والذي جعل من هذه الطائفة اليوم جمهورًا في تركيا، تحسب الحكومات حسابها في كلّ تقلّبٍ وقرارٍ لكسبها.

* خالدُ البغداديّ ومعارضوه.

تفيد أخبار النقشبنديّين أنّ خالدًا لقي معارضةً شديدةً من رجالِ بارزين في العراق فور عودته من الهند. هذه المعارضة، على الرغم من أنّ النقشبنديّين يحملونها على الحسد الخس من هؤلاء الأشخاص، لها سببان مهمّان، كما سنطرقهما بالإيجاز، بعد أن نلقي نظرة سريعة على شيء من كلمات مَنْ ندّد بالمعارضين ورماهم بالحسد؛

يتحمّس عبد المجيد بن محمّد الخائيّ بخلع صفات الإجلال على خالد مدافعًا عنه بأسلوبه المسجّع الخاصّ وعلى سبيل التشنيع والإدانة لخصومه فيقول:

«لَمَّا اطَّردت سنة الله في الذين خلوا من قبل، أن يجعل حُسَادًا لكلّ من تفرّد بالفضل، وكلّما كان الكمال والمحبوبة الإلهيّة أشدّ، كان الإنكار والحسد أشدّ؛ هاج عليه بعض معاصريه ومواطنيه بالحسد والعدوان والبهتان، ووشوا عليه عند حاكم كردستان بأشياء تنبو عن سماعها الآذان، وهو برئٌ منها كلّها بشهادة البدهاة والعيان».⁴⁸³

ثم يستطرد الخائي بقوله:

«فألف أحد المعروفين من المنكرين الذي تولى البهتان كبيراً وغروراً، رسالةً مُلئت منكرًا من القول وزورًا، وأرسلها مع سعاة الفساد إلى سعيد باشا والى بغداد، متخذين الجرأة فيها على نكيره لتفويه منه سببًا، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبًا».⁴⁸⁴

هذه العبارات التي استعرض فيها الخائي تفوقه الأدبي، لا تُنبئ عن تمام الحقيقة لذلك الحدث. وإنما الواقع، هو الذي أثاره «أحد المَعْرُوفِينَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ» بتعبير الخائي -، (وهو معروف البرزنجي، والثاني لم نعر على شيء من أخباره). فالواقع الذي أثاره البرزنجي، هو مقالته عن خالد (وما جاء في خلاله: أن خالدًا حمل من الهند إلى العراق من عادات البراهمة وعقائدهم، فجعلها أساسًا لطريقته ف جذب قلوب الناس بها).

يبدو من ظاهر طعن البرزنجي في خالد البغدادي، أن السبب لهذه المعارضة، هو ما يقصده بقوله: «إنه ذهب إلى الهند، فتعلم من السحرة الجوكية ومن نصارى الإنجليز دينًا ظهر عندهم» خشية أن يدسه في عقائد المسلمين (!) إلا أن السبب الحقيقي هو مخافة معروف البرزنجي من أن يخسر أتباعه وشهرته، فيصبح مهجورًا وحيدًا بعد أن رأى خالدًا ينافس بنجمه الذي بدأ يلمع في الآفاق ويتألق.

من الجدير بالإشارة هنا، أن محاولة البرزنجي في هذه المعارضة، تبرهن بكافة جوانبها على قلة حظه من العلم والمعرفة والسمو الأخلاقي؛ و على عدم كفاءته ومروءته وإخلاصه. ولكن تدل على أنه كان هو الآخر صوفيًا متطرفًا بعيدًا من الفضائل والكمالات التي يتميز بها علماء الإسلام من الصلابة في وجه الدجاجة الخرفين؛ جبانًا، لا يملك الجرأة على أهل الأهواء والبدع والفساقين؛ جاهلاً بفنون المجادلة وأساليب إفحام المنتطعين.

لذا وجد نفسه في النهاية مضطرًا للاستسلام تحت ضغط النقشبنديين، ورضي بالدلة والمهانة أمام زعيمهم، فاعتذر كما يذكره الخائي في حداثته ويشرحه بحماسة ورغبة ابتهاجا بانتصار خالد البغدادي عليه، فيقول:

«ثم اعترف معروفٌ بافترائه، وتشفع إليه (...). مع جملةٍ من أحبائه، فقبل به شفاعتهم، وكتب له ما أوجب مسرتهم. ونصّه:»

«من العبد المسكين والفقير المستكين إلى جناب سيدي الجامع لشرف العلم والأدب الحائز لكرامتي الحسب والنسب، سيدنا ومولانا السيد معروف، ساعه بفضله الكريم الرؤوف. وبعد؛ فقد بلغني ما وصيتم به أخي ملاً حسين القاضي وأمرتموه بتبليغه إلينا من حسن العبارات ولطائف الإشارات؛ ثم ما ألقيتموه مع قرة عيني العالم العامل السيد إسماعيل من مكارم الأخلاق، والاشتياق إلى التلاق، وإظهار الأسف على ما صدر منكم في حق الفقير على سبيل الاتفاق، بسعاية أرباب الأغراض وأهل الشقاق؛ والاعتذار عن جميع ما جرى به اليراع، في رسالتكم المعهودة الناشئة عن تقليد الوشاة وعن عدم الإطلاع، المهيجة عند بعض عوام المريرين لفرط الوحشة وشدة النزاع، الحاكمة على هذا المسكين بأمور تنبو عن استماعها الأسماع؛ من استحلال المحرم، والكلمات الدالة على الكفر، وداعية الاستيلاء على البقاع، وغير ذلك مما لا يليق بشأن الأوغاد والرعاع. وتفصيله لا يخفى على ذهنكم الوقاد وطبعكم النقاد. و إني لبرئٌ عما نسبتم إليّ من فنون المثالب والفساد والإفساد. وأمرتم السيد المذكور أن يستكتب مِنِّي ألوكةً تنطق ببراءة الذمة من جميع ما صدر وغيره وجرى به القلم بمقتضى القضاء والقدر، لتصير مفتاحاً لأبواب الائتلاف ومصباحاً لِدِيَاجِيرِ المراء والخلاف. وبلغني من السفيرين تصميمكم على الإمساك فيما بعد أمثال ما مضى من النزاع والمناحرة، وملافاة ما فات بطيب التحابّ وحسن المعاشرة وتبديل المعارضة والمنافرة بالفكاهة والمسامرة؛ فسرتني هذه الحكاية غاية المسرة؛ وحمدتُ الله على هذه النعمة مرةً بعد مرة، شكراً لمن بدّل الشقاق بالاتفاق، وهياً أسباب الوصول بعد طول الفراق. أدامنا الله على هذه النية، وأتمّ لنا بمنّه هاتيك الأمنية؛ ثم الأمر بإرسال المكتوب، امثلنا وهو أحسن المطلوب، ونريد جوابه على أبلغ أسلوب. و أمّا الإبراء، فهو يصدر مِنِّي ليلاً ونهاراً، وأفصحتُ به في المحافل جهاراً، كما قرع سمعكم مراراً. وأمّا حب الإلتام وترك الاختلاف، فأمرٌ يشتاق إليه أهل الإنصاف. فكيف بمن يدعى له قدم في طريق التصوّف ولو بالجداف. ولا يخفى عليكم أنّ السبب الأصليّ لهذه الوحشة إنّما هو ترك التردّد، وتقليد أقوال الناس. فإنّ صحّ ما بلغني عنكم، فعليكم بالإعراض عن الكلمات المؤدّية إلى الشكّ والوسواس. فإنّ أحوال أهل الفقر وراء العقل، والعلم يدرك بالقياس. وبعد اللتّيّ والتي، يضمنُ لك هذا المسكين - إن ثبت قدمك، وما طغى قلمك بعد اليوم - أن ترى نتائج لا يحمل أكثرها السفير، وتزيد على حوصلة التقرير والتحريير.

ومن بعد هذا ما تدقّ صفاته * وما كتمه أحظى لديّ وأجمل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».⁴⁸⁵

إنّ في هذا الخطابِ لَعِبْرَةً لأولى الألباب! نلمس من خلال مضمونه ما يمتاز به خالد من لباقةٍ وتلوّنٍ ومهارةٍ بفنونِ التّفنيدِ ولو كان مُناظِرُهُ على حقّ. ونجده في انتقاء الكلمات بارعاً محنّكاً، يُتقن أساليب حرب الجدال، ويعلن انتصاره بجمال التعبير، وكمال النطق والتقرير، ونظام الإنشاء والتحرير، بحيث يضطرّ المخاطب أن يُرخي له جناح الذلّ من الهيبة فيعلن الاستسلام والخنوع أمامه، ويكتم الحقّ والواقع، ويعترف بغلبته وعظمته.

هذا ما وقع لمعروف البرزنجي. فتهيب ظلّ خالدٍ واستعظمه، ودبّ الدُعر في قلبه حتّى أظهر الندامة؛ وكأنّه لم يكن هو الذي طعن في خالد بقوله: «إنّه ذهب إلى الهند، فتعلّم من السحرة الجوكية ومن نصارى الإنجليز ديناً ظهر عندهم».⁴⁸⁶

وهنا يتبادر إلى الذهن بهذه المناسبة أن نتساءل عن السّرّ الحقيقي الذي يكمن في رحلة عددٍ من رجال الصوفية إلى بلاد الهند بما فيهم خالد البغدادي؛ وذلك لسببٍ غير شديد.

يقول الباحث سميح عاطف الزين في هذا الصدد:

«ومنهم من سافر إلى بلاد الهند كي يلتقي المهرة ممن يمارسون فنون السحر؛ فيأخذ عنهم ما يحقّق له غايته. ومن هؤلاء، كان الحسين بن منصور الخلاج الذي سافر إلى الهند أكثر من مرة، وقضى فيها بضع سنوات، حيث تعلّم وتدرّب وعاد يُظهر للناس ما يبهر العيون، ويجمع الأتباع والمريدين. فمن الأعمال التي كان يقوم بها: إنّه كان يدخل تنوراً يضطرم بالنار فيجلس في ناحية منه، والحجاز يجبز في ناحية أخرى. ثم يخرج دون أن يمسه جسمه النار. أما في الواقع، فانه كان يعمدُ قبل دخوله التنور إلى

485 عبد المجيد بن محمد بن محمد الحان، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقيبين ص/231-232.

486 راجع الحامش رقم/457.

دهن جسمه بمادّة الطلق التي لا تؤثر فيها النار. وهي مادّة الأسبستوس المعروفة اليوم، والتي تُصنَع منها الملابسُ خاصّةً لرجال الإطفاء يرتدون عند مكافحة الحرائق».⁴⁸⁷

هذا ومن الأمور الشائعة بين الطائفة الرفاعية والجراحية والقادرية - خاصّةً في تركيا والعراق - أنّهم يقومون بطعن الأسيّاخ من الحديد في مختلف البقاع من أجسامهم؛ يدخل السيخ مثلاً في ناحية من البطن، ويخرج من العَجْزِ وهو يرقص في حالة من الاستغراق.

كذلك يدخلون النار فلا تحرقهم، ويقرضون الزجاج فيسحقونه بأسنانهم ثم يتلعونه على رؤوس الأَشهاد. وهذه الاستعراضات كثيرة الوقوع، يشهدها جماهيرٌ من الناس الذين يحضرون حفلاتهم بعيونٍ شاخصّة، واستفهامٍ في أذهانهم، لا يجدون له ردّاً، ولا لمشكلتهم حلاً. فيظنُّ غالبهم أنّها كراماتٌ، ويحسب بعضهم أنّها أشكال من السحر. والحقيقة أنّها ليست من الكرامة في شيءٍ ولا هي معدودة من السحر؛ وإنما هي طبائعٌ مكتسبةٌ نتيجةً رياضاتٍ يوغيةٍ شاقّةٍ من تقاليد الهنود، قلّ من يتحمّل ثقلها وآلامها والحِرمان الذي يعرض له جسمه. يمارسونها مدةً طويلةً حتّى يصلون إلى هذا الحدّ من قوة التحكّم في الأجهزة الدقيقة من البنية البشرية ووظائفها؛ وهي حالة خطيرة تسمّى بالتعبير العلميّ Physiologic Concentration أي «التركّز الفزيولوجي»

وقبل أن نخرّج من بحثٍ معارضة البرزنجي، ينبغي أن نتطرّق بإجمالٍ إلى المهاجمة والردود التي تعرّض لها في مقابلة عتابه على خالد البغداديّ قبل أن يتصالح معه.

يقول الباحث العراقيّ عباس العزّاويّ:

«إنّ الشيخ معروفاً النودهيّ البرزنجيّ (وهو العلامة الشيخ محمّد بن الشيخ مصطفى). فقد نظم رسالة بعنوان: تحرير الخطاب في الردّ على خالد الكذّاب. وأرسلها في سنة 1228 هـ/1813م. إلى الوزير سعيد باشا والي بغداد في ذمّ الشيخ خالد، ولم يكتف بذلك حتّى أسند إليه الكفر. وناصر الشيخ

معروفًا كثيرًا من الأهليين في السلمانية. كانوا يعتقدون بسادات بَرَزْجَة وطريقتهم (قادرية)؛ فنقل عليهم أمر الشيخ خالد؛ وحاولوا إخماد شهرته فلم يفلحوا».⁴⁸⁸

يمكن اختصار ما جاء بعد هذا المقطع ضمن كلام العزّوي في هذا الصدد: أنّ تلك المعارضة لقيت ردًا عنيقًا من بطانة خالد ومناصريه بما فيهم والى بغداد سعيد باشا بن سليمان باشا؛ فتصدى للردّ على البرزنجي كلّ من الشيخ محمد أمين بن محمد صالح الطبقجلي، مفتي الحلة؛ والشيخ يحيى المزوري؛ والشيخ عبيد الله الحيدري؛ والشيخ محمد أمين السويدي.

أمّا الشيخ محمد أمين بن محمد صالح الطبقجلي، فإنّه ردّ على البرزنجي بعجالة سمّاها «القول الصواب، بردّ ما سُمّي بتحرير الخطاب»؛

وأما الشيخ يحيى المزوري، فرسائله التي نصح فيها البرزنجي وهي سبعة رسائل، يضمّها كتاب «بغية الواجد»⁴⁸⁹ للشيخ محمد أسعد الصاحب، جمع فيه مكتوبات عمّه خالد البغدادي.

ومن جملة هذه الردود «صكّ» موقّع عليه من ملاي السلمانية الذين كانوا تحت تأثير خالد البغدادي بحكم الجوار. يفخر النقشبنديون بهذا الصكّ على لسان ناقله إذ يقول بعد ما يعدّ أسماء هؤلاء الخواجوات المتواطئين على إصداره بتوقيعاتهم «هم من العلماء الأفاضل والسادات الأمثال. ومضمون الصكّ المذكور: الثناء على حضرة مولانا خالد، والخطّ على رسالة الشيخ معروف وتكذيبها؛ مع أن أغلب العلماء المذكورين أبناء عمّه»⁴⁹⁰ أمّا الصكّ المذكور، فقد أورده أسعد الصاحب بكامل نصّه في كتابه: «بغية الواجد»، بعد هذا التوضيح مباشرة. أوّله «الحمد لله الذي أراح الفقراء مع كثرة تعرّض الظالمين...»

كذلك تصدّى الشيخ محمد أمين السويدي للردّ على رسالة كان قد كتبها الحاج أبو سعيد عثمان بك بن سليمان باشا الجليلي بعنوان «دين الله الغالب على كلّ منكر مبتدع كاذب». كان شرح بها رسالة

488 عباس الزاوي، مولانا خالد النقشبندي (مجلة الجمع العلمي الكردي العدد الأول ص/ 710). بغداد-1973م.

489 محمد أسعد الصاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد ص/ 261-284. مطبعة الترقى، دمشق-1334 هـ؛ مستنسخ من قبل دار الدعوة، قرظيه، ماردين-1985م.

490 المصدر السابق ص/ 213.

«تحرير الخطاب» للشيخ معروف البرزنجي؛ ردّ عليهما السويدي بكتابه الذي سمّاه تارةً «دفع الظلوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم»؛ ثم قال «ويناسب أن يسمّى القول الصواب في ردّ ما سُمّي بتحرير الخطاب»؛ ثم قال «والأنسب أن يسمّى السهم الصائب لمن سمّى الصالح بالمتدع الكاذب»⁴⁹¹

نقل أسعدُ الصاحب ترجمةَ محمد أمين السويديّ وامتدحه بقوله «إنّ هذا الجُهدُ المفضَّل قد قام في الانتصار لحضرة مولانا العم حق القيام؛ يتحمّم عليّ أن أذكر نبذةً من ترجمته أداءً بحق خدمته».⁴⁹² إلا أنّ الشيخ أسعد هذا، لم يملك نفسه في الوقت ذاته من مهاجمة الجليلي بلهجة قاسية يتحاشى من أمثالها أهل العلم، فقال في ثنايا عباراته «فلما اطّلع العلماء الأعلام، في العراق والشام، على تحاملهم على هذا القطب الكامل، طفقت تترى ردودهم على رسالة الشيخ معروف وشرحها الشنيع الذي سوّده عثمان بك الجليلي، سوّد الله وجهه يوم تسوّد وجوه وتبيض وجوه».⁴⁹³ نستحسّ من هذا الغيظ الذي يفور من كلمات الشيخ أسعد الصاحب، أن يكون الشيخ عثمان الجليلي قد قُتِل على يد النقشبنديين أثناء فتنة وقعت في الموصل عام 1829م. والله أعلم بالصواب.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ النزاع الذي اندلعت نيرائه بين النقشبنديين ومعارضيهم - بعد انتشار نشاطهم في الشرق الأوسط -، يبدو مدى نطاق خطورته بمجرد ما قد سجّله أسعد الصاحب فحسب، فضلاً عما كتبه قدماء الفرقة الخالدية وما تناقله الناس من أخبار هذا النزاع؛ كما يظهر ممّا أثارته تلك الحرب الشعواء من هولٍ ودهشة وشغب في أوساط المجتمع يومئذ. ومن أهمّ أحداث هذه الحرب وأخطرها، قيام النقشبنديين بإحراق الكتب والرسائل التي أُعدت للردّ عليهم. من جملتها كتاب بعنوان «البدور الجلية في الردّ على النقشبندية» ألفه الشيخ محمود بن الشيخ عبد الجليل الموصلّي. فقد اختفت نسخُ هذا الكتاب بتمامها إلاّ ثنتان منها نجت من بطشهم. قيل نسخة منها بحوزة الشيخ جميل الطالقاتي، فلم نتعرّف عليه؛ أمّا النسخة الثانية فإنّها في قرية «بريفكان» بالمنطقة الكردية من العراق، وليس الوصول إلى هذه المنطقة من الأمور السهلة كما هو معلوم!

491 عباس الزاوي، مولانا خالد النقشبندي (مجلة الجمع العلمي الكردي العدد الأول ص/ 712). بغداد-1973م.

492 محمد أسعد الصاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد ص/ 292. مطبعة الترقى، دمشق-1334 هـ؛ مستنسخ من قبل دار الدعوة، قرظيه، ماردين-1985م.

493 المصدر السابق.

هذا، فلم تقتصر محاولة إفحام النقشبنديين وإحباط أعمالهم في الساحة العراقية فحسب، بل تصدّى لهم آخرون في بقاع مختلفة من أرض الإسلام. منهم محمد صديق حسن خان القنوجي البخاري أمير مملكة بهوبال في الهند. تصدّى للرد عليه محمد أسعد الصاحب في كتابه «نور الهداية والعرفان في سرّ الرابطة والتوجه»⁴⁹⁴ وختم الخواجگان قال في أوائله:

«وقفتُ على التاريخ المسمّى بالتاج المكمل تأليف الفاضل المشهور (صديق حسن خان) البخاري القنوجي نواب بهوبال؛ فرأيتُ فيه سؤالاً وارداً عليه من الأديب الفاضل السيّد نعمان بن الإمام العلامة الكبير والحجة المفسر الشهير السيّد محمود الألوسي مفتي بغداد، عن الرابطة الشريفة التي تستعملها ساداتنا الأئمة النقشبندية زبدة القادة الصوفية (...). وملخص ذلك السؤال: ما قولكم في حكم الرابطة المستعملة عند أصحاب الطريقة النقشبندية (...); وهل لها أصل من السنّة والكتاب، أم هي اختراع واجتهاد؟ فإن كان لها أصل فما هو؟ وإلا فهل ذلك شرك أصغر وتضليل؟ لأنّها تصوّر المريد شيخه الغائب؛ وكلّما ذكر الله تصوّر صورته في سويده. أم ليس في ذلك بأس، حيث قال بما جمع من الأواخر؟ وهل يعارض ما استدّلوا به من قصّة يوسف عند ما همّ، ورأى يعقوب عليهما السلام (...). فأميطوا عنا غبار الشك والترديد. إلخ».

جاءت هذه العبارات في كتاب «التاج المكمل» بصيغة تختلف بعض ألفاظها عما نقله أسعد الصاحب في السطور المذكورة آنفاً؛ وهذه نصّها على لسان مؤلف «التاج» بالذات وهو صديق بن حسن خان البخاري القنوجي، فقال:

«ومما كتبه إلينا صاحب الترجمة هذه ما نصّه: ما يقول مولانا الأمير السيد التحرير النّوّاب المفسر الشهير مقتدى الأعظم ومن لا تأخذه في الله لومة لائم متّع الله سبحانه المسلمين بطول بقائه، وقمع به البدع، وأناله في الدارين مناه، في حكم الرابطة المستعملة عند أصحاب الطريقة النقشبندية - أفاض الله عز شأنه علينا من علومهم المرضية - وهل لها أصل قوي من الكتاب والسنّة، أم هي اختراع واجتهاد من بعض ذوي الألباب؟ فإن كان لها أصل، فما ذلك عند أرباب العقد والحلّ، وإن لم

494 التوجه: شكل من طقوس النقشبندية. يتم إجراؤه في ليالي الجمعة بعد صلاة العشاء في القرى التي تسكنها المنتسبون إلى هذه الفرقة دون المدن؛ حذرًا من أي تطوّر قد يعرضون بسببه لحقيقات أمنية. ذلك لأنّ شيخ الطائفة يقوم أثناء هذه

الحفلة بتجوّال بين صفوف المريدين، وكأنّه يناحث عما في قلوبهم ولقني عليهم من روحانيته. فينأثر المريدون عند اقتراجه منهم لشده اعتقادهم به؛ وأحيانًا يجيش عواطف الكثير منهم؛ فنطلق من حناجرهم أصوات غريبة، وترتعش معها أبدانهم؛ فيختل

بذلك الهدوء والسكينة، ويحوّل الوسط إلى معترك من الإضطراب والجلية.

يكن لها دليل، فهل في ذلك شرك أصغر و تضليل؟ لأنها كما هو المشهور: تصوير المرید شیخه الغائب وكأنه في الحضور، وكلما ذكر الله تصوّر صورة شیخه في سويداه، أم ليس في ذلك بأس لدى الأكابر؟ حيث قال بما جمع من الأواخر؛ وهل يعارض ما استدّلوا به من قصّة يوسف عليه السلام - عند ما همّ، ورأى يعقوب النبی النبیل؟ قوله عليه السلام: أعبد الله كأنك تراه، الحديث الطويل. فأميطوا عنّا غبارَ الشكّ والترديد بأبين جواب، وميّزوا الخطأ عن الصواب، فإنكم من فضله عزّ وجلّ من الوافين بالعهد والميثاق لتبيين الكتاب، جعلكم الله للسلفيين وكافة الموحّدين حصناً حصيناً، وأنا لكم وسائر العلماء مزيد الثواب آمين. سنة 1198 هـ. شعبان»

«فأجبتُه - عافاه الله وعن المكاره وقاه - مرتجلاً بما هذا لفظه: أمّا مسألة المرابطة، فلا يخفى على شريف علمكم أنّها من البدع المنكرة. وقد صرح بالنهي عنها الشيخ أحمد وليّ الله المحدث الدهلويّ إمام هذه الطبقة وزعيمها، ومسند وقته ومجدّد عصره وفرد الملة المحمّدية وحكيمها في كتابه (القول الجميل في بيان سواء السبيل)، وهذه عبارته: قالوا والركن الأعظم، ربط القلب بالشيخ على وصف المحبة والتعظيم، وملاحظة صورته. قلتُ: إنّ لله تعالى مظاهر كثيرة؛ فما من عابد . غيباً كان أو ذكياً . إلّا وقد ظهر بجذائه شيء صار معبوداً له في مرتبته. ولهذا السّرّ نزل الشرع باستقبال القبلة والاستواء على العرش. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: إذا صلّى أحدكم فلا يبصق قبل وجهه. فان الله بينه وبين قبلته. وسأل جاريةً سوداء، فقال: أين الله؟ فأشارت إلى السماء. (الحديث). فلا عليك أن لا تتوجّه إلّا إلى الله، ولا تربط قلبك إلّا به ولو بالتوجّه إلى العرش، وتصور النور الذي وضعه عليه. - وهو أزهى اللون كمثل نور القمر-، أو بالتوجه إلى القبلة: كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلّم، فيكون كالمراقبة لهذا الحديث»

«وقد أفاد الشيخ العلامة محمّد إسماعيل الشهيد الدهلويّ في كتابه «الصراط المستقيم» بالفارسيّة: أنّ هذه الرابطة من الشرك بمكانٍ لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلوم الكتاب والسنة. وأقول: ما لنا ولقلبنا، وربطه بالشيخ كائنًا من كان، وإنما تُربطُ قلوب العباد إلى بارئها. (ألا بذكر الله تطمئن القلوب). وبالجملة، هذه المسألة وإنّ فاه بما جمع من المشائخ قديماً وحديثاً، فهي من البدع بلا مرية، وحكمها حكم سائر البدع وسائر الأشياء التي أحدثها المتصوّفة من غير أساس على دليل من كتاب

وسنة. ويكفي في ردّ مثل هذه البدعة قوله صلى الله عليه وسلّم المستفيض المشهور: كلّ أمر ليس عليه أمرنا فهو ردّ. وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار.»⁴⁹⁵

من الجدير بالذكر، أنّ هذه العبارات التي اقتبسها السيّد محمد صديق خان بن الحسن القنوجي البخاري، من الكتاب المسمّى (القول الجميل في بيان سواء السبيل)، للشيخ أحمد بن عبد الرحيم (شاه ولي الله الدهلوي)، قد تمّ حذفها تمامًا من الكتاب المذكور في طبعه الذي أعده رجلٌ مُتَطَرِّفٌ اسْمُهُ محمد صالح بن أحمد الغرسي؛ ولم يكتفِ الرَّجُلُ بالحذفِ فحسب، بل حَرَفَ الكتابَ تحريفًا شنيعًا. وقد استبدل العبارات المذكورة بكلماتٍ لا يجوزُ أن يكونَ الشَّاهُ وليُّ الله الدهلويُّ قد قالها أبدًا. فَنَسُوْقُ لَكَ الآنَ تلكَ الألفاظَ الموضوعَةَ على لسانِ الشَّاهُ وليُّ الله الدهلويُّ لتتأكَّدَ من خطورة ما يقترفه النَّقشبندِيُّونَ من الكذبِ والبهتانِ على العلماءِ.

وَرَدَتْ في الصَّفحةِ الحادية والثمانينَ بعد المائةِ في النسخة المُحَرَّفَةِ من الكتاب المسمّى: (القول الجميل في بيان سواء السبيل)، ألفاظٌ، وهذه نصُّها حرفياً:

«وثالثها الرّابطة بشيخه: وشرطها أن يكون الشيخ قويّ التوجّه، دائم (الياد داشت)، فإذا صحبه خلى نفسه عن كلّ شيءٍ إلاّ محبّته، وينظر لما يفيض منه. ويغمض عينيه أو يفتحهما، وينظر عيني الشيخ، فإذا أفاض شيءٌ فليتبعه بمجامع قلبه وليحافظ عليه. وإذا غاب عنه الشيخ، يخيّل صورته بين عينيه بوصف المحبّة والتعظيم، فتفيد صورته ما تفيد صحبته.⁴⁹⁶» إِنَّ المُحَرِّفَ (محمد صالح بن أحمد الغرسي، وهو من سكّان مدينة قونيا في تركيا)، لم يقف عند هذا الحدّ في محاولاته التحريفية، بل ازداد تمردًا وتجرؤًا فَحَرَفَ اسْمَ كِتَابِ «القول الجميل في بيان سواء السبيل»، فأصنَدَرَ الكِتَابَ بعنوان جديد مُخْتَلَقٍ، سمّاه: «الفكر الإسلامي عند الإمام وليّ الله الدهلوي وما ابتكره من العمل النموذجي». ويبدو أنّه أحسّ بضرورة الحذر من أن يفتضح أمره، عاد فسجّل على الغلاف الداخلي للكتاب: «يحتوي على ما يلي: القول الجميل في بيان سواء السبيل للإمام الدهلوي».

495 صديق بن الحسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاريّ القنوجي، الناح المكلّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ص/ 521-522. مكتبة دار السلام، الرياض-1995م.؛ محمد أسعد الصاحب، نور الهداية والعرفان في سِرِّ الرّابطة

والتوجّه وختم الخواجهگان، ص/3. المطبعة العلمية القاهرة-1311. ه.؛

496 النسخة المُحَرَّفَةُ من الكتاب المسمّى القول الجميل في بيان سواء السبيل، للشَّاهِ وليُّ الله الدهلويّ، إعداد: محمد صالح بن أحمد الغرسي. قد طُبِعَ هذا الكتاب في مدينة قونيا التركية بتاريخ: 2001/10/15م.، إلاّ أنّ اسم المطبعة واسم دار

النشر مكمومان ومجهولان.

أثبتنا هذه الحقيقة أثناء المُقارنة بين نُسخة من (القول الجميل) وبين (التاج المُكَلَّل)، فوجدنا المقطع المُقتبس مُحرفًا تمامًا. إذ أنّ المُؤلف الذي ذمَّ الرابطة وعدّها من علامات الشُّرك، يُستبعدُ أن يكون قد عادَ بعد ذلك فَمَدَحَهَا. إنّه أمرٌ لا يستقيم مع العقل السليم. وَخُطُورَةُ الأمرِ، يجب على القراء أن يلتزموا جانبَ الحيطة في مطالعة هذه النسخة المُحرّفة التي تولى طبعتها محمد صالح بن أحمد الغرسي بالتعاون مع بعض الناس من الأتراك في مدينة قونيا التركية حديثًا.

لقد اقتبس محمد أسعد صاحب كلمات الشاه ولي الله الدهلوي المُتعلِّقة بمسألة (الرابطة) من التاج المُكَلَّل، بشكلها الصحيح، ولكنه تصرّف فيها قليلاً عند نقلها إلى كتابه (نور الهداية والعرفان/ص:3) وبذل جهدًا بالغًا بعد هذه النقولات وأفرغ ما لديه من الطاقة في الردّ على هؤلاء العلماء الذين عدّوا الرابطة من الشُّرك بحكم صريح. فاسترسل صاحب وأسهب ونقل وكتب ما كتب حتى فرغ من كتابه المذكور. وقال في كلمته الأخيرة «ولنكتف في هذا الباب بهذا المقدار من العبارة. فإنّ المنصف الموفق تكفيه الإشارة، والبليد لا ينفعه التطويل؛ ولو تُليت عليه التوراة والإنجيل»⁴⁹⁷

نلمس حالته النَّفْسِيَّة وَمَوْقِفُهُ الْمَرَضِيَّة مِنْ خلالِ هَذَا السَّجْعِ الْمُتَكَلِّفِ فِي الْحِينِ الَّذِي يَسْجَلُ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ، كَأَنَّهُ غَاصٌّ بِالغَضَبِ عَلَى مُنْكَرِي رَابِطَةِ النَّقْشِبَنْدِيَّةِ. وَإِلَّا فَمَا عِلَاقَةُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِمَسْأَلَةِ الرَّابِطَةِ؟! هَذَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَرْكَزِهِ وَمَكَانَتِهِ الْمَرْمُوقَةِ بَيْنِ الطَّائِفَةِ النَّقْشِبَنْدِيَّةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى غِرَارَةِ عِلْمِهِ وَتِقَافَتِهِ الَّتِي كَانَتْ يَمَازُ بِهَا عَنْ سَائِرِ شِيُوخِ الصُّوفِيَّةِ. وَرَبَّمَا كَانَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَزَايَا مُحْسُودًا فِيهِمْ.

كان هذا شطرًا من الصراع الذي جرى بين خالد البغدادي وبين بعض خصومه في العراق؛ إذ لم تقتصر المعارضة على ردود فعلٍ من البرزنجي والجليلي فحسب، بل كان هناك أناس آخرون ضده في البداية، فلما رجحت إحدى كفتي الميزان لمصلحة خالد البغدادي لكثرة أنصاره والدعم الذي كان يتلقاه من السلطة العليا للدولة العثمانية، باءت محاولات المعارضين بالفشل وانتهى أمرهم بالخزلان.

ولكنَّ خالدًا اصطدم بخصوم آخرين بعد انتقاله إلى دمشق عام 1238هـ. كان في مقدّمهم رجل اسمه عبد الوهاب السوسي. ورد ذكره في الحديقة النديّة لمحمد بن سليمان بن مراد بن عبد الرحمن العبيدي

البغداديّ الذي كان أحدَ المقرّبين إلى خالد البغداديّ. يذكره في سياق التعداد للخلفاء البارزين المأذونين على يد مرشده. يعدّهم ويصف كلاً منهم بنعوت الإجلال؛ فيقول عند ذكر السوسيّ:

«ومنهم العالمُ ابن العالمِ الفطنُ الملازمُ لأمر الطريقة بالعلم والعملِ والذكرِ الدائمِ؛ المحقّقُ الذكيُّ، المدقّقُ الألمعيُّ الشيخ عبد الوهّاب السوسيّ المتفرّعُ من أصل شجرة العالم الشهير، الحشّي المدقّق بأوجز التحرير، محمّد بن عمر السوسيّ رحمه الله تعالى. وقد كان خليفة مرشد السالكن في الطريقة النقشبندية مقيمًا في بلدة العمادية».⁴⁹⁸

من الغريب أن «هذا الشيخ الفطن الملازم لأمر الطريقة بالعلم والعمل والذكر الدائم» على لسان رفيقه وصديقه في المشرب والمعتقد (الشيخ محمّد بن سليمان البغداديّ)؛ من الغريب أن يعود هذا الشيخ الممدوح (أي عبد الوهّاب السوسيّ) بعد مدّة رجلاً مطروداً من باب خالد البغداديّ، ومقبوحاً من طرف جميع أتباعه!

- ولكن لماذا؟! -

لأنّ خالدًا البغداديّ - كان - ولا يزال في معتقد أتباعه الذين يعظّمونه تعظيم نبيّ مرسل -، كان لابدّ أن يطلّع على سريرة هذا الرجل فيتحقّق من أمره قبل أن يفوض إليه مهمّة بثّ الطريقة وينصبه على منصّة الإرشاد، تفاديًا لكل ما قد حدث من مشاحناتٍ وفتنٍ عقب ذلك التفويض، وأشغل أذهان الناس إلى يومنا هذا! نعم، مادام خالدٌ لم يعزب عن علمه مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السماء، وكان عليماً بذات الصدور (على حسب اعتقاد النقشبنديّين كما سننأكد من هذا الواقع على لسان عبد المجيد الحائيّ)؛ فلماذا أدنّ للسوسيّ أن ينوب عنه حتّى يناهضه بأعمالٍ تطوّرت إلى فتنة لن يبرح الناس فيها فريقين يتخاصمان، ربما إلى يوم القيامة؟! ولأنّ خالدًا البغداديّ، يستحيل عليه (في تصوّر النقشبنديّين) أن يجهل شيئاً ما دامت الحجب قد كُشِفَتْ عن بصره وهو مطلّع على أسرار الكائنات، يعلم كلّ شيء قد جرى عبّر الماضي السحيق، وما سوف يجري في المستقبل المغيب البعيد.

498 محمّد بن سليمان البغداديّ، الحديقة البديّة في الطريقة النقشبندية والبهجة الخالديّة ص/ 67، 68. كذلك وردت قصة السوسيّ في عدد من كتب ملائي صوفية الأتراك والأكراد منها كتاب اسمه «الشيخ نور الدين الرفيكان» ص/ 28. ألفه

عند أحمد مصطفى الكزبي الأربليّ. 1983-القاهرة.

ولكن أعرب من ذلك أنّ هذا الحدث، ليس هو المثال الوحيد للغرائب التي يعتقد النّقشبنديّون؛ بل ثمّ أمورٌ متناقضةٌ، وتأويلاتٌ معقّدةٌ، ومعتقداتٌ ملقّقةٌ لهذه الطائفة سوف نطرقها في بابها إن شاء الله.

أمّا عبد الوهّاب السوسيّ ومسألة طرده من الطريقة، فقد وردت قصّته مطوّلةً في كُتُبَاتِ النّقشبنديّين. منها، «الحدائق الوردية». يقول مؤلّفه عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخاني:

«أخبرني الوالد الماجد، أنّه وقع لحضرة مولانا - وهو في دمشق الشام - تطير ما وقع له في بغداد من بعض الفئام. وذلك أنّه كان أرسل من أتباعه رجلاً اسمه عبد الوهّاب السوسيّ ليبيث الطريقة العلية في دار السلطنة السنية. فما لبث أن اعتقد فيه شيخ الإسلام وجمهور علمائها ووزرائها العظام. فراغ بصره ومال إلى حبّ الشهرة، فبلغ الشيخ أمره، فاستحضره، واستخلف غيره، واستتابه. فأضمر المكر وأظهر الإنابة. فأطلعه الله على جليّة أمره، بأن وصل إليه مراسلات بخطّه إلى أتباعه في القسطنطينية، تُنبئ عن مكره. فطرده طرداً عاماً من طريقته».⁴⁹⁹

أيّ مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر يقرأ هذه العبارات فحسب، -وهو على علم تامّ بحقيقة الإسلام وعالميته وشموله وعظمتيه-؛ لا يملك نفسه من الدهشة في أمر هذه الطريقة الصوفية حتّى يعيد النظر فيها ويتباحث عمّا إذا كانت لها أدنى علاقة بهذا الدين العظيم الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وسلّم، قبل أن يطالع على صفحات تلك الحرب التي جرت بين خالد ونائبه عبد الوهّاب السوسيّ؛ كما أنّ الطريقة المذكورة ليست هي المسألة الوحيدة التي تتبلور حقيقتها من خلال هذه الكلمات؛ بل وإنّ المجتمع الذي كان يستقطب اهتمامه يومئذ على هذه المهزلة، هو الآخر يستحقّ أن يتدارسه الباحثون اليوم بقسطاس العقل السليم ومحكّ القرآن الكريم، ليتمكّنوا من الإطلاع على مدى حظّه من الإسلام الذي عاشه الصحابة والتابعون والسلف الصالح وطبقوه في حياتهم.

لأنّ هؤلاء الشيوخ والصوفية والدرائش، كانوا قد أهّوا الناس عن الإسلام وسحروا عقولهم بهذا الدين المستحدث، فلم تتمكّن العامة من الانتباه إلى الإسلام ولا إلى شيء من أمور دنياهم في خضم الأحداث التي كان قد أثارها النّقشبنديّون بطقوسهم ورسومهم ورياضاتهم ومناسكهم ونشاطاتهم

الدائبة ومراسلاتهم ودعائياتهم الكثيفة وخلافاتهم والفتن التي كانت تتصاعد نيرانها في صفوفهم بين الفينة والأخرى إلى حدّ أصبح الناس في غمّارها كقطعان الغنم وهم حيارى وسكارى وما هم بسكارى؛ فلم يملك أحد منهم عقله يوماً من الأيام حتى يتساءل - على الأقلّ - فيقول:

- من يكون خالد، هذا الذي استعلى على الناس حتى اختلقوا له جناحين ياترى!!! وما هي طريقته التي أكمل بها ما نقص عن الإسلام، وأرسل نائبةً إلى إسطنبول لبيثها بين سكان العاصمة - ولم يكن غرضه في الحقيقة سوى تمهيد السبيل للتسلّل إلى أوساط رجال الدولة، والسيطرة على ضمائرهم طمعا في الشهرة وشغفا بحطام الدنيا الخسيصة بأساليب دجلية مآكرة- في الحين الذي كانت الولايات تنصبّ على المسلمين من كلّ صوبٍ، ودولتهم على شفا جرف هار. نعم من يكون هذا الصوفي الكردي الذي «اعتقد في نائبه شيخ الإسلام وجمهور علماء العاصمة و وزراء حكومة الإمبراطورية العثمانية»، حتى أذعن له خليفة المسلمين بالذات، فأصدر (الفرمان) أي الرسم الملكي بشأن معاقبة نائبه الذي عصاه!؟

في الحقيقة كانت المأساة - بموت القلوب وغياب الشعور يومئذ - قد غلبت الناس إلى حدود رهيبة، بحيث لم يكن أحد ينتبه إلى الفرق بين الإسلام وبين هذا الدين الجديد الذي اتخذ من الإسلام غلاًفاً يصطاد به على أرضه بكل سهولة وفي أمان.

سوف نتساءل طبعاً فيما بعد، عن سبب سقوط المسلمين إلى هذا الدرك الرهيب من الظلمة والتخلف والجهل والعمى، حتى أصبح مجتمع بأسره يتلهى بالحرب المتصاعدة بين رجلين من الصوفية. ولكن ما الذي كان يجري بينهما، وما قيمة هذا الحدث في ميزان الإسلام والعقل والعلم؛ وماذا استفاد المسلمون من وراء هذه الحرب التي اندلعت نيرانها بين خالد وقرينه عبر حقبة تزيد عن قرن من الزمن؟

إنّ آية محاولة جادة للإجابة عن هذا السؤال، لن تتعدى السخرية بعقول الناس، والاستهانة بالوقت. ولكنّ هذا الحدث في ذات الأمر الذي أقلق جماهير المجتمع العثماني في وقت ما، يستحق - من جانب خاص - أن يُنظرَ له بإيجاز ومن خلال وثائق النقشبنديين، حتى تتضح أمام القارئ الكريم عقلية أولئك الناس، وتظهر بها تلك الهوة التي كانت بينهم وبين الإسلام يومئذ.

هذه الوثائق - المنقولة فيما يلي - هي الرسائل الثلاث التي بعث بها خالد البغدادي إلى أتباعه في إسطنبول. يقول في الأولى منها:

«بعد السلام، من العام الأول، الفقير تبرأت من عبد الوهاب لما ظهر منه من الأمور المخالفة للطريقة والشريعة، وأنه صار سبباً للدسائس التي اختلقها المتشيعون حتى توهم كثير من الناس في حقنا أموراً لا تليق بأراذل العوام، وأردت أن أكتب هذا إلى الآستانة العلية - صينت عن البلية - ليعلم الناس أنه مطرود عن الطريق، فلا يلتفت إليه أحدٌ لئلا يصير مظهرًا لجلال سادات الطريقة البهائية. فتوسل بي وجعل روحانية مشائخ السلسلة شفيحاً أن لا أكتب هذا. وحلف الأيمان المؤكدة أنه يكتب هذا المضمون بخطه. ثم ظهر أنه بلغ تقريراً مع بعض المرسلين من طرفه وتحريراً إلى بعض المخلصين: أنه كان بعض إخوانه في الطريقة افتروا عليه عندي، ثم ظهر افتراؤهم لدي، وأنه صار مثل الأول وأكثر، حتى أن بعضكم ترك طلب الدعاء والمكاتبة إلى بعض أهل الطريقة رعاية لجانبه. والمرء يُعذرُ لجهله.

فالآن أخبركم بأيّ وجميع رجال السلسلة تبرأنا من عبد الوهاب. فهو مطرود عن الطريقة. فكلُّ مَنْ تصادق معه لأجل الطريقة فليترك مُصَادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلا فهو برئ من إمداد هذا الفقير وإمداد السادات الكرام. ولا أرضى أن يكاتبي؛ ولا أن يستمدّ همّي بعد وصول هذا المكتوب إليه. وأنت مأمور بإيصاله إلى كلِّ مُخلصٍ. فمن كان مريدَ الطريقة فليُظهِرِ البراءةَ منه، ومن كان مريدَ نفسه فلا يلومَنَّ إلا نفسه إذا هلك مع الهالكين».⁵⁰⁰

إنّ هذه الرسالة التي لا يكاد الإنسان (المؤمن بالله واليوم الآخر) يفهم شيئاً منها، كأنها قد كُتبت بلغة غريبة على المسلمين. إلا أنّها في الحقيقة وثيقة رهيبة تتضمن ما يخفى على أهل العلم والبصيرة من شخصية خالد البغدادي ومعتقداته وأسرار طريقته وتعامله مع الناس.

لعلّ سائلاً يسأل عمّا يخالف الإسلام من مضمون هذه الرسالة وربما يقول:

. ما الذي يستوجب هذا القدر من الاستغراب والتعجب؟

إنّ الإنسان المتمتّع بنعمة العلم والمعرفة بحقيقة الإسلام، لا ينبغي له أصلاً أن يلتفت إلى مثل هذه التساؤلات، ولكن - لإظهار الحقّ فحسب - نحن نتساءل عمّا إذا كان أدنى شيء يوافق روح الإسلام في هذه الرسالة المحرّرة؟

- ما الذي ارتكب عبد الوهّاب السوسيّ إهانةً بحقّ خالد، حتّى اضطرّ خالد أن يفضّحه أمام مريديه الذين كان السوسيّ قد اسطادهم في إسطنبول نيابةً عنه؟! هل كان وراء كلّ هذه الجلبة والضوضاء العمياء أيّ مصلحة للمسلمين المغلوبين على أمرهم يومئذ أمام عالم الكفر، سوى التهارش على جيفة الدنيا وكسب الشهرة والسمعة؟ وإلاّ فما كانت علاقة المسلمين بالرابطة التي هي من أهم طقوس اليوغية، سواء أكان السوسيّ أمرّ الناس بها لنفسه أم للبغداديّ.

يقول الشيخ قسيم الكُفرويّ في صدد هذه المشكلة:

«كان مولانا خالد قد أرسل في بداية أمره عبد الوهّاب السوسيّ إلى إسطنبول. ولكّنه تولى كبره، ولقّن المريدين رابطةً نفسه؛ فعند ذلك بعث مولانا خالد من خلفائه عبد الفتاح العقريّ للبحث عن أمره. وبعد طرده عبد الوهّاب السوسيّ من طريقته جزاءً بما ارتكب، تمّ نصبُ الشيخ أحمد الأغرّبوزي مكانه».⁵⁰¹

هكذا اتّضحت الجريمة (!) التي ارتكبتها عبد الوهّاب السوسيّ! حسب نظام هذا الدّين وضوابطه. وهي أنّ السوسيّ كان قد لقّن المريدين رابطةً نفسه. ومعنى ذلك إنه أمرهم أن يحضروا صورته في خيالهم، بدّل أن يأمرهم برابطة مرشده خالد البغداديّ. إذ أنّ الطريقة النقشبندية تُحرّم الرابطة للنائب مادام شيخه على قيد الحياة. ولا نعلم من أيّ دين استوحّت هذا الضابط!

501 وهذا النصّ الأصليّ باللّغة التركيّة للعبارة المعربة والمقولة من كلام الشيخ قسيم الكفراوي:

Mevlânâ Halid, İstanbul'a evvelâ Abdulvahhab Al-Susi'yi göndermişti. Bu zatın kibir ve enaniyete kapılarak kendisini saliklere rabta ettirmesi üzerine meselenin tahkiki için Abdulfettah Al-Akari'yi gönderdi. Bu hareketlerinden dolayı tarikattan tard adilen Al-Susi'nin yerine Al-Şeyh Ahmed Al-Agribuzî halife nasb edildi.

كان هذا هو السبب لانفجار قبلة النقشبنديين التي ظلّ المجتمعُ العثمانيّ التعيسُ ينشغلُ بصداها مدةً قرنٍ كاملٍ والناس في غفلتهم يعمهون - في الوقت الذي كانت القوى اليهوديّة-الصليبية تتداعى على الأمة المسلمة-. ولا تزال بقيّة من شيوخهم وممن حولهم من العوامّ يردّدون هذه الحكاية ويعدّونها من أمجاد مرشدهم البغداديّ الذي ربما تتألّم رفاته اليوم بسبب هذه الزندقة!

إنّ هذا القدر من تفاصيل الخلاف الواقع بين البغداديّ والسوسيّ، إنّما تحصّلناه من خلال كلماتٍ يسيرةٍ للبغداديّ ضمن رسالته المنقولة آنفاً. وكأنّ السبب الحقيقيّ لم يظهر بصورة جلية بعد. لأنّ البحوث التي أجريناها بأمل الحصول على كلماتٍ أو سطورٍ يمكن أن يكون السوسيّ قد خلفها، لم تُجدِ بأدنى شيء، مما يدلّ على أنّ الخالديين قد محوا جميع ما تبقى من آثار هذا الرجل، سوى كلماتٍ يسيرةٍ نقلها ابن عابدين في رسالة له. يبرهن ذلك على شدة الهجمات التي شنّها الخالديون على السوسيّ. ومن وثائق تلك الحرب الشعواء، رسالة «سلّ الحسام الهنديّ في نصرة مولانا خالد النقشبنديّ» للفيّيه ابن عابدين الدمشقيّ التي ردّ بها على رسالة كتبها عبد الوهّاب السوسيّ؛ يتّهم فيها خالدًا بالسحر والكفر والزندقة.

يقول السوسيّ في هذه الرسالة: «إنّ الشيخ خالدًا يقوم بتسخير الجنّ ويستعين بالأرواح الأرضية الخبيثة، ويدّعي علم الغيب عن إخبار الجنّ له، ويدّعي أنّه قد قتل وربط كثيرًا من العفاريت والجانّ، كلّ ذلك بإقراره، مع أنّه يدّعي الولاية والارشاد في نفس الوقت».

من الغريب جدًّا أنّنا لم نعثر في عجالة ابن عابدين المذكورة على قولٍ للسوسيّ غير هذه الكلمات الوجيزة! وحتىّ اسم عبد الوهّاب لم يذكره المؤلّف إلاّ مرة واحدة، وذلك من خلال عبارة منقولة. يدلّ أسلوب ابن عابدين على مدى استحقاره عبد الوهّاب السوسيّ!

أمّا السبب الحقيقي لهذا النزاع، فكأنّه ظهر إلى العيان بعد أن عثرنا على كلمات للباحث عباس العزّايّ إذ يقول:

«إنَّ الشيخ عبد الوهَّاب البغداديَّ كان قد تلقَّى إرشادَهُ من الشيخ عبد الله الدهلويِّ، كما تلقَّاه الشيخ خالد. فصار من مشاهير خلفائه. فأقام الشيخ خالد في الشام، وأمَّا الشيخ عبد الوهَّاب، فاستقرَّ في المدينة المنورة، فحدثت بين الاثنين مشادَّة حادَّة، ونفرة شديدة.

كان الشيخ عبد الوهَّاب ورفيقه العلامة الحاج حمدي الداغستاني قد خرجا على مولانا خالد، ونسبا إليه أمورًا مخالفةً للواقع. فانتصر له مفتي دمشق وعلماؤها. فأصدروا فتاوى، وأودعوها رسالة، وألتمسوا من الباب العالي لزوم تأديبهما، وكفَّ لسانهما.

فلما عُرضت على السلطان وعلى المشيخة، وبعد استطلاع آراء العلماء في إسطنبول، صدر الأمر بأنَّ أعمال المومى إليهما مخالفة للشرع، ويجب نفيهما. ولكنَّ النفي من المدينة المنورة يستدعي إثبات أنَّهما قاما بما يخالف الأدب. ولذا عُدلَّ عن ذلك ونُبِّها أن يكونا مشغولَيْن بأحوالهما. فصدر فرمان بذلك وتُبلغا بموجبه من شيخ الحرم النبويِّ».⁵⁰²

يتبيَّن من هذه الكلمات بشكل لا يقبل الشكَّ: أنَّ السبب الحقيقيَّ لهذا الخلاف، إنما كانت المنافسةُ ليس إلَّا. إذ أنَّ عبد الوهَّاب السوسيَّ لم يكن أصلًا من خلفاء خالد، وإنما كان من خلفاء شيخه. ويعني ذلك أنَّه كان من طبقة خالدٍ ونظيرُهُ في السلسلة النقشبندية . وهذا لا يسمح لعبد الوهَّاب السوسيَّ أن يدخل تحت طاعة خالد إلَّا بأمر من شيخه. ولو فرضنا أنَّ عبد الله الدهلويَّ قد أمره أن يتبع خالدًا، وهذا شيءٌ مجهولٌ حتَّى الآن - ذلك من عُرِف النقشبنديين، أن شيخ العصر يختار من بين خلفائه شخصًا واحدًا للنيابة عنه، خاصَّة في المناطق النائية عن مقرِّه؛ على أن يتبعه بقيَّة خلفائه-. فإنَّ المسافة الشاسعة التي بين الديار الهندية والشرق الأوسط، لا بدَّ وقد شجعتُ عبد الوهَّاب للخروج على خالد لصعوبة الرقابة عليه من مقام أعلى. كما وقع شبهه هذا الحدث بنفس السبب لعدَّة من شيوخ هذه الطريقة.

* خلفاء خالد البغداديَّ وتعامله معهم *

إنَّ خالداً هو ذا الرجل الحاذقُ بإلقاء تأثيره في نفوس الناس، وبالاستيلاء على ضمائرهم؛ المتلونُ اللَّبِقُ القَلْبُ المتربُّ في تعامله مع خلفائه وتلامذته. كما كان شأنه مع خصومه ومعارضيه. يتبين موقفه المتعاطف المتغلبُ الحذرُ من خروجهم عليه في كلِّ كلمة وجهها إليهم.

نجدُه تارة يخاطب أحدَ خلفائه بكمال التواضع والتذلل، كأنه هو تلميذه. لم يفعل ذلك في الحقيقة إلاَّ لِيَجسَّ نبضه، وليختبر صدقَه في الانتماء والاستسلام، ومن إيمانه التام بتعاليمه، وهل يتحرك فيه عرق التمرد عند ما يُرعى له العنان، حتَّى يحتاط في أمره ويكبح جماحه في الوقت اللازم، كما فعل بخليفته إسماعيل الشيرواني؛ وستأتي قصته. ونجدُه تارةً أخرى يخاطب أحدهم بلهجة قاسية، وغضب واستنكارٍ وتعاطفٍ في أدائه، لا يتساهل معه، فلا يُظهر تمام الثقة فيه؛ ولا يقبضه بأسنة مخالبه.

وكمثالٍ على رِقَّتِهِ وتواضعه، سطورُهُ من كتابه الذي بعث به إلى نائبه الملاً رسول في مهاباد، يقول فيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أخصَّ بالسلام التام، المقرون بمزيد العزِّ والإكرام جناب سيدي وسندي العالم الفاضل والنحرير الكامل مولانا الملاً رسول، حصَّله الله كلَّ مأمول».⁵⁰³

وأما شدته على من أحسَّ منه أدنى شمة من الاستخفاف بتعاليمه، أو أدنى إهمال لتعليماته، فإنها ربما يضيق عن وصفها كلام غيره.

وكمثال على هذا الجانب الذي طالما ظلَّ خافياً على الناس من صفات خالد البغداديّ. أوردنا فيما يلي، رسالته التي وجهها إلى خليفته الشيخ إسماعيل الشيروانيّ.

إنَّ نائبه هذا الذي تمَّ نصبه لبيت الطريقة النقشبندية في بلاد القوقاز يومئذ، يبدو أنه لم يعد يشعر بهيبة شيخه بعد أن وصل إلى تلك المنطقة النائية، وحال بينهما المسافات البعيدة، وأحسَّ في نفسه بالجرأة أن يقول لمريديه:

503 محمد أسعد صاحب، بغية الوجد في مکتوبات حضرة مولانا خالد ص/ 118. مطبعة الترقى، دمشق-1334 هـ: مستنسخ من قبل دار الدعوة، قزلبه، ماردين-1985م: عبد الكرم البياري المدرس، تنكّار الرجال ص/ 61. وهو مع كتاب

خالد التالذ لإبراهيم الفصح، والمكاتب الشريفة لعلام على عبد الله الدهلويّ ضمن مجلّد واحد نشرته مكتبة الحقيقة في إسطنبول عام 1992م.

- رابطوني. أي أحضروا صورتي في خيالكم أثناء صلاة الرابطة بدلاً من إحضار صورة الشيخ خالد.

هذه لا شك إهانة بسُلطان شيخ الجماعة، وخروج عليه في نظر خالد وحسب تعاليم دينه. لذا وما إن قرع سمعهُ طنينٌ هذا الحدث حتى نهض من مكانه ونفخ في الصور، فقامت القيامة في المملكة العثمانية، بل واجتازت جُلجُلته حدود المملكة إلى ما وراء جبال القوقاز. هذا نصّ كتابه الذي وجّهه إلى الشيخ إسماعيل الشيرواني:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من العبد الذليل، الأقل من القليل، إلى خادم بابه وقُدوة أحبائه الشيخ إسماعيل، عصمه الله عما وصمه، وصاله عما شأنه، آمين.

أما بعد فقد قال كثير من نجوم الاهتداء ومصابيح الإقتداء بأن الكفران هو نسيان المنعم بسبب الاشتغال بنعمته. وصرح محققو طريقتنا بأن رابطة من لم يفن عن وجوده لا يُورثُ الفناء للسالك، بل قد تورّطه في المهالك.

وأنتم ما كان المأمول منكم أن تقطعوا عنّا السلام والكلام، بل كمال المروءة والوفاء كان مقتضياً أن تواجهونا أحياناً بأنفسكم وإلا فتراجعونا في النقيير والقطمير، وتذكرونا دائماً بالتحريم مع السفير. ومن خدامنا من هو أبعد شقة منكم، وأقدم صحبة، وأكثر خدمة لا يتحرّك بدون إشارتنا. ولا تقس هذه الطريقة بجزعيلات متشيخي العصر، وتُرّهات أرباب الخداع والمكر. فالشيخ المحقق واسطة بين المرید وربه. والإعراض عنه إعراض عنه.

فلا تعلموا رابطة صوركم لأحد، ولو ظهرت له فإنه من تلبس إبليس. ولا تستخلفوا أحداً منهم إلا بأمرى، فضلاً عن مزاحمتهم لخلق الأَطراف من نحو (أرزنجان) و (بدليس).

ولئن تماديتم في هذا التغافل الذي تستعملونه لعرضنّ عنكم بالكلية، وخرط القتاد دونه. ومن أنذر فقد أعذر. والسلام».⁵⁰⁴

هكذا تمكّنا من المعرفة بشخصية خالد البغداديّ من خلال ما قد جرى به قلمه بالذات، وما نقلَ إلينا خلفاؤه من الوثائق على حقيقتها. ومن وقف على قصة حياته بتمامها وأمعن النظر بإنصاف وحياد فيما حدث بينه وبين أصناف الناس من علاقات طارئة وغريبة، أيقن بلا مرية أنّ ما حظي هذا الرجل من الشهرة والعزّ والإقبال بصورة غير متوقعة، إنما هو مثال رهيب من الاستدراج! ولكن مهما عثرنا في كلّ تلك المخلفات الكتابية التي تركها هو وخلفاؤه وراءهم مما لا يسهل ضبطه وإحصاؤه من أمور خارجة عن رحاب كتاب الله ونطاق السنّة النبوية؛ فإنّ لهذا الرجل كلمات تنبئ عن ندمه وهو في آخر عهده من هذه الدنيا؛ كترديده للآية الكريمة { يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ.. }⁵⁰⁵ وكقوله في وصيته: «لا تزيدوا التكايا عما في عهدي. ومن أراد الإحداث فليعمّر جامع العدّاس».⁵⁰⁶

فعسى أن يكون قد تاب في آخر أنفاسه من جميع ما قد أحدث في الدين الحنيف من بدع مجوس الهند، وما أوحيا من أساطير الشامان وهرطقات جاهلية الأتراك. والله سبحانه وتعالى غني عن عذابنا جميعاً، ورحمته وسعت كلّ شيء لعلّه يغمرنا وإياه بغفرانه وهو الغفور الرحيم.

إذا كان خالد البغداديّ قد استطاع أن يثير اهتمام المجتمع العثمانيّ في جميع أنحاء آناضول والمشرق العربي، - وذلك في ظروف غير عادية - فأصبح محطّ آمال الرجال حتّى اعتنى به خليفة المسلمين بالذات وأولاه اهتماماً كبيراً وأصدر الفرمان بمعاقبة خصومه وتأديبهم؛ فلا يُعقل أن ترجع هذه الشهرة العظيمة إلى غزارة علمه، ولا إلى جزالة نطقه وبلاغته فحسب؛ بل لخلفائه دور كبير في إذاعة صيته، وإلقاء هيئته ومحبتته في قلوب ملايين الناس. إذن يناسب هنا أن نعدّ أسماء مشاهيرهم بالإضافة إلى ذكر

504 خالد البغدادي، رسالته هذه إلى إسماعيل الشيرازي، وردت في المصادر التالية:

* محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة القشبنديّة ص/42.

* محمد أسعد الصاحب، بغية الواجد ص/174.

* عبد الكريم البياري المرّس، تذكّار الرجال ص/64، 65.

505 سورة الزمّ/56.

506 راجع ترجمته بالتفصيل في كتاب «علماء دمشق وأعيانها في قرن الثالث عشر الهجري» للمؤلّفين: محمد مطيع الحافظ ونزار أباطه، الجزء الأول ص/311. دار الفكر-دمشق.

شيء من أعمال مَنْ سعى منهم لترسيخ تعاليم خالد البغدادي واستمرّ في الصورة الأمامية باستغلال شهرته.

كذلك سوف نتعرّض إلى ذكر بعض أخلافهم الذين لا يزالون يعملون على نهج خالد، وعلى تخليد ذكره في عصرنا، وبخاصة منهم البارزون في الساحة التركيّة.

يزعم النقشبندیون أنّ خالدًا البغداديّ كان «له خلفاء حنفاء، وأولياء صلحاء، علماء عظماء، سائحون عابدون، لا يدرك كثرتهم العادون»⁵⁰⁷.

كانت هذه الكلمات المسجّعة لعبد المجيد بن محمّد الخانيّ. ثم يقول: «ولكن أذكر فئةً منهم مقتصرًا على من توفي وهو راض عنهم غير جانح إلى عدّ خلفائهم. فإنّهم يبلغون إلى مائة ألفٍ أو يزيدون».⁵⁰⁸

عثرنا على أسماء واحد وأربعين شخصًا من مشاهير خلفاء خالد البغداديّ في حدائق الخانيّ وهم: محمّد البغداديّ الإمام، وعبد الله القادريّ الشمزبينيّ الهكاريّ، وعبد الرحمن الكرديّ العقريّ، وعبد الفتاح الكرديّ العقريّ، ومصطفى الكُلعنبريّ، وعبد الله الجليّ، والملا عباس الكوكيّ، وعبد القادر البرزنجيّ، والملاّ هداية الله الأربليّ، وإسماعيل البرزنجيّ، وأبو بكر البغداديّ، وطاهر العقريّ، ومعروف التكريتيّ، وأحمد القسطمويّ، ومحمّد بن سليمان البغداديّ. ومحمّد عاشق، وموسى الجبوريّ، وعبد الغفور الكرديّ الكركوكيّ، وأحمد الأربليّ الخطيب، وعثمان الكرديّ الطويليّ، وعبد الله الأرزنجانيّ، وخالد الكرديّ، وإسماعيل الشيروانيّ، وأحمد الأغربرزيّ، وأحمد البرزنجيّ، وعبيد الله الحيدريّ، وعبد الغفور المشاهديّ، ومحمّد الجديد البغداديّ، وعبد القادر الديملايّ، ومحمّد الناصح، وحسن القوزانيّ، ومحمّد المجذوب العماديّ، وخالد الجزريّ، وطه الكيّاليّ الهكاريّ، وإسماعيل البصريّ، ومحمّد الفراقيّ الكرديّ، والملاّ خالد الكرديّ، وعبد الله الفرديّ، وإسماعيل الأنارانيّ، وعبد الله الهرويّ، ومحمّد بن عبد الله الخانيّ...

507 عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 258

508 عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 258

هذه القائمة لا نجد فيها أسماء عددٍ آخر من مشاهير خلفاء خالد، كأحمد بن سليمان الطرابلسيّ الأرواديّ، وحسين الدوسريّ، وإسماعيل الزلزويّ، ومحمود الصاحب (شقيق خالد البغداديّ). وهذا يثير الشكّ فيما إذا كان بين هؤلاء وبين الباقين من الفرقة الخالديّة نزاع وتنافر؛ كما لو كان المؤلّف مناوئاً لهم. في الحقيقة لم يهتم النقشبنديّون الأتراك أيضاً بهؤلاء الأشخاص، ليس ذلك إلاّ لأنهم من أصولٍ عربيّةٍ وعاشوا في المناطق العربيّة حتّى اختفت أسماءهم وغدوا نسيّاً منسياً.

ولا يخفى على الباحث المدقق، أنّ النزاع دائماً سجال بين أهل التصوّف عموماً وبين شيوخ النقشبنديّة على وجه الخصوص؛ وإنّ غابت هذه الحقيقة عن كثير من الناس، وذلك لسريّة أمورهم، وصمتهم وكنوميّتهم. وأحياناً تفتضح أسرار الخلاف بين أشخاص وجماعات منهم؛ سوف نشرحه في بابه إن شاء الله.

هذا وجدير بالتنويه، أنّ الأسرة الخانيّة كانت قد حظيت بشهرةٍ بالغةٍ، ولمع نجمها بعد موت خالد البغداديّ بسرعةٍ. وذلك أنّ وصيّهُ الأوّل والثانيّ لم يلبثا حتّى أدركتهما المنية بعد موته بمدة قليلة.⁵⁰⁹ فأتاحت الفرصة بذلك لخليفته الثالث محمد بن عبد الله الخانيّ؛ فحلّت أسرته بسبب هذا التطوّر محلّ أسرة البغداديّ. ولكن دبّ القلق في صفوفٍ ورثة خالد، واستمرّ الأمر كذلك حتّى بلغ التنافس والتنافر بين الأسرتين شأواً المعاداة والتباغض في عهد الجيل الثالث للطرفين.

إنّ الشيخ محمداً أسعداً الصاحب ابن شقيق خالد البغداديّ كان ساخطاً على الخانيّين وبينهما هجران. ويدلّ على ذلك بصراحةٍ: أنّ عبد المجيد بن محمد بن محمد الخانيّ لم يذكر اسم والد محمد أسعد ضمن قائمة الخلفاء في كتابه (الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية) وهو محمود الصاحب شقيق خالد البغداديّ. فقد تناساه الخانيّ لهذا السبب.

طلّت الأسرة الخانيّة هكذا في الصورة، فالتفتّ جموع النقشبنديّين حولها في بلاد الشام، وتقلّصت شهرة أسعد الصاحب. لذا، كانت كُتُب الخانيّين (البهجة السنيّة لمحمد بن عبد الله الخانيّ؛ والحدائق الوردية، والسعادة الأبديّة لحفيده عبد المجيد بن محمد الخانيّ) كانت رائجة بين ملاي الطائفة النقشبندية عموماً. بينما كُتُب أسعد الصاحب (بغية الواجد، ونور الهداية والعرفان، و الجواهر

المكون، والفيوضات الخالديّة، ورجال الطريقة النقشبندية) مهجورة، لا تتداولها الأيدي؛ بل بعضها غير معروفة من قبل النقشبنديين وغير موجودة، خاصّة في مكاتب إسطنبول.

كان محمد بن عبد الله الخانيّ ثالث أوصياء البغداديّ؛ رجلاً ماهراً في الرياسة، ناجحاً في قيادة أتباع خالد. مارس سياسةً حكيمةً في التعامل مع الخاصّة والعامةٍ منهم. ظلّ مهيباً وموقراً فيهم. لذلك استمرّت الفرقة الخالديّة في نشاطها وحيويتها على الرغم من مشاكل تلك المرحلة؛ وما كان يعاني المجتمع والدولة من أزماتٍ سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وأخلاقيّة حادّة.

استطاعت الطريقة النقشبندية أن تحتفظ بتأثيرها على السكّان العرب في ديار الشام كنتيجة لجهوده. مع أنّ العرب هم أقلّ استعداداً للانفلات من ريق الإسلام بنزعات باطنية دخيلة.

إنّ ولاية السلطنة العثمانيّة على المنطقة الشامية يومئذ - ومنهم الفريق محمد رشيد باشا، والمشير محمد نامق باشا، و والى الأيالة السوريّة موسى صفوتي باشا، كانوا يستفيدون كثيراً من شهرة محمد بن عبد الله الخانيّ في ضبط الرعيّة، وتوفير الأمن في المنطقة. لأنّه كان نافذ الكلمة. و مقابل هذا، كانوا يبالغون في إجلاله، ممّا زاد في تقوية جاهه وتأثيره.

كان محمد بن عبد الله الخانيّ بجانب ذلك يتلقّى دعماً مادّيّاً قوامه ألف وخمسمائة ليرة ذهبيّة من خزانة الدولة العثمانيّة سنويّاً. وذلك بوساطة والى سوريّة موسى صفوتي باشا الذي سافر معه حاجّاً ورئيساً لجماهير حجّج الأتراك عام 1846م. وعندما زار محمد بن عبد الله الخانيّ عاصمة السّلطنة العثمانيّة عام 1853م. استقبله جمع من أركان الدولة استقبلاً فخماً على غرار الملوك، وأقام الخانيّ في قصر موسى صفوتي باشا بإسطنبول أربعة أشهر ضيفاً معظماً عنده.

ألّف محمد بن عبد الله الخانيّ كتاباً بعنوان «البهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبندية». وهو أوّل كتاب شامل مرتّب ترتيباً حسناً في آداب هذه الطريقة باللّغة العربيّة وبأسلوب واضح سلس. إذ أنّ جميع شيوخ هذه الطريقة قبل شيخه، هم عناصر عجميّة؛ قدّمواهم من الأتراك والأكراد، وبقيتهم من سكّان الديار الهندية. لم يتقنوا اللّغة العربيّة، ولم يتدوّقوا ثمار آدابها. ويغلب أنّهم لهذا السبب لم يتمكنوا من فهم حقائق القرآن والسنة فهماً صحيحاً؛ ولا كان لهم إلمام بالعلوم. ولكن محمّداً بن عبد الله

الخانيّ كان عربيّ النشأة والقريجة؛ فأصبح التدوينُ في آداب هذه الطريقة، وتَرْجَمَةُ رِجَالِهَا من الهواية بين أبناء هذه الأسرة بعد تأليف كتاب «البهجة السنيّة». فتابعه وقلّده في هذه العادة، حفيده عبد المجيد بن محمّد الخانيّ بتأليفه كتابه المعروف: «الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية» ورسالته «السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية».

أخطأ عدد من الباحثين، فنسبوا كتاب «السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية». نسبه إلى جدّه محمّد بن عبد الله الخانيّ. وهذا غير صحيح. بل حفيده عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ هو الذي ألف الكتاب المذكور. ودلائل ذلك كثيرة في سطره. منها، قوله في الديباجة:

«وبعد، فيقول أضعف النوع الإنساني، عبد المجيد بن محمّد الخانيّ الخالدي النقشبندي، أنقذ الله من الأوحال أحواله، وأنفذ له من الكمال آماله؛ لما تكرر طلب الإخوان لرسالة مختصرة في طريقتنا الخالدية العلية الشأن. من خزينة المفخر والفضائل، وزينة الأواخر والأوائل، علامة الزمان، وأكبري العرفان، سيدي الوالد الماجد، داماد قطب الإرشاد، حضرة مولانا خالد النقشبندي العثماني الكردي... أشار إليّ، وإشارته فرض عليّ؛ أن أجيب سؤلهم، ولا أنظر بعين السوى لهم. فاسرعتُ امتثاله، وشرعتُ بهذه الرسالة وسميتها: السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية».

والدليل الثاني في إثبات نسبة هذه الرسالة إلى عبد المجيد بن محمّد الخانيّ: كلماته في نهاية الرسالة المذكورة، وهذا نصّها:

«يقول أضعف العبيد جامعهُ عبد المجيد: لقد جمعتُ هذه الموارد الهنيّة، من أنواع أنوار البهجة السنيّة، لمشيّد المجد المؤيّد، سيدي الجدّ الأجد... في دمشق الشام، عاشر ذي القعدة الحرام عام 1313هـ.».

والدليل الثالث هي كلمات محمّد أبي السعود أفندي مراد، على سبيل التقريظ لهذه الرسالة في أبيات نظمها، يقول في بعضها:

سما في فضله حتى غدا في * ه من شمس الضحى أسمى وأشهر؛
ألا وهو الملاذ الشيخ عبد ال * مجيد الخالدي الشهم الموقر.

وقد ألفت فيه خير سفرٍ * به صبح الطريقة منك أسفر.

مات محمد بن عبد الله الخاني سنة 1862م. والطريقة الخالدية المجددية النقشبندية مازالت تحتفظ بقوتها، على الرغم من مُضي ستّة وثلاثين عامًا على موت خالد البغدادي؛ بالإضافة إلى ما وقعت من أحداثٍ هامةٍ غيرت الأفكار، وزعزعت العقائد، وشوّشت الأذهان في تلك المرحلة.

إلا أنّ هذه الأحداث لمّا أخذت تشتدّ وتتنوّع بدافع سلسلة من تطوّرات العصر، بدأت تنعكس نتائجها على الجيل الصاعد بما فيهم أبناء الطائفة النقشبندية في عهد أخلاف محمد بن محمد بن عبد الله الخاني. لذا نلمس توقّفًا ملحوظًا في نشاط هذه الطريقة على الساحة الشامية في عهد ابنه محمد بن محمد الخاني، وحفيده عبد المجيد بن محمد الخاني. وإذا تأملنا قليلاً فيما كان يحدث يومئذ في العالم بصورة عامّة، وفي المناطق العربيّة (سيما في منطقة الهلال الخصيب) من ثورات وحركات فكرية وعقدية و أيديولوجية، لا بدّ أن نقدّر ما كان لهذه الحركات من الأثر الكبير على العقلية السائدة في تلك المرحلة.

ثم إنّ خليفة محمد بن عبد الله الخاني (وهو ابنه محمد) - في الحقيقة - لم يتميّز بشخصية بارزة، خاصّة، وكانت قد طغت شهرة الأمير عبد القادر الجزائري على سمعة الخانيين بصورة طبيعية ومن غير نزاع. وهذا أيضًا له أثر بالغ على هبوط مكانة النقشبنديين. وما إن تصاعدت التيارات الفكرية والسياسية (الشائعة باسم اليقظة والوعي القومي والنهضة الحديثة والدعوة السلفية وغيرها)، حتّى ازدادت سرعة إنحطاط الطريقة الخالدية. فلم يستطع أديبُ النقشبنديين عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني أن يقاوم هذه التيارات. على الرغم من لباقتة وتحذلقه وأسلوبه الدعائي المسجّع والمزخرف. ولا نعتت جهودُ الباقيين من رؤوس النقشبندية من أمثال محمد أسعد بن محمود صاحب وأعوانه.

وربما دبّ في قلوبهم القلق على مستقبلهم بعد هذه التطوّرات، بأن يهجرهم الناس في أمد غير بعيد، (إنّ استمرت تلك الحركات التي لم تكن تعرف الهوادة في المنطقة)، حتّى غيروا شيئًا كثيرًا من سياستهم في التعامل مع رواد الوعي الإسلامي. ويشهد على ذلك الموقف المتصالح الذي اتخذته عبد المجيد بن محمد الخاني من السلفيين، وعلاقاته مع الشيخ محمد عبده في منفاه بمدينة بيروت عام 1883م.

ولكن الطريقة النقشبندية انزاحت منذ أوائل القرن العشرين واختفت من الساحة الشامية، إلا في بعض البقاع من المنطقة الشمالية الآهلة بالأكراد. الذين تشربوا عقائد هذه الطريقة لانسجامها مع عقليتهم القاصرة عن فهم حقائق الكون والحياة والقرآن.

فلما بدأت علامات الاحتضار على الدولة العثمانية، انحصرت نشاطات الطريقة النقشبندية في نطاق الساحة التي يسكنها الأتراك والأكراد فحسب. وهي الأراضي التركية في الوقت الحاضر. إلا أن هذه النشاطات دامت واستحكمت، وإن اختلت في بعض الفترات بظهور الخلاف بين رؤوس هذه الطائفة وبين الحكام في عهد الاتحاديين في آخر أيام الدولة العثمانية، وفي المرحلة الأولى من العهد الجمهوري. ولكنها أخذت طابع دين مستقل تماماً في أيامنا، سوف نشرح هذا الجانب في الفصل الخامس إن شاء الله تعالى.

في الحقيقة، مئات من شيوخ الطريقة النقشبندية كانوا ولا يزالون يبذلون جهوداً بالغة في نشر تعاليم الطريقة الخالدية على الساحة التركية والعنصر التركي والكردي منذ حقبة تزيد على مائة وخمسين سنة. إلا أن نجاح الطريقة في هذه الساحة إنما يعود بالدرجة الأولى إلى شخصين منهم. وما ذلك في الحقيقة إلا من نتائج سعيهما المتواصل، ودعائيهما المغرية، وأسلوبهما في التعامل مع الناس، وتأثيرهما في توجيههم، بالإضافة إلى علاقتهما الوطيدة بحكام السلطة العليا. وإلا ليس بسبب إطلاع الناس على كنه هذه الطريقة وغاياتها. بل العامة تجهل حقيقتها تماماً.

أحد هذين الشخصيتين البارزتين هو الشيخ طه النهري الشمريني الهكاري الكيلاني. وهو من الطبقة الأولى في سلسلة الطريقة بعد خالد البغدادي كما مر ذكره.

والثاني، هو الشيخ أحمد ضياء الدين الكموشخاني. الذي أخذ الخلافة من أحمد سليمان الأروادي (خليفة خالد البغدادي).

وأما بقية شيوخ النقشبندية - مهما اشتهر بعضهم وأصبح في الصورة، لتقادم سمعة الأولين - فإنهم لم يحققوا شيئاً جديداً سوى منافسة الأمثال في اصطیاد الناس.

* الشيخ طه بن الملائحة أحمد بن صالح النهري الهكاري الكيلاني.

ينحدر طه النهري من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. أسرته من تلك العائلات المهاجرة من ذراري بني هاشم الذين فرّوا من زحف المغول عام 656 من الهجرة، الموافق: 1258 من الميلاد، وأقاموا في هذه المنطقة؛ ثم غلب على كثير منهم الطابع الكردي.⁵¹⁰

كان طه وعمه عبد الله من خلفاء خالد البغدادي. إلا أنّ طه غلب عمّه في الشهرة. لأنّه كان يمتاز بتسليط هيئته على الناس، والتمكّن منهم، والمعرفة بطرق تسخيرهم؛ بخلاف عمّه الخامل المعزول عن الناس، الذي لا ذكر له أصلاً سوى ما جاء في بعض مكتوبات البغداديّ فحسب.

أمّا طه، فإنّ ولاية المنطقة وأعبائها كانوا ينظرون إليه بعين التوقير والإجلال لما رأوا طاعة جميع العشائر الكرديّة له. وربما هذا السبب المزدوج هو الدافع الرئيس لتدرّجه في سلّم الشهرة حتّى استطاع أن يكتسب قوةً سياسيّةً في المنطقة إلى جانب مركزه المرموق عند السلطان العثمانيّ. ثم حظي من هذه الشهرة خلفاؤه أيضاً.

إنّ أهمية دوره في نشر تعاليم الطريقة النقشبندية على الساحة التركيّة تكمن في جهود أسرتين من أتباعه. وهما الأسرة الأرواسيّة، والأسرة الكُفروبيّة. لذا من أراد البحث في سير الطريقة النقشبندية ومتابعة نشاطها إبّان القرن الأخير في هذه البلاد، ينبغي له أن يتعرّف أولاً على كنه هاتين الأسرتين. وحتّى المعرفة بشخصيّة طه، تتوقّف أيضاً على المعرفة بالأسرتين المذكورتين. لأنّ أتباعه لم يدّخروا وسعاً في تعظيم شأنه إلى درجة إله لا ينبغي (في اعتقادهم) أن يتمكن أيّ إنسان من الإطلاع على شيء من صفاته البشرية. فقد بذل أتباعه قصارى جهودهم في القضاء على أدنى وثيقة من دلائل حياته

510 يستقى من هذه العائلات المهضومة في البوطة الكرديّة: الحسينيون من أحفاد الشيخ حامد المارديني الذين أقاموا في مدينة ماردين وضواحيها؛ والأسرة العباسية في مدينة تلّو؛ التابعة لولاية بيگرد؛ والأسرة الحزبية الحسينية في قرية فرساف، بضواحي مدينة سعرد أيضاً. إنّ هذه المنطقة قد فتحها الصحابيّ الجليل، خالد بن الوليد القرظي المخزومي. فكان قد أقام هناك عقب الفتح جموعاً من العرب. فلما هاجرت العائلات المذكورة الثلاث من بغداد إلى هذه المنطقة بعد ستمئة عام من الفتح الإسلاميّ الأولى، إختارت الإقامة بين بني قومه من سكانها الأصليّين؛ فصانها من الإصهار في المجتمع الكرديّ مدّة طويلة تزيد على سبعمائة سنة، حتّى نجى هذا الطابع على يد يهود سالونيك الذين وثبوا على السلطة، وتحكّموا في زمام الأمر منذ بداية العهد الجمهوري إلى اليوم.

السياسية لما قد تُسبب زوال هيبته من قلوب المريرين؛ وقد نسجوا حوله تلافيفَ من حكايات أسطورية غريبة على سبيل الذكر لما كان يتّصف به من العظمة والشموخ والشأن الرفيع والكرامة والبركة؛ يتلّهى بها الغافل عن التأمل فيما إذا كان هذا الرجل بشراً يأكل ويشرب ويتغوّط.

كان طه من أشهر أبناء الشرفاء النهريين (نسبة إلى نهري). وهي قرية على مَقْرِيّة من مدينة «شَمَزِينان» التابعة لولاية الهكّارية. وكان في الوقت ذاته يمثل أكبر جماعة من النقشبنديين في المنطقة الكردية الشمالية من المملكة العثمانية.

قام بدوره (بعد وفاته)، ابنه عُبَيْدُ الله. وكان قد أخذ الخلافة من عمّه صالح بن أحمد، فاستغلّ شهرة والده في أغراض خطيرة بدرت منه لميزاتٍ شخصية فيه. ذلك لأنه كان جريئاً مقداماً. عارض سياسة السلطان عبد الحميد الثاني ضدّ موقفه المتهاون من الأكراد. ولكنّ عقليته المتخلفة لم تسمح له بملازمة جانب الحكمة في تعامله مع السلطة العثمانية. فلم ينجح في معارضته. لأنه كان مُعْجَباً بقدرته إلى حدود الاغترار حتّى لجأ إلى استعمال العنف ضدّ جهة غير ذات علاقة بالأمر. فاتّخذ العداء السافر على العشيرة المسيحية الآشورية ذريعةً لهذه المعارضة. فأنذر زعمائها وطلب منهم أن يعلنوا إسلامهم على وجه السرعة جميعاً، وإلاّ ليداهمهم ببطشه وليحطمهم بجنوده! فجمع من مريديه جيشاً بمنطقة زاب، قوامه عشرون ألفَ شخصٍ، ودخل المنطقة على حين غفلة من أهلها؛ ففعل بهم ما فعل، ثم دخل الأراضي الإيرانية زاحفاً يتحدّى بذلك السلطين العثمانية والإيرانية؛ فداهمته القوات العثمانية، فألقِيَ القبض عليه وعلى ابنه عبد القادر عام 1881م. فصدر الفرمان السلطانيّ بنفيهما إلى مكة المكرمة. ثمّ مات عبيد الله في منفاه بعد أن قضى هناك سبع سنين. وذلك عام 1888م.

قبل أنّ الغرض من ثورة عبيد الله بن طه النهريّ عام 1881م، كان إقامة دولة كردية في منطقة جنوب شرقي المملكة العثمانية. وتبرهن على هذا، عدّة أحداث وقعت بعد موته.

منها، أنّ ابنه عبد القادر، قام بتأسيس جمعية كردية في 2 أكتوبر. 1908م. مقرّها الرئيس بمدينة إسطنبول. وكان لها عدّة فروع في المنطقة الكردية.

ومنها، ثبتت علاقة عبد القادر بن عبيد الله النهريّ بالثورة التي قادها الزعيم الكرديّ أمين علي البدرخاني عام 1889م؛ كذلك ثبتت علاقته مع زحف الأرواسيين على مدينة بدليس بقيادة الشيخ شهاب الدين بن الشيخ صبغة الله الأرواسيّ الحيزانيّ عام 1913م. كما كانت له علاقة بالثورة التي انفجرت أخيراً بقيادة الشيخ سعيد البالوي عام 1924م.

جاءت معلومات مفصلة عن القضايا المذكورة في تقارير عدة لجهاز المخابرات التركيّة فور إعلان الجمهوريّة واثراً اعتقاله مع ابنه محمّد، تُلِيَتْ هذه التقارير أمام المحكمة العرفية بمدينة دياربكر أثناء التحقيقات التي أُجريتَ معهما عبر الجلسات من شهر أبريل ومايو عام 1925م. وذلك بتهمته اشتراكهما وتعاونهما مع الثوار الأكراد النقشبنديّين. ثم نُقِدَ حكمُ الإعدام فيهما صبيحةً يوم الأربعاء 17. مايو. 1925م. بمدينة دياربكر.

يبدو أنّه كان يستوحي الجرأة، ويستمد القدرة من وراثته لشيخ من أقوى زعماء النقشبنديّين، وهو جدّه الشيخ طه النهريّ؛ حتّى صدرت منه هذه البوادر الخطيرة، فأوَدَّت بحياته وحياة ابنه محمّد إلى الهلاك في سبيل هدف لا مساس له بالإسلام مباشرةً. وإن كان بعض الزعماء لهذه الثورات ينطلقون باسم الإسلام ويهتفون به. ولكنّها في الحقيقة كانت حركات نضالية وثورات كردية ضدّ الحكم الفاشي لحزب الاتحاد والترقي وامتداده الذي تجسّد في النظام اليهودي بعد إعلان الجمهوريّة. بينما كان الشيخ المذكور عربي الأصل من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وإن كان هو كردي النشأة من حيث الذوق والعقليّة والاتجاه.

إنّ الشيخ عبد القادر بن الشيخ عبيد الله بن الشيخ طه النهريّ، هذا الذي قام بتلك المغامرات الخطيرة، كان من أعضاء مجلس الأعيان في البرلمان العثمانيّ سابقاً، كما تقلّد منصب رئاسة مجلس الشورى في حكومة داماد فريد باشا، عامي 1919-1920م. من عهد السلطان وحيد الدين. ولكن العبرة التي يجب استخلاصها من كلّ هذه الوقائع، هو أنّه لم ينل هذه المناصب ولا حظي بهذه الشهرة إلاّ لأنّه كان شيخاً نقشبنديّاً وابن شيخ نقشبديّ شهير!

أمّا الأسرتان المذكورتان من أتباع الشيخ طه النهريّ، فإنّ قصّتهما غريبة جدّاً.

وقع التنافر بين الأسرتين فور موت الشيخ طه، ثم اشتد الصراع بينهما بسبب المنافسة في استغلال شهرته، حتى بلغ ذلك إلى أبشع أشكال التبغض والشحناء. فبدأ كل من الطرفين يقابل الآخر بالسخرية والتهمك والسب والتكفير.

ذلك أنّ الشيخ صبغة الله الأرواسي والشيخ محمد الكُفرويّ، كلاهما كان قد حصل على الخلافة من الشيخ طه النهري الهكاريّ. وهذا ليس أمراً شاذاً عن أصول النقشبندية. لأنّه قد يأذن شيخ الجماعة لأكثر من واحد بالخلافة. إلاّ أنّه يقيم لنفسه وصياً خاصاً، على أن يرجع إليه بقيّة خلفائه بعد موته في قراراتهم. وأن يرابطوه ويعظّموه بصفته نائباً عنه.

وما إن مات الشيخ طه النهري الهكاريّ، حتى ادّعى كل من الخليفين أنّه الوصي القائم مقام شيخه وانتصر له أتباعه بحماس. فراد في هذه الحملة أتباع الكُفرويّ: «أن الشيخ صبغة الله الأرواسي زنديقٌ دجالٌ مطرودٌ من الطريقة وأنّه لن يجد عرف الجنة!»، زعمًا على لسان عبید الله النهريّ. فتطوّر الأمر إلى حدّ، لم يأل أيّ طرفٍ منهما جهداً في التشجيع على الآخر، إلى أن قام أبناء صبغة الله الأرواسي بثورة على النظام عام 1913م.

فلما زحفوا على مدينة بدليس، استغلّ أتباع الشيخ الكُفرويّ هذه الفرصة، فأنحازوا إلى القوات العثمانية ضدّ الثوّار. وساعدهم رجل اسمه الشيخ محمّد الغريب من أتباع الشيخ محمّد الحزين الفرسافي الهاشمي. فاستولى على مخزن العتاد والذخيرة للجنود الذين كانوا قد هربوا من وجه الثوّار. فوزّع الأسلحة على سكان المدينة؛ فاشتدّت المقاومة ضدّ الأرواسيين حتى عاجلتهم الهزيمة. فأُلقي القبض على قادتهم: الشيخ شهاب الدين، والسيد علي، والشيخ محمّد شيرين، كبار الأسرة الأرواسية؛ ونفدّ فيهم حكم الإعدام بسرعة في مدينة بدليس. فزاد الطين بلّةً بين الأسرتين بعد هذا الحدث، واستمرّت العداوة بينهما إلى يومنا هذا.

كانت قد أصابت الأسرة الكُفرويّة أيضاً نكبة في تلك المرحلة بسبب بدعة أثارها رجلٌ متطرّفٌ من أتباعها الأكراد في مدينة آغري⁵¹¹ اسمه «بكو».

511 هذه المدينة ولاية في أقصى شرق تركيا. تقع على مسافة قريبة من الحدود الإيرانية-التركية. كانت تسمى «فره كوسه» ازيد سكانها في السنين الأخيرة وأرى على خمسمائة ألف نسمة. غالب قراها أهلة بالأكراد. تعتمد الحياة فيها على زراعة

القمح وتربية المواشي. انفجرت في منطقة منها ثورة ضد الطغمة اليهودية الحاكمة عام 1930م. وهي منطقة «وادي زيلان». ذهب ضحية المذابح التي أرتكبت فيها ستة عشر ألفاً من الأكراد؛ شملت الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى!

ذلك، أن هذا الرجل ظهر ينبح في الشوارع نُبَاح الكلاب. فزعم أن هذا الفعل يصدر منه تلقائياً وبغير إرادة، كما زعم أن ذلك جذبات إلهية تتنابه، فلا قدرة له على الامتناع عنها. بيد أنه لم يقتصر بنفسه على ذلك؛ بل بدأ يدعو الناس أيضاً إلى النُبَاح بإصرار وقد يشتدّ عليهم أحياناً إلى حدود الإجبار. فاغتر به كثير من البُسطاء، وأطاعه آخرون على كراهية منهم، مخافة أن يمسّهم بسوء. فلم يلبث أن تفاقمت البدعة وانتشرت الفتنة بين قبائل الأكراد الذين كانوا ينتمون إلى الشيخ محمد الكُفروويّ (ت. 1896م.)، ويعتقدون أنه أعظم أولياء الله على وجه البسيطة. فتطوّر الأمر وتساعدت أصوات العواء على المنطقة بتمامها وبصورة مرعبة عجزت الإدارة المحليّة عن التحكّم فيها والحيلولة دونها؛ حتى لجأت إلى طلب المدد من العاصمة إسطنبول. فتم القضاء على هذه البدعة باتّخاذ إجراءات أمنية صارمة. ثم بعد أن صدر فرمان بتنفيذ العقوبة اللازمة ضد كبار الأسرة الكُفروويّة، بصفتهم مسئولين عن حدوث هذه الفتنة، تمّ إبعاد الشيخ عبد الهادي والشيخ عبد الباقي (ابني الشيخ محمد الكُفروويّ)؛ تمّ إبعادهما إلى بركة فزان. وهي منطقة نائية عن البقاع المسكونة في قلب الصحراء بليبيا. وذلك في أوائل القرن العشرين الميلادي.

والغريب أن تلك التطوّرات لم تُجدِ بأيّ سلبية على الطريقة النقشبندية، ولم تخفّف شيئاً من سرعة انتشارها ورسوخها، على الرغم من ابتلاء المجتمع العثمانيّ بنكبات المجاعة والهجرة بعد الحرب العالميّة الأولى، وزحف جيوش روسيا القيصرية على المناطق الشرقية التي كانت معظمها أهلاً بالأكراد. فنفذت محبة هذه الطريقة إلى قرارة نفوسهم، فتشرّبتها دماؤهم وخلاياهم. مع أن الطريقة النقشبندية كانت حديثة العهد في تلك المرحلة بالإضافة إلى أنّ الأكرادية الساحقة منهم، ما كانوا ولا يزالون يعرفون شيئاً من تعاليمها ومبادئها الأساسيّة وفلسفتها. كما وأنهم يجهلون تماماً من أين تستوحي عقائدها. وما هو الغرض الحقيقي لهذه الطريقة.

هكذا سادت العقائد النقشبندية ورسخت في نفوس الأكراد بالمنطقة الشرقية نتيجة جهود الشيخ طه النهريّ وخليفته بالرغم من النزاع الذي دام بينهما وبين أتباعهما منذ مائة وثلاثين عاماً. وكان لعددٍ آخر من الشيوخ أيضاً أثر كبير في انتشار هذه الطريقة على المنطقة المذكورة. منهم؛ الشيخ خالد الجزري، والشيخ حامد المارديني الحسيني الهاشمي، والشيخ صالح السيبيكي، والشيخ محمد الحزين الحسيني الهاشمي.

أما المنطقة الغربيّة، فإنّ جهود الشيخ أحمد ضياء الدين الكُموشخانوي يغلب على جهود سائر شيوخ الأتراك في نشر هذه الطريقة. ذلك لأنّه أعلمهم باللّغة العربيّة، وأكثرهم ثقافةً، وأنجحهم في التعامل والتفاهم مع خاصّة المجتمع. لذا كان نافذ الكلمة عند رجال الدولة والسياسة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. جاءت ترجمته بالتفصيل في «إرغام المرید» للشيخ محمّد زاهد الكوثريّ.

وهو من الطبقة الثانية بعد خالد البغداديّ. لذا يُعدُّ هو الحلقة الحادية والثلاثين من السلسلة النقشبندیّة. صحّب الشيخ عبد الفتاح العقريّ (أحد خلفاء البغداديّ الذي أقام في إسطنبول لنشر الطريقة بأمر من شيخه، ومات بها.) وفي تلك الفترة التقى الكُموشخانويّ بالشيخ أحمد بن سليمان الأروادي في إسطنبول. كان الأرواديّ أيضاً من خلفاء البغداديّ. أجاز الكُموشخانويّ بالخلافة أثناء هذه الزيارة. ثم عاد إلى بلده طرابلس الشام بعد أن أقام في مدينة إسطنبول مدةً طويلةً.

للشيخ أحمد ضياء الدين الكُموشخانويّ تصنيفات في الحديث والتصوّف والأخلاق. وردت أسماءها في كتب الباحثين الأتراك. كلّها مدوّنة بالعربيّة. وذلك يبرهن على أنّه كان يتقن لغة الضاد، وإن لم يكن على درجة فائقة في البلاغة. وذلك عسير جدًّا على العنصر التركيّ. إذ لم ينجح منهم أحد في استخدام هذه اللّغة على مستوى أدباء العرب وأعلامهم بعد العهد المملوكيّ في مصر. إلا عدد قليل جدًّا. أشهرهم الشيخ محمّد زاهد الكوثريّ، ثم الشيخ مصطفى صبري (آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانيّة)، ثم الشيخ أبو السعود العمادي. مات الشيخ أحمد ضياء الدين الكُموشخانويّ عام 1311هـ/1893م. والدولة العثمانيّة مغلوبة على أمرها، معرّضة لأخطار وشيكة الوقوع. ولم يكن النقشبندیون يومئذ على شعور تامّ بما تعاني دولتهم من أزمات رهيبية في الداخل والخارج. وكان المجتمع عامّةً في ظلام من الجهل والعمى. حتّى اندلعت الحرب العالميّة الأولى، فحصلت مالا يُحصى من الأرواح.

وما إن وضعت الحرب أوزارها، حتّى بدأ الناس يستفيقون من سباتهم، وينهضون من تحت أنقاض هذه الدولة المدمّرة ليواصلوا مسيرة الحياة من جديد. ولكن البقيّة الباقية من النقشبندیين مازالوا ينظرون إلى من يظهر فيركب على عاتقهم ويحتلّ مكان السابقين من الشيوخ ليُعيدهم إلى ذلك العالم المظلم كرةً أخرى.

فلما تمّ إعلان الجمهورية التركية عام 1923م، وانفجرت ثورة الشيخ سعيد الپالوي الكردي عام 1924م. حكمت السلطة على عددٍ من مشائخ الطريقة النقشبندية بالإقامة الجبرية في المدن الغربية بعد أن نفذت حكمَ الإعدام في جماعةٍ منهم عقب إخماد الثورة مباشرةً. وكان من المحكومين عليهم بالإقامة الجبرية في كلِّ من مدينة إسطنبول، وبورصة، وإزمير، أبناء الأسرة الأرواسية والكُفروية والحزينية وغيرهم.

و من غرابة الأمر، أنّ الأسرتين الأرواسية والكُفروية تعرّضتا لاستحالةٍ سريعةٍ جدًّا في منفاهما لأسبابٍ وظروفٍ اجتماعيةٍ و ثقافيةٍ، انفكّت الصلةُ على أثرها بين الأسرة الكُفروية خاصةً وبين جماعات المريدين المنتسبين إليها بدافع هذه الاستحالة. زد على ذلك: أنّ قلةً أبناء هذه الأسرة عددًا، واختلافهم عن أتباعهم في التعايش والسلوك بعد المرحلة الأخيرة، يُعدُّ أيضًا من الأسباب الرئيسة لهذا الإنحلال. وما إن مات الشيخ قسيم الكُفروي عام 1992م، حتّى اندرست اسم هذه الأسرة واختفت عن ساحة النقشبديين تمامًا.

أمّا الأرواسيون، فإنهم استطاعوا أن يحتفظوا بمكانتهم بين الجماعات المنتسبة إليهم لأسباب:

منها، أنّ عددًا منهم استمروا في ممارسة مهنة الأسلاف إلى نهاية العقد الثالث من القرن العشرين الميلادي. وعلى رأسهم الشيخ عبد الحكيم الأرواسي الذي أعاد للأسرة شُمعتها بعد تلك النكبات التي أصابها قبيل الحرب العالمية الأولى. وذلك بنشاطاته في مدينة إسطنبول، خاصة بعد إعلان الجمهورية، وهدوء الأوساط؛ كما سنتطرق إلى أعماله قريبًا إن شاء الله.

ومن هذه الأسباب: أنّ رئيس الطغمة اليهودية الحاكمة الذي وثب على السلطة فور الإعلان للجمهورية المزيفة؛ وغضب الحكم بالتواطؤ مع «منظمة القرائمّة»، في الداخل؛ و«منظمة الفرمسونية العالمية» وبدعم من الحكومة البريطانية من الخارج؛ استقر أمره وبدأ يلتقط شبابًا من أفذاذ كلِّ فئة، يُعريهم بإمكاناتٍ واسعة، وأموالٍ طائلة، ومناصب هامةٍ طاشت بها عقولهم واندفعوا تحت أمره إلى تحقيق كلِّ ما يهواه. كان يروضهم على شاكلته، ليكوّن منهم قوّة يعزّز بها مركزه. اختار شبابًا من هذه العائلات المحكومة عليها بالإقامة الجبرية. ومنح الناضجين منهم فرصة المشاركة معه في احتكار

السلطة. وسعى إلى تربية عدد من صغارهم وفق اتجاهاته؛ فأرسل فريقاً منهم إلى سويسرا للدراسة، وليصنع منهم عملاء صادقين مخلصين يخلد بهم ذكره. فكان على رأس هؤلاء الفتية شابٌ من الأسرة الأرواسية. اسمه «كامران إينان». وهو ابن الشيخ صلاح الدين بن السيد علي بن صبغة الله الأرواسي الحيزاني، من مشاهير شيوخ النقشبندية في شرق البلاد.

نشأ كامران إينان علمانياً دهرياً بحكم البيئة التي تربى فيها، والثقافة الوضعية التي تلقاها في الغرب. لذا كان ولا يزال يُضمر الحقد على الإسلام والمسلمين. ولكنه محنكٌ في فنون المسامرة، وحاذقٌ في المداورة واللباقة إلى حدود النفاق. يتظاهر لأتباع آباءه على عقيدتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم. ولكن الطغمة اليهودية الحاكمة لولا تأكدها من إخلاصه لها، لما ضمته إلى فريقها، ولا كشفت له من أسرار مخططاتها، ولا منحتة تلك المناصب العليا التي لا يزال يشغلها ويتعاون مع البقية من رجال هذه المنظمة السرية الخطيرة. إذ أنّ الحكومات اليهودية وكّلت إلى هذا الرجل وظائف هامة إبان احتكارها لسلطة الجمهورية التركية. فمنحته مهمة السفارة في الصين الأولى، كما أكسبت أباه العضوية في البرلمان التركي. ثم ازدادت في إسبغ نعمها على هذه الأسرة أن استخدمت عدداً من رجالها الآخرين، كما وكّلت أخيراً إلى كامران إينان منصب وزارات عديدة. وهو لا يزال يتهنأ بمكانته المرموقة بين الجيل الثاني والثالث من أفراد هذه المنظمة اليهودية حتى الآن. على الرغم من أنّ لآبائه سوابق سياسية خطيرة كما تطرّفنا إليها بإيجاز آنفاً. فيكون استخدامه أمراً مخالفاً للأعراف السياسية على وجه الإطلاق. يبرهن على استثنائية وجوده في المسرح السياسي، عدم تمكين الحكومات التركية لبقية أحفاد الثوار من تلك المناصب.

أمّا عبد الحكيم بن مصطفى الأرواسي، فإنه من مشاهير المتأخرين للطائفة النقشبندية. لم نقف على تاريخ ميلاده. انخرط في سلك هذه الطريقة وأخذ الخلافة من جدّه السيد فهيم عام 1889م. وبذلك يُعدُّ من الطبقة الثانية والثلاثين من السلسلة النقشبندية.

خرج من موطنه (قرية آرواس)؛ وهي من ضواحي مدينة «وان»؛ مهاجراً إلى الموصل، هرباً من هول القوات الروسية التي داهمت المنطقة الشرقية عام 1914م. أقام هناك مدة عامين، ثم هاجر إلى مدينة أضنة، فأسكيشهر، حتى وصل إلى إسطنبول عام 1919م. فأقام بها، وشهد التطورات التي مرت

بالدولة العثمانية في أيام انهارها. ولكنّه ظلّ يشغل بنشر طريقته غير مبالٍ بما يجري حوله، أو ربما تلبيةً للحاجة الروحية التي كان الناس في مساس إليها.

ينبغي هنا أن لا ننسى الحالة النفسية التي كانت في تلك المرحلة قد سادت ضمير المجتمع العثمانيّ بكلّ فئاته، ذلك المجتمع الذي لم يكد يصدّق بسقوط «دولته العملاقة التي كانت في ذمة أولياء الله». إنّ هذا المجتمع كان يومئذ يبحث عن يسليّه، ويكشف غمومه، ويحَقِّف من آلامه، ويبيّشّرهُ بأنّ الدولة مازالت في حماية أضرحة الأولياء. فوجد ضالّته المنشودة في عبد الحكيم الأرواسي.

إنّ هذا الرجل - في الحقيقة - قد لعب دوراً هاماً في تسلية الناس بتزيين أحلامهم، وتعظيم أمجادهم، واستطاع بهذا الأسلوب أن يجدّد عهدهم بالطريقة النقشبنديّة و«عظمائها الذين ظلّوا ينشرون أجنحتهم على الأمة التركيّة، ويحفظونها من المصائب، ويقاتلون أعداءها أمام الصفّ الأوّل في كلّ معركة»

لقد حالفه الحظّ في هذه المحاولة أن تعرّف على رجلين نادرين من نوعهما في إسطنبول. وهذا يُعتبَر أيضاً من الأسباب الهامة لنجاحه في نشر طريقته واكتساب شهرته وإحياء ما خسرت أسرته من السمعة والكرامة بتمردّها على السلطة فيما سبق. أحد هذين الشخصيتين: أديب شاعر صنيدي شهير، اسمه نجيب فاضل، مات عام 1983م؛ والثاني عقيدٌ صيدليّ متقاعد؛ اسمه حسين حلمي؛ دسّته أجهزة المخابرات في صفوف أتباع الأرواسي لمهمة قام بها حقّ قيام منذ ستين عاماً. مات يوم 25 أكتوبر 2001 في إسطنبول. تنحصر هذه المهمة أصلاً في نشر عقائد غريبة تمثّل شكلاً مخصوصاً مختلّقاً وبديلاً عن الإسلام. وهي: «المُسلّمانيّة»⁵¹² المتعارفة من قبل الغالبية العظمى للمجتمع العثمانيّ منذ ستمائة عام على الأقلّ. بل هو الإسلام الشكليّ المجرد عن الروح السماويّ منذ عهد العباسيين؛ وليس هو الإسلام الذي يحدّده كتابُ الله وسنّةُ رسوله صلى الله عليه وسلّم بمقوماته السماوية والعالمية.

لقد كان عبد الحكيم الأرواسي ذا حظ عظيم؛ لأن مشاهير شيوخ النقشبندية من العناصر التركية الذين كانوا في المنطقة الغربية، حصدتهم المنيّة في تلك المرحلة الزمنية؛ فسرعان ما حلّ الأرواسي محلّهم، واستفاد من الفراغ الحاصل بموتهم. فذهب صيته بمحاولات الرجلين المذكورين من بطانته.

فلما أوجست الحكومة خيفةً من انتعاش الطريقة النقشبندية بعد الثلاثينات في المنطقة الغربية، بعد أن انتهت من قمعهم في المنطقة الشرقية تطبيقاً لخطّة أعدتها عام 1925م،⁵¹³ دبرّت خطةً أخرى للقضاء على كبار هذه الطائفة بتجنيد عددٍ من الحشاشين في مدينة منامن قرب إزمير عام 1930م. ثم حصدتهم حصاد الزرع، واعتقلت من لم تتمكن من إيجاد ذريعة لقتله. وكان الأرواسي - من حسن حظّه - ضمن الفريق الثاني؛ لذا حُكِمَ عليه بالإقامة الجبرية في مدينة إزمير. ثم أُطلق سراحه عام 1943م. فانتقل إلى أنقره، ومات بجي «باغلوم» في العام نفسه.

ومن مشاهير شيوخ الطريقة النقشبندية بالمنطقة الغربية في أواخر الحكم العثماني: الشيخ أسعد الأربلي العراقي الكردي. كان قد حظي شهرة واسعة في مدينة إسطنبول. نفاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى موطنه الأول (مدينة أربيل) بشمالي العراق؛ لمعارضته سياسته. بل بتهمة تطاوله على شخصية السلطان. قيل أنّ الشيخ أسعد هذا كان مُعجَبًا بنفسه مُستعليًا مُتهوّرًا لا يعبأ بكرامة الناس؛ دخل في عرض هذا وذاك حتّى شتم السلطان عبد الحميد، فبلغه، فأمر بنفيه إلى أربيل فأقام هناك عشر سنين محكومًا عليه بالإقامة الجبرية؛ غير أنّ أتباعه يستقبحون هذا الإسناد ويدافعون بأنّ حكم النفي إنّما صدر بسبب كتاب ألفه الشيخ أسعد، ورَدَ فيه ما يثير إساءة السلطان، فنفاه. ولكنهم لم يبرروا حجّتهم حتّى الآن بآيات هذا الكتاب المجهول الذي ربما لا أصل له! وما قيل أنّ هذا الكتاب هو «كنز العرفان»، - كما جاء على لسان الباحث أكرم إيشن في «موسوعة إسطنبول»، مادة النقشبندية - فإنّه لا يستقيم مع المنطق السليم. إذ أنّ هذا الكتاب لا يحتوي على شيءٍ مما يكون قد أغضب السلطان. بل قد أكّد فيه المؤلّف لزوم إطاعة أولي الأمر، كما يحتوي هذا الكتاب على موضوعاتٍ فقهية وأخلاقية واجتماعية متفرقة؛ كأداب الوضوء وفضائل السواك والذكر والدعاء وتحسين اللحية وذمّ البخل؛ ولكن الأربلي كان موالياً لجمعية شبّان الأتراك التي شنت حرباً ضاريةً على السلطان عبد الحميد وسياسته كما ورَدَ التنويه بذلك في «موسوعة إسطنبول».⁵¹⁴

513 وهي ثورة الشيخ سعيد الهالوي. في الحقيقة لم تكن هذه الثورة إلا موامرة دبرتها حكومة يهود سالونيك للقضاء على المسحة الإسلامية ظلماً منها أنّ النقشبندية يعنون الإسلام.

514 Mehmed Esad Efendi'nin, Kanun-i Esasi hareketini destekleyen Tasavvuf Dergisinde yazdığı ve Jön Türk destekçilerinden Cemiyet-i Sufiye'nin destekçisi olduğu bilinmektedir. Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İtem: Nakşibendilik.

ثم إنَّ الشيخ أسعد الأربلي لما أُفْرِجَ عنه عام 1914م. باع جميعَ مُتلكاتِهِ في أربيل⁵¹⁵ واشترى بثمنها قصرًا في إسطنبول بحِيٍّ «أَرْنُكُويٍّ»، وهي من الأحياء التي يسكنها الأثرياء والطبقة الأرسطوقراطية. ثم صار من أعضاء «مجلس مشائخ الصوفيّة» وتولّى رئاسته، ثم استقال من وظيفته عام 1915م.

تحامل الأربلي على شخصٍ من رجال الوعظ في إسطنبول، وهاجمه في رسالته السابعة والثلاثين بعد المائة على أنه منكر للصوفيّة.

كان أسعد الأربلي قد انخرط في سلك النقشبنديين بالانتساب إلى شخص اسمه طه الحريري؛ وهو من خلفاء طه الشمرينائي الهكاري. يدّعي الأربلي أنه مأذونٌ أيضًا في الطريقة القادرية من الشيخ عبد الحميد البريفكائي (خليفة الشيخ نور الدين البريفكائي). ورد إقراره بهذه التفاصيل في رسالته الرابعة والخمسين بعد المائة من جملة رسائله التي نشرت من قِبَل دار الأرقم في إسطنبول عام 1983م. وهي كلّها مدوّنة باللّغة التركيّة.

ظهر في الآونة الأخيرة رجلٌ اسمه (عمر أُونْكَوْت) واشتهر بنشر رسائل في مثالب عدد من رؤساء النقشبندية؛ جاء في نهاية هذه الرسائل أنه مأذونٌ من خليل فوزي في الطريقة النقشبندية، وأنّ هذا الأخير كان من خلفاء الشيخ أسعد الأربلي؛ غير أنّ عامّة النقشبنديين لا يعترفون به ولا بشيخه (خليل فوزي)، بل يعتبرونه دعياً دجالاً عميلاً للحكومة العلمانيّة!

يبدو من عبارات الشيخ أسعد الأربلي أنّه كان قد استخلف شخصًا اسمه (يُكْتَا أفندي)، يرجع إليه أتباعه للاستشارة والاستفتاء، وقد زكاه الأربلي في عدد من رسائله إلى مردييه. ولكن الذي اشتهر بالنيابة عنه أخيرًا هو محمود سامي رمضان أوغلو. قد أجازه الأربلي بالخلافة كما ينصّ على ذلك خطابه الرابع والثلاثون بعد المائة من جملة رسائله التي جمعها الدكتور عرفان جندوز بالمشاركة مع ح. كامل يلماز.

515 مدينة في شمال العراق، تقع على بعد 88 كيلاً من مدين الموصل. سكّانها 150 ألفاً، أغلبهم كردّ. لاسمها ضبط آخر بزيادة باء بين الباء واللام (أربيل).

قام خليفته محمود سامي ببذل جهوده في سبيل تحسين سمعة شيخه لدى الناس الذين كانوا يبغضونه لمعارضته سياسة السلطان عبد الحميد، - لأن القاعدة الشعبية من الأتراك مازالوا يحتفظون بالحبّة والإتّماء إلى سلاطين بني عثمان على أهم رموز مقدّسة لأجداد الأمة التركيّة - . فأوصى بعض مريديه المشهورين بالثروة والجاه أن يتزوّجوا من بنات أسرة آل عثمان، في الفترة التي كان رجال الأسرة المالكة مُبْعَدِينَ عن البلاد، وجملةً من نسائهم أصبحن في حاجة إلى المساعدة بسبب ما تعرّضن له من الفقر والإهمال. فانتهت هذه التوصية بعقد قرانٍ بين رجلٍ ذي مكانة من مريديه وبين أميرة من بنات آل عثمان. وقُضيت بذلك على السمعة السيئة التي كانت قد شاعت ضد الشيخ أسعد الأربلي من قبل.

مازالت الطريقة النقشبندية تواصل مسيرتها وانتشارها على الساحة التركيّة بكلّ نشاط وحيوية؛ وبواسطة طبقاتٍ من شيوخ هذه الطائفة. تختلف نسبة كلّ منهم إلى سلسلة ساداتهم ما بين الطبقة الرابعة والثامنة بعد خالد البغدادي. وتستعدّ هذه الطريقة في أيامنا للقفز إلى الجمهوريات التركيّة التي حصلت على استقلالها بعد سقوط الإمبراطورية السوفييتية. كما تحاول بأقصى إمكاناتها وتعمل لتجنيد كافة رجالها على إبقاء مفهوم الإسلام محصوراً في ذلك القالب الذي صبّه فيه الروحانيون الأتراك بخلاف ميّزاته العلميّة، ومحتوياته القرآنية الأصيلة، و صورته الحمديّة البرّاقة.

سنقوم بتحليل هذا الجانب للطريقة النقشبندية عبر الفصل الخامس الذي نحن على وشك الدخول في تفاصيله بعد سرد معلومات وافية حول المميّزات الشخصية لشيوخ الطرق الصوفية ومستوياتهم العلميّة والثقافية إن شاء الله تعالى.

* المميّزات الشخصية لشيوخ الطريقة النقشبندية ومستوياتهم العلميّة والثقافية

إنّ شيوخ الطرائق الصوفية الأتراك اليوم، هم في الحقيقة أخلاف دراويش خراسان (Horasan Erenleri) الذين كانوا يتردّدون بين قبائل التركمان الرُّحَل في العصر الذي اعتنقوا فيه الإسلام. وأمّا أولئك الدراويش، فقد كانوا هم أيضاً أخلاف الرهبان الهياطلة الذين يزعم بعض البَحَثَة أنّهم يلتقون في الأصل مع الأتراك. لقد كانت المجتمعات التركمانية يومئذٍ تحتفل بهم وتعتقد فيهم: (أنهم واصلون = Erenler). والواصل في مصطلح الصوفية هو الذي يسلك طريقاً خاصاً من الرياضة الذهنية مدّة ثمّ

يرتقي حتى يتحد مع الله. هذا هو المعتقد السائد عند الصوفية الأتراك على اختلاف مذاهبها.⁵¹⁶،
تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

حظي هؤلاء الدراويش نصيباً من المعرفة بطرق جلب عاطفة الناس بحكم التفاعل معهم وكسب التجارب على امتداد العصور. لأنهم طالما كانوا يغتبطون المكانة التي يتمتع بها علماء الإسلام في المجتمع. لقد كان الدراويش الذين احتلوا مكان رجال الدين في المرحلة التي دخلت قبائل التركمان إلى حظيرة الإسلام، كانوا على هيئة غريبة في أزيائهم ومناظرهم التي تنفّر منها الطبيعة السليمة؛ يرتدون ثياباً رثة لا يكاد يتمييز من الرقاع، كما كانوا يلقون حواجبهم وشواربهم، ويشدون من شعر رؤوسهم صفائر يرسلونها، ويعلقون حلقات من الفضة في آذانهم، لا يحترفون صناعة ولا يمارسون مهنة، ولا يأكلون من كد أنفسهم إلا ما يتصدق عليهم، ويشدون في سلوكهم وتصرفاتهم عن عامة الناس.

أما حطوتهم من إقبال البسطاء عليهم، وما كانوا يتمتعون به من الإجلال بينهم يومئذ، إنما كان من نتائج العقلية السائدة للطبقة الساذجة في تلك المرحلة. لأن عموم التركمان كانوا على أشد حال من الجهل والتخلف، بحيث لم ينسبوا صفة الوي إلى أحد إلا إذا رأوه مسكيناً أو غيبياً في هيئة رثة، قدر الثياب والبدن، بعيداً عن النشاط والعمل، يجهل القراءة والكتابة، ولا يتناول كتاباً أبداً... كانت هذه نظرهم في بداية الأمر إلى من يعتقدون فيه أنه من أولياء الله، وخاصته من عباده، غير أن هذه العقلية تغيرت مع الزمان، لأن أولئك الدراويش ما لبثوا حتى انتبهوا إلى أن لعلماء الإسلام مكانة مرموقة عند السلطة والطبقة الراقية، فأخذوا يقلدون العلماء في زيهم، ويمارسون القراءة والكتابة طمعاً فيما ينالُه أهل العلم من توقير الناس، وما يتمتعون به من الرفاهية واليسر والسعة في المعاش. ورغم هذا التغيير الجذري في أفكارهم، إن العقلية الصوفية المتطرفة لم تسمح لهم في المرحلة الأولى أن ينظروا إلى المناهج الدراسية المتعارفة كأداة للمعرفة والتنوير. بل قسموا العلوم حسب رأيهم إلى ضربين: علم الظاهر وعلم الباطن. لذا لم يشته أحد منهم أبداً إلى دراسة العلوم التجريبية كالحساب والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك والتاريخ والجغرافيا وأمثالها، ولا حتى إلى العلوم الشرعية، كعلم التوحيد والفقه وعلوم القرآن والحديث وأصولها، وما يحتاج إليه الطالب لفهم هذه المعارف من علوم الآلة، كالصرف والتحو والاشتقاق وفقه اللغة والوضع والمنطق... طالما كره الصوفية ممارسة هذه العلوم، فاختلقوا لأنفسهم علماً سموه علم الباطن (أو العلم اللدني)، وزعموا أن علم الظاهر لا يعني عن الإنسان شيئاً

في طريق الوصول إلى الله! إلا أن هذه الطائفة - خاصة بعد انتشار الطريقة النقشبندية بين الأتراك في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني بجهود خالد البغدادي عام 1811م. - اهتمت إلى حدٍ بالغٍ بالعلوم الشرعية تشبُّهاً بعلماء الإسلام. ولهذا السبب التبست على الناس بالعلماء، بحيث لا يكاد أحدٌ اليوم في تركيا يميّزُ شيوخَ الطريقة النقشبندية من العلماء. بل يُفضِّلونهم على سائر العلماء مع نسبة هذه الصفة إليهم بما يعتقدون فيهم من الكرامة والبركة وعلم الباطن. لأنَّ «علماء الظاهر» على حدِّ قولهم، «محبوبون عن المعرفة بالله وعن طرق الوصول إليه!»

أمَّا شيوخُ هذه الطريقة خاصة الذين سبقوا خالدًا البغدادي وعاشوا في الحُقبة التي ظلَّ هذا التّيَّار على مداها محصورًا في مناطق تركستان والساحة الهندية، كانوا أبعدَ النَّاسِ من الأجواء العلمية، حاملين مقبعين على أنفسهم، لم يردُّ لأحدِهِم أثرٌ في طبقات الرجال ولا ترجم لهم أحدٌ من الباحثين والمؤرخين على امتداد العصور.

لقد جاءت كلمات أديب النقشبديين، عبد المجيد بن محمد الخاني من أقوى الدلائل على هذه الحقيقة، إذ يقول في مُستَهَلِّ كتابه، (الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية):

«وسمعتُ أسماء سادات سلسلة الطريقة الجليلة، جعلتُ أتشوفُ للوقوف على تراجم أحوالهم المقدسة مدَّة غير قليلة، وإذ لم أرها مُجمَّعةً باللغة العربية في كتابٍ واحدٍ؛ لأنَّ أكثرهم من بلادِ الفرسِ والهندِ وتلك المعاهد». ثم يزعم الخاني أنه «استحضر كُتُبًا مهمَّةً جمَّةً مدوَّنةً بالفارسية والتركية في ترجمة شيوخه» ويعدّد أسماء هذه الكتب التي لم يحتفل بها أحد من العلماء، كما يعترف بهذه الحقيقة عندما يقول: «إنَّه غير معول على الإقتداءِ بعبارة المتعربين، لأنَّ أكثرهم من الفرس المتعربين!» كما يقول: «فقد شدَّ عني من رجال السلسلة اثنان وهما سيدنا الدويش محمد ونجله الشيخ محمد الخواجكي الأمكنكي، فإني لم أقف لهما على ترجمة في مكان، فأرجو ممن ألمَّ بترجمتهما أن يلحقها تحت اسمهما.»

لقد بذل المؤلف ما بذل من جهودٍ بالغةٍ وأفرغ كلَّ طاقته وتكلّم ملاً شذقيه ليرفع من شأن هذه الطائفة الجهولة، وليجعل كلاً منهم تاجاً على رؤوس العالمين فيُبرهن للناس أنَّهم أنوارُ السماوات والأرضين!

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى الْمُمَيَّرَاتِ الشَّخْصِيَّةِ لَشَيْخِ الطَّرِيقَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ السَّابِقِينَ بِصُورَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، يَكْفِيهِ أَنْ يَلْتَمَسَ مَعْلُومَاتٍ أَثْبَتَهَا بَعْضُ الْبَاحِثِينَ. وَمِنْ مَشَاهِيرِ هَؤُلَاءِ الْبَاحِثِينَ الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ فُؤَادِ كُوبْرُولُو. فَإِنَّهُ مِثْلًا يَطْرُقُ حَيَاةَ يَوْسُفِ الْهَمْدَانِيِّ الَّذِي وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي بَعْضِ الْمَصَادِرِ وَاهْتَمَّ بِهِ بِحَقَّةِ الْأَعْجَامِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. فَقَدْ أَثْبَتَ الدُّكْتُورُ كُوبْرُولُو: «أَنَّ يَوْسُفَ الْهَمْدَانِيِّ رَغِمَ مَا تَلَقَّى دُرُوسًا مِنَ الْعُلَمَاءِ مَدَّةً فِي بَغْدَادٍ وَأَصْبَحَ ذَا وَقُوفٍ بِالْغِ وَإِحَاطَةٍ بِالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ مَا لَبِثَ حَتَّى تَرَكَ طَرِيقَ الْعِلْمِ بِسَبَبِ مَزَاجِهِ الصُّوفِيِّ»⁵¹⁷ هَذَا هُوَ الْمَوْقِفُ الْمَتَعَارَفُ لَشَيْخِ الطَّرِيقَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ طَوَالَ الْعَصُورِ حَتَّى عَهْدِ خَالِدِ الْبَغْدَادِيِّ. أَمَّا الْبَغْدَادِيُّ فَإِنَّهُ غَدَا مِثْلًا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ شَيْخِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِدَافِعِ نَزْعَتِهِ إِلَى الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَبِحُكْمِ مَا سَبَقَ لَهُ مِنْ دَرَاةٍ بَعْضِ الْعُلُومِ التَّقْلِيدِيَّةِ؛ بِذَلِكَ إِزْدَادِ أَخْلَافِهِ اغْتِبَاطًا بِعُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ، فَمَارَسُوا دَرَاةً بَعْضِ الْعُلُومِ التَّقْلِيدِيَّةِ اسْوَةً بِهِ مَعَ الْإِخْتِصَارِ عَلَى الْقِرَاءَةِ دُونَ الْكِتَابَةِ. وَكَانَتْ مَقَرَّرَاتِ الْمَدَارِسِ الْدَاخِلَةِ تَحْتَ هَيْمَنَتِهِمْ مَحْدُودَةً جَدًّا. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الدَّافِعَ الَّذِي جَعَلَ الطَّرِيقَةَ النَّقْشَبَنْدِيَّةَ تَنْتَشِرُ فِي أُنْحَاءِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ بَعْدَ عَامِ 1811م. لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّ شَيْخَ هَذِهِ النُّحْلَةِ اسْتَعْدَمُوا تَكَايَهُمْ فِي التَّدْرِيسِ وَظَهَرُوا لِلنَّاسِ فِي لِبَاسِ الْعُلَمَاءِ. فَاعْتَقَدَ النَّاسُ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِجَانِبِ مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَاهِ عِنْدَ اللَّهِ.

تَدَهْوَرُ الْمُسْتَوَى الْعِلْمِيُّ بَعْدَ عَهْدِ السَّلْطَانِ مُحَمَّدِ الثَّانِي بِشَكْلِ مَلْحُوظٍ خَاصَّةً فِي الْمَدَارِسِ الَّتِي اسْتَوْلَى عَلَيْهَا شَيْخُ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ الْأَكْرَادِ، بَعْدَ سَيْطَرَتِهِمْ عَلَى الْقَطَاعِ الْعِلْمِيِّ بِشَرْقِ الْبِلَادِ، ثُمَّ تَأَثَّرَتْ بِهِمُ الْعُنَاصِرُ التَّرْكِيَّةُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، فَادَّى ذَلِكَ إِلَى تَخَلُّفٍ سَرِيعٍ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ وَزَادَ مِنْ حُدَّةِ عَوَامِلِ الْإِنْهِيَارِ لِلدُّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَسُقُوطِهَا.

وَالْمَعْرِفَةُ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ وَمَا قَدْ أُسْفِرَ عَنْهَا مِنْ مَشَاكِلَ ثَانَوِيَّةٍ أُخْرَى، يَكْفِي الْإِطْلَاعُ عَلَى الْمَنْهَجِ الْمُدْرَسِيِّ لِلنَّقْشَبَنْدِيَّةِ وَمَقَارِنَتِهَا بِالْمَنْهَجِ الْمَتَّفَقِ عَلَيْهِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عِبْرَ التَّارِيخِ.

لَقَدْ كَانَتْ النُّظْرِيَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ تَقُومُ عَلَى دَعَامَتَيْنِ أُسَاسِيَّتَيْنِ: التَّعْلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ. فَمَا لَبِثَ أَنْ تَعَرَّضَ كَلًّا مِنْ هَذَيْنِ الدَّعَامَتَيْنِ لِلتَّشْوِيهِ بَعْدَ هَيْمَنَةِ هَذَا التَّيَّارِ الصُّوفِيِّ الْكُرْدِيِّ عَلَى الْمَدَارِسِ الْكَائِنَةِ بِالْمَنْطِقَتَيْنِ الْكُرْدِيَّةِ وَالتَّرْكِيَّةِ. اقْتَصَرَ التَّعْلِيمُ عِنْدَهُمْ عَلَى قِيَامِ الْأَسْتَاذِ بِقِرَاءَةِ مَتْنِ الدَّرْسِ وَشَرْحِهِ بِقَدْرِ مَحْدُودٍ جَدًّا. أَمَّا الْكِتَابَةُ وَالرَّسْمُ وَالتَّخْطِيطُ، فَإِنَّهَا أُسْقِطَتْ مِنَ الْمَنَاهِجِ نَهَائِيًّا، بَلْ اخْتَفَتْ تَلْقَائِيًّا

لجهل الأساتذة بالكتابة والنطق بالعربية ارتجالاً. أمّا التعلّم، فإنّه اضمحلّ تماماً؛ لأنّ دور الطالب اقتصر على الإستماع المحض دون اشتراكه في المحاضرة بشكلٍ من الأشكال؛ لا محلّ للسؤال والاستفسار عادةً، ولا للإمتحان والاختبار اطلاقاً في هذا النمط الدراسيّ العقيم. كما لا يخضع هذه المدارس لمراقبة أيّ سلطةٍ ولا لتفتيش أيّ مسؤولٍ، بل شيخ الجماعة مطلق العنان فيما يختار من كتاب، وموضوع، وقبول لمن شاء من الوافدين عليه من الطلبة وطرد من شاء منهم.

لقد قسم علماء الإسلام الفنون قديماً إلى آليّة وعاليّة؛ فالآليّة تشمل علوم اللغة كالصرف والنحو والبلاغة وفروعها، ومنها المنطق. وهي بمنزلة السُّلم، يتدرّج بها الطالب إلى تحصيل العلوم العالية ليتخصّص في بعضها. وأمّا هذا القسم، فإنّه يشمل الحساب، والهندسة، والتاريخ والجغرافيا، والفلك والطبّ والموسيقى والفيزياء والكيمياء وعلم الأرض والزراعة والسياسة والفلسفة وعلم الاجتماع وعلوم الدين. هذه القاعدة التي أثبتها علماء الإسلام كانت معمولةً بها في العالم الإسلاميّ حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي. فلما تدهورت الأوضاع وانتشر الجهل واحتلّ شيوخ النقشبندية مكان العلماء أُلغيت جميع العلوم العقلية والتجريبية من المناهج الدراسية في مدارس هذه الطائفة، كما أُلغيت المحاضرة والخطاب بالطريق المباشر؛ بل اقتصر الأمر على تدريس سلسلة من كُتبٍ قديمة جداً وبصورة عشوائية، يقرأ الأستاذ كلّ يوم سطوراً من كتابٍ واحدٍ يختاره من بينها إلى أن ينتهي الكتاب، ثم يباشِر قراءة كتابٍ آخر من هذه السلسلة وهكذا يتابع الدروس من خلال كتابٍ واحدٍ عبر السلسلة كلاً على حدة حتى تنتهي الدراسة. وتتراوح مدّتها ما بين عشرٍ وخمسة عشر عاماً، يتخرّج الطالب في نهايتها وهو شبه إنسانٍ أخرس، لا يتكلّم إلاّ بعد مراجعة كتابٍ، ولا يخطّ يمينه أبداً! فضلاً عمّا يعاني من العمى والعجز البالغ في الحديث بالعربية، فلا يكادُ يجيب على سؤالٍ واحدٍ حتى لو خاطبه عربيٌّ من أجهل الناس!

هذه هي خلاصة الميزات الشخصية والمستوى العلميّ لشيخو النقشبندية من كلاً العنصرين التركيّ والكرديّ.

أمّا الكُتب المقرّرة للتدريس عندهم، فهي تلك التي اختارها صناديدهم منذ قرنين، ولم يتغيّر منها حتى كتابٌ واحدٌ. وهي في الحقيقة كُتبٌ قديمةٌ وعقيمةٌ يجهلها العالم العربيّ تماماً. وهذه أسماؤها بالتسلسل حسب المنهج الدراسيّ المعمول به عند النقشبنديين منذ عهد خالد البغداديّ حتى اليوم.

- (1) نُؤَبَّار: قاموسٌ عربي - كُردي، نظمهُ الشيخُ أحمدُ الخاني (1591-1652م.) وهو من أهالي مدينة آغري الواقعة في المنطقة الشرقية بتركيا.
- (2) نَهْجُ الأنام: رسالةٌ في العقيدة، منظومةٌ باللُّغةِ الكردية، نظمها المُلّا خليلُ العمريُّ الأُسُردِيُّ (1754-1843م.)
- (3) غاية الإختصار (التقريب): كتابٌ صغير الحجم في الفقه على المذهب الشافعيّ، مؤلّفهُ شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن القاسم.
- (4) فتح القريب المجيب في شرح ألفاظ التقريب: وهو شرح كتاب المذكور آنفاً، ألّفه أحمد بن الحسين.
- (5) التصريف: كتابٌ في الاشتقاق وصيغ الأفعال، مؤلّفهُ مجهولٌ.
- (6) الأمثلة: جدولٌ مفصّلٌ في تصريف صيغ الأفعال، مؤلّفهُ مجهولٌ.
- (7) البناء: كتابٌ في أبواب التصريف، مؤلّفهُ مجهولٌ.
- (8) المقصود: كتابٌ في أبواب التصريف أيضاً، مؤلّفهُ مجهولٌ.
- (9) العزّي: كتابٌ في أبواب التصريف أيضاً، ألّفه عزّ الدين عبد الوهاب بن ابراهيم الزنجانيّ
- (10) العوامل الجرجانيّ: كتابٌ صغير الحجم في النحو للمبتدئين، يتناول العوامل التي يتغيّر بها آخر الكلمة، ألّفه عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانيّ (ت. 1078م.)
- (11) العوامل البركويّ: كتابٌ صغير الحجم في النحو للمبتدئين، يتناول العوامل التي يتغيّر بها آخر الكلمة، ألّفه محمّد البركوي، وهو تركي الأصل.

12) الظروف: كتاب صغير الحجم، يتناول الظروف في النحو العربي، كتبه الملاً يونس الأرقطيني باللغة الكردية، يدخل في عداد الكتب المتداولة بالمنطقة الكردية.

13) التركيب: كتاب في النحو العربي، يتناول تحليل ألفاظ العوامل للجرجاني وهو من مؤلفات الملاً يونس الأرقطيني أيضاً.

14) سعد الله الصغير: وهو كتاب صغير الحجم في النحو العربي، يشرح ألفاظ العوامل للجرجاني، مؤلفه مجهول.

15) شرح المغني: كتاب متوسط الحجم في مختلف قواعد النحو، ألفه محمد بن ابراهيم بن محمد العمري الميلاني. شرح فيه كتاب المغني لأستاذه أحمد بن الحسن الجاربردي.

16) التصريف الكبير: كتاب ضخماً في الاشتقاق والتصريف، ألفه سعد الدين بن مسعود بن عمر التافنازاني.

17) حل المعاهد في شرح القواعد: كتاب متوسط الحجم في النحو العربي، يتناول الجملة، ألفه أبو الثناء أحمد بن محمد الزيلوي، يغلب أنه تركي الأصل، شرح فيه كتاب قواعد الإعراب لابن هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري. يزعم عمر رضاء كحالة أن هذا الكتاب من مؤلفات سعد الدين بن مسعود بن عمر التافنازاني!

18) حل مشكلات الإشارات: كتاب في القواعد الأساسية للمنطق والفلسفة، ألفه ناصر الدين الطوسي، شرح فيه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا، واختصره فخر الدين الرازي، لذا يسميه الطلبة (التلخيص).

19) حدائق الدقائق: كتاب ضخماً في النحو العربي، يسميه الطلبة في المنطقة الكردية (سعد الله كوراً)، ألفه سعد الدين سعد الله.

- (20) نتائج الأفكار في شرح الإظهار: كتاب ضخّم في النحو العربي، ألفه مصطفى بن حمزة الرومي، شرح فيه كتاب الإظهار لمحمد البركوي.
- (21) شرح ألفية ابن مالك: كتاب ضخّم في النحو العربي، ألفه جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.
- (22) الفوائد الضيائية: كتاب ضخّم في النحو العربي، ألفه نور الدين عبد الرحمن الجامي، شرح فيه كافية ابن الحاجب، يسميه الطلبة الأكراد (مُلاً جامي).
- (23) إيساغوجي: كتاب صغير الحجم في المنطق، ألفه أسير الدين المفصل بن عمر الأبهري.
- (24) حُسمَكاتي: كتاب متوسط الحجم، وهو شرح كتاب المسمى (أيساغوجي)، مؤلفه مجهول.
- (25) قول أحمد: كتاب في علم المنطق، ألفه أحمد بن محمد بن الخضر.
- (26) حاشية عبد الغفور: كتبه عبد الغفور اللاربي، تناول فيه بعض المسائل من كتاب الفوائد الضيائية لأستاذه نور الدين عبد الرحمن الجامي لحلّ عويصاتها.
- (27) رسالة الوضع: كتاب في علم الدلالة، ألفه القاضي عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفور عضد الدين الإيجي.
- (28) رسالة الإستعارة: مؤلفه عصام الدين بن ابراهيم. وقد يحلّ محلّ هذه الرسالة في بعض المدارس كتاب استعارة الليس السمرقندي.
- (29) رسالة المناظرة: لمحمد بن علي الاحسائي. غير أن النقشبنديين قد اسقطوا هذا الكتاب منذ سنين من البرامج الدراسية.

(30) شرح الشمسية في المنطق: ألفه محمود بن محمد الرازي تناول فيه كتاب الشمسية لنجم الدين بن علي القزويني.

(31) مختصر المعاني: كتاب في البلاغة من تأليفات سعد الدين بن مسعود بن عمر التافنازاني.

(32) شرح العقائد: كتاب في العقيدة الإسلامية مُدَوَّنٌ بأسلوبٍ كلاميٍّ، وهو أيضاً من تأليفات سعد الدين بن مسعود بن عمر التافنازاني.

(33) جَمْعُ الْجَوَامِعِ: كتابٌ في أصول الفقه، ألفه تاج الدين عبد الوهاب بن علي السُّبُكِي (ت. 771هـ.). شَرَحَهُ الجلالُ شمسُ الدين محمدُ بنُ احمد الخَلِّي، بعباراتٍ معقَّدةٍ أضفت عليه غموضاً جعلته صعب المنال، بحيث لا ينجلي منه المقصودُ به للطلاب إلا بعد مكابدةٍ شديدةٍ بالتركيز والبحث والتحليل...

يبدو وبكل وضوح من هذه القائمة، أن النقشبنديين قد أسقطوا جميع العلوم العقلية والتجريبية من المنهج الدراسي في مدارسهم، فضربوا بها عُرْضَ الحائِطِ، بل كرهوا أن يتناول أحد من الطلبة في مدارسهم كتاباً يضم مادّةً من هذه العلوم، واشتمزوا من كل من اقتَرَحَ عليهم أن يسمحوا بتدريس شيءٍ من العقليات كالحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا والفلك والفيزياء والكيمياء والزراعة والطبيعة وغيرها من العلوم التجريبية. كما نعموا ممن اطلع على عجزهم في الكتابة والنطق بالعربية على الرغم من توغّلهم في حفظ قواعدها طوال مدةٍ لا تقلّ عن عشر سنين!

إذاً فلا يخفى أنّ هذه النحلة طائفةً متطرّفةً تخالف كلّ ما يُرشدُ إليه العلمُ والعقلُ السليمُ والكتابُ والسنةُ، يبرهن على ذلك استخفافهم بعلماء الإسلام، وانبهارهم بالدراويش المتزمتين واهل الشعوذة الذين يبالغون في تعظيمهم بنعوتٍ غريبةٍ وصفات ليس من الإسلام في شيء؛ كقولهم «قطب العارفين، وعوث الواصلين، وإمام المتقين، وتاج الكاملين، ونور السماوات والأرضين!» إلى غير ذلك من الكفريات والبدع والأباطيل، وهذا مبلغهم من العلم...

الفصل الخامس

* أثر الطريقة النقشبندية على الحياة الاجتماعية والثقافية في المناطق التي انتشرت فيها.

-
- * استغلال السلطة للنقشبديين ضد الوهابية.....
- * النزاع القائم بين النقشبديين والوهابيين منذ قرنين وأثره الهدام على الإسلام والمسلمين.....
- * العلاقات بين السلطة والنقشبديين في العهد الجمهوري.....
- * الفرق الرئيسة للنقشبديين في تركيا اليوم.....
- * أهم الحركات السياسية التي استخدمت السلطة النقشبديين في مقاومتها.....
- * تليفات النقشبديين في كثير من أقوالهم ومواقفهم؛ وما جاء في كلامهم من ضروب التعارض والضعف.....
- * مقتطفات من آرائهم التي ادّعوا أنها من الدين ولا حجة لهم في إثباتها.....
- * مسائل متفرقة اختلفوا فيها اختلافاً صريحاً، بحيث جاء مقال بعضهم تكذيباً لبعضهم الآخر؛ وكذلك أقوال بعضهم فيها تضاداً وتناقضاً للقائل نفسه.....
- * أمثلة من معاداة النقشبديين فيما بينهم، ومناهضتهم وتباغضهم وتشنيع بعضهم على البعض.....
- * أسلوب المعارضة عند النقشبديين.....
- * الكلمة الختامية.....

* إجاباتٌ وتوضيحاتٌ على التقرير الصادر من جامعة أم القرى بشأن هذا الكتاب:



الفصل الخامس

* أثر الطريقة النقشبندية على الحياة الاجتماعية والثقافية في المناطق التي انتشرت فيها.

لقد ظهرت آثار الحركة النقشبندية على الحياة الاجتماعية والثقافية في جميع أنحاء تركيا تقريباً، ولكنها اكتسبت أبعاداً وأشكالاً متنوعة ومعقدة في مضمونها، كنتيجة أسفرت عن علاقاتٍ مُتخلِّقةٍ بين مفاهيم الدين والسياسة والمصلحة.

لا نقصد بهذا أن شيوخ الطريقة النقشبندية يتاجرون بالدين مباشرةً. بل الحقيقة عكس ذلك. وإنما يمثلهم بعض السماسرة في هذه الأغراض. لأنهم لا يمتازون بلباقةٍ ومهارةٍ ودهاءٍ تُمكنهم من احتكار الدين في سبيل المصالح؛ ولا يسمح لإقدامهم على ذلك مركزهم المقدس في نظر المعتقدين بهم، حتى ولو أثارهم الطمع على احتكار الدين والاتجار بالقيم المقدسة. بل خمولهم يواريهم عن كثير من حقائق الحياة وأشكال التعامل؛ صالحها وفاسدها. ولكن الأحزاب السياسية جميعها، وجهاز المخابرات، وعددًا كبيرًا من الشركات العالمية، وكثيرًا من رجال العمل يستغلون شهرتهم؛ فتنعكس بذلك آراء شيوخ الطريقة على أعمال تجمعات سياسية وتجارية. بل تظهر آثارها الملفقة على نتائج تلك الأعمال بسلبياتها وخطورتها على الإسلام والمسلمين.

تتأكد الإشارة هنا إلى أن الروح الصوفي الراسخ في ضمير العنصر التركي، يصده دائماً عن النظر إلى حقائق الكون والحياة والأحداث والتطورات من المنظور القرآني الواضح البراق والمباشر؛ فيأبى إلا أن تكون نظرتة متلبسةً بتعليق أو تفسير أو تأويل يحمله على التقليد ويصرفه عن إبداء الرأي النابع من الفطرة. تلك الميزة كانت ولا تزال تلازم هذا العنصر قديماً وحديثاً. فلما بدأ التيار النقشبندي يسيطر على ضمير هذا العنصر منذ بداية القرن الماضي، ازدادت تلك النزعة فيه تصلباً وشدّةً، فانعكست

آثارها على جميع تصوّراته وأفعاله، بحيث لو نظرت إلى أحد منهم قد خلع ربةً النقشبندية من عنقه، حتى هو بالذات تراه لا يزال مجبولاً عليها، لا يبرح يتصوّر كلّ شيءٍ بدافع ما بقيت من تأثيرات هذه الطريقة في أعماق ضميره والمتغلّبة الدامغة على كلّ مجالٍ من حياته.

وكمثالٍ حيٍّ على ذلك: فإنّ أعضاء منظمة النور، أكثرهم منشقون عن الطريقة النقشبندية، ويدافعون عن حركة النور بأنّها ليست طريقةً صوفيةً كما جاء في قرارٍ صادرٍ من اللجنة الاستشارية للرقابة على الكتب الدينية التابعة لرئاسة الشؤون الدينية بتاريخ 1963/06/29م. تحت رقم/326. هذا نصّه:

«إنّ حركة النور ليست طريقةً صوفيةً، ولا مذهباً اجتهادياً. وإنما هي حركة متمثلة في متابعة رسائل كتبها شخصٌ اسمه سعيد النورسي دفاعاً عن الإيمان من خلال آيات قرآنية في مواجهة التيّار اللادينيّ الذي ظهر ينتشر في الآونة الأخيرة».

على الرغم من هذه التصريحات، فإن حركة النور تيّارٌ عرفانيٌّ، شبيهٌ بطريقة صوفية، فضلاً عن أنّ أعضاء هذه الحركة - سوى عدد قليل جداً - لا يختلفون عن النقشبنديين قيد شعرة في الاحترام لمساخ هذه الطريقة والاعتراف بتعاليمها.

وما هو أشدّ غرابةً، بل أشدّ خطورةً من ذلك، أن الشيخ سعيد النورسي الذي استطاع بدهائه أن يتخلّص من الطريقة النقشبندية بعد مرحلة شبابه وتبرأ عما قاله قبل الخمسينات، فتمكّن بفضل هذه الصحوّة من القيام بحركةٍ نضاليةٍ في مواجهة يهود سالونيك طوال حياته؛ لم ينبج هو الآخر من أن يتحوّل اسمه بعد موته رمزاً يتاجر به تلاميذه في تحقيق أهداف منظمتهم (حركة النور)، إلى حد أنّهم لم يتورّعوا من تحريف كلماته، والتقول على لسانه، وإشاعة ما تبرأ عنه من رسائله التي أمر بإتلافها، حتى أنزلوه منزلةً رجلٍ من الروحانيين! لم يفعلوا ذلك إلاّ لأنّ حركتهم امتداد للطريقة النقشبندية خاصّة فإنّ أعضاء الطريقة «العجزمندية» الذين أضافوا إلى موكب الصوفية طريقة جديدة أخرى، وزعموا أنّهم على مشرب سعيد النورسي، فإنهم أيضاً يقيمون طقوساً فيها الرقص والاهتزاز والجيشان، انطلاقاً من تلك الآثار الباطنية المتبقية في قرارة نفوسهم والموروثة من أسلافهم النقشبنديين.

إنَّ القسطاس الذي يحدّد أبعاد مفهوم الدين، ودوره، ومدى صلاحيته في مُعتَقَد الأتراك، هو التصوّف. ولم يختلف هذا القسطاس عند أكثرهم منذ اعتناقهم للإسلام إلى الوقت الحاضر. لقد طبّعتهم الطرائق الصوفيّة على هذه النزعة منذ القديم؛ فكانت الطريقة المولويّة والقادريّة والرفاعيّة والخلوتيّة والبكتاشيّة في مقدّمة الحركات الصوفيّة التي تأثّر بها الأتراك. فكان فهمهم للإسلام، وتعاملهم معه من خلال نُظُم هذه الطرائق وآدابها إلى أواخر العهد العثمانيّ. فلمّا ففرت الطريقة النقشبندية من الهند إلى الديار العثمانيّة وبدأت تنتشر فيها منذ عام 1811م. سادت بعد ذلك آثار هذه الطريقة على روح الناس وانعكست إلهاماتها على فهمهم وسلوكهم وتعاملهم بصورة واضحة.

إنَّ أهمَّ آثار الطريقة النقشبندية على عقليّة المجتمع وسلوكه، وأشدّها خطرًا على الإسلام في تركيا ينحصر في نزعة غريبة ابتلى بها أكثر الناس في هذا البلد. وأصبحت مشكلةً أخلاقيّة واجتماعيّة عويصةً جدًّا، قد يؤدي إلى تضليلٍ شاملٍ، وإلى إفساد بقيّة القيم، وإثارة فتنٍ تتعاقبها تطوّرات لا إمكان لتحديدها وتقدير نطاقها ونتائجها في هذه الآونة. ألا وهي نزعةٌ تتمثّل في اختلاق شخصيّة موهومة تُنصّب كأسطورة، يبدأ الناس بالطواف حولها لما يرسخ في ذهنهم أنّها محطّ عظمة وإجلال، وينتشر ذكرها في العالمين.

لذا، فمن حظي بشيءٍ من ثناء الناس ولو بدعايةٍ كاذبةٍ تواطأ قومٌ على نشرها واستغلال تلك الشهرة التي صنعوها فيما بعد، - حتّى ولو كان لصًّا أو فاجرًا - سرعان ما اجتمع الرعاع والأوغاد حول تلك الشخصيّة المختلفة، على أنّها من الأولياء المؤيّدين بالكرامات وعلم الغيب والزلفى إلى الله تعالى، وذهب صيته وأصبح قطب الفلك في معتقد أهل البلد بأسرهم !!!

ولهذا أول ما تتوسّل به الأحزاب السياسيّة، والجمعيات والشركات، وحتّى العصابات والمافيا في تحقيق أهدافها، هو الإقدام على خَلْق شخصيّة تُعظّمها الناس وتبذل ما في وسعها في سبيلها.

هذه المشكلة أسفرت عن نتائج خطيرة كثيفة ومتكرّرة بطرق غير مباشرة، تنوّعت حسب الظروف والأسباب بين صراع وقتال، إلى جنایات وثورات شهدتها ساحة هذه المنطقة منذ مائة وخمسين عامًا. نقتصر على عدد منها لتظهر بها كيف تفاعلت آثار الطريقة النقشبندية في أشكال من أزمات

اجتماعية وأخلاقية أدت في النهاية إلى تدهور كبير في اقتصاد البلد، وتشوش رهيب في المجال الثقافي والعلمي والاجتماعي.

أول ما نلمس من هذه الحقيقة بصورة مباشرة، هو التنافس المتضاعف بين شيوخ (نصبتهم جهاز المخابرات التركية) وبين شيوخ الطريقة النقشبندية التقليديين على توسيع نطاق الشهرة والإكثار من المريدين والبطانة والأنصار. الفئة الأولى هم عملاء النظام والذين يثرون هذا التنافس تارةً بسبب مصالح شخصية، وتارةً بإيعاز من الجهات الموجهة، فيفتحون أبواب المشاكل على منافسيهم من التقليديين، كما مرّ في بحث النزاع بين الأسرة الأرواسية والكفروية. وما يجري من التطورات والمنافسة بين الشيوخ في هذه المرحلة، هو أشدّ خطورةً منه على الإسلام والمسلمين مما قد جرى في السابق.

ذلك ومن عادات مريديهم: أن كل فريق منهم يقوم بالدعاية لشيخه، ولا تدخر طائفة منهم وسعاً في هذه المحاولة؛ فتتسابق الأقلام، وتتفنن اللسُن في اختلاق الكرامات، وعدّ الفضائل، ووصف الشمائل. كل يبذل جهوده ليُقنع الناس، حتى يعتقدوا أن شيخه «يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وهو على كل شيء قدير»! وهذا ممّا يزيد الطين بلّة.

لقد بلغ حجم الكتب التي استفرغ النقشبنديون في بطونها من صيغ التعظيم والإجلال والتوقير لشيخوهم - بدافع المنافسة - إلى حدود، يعجز الإنسان عن ضبطها واستيعابها. فلو لم يتأكدوا من موافقة شيوخهم على ذلك، لما أقدم أحد منهم على كتابة لفظ واحد فما فوقه من هذه الصيغ التي يقشعُر منها جلد المؤمن بوحدانية الربّ سبحانه، وبخسة شأن الإنسان بالنسبة إلى عظمة الله العزيز المتعال.

وعلى سبيل المثال، جاء في دعاء فريق من النقشبنديين الأكراد ألقاظ مقتبسة من آية، يصفون بها شيخاً من شيوخهم؛ يردّونها فيقولون «نور السماوات والأرضين» على سبيل التّعجب له، والله تعالى قد خصها لنفسه أن توصف هي بما على انفراد بذاته دون غيره، فقد قال سبحانه ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.⁵¹⁸

هذه الغطرسة قد جعلتهم يتسابقون بأساليب فرعونية تنعكس نتائجها السلبية على المجتمع، فتسري في الناس روح التنافس على استغلال الضمائر، وتسخير بعضهم البعض لتحقيق الآمال والمصالح الشخصية؛ فيتطوّر النزاع بينهم ويتصاعد، وأحياناً يتحوّل إلى فتن يذهب ضحيتها من الأموال والأرواح ما لا يحصى. كما حدثت أثناء ثورة الشيخ سعيد الپالوي عام 1924م.

ذلك أنّ الشيخ سعيداً كان قد دعا جميع شيوخ المنطقة أن يتعاونوا معه، وأن يشاركه كلّ منهم بتجنيد مريديه، وتعزيز جيوش الثورة بإمكاناته المالية والبشرية. فلم يقدّم أحدٌ بتلبيته إلاّ عددًا قليلاً كانوا على مقربة من ساحته. فلم يسعهم إلاّ أن يجيبوه مع الكراهية.

ومن الأهمية بمكان، أنّ شيوخ الطريقة النقشبندية بالمنطقة الكردية، لم يرفضوا دعوة الشيخ سعيد الپالوي (النقشبندي) إلاّ لأنهم كانوا ينافسونه في توسيع نطاق شهرتهم، وعدد منهم كانوا عملاء للنظام. ولهذا لم يكن أحدهم مخلصاً للآخر؛ وربما تمّ جميعهم أن يسقط الشيخ سعيد الپالوي مغلوباً على أمره أمام يهود سالونيك لأنّ كلّ واحدٍ منهم كان يراه عقبةً تُقلّص من ساحة نشاطه ويخسر بها من شهرته ومصالحه! وإلاّ كان جميع شيوخ النقشبندية ضدّ النظام اليهودي الحاكم. ولكن الذي كان في قلوبهم من التباغض والتنافر، اعترض سبيل الشيخ سعيد الپالوي فحلّ دون آماله؛ كما شملتهم النكبة في الوقت ذاته، فتمكنت منهم العصابة الحاكمة من يهود سالونيك، فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فقتل منهم من قتل، وأبعد منهم من أبعده سنين عدداً.

ثم لم تقتصر الداهية على شيوخ النقشبندية وعائلاتهم فحسب، بل شملت قبائل الأكراد بأسرها؛ فنصبت المشانق في مدينة ديار بكر فجر يوم 29/يونيو/1925م. وزحفت الجيوش على قرى المنطقة ترتكب المجازر وتستبيح الحارم مدة ستة أشهر من بداية شهر يوليو/1925م. إلى نهاية السنة. فأسفرت هذه الحركة الإجرامية عن إزهاق ستة وثلاثين ألفاً من الأرواح (تقريباً) من سكان المنطقة بما فيهم الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى العازلين عن السلاح تماماً. بالإضافة إلى إحراق عشرات آلاف من الكتب!

كانت المأساة هذه لاشكّ نتيجةً رهيباً ومصيبةً دائمةً تمخّضت عن فعل شيوخ النقشبندية وحرصهم على الدنيا وصراعهم على حطامها؛ كما كانت في الوقت ذاته نتيجة جهلهم بطرق التعامل السليم مع

الناس؛ وعدم معرفتهم بأسرار الاستعداد لمواجهة العدو؛ وأساليب التعبئة والقتال؛ فضلاً عن جهلهم بدقائق الحيل الحربية والمناورات.

لأنهم كانوا في الحقيقة جهلةً بأمور الدنيا والآخرة. فلم تكن مُدارستهم لبعض العلوم عن فهمٍ وإطّلاعٍ ورويةٍ. ذلك أنّ المدارس الخالدية التي انتشرت في المنطقة الكردية منذ بداية القرن الماضي، كانت الدراسة فيها ضعيفةً جداً (باستثناء فروعها التابعة لجامعة الزهراء). كان هؤلاء الشيوخ يدرسون ركّاماً من كتب التراث، معظمها شروح مطوّلة في الصرف والنحو. فكانوا يباشرون هذه الدراسة دون سابق معرفةٍ بأدنى شيء من اللّغة العربيّة، ومن غير استعداد لها بدراسة تحضيرية مثلاً تحت إشراف مدرّسٍ عربيّ. كانوا يحفظون المتون كما يُحفظُ القرآن! كألفية محمد بن عبد الله بن مالك الطائي، ومقدمة الأجرومية لابن آجرؤم الفاسي، ومتن قطر الندى لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام وغيرها؛ ويتخرجون في هذه المدارس بعد مدّة طويلة من الدراسة لا تقل عن خمسة عشر عامّاً. ومع ذلك كانوا ولا يزال البقية منهم يجهلون الكتابة والنطق بالعربيّة تماماً؛ كما أنهم لا يدرسون أدنى شيء من العلوم والفنون، كالفيزياء والكيمياء والحساب والهندسة وعلم الأحياء والفلسفة والتاريخ والجغرافية وفروعها في مدارسهم!

ولهذا لم يحظ أحدهم بشيءٍ من سعادة الاشتراك مع علماء الإسلام في أيّ محاضرة علمية؛ ولا حتّى ألقى السمع إلى أخبار ندوة من الندوات الأكاديمية التي تُقام في جامعات البلاد بين الفينة والأخرى؛ ولا حضر أحدهم مهرجاناً من المهرجانات الثقافيّة أصلاً؛ ولم يشهد أحدٌ شيخاً من شيوخ النقشبندية (خاصّة في المنطقة الكردية بتركيا) أنّه تناول يوماً من الأيام صحيفةً أو مجلّةً للأبناء، فاهتمّ بشيءٍ ورد فيها من أخبار ما يتعرّض له المسلمون من الإضطهاد والقمع والإبادة في مختلف أنحاء العالم. بينما وجدنا منهم من أفنى عمرهً بحماقةٍ في محاولة تصحيح المخارج للحروف زعمًا منه أنّ غالب الناس يُخطؤون في النطق بالضاد والقاف والطاء! كلّ ذلك بسبب الفقر العلميّ والثقافيّ الذي يعانون منه؛ هذا، بالإضافة إلى ما قد ابتلوا به من العزلة والحمول واحتقار أهل العلم. وهم في الحقيقة عاجزون عن الإجابة بصيغة علمية واضحة ومُقنعة، على سؤالٍ قد يُوجّه إليهم؛ ولا يجدون مهراً من المواجهة إلاّ أن يزيّنوا للناس سكوهم على أنّه شعارهم. فلا يقتنع طبعاً بمثل هذا الاعتذار الواهي إلاّ الذين حُشروا حولهم من حثالة الناس وهوامّ العوامّ.

غير أن موقفهم هذا من العلم وأهله، وإن كان يُعدُّ من العار في اعتبار العلماء والمتفتحين والمتقنين، ولكن الطبقة التابعة لهم تعدّه من علامات المروءة والفضل والوقار فيهم. و هكذا تسري سلبياًهم إلى المجتمع وتعمّ البلايا.

إنّ السلطة لم تغفل عن أهميّة القوة البشريّة والماليّة والإمكانات الدعاييّة التي يملكها النقشبنديون منذ بداية انتشار هذه الطريقة إلى اليوم. لذا جعلتهم الحكومات دائماً نصب عينها، وترقّبها واستخدمتها لدى كلّ فرصةٍ في قضايا خطيرة جداً، سواء في المرحلة الأخيرة من العهد العثمانيّ، وإبان العهد الجمهوريّ، خاصّة بعد العقد الثاني من القرن الجاري. فانعكست نتائج هذا الواقع الخطير على حياة المجتمع متمثّلةً في نزعاتٍ وتموّجاتٍ متعاكسة، وحركاتٍ سياسيّةٍ متشاكسةٍ انتهت في الآونة الأخيرة بتمايز الفئات الاجتماعيّة.

وإذا أسقطنا مالا يستحقُّ ذكره من تلك القضايا التي لعب النقشبنديون فيها دورهم بإيعاز من السلطة السياسيّة، فإنّ خمساً منها تتّسم بأهميّة بالغة، وهي:

- 1) الثورة الوهابيّة التي انفجرت في المرحلة الأخيرة من العهد العثمانيّ ودامت أكثر من قرن؛
- 2) النزعة الماركسيّة والحركات اليساريّة التابعة لها من بداية العهد الجمهوريّ حتّى سقوط الإمبراطوريّة السوفييتيّة؛
- 3) الحركة الإرهابيّة الأرمنيّة التي نكست مجدّداً من بداية السبعينات؛
- 4) الحركة الانفصاليّة الكرديّة التي ثارت في المرحلة نفسها ودامت حتّى الآن؛
- 5) الصحوة الإسلاميّة التي انتشرت بدافع الثورة الإيرانيّة منذ عام 1979م.

كان استغلال النقشبنديين من قِبَل الحكومات التركيّة في القضايا المذكورة بصورة مُعَقَّدة، وبطرق غير مباشرة. لذا، لا يتأتّى لكلِّ باحثٍ أن يطلّع على دقائق هذا التعامل الخطير! وقد جاء هذا الاستغلال في كلِّ قضية من القضايا المذكورة بنتيجة متباينة عن التجارب الأخرى.

ولكي يبدو الأمر في نسبة معينة من الوضوح، يناسب هنا أن نتناول كلِّ قضية منها على حدة، وندرس ما قد أسفر عن استغلال السلطة لتلك الطائفة من تأثيرات وأحداث في كلِّ منها.

* استغلال السلطة للنقشبنديين ضدَّ الوهابية.

لقد كان للطريقة النقشبندية تأثيرٌ عميقٌ في نفوس الأتراك والأكراد السنيين وهم قوام المجتمع العثمانيّ يومئذٍ؛ وكان لشيوخ هذه الطريقة مكانةٌ مرموقةٌ بين الطائفتين، وهما أشدُّ ثقةً بآل عثمان الأسرة المالكة، وأكثر إنتماءً للدولة العثمانية. فكان من نتائج هذا الواقع أن مارست الدولة العثمانية سياسة الإحتكار للقوة الكامنة في التجمّعات النقشبندية عبر قنواتٍ خاصّة سلكتها في تأسيس العلاقة معها. فما لبث حتى استغلّت الدولة هذه التجمّعات وجنّدها في تحقيق أغراضٍ خطيرةٍ جدًّا، فأثارت النقشبنديين ضدَّ الوهابيين الذين كانوا قد شقّوا عصى الطاعة وانتفضوا ضدَّ السلطة العثمانية في الجزيرة العربية.

هذه المسألة في الحقيقة أمرٌ خطيرٌ ذات وجوه متعدّدة لم يطلّع على حقيقته كثيرٌ من الباحثين لأسباب ليس هذا مقام سردها. ولكنّ الذي يجب الإشارة إليه حتمًا: أنّ استخدام السلطات العثمانية هذه الطائفة في مقاومة ثورة الوهابيين - لم يثبت بصورة موثقة - أن كان استخدامًا مسلحًا... اللهم إلا أن يكون بعض النقشبنديين من الأتراك المدنيين، أو جماعات منهم قد تطوّعوا بالانخراط في صفوف الجنود المكلفة بإخماد تلك الثورة، بإيعازٍ من بعض شيوخ هذه الطائفة (كما ذاع في بعض الجهات). فإنّ أمثال هذه الروايات، إسنادها منقطع.

أمّا كون قيامها باستخدامهم في مجال الدعاية ضدَّ الوهابيين، فإنّ ذلك أظهر من الشمس في رابعة النهار. ولا يحتاج أمرٌ أن يُكلّف نفسه عناء البحث عن دليلٍ على ذلك لكثرتها. ومن أوائل هذه

البراهين، كتاب خالد البغدادي الذي ردّ به على خطابٍ تلقّاه من عبد القادر الحيدري، إذ يعبرُ البغداديّ فيه عن منتهى ابتهاجه بغلبة القوّات العثمانيّة على الثوار الوهابيين عام 1233هـ./1818م. كما مر ذكره⁵¹⁹ فتعبيره عن القوّات العثمانيّة بـ «عساكر الإسلام» دليل قاطع على إنّه مع الجماهير الغفيرة التابعة له من النقشبنديّين كانوا مكلفين بنشاطات دعائية كثيفة ضد الوهابيين؛ وأنّ الوهابيين في نظرهم طائفة باغية يجب قتلهم وقمهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم!

ومن أواخر هذه البراهين وأظهرها وأشدّها تأثيراً، وأكثرها انتشاراً: نشاطات تضليليّة كثيفة يقوم بها ضابط عسكري متقاعد برتبة عقيد⁵²⁰ متخصصّ في العلوم الصيدليّة، مدعوّم من قبل جهازٍ معيّن، ومدسوسٍ في صفوف النقشبنديّين منذ بداية العهد الجمهوري. اتّصل هذا الرجل بالشيخ عبد الحكيم الأرواسي الذي كان قد هاجر إلى مدينة إسطنبول عام 1919م. فأصبح من المقربين إليه، وتمكّن من الإطلاع على أسرار النقشبنديّين خلال المدة التي قضاها في صحبته. ثم حلّ محلّه بعد موته عام 1943م، فاستطاع بذلك أن يقوم بتوجيه جماهير النقشبنديّة حسب الاتجاهات التي حدّدها له الجهاز المعهود. فكُتِبَ رسائل جمّة في هذه الأغراض، كما جمع أعداداً من كُتُب الخالديّين ورسائلهم فطبعها ونشرها عن طريق مكتبتي⁵²¹ في إسطنبول؛ يشرف عليهما أعوانه، وتموّلها شركة مهيمنة ضخمة.⁵²² غالبها في مثالب الوهابيين والتشجيع عليهم وشتهم ورميهم بالكفر والزندقة.

ومن الأهمية بمكان، أنّ هذا الرجل استطاع أن ينجو من سلبات التعامل مع الحكومات التركيّة ذات الاتجاه المزدوج عبر العهد الجمهوري. لأنّ الحكومات التركيّة تعاني دائماً من اضطراب شديد وعجز بالغ في تحديد سياستها الداخلية والخارجية على السواء. فهي في صراع متواصل مع نفسها، بسبب اختلاف تكوّنهما من عناصر لا يشتركون إلاّ في اللّغة. «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى».

تنحصر مهمّة هذا العسكري المتشخّح على تأصيل مقوّمات العقيدة التقليديّة للأتراك العثمانيين، وبعث الروح (التركيّ العظيم = Megaloturc) في نفوس الناشئة، على الرغم من معارضة المافيا المتحكّم في تحديد سياسة الدولة وتوجيه الحكومة. وربما في ذلك سرٌّ لا نعلمه.

519 راجع الغامش رقم/471.

520 اسمه حسين حلمي إيشيك

521 مكتبة (الحقيقة Hakikat Kitabevi)، ومكتبة (مرهند Serhend Kitabevi)

522 İhlâs Holding

هذه المقومات التي هي بمنزلة أركان الإيمان عند النقشبنديين الأتراك، تتمثل في ستة أمورٍ أساسيةٍ (بالاختصار)، وهي:

(1) تقديسُ الدولة العثمانية، وسلاطين بني عثمان، والاعتقادُ بأنهم جميعاً أولياء الله وخاصته؛ وعدم الخوض في نزاعهم على السلطة، وفي جناياتهم، والسفَه الذي كان يتّصف به بعضهم..

(2) الاعتقاد بأن أولياء الله ينصرون الجيوشَ التركيّة في كلّ معركة تخوضها، ويحضرون مع كلّ طليعةٍ منها؛ «كما نصرّوهم في كوريا وقبرص» في العهد الجمهوري. ومعنى ذلك أنّ الجمهورية التركيّة امتدادٌ للإمبراطورية العثمانية، ورمزٌ مقدّسٌ لتاريخ الأمة التركيّة؛ تحمل مسؤولية تمثيل الأجداد لهذا التاريخ إلى يوم القيامة!

(3) الاعتقاد بأن الوهابيين خاصّة، والعربَ جميعاً هم عصاةٌ جناة، أهل البغي، خارجون على الدولة العثمانية - الدولة المقدّسة التي كان للعرب عامّة وللوهابيين على وجه الخصوص دورٌ كبير في سقوطها-.

(4) الاعتقاد بأن الشيعة على اختلاف مذاهبهم ملحدون خارجون عن الإسلام لموقفهم السليبي من الدولة العثمانية بعد الحرب التي وقعت بين السلطان سليم الأوّل والشاه إسماعيل الصفوي، والتي انتهت بانتصار القوات العثمانية على الجيش الإيراني عام 1514م.

(5) الاعتقاد بأن الصوفيّة الذين أُدرجت أسماءهم في القائمة البيضاء، هم أولياء الله وصفوته من عباده، تُرجى شفاعتهم، ويجب التوسّل بهم، والتبرك بقبورهم. ذلك لأنهم ينوبون عن الله بالتصرّف على الكون (في اعتقادهم). والقائمة البيضاء، هي "موسوعة مقدّسة" (في اعتقادهم أيضاً). وشهيرةٌ بينهم؛ أصدرتها مؤسسةٌ وقفيةٌ يُشرف عليها العقيد المشار إليه آنفاً، وتمّولها شركة عالمية عملاقةٌ للنقشبنديين؛ تشارك في الاسم مع المؤسسة الوقفية المذكورة، ويشرف علي هذه الشركة صهر العقيد الذي مرّ ذكره.

6) الاعتقاد بأن المذهب الحنفي (الذي تتعصب له الغالبية العظمى من الأتراك الستين) أفضل المذاهب الإسلامية؛ وأبو حنيفة «هو الإمام الأعظم»! ذلك لأنه غير عربي الأصل، وأنه قتل العرب العباسيين. وعلى كل، له ومذهبه الأفضلية في الفقه التطبيقي؛ أدناه، أولوية الشخص الحنفي بالإمامة على غيره من تابعي المذاهب الثلاثة، ولو كان هو أمياً وغيره من أهل العلم.

لا شك في أن أعداداً كبيرة من الناس معروضون لهذه الدعايات المتطرفة ومتأثرون بها. ولكن يتحتم هنا الإعلان بحقيقة أخرى. ألا وهي أن صفوة من شباب الأتراك، قد استطاعوا بتوفيق من الله سبحانه أن يهتدوا إلى التوحيد الخالص، والإيمان العميق واليقين الصادق بالكتاب والسنة؛ واتباع النبي صلى الله عليه وسلم ومحبة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ﷺ أجمعين. وذلك عن فهم صحيح، ووعي تام؛ مستعدين لتحقيق الهدف المنشود بالعمل الصالح والسلوك المثالي الرفيع. لقد عاهدوا الله، كَبْرًا دينه الذي ارتضى لهم، ولبثت في نضالهم وجهادهم حتى يعود لهذه الأمة مجدها إن شاء الله، آمنين متوكلين على الله سائرين على جادة الحق بإقدام جريء ويقظة بالغة وحذر دقيق؛ منقادين إليه تعالى بالطاعة والإحسان والإخلاص والتقوى؛ وبالاجتناب عن كل ما حرّمه الله من سائر المعاصي، وكافة أنواع البدع والخرافات والتطرف والعنف والحقاقات. لا يخافون لومة لائم ولا خشية ظالم، يتقدمون في مسيرتهم بخطوات هادئة وصبر وتبصر، ويتقربون يوماً يهزم الله فيه الأحزاب!!! ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾⁵²³

* النزاع القائم بين النقشبنديين والوهابيين منذ قرنين وأثره الهدام على الإسلام والمسلمين.

كانت السلطة العثمانية في مرحلتها الأخيرة قد استخدمت الطليعة الأولى من الفرقة الخالدية في نشر دعايات كثيفة ضد الوهابيين؛ فأسفرت هذه الدعايات عن نتائج غريبة ربما لم تكن مما تقصده السلطة العثمانية. ومنها، أن كلمة «الوهابي» اتّسمت بمعانٍ أخرى فيما بعد، إلى جانب ما كانت في البداية

صفةً مجردةً يُرادُ بها الشخصُ المعتنقُ لعقيدة محمد بن عبد الوهّاب النجدِيّ فحسب. بل أكسبتها النقشبنديةً أخيراً معنى الزنديق المتطرّف، والكافر الحربيّ وما أشبه!

ثم تجاوز المقصود بهذه الكلمة حدوده عن الفرقة الموصوفة بها في السابق؛ فلم تقتصر التسمية بها على أتباع محمد بن عبد الوهّاب فحسب. بل شملت كلّ من دافع عن التوحيد الخالص، وناهض الشرك، وعمل على إحباط بدع القبوريين. هكذا تطورت كلمة «الوهّابية» بالمعاني التي ألصقت بها النقشبنديون الأتراك. ولكن أغرب من هذا، أنّها تحوّلت في النهاية إلى شبه مصطلح يستعملها حتى العرب أنفسهم (غير الحجازيين)، وإن لم يكن ذلك على سبيل التنقيص والتشنيع.

هذا، فلمّا انحارت الدولة العثمانية، كانت ثورة الوهّابية قد انتهت بالانتصار، وانقلبت جحافلهم إلى دولة مستقلة إذا صح (?) ولكن الذي لم ينته بعد، هو النزاع الذي أحدثته الأدمغة المغسولة في مستنقعات السنّة التركيّة الرجعية المنبثقة من العقليّة التقليديّة؛ والمتمثلة في تقديس الموتى من الروحانيين والملوك والسلاطين.

في الحقيقة لم يكن هذا الحدث في جوهره إلا امتداداً للصراع التركيّ-العربيّ التاريخي على استغلال الإسلام في احتكار السلطة وتحقيق المصالح. لذا، يتفرّع الصراع العثمانيّ الوهّابيّ (وبالأحرى، النزاع النقشبنديّ الوهّابيّ) يتفرّع أصلاً من الصراع التركيّ-العربيّ، ويختلف عنه بميزة دينية خاصّة. وهي أنّ هذا الخلاف يظهر في صورة حرب بين الشرك والتوحيد. ذلك أنّ مظاهر الشرك كانت قد سادت على أنحاء المملكة العثمانية جميعها بما فيها أرض الحجاز، الأرض التي نزلت فيها كلمات الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}.⁵²⁴ تلك المظاهر البشعة كانت تثير النفوس المؤمنة بالله وبسلطانه وهيمنته وحده على الكون؛ وتشحنها بالغيرة والتمرد والخروج على معقل الشرك في جميع أنحاء البلاد، وليس في الجزيرة العربية فحسب.

ولكن الذين نهضوا في ديار نجد، وهم يدعون إلى التوحيد الخالص ونبذ العباداة لغير الله المتمثلة في تقديس القبور والاستغاثة بالموتى؛ لم يكونوا يومئذ متميزين بالكفاءة المطلوبة لإحياء الرسالة المحمّدية

بكل جوانبها الإيمانية والعلمية والعملية والإصلاحية والأخلاقية. بل كانوا بدوًا، أجلافًا وجفّاءً. لجنوا في الغالب إلى العنف والجبر في كفاح البدع والشرك والخرافات. فلم يتفكروا أنّ ذلك الركام الهائل من أوساخ العقائد الوثنية التي تسربت إلى الدين الحنيف عبر عصور الظلام، لا يمكن إزالته بسرعة؛ بل لم يفتنوا إلى الحقيقة المكنونة في قوله تعالى: {أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ⁵²⁵

كل ذلك نشأ من جهلهم بمدى انتشار عقائد الشرك ورسوخها في المجتمع العثماني، وأنّ القضاء عليها أمر يحتاج إلى سعي دؤوب وإخلاص وعلم وسياسة ولباقة وخطّة ودراسة وصبر ومالٍ ووقتٍ وعتادٍ ورجالٍ! فضلاً عن أنّ السياسيين من قدماء الوهابيين اختلفوا يومئذ فيما بينهم، ودخلوا في صراع شديد على السلطة بجانب قتالهم في مواجهة قوات الحلف المصري-العثماني، أسفرت تلك الفتن عن إهدار الدماء، وتفاقم الشقاق واختفاء الظروف الملائمة لمهّمة الدعوة والإرشاد والتبليغ إلى التوحيد الخالص والاتحاد والإخاء.

هذا ومن جانب آخر، ازداد النقشبنديون حقداً وضعينةً وصولاً على الوهابيين، بحكم الدعم الذي كانوا يتلقونه من خزانة الدولة العثمانية، والأهمية التي أناطتها بهم. فانعكس تأثير محاولاتهم ودعاياتهم على المجتمع بأسره. ثم استغلّ يهودسالونيك هذه الفتنة في العهد الجمهوري كوسيلة للدعاية ضدّ العرب جميعاً في صفوف المجتمع التركي؛ حتى انتشرت الكراهية تجاه العنصر العربي، وتجاه كلّ ما يمتُّ إليه. فرسخت هذه النفرة والضعينة في نفوس الغالبية العظمى من الأتراك، وبخاصة الذين ضعفت صلتهم بالإسلام تحت تأثير الممارسات العلمانية والإحادية التي تبنتها المؤسسات التعليمية والتوجيهية عبر العهد الجمهوري في تركيا. فقد بعُدت الشقّة بذلك بين الأتراك والعرب إلى حدود بعيدة، ثبتت بالمشاهدة والعيان عندما فتحت بعضُ البلاد العربية أبوابها لليد العاملة التركية ما بين أعوام 1975-1985م. فاتخذت الحكومة التركية احتياطات شديدة، وأخذت المواثيق المؤكدة سراً من المقاولين ورجال الأعمال أن يقيموا الحواجز بين العنصرين التركيّ والعربي بكلّ ما في استطاعتهم تفادياً للاختلاط والزواج؛ وتحذيراً من تسرّب الثقافة العربية إلى المجتمع التركيّ! وبجانب هذا، كم أعرب

النقشبنديون عن شفاء غليلهم عندما أعلنت الحكومة التركية عن حظر سفر الطلاب إلى البلاد العربية للدراسة.

ثم انفجرت فتنة عظيمة بدأت تتاجج نيراتها على الأراضي الأفغانية وتطورت لتعمّ الدنيا بمساويها إثر تلك الهجمات التي شنت بالطائرات الانتحارية في أميركا يوم 11 سبتمبر 2001م. فهي في حقيقتها وخلفياتها ليست إلا امتداداً للصراع التقليدي المتواصل بين النقشبنديين والوهابيين؛ وإن كانت في ظاهرها «حرباً شنتها أميركا ثأراً لما أصابها من إهانة وخسارات». ذلك لما بدأت وفود الوهابيين تتوغّل في باكستان والمنطقة الأفغانية (فور انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان)، لتتحدّى الجماعات الصوفية هناك بذريعة «تصحيح ما فسد من عقائد المسلمين!»، انتفض القبوريون من منطلق الحمية الجاهلية، فما لبث حتى نشبت الحرب بين كبير القبوريين (برهان الدين رباني) وبين أهل التوحيد من أبناء أفغانستان. فكان من جملة أخطاء الوهابيين أن أصرّوا على البقاء في تلك المناطق بعد انتهاء مهمتهم الجهادية ضدّ القوات السوفيتية، فأصبحوا طرفاً في النزاع وهم غير أهل تلك البلاد، كما لم يكونوا قوةً سياسية ذات صلاحية للقيادة والهيمنة. فلم يكن لوجودهم هناك من الحكمة في شيء مما دعا إلى تطورات خطيرة أسفرت عن خسارات جسيمة في الأموال والأرواح. فأثبتت أخيراً هذه الحقائق كلها أن الوهابيين لم يكونوا ذا كفاءة لإرشاد الناس وإصلاحهم يوماً من الأيام. لذلك دخل الشقاق بين الصوف كلاً ما كان للوهابيين دوراً في التوجيه، وإن كانوا مخلصين في نيّاتهم؛ وغفلوا أنّ الأتراك شعبٌ صوفيٌّ يشعر بحساسة عند أدنى إشارة من التوجيه إلى توحيد الله؛ فكان لنشاطات الوهابيين إلى تصحيح العقيدة في المناطق الأفغانية تأثيرٌ كبيرٌ لاثارة غضب الأتراك إلى أن استنفرت تركيا تطوعاً لقتال (حكومة طالبان الأفغانية) انتصاراً للجهة الأوزبكية من منطلق العصبية التركية ضدّ العرب المتطوعين في أفغانستان.

إنّ الصراع كانت قائمة بين النقشبنديين والوهابيين إلى الآونة الأخيرة، وإن كان الطرفان يتجاهلان الأمر في هذه الأيام. ولا يكاد يظهر بصيص الأمل لسدّ هذه الثغرة الرهيبة حتى الآن، لو لا قلوب مؤمنة بالله واليوم الآخر وبالأخوة الإيمانية من أبناء الطرفين التركي والعربي، وآمال تبشّر بيوم يهزم الله فيه الأحزاب! أمّا أصحاب هذه القلوب الطاهرة فهم صفوة حفاء، قد هداهم الله ورزقهم الإخلاص والعزيمة والثقة بأنّه تعالى قادر على أن يهدي المتطرفين من بقية الشعبين إلى نور الإيمان والتوحيد، وسعادة الشعور بضرورة الاتحاد والإخاء وترك دواعي الفرقة والمعاداة والشحناء، حتى يحقق الله فيهم

من أسرار ما قاله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 526

واختصاراً لما سبق، نستطيع أن نقول: إنَّ العلاقات بين السلطة العثمانية وبين النقشبنديين كانت تنسم بالوافق والتعاون منذ عهد السلطان محمود الثاني إلى أن تحكَّم الاتحاديون في سياسة الدولة، فانقلب الأمر رأساً على عقب. وفي هذا التحوُّل الجدري أسرارٌ غريبةٌ، خافية على كثير من الناس حتى الآن. سنشرح نبذةً منها إن شاء الله تعالى في المبحث التالي تحت عنوان «العلاقات بين السلطة والنقشبنديين في العهد الجمهوري». وهي في الحقيقة صفحة هامة من صفحات تاريخ هذه الطائفة. سوف تشهد عليهم بما اقترفوا من جنایات عظيمة على الإسلام والمسلمين في مشاركتهم مع النظام اليهودي وإن كان معظمها جهلاً وغفلةً منهم. كما شاهدتهم اليوم يتوددون إلى الوهابيين. وبين الطرفين علاقات تجارية هائلة. يتجاهل كل طرفٍ منهما بما لا يزال الطرف الآخر يضمّر له من العداوة والبغضاء. فنستغرب عندما نجد أسواق مكة المكرمة والمدينة المنورة تزدهم بالنقشبنديين الأتراك، على امتداد السنة؛ يتاجرون ويربحون ويمرحون ويفرحون... بل ويسبون الوهابيين باللّغة التركية ويضحكون منهم في الحين الذي يصابحونهم ويجالسونهم في عُقرِ دارهم! والمؤمن الحنيف التركي يعاني مشكلةً الحصول على تأشيرة ليتمكن بها من أداء فريضة الحج، وهو ينتظر أياماً على باب سفارة الوهابيين في أنقره وإسطنبول! كذلك نستغرب جدّاً استخدام الوهابيين للآلاف من الموظفين النقشبنديين في بنوكهم ومؤسساتهم الموجودة في أنحاء تركيا، بينما الشباب الحنفاء الأتراك يعانون من مشاكل البطالة على أرض وطنهم بسبب مقاطعة المشركين من أصحاب السلطة والأثرياء ورجال العمل والصوفية جموع الحنفاء من أبناء الوطن التركي. مع أنّ الرجل الحنيف يمتاز بالذمة والأمانة؛ وبكفاءة أعلى في الخدمة من أمثالهم من النقشبنديين وغيرهم من سائر طوائف المشركين.

قد يتساءل الباحث عما كان موضوع الخلاف بين السلطة العثمانية (حامية النقشبنديين) وبين الوهابيين؛ فيتصوّر بأنّ المشكلة، لعلّها كانت عظيمةً إلى حدِّ اندلعت بسببها حروب دامية بين الطرفين ذهب ضحيتها أرواح وأموال، وانتهت بالخراب والدمار والشقاق والعداوة؛ بعد أن دامت

طوال قرن، بل أكثر؛ وأنّ الفتنة مازالت مستمرّة؛ ولكنها اتّخذت شكلاً آخر: فاكتمت صورة حرب بين «القبوريين» وبين «أعداء المقدّسات»!

نعم قد يفكر بعض الناس هكذا في أسباب هذا النزاع؛ ولا يجد ما يشرح صدره عن واقع الأمر. وقد يظن بعضهم أنّ الوهابيين، كان غرضهم المطالبة بالحكم الذاتي، أو الاستقلال، أو كانت ثورتهم ردوداً فعلٍ ضدّ ظلم ولاية العثمانيين يومئذ. كلّ ذلك بعيد عن الواقع وعن القيام مقام إجابة سليمة عن هذا الاستفسار.

بل نشأت تلك الظاهرة وتطوّرت عن طبيعة سياسة الدولة العثمانية القائمة على تأكيد السيادة في المناطق النائية بطرقٍ خاصّة. فكانت السلطة المركزيّة تتعمّد في بعض الأحيان إلى إثارة عناصر مجبولة على روح التمرد في تلك المناطق بحجج تافهة، ثم تنقضّ عليها بذريعة إخماد الثورة وتوفير أسباب الأمن. فيدبّ الذعر في نفوس سكان المنطقة، فتكون السلطة بذلك قد أشعرتهم بغيبتها مجدداً! وإلاّ فإنّ الحركات الاستقلالية في المناطق العربيّة لم تبدأ إلاّ بعد حكم الاتحاديّين، وممارستهم التعسّفية لتزيك العرب.

أمّا الأسباب الظاهرة، فإنّها لم تكن إلاّ تلك الحجج التافهة «لاصطياد عصفورين بطلقة واحدة»؛ كما في المثل التركيّ. وذلك يلاحظ أنّ يكون المقصود في هذه الخطة تحقيق هدفين: أحدهما إذلال رقابٍ تتهيّبها الناس فتقع في شرك سياسيّ. وهذا يقلّل من هيبة «ظلّ الله في الأرض» (!) وهو السلطان العثمانيّ و«بابه العالي» في إسطنبول؛ والثاني تحديد مفهوم التوحيد، وتعديله بالقسطاس السياسيّ التركيّ العثمانيّ، وليس بالقسطاس القرآنيّ. وهذا يقتضي تحديد علاقات الناس مع ربّهم، بأنّ لا تكون رابطتهم معه مباشرة؛ بل «عن طريق شيخٍ من أولياء الله؛ لأنّ الاتصال المباشر يقلّل من هيبة الله في قلب العبد» (!)

كانت هذه حقيقة الأسرار الكامنة في مسألة الوهابية، وتسليط النقشبنديين عليهم، بعد أن عجزت السلطة عن إخماد ثورتهم بالقهر.

وأما نزاع الطرفين في مسائل الدين؛ فقد كان خلافاً همجياً، جاهلياً، غير قائم على أساس من الحكمة القرآنية، والقاعدة المنطقية السليمة، ودون أدنى مراعاة لآداب المناظرة والاحترام المتبادل. فقد دافع كل طرف من النقشبنديين والوهابيين عن وجهة نظره بطريقة عنجهية فظة. خاصة فإن النقشبنديين، أساليبهم في الاستدلال واهية، وصادرة عن حقد سافر، وعناد، ومكابرة. جاءت ردودهم بلهجات قاسية، ومساس بالكرامة واقتحام للحرمات، وقصف من الشتم والسب، والنقمة والعتاب. وعلى سبيل المثال فقد أفرد أحمد بن زيني دحلان⁵²⁷ كتاباً في مثالب محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، سماه «الدرر السنوية في الرد على الوهابية»؛ كما أفرد باباً في كتابه «الفتوحات الإسلامية» بعنوان «ذكر فتنة الوهابية...»، فاستعمل فيه لهجة شديدة في تقييحهم. ومن جملة ما سجل في مثالب محمد بن عبد الوهاب قوله: «وكان مؤسس مذهبهم الحبيث محمد بن عبد الوهاب، وأصله من المشرق من بني تميم. وكان من المعمرين؛ فكاد يُعدُّ من المنظرين. لأنه عاش قريب مائة سنة حتى انتشر منه ضلالهم، كانت ولادته سنة ألف ومائة وإحدى عشرة. وهلك سنة ألف ومائتين. وأرخ بعضهم بقوله: (بدا هلاك الحبيث) 1206». ⁵²⁸

وأشدُّ من حمل على محمد بن عبد الوهاب وزمرته، عقيد نقشبندي متشيخ في إسطنبول. شنَّ عليهم حرباً شعواء برسائله ودعاياته الكثيفة، وشنعهم، ورماهم بالكفر والزندقة، وسبهم بكلمات نخجل من ذكرها! ⁵²⁹

أما الوهابيون، فإنهم لم يجعلوا النقشبنديين بالتحديد هدفاً خاصاً لانتقاداتهم؛ بل قد تجاهلهم تماماً أو كادوا. وإنما وجهوا نقدهم إلى الصوفية على وجه العموم. كما قد دافعوا عن أنفسهم بأن تسميتهم من قبل المعارضين بالوهابية تسمية خاطئة. إذ يقول في هذا أحد ملوكهم:

«يسمونا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا بالوهابي، باعتبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبيتها أهل الأغراض.

527 أحمد بن زيني دحلان (1816-1886م)، فقيه صوفي المشرق؛ وقد يكون من النقشبنديين؛ لأن المعاصرين من شيوخ هذه الطائفة يتداولون كتبه ويستدلون بأقواله، خاصة منهم رجل عسكري متشيخ في إسطنبول. اعني بعض كتبه المدونة في

الشيخ على الوهابيين. راجع ترجمته في معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 143/1. بيروت - 1993 وكذلك فيه أسماء مصادر أخرى وردت فيها ترجمته.

528 أحمد بن زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية 299/2. القاهرة-1968م.

529 راجع كتابه المستمسى Vahhabiye Nasihat، خاصة الفصل الثاني الطبعة/إسطنبول-1970م. نُشر من قبل: Işık Kitabevi

نحن لسنا أصحاب مذهب جديد، وعقيدة جديدة، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح، ونحن نحترم الأئمة الأربعة، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعيّ و أحمد وأبي حنيفة، وكلّهم محترمون في نظرنا».⁵³⁰

هذا، وإنّ جعلنا الشيخ عبد الرحمن دمشقية في عداد الوهابيين، فإنّه قد تناول النقشبندية بهدوء ولم يتوسّع فيها. بل حدد موضوعه في تحليل ثلاثة أقوال، لثلاثة رجالٍ من قدمائهم فحسب.⁵³¹

إنّما اختلف النقشبنديون مع الوهابيين، بل اختلفوا مع جميع الموحّدين في مسائلٍ جانبيةٍ ثانويةٍ غريبةٍ لا علاقة لها بلبّ الإسلام وأركانه. فأثاروا بها ما لا يحصى من اضطراباتٍ وفتن، وشتّوا حروباً ضاريةً على من خالفهم فيها. وجعلوا من هذه المسائل النافهة ونقاشها عقبةً كبيرةً أمام المسلمين في مسيرة الحياة، وعرقلوهم عن التقدّم والنهوض والازدهار. فالمصيبة الكبرى إنّما داهمت المجتمع بعد أن سادت الرهبانية على الحياة الروحية في الوطن الإسلاميّ بتأثير تعاليم النقشبندية وطقوسها.

ومن الجدير بالإشارة أنّ هذه الخلافات وما أسفرت عنها من مشاغبات ومشاحنات، إنّما أثارها المتأخرون من النقشبنديين منذ حقبة لا تتجاوز عن مائة وخمسين سنة، دون قُدَمائهم؛ مما يدلّ على حقائق أخرى لم ينتبه إليها كثير من الناس. أهمّها، أنّ قدماء النقشبنديين كانوا أبعد الناس من ساحة العلم. فلم يلتقوا مع أهله حتّى يقع بينهم وبين العلماء خلاف على مسألةٍ ما، إلاّ قليلاً. إذ كانوا دراويش لا يعتدّ بهم أرباب العلم. وهذه الشهرة التي نراها اليوم تحفّ بأسمائهم إنّما هيّجها المتأخرون منهم. وما إن اهتمّ مشائخهم بدراسة بعض العلوم بدايةً من خالد البغداديّ، حتّى تطوّرت المناقشات والخصومات بين العلماء والنقشبنديين حتّى أسفرت عن هذه النتائج التي نحن بصدددها اليوم.

تنحصر المسائل الخلافية التي أثارها النقشبنديون في أربعة أمور رئيسية:

الأوّل منها، مفهوم الولاية، والوليّ، والاستعانة بالموتى، والتبرك بقبورهم، والنذر لهم، وما تتعلّق بهذه المسألة من تفاصيلٍ شتى، شرحناها في بابها ما تيسر من أهم نقاطها.⁵³²

530 در. عبد الله بن عبد الحسن التركي - شعب الأرنؤوط، مقمّعة شرح العقيدة الطحاوية 39/1. (نقلًا من كلمات الملك عبد العزيز آل سعود، من كتاب: الملك الراشد ص/ 369)

531 عبد الرحمن دمشقية، النقشبندية (قهيد) ص/ 7. دار طبعة، الرياض-1984م.

532 راجع باب "الولاية والوليّ في مُعقّد النقشبنديين" من الفصل الثالث.

والثاني، أقوال مبتدعة تتعلق بآباء الأنبياء وأمّهاتهم، وشد الرحال لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم.

والثالث، آراء متفرقة حول مفهوم البدعة والاجتهاد.

والرابع، تأويلات كلامية حول مسألة «الاستواء على العرش».

ثلاثة من هذه الأمور الأربعة، قد أثارها النقشبنديون. وهي المادة الأولى والثانية والثالثة. تجمعها نقطة مشتركة: وهي نسبة قدرة خارقة - تستحيل على البشر - إلى من يدعون أنه ولي. ويدخل الأنبياء والمرسلون عليهم السلام أيضاً في اعتقادهم هذا. أما المسائل الأخرى فهي متفرعة عن الاعتقاد ومرتبطة بها. كالتوسل، وطلب الشفاعة والاستغاثة بالحي والميت من الروحانيين والأنبياء والمرسلين؛ والنذر لهم، والقسم بهم، وإقامة البناء على قبورهم، والتبرك بها، والزعم بصدور الخوارق من بعضهم باسم الكرامة و ما إلى ذلك...

أما المادة الرابعة، فهي بدعة أثارها عدد من الوهابيين بالتوغل في معنى «الاستواء على العرش»⁵³³ و«الاستواء إلى السماء»؛⁵³⁴ فلم يكتف بعضهم خاصة في مناقشته الشفهية بما قاله الإمام مالك رحمه الله «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»⁵³⁵ فأثار أسلوب الوهابيين الاستعداد في نفوس النقشبنديين الذين طالما ينتهزون الفرصة ليهاجموهم بأدنى حجة، فاتخذوها ذريعة حتى رموا جميعهم بالتجسيم والزندقة.

هكذا تطوّر النزاع والخلاف بين الطرفين ودام أكثر من قرن، فارتبك به الناس الذين كانوا في ظلمات الجهل والعمى، وتذبذبت الآراء، وتشوّشت العقول؛ فأنحازت جماعات إلى النقشبنديين، وأخرى إلى

533 ورد في سبعة مواطن من القرآن الكريم كما يلي: الأعراف/54؛ بونس/3؛ رعد/2؛ طه/5؛ فرقان/59؛ سجدة/4؛ حديد/4.

534 ورد في آيتين من القرآن الكريم كما يلي: البقرة/29؛ فصلت/8.

535 قيل: إن هذا الكلام لم يثبت عن مالك عن رواية صحيحة، وإنما قال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. لمزيد من المعرفة حول هذه المسألة راجع المصادر الآتي ذكرها:

* علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية 1/96.

* المصدر السابق: 372-392.

* محمد بن سليمان الحلبي، شرح منظومة الأملالي ص/ 28. البيت: 12. مكتبة إشيك. إسطنبول-1979.

الوهابيين. وما زالت العداوة تستعر في قلوب كثير من كلا الطرفين ضد الآخر. ولكن الدائرة في الحقيقة دارت أخيراً على المسلمين. لأنهم أصبحوا في حرج من جزاء هذه الحرب الشعواء بين الطرفين، فلم يتمكنوا من لمّ شعثهم في مثار تلك الفتى وهم يتكبدون ألواناً من العذاب. إذ انحارت دولتهم، وتكالت عليهم الدنيا، فقامت على أنقاض تلك الدولة العظيمة عدة دولٍ قزمية، وثب على كلِّ واحدة منها طاغيةٌ بدعم من اليهود والنصارى، يستبدّ بالحكم مع بطانته ويسوم رعاياه سوء العذاب باسم الديمقراطية والحرية ولا يميز في ذلك بين المسلم والنقشبندى والوهابي!

* العلاقات بين السلطة والنقشبنديين في العهد الجمهوري.

لما سقطت الدولة العثمانية، ووثبت على السلطة الجديدة عصابةٌ من يهود سالونيك، وسمتها "جمهورية تركيا"؛ أيقنت أنّ أكبر عقبة تعترضها وتعرقلها من تحقيق أهدافها هو الإسلام والمسلمون. ولكن أفراد هذه العصابة كانوا - بحكم الطبع - يجهلون حقيقة الإسلام، كما كانوا يجهلون من هم المسلمون من بين الفرق الداخلة تحت شمول النسبة إلى الإسلام في واقع الأمر.

ذلك أنهم كانوا يهوداً من عائلات ذات أصولٍ تركية، انحدرت من سلالات تهودت في العهد الخزري وانتشرت قديماً في ساحات شاسعة من شرقي أوروبا وشبه جزيرة البلقان. فلما دخل العثمانيون تلك المناطق أيام الفتوحات وضمّوها إلى مملكتهم، وجد أولئك اليهود المشردون بذلك فرصةً سانحةً للاندماج في المجتمع التركي المسلم بقرينة الوحدة القومية التي كانت القاسم المشترك بين الطرفين. فتدرّجوا باحتلال المناصب الهامة في أجهزة الدولة عبر القرون، متنكّرين بالإسلام؛ حتى شاء القدر أن يتجمّعوا في مدينة سالونيك، وأن يشكّلوا هناك منظماتٍ سرّية بالمشاركة مع اليهود الأصليين من سلالات عبرية، والمهاجرين من إسبانيا بسبب اضطهاد محاكم التفتيش؛ إلى أن ظهوروا على مسرح التاريخ قبيل الحرب العالمية الأولى، في صفوف حزبٍ سياسيٍّ وهو حزب الإتحاد والترقي. فلعبوا بالدولة وعملوا على سقوطها بدعم من الدول الأوروبية.

لهذه الأسباب (ولها تفاصيل، ليس هذا مقام سردها). يغلب أن تلك القلّة من اليهود الذين فرضوا أنفسهم على المجتمع، كانوا متردّدين في أمر الجماعات المتباينة، والمنظمات، وطبقات الناس لدى

الخطوة الأولى من انطلاقهم وبعد نجاحهم في السيطرة على أجهزة الدولة بتمامها. كانوا يتفقدون من بين هذه الجماعات والمنظمات ما يمكن أن يستغلوا أفرادها ويستعينوا بهم حتى يشتدّ ساعدتهم في الحكم؛ ويمسّون الخطر في الوقت ذاته من أكثرهم خاصّة من جماهير النقشبنديين الذين كانوا يمثلون معشر المسلمين في نظر هذه العصابة اليهودية؛ مع أنّ الحقيقة كانت خلاف ذلك. فهذا الذي جعلهم في الوهلة الأولى يقومون بخطة إرهابية لاكتساح النقشبنديين حتى يتمكنوا بعد ذلك من القيام باللعبة الكبرى مع اليهود الأصليين الإسبان في تحقيق الأهداف النهائية.

هكذا بدأ الصدام بين السلطة والنقشبنديين منذ أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني. حيث كان الاتحاديون اليهود قد وثبوا على الحكم في تلك المرحلة. ولكن يجب هنا أن نتذكّر مرة أخرى بأنّ هذه العصابة الحاكمة إنّما استعدت لشنّ الحرب على النقشبنديين بسبب إلتباسهم عليها، واعتقادها الخاطئ في نسبتهم إلى الإسلام. فقامت بتنظيم ثلاث مؤامرات ضدّهم: نُفذت الأولى منها يوم 13/أبريل/1909م. قُتل فيها جمهور من عوامّ النقشبنديين ورجل صحفيّ منهم اسمه درويش وحدي؛ وانتهت بخلع السلطان عبد الحميد، «على أنّه يساند القوّى الرجعية ويستغلّها في طغيانه واستبداده». والمؤامرة الثانية نُفذت في المنطقة الكردية بعد عامٍ من إعلان النظام الجمهوري، ما بين مدينتي أرض الروم وديار بكر؛ وهي في ظاهرها ثورة الشيخ سعيد الپالوي التي مر ذكرها. أما في الحقيقة فإنّهم تكن إلاّ خطة مدروسة من قبل جهاز المخابرات التابع للطغمة الحاكمة من يهود سالونيك. ثبتت بدلائل قاطعة، أكبرها إثارة الشيخ سعيد على حين لم يفكر إطلاقاً بأي عمل ضدّ النظام. فأثاره جهاز المخابرات بوساطة منظمة سرية أسّسها بإيعاز من الحكومة بالذات في المنطقة تحت إشراف الرائد قاسم أتاج. وذلك لسحب العشائر الكردية من النقشبنديين إلى ساحة القتال. فإنّ اختيار جهاز المخابرات لتحميل الشيخ سعيد، قيادة الثورة مسبقاً، دون أن يختار لهذا الدور زعيماً من رؤساء العشائر، يبرهن بصورة قاطعة أنّ المؤامرة لم تكن مدبّرة لجرد التنكيل بالأكراد، بل كان الغرض منها إيقاع النقشبنديين في الكمين أولاً، فيكون الأمر ذريعة للقضاء على كلّ من يسوقه القدر إلى ساحة الغضب من الأكراد دون تمييز بين أن يكون نقشبندياً أو لا. والمؤامرة الثالثة هي "وقعة منامن" كما سنشرحها قريباً إن شاء الله.

لقد اتسم موقف الحكومات التركية في إخماد تلك الثورات بأداء واجب لا مناص منه، فوَقعت محاولاتها موقع مُبرّر في الرأي العامّ المحليّ والعالميّ. ومعنى ذلك، «أنّ النقشبنديين قد شقُّوا عصا

الطاعة وخرجوا على نظامٍ مؤسّسٍ» فيما يبدو؛ والحكومة لم يسعها إلا أن تقوم بتأديبهم، فاضطرت إلى استعمال العنف، وهذا شيء طبيعيٌّ.

لقد حققت الحكومة هدفين كبيرين أثناء القضاء على هذه الثورات. ويُعتَبَرُ هذا النجاح تجربةً عظيمةً مهَّدتْ البقاءَ لليهود الدونما في الحكم إلى ما شاء الله.

أحد تلكما الهدفين وأهمّهما هو التعرّف على الطائفة النقشبندية وعلى جميع ما تتعلّق بهم من عقائد وميّزاتٍ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ؛ ونزعاتٍ وعلاقاتٍ واتصالاتٍ كانت تجري بين مشائخهم. تمكّنت الحكومة من جمع معلومات رهيبية حول هذه الطائفة أثناء محاكم الثورة عام 1925م؛ كما تأكّدت من مدى قوّتهم البشرية والماليّة ومدى تعاونهم فيما بينهم.

والهدف الثاني أنّ الحكومة استطاعت أن تروّض النقشبنديين على العمالة السياسيّة، بطمس الشهوة السياسيّة فيهم وإجهاضها، وزرع بذور الشقاق بين مشائخهم. لهذا، هناك تطابقٌ كبيرٌ بين آراء كلٍّ من الطغمة الحاكمة وبين شيوخ النقشبنديين الأتراك في أمور خطيرة. ومن أهمّ نقاط الاتفاق بين الطرفين في الوقت الحاضر: هو موقفهما من الإسلام بأن يُجرّد من الحياة الاجتماعية تمامًا؛ وأن لا يخرج مفهوم الدين من أعماق الضمائر، ولا من بين جدران المساجد أبدًا. تدل على ذلك مقولة للنقشبنديين يرّدونها على سبيل التحذير من استغلال الدّين لأغراضٍ ومصالحٍ سياسيّةٍ - في ظاهر الأمر -، ولكنهم في الحقيقة لا يريدون بها إلا أن يسقط الإسلام إلى درك المسيحية فيتحوّل إلى دينٍ يتأوّل كل شخصٍ في تحديد علاقته مع ربه على حسب فهمه ورأيه وذوقه؛ إلى دينٍ لا ضابط له فيما يتعلّق بالحياة الاجتماعية على الإطلاق. طالما كانت الزمرة الحاكمة ولا تزال تستخدم هذه المقولة في تحذير المشاعر من جانب، وفي تهديد الحنفاء والسلفيين من جانب آخر! جاءت هذه المقولة بصراحة في موسوعة للنقشبنديين.⁵³⁶ ولكن الهدف من تلك المقولة ليس إلا الحيلولة بين الإسلام وبين ما جاء لأجله، وإلغاء أحكامه..

536 هذا نصها باللغة التركية: Bugün sahte, yalancı müştilere, müslümanları sömüren

لذا فإنّ هذه الطائفة، خاصّة بعد أن تعرّضت للنكبة الثالثة - وهي «وقعة منامن»، كما سنشرحها إنّ شاء الله -، لم تعد تمثّل قوّةً سياسيّةً مستقلّةً في تركيا، على الرغم من كثرة أفرادها؛ وهي أكبر جماعة بين سائر الفرق والأحزاب والمنظمات. بل استغلّتهم الأحزاب السياسيّة المُسيّرة من قبّل يهود سالونيك، التي تتراعى في ظاهرها مختلفة الاتجاه، ولكنّ النقشبنديين مُبعثرون ومتمفرقون في صفوفها منذ نصف قرن، منطبعون تمامًا على التبعية والاستسلام. يتّصل رؤساء الأحزاب السياسيّة التابعة للنظام اليهوديِّ بمشائخهم في مواسم الانتخابات، ويأخذون تأييدهم؛ بل يكلفونهم بتعليمات لا يخالفهم فيها الشيوخ. كما احتلّ عددٌ من أبناء شيوخ النقشبندية في هذه السنين الأخيرة مناصب هامة في أجهزة الدولة، ومنهم أعضاء في البرلمان.

إنّ النقشبنديين اليوم يختلفون كثيرًا عن أسلافهم في موقفهم من السياسة والسياسيين. لم تعد السلطة تهابهم، ولا تعتدّ بهم. بل تترتاح لكثرة عددهم ونشاطهم. لأنهم كلّما ازدادوا عددًا ونشاطًا، ازدادت بهم السلطة قوّةً وتحكّمًا. ذلك لأنّ نجاح الأحزاب السياسيّة في الانتخابات العامّة متوقّف على دعمهم. فلا يمكن لأيّ حزب أن يفوز بأعلى نسبة من الأصوات في الانتخابات العامّة إلاّ أن يكون قد أفنّع عددًا من شيوخ هذه الطريقة وجذبهم إلى صفوفه. لذا فإنّ الأحزاب تتنافس في سبيل اكتسابهم؛ ولأنّ النجاح في كسب دعمهم ضرورة لا مهرب منها لإرضاء الطغمة الحاكمة من يهود سالونيك وعملائهم الذين يملكون زمام الحكم في كلّ مرحلة، ويحتكرون السلطة من خلال أيّ حزب يفوز بالانتخابات العامّة. فإنّ الحزب السياسيّ في تركيا بهذا الشكل من الديمقراطية المزيفة لا يعدو عن آلةٍ يستخدمها يهود سالونيك في توجيه المجتمع وترويضه على أنماطٍ غريبةٍ من الشذوذ والزندقة والإباحية والانحلال!

ولهذا السبب، لما أظهر النقشبنديون الجرأة على تشكيل حزبٍ سياسيٍّ بعنوان «حزب النظام الوطني» بتاريخ 8/فبراير/1970م، وبدءوا يتدرّجون إلى الحكم، دبّ الذعر في صفوف يهود سالونيك. فسرعان ما انقضوا على هذا الحزب ببطش شديد، وأنزلوا به ضربتهم القاصمة وفتكوا بأوصاله⁵³⁷ فبدأت مرحلة جديدة لإعادة التجربة نفسها في حيلة وحذر بالغ، فتكررت إعادة تشكيل هذا الحزب أربع مرات تحت شعارات وأسماء مختلفة في كلّ مرة بعد السقوط الأوّل، ولكن باءت المحاولات بفشل

537 أُلغى الحزب المذكور (Milli Nizam Partisi) بتاريخ 21/مايو/1971م. ثم أعيد تشكيله بعنوان حزب السلام الوطني (Milli Selâmet Partisi) عام 1973م. ثم أُلغى هذا الحزب أيضًا مع جميع الأحزاب السياسيّة بعد

الانقلاب العسكري (12/سبتمبر/1980م). ثم أعيد تشكيله للمرة الثالثة بتاريخ 19/يوليو/1983م. وكان اسمه في هذه المرة حزب الرفاه (RefahPartisi) ثم أُلغى أيضًا في الشهور الأولى من عام 1998م.

ذريع في النهاية، وألغى حزب الفضيلة الذي كان معقل النقشبنديين يوم 22 /يونيو-حزيران/ 2001 . إلا أن كبار هذا الحزب مازالوا يحتفظون بالأمل كما يظهر من الحركة التي تدبُّ في صفوفهم. وقد أبدوا استعدادهم أخيراً على تجربةٍ جديدةٍ لممارسة السياسة بعد أن أقدموا على تشكيل حزبٍ جديد سمّوه «حزب السعادة» والعيون تتربق في تساؤل عن موقف النقشبنديين في تعاملهم مع يهود سالونيك بعد اليوم!

على كلِّ، فإنَّ النقشبنديين لا يعصون أمراً ليهود سالونيك، - وإن كان ذلك عن كراهيةٍ، وخوفاً وتقيةً في بعض الأحيان - . يشاركونهم في طقوسهم الدينية ويحتفلون معهم عند «قبر العنيد»⁵³⁸ ويقومون بإجراء ما لا يتعارض مع أهداف اليهود وعقائدهم وأفكارهم من تخدير مشاعر الناس بنشاطهم الصوفيّة، وإحياء بدع أوليائهم، وتقديس قبورهم، والاستغاثة بالأموات، وتعظيم أمجاد العثمانيين في صورة شعارات دينية. كلُّ ذلك يؤدي في الحقيقة إلى تشويش الانتباه، وصرف العقول عن فهم الحقائق القرآنية، وصدّ الناس عن القيام بمقتضيات الرسالة المحمّدية.

لما حصلت السلطة اليهودية عام 1925م. سنّة وثلاثين ألفاً من النقشبنديين الأكراد في المنطقة الشرقية بذريعة «الثورة الإسلامية» التي لم تكن في حقيقتها إلا خطة مدبرة ومدروسة أُلصقت بهذا الشيخ النقشبندي على حين غرة منه؛ استعدت العصابة اليهودية لتنفيذ خطة ثانية في المنطقة الغربية، ليتمّ بها حصاد النقشبنديين الأتراك هذه المرة عن بكرو أبيهم، فتخلّص اليهود بذلك من أسطورة الخوف نهائياً.

تمّ تنفيذ هذه الخطة ثانية في مدينة منامن يوم 23/ديسمبر/1930م. وهي مدينة صغيرة على مقربة من ولاية إزمير. وذلك باستخدام رجلين من اليهود الأصليين من سگان إزمير (بودا ويقو)؛ ورجلين آخرين من الأصل التركي، كانا حشاشين من مدمني المخدرات. اسم أحدهما: لأز إبراهيم خواجه؛ والثاني، درويش محمد (كش مهمد، أي محمد الحشاش).

لقد كانت مهمّة اليهوديين - حسب الخطة - أن يحضروا صلاة الفجر في المسجد المركزي بالمدينة المذكورة بزي الصوفية المنتسكين. و أن يقوموا بإثارة الحاضرين بعد انتهاء الصلاة مباشرة، وتنظيم

538 يظنون هذا الاسم باللفظ نفسه على القبر الذي يحتفلون عنده، وإن كان المعنى في اللغة الزكية ليس هذا. ولكن "الأسماء تنزل من السماء"

مظاهرة ضدّ النظام الحاكم في شوارع المدينة بشعارات إسلاميّة، وإلقاء هتافات آفاقيةً لتنبئه مشاعر البُسْطَاءِ وجذبهم إلى صفوف المظاهرين بإشاعة «أنّ اثنين وسبعين ألفاً من جنود العرب المسلمين، معرّزين بالملائكة قد أحاطوا بالمدينة، وهم على وشك دخولها وإعلان الدولة الإسلاميّة في البلاد!». ثمّ عليهما أنّ ينصرفا بطريقة التسلل إلى مدينة إزمير. على أن يسلمّا الأعلامَ الخضَرَ وكلّ رموز الثورة من الأزياء واللافتات والأسلحة إلى الحشاشيّين المذكورين قبل المغادرة. وسيكون هناك جنود من قوات الدرك مكلفين بحمايتهما، وتوفير الأمن لتتصلّهما وعودتهما تحت جناح السرّ إلى إزمير؛ وكذلك بإلقاء القبض على أكبر عدد من النقشبنديّين في المنطقة بما فيهم جميع المظاهرين.

تمّ تنفيذ الخطّة بخسارة بسيطة نتيجة خطأ وقعت فيه القوّات الأمنيّة. فقتل أثناء المظاهرة رئيسُ قوات الدرك، الملازم الثاني مصطفى فهمي كوبيلاي مع أحد اليهوديّين (والأصحّ إنّه يودا). ولكن أُعلن أنّ القتل رجلٌ من الأتراك النقشبنديّين كتمّاً لسرّ الخطّة. أمّا الثاني منهما، فإنّه هرب ونجا. ثمّ أقامته الحكومة في الخارج على سبيل المكافأة له.

تذرّعت الحكومةُ بهذه «الفتنة» فأرسلت جيشاً كثيفاً إلى المنطقة بقيادة جنرال مصطفى موغلاي. فدهموا مدينة منامَنْ وضواحيها بسرعة البرق، يدلّ ذلك على أن الأمر كان مدبّراً. فقتلوا كثيراً من الأبرياء ظلماً دونما أدنى سبب، ولا سمحوا لأحد منهم حتّى يدافع عن نفسه ولو بكلمة واحدة. ثمّ قامت أجهزة الأمن باعتقالاتٍ واسعةٍ في صفوف مشائخ النقشبندية بالمنطقة الغربيّة، وعلى رأسهم عبد الحكيم الأرواسيّ؛ فنُقِل إلى مدينة أزمير كما سبق ذكره. و أما أسعد الأربلي، فجيء به من إسطنبول إلى مدينة «مانسا» لإجراء التحقيقات معه، والبحث عما إذا كانت له علاقة بما حدث في مدينة منامَنْ. فأصابته حالةٌ من هَوْلٍ ما وجدّ حوله من الجنود والاحتياطات الأمنيّة الشديدة، و ما تعرّض له من الضغوط؛ إذ كان قد عاش معرّزاً وموقّراً؛ فلم يعهد مثل هذه المعاملة المرهبة. ثمّ أُحيل إلى مستشفى مدينة «مانسا»، فلم يلبث أن مات فيه من رُعبٍ ما لقي من الشدة. وقيل قُضي عليه بتعليماتٍ سرّيةٍ من الحكومة!

انتهت هكذا صفحةٌ هامّةٌ من تاريخ النقشبندية وبدأت مرحلة جديدة في سير العلاقات والتعامل بين الطغمة الحاكمة من يهود سالونيك وبين النقشبنديّين بعد هذه المؤامرة.

ومن الأهمية بمكان، أنّ الخِطتين جاءتا بنتيجة غريبة لم تكن في الحسبان وقد لم تكن تلك هي المقصود بالذات من تنفيذهما. بل كانت العصابة الحاكمة في الحقيقة إنّما تريد القضاء على النقشبنديين عن بكرة أبيهم، لأنّها ترى جميع المسلمين متجسّدين فيهم! ولكن لما جمع القدر بين الطرفين في جلسات محاكم الثورة - خاصة بعد الخطة الثانية-، وجرت بينهما سلسلة من الحوار، تأكّدت الزمرة الحاكمة من أنّها خاطئة في هذه النظرة؛ و ظهرت بالتالي من خلال هذه الحوارات الطارئة مدى تطابق العقلية النقشبندية مع العقلية اليهودية التركية في تفسير علاقة الإنسان بربه. إذ أنّ توجّه العبد إلى الله من غير واسطة، يراها الطرفان خروجًا على أركان الدين، وجرأة على الله، واقتحامًا بجرمة «وكلاء الله المفوّضين بالتصرّف عنه في الكون» (على حسب عقيدتهما)؛ تعالى الله عما يصفه الفاسقون! كذلك تأكّد كلّ طرفٍ من تعصّب الطرف الآخر للعنصر التركي وتفضيله على سائر العناصر عن طريق هذه الحوارات.

فلما ظهر هذا التطابق بين عقيدة الطرفين، وتبينها كلّ منهما، انهارت سدود العداوة بينهما شيئًا فشيئًا بعد ذلك؛ وازداد التقارب خاصة بعد انتخابات 1950م. التي فاز الحزب الديمقراطي فيها بدعمٍ من النقشبنديين. إلا أنّ رئيس الوزراء عدنان مندريس، لما علم أنّ المسلمين أيضًا سوف ينالون حظًا كبيرًا من الحرية التي منّتها النقشبنديين بها، وبدأ يتوجّس خوفًا من انتشار عقيدة التوحيد، وازدياد عدد الموحّدين الحنفاء في تركيا، جاء بمشروعٍ ليؤخّده به صفوف جميع النقشبنديين تحت زعامة شيخ واحدٍ حتّى تسهل مراقبتهم، والتحكّم في المسلمين بواسطتهم في الوقت ذاته.

قيل إنّهُ أصدر تعليمات للمختصين من أمناء سره ليجدوا له رجالًا يكون على شيءٍ من الحماسة، كثير الصمت، كبير الهامة، طويل الأنفٍ أحول... وأن يقوموا بالدعاية له بين صفوف النقشبنديين على أنّه غوث الزمان وقطب الفلك حتّى يلتفتّ حوله رعايا الناس والبسطاء، تنفيذًا لمشروعه. فلم يلبث أن تحققت آمالُهُ في أمدٍ قصير. فوجدوا له رجالًا بنفس المواصفات، وأقاموا له مقرًا على الطريق الذي يربط بين مدينتي «بدليس» و«ديار بكر». فجنّدت الحكومة رهطًا من رجالٍ مدرّبين على الصفة المطلوبة للدعاية له، معظمهم من ضباط الصف المتقاعدین.

وما إن تبعثر هؤلاء المنتحلون بين صفوف الناس وتسلّلوا إلى المحافل والمجالس والمساجد يدعونهم للانتساب إلى هذا الشيخ، حتّى انهارت جموع غفيرة من مختلف أنحاء البلاد إلى هذه المنطقة الجهولة، يتهافتون عليه وينخرطون في سلكه. فأثاروا ضجةً بوصف كراماته، فسُحرت عقول الناس بما أُقيمت

من حفلاتٍ وطقوسٍ وحلقاتٍ هيّجت الملايين، فتخدّرت المشاعر، و صُدّت الوجوه عن حقيقة الإسلام تمامًا. فاختلط الصوم والصلاة والحج والزكاة بالخمرة الخوّاجكانيّة، والحلقات اليوغيّة، والرّابطة الهندوكيّة، وعدّ الأذكار بالحصى، والتركيز على الصورة الفوتوغرافية للشيخ، والتبرّك بالقبور، والاستمداد من الروحانيين؛ وتصاعدت أصوات غريبة - شبه الحوار والزئير والعواء - من حناجر المجذوبين في التكايا والمساجد والبيوت والشوارع ليلاً ونهاراً، أصيب آلاف مؤلّفة من الدراويش بمرض الهيستريا، واختفت نشاطات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبطلت أعمال الدعوة والإرشاد، و ماتت روح الجهاد. ولكثرة إنتفاف الناس حول هذا الشيخ، اشتدّ الحرج على المسلمين. فمن رفض منهم أن يواليه، تعرّض للسخرية من قبل جماهير النقشبنديّين، ورُمي بالعداوة «لأولياء الله»، وأطلق عليه صفة «المُنكر» و«الوهّابي»! فلم يعد أحد يتفكّر في خاصية حياة الرسول صلى الله عليه وسلّم وشخصيته وسيرته. بل اعتقد الناس أنّه عليه السلام كان على سيرة شيوخ النقشبندية (!؟) كما اختفت أيضاً بهذا الدافع ضجيج الفرق والأحزاب المتنازعة؛ فارتاحت حكومة مندريس وتمكّنت بفضل النقشبنديّين من تحديد الحركة الإسلاميّة في تركيا بشكل ملحوظ.

وأدهى من ذلك وأمرّ: أنّ حكومة مندريس وافقت على مشروع القانون رقم 5816، بتاريخ 1951/07/25م. الذي ينصّ على تأليه الزعيم التركيّ، كما اهتمّت بتنظيم الطقوس التي تُقام في معبد الدّين الجديد بأنقره، ذلك الدّين الذي اعتنقه جميع الأتراك اليهود، وملايين من الأتراك المرتدّين عن الإسلام، والذي سُمّي بـ «دين الترك المعاصر»⁵³⁹. تحمل مندريس هذه المسؤولية الخطيرة إرضاءً لشهوة يهود سالونيك المتسلّطين على الحكم. (ويزعم الصحفيّ محمد شوكت أيكي: أنّه أيضاً يهوديّ الأصل). فإنّ في هذا الإقدام الخطير - من رئيس الوزراء - حقائق لم ينتبه إليها كثير من الباحثين حتّى الآن. أهمّها أنّ اليهود الأتراك كانوا يشعرون بحرج بالغ: أنّهم يدينون باليهوديّة، وجمهور عظيم من بني جلدتهم يدينون بالإسلام. ومعنى ذلك: «أنّ هؤلاء القوم خاضعون لديّانتيّ شعبين أجنبيّين من الأصل الساميّ، وهم من الأصل الطورانيّ. وهذا يحطّ من كرامتهم القوميّة، ويقلّص من استقلالهم التاريخيّ والثقافيّ». ويؤكّد على هذه الحقيقة ما كتبتّه الباحثة الإنجليزيّة جريس أليسون. Grace Ellison في كتابها Turkey Today وما تفوّه به أحد شعراء الأتراك من الجماعة اليهوديّة اسمه كمال الدين كامو⁵⁴⁰ وتمّ دلائل أخرى كثيرة.

أما الذي يمس موضوعنا في هذا السياق؛ أنّ هذه الفكرة الخطيرة لم تخامرهم إلاّ بعد إطلاعهم على أسرار الطريقة النقشبندية وحقيقة هذه الطائفة مؤخرًا. ذلك لا يُستبعد أن يكون كثير منهم قد اعتزوا بأنّ رجالاً من قداماء هذا الشعب الطورانيّ قد استطاعوا قبل سبعة قرونٍ أن يحدّدوا لأمتهم اتجاهًا خاصًا في تفسير مفهوم الإسلام بشكلٍ يفصل بينهم وبين العرب في الانتماء الدينيّ باسم النقشبندية من منطلق الاشتياق إلى الاستقلال الذاتيّ الذي يُضمّره العنصر التركيّ منذ القديم، كما ترمز هذه الحقيقة في حد ذاتها إلى الصراع العربي-التركيّ على احتكار الإسلام عبر التاريخ.

ولهذا يجاهر كثير من الأتراك الذين قد خلعوا ربة الإسلام من أعناقهم، يجاهرون بكلّ صراحةٍ: «إنّه مادام أسلافنا قد نجحوا في هذه التجربة التي أكسبتنا المناعة ضدّ الانصهار والتحلّل في بوتقة العرب، فاستطاعوا بفضلها أن يحتفظوا بالشخصية التركية المتمايزة حتّى الآن؛ فما يمنعنا إذن من أن نُعلن استقلالنا عن دين العرب تمامًا؟!»

إنّ هذه التغيّرات السريعة التي ظهرت على الصعيد الفكريّ في المجتمع التركيّ المعاصر عقب التطوّرات الطارئة كنتيجة لعلاقات السلطة مع النقشبنديين، لا شكّ يبرهن على تأثير هذه الطائفة وعقائدها على أفكار الزمرة الحاكمة، وبوساطتها على قطاع كبير من الناشئة ولو بطريقة غير مباشرة.

يبدو أنّ الزمرة اليهودية الحاكمة لم تقتنع بعمالة مندريس وإخلاصه لها في إجهاض الحركة الإسلامية بالقدر الذي حمل على الحركة الماركسية والانفصالية الكردية. بل أحسّت بخطر عندما وجدت النقشبنديين قد اجتمعوا تحت زعامة شيخٍ واحدٍ في شرقي البلاد. وبخاصّةٍ فإنّ النقشبنديين الأتراك أيضًا كانت نشاطهم في المدن الغربية قد ازدادت في تلك المرحلة بتوجيه من أحد شيوخهم البارزين اسمه سليمان حلمي طوناخان رئيس الفرقة المعروفة بـ «السليمانية Süleymançılar»، كما لوحظ انتعاشٌ كبيرٌ في حركات جماعة النور على مستوى البلاد. فأوجست الزمرة الحاكمة خوفًا من كلّ هذه التطوّرات، أن تتحوّل في النهاية إلى حركةٍ إسلاميةٍ صحيحةٍ، أو حركةٍ نقشبنديةٍ موحدةٍ لا قبل لهم

بها. فأطاحوا بحكومة مندريس يوم 27/مايو/1960م. ثم قتلوه شنقاً يوم 17/سبتمبر/1961م. واختطفوا جثمان سعيد النورسي (زعيم جماعة النور)، من مدينة أورفا بعد دفنه بقليل. وذلك عام 1960م. كما نقلوا مقرَّ شيخ النقشبنديين الأكراد من المنطقة الشرقية إلى قرية اسمها (المنزل) بالمنطقة الجنوبية قرب مدينة آديمان بعد مدّة قصيرة لسبب هامّ سوف نتطرّق إليه إن شاء الله تعالى؛ وقضوا على منابات جامعة الزهراء. ولكن استمرّ دعم السلطة اليهودية للشيخ المذكور ولأولاده، كما استمرّت في الوقت ذاته مطاردتهم للمسلمين إلى اليوم.

على الرغم من وجود أمارات كثيرة وواضحة تبرهن على استمرار التّعاون بين الزمرة الحاكمة وبين مشائخ النقشبندية ذوي الأصول التركية في هذه البلاد، قد يردُّ هذه الحقيقة بعضُ المعترضين ممن كلّت أبصارهم عن رؤية الواقع، إمّا بسبب ظلام الجهل الذي قد أحاط بهم ولا يكادون يتخلّصون منه؛ أو لمصلحة تجعلهم يكتمون الحقّ عناداً ومكابرةً. ويدخل في عداد أولئك الجهلة أبناء مشائخ المنطقة الكردية المتبعثرين اليوم في إسطنبول وإزمير وأنقره، الذين يطوفون في شوارعها للحصول على لقمة العيش ولا يكاد أحد من أبسط الناس يعبأ بهم فضلاً عن رجال السلطة. وهم بالاختصار: أحفادُ كلِّ من الشيخ خالد الزبياري، والشيخ أسعد الخسخيري، والشيخ خالد الزيلاني⁵⁴¹، والشيخ عبد الرحمن الناغي، وأبناء الشيخ سيّد الجزري (هم من سلالات كردية)؛ وكذلك أحفاد الشيخ حامد المارديني، والشيخ محمّد الحزين الفرسافي، والشيخ عبد الله الخالدي المَخزومي، والشيخ عبد القهار الذوقيدي، والشيخ فتح الله الوراقنسي (وهم شخصيات عربية ومنهم مستكردة). وقد غلب الجهل على هؤلاء المساكين إلى حدٍّ لا يكاد أحدٌ منهم يفهم أنّ الزمرة الحاكمة قد أصبحت اليوم في غنى عنهم؛ ولذلك قذفتهم في سلّة القمامة. ولكنها تتعاون مع عدد قليل جدّاً ممن يحتفظ بمكانته وشهرته من الشيخ النقشبنديين الأتراك وتستغلُّ زمرةً من بينهم، لا يتجاوز عدد البارزين منهم على سبعة أشخاص فحسب. وهم بالتحديد: العقيد المتشيخ حسين حلمي إشيك؛ ورجل يتزعم قطاعاً كبيراً من جماعة النور اسمه فتح الله جولان؛ ورجل في المنطقة الجنوبية قرب مدينة آديمان (وهو عربي مستكرّد)، احتلّ مكان أبيه وجدّه الذي ذاع صيته بدعم جهاز المخابرات في عهد مندريس؛ وزعيم الطائفة السليمانية؛ ورجل متشيخ مدسوس (مثل الضابط الذي مرّ ذكره) يقوم بنشاطاته في منطقة ساكاريا، ورجل من بقايا الشعب البُنطُسيّ اليوناني من أهالي مدينة طربزون. قد اتخذ من مسجد إسماعيل آغا بإسطنبول

541 وصفه معاصروه من الشيوخ النقشبندية بـ«التطرف والخروج على آداب الطريقة»، لأنه كان يسمح باختلاط الرجال والنساء في حفلاته. للشيخ حامد المارديني رسائل في منابه وتشييعه. هذه الرسائل نُسخ عند فريد المارديني (عمد صادق

آيدن)، أستاذ مادة الحديث في إحدى الجامعات الوهابية بمدينة الطائف. طلب مؤلف هذا الكتاب أن يعبرها إياه للبحث، ولكنه رفض!!!

مقرًا ومركزًا. وثمَّ شخص آخر، قد خلفه شيخ الداغستانيين. وهناك عدد أقل ارتباطًا برجال السياسة وهم خلفاء محمود سامي رمضان أوغلو المعروف بـ «شيخ التجار» في إسطنبول؛ وخلفاء إسماعيل حقي أهرامجي الذي كان يبث دعوته من مدينة سيواس في أواسط آناضول.

ربما يدافع بعض الناس: «أنَّ هؤلاء الشيوخ هم أهل الزهد والنسك، معتكفين في تكاياهم، يذكرون الله قيامًا وعودًا وعلى جنوبهم، مشغولين عن الدنيا وملاهيها، لا يراهم أحد في الشوارع أبدًا... إذن، فهل يجوز أن يكونوا متواطئين مع رجال السياسة الذين لا يهمهم إلا المصلحة، و هل يجوز أن يتعاون هذان الجمعان المختلفان في العقيدة والفكر والسلوك ياترى؛ وبخاصةً ضدَّ أهل التوحيد الذين يلتقون مع النقشبنديين صباح مساء تحت سقوف المساجد على أقل تقدير (!؟)»

إنَّ الذين يجهلون مدى حقد النقشبنديين على أهل التوحيد الخالص، ربما يرون في مثل هذا الدفاع ضرورةً على حسب ما يتراءى لهم من الظاهر. كما يبرهن هذا الجهل منهم على جهلهم بحقيقةٍ أخرى. وهي أنَّ منطقَ الإنسان النقشبندي يسمح له بالتعاون مع كلِّ مَنْ يصدِّقه على أساطيره وعقائده إلى حدود بعيدة، ولو كان يهوديًا أو نصرانيًا، وبضيق صدره عن كلِّ مَنْ يكذب أساطيره ويرشده إلى توحيد الله وإن كان حنيفًا مسلمًا.

لذا، يرفض الرجل النقشبندي على الإطلاق، أن يتعاون مع أيِّ إنسانٍ لا يعتقد بمعتقداته المرسومة في طريقته؛ و إذا شاركه في عمله، لا يُخلص له أبدًا؛ بل يضمّر له البغضَ ويحتقره ويستقذره، ويتربص فرصة الإيقاع به متى سنحت له، وإن كان ذلك الإنسان، من أتقى الناس و أعلمهم، وأفضلهم سلوكًا، وأحسنهم خلقًا؛ ولكن الرجل النقشبندي لا يقصّر في التعاون مع أيِّ شخصٍ يتظاهر له بالتصديق على كرامات شيخه والتعظيم له، والموافقة على معتقداته و ممارساته لآداب طريقته، وإن كان ذلك الشخص ملحدًا، دهرياً أو مشرِّكًا! ولهذا لم يتخلف النقشبنديون - على الأقل - عن التحيُّز إلى الفئة المتغلّبة، وعن العمالة للنظام الحاكم، واتخاذ الموقف المضادِّ من أهل التوحيد الحنفاء. بل قد شاركوا الحكومات العلمانيّة في مواقف عديدة وبصورة فعلية ضدَّ المؤمنين الحنفاء، وإن اقتصر ذلك على إبداء الرأي غالبًا.

أما الإمارات، فإنها أكثر من أن تُحصى. ومن كُبرياتها: أن أحدًا من مشائخ الطريقة النقشبندية لم يُنسب بنت شفة استنكارًا لما تقوم به السلطة من تصرفات ظالمة بإهانة المسلمين وغصب حقوقهم، ولم يُبد أحدٌ منهم إدانتَهُ لموقفها المتسامح مع أجهزة الأعلام اليهودية التركية في حملاتها على الإسلام والمسلمين، وسخرتها بالمقدسات الإسلامية من غير هوادة. كما لم يُسمع من أحدهم إنه دافع عن المسلمين المضطَّهدين في أنحاء العالم ولو بكلمة واحدة، ولا عن الفلسطينيين المعرضين للقتل والإبادة من قبل الصهاينة.

كذلك الاستشارات التي يقوم بها أعداد من رؤساء الأحزاب السياسية لدى هؤلاء الشيوخ المشهورين، واجتماعاتهم في المناسبات، تدلّ على ما هنالك من حوارٍ مستمرٍّ، وعلاقات وتعاون بين الطرفين؛ وإن كان لا يتمكن أحد من الإطلاع على أسرار هذه العلاقات غير بطانتهم. وهي في حقيقتها محاولات، يريد بها كلٌّ من الطرفين أن يستغل الآخر من غير شك. إلا أن مكتسبات السياسيين في استغلال النقشبنديين، يترجح بكثير على ما ينال النقشبنديون من مصالح بوساطة السياسيين.

ذلك أن نسبة طاقة الدعم السياسي التي يمثلها النقشبنديون في تركيا تفوق على خمسة وستين في المائة. هذا بغض النظر عن الأعداد التي تُحرّكها هذه الطائفة بطرق غير مباشرة، وتجذبها إلى صفوفها في مواسم الانتخابات، لا تقل عن سبعة في المائة. وهكذا تنجلي أمام العيون بأن هذه القوة الهائلة كيف قد تحولت إلى آلة خطيرة بيد الأحزاب السياسية في تحريك عجلة الديمقراطية الزائفة في تركيا، وكذلك في مقاومة الحركات السياسية التي تحاربها الزمرة اليهودية الحاكمة!

* الفرق الرئيسة للنقشبنديين في تركيا اليوم.

ب هذه المناسبة ينبغي الإشارة هنا إلى أن النقشبنديين اليوم في تركيا، موزعون في صفوف سبع جماعات رئيسة تابعة للأشخاص المذكورين آنفًا. إلا أن هذه الجماعات، يختلف بعضها عن بعض من حيث التكوين الاجتماعي والمستوى الثقافي والنشاط السياسي اختلافًا بارزًا.

يمتاز من بين هذه الفرق، جماعة الشيخ محمد زاهد كوتكو برجالها المثقفين؛ وكان في مقدمتهم ترغوت أوزال الذي استطاع أن يحتل منصب رئاسة الجمهورية؛ وكذلك منهم نجم الدين أرباكان (رئيس الوزراء الأسبق)، وعددٌ كبيرٌ من الأساتذة موزعون اليوم في جامعات تركيا.

إنَّ الشيخ محمد زاهد كوتكو (المعروف بشيخ الداغستانيين)، كان خالديَّ المشرب، من أتباع أحمد ضياء الدين الكُمُوشْخَانَوِي. احتلَّ منصبَ الخلافةِ بعده بإجازتين من خليفته: عمر ضياء الدين ومصطفى فيضي، وبدأ بيتٌ تعاليمه في إسطنبول، فاستطاع أن يؤثِّرَ على طُلَّابِ الجامعة منذ عام 1960م. فانضمَّ إلى أتباعه نخبةٌ من الشباب المثقفين؛ ثم ترابطوا فيما بينهم حتى برز منهم شخصيات تدرَّجوا علما لصعيد السياسي وشاركوا العلمانيين أخيراً في تشكيل حكوماتٍ وتنصيب قوانين وتنفيذ مشروعاتٍ هامةٍ.⁵⁴²

ومن هذه الفرق؛ طائفةٌ مفتتنة بعقيدٍ متشيخٍ مرَّ ذكره بالتفصيل. تتكوَّن هذه الطائفة من طبقةٍ مثقفةٍ مكلفةٍ بالتوجيه، وأخرى عاميةٍ مكلفةٍ بالتقليد والتنفيد. مهمَّةُ هذه الطائفة تتعین في حرب السلفيين وأهل التوحيد؛ وترسيخ «العقيدة السننوية التركية التقليدية» على أساس تقديس الملوك والسلطين الأتراك، وتقديس العنصر التركي والدولة التركية. لذا، تُعتَبَرُ هذه الفرقة من أهمِّ الصفوف التي تستقوي بها الحكومات العلمانية-العنصرية، وتستخدمها في ترسيخ فكرة العصبية التركية.

لقد اتخذ العقيد المذكور الأسرة الأرواسية رمزاً لدعوته وتوجيهاته طمعاً في احتكار الصفة التي اشتهر بها الأرواسيون بنسبتهم إلى السلالة الهاشمية؛ كما استطاع من جانب آخر أن يستخدم أبناء هذه الأسرة في بثِّ «الديانة السننوية الأرثوذكسية التركية»

تظهر شطارة هذا الرجل من خلال بعض محاولاته على سبيل الإحتكار. منها استجارتُهُ في العلوم الإسلامية على يد الشيخ أحمد مكي أفندي بن الشيخ عبد الحكيم الأرواسي، وذلك بالرغم من عدم كفاءته، إذ أنه على الأصح لم يدرس هذه العلوم الشريفة. بل إنه رجلٌ عسكريٌّ متخصصٌ في علوم الصيدلة والكيمياء. ثم قام بطبع هذه الإجازة مع عددٍ من رسائل متفرقةً ضمن مجلِّد واحد لا علاقة

بينها وبين هذه الرقعة. ومن تلك الرسائل «فتاوى علماء الهند على منع الخطبة بغير العربية». تمّ نشرها من قِبَلِ مكتبة الحقيقة في إسطنبول عام 1996م.⁵⁴³

ومن هذه الفرق؛ أيضاً «جماعة النور». وهي أصلاً منشقة من الطريقة النقشبندية ومتفرقة في صفوفٍ متعكسة. برز في الآونة الأخيرة رجلٌ من بينهم اسمه: «فَتْحُ اللَّهِ جُولَان»، فاستعمل لباقتَهُ مع بطانته في تأسيس سلسلة من المدارس والمعاهد الخاصة في أنحاء تركيا وخارجها، امتازت بنظامها الدقيق، وبرامجها الدِّرَاسِيَّةِ المطوّرة، وطُلَّابِهَا وخَرِيَجِيهَا الناجحين البارزين على أصعدة مختلفة، اغتبط بهم أبناء الأثرياء والمترفين! ثم بدأ يستخدمهم في نشر «الدَّيَانَةِ السَّيِّئَةِ الأَرثُوذُكْسِيَّةِ التَّرْكِيَّةِ». اشتهر هذا الرجل أخيراً إلى درجة أحسن السياسيون في تركيا بحاجة إلى دعمه. وقام بزيارة البابا إلى روما عام 1997م. وتبادَلَ العلاقات مع رجال السياسة، وحضر الندوات والمؤتمرات العالمية على سبيل التَّحْدِي لمعارضيه!

هذه الجمعية أجهزةٌ إعلاميةٌ ضخمة، تستغلُّ كُتُبَ الشيخ سعيد التُّورْسِيّ في بثِّ دعاياتها عن طريق شبكةٍ مؤلفةٍ من الصحف والإذاعاتِ وَقَنَوَاتِ الإِنْتَرْنَتِ. اتَّخَذَتِ الحكومة احتياطاتٍ ضدَّ هذا الرجل عقب انتشار بطانته في أجهزة الدولة بشكل ملحوظ، وبدأت الاستعدادات الأمنية للقبض عليه مخافة أن ينقض على جهاز الحكم، وإذا به قد غادر البلاد وأقام في أميركا.

ومن هذه الفرق؛ السليمانيون. وهم طائفة من النقشبنديين من أتباع «الشيخ سُلَيْمَانَ حَلْمِي طُونَاخَانَ» المشهور بمعارضته لمعاهد الأئمة والخطباء، اعتقاداً منه أنّ الحكومات العلمانية تتعمد الإضرارَ بالعقائد التركية التقليدية عن طريق هذه المعاهد.

اهتمّ بفتح المدارس القرآنية في أنحاء تركيا، تمهيداً لبثِّ طريقته وعقيدته من خلال هذه المدارس. فانخرط كثير من الناس في صفوفه بتأثيرها.

543 هذه الفرقة معروفة باسم: Ishiqilar أي الضيائون. هذا، وللعلم أنّ «مكتبة الحقيقة» اسم تسمي بها مكتبان في إسطنبول؛ إحداهما تخدم أعراس فرقة (حسين حلمي)، والثانية تُنشر فيها كُتُبَات (عمر أونغاروت) في منطقة «جاغال

أوغلو» وبينهما مسافة قصيرة جداً.

لقي «سُلَيْمَانِ حَلْمِي طُونَاخَانَ» من حكومة «عَدْنَانَ مَنْدَرِيْس» ضغطاً شديداً لاهتمامه بتحفيظ القرآن. وكان مَنْدَرِيْس أيضاً تحت ضغط «اليهود الدُونْمَا» مرغماً على كفاح كلِّ حركةٍ من شأنها فتح باب الصحوة للمسلمين. لذا كان مَنْدَرِيْس يهتم يومئذ بجمع النقشبنديين حول رجلٍ أبله في المنطقة الشرقية لتخدير مشاعر الناس وصدّهم عن التيارات الإسلامية.

أمّا «سُلَيْمَانِ حَلْمِي طُونَاخَانَ»، فإنه كان رجلاً ذكياً جريئاً، استعمل لبقائه في توجيه الناس إلى حفظ القرآن الكريم حتى تمكن بذلك من نفخ عقائده إلى ضمائرهم!

نشأ على يده رهط من الدجاجة اعتنقوا عقيدته وتبعثروا بين الناس للدعوة إلى تعاليمه، وادّعوا بعد موته «أنه أويسيّ اتصل بروحانية السرهندي واستفاد منه». كما ادّعوا أنه «المهديّ المنتظر!» فتبين أنّ هذا الاعتقاد لا يزال يسري بين مختلف جموع النقشبندية، سواء الخالديين منهم وغيرهم. لأنّ هذه الفرقة ليست خالدية المشرب. ويعده أصحابه من الطبقة الثالثة والثلاثين من سلسلتهم.

وردت قصّة حياته أخيراً في رسالةٍ دوّنها الأستاذ الدكتور أحمد آقچندوز، تمّ طبعها ونشرها على نفقة مؤسسة أوقاف البحوث العثمانية (أوساف) في إسطنبول عام 1997م.

ومن هذه الفرق؛ جماعة غالبها من سُكّان سواحل البحر الأسود (المعروفة قديماً باسم: «لَازِسْتَان»); يرأسهم رجلٌ متزمت من نفس المنطقة. أقدم أخيراً مع أشخاصٍ من بطانته على كتابة تفسيرٍ للقرآن الكريم باللّغة التركيّة وبأسلوبٍ صوفيّ تحت عنوان «روح الفرقان» كما مرّ ذكره. استهدف بذلك معارضةً شديدةً من جانب أهل التوحيد؛ وكاد أن يتطوّر الأمر إلى فتنة بين هذه الفرقة وبين المسلمين. تمّ طبع هذا الكتاب من قبل دار السّراج (يتولّاها ابن أمين السّراج!).

أحسّت الحكومة العلمانية في الآونة الأخيرة بما اكتسبت هذه الجماعة من القوة، فدبّر جهازُ المخابرات مؤامرةً لاغتيال بعض البارزين من هذه الفرقة تأديباً لها! راح ضحيتها ملاً خضر أفندي صهر شيخ الجماعة. طعنه عميل للمخابرات بخنجرٍ داخل مسجد لهم بحجّ الفاتح في إسطنبول، مات فوراً. كما وضعوا تابوتاً فارغاً أمام منزل الشيخ، وعدداً آخر من التواييت عند باب كلِّ من نائبه

وبعض رجال حاشيته على سبيل التهديد: بأنهم معروضون للخطر إذا ما صدر منهم أدنى حركة ضد الحكومة وسياستها.

وتمّ فرقتان أخريان من النقشبنديين يتعاون النظام الحاكم معهما إلى أبعد الحدود ويستخدمهما في أغراضها وتحقيق ما يناسب من أهدافها، خاصةً في شلّ حركة التيارات الإسلامية! تمركزت إحداهما في قرية اسمها «المنزل» وهي من ضواحي مدينة «آديمان». لهذه الفرقة منظمة سرّية أفرادها من الضبّات المتقاعدین. يقومون ببثّ دعاياتٍ كثيفةٍ لشيخ هذه الجماعة في كافة أنحاء تركيا. لم يسلم أحد من التعرّض لهذه الدعايات على الساحة التركية إلا قليلاً من المعزولين عن الحياة الاجتماعية. يتسلسل شيوخ هذه الفرقة من نفس الأسرة؛ يخلفُ الابنُ الأكبرُ أباهُ بعد موته مباشرةً ودون أيّ نزاع على غرار الملكيّة، لكي لا تدخل الجماعة تحت سيطرة شيخٍ خارج الأسرة! تمتدّ العلاقة بين هذه الأسرة وبين الخزنويين في شمال سوريا. والخنزويّة أسرة نقشبندية خطيرة كردية الأصل، اتخذَ كبيرها (أحمد الخزنوي) من قرية «تل معروف» مقراً لأسرته وتكبيرته منذ قرن، وهي على مقربةٍ من مدينة «قامشلي». أسسَ هذه التكيّة أحمد بن مراد الخزنوي في نهاية القرن التاسع عشر. اعتمدت الأسرة الخزنويّة التقاليد الهندوكية في التعبّد، تمسّكاً بالعقيدة الخالدية واتباعاً بالأسرة الخانية. وعملت على إحياء تعاليم «بوذا» في قميصٍ من الشغف بالموتى. امتازت بلباقتها في استمالة قلوب الناس بأساليب صوفية الهند. ركزت الإهتمام على المناسك البوذية. أصرت على إقامة حفلة «التوجّه» خاصةً، وهي من طقوس مجوس الهند، قمصتها قدماء النقشبندية الأولون للتعمية؛ يقلدهم الأَخلاف على جهل منهم. وقد بلغت التقليديّة في متأخري شيوخ النقشبندية إلى درجة أنّ أحداً منهم لا يفكر لحظة ليتساءل في نفسه عمّا إذا كان لهذه الحفلة الغربية أيّ علاقة بالاسلام!

ساعدت حكومة (مندريس) هذه الأسرة على رغم وجودها خارج الأراضي التركية! فنالت دعماً مالياً من تركيا (بطرقٍ خاصّة) طوال العقد الخامس من العصر المنصرم. ثمّ ناب عن شيخ هذه الأسرة (في تركيا) رجلٌ من أهل ضواحي مدينة بتليس (التركية) اسمه عبد الحكيم البلوانسي، فطار صبيته في الآفاق بواسطة منظمة تمّ تكوينها على غرار المافيا، وذلك بتعليمات خاصة من رئيس الوزراء (عدنان مندريس). ولا تزال هذه المنظمة تواصل مهمتها.

وأما الفرقة الثانية، فإنها أيضاً جماعةً مشبوهةً، أغلب أفرادها شبابٌ غوغاءٌ من حثالة الناس، مفتنون بالعصبية التركية، يكتبون ويطبعون ما يُملي عليهم شيخهم (عمر أونگوت) مع جهله المركب، من تأويلاتٍ وتفسيراتٍ شاذةٍ للآيات الكريمة والحديث النبوي. وصدرَ أخيراً كُتَيِّباتٌ لهذا الشيخ، شنَّ فيها حرباً شعواءً على شيوخ النقشبندية، فرمَّاهم بالكفر والزندقة وهم في دُعرٍ منه لِعَلْمِهِمْ بأنَّ النظام يدعمه بطُرقٍ خاصَّةٍ لأثارة الإضطرابِ والشغبِ بين جماعات الصوفيَّة، تفاديا لاحتمالات التقارب بينها. وهذا يذكرنا بقوله تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (آل عمران/151).

* أهم الحركات السياسيَّة التي استخدمتْ السلطة النقشبندية في

مقاومتها.

إنَّ استخدام السلطة للنقشبنديين لم ينحصر في الحرب ضدَّ الوهابيين فحسب، وإنما شمل الحرب ضدَّ أحزاب، وحركات سياسية كثيرة في العهد الجمهوري، أهمها أربعة، مرَّ ذكرها بإيجاز. إنَّ الدخول في تفاصيل التعاون بين السلطة والنقشبنديين في كلِّ هذه الحروب، ربما يتجاوز في بعض نواحيها حدود بحثنا. لذا، نقتصر على النتائج السلبية لهذا الاستغلال الذي تمخَّض عن أضرارٍ كبيرةٍ على الإسلام والمسلمين.

استغلَّت السلطة النقشبندية في مقاومة الحركة الماركسية مدةً أكثرَ من خمسةٍ وثلاثين عاماً بعد العقد الرابع من العصر المنصرم. فجنَّدتهم في صفوف «جمعية الكفاح ضدَّ الشيوعية». فأثارت بذلك فيهم نزعة الرأسمالية البحتة وروَّضتهم على الانتماء إلى هذه الفكرة باسم الحرية. فأصبح مفهوم الحرية مشوَّهةً بصبغتها، وسادت في هذه الصورة على عقولهم. ولم يكن الناجح في هذا التعاون إلا اليهود الرأسماليين. فازدادوا بذلك قوةً حتى استغلَّوا النقشبنديين في أغراضٍ أخرى، كما تحكَّموا فيهم، وقادوا كلَّ جماعةٍ منهم في وُجْهَةٍ لا تلتقي فيها بجماعةٍ أخرى من النقشبنديين؛ فسدَّوا عليهم بذلك طريق السياسة المباشرة بحيث كلَّما قامت فئةٌ من النقشبنديين بتشكيل حزبٍ سياسيٍّ قضاوا عليه قبل أن يتسلَّم زمام الحكم؛ وسلَّطوا بعضهم على بعض، كتجربتهم في تصعيد ترغوت أوزال على منافسيه. لأنَّه كان نقشبندياً علمانياً متعصباً لتعاليم يهود سالونيك.

دام استغلال السلطة للطائفة النقشبندية في مقاومة الماركسيّة حتى سقطت الإمبراطوريّة السوفييتيّة وانقضت غيوم الذعرِ فاطمأنت الزمرة الحاكمة من مدهمة الروس لأراضي آناضول. فاعتاد النقشبنديّون عبر هذا التعاون على جميع تعاليم يهود سالونيك من العلمانيّة، وممارسة القواعد الظالمة للنظام الرأسماليّ، وطقوس الشرك بأنواعها؛ كما تأثرت واستورثت العداوة لأهل التوحيد الحنفاء الذين يرفضون عبادة الموتى، ويتجنّبون تخليد ذكر المخلوق و الاستمداد من غير الله.

استغلّ يهود سالونيك المتغلّبون على مرافق الدولة التركيّة بوساطة حكومات مزيفة، استغلّوا فئات من شباب عائلات نقشبندية في القضاء على الحركة الإرهابيّة التي قامت بها عصابات أرمنية ضدّ الدبلوماسيين الأتراك في الخارج ما بين 1970-1985م. ثمّ قضوا أخيراً على هؤلاء الشباب بوساطة منظمة مهمّتها اغتيال أشخاصٍ اطلعوا على أسرارهم!

إنّ كثيراً من أهل الصحوة الإسلاميّة مهّدون أيضاً اليوم باعتمادات هذه المنظمة الخطيرة.

ثم استغلّت السلطة جماعةً من أبناء النقشبنديّين الأكراد ضدّ الحركة الانفصالية الكرديّة التي قام بها حزب العمال الكردستاني، وذلك بتشكيل حزبٍ سرّيٍّ آخر باسم «حزب الله»⁵⁴⁴ ولكن السلطة اليهوديّة قد أصبحت في عجز عن ضبط هذه المنظمة. لأنّ عنانها قد انفلتت في الآونة الأخيرة من يد من كان يوجّهها حسب أوامر الطغمة اليهوديّة الحاكمة كما يبدو. وثمّ أشخاصٌ بارزون بثقافتهم ومكانتهم الاجتماعيّة من أبناء مشاهير النقشبندية، تطوّعوا ضدّ المنشقين الأكراد بأفلامهم ودعاياتهم الإعلامية؛ وعلى رأسهم أحمد الأرواسي.⁵⁴⁵ إنّ أحمد الأرواسي الذي شاع بين مريدي آباءه أنّ عائلته تنحدر من سلالة الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، من الغريب أنّه يتناسى هذه النسبة، بل يكتمها بلباقةٍ عندما يهاجم القوميّة الكرديّة ويشدّد النكير على من يدّعي أنّ للأكراد لغة خاصّة باسم اللّغة الكرديّة. والذي يُستغربُ من أحمد الأرواسي في هجومه الذي نشره في كتابٍ خاصٍّ؛⁵⁴⁶ أنّه اتخذ هذا الموقف الحماسي من منطلق الدفاع عن القوميّة التركيّة إرضاءً لشهوة الزمرة الحاكمة.

544 لم تبت هذه المنظمة أية علاقة بـ"حزب الله" الموجود في لبنان.

545 أحمد بن عبد الحكيم الأرواسي، رجلٌ مثقّف، كاتبٌ وباحثٌ؛ نُشرت مقالات له في صحف النقشبنديّين بإسطنبول، قد يلتبس أبوه على بعض الناس بسميته وقرنيه عبد الحكيم الأرواسي الذي مرّ ذكره. إلا أنّ عبد الحكيم هذا، كان موثقاً متفاعلاً من إدارة الجمارك بمدينة وان، ثم مات في إسطنبول؛ وليس هو عبد الحكيم الأرواسي الذي اشتهر بجهود عقيد مندوس في صفوف النقشبنديّين، والذي مات عام 1943م. بحجّ من أحياء انقره.

546 هذا الكتاب نُشر عام 1992. تحت عنوان: Doğu Anadolu Garçeği

هذا، وإن قادة الحركة الانفصالية الكرديّة لما تأكّدوا من أنّ السلطة تستخدم النقشبنديّين في الكفاح المسلح ضدّهم من جانب، كما تستخدم رهطاً من مثقفيهم من أمثال أحمد الأرواسيّ في تخدير مشاعر الأكراد وتعميتهم عن الصحوة القوميّة من جانب آخر؛ بدءوا يوجّهون ضرباتهم إلى عائلات نقشبندية، واستعدّوا لاغتيال شيخهم «محمد راشد أزل» الذي كان جدّه قد نُصب على هذه الطائفة كمرجعٍ أعلى بإيعاز من رئيس الوزراء الأسبق، عدنان مندريس. ولكن القوّات الأمنيّة قامت بالقبض على «الإرهابيّ» في لحظته؛ وكان جدُّ هذا الشيخ قد نُقل إلى ناحيةٍ بقرب مدينة أديامان النائية عن ساحة النشاطات السياسيّة للأكراد، لنفس الأسباب قبل انتشار الحركة الانفصالية إلى جميع أنحاء المنطقة يومئذ.

إنّ استغلال السلطة للنقشبنديّين ضدّ كلّ هذه الحركات السياسيّة والإرهابيّة، في الحقيقة كان الهدف منه، ترويضهم على السير طبقاً للقواعد المرسومة لهم؛ وعلى الطاعة العمياء في الخطوة الأولى؛ فاستخدمتهم بصورةٍ فعليّةٍ في خلق جوٍّ مطلوبٍ لإذابة الجموع المضادّة للزمرة الحاكمة في بوتقة العلمنة والإلحاد كمرحلةٍ ثانية؛ وترسيخ قواعد الرأسماليّة ضدّ المستضعفين، وسدّ الانتباه ضدّ الصحوة الإسلاميّة التي بدأت منذ سنين تنتشر في أنحاء العالم كخطوةٍ ثالثة. فقد تحقّقت هذه الأهداف إلى حدودٍ بعيدة. فإنّ كثيراً من الناس الذين ما زالوا يعتزّون بالإسلام ويهتفون باسمه، فقد تغيّرت المفاهيم القرآنيّة في عقليتهم، واتخذت صورةً أخرى غريبة؛ والتبس عليهم الحقُّ بالباطل؛ وأصبح الإسلام في اعتقادهم عبارةً عن سلسلةٍ من حكايات الصالحين، وحفلات المولد النبويّ، وزيارة القبور، وتعظيم الموتى، والاستشفاع بهم. فإنّ خلاصة ما يُعرف من مفهوم الإسلام اليوم في معتقد العامّة، أنّه لا يعدو عن علاقةٍ شخصيّةٍ للعبد بمعبوده فحسب؛ دون أي شيءٍ آخر من علاقاته ونشاطاته وأفعاله مع بني جنسه في بقيّة مجالات الحياة.

ولذا كثيراً ما يثور المارقون على المسلمين، فيقولون لهم في استغراب وتساؤل على سبيل التحقير:

- هل منعكم أحد من الصوم والصلاة والحجّ والزكاة؛ ثم ماذا تريدون بعد هذا القدر من الحرية؟! نعم هكذا يتساءلون بعُجْهِيةٍ وحمّاقيةٍ وغطرسة، ولا يتفكّرون أنّهم لو زحفوا بجيوش الدنيا على الرجل المسلم ليمنعوه من الصلاة ما استطاعوا ذلك رغم أنف كلّ منهم! لأنّ المسلم يستطيع أن يؤدّي صلاته بشكلٍ من الأشكال ولو بإجراء أركانها على قلبه في أسوأ حالٍ. ولكنّ المصيبة، أنّهم لا يكادون يصطدمون بمثل هذه الإجابة التي هي أخطر عليهم من قبلة ذرية! لأنّ المجتمع قد تحوّل إلى قطائع من النقشبنديين المعتادين على الخضوع والتذلل والاستسلام لليهود سالونيك. ولأنّ الإنسان النقشبندي يعتقد بكلّ مَنْ يملك زمام أمره، أنّه من «أولي الأمر»؛ الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، ولو كان من يهود سالونيك! هذا ما قد حلّ بالإسلام في تركيا على يد اليهود، بالتعاون مع النقشبنديين؛ وإن كان ذلك عن كراهية المثقفين منهم، وعن جهل شيوخهم، وحمّاقية الملتقيين حول هؤلاء الشيوخ من حثالة الناس.

* تليقات النقشبنديين في كثير من أقوالهم ومواقفهم.

إنّ الصوفيّة عموماً طائفة انتقدتهم العلماء قديماً وحديثاً؛ وقد اشتدّ عليهم كثيرٌ من المحقّقين بكلامٍ لاذعٍ، ورُميَ غالبهم بالزندقة والانحلال. وقالوا إنّهم قومٌ تغمّره أمواجٌ من الوهم والهواجس الغريبة، وتنتابهم تصوّراتٌ وخيالاتٌ لا يجدون لها تعريفاً وتوضيحاً؛ فتتساقط من أفواههم كلماتٌ غامضةٌ، وعباراتٌ معقّدةٌ، يظنّها الجاهل أنّها إلهامات من الله! «إذ هو الذي أوحى إلى عباده المرسلين من آياته البينات، إذن فما المانع أن يفيض بأمثالها على أوليائه المكرّمين من علومٍ لدنيّةٍ و عرفانٍ وإشراقٍ وإلهامات؟!»

لم تختلف حالة النقشبنديين عن حالة البقيّة من الصوفيّة في عباراتهم ومواقفهم؛ بل قد أطلقوا الكلمة على عواهنها في مواطن كثيرة؛ فجاءت على خلافٍ شديدٍ بأصول المنطق السليم والاستدلال؛ واهيةً ملقّةً. لذا، من ردّ عليهم، أو خالفهم، أو حتّى إذا اكتفى بالنصيحة لهم؛ هاجموه بلهجة قاسية، وربما رموه بالفسق والتعسف والإنكار، وحتّى بالكفر والزندقة؛ بل لجأ بعضهم إلى استعمال الشدّة والعنف. وناهيك ما قالوه في التشنيع على الوهابيّة والسلفية، وما تعرّض له أهل التوحيد من الاضطهاد على

أيديهم في تركيا والعراق وأفغانستان، بالإضافة إلى ما قيل عن ارتكابهم من جنایات في مناطق نائية لم تثبت عليهم!

سنتناول في هذا الباب شرطاً من آرائهم التي ادّعوا فيها ما لا حجة لهم في إثباتها؛ ومسائل أخرى اختلفوا فيها اختلافاً فاحشاً. فجاء مقال بعضهم تكذيباً لبعضهم الآخر؛ كما سنتطرق إلى أمثلة من الخصومة والعداوة التي جرت بينهم، فلا نعلمهم إذا سجلنا ما تقوم عليهم من براهين قاطعة على أنّ الصورة الحقيقية لهذه الطائفة تتوارى بصورة عابرة تظهر للناس لطيفةً نورانيةً مزخرفةً بالحلم والتسامح والزهد والتقوى والعفة والقناعة والإخلاص!

* مقتطفات من آرائهم التي ادّعوا أنها من الدين ولا حجة لهم في إثباتها.

وعلى سبيل المثال، حاول النقشبنديون ليقوموا الصلة بين ما سمّوه «الرّابطة» وبين الإسلام. وادّعى بعضهم أنها فريضة من فرائض الله.⁵⁴⁷ وقال كبير متأخريهم خالد البغدادي «هي أعظم أسباب الوصول بعد التمسك التام بالكتاب العزيز وسنة الرسول». ولكنهم عجزوا عن إثبات ما ادّعوه بأدنى شيء من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ على الرغم من محاولاتهم بشكل مستميت كما مرّ في الفصل الثاني بالتفصيل.

وأغرب من ذلك أنهم جميعاً قد تهرّبوا من إطلاق الحكم على الرّابطة، هل أنها شعيرة من شعائر الدين الإسلامي، أو منسك من مناسكه، وهل يجوز التعبد بها؟ ويبدو أن الأمر ضاق بهم ذرعاً حتى لجأ أربعة أشخاص منهم عام 1994م. إلى فقيه في إسطنبول، اسمه خليل كوننج، يستفتونه عما إذا تدخل «رابطة النقشبنديين» في شمول العبادة؟ فأجابهم المفتي: أنها لا تُعدّ نوعاً من العبادة على الإطلاق.⁵⁴⁸

547 راجع الهامش رقم 88.

هذا مثال هامٌ من التناقض والتضارب والارتباك الذي وقع فيه النقشبنديون. إذ أنّ هؤلاء الأشخاص، وسائر شيوخ الطائفة الذين يتحاكم إليهم جموع المريدين ويراجعونهم في جميع مسائلهم، لو لم تنتابهم الشكوك في أمر الرابطة، وترددوا فيما إذا كانت هي شكلاً من أشكال العبادة؛ لَمَا أَحْسَوْا بضرورة الاستفتاء ليتأكدوا من حكم الإسلام في شعيرة من أهم شعائر طريقتهم، وقد مضى أكثر من مائة وخمسين عاماً على كون الرابطة كقاعدة أساسية للطريقة النقشبندية. مثلاً في هذا الاستفتاء كمثل رجل يدعي أنه مسلم، ثم يستفتي العلماء في الصلاة المفروضة مثلاً هل تدخل فيما أمر الله به؟ و أغرب من ذلك، قيام أربعة أشخاص في استفتاء فقيه لا علاقة له بالتصوف ولا بالطريقة النقشبندية. أمّا إجابة المفتي على سبيل الاحتياط بقوله «إنها أصلاً ليست من العبادة في شيء»، ومراوغة بعد ذلك بتعليق جاء فيه (أتمّ مسألة اجتهادية)، أشدّ غرابة!

وحسبنا ذكر حجّتين دامغتين على النقشبنديين بأنّ جميع ما قد وضعوه واختلقوه (من الرابطة، والْحُتْمَةُ الحُجُوجِ كَانِيَّةً، وعدّ ألفاظ الورد بالحصي، وإحصائها بكميات مُعَيَّنَةٍ، وحبس النفس أثناء الورد، والارتداء بوشاح أثناء الذكر أيضاً، والجلوس في الحلقة بعكس التورك في الصلاة، والأركان الأحد عشر...)؛ إنّها جميعاً لا تعدو كونها مستحدثات وافدة دخيلة على الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا شك في أنّ أيّاً من هذه المستحدثات الغريبة ليس من الإسلام في شيء ولا يمت إليه بأدنى صلة.

الحجة الأولى منهما: أنّ المعارضين القدماء والأشدّاء على الصوفية لو كانوا عثروا على شيء من هذه المستحدثات في القرون الماضية، لما مروا عليها مرور الكرام. بل إنهم لبذلوا أقصى جهودهم في الردّ عليها، وتفنيدها. إنّ الذين لم يترددوا في رمي حسين بن منصور الحلاج بالكفر والزندقة (وهو شهيد الصوفيّة)؛ هل يُعقل أنّ كانوا قد عثروا على كلّ هذه المختلقات وسكتوا عنها؟!!!!

فهذا تقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني، لم تسنح له فرصة إلاّ وقد نال منهم بأدنى حجة. كما حكم على ابن عربي بالكفر (وهو الشيخ الأكبر عند الصوفيّة). فلو كان عثر على شيء مما استحدثه النقشبنديون (كالرابطة وغيرها من آدابهم ومبادئهم وطقوسهم)؛ لرماهم بالكفر البواح، ولأمطرهم بوابل من اللعن والشتم! بينما نجد آثاره خالية عن كلّ ما نتوقع منه. وهذا من أقوى البراهين على أنّ الأمور المذكورة حديثة جداً، لم يعرفها قدماء النقشبندية (ما عدا الأركان الأحد عشر الواردة في

الرشحات لأوّل مرة)؛ كما تبرهن هذه الحقيقة على مدى التعارض والتلفيق الذي وقع فيه النقشبنديون لَمَّا ادّعوا أنّ هذه الأمور منبثقة من الإسلام، وأنّ مصدرها الكتاب والسنة، وأنّ أكابر النقشبندية قديماً كانوا يمارسونها.

أمّا الحجّة الثانية التي تقوم عليهم بأشدّ من الأولى؛ وتُكذّبُهُم في إسنادهم تلك البدع إلى الكتاب والسنة؛ هي سرّية هذه الأمور.⁵⁴⁹ لأنّ النقشبنديين لا يمارسونها إلّا في أماكن خاصّة ومغلّقة دون غيرهم. يقومون فيها بعقد حفلات سرّية لا يحضرها إلّا بِطانتُهُم من المنسوبين إلى هذه الطريقة. وقد يتسلّل معهم إلى هذه الحلقات بعض المنتحلين. فمنهم، من يحضرها ليلتقط معلومات حول هذه الطائفة ومعتقداتها بغرض البحث العلميّ، ومنهم موظّفون من جهاز المخابرات، قد كلّفت السلطة بعضهم للدعاية، وبعضهم لأغراض أمنية!

نتساءل الآن: هل فرض الله على طائفة معيّنة من عباده أموراً ليقوموا بأدائها تحت جناح السرّ وحرّمها على غيرهم؟! وحتى فرض الكفاية الذي يسقط عن كثير من المسلمين إذا قام به بعضهم، لا مانع من الاشتراك للبقية بشروطه؛ ويُناب عليه إذا اشترك مع المؤمنين في أدائه، كما لا سرّية فيه.

زد على ذلك أنّ هذه الطقوس والأتماط الغريبة من مناسك البرهمية التي يتعبّد بها النقشبنديون، يجهلها جمهور المسلمين؛ وحتى أحفاد الشيوخ الذين كانوا يلقنونها الناس، ويرأسون الحلقات في الماضي القريب، أبناءهم وأحفادهم أيضاً يجهلونها اليوم تماماً. وعلى سبيل المثال: فإنّ أحفاد كلّ من الشيخ طه النهريّ، والشيخ صبغة الله الحيزائيّ، والشيخ محمّد الحزين الفرسافيّ، والشيخ حامد الماردينيّ، والشيخ خالد الجزريّ، والشيخ خالد الزبياريّ، وأبناء خلفائهم (باستثناء عددٍ قليلٍ منهم جدّاً)؛ لا يعرفون شيئاً من هذه الآداب، ولا يكادون يستحضرون في أذهانهم: ما هي الرابطة، وهل يجب حبس النفس أثناء الذكر، والجلوس بعكس التورّك في الصلاة، وما معنى «هوش دردم، ونظر برقدم، وسفر در وطن، وخلوت در أنجمن... إلخ»؛ وهل هذه أشكال من العبادة في الدين الإسلاميّ؟ بالإضافة إلى كلّ ما سبق، فانه لا يكاد أحد منهم يفتكر اليوم في اتخاذ مرشدٍ يلقنهم الطريقة النقشبندية؛ مع أن

549 يبرهن على هذه الحقيقة كلام أحد المؤرخين الأتراك، إذ يقول: « درون استانبولده براق مسجدده كندولرلرنه مخصوص آين طرفي خلقدن مستور اوله رق اجراه مشغول اولدقلرندن... »؛ أي «حيث أنهم كانوا يشتغلون بإجراء طقوس على طريقة خاصّة بهم، مستورين عن الناس في عدة مساجد بمدينة إسطنبول...» تاريخ لطفى 287/1. مكتبة السليمانية، خزنة الحاج محمود أفندي رقم/4755. لقد أغفل العزّايّ ترجمة هذه الكلمات ضمن المقطع الذي قام بنقله في دراسته التي سماها

(مولانا خالد النقشبندي)، ونشرها في مجلة المجمع العلمي الكرديّ، عدد 1. ص/ 721. بغداد - 1973. راجع الهامش رقم/467.

آبائهم وأسلافهم كانوا يعتقدون أنه «من لا شيخ له يرشده فمرشده الشيطان»⁵⁵⁰ على الرغم من هذه الحقيقة أن عددًا من هؤلاء الأخلاف، يصلون الخمس، ويصومون رمضان، ويحجّون وقد يزكّون؛ ويعتقدون أنّها فرائض يحرم تركها.

إنّ هذا الواقع حُجّةٌ دامغةٌ على النقشبنديين، تدلّ على مدى وقوعهم في التلفيق والتعارض والتضارب في أقوالهم ومواقفهم ومزاعمهم التي يدعون أنّها مستمدة من الكتاب والسنة.

* مسائل متفرقةً اختلفوا فيها اختلافًا صريحًا، بحيث جاء مقال بعضهم تكذيبًا لبعضهم الآخر؛ كذلك أقوال بعضهم فيها تضادٌ وتناقضٌ للقائل نفسه بالذات.

هذه أمورٌ يفتضح بها النقشبنديون أمام أهل العلم والمعرفة والحدّاقة من الباحثين والدارسين خاصّة. لأنّ الجاهل لا يتمتع بمعرفةٍ تُمكنه من القيام بالمقارنة بين أقوالهم ومواقفهم، حتّى يتبيّن له مدى التطابق أو الاختلاف بينها.

ومن نماذج الاختلاف بينهم في الأقوال على سبيل المثال:

إنّ مشايخ النقشبندية يعظّمون ابن عربي، ويستدلّون بأقواله؛ فينقلونها في كتبهم. فمنهم مثلاً محمّد بن عبد الله الخاني، يقول في كتابه، البهجة السنية: «قال سيدي الشيخ محي الدين بن عربي (...). كما نقله العارف الجليلي في أسفاره: الكرامة حقّ... إلخ»⁵⁵¹ ويقول حفيده عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخاني في كتابه الحدائق الوردية «قال سيدنا الشيخ الأكبر: فعلماء الرسوم يأخذون خلفًا عن سلفٍ إلى يوم القيامة، فيبعد النسب؛ والأولياء يأخذون عن الله... إلخ»⁵⁵² بينما نعثر على كلامٍ لشيخٍ آخر من هذه الطائفة؛ وهو أيضًا خالد المشرب اسمه أحمد بن أحمد بن خليل البقاعي في كتابه «رسالة في

550 راجع الحامش رقم 53.

551 محمّد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 56.

552 عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 99.

آداب الطريقة النقشبندية». يدلّ كلامه صراحة على أنّه لا يعبأ بمحي الدين بن عربي، وكأنّه يستهزيء به. فهذه كلماته بالضبط، يمدح بها مشايخ الطريقة النقشبندية فيقول: «ورفيح همّتهم يرفع المرید من حضيض الإمكان إلى ذروة الوجوب، ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعةً لأحكام الشريعة، والأذواق والمعارف خادمةً للعلوم الدينية؛ و لا يستبدلون الجواهر النفيسة الشرعية بجزر الوجد وزبيب الحال مثل الأطفال، و لا يعتزون بتزهات الصوفيّة، ولا يفتنون بها، و لا ينزلون بها من النصّ إلى الفصّ؛ ولا من الفتوحات المدنية إلى الفتوحات المكيّة».⁵⁵³ يشير بذلك إلى كتب ابن عربي، في الحين الذي هو بالذات يتعارض مع نفسه بهذه العبارات!

ومن التعارض الشديد في معتقدات النقشبنديين، أنهم قد سنّوا آداباً معيّنة فاشترطوا الوصول إلى الله بمراعاة تلك الآداب والسلوك على أساسها رياضات شاقّة. ومع ذلك وقعوا موقع المصدّقين لمحي الدين بن عربي وأمثاله الوجوديين «بأنّ كلّ شيء جزء من الله» وحتى «أبو سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات».⁵⁵⁴

فما دام كلّ شيء في هذا الكون جزءاً من الله، ولا يحتاج الأمر للوصول إليه بأيّ محاولة، لماذا يفرضون على أنفسهم تلك الآداب والرياضات، ويتكبّدون الشدائد بالجوع والسهر وترديد الأوراد بأعداد هائلة، ويقضون معظم حياتهم في قيود (هوش دردم، ونظر برقدم وسفر دروطن...)? نعم إذا كان كلّ واحد منهم جزءاً من الله، - على حسب ما يدّعيه ابن عربي ويصدّقه النقشبنديون -؛ لماذا يعدّون أنفسهم بهذا القدر من مجاهدات ورياضات يوغية ليتمكّنوا بها من الوصول إلى الله؟ أليس ذلك تكديباً لمحي الدين بن عربي وتناقضاً غريباً يتخبّط فيه النقشبنديون مع أنفسهم بالذات؟

كذلك من تناقضات النقشبنديين في الوقت ذاته تشبّثهم بالرسالة النسفيّة وشرحها للتفتازاني في تدريس العقائد، وهي رسالة مقبولة مستمدة من روح الكتاب والسنة؛ في الحين الذي يعظّمون محي الدين بن عربي وحسين بن منصور الحلاج وأمثالهما من الوجوديين والحلوليين؛ فشتان ما بين عقيدة عمر النسفي وعقيدة محي الدين بن عربي!

553 أحمد القاعي، رسالة في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 30-31. مخطوطة (مصورة) ضمن مجموعة الزمرد العنقاء؛ إسباطة 1249هـ/ 1832م. TDV. İSAM. 297.7 NİM. Z. 46644

554 محي الدين بن عربي فصوص الحكم ص/ 76، 77. (نقلا من كتاب: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة للشيخ عبد الرحمن عبد الحاق ص/ 83. مكتبة ابن تيمية الكويت، الطبعة الثانية). راجع الهامش رقم/222.

ومن مناقضاتهم أيضاً: قال عبد المجيد بن محمد الخاني في ترجمة يوسف الهمداني، «أدركته الوفاة فدفن بها (يقصد مدفنه، وهي قرية باميين في أفغانستان). ثم بعد حين نُقلت جثته الشريفة إلى مرو»⁵⁵⁵ وهي مدينة في تركستان.

إن كانت هذه العبارات تدلّ على حقيقة، فما أقواها برهاناً على مخالفة النقشبنديين لأحكام الجنائز والموتى في الفقه الإسلامي، وتناقضهم مع أنفسهم، إذ يدعون في كل مناسبة التزامهم بالشريعة الإسلامية وتمسكهم بالعزيمة دون الرخصة؛ ولا يرون مع ذلك بأساً من نقل رفاة ميت لهم، على الرغم من مخالفته لآراء جمهور المجتهدين.

إن أسلوب عبد المجيد الخاني في كلماته المنقولة آنفاً ينبئ بكل صراحة: أن نقل الجثمان بعد الدفن، ونقل الرفاة، يجوز في اعتقاد النقشبنديين من غير كراهة، بغض النظر عما لو كان هذا الخبر زعمًا صرفًا لا أصل له، أو توافقًا وصدفةً ليس للواضع علم بحقيقته. كذلك تمّ دلائل قاطعة أخرى على استباحة النقشبنديين نقل الرفاة. منها، قيام الكُفرويين بنقل رفاة كبيرهم عبد الباقي أفندي من منفاه إسطنبول، إلى مدينة بدليس بعد موته بمدة تزيد على أربعين عامًا، وذلك بناءً على موافقة ابنه قسيم الكُفروي؛ ومنها، قيام الأسرة الأرواسية بنقل رفاة الشيخ شهاب الدين وأقاربه من مدينة بدليس إلى قرية غيدة بنواحي قسبة حيزان، وذلك بعد تنفيذ حكم الإعدام فيهم بمدة تزيد على خمسة وأربعين عامًا.

ولذا، نجد مناقضةً صريحةً قد وقع فيها النقشبنديون في كل هذه الأعمال، وقد تضاعفت وتأكّدت وانحدرت عليهم بمسئوليات أخلاقية رهيبه!

كذلك من مناقضاتهم مع أنفسهم، أنهم ينسبون أنواع الكرامات والعلوم والمعارف إلى شيوخهم وأوليائهم، مع ذلك لا علم لهم ولا لجميع مشائخهم المعاصرين بما استقى أسلافهم من البرهية والشامانية وغيرهما من معتقدات شتى، ولا حتى يعلمون شيئاً حول هذه الأديان. ولربما لم يسمع أحد من شيوخهم المعاصرين، خاصة الذين في المنطقة الكردية اسمًا من أسماء الديانات الهندية التي انتقلت معظم آدابها إلى طريقتهم!

ومن هذه الأمثلة: يقول النقشبنديون: إنه «من لا شيخ له يرشده فمرشده الشيطان»⁵⁵⁶ ولكنهم لا يقصدون بكلمة «المرشد» - في هذه المقولة - الأساتذة الذين يدرسون القرآن والفقه والحديث؛ أو الطبّ والحساب والهيئة والتاريخ وما إلى ذلك من علوم عقلية ونقلية بآدابها وشروطها. بل قصدهم من ذلك، هو إقناع كلّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ يستسلم لهم مطلقاً، على أن يسلم لأحدهم عِنايته ثم يتعلّم منه آداب الطريقة، ويسير على نهجهم. ومع هذا، يرون من الواجب على كلّ من يريد الانخراط في سلكهم، أن يتأكد من أمره أولاً بالاستخارة عما إذا كان دخوله في الطريقة خيراً في حقّه أم لا.⁵⁵⁷

و لا شكّ أنّ تخييرهم لطالب الطريقة بهذه الصورة يتعارض (في اعتقادهم) بوجوب اتخاذ الشيخ على كلّ فرد من أفراد الناس بدون استثناء. فقد وقعوا بذلك في تلفيق شديد؛ فضلاً عن أنّهم قد حرفوا معنى الاستخارة بعلم الله في الأمور المشروعة، و بدّلوه بالتكهن، مع أنّ الكهانة محرّم في الإسلام. وهذا تلفيق آخر.

لأنّ الاستخارة، في الحقيقة هي طلب وجوه الخير والتيسير والتوفيق من الله تعالى بالدعاء والتضرّع قبل الإقدام في الأمور المشروعة.⁵⁵⁸ ولا يخفى أنّ المشروعية محدّدة بالمعالم والقيود المنصوصة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم. و لا خيار للمسلم في أداء الفرائض. بل هو ملزمٌ بأدائها على وفق ما جاء في الشريعة المطهّرة، والعبادات في الإسلام كلّها توقيفية. وأما قيامه بنافلة، فلا داعي له بالاستخارة في فعلها أو تركها. إذ أنّه يثاب على فعلها، ولأنّها أصلاً مطلوبة منه على الاستحباب وليس على الوجوب. وفي الإصرار على تركها مخالفة للرسول عليه السلام. فهذا أمر في منتهى البدهة. لذا خرجت أمور الصوفيّة وطقوسهم عن نطاق المشروعية. فهي ليست في حدّ ذاتها من

556 راجع الفاش رقم/53.

557 لمزيد من المعرفة حول اعتقاد النقشبنديين فيما يتعلق بالاستخارة، راجع المصادر التالية:

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ 22. (مجموعة الزمرد العنقاء)؛ 46644 NİM. Z. 297.7 TDV. İSAM.

* أحمد الفاروق السرهندي، المبدأ والمعاد ص/ 15؛

* عبد الله الدهلوي، المكاتب الشريفة، مکتوب رقم/34.

* علي قدری، الرسالة البهائية (ترجمة: رحمة سرين) ص/ 33. إسطنبول-1994م.

558 وهو دعاء خاص كما ورد في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلّها كالسورة من القرآن. يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخرك بعلمك، واستقدر بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم. فانك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم. وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال: عاجل أمري وآجله) فأقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال: عاجل أمري وآجله)؛ فاصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان. ثم رضني به. قال ويسمي حاجته. البخاري، عن محمد بن المنكدر

عن جابر. رقم الحديث/5903

الفرائض، ولا هي من السنن، ولا من المباحات. إذ لا نجد في نصوص الكتاب والسنة أدنى إشارة إلى ما وصفه النقشبنديون من الرابطة، والختمة الحواججانية، وعدّ الأذكار بالحصي، والتركيز على الصورة الفتوغرافية لشيخ الطريقة والتعبّد بالمصطلحات الفارسية (هوش دردم، و نظر برفدم، و سفر دروطن، و خلوت درأنجمن... إلخ). بل هي أشكالٌ مختلفةٌ من التعبّد، اختلقها بعض المتحرّقة من أهل المكر والحيل، باستيحاء من الأديان الوثنية. ثم استحسناها وتقبلها من كان قد نال محبة الناس وثقتهم من جهلة النساك دون رويةٍ حتى راجت وانتشرت بين طائفةٍ ممن تعلّموا شيئاً من مقدمات العلوم فاستعانوا به في الدفاع عنها بطريقة التنطع والتشدّق، ثم تطوّر الأمر هكذا مع الزمان إلى أن اشتهر منهم شيوخ تهافتت عليهم جماهير الناس؛ فسُحرت العيونُ و انبهرت العقولُ بعزّهم وإقبال الناس عليهم؛ فظنّ كلٌّ من وجدهم في تلك الأئمة والعظمة أنّه على حق في كلّ ما يقوله ويفعله.

والأفأمور التي استحدثوها باسم الدين، فأنهم بالذات يقاسون حرجاً شديداً بسبب عزهم عن إثباتها وإقامة أدنى دليل على الربط بينها وبين الدين الإسلامي الحنيف، على الرغم من محاولاتهم ودفاعهم وهجماتهم بشكل مستميت. كما أنّها لا تُعدّ من شؤون الدنيا في الوقت ذاته. كالسفر والتجارة والبناء والزراعة والفنّ والدراسة و ما إليها. وهذا قد أوقعهم في تلفيقات، وأربكهم في مواجهة العلماء وأثّارهم على أهل النصيحة والإصلاح؛ كما تشهد على ذلك مقالاتهم وكتاباتهم و حتى أشعارهم التي تفور بالهجوم والاستنكار واللوم والعتاب على غيرهم.

ومن تليفقات النقشبنديين: فقد ورد في رسالة كتبها خالد البغداديّ إلى أتباعه في إسطنبول، يحذّره من مخالطة عبد الوهاب السوسيّ - الذي مرّ ذكره في ترجمة خالد البغداديّ - يقول فيها:

«فالآن أخبركم بأيّ وجميع رجال السلسلة تبرأنا من عبد الوهاب. فهو مطرود عن الطريقة. فكلّ من تصادق معه لأجل الطريقة، فليترك مُصادقته و مُكاتبته. و إلّا فهو بريء من إمداد هذا الفقير وإمداد السادات الكرام. ولا أرضى أن يكاتبني، وأن يستمدّ همّي بعد وصول هذا المكتوب إليه.»

559

يتبرأ البغدادي من كل من يكون على صلة مع عبد الوهاب السوسي بعد هذا الخطاب؛ كذلك يهدد مردييه: بأن جميع رجال السلسلة أيضاً يتبرؤن ممن يخالف هيمه فيما حذرهم عنه. ومعنى ذلك: إنه اتصل بساداته الذين هم ثمانية وعشرون شخصاً؛ ومنهم من مات قبله بمئات السنين. وربما يصدقه كثير من الناس في ادعائه هذا! غير أنه لا يكتفي بالتبرؤ؛ بل يهدد مخاطبه بأنه بريء من إمداده وإمداد ساداته؛ أي أن من تمادى في اتصاله بعبد الوهاب السوسي؛ حرم من إمداد البغدادي وكذلك من إمداد الثمانية والعشرين شخصاً الذين استخلف بعضهم بعضاً على منصب الرياسة للطريقة النقشبندية بدءاً من أبي بكر الصديق إلى شيخه غلام علي عبد الله الدهلوي؛ وأنه لا يرضى من أحد أن يستمد هيمته إذا دامت علاقته مع خصمه المذكور!

فقد يصدقه أناس في ادعائه هذا أيضاً؛ ولكن خالداً نفسه بالذات، يقول في رسالة أخرى كتبها إلى عبد الله باشا حاكم أيلة عكا:

«أما بعد فقد بلغني مرسومكم الحاوي لشدة الاعتقاد والمبالغة في الاستمداد لطلب الدرية لكم. أما الدعاء، فقد صدر مني مراراً. وأما الهمة، فلست من أهلها».

لا يخفى على القارئ ما يبدو من التعارض بين محتوى الرسالتين في قضية «الهمة». وهي اسم يُطلق على إسعاف يقوم به شيوخ الصوفية في لمح البصر لمن يطلب منهم المدد (حسب اعتقادهم)؛ ويقولون في هذه الفرية: أن الشيخ يُغيث مريده متى استغاثه، ولو كان بينهما بُعد المشرق والمغرب!

فقد وقع البغدادي في تليفق شديد عندما قال في آخر رسالته معتذراً: «ولئن سلّم، فلا تُستعمل الهمة إلا بعد ظهور أن المطلوب قضاء معلق، وإلى الآن ما تبين كون مطلوبنا كذلك، لعمى بصائرنا بسبب البدع والشبهات».⁵⁶⁰ يدل كلام البغدادي على أنه يحاول أن يتخلص بلباقة من سوء ظن المخاطب حتى لا يقع موقع الرجل الكذاب عند من يعدّه من «كبار أولياء الله»، ويعظمه ويحمله معتقداً فيه أنه يعلم الغيب؛ فيتذرع بكثرة البدع والشبهات، وأنها هي الأسباب التي حجبت عن الإطلاع على أسرار الله!

560 أسعد الصاحب، بغية الواجد، ص/ 85، 86؛ عبد الكريم البياري المدرّس، منشورات الجمع العلمي الكرمانى، (تذكار الرجال)، ص/ 54. بغداد-1979م. مستنسخ من قبل مكتبة الحقيقة إسطنبول-1992م. (هذه الرسالة منضمة إلى رسالة

أخرى اسمها مكاتيب شريفة لعبد الله الدهلوي، كالتأها بين دفتين في مجلد واحد.)

لقد بلغت الجرأة في هذا الرجل على رب العزة إلى حدّ، يطرد من يشاء من رحمة الله؛ ويهدّد الناس بأنّه يجرّمهم من مدده إذا استهانوا بما نّاهم عنه؛ ويدّعي في الوقت ذاته أنّ سادته أيضاً متفقون معه في تهديداته! - أولئك السادة الذين لا علاقة لعددٍ منهم بالطريقة النقشبندية بوجه من الوجوه، و لا بالصوفيّة، و لا بشخص البغداديّ بقرينة خاصّة؛ كأبي بكر الصديق، وسلمان الفارسي، وقاسم بن محمّد بن أبي بكر، وجعفر بن محمّد الباقر، وغيرهم - يدّعي البغداديّ أنّ رجال السلسلة جميعاً قد تبرّؤوا معه من عبد الوهّاب السوسيّ - أولئك الرجال الذين لا برهان للبغداديّ أصلاً على وجود كثير منهم، فضلاً عن أنّ البقيّة قد بليتّ رُفأُهم، ولا علم لأحدٍ بأرواحهم أين حُشرت، والعلم عند الله. كذلك لا يدري أحد: من كان منهم سعيداً، ومن كان منهم شقيّاً؛ وأيّهم مات على الكفر، و أيّهم مات على الإيمان. لا يعلم ذلك إلاّ الله الواحد القهار.

بالخلاصة، فإنّ هذا الرجل يرى نفسه قائماً على منصب النيابة عن الله، كما يظهر من عباراته. ويرى أنّه قادر على أن يهَبَ لعبد الله باشا ولدًا، (ولكنه لا يريد أن يستعمل همته إلاّ بعد ظهور المطلوب عما إذا كان قضاءً معلقاً). أي أن المطلوب لم يظهر له بعد، لو كان يتحقّق بشرط معيّن حتّى يُنقذ المشروط فور وجود الشرط.

يظهر لنا خلال هذا النسيج الملبّد من تلافيف الادّعاء والزندقة والكذب على الله: أنّ التعارض والتلفيق الذي وقع فيه البغداديّ في إطلاقه عبّر هذه العبارات، لا ينحصر في وجه معيّن، بل يتعدّد متضاعفاً على وجوهٍ مختلفة قد يُشغِل الباحث إذا دخل في تفاصيلها.

تدعو المناسبة أن نذكر في هذا المعرض كلمات قد سجّلها معصوم الفاروقيّ في مسألة «القيومية» إذ يقول «القيوم في هذا العالم، خليفة الله تعالى، ونائب منابه».⁵⁶¹

ولهذا ليس من الغريب أن يكون خالد البغداديّ قد نصّب نفسه على عرش النيابة عن رب العالمين، ليُطرد من يشاء من الناس من رحمة الله، و ليُمدّد من استغاث به في لمح البصر ولو كان هو في المشرق والمستغيث في المغرب؛ كما ليس من الغريب أن يسيطر بأسلوبه الخاصّ على ضمير من غلبت عاطفته

على عقله، متى استحسَّ البغداديُّ الحرجَ في إقناعه؛ كما مرَّ في جوابه لحاكم عكا: إنَّه لا ينبغي أن يستعملَ همتَهُ، فيَهَبَ له غلامًا زكيًّا، إلَّا بعد أن يطلع على اللوح المحفوظ، هل هناك احتمالٌ يبشِّر بتحقيق مطلوب حضرة الباشا أم لا (!)

ومن تليفقات النقشبنديين وخلطهم، قولُ البغداديِّ: «ولا تزيدوا التكايا عمَّا في عهدي».⁵⁶²

أوصى خالدُ البغداديُّ خُلفاءَهُ بهذه الكلمات وقد اجتمعوا عنده لعيادته وهو على فراش الموت يترقَّب منيَّته يوم أصيب بالطاعون. بينما التكيَّةُ هي مركز الصوفيَّة، ومكان اجتماعهم، ومعبدهم الَّذي يقيمون فيه طقوسهم، ويثَّون منه دعوتهم. فكلِّما ازداد انتشارهم بنوا تكايا أخرى في المناطق الَّتِي تخلو عنها، ليقوموا فيها بنشاطهم سدًّا للحاجة. وهي في نظامهم بمنزلة المسجد عند المسلمين.

لذا يُستغربُ جدًّا أن يمنع خالدُ البغداديُّ خُلفاءه من الإكثار من بناء التكايا وهو في آخر لحظاته من هذه الدنيا. نعم يُستغربُ كلامه هذا، لِتعارضه مع المقصود الَّذي يسعى النقشبنديون من وراء تحقيقه سعيًّا حثيًّا. وقد أعرب عن هذه الغاية خليفتهُ محمد بن عبد الله الخاني بقوله: «لأنَّ هذه الطريقة هي الملامية المناسبة لما يكون عليه من الصحو الصديقي، و الرجوع إلى البقاء الأتم الحقيقي، بدعوة الخلق وهدايتهم إلى الحق برياستي الظاهر والباطن، وفتح القلاع والمواطن».⁵⁶³

إدَّا فما عسى هي الحكمة من هذه الوصية الَّتِي تدلُّ على التراجع والانسحاب من ميدان الدعوة؟! هل تعني أنَّ البغداديَّ شعر بالندامة في لحظاته الأخيرة من حياته، و تاب إليه رشده فتأكد من خطر ما اقتترف على الإسلام وما شارك في تدمير أركانه بنشر طقوس البرهمية وتعاليم اليوغية الَّتِي جاء بها من الهند، ونفخها في عقول الآلاف من البسطاء الَّذين كانوا يعدُّون أنفسهم من المسلمين؛ أم في تلك الوصية الغريبة أسرار أخرى تعجز عن دركها عقولنا اليوم! لا شكَّ في أنَّها سوف تُفشى على رؤوس الأَشهاد يوم التلاق.

562 محمد مطيع الحافظ-نزار أباطة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري ص/ 334. دار الفكر المعاصر؛ بيروت.

TDV.ISAM. 922.97 HAF.T. 29819-1 Istanbul

563 مزيد من المعرفة حول تحليل هذه المقولة راجع الموضوع عن طريق الحاشي رقم/457.

ومن التنازع والتضارب الذي وقع بين أقوال النقشبنديين وأفعالهم: أنهم على الرغم من اشتراطهم الخشوع والصمت أثناء الذكر، فإن كثيراً من مريديهم ودرأويشهم ينطون فجأة من مقاعدتهم، وترجف أبدانهم، وتتصاعد من حناجرهم أصوات غريبة بشعة، تختلف بين شخير وزئير وخوارٍ وعواءٍ وصهيلٍ وهَيِّقٍ ونُعاقٍ وغيرها حتى وهم يصلون. بينما يسكت عن هذا اللغَط ويتغاضى عنه شيوخهم، مع أنهم يشددون على لزوم الصمت والهدوء في جميع الأحوال، كما يؤكد على ذلك ما جاء في آدابهم من أن الذكر القلبي أولى وأفضل من الذكر باللسان.

كذلك جاء في موسوعة لهم: أن أحمد الفاروقي الذي يعظمونه بعنوان «الرباني»، ورد فيه أنه «كان صامتاً في غالب أوقاته مع جلسائه، و لم يكن أحد من المسلمين يُغتاب في مجلسه، و لا يُذكر من عيبٍ فيها لأحدٍ. وتلاميذه كانوا يجلسون عنده في غاية من الخشوع والأدب. وكان هو في منتهى الدرجة من التمكن والهدوء إلى حدٍ من التأثير على تلاميذه، أن جعلهم يمتازون بالسكينة؛ على الرغم من حلمه المتزايد؛ كما لم يصدر منه أيضاً شيء من الوجد والصراخ؛ و لا حتى أثر من تأوّه بصوتٍ يُسمع».⁵⁶⁴

تتميز بتلك الحالات الغريبة خاصةً فرقة منهم في جنوب شرق تركيا. لهم مقرٌ بقرب مدينة آديامان. قيل اعتذر شيخهم مراراً عما تصدر من مريديه من حالات الاضطراب أثناء صلاة الجماعة والحفلات والطقوس. وزعم أنها حالات تعرض لهم دونما اختيار منهم. ولكن الحقيقة غير ذلك. فالواقع، أن هناك جماعة مدسوسة بينهم من رجال المخابرات، هم مكلفون بأعمال الدعاية لهذا الشيخ. ومنهم عدد، مهمتهم التواجد، والتباكي، والتظاهر بتلك الأصوات الغريبة لتهدئة الرعاع السدج من الزائرين، وإثارة الشوق فيهم، على أن لهذا الشيخ تأثيراً عظيماً في قلوب الناس، والشيخ متواطئ في الحقيقة معهم.

و أما التأكد من هذه الحيلة، فليس فيه شيء من الصعوبة على الباحث اللبق المتفتح. ذلك أن الذين يحتفون بهذا الشيخ خاصة، يمتازون عن بقية طبقات الناس في تركيا بعقليتهم البسيطة، ويعانون من الفقر العلمي والثقافي لأن غالبهم من أهل الريف، ومن الطبقة المتواضعة المستضعفة من سكان

الأكوخ بأطراف المدن. أما الرجال المدسوسون في صفوفهم، المكلفون بنشاطاتٍ دعائيةٍ، الذين يقوم عددٌ منهم بإثارة المشاعر، واجتذابها بتلك الأصوات الغريبة، كلهم مثقفون. منهم عدد من الضباط المتقاعدين المتخصّصين في استراتيجية التوجيه والإثارة والتكليف لتسهيل الاستغلال، وفيهم أيضاً عدد من الموظفين المدنيين وعدد من المهنيين.

ومن تليفقات النقشبنديين، ما وقع بين أقوالهم و أفعالهم من خلاف وتعارض وتناقض: وَرَدَ أيضاً في نفس الموسوعة التي مرّ ذكرها آنفاً، أنّ الشيخ طه الهكاريّ أخطر أصحابه بأنّه غير موافق على عمل البناء فوق القبور. ونهاهم عن الإقدام على إقامة أيّ بناء فوق مرقده إذا مات.⁵⁶⁵ ومع هذا نجد الكثيرين منهم يتسابقون في إقامة الأبنية على ضرائح شيوخهم. وعلى سبيل المثال فقد بُنيت قُبَّةٌ عملاقةٌ فحمةٌ على قبر الشيخ محمّد الكُفرويّ بمدينة بديس، وذلك تحت إشراف مهندس إيطاليّ. والكُفرويّ خليفة الشيخ طه الهكاريّ الذي نهى عن البناء على القبور. كذلك بُنيت قبةٌ عظيمةٌ فوق ضريح الشيخ محمّد الحزين الحسيني الهاشمي بقرية فُرساف، من ضواحي مدينة سعرد. وهو قريب الشيخ طه الهكاري في النسب وقرينه في المشرب؛ وقبة على قبر نجله الشيخ فخر الدين في قرية أرينة بالمنطقة نفسها. وتمّ قبور أخرى لمشاخ النقشبندية في مناطق مختلفة من البلاد، مبنية ومزخرفة، يتوافد عليها جموع من الزائرين باستمرار.

ومن تليفقات شيوخ النقشبندية، أنهم ينصحون أتباعهم دائماً بمراعاة جانب التواضع والعفة واللين والتدلل، وهم في عكس ذلك من الأبهة، والإكثار من الخدم والحشم؛ مما يدلّ على حبهم للشهرة والرياسة؛ ويؤكد على ذلك ما جاء في كتبهم من المبالغة والغلوّ والإفراط في تعظيم الخلف للسلف؛ ولكنّ بشاعة الحيلة في تلك العبارات تظهر بثبوت تواطؤهم عليها

وكمثال على ذلك: يسترسل محمّد بن سليمان البغداديّ في مدح شيخه (خالد البغداديّ)، فيقول: «هو (...) العالم العلامة، والعلمُ الفهامة، مالك أزيمة المنطوق والمفهوم، ذو اليد الطولى في العلوم، من صرفٍ ونحوٍ وفقهٍ ومنطقٍ ووضعٍ وعروضٍ ومناظرةٍ وبلاغةٍ وبديعٍ وحكمةٍ وكلامٍ وأصولٍ وحسابٍ وهندسةٍ واصطرابٍ وهيئةٍ وحديثٍ وتصوّفٍ...»⁵⁶⁶

565 المصدر السابق، 18/253.

566 محمد بن سليمان البغداديّ، الحقيقة النبوية في الطريقة النقشبندية ص/42. مكتبة الحقيقة، إسطنبول-1992.

يبدو أنّ مُجداً بن سليمان البغداديّ لم يتعرّف بعدُ على أسماءِ أهمّ العلومِ العقليّةِ من طبِّ واقتصادٍ واجتماعٍ وتاريخٍ وجغرافيةٍ وفيزياءٍ وكيمياءٍ وغيرها من الأساسيات، ليضمّمها إلى ما ذكر من العلومِ التمهيديةِ، أو لم يفتن أصلاً إلى أنّ الأساسيات هي من أشرف العلوم؛ فرآها مما تحطّ من شأن زعيمه، فاكتفى بما هو مقبول في مظنة أهل عصره، ذلك مبلغه من العلم!

يوصل المؤلف امتداحه لشيخه في مواطن عديدة من حديثه، فيقول في مقطع آخر:

«بشّره شيخه ببشارات كشفية قد تحققت بالعيان، وحلّ منه محلّ إنسان العين من الإنسان، مع كثرة تصاغره بالخدم وكسره لدواعي النفس بالرياضات الشاقة وتكليفها خطط العدم؛ فلم تكتمل عليه السنّة حتّى صار الفردَ الكاملَ العلم، والله يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل الأعظم، (...) وشهد له شيخه عند أصحابه، وفي مكاتيبه المرسولة إليه بخطه المبارك بالوصول إلى كمال الولاية وإتمام السلوك العادي مع الرسوخ والدراية، والفناء والبقاء الأتمين المعروفين عند الأولياء...»⁵⁶⁷

نعم لقد تظهر الحيلة أمام عيوننا بكلّ وضوح على أنّهما متواطئان ومشاركان في صياغة هذه العبارات بالدليل القاطع من خلال كلمات محمد بن عبد الله الخائيّ في مقدّمة كتابه البهجة السنيّة، وهذه ألفاظه:

«وأحسن كتاب ألفَ في بيان طريقتنا الخالديّة النقشبنديّة (...)، كتاب الحديقة النديّة الذي ألفه العالم العلامة والحبر البحر الفهامة، سيدي الشيخ محمد بن سليمان البغداديّ الخالدي النقشبنديّ. لأنه ألفه في حياة جناب حضرة سيدنا ومولانا قطب العارفين، وغوث الواصلين، أبي البهاء، ضياء الحق والحقيقة والدين، شيخنا ومرشدنا الشيخ خالد النقشبنديّ المجدديّ (...)؛ حتّى إنّه مرة سألتني:

. ما تقرأ للمريدين؟

فقلت: كتاب الحديقة النديّة.

فقال: هل هي فصيحة العبارة؟

فقلت: لا يكون في الدنيا أفصح منها.

فقال: كلّها من عبارتي.

فتحقق عندي أنّه يجمع العبارات، والشيخ محمّد بن سليمان يرقمها ويعزوها لنفسه.⁵⁶⁸

ومن تليفقات النقشبنديين، كلمات لمحمد بن سليمان البغداديّ أيضاً، يقول فيها: «وبلغنا أن الإمام الشافعيّ رحمته الله، كان يجالس الصوفيّة كثيراً؛ ويقول يحتاج الفقيه إلى معرفة اصطلاح الصوفيّة، ليفيدوه من العلم ما لم يكن عنده.»⁵⁶⁹ بينما جاء في تلبيس إبليس لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي عكس ما ورد في العبارات المنقولة آنفاً. فيقول ابن الجوزي: «وبإسناد عن يونس بن عبد الأعلى، قال سمعتُ الشافعيّ يقول: «لو أن رجلاً تصوّف أوّل النهار، لا يأتي الظهر حتّى يصير أحمق»⁵⁷⁰ وعنه أيضاً أنّه قال: «ما لزم أحد الصوفيّة أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً.»⁵⁷¹ فلا بد وأنّ أحدهما صادق والآخر كاذبٌ فيما نسب كل واحدٍ منهما إلى الإمام الشافعي من ألفاظٍ نقلناها آنفاً. ولكنّ ابن الجوزيّ الذي تُوفّي عام 597 من الهجرة، هو أقدم من محمّد بن سليمان البغداديّ الذي توفّي سنة 1234هـ. وبالتالي هو أقرب إلى الصواب في دعواه، باعتبار أنّه عالم معتبرٌ ومعتزّفٌ به بين سائر علماء الإسلام منذ عهده إلى اليوم. وهناك تليفقات أخرى مرتبطة بهذا، تُضاعفُ ما وقع فيه النقشبنديّون من التعارض مع أنفسهم، والارتباك الشديد الذي انزلت به أقدامهم. ذلك أنّهم يعظّمون أبا الفرج، ويعترفون بفضله. ولا يُتوقّع أن يرميه أحدهم بالكذب. والدليل على ذلك ترجمته الواردة في موسوعة النقشبنديّين. فقد أطب الكاتب في عدّ فضائله؛ ونقل عنه أنّه خطّ بيمينه أسفاراً يبلغ عددها ألفين؛ وأنه أسلم على يده من اليهود والنصارى أكثر من عشرين ألف شخص.⁵⁷²

568 محمّد بن عبد الله الحايي، الهجة السنّة في آداب الطريقة النقشبندية ص/3.

569 محمّد بن سليمان البغدادي، الحديقة النديّة في الطريقة النقشبندية ص/23. مكتبة الحقيقة، إسطنبول-1992.

570 لعن بعض الأتراك للشافعيين، ناشيء من قول الشافعي هذا. وهناك سبب آخر هذه الكراهية: وهو أنّ غالب الشافعيين في تركيا هم عناصر كردية وعربية؛ أما الأتراك، فاهم يستوحشون من غير بني جلدتهم. وكذلك الأفغانيون المنعصوبون لمذهب أبي حنيفة، يستقدرون الشافعية ويعذونهم من الأنجاس! هذا على الرغم من أنّ غالب سكان تركيا وأفغانستان. سواء الشافعية منهم والأحناف. ينتمون إلى طرق صوفية؛ بل وأكثرهم نقشبنديون! وما أدل هذا القوضى على جهل الأعجام الذين لم يتذوقوا حلاوة الإيمان، ولا أصابوا بحظّ من الذوق السليم والإحساس بجمال الإسلام وعظمته وفهم حقائقه من قديم الزمان.

571 * أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس ص/371. مكتبة الشرق الجديد، بغداد بلا تاريخ.

ولهذا فإن النقشبنديين الذين يوافقون محمداً بن سليمان البغدادي، كلهم مسئولون عما قد نسب إلى الشافعي من تلك الألفاظ المنقولة في كتابه الحديقة النديّة؛ وكذلك مسئولون عن إثبات الصحة لهذا الإسناد حتى يتميّز الصادق من الكاذب؛ وإلا وقعوا معه موقع المشارك فيما قال. وأما الذين لا يوافقونه فإنهم يكذبونه حكماً، ويكون موقفهم في مقام الإعلان بتكذيب شيخ من كبار الروحانيين في الطريقة التي يشملهم الانتساب إليها معه، وبالتالي يكذبون أنفسهم في الوقت ذاته. وهذا تلفيق شنيع تدهش منه العقول!

ومن المفتريات التي شاعت على لسان المتصوفة عامّة والنقشبنديين خاصّة، قولهم عن الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ تَصَوَّفَ وَلَمْ يَتَفَقَّهُ فَقَدْ تَفَسَّقَ، وَمَنْ تَفَقَّهُ وَلَمْ يَتَصَوَّفَ فَقَدْ تَزَنَّدَقَ». بينما الإمام مالك رضي الله عنه بريء من هذه المقولة. كذلك كتابه الموطأ خال منها. فقد نسبها له العدوي في حاشيته على شرح الزرقاني لمختصر العزية في الفقه المالكي، ولم يرد على لسان الثقات من أهل العلم والبحث ما يفيد صحة نسبة هذه المقولة للإمام رحمه الله، ومما يدل على عدم صحة نسبتها إليه أيضاً، أن لفظ التصوف لم يكن معروفاً في القرن الأوّل.

ومن تلفيقاتهم؛ كلمة قالها أحمد الفاروقي تحديداً عن رأيه وعقيدته في مسألة وحدة الوجود. قال: «ثم وجدته تعالى في الأشياء، بل في نفسي»؛ بعد أن قال «وجدتُ الله عين الأشياء»⁵⁷³

فإن كلمة «تعالى» الواردة في عبارته على سبيل التنزيه لله، تتعارض مع ما يعتقد به أنّ الله عين كل شيء. لأنّ الله سبحانه إذا كان عين كل شيء في اعتقاد الفاروقي، فليس «كل شيء» يستحقّ التنزيه من النواقص. إذ يشتملُ تعبير «كل شيء» على الشريف والحسيس؛ وعلى الطاهر والنجس، وعلى الكلب والخنزير اشتمالاً عامّاً؛ وبالتالي تكون الأقدارُ والنجاسات والقمامة وحتى الكلابُ والوحوش بتمامها من جملة «كل شيء».

إذن فما عسى الحكمة من استعمال الفاروقي كلمة «تعالى» إذا كان قد أراد بها أن ينزه الله عن النواقص فيميّزه عن سائر خلقه بهذه الصيغة الملققة؟!

ومن التعارض الذي يتخبط فيه النقشبنديون، مناقشتهم حول جواز أكل اللحم.

لقد وردت في إحدى رسائل خالد البغدادي عبارة استفهامية على سبيل الإنكار يردّ بها على من يعتقد أو يتوهم حرمة أكل اللحم.

يقول البغداديّ فيها باللغة الفارسيّة:

«آيا كدام كتاب ديده اند كه پيغمبر خدا صلى الله عليه وسلم كوشت نخورده، و يا از خوردنش نهي فرموده باشند؟!»⁵⁷⁴
ومعناه بالعربيّة:

«ويحك! في أي كتاب شاهدوا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأكل اللحم، أو نهي عن أكله؟!»

قد يترأى للقارئ في هذا الاستنكار الحماسي أنّ خالدًا يردّ على متطرّفٍ يحرم ما قد أحله الله. ولكن الحقيقة غامضة في هذا الحوار. إذ قد يكون خالدٌ يستعمل لباقته في مثل هذه العبارة ليزيل الشكوك حول ما تتناقله اللُّسُن من آثار الديانة البوذية في سلوك بعض الروحانيين السابقين من شيوخ النقشبندية مثل كراهية أكل اللحم وغيرها.

ومن أشد نماذج الخلاف والتعارض بين أقوال النقشبنديين و أفعالهم: أنّهم في الوقت الذي يتبرءون من البدع ويستبشعونها ويحدّرون منها حتّى أحياناً بدون مناسبة؛ تراهم يتعبّدون بأشكال غريبة لا تمتّ إلى الإسلام بأدنى صِلَةٍ، كما سبق شرحها بالتفصيل. ومع هذا يأتون ببدعٍ أخرى غريبة، بحيث يختلفون فيها حتّى مع بعضهم البعض.

منها أنّ طائفةً من هذه النحلة بمدينة سعرد، إذا مات شيخٌ من شيوخهم ضربوا على الدفوف أمام جنازته أثناء التشييع من المصلّى إلى المقبرة. وآخرٌ من أقيمت هذه الحفلة أثناء تشييع جنازته، الشيخ محمد موسى الكاظم الحزيني. وهو من أحفاد الشيخ محمد الحزين الفرساني الهاشمي⁵⁷⁵

574 عبد الكريم الباري المدرّس، منشورات الجمع العلمي الكرمانى - تنكار الرجال - الجزء الأول ص/26. (الصورة المستسخة من قبل مكتبة الحقيقة، والمطبوعة مع رسالة الخلد الثالث ومكاتب شريفة ضمن مجلد واحد). إسطنبول-1992م.

والغريب، أنّ البقيّة من شيوخ هذه الطريقة لا يوافقونهم على هذه البدعة. بل الغالب من أولئك يجهلونها تماماً، ولا علم لهم بهذه العادة، لخمولهم وانعزالهم وسوء مستواهم الاجتماعيّ، وقلة اهتمامهم بما يجري حتّى في بعض المناطق من بلادهم. و لو أنّ شيوخ الأتراك النقشبنديّين، بلغهم خبر هذه البدعة لربما اتّهموهم بالكفر والزندقة. وهذا أيضاً يدلّ على الشقّة البعيدة بين جماعات النقشبنديّين، وعلى مدى التعارض والتناقض بين عاداتهم واتّجاهاتهم و معتقداتهم.

إنّ هذه البدعة تبرهن في حدّ ذاتها على مخالفةٍ أخرى يقترفونها ضمناً. وذلك لا بدّ أنّهم يعتقدون بفضل الشيخ على سائر الناس، وأنّه أكرمهم عند الله رجماً بالغيب؛ فيرونه مستحقاً للتعظيم بشكل مخصوص حتّى بعد موته. وهو القيام بإجراء الحفلة الخاصّة للتشيع، والضرب على الدفوف من المصلّى إلى المقبرة. فإنّ توقير جموع المريدين وتعظيمهم لشيوخهم بهذه الصورة خاصّة دون غيره، يدلّ دلالةً قطعيةً على هذا الاعتقاد الذي يُنبئ عن دعوى بعضهم أنّه يعلم من هو أكرم عند الله، وإنّ لم يفصح عن هذه الحقيقة احترازاً من ردّ فعلٍ قد يصطدم به.

كذلك ثمة بدعة أخرى يمارسها النقشبنديّون الأكراد في المنطقة الشرقية، بينما يجهلها النقشبنديّون الأتراك. إذ لا يمكن أن يسكنوا عنها لو قرع خبرها سمعهم. ألا وهي أنّ شيوخ النقشبندية في المنطقة الكردية يستعملون الدخان داخل المساجد على غرار الرافضة الإيرانيّين؛ وربما بتأثير الجوار. هذه العادة المُنكرة كانت منتشرة في القرى دون المدن حتّى السنين الأخيرة. لأنّ الرقابة كانت مقتصرة على المساجد في المدن. وكان أهالي القرى يخضعون لهيمنة شيوخ هذه الطائفة. فلم يملك هناك أحدٌ جرأة الاعتراض عليهم بحكم الظروف. إلا أنّ البدعة المذكورة قد اختفت في معظم أنحاء المنطقة بعد سهولة الرقابة عليها.

575 رآه الشيخ زكي أوران وهو شخص من مرهديه بهذه الكلمات:

زر ذا المقام فيه شيخ كامل من في الكروب لنا عليه معول * نجل الحزين الشيخ محمد كاظم من فضله في الناس ليس يجهل

وآذنين بحضوره وتوسلتن به فالنوسل عند ربه يقبل * يا ربنا غمده ملك برحمة واجعل له الجنات فيها يرقل

فلنعمما قد جاء في تاريخ قبته الشريفة إذ تزان فنكمل * واجعل مكانه ربنا الفردوس في دار البقاء بأوي إليه ويجزل.

يتضح من خلال هذه الأمثلة التي هي قطرة من بحر، أنّ التلفيق والتعارض والتضارب الذي تتمرغ فيها الطائفة النقشبندية لا حصر لها في واقع الأمر.

* أمثلة من معاداة النقشبنديين فيما بينهم، ومناهضتهم وتباغضهم
وتشنيع بعضهم البعض...

لقد وقع النزاع والمنافرة بين كثير من شيوخ هذه الطائفة قديماً وحديثاً؛ فضلاً عما قد جرت بين متأخريهم والمعاصرين منهم من مشاحنات ومشاتمات يعفّ اللسان عن نقلها. وإنما طرقنا هذا الجانب من سلوكهم لعلاقته الملحة بهذه الدراسة من باب التكملة، وليكون عبرة لأولي الألباب. فغدت براهين قاطعة، على أن الصورة الحقيقية لغالب مشائخ هذه النحلة تنوارى خلف صورة عابرة، تظهر للناس لطيفة، نورانية مُشرقة على خلاف الواقع تماماً.

كذلك استفزازاتهم وهجماتهم على المعترضين بإطلاق صفة «المنكّر» على كلّ من ينصحهم أو يحذّر المسلمين من البدع؛ واعتدائهم على المعارضين بإحراق مؤلفاتهم، تدلّ على الحقد الذي يُضمرونه لمن لا يستسلم لهم.

لقد مرّت في ترجمة خالد البغداديّ نُبذة من قصّته مع زميله أو خليفته عبد الوهّاب السوسيّ الذي كان هو الآخر نقشبديّ المشرب، مأذوناً من غلام على عبد الله الدهلويّ. ولكن لا ندري ما الذي جعله ينوب عن خالد البغداديّ في بثّ طريقته حتّى اندلعت بينهما معركة ضارية انتهت بتدخّل السلطان العثمانيّ، وإصدار الحُكم على عبد الوهّاب السوسيّ بالإقامة الجبرية في المدينة المنورة. ولكن الذي يدلّ على مدى حقد النقشبنديين على بعضهم البعض في هذه الحرب الشعواء، هو عاقبة تلك

الرسالة التي يزعمها الخالديون أنّ عبد الوهّاب السوسيّ كتبها وأنّهم فيها خالدًا بالشعوذة والكفر والزندقة.

إذاً لم تقتصر مناهضة البغداديّ للسوسيّ على تلك الرسائل الثلاثة التي بعثها إلى مريديه بإسطنبول، والتي حدّتهم فيها من مخالطته. بل يبدو أنّ تلك الهجمات بلغت من الشدة إلى حدّ دفعت الخالديين ليسحقوا بالسوسيّ فيجعلوه هشيماً تذروه الرياح. والله يعلم ماذا فعلوا به وبكلّ ما كتبه؛ ولربما دمّروا قبره بفرصة ملكوها فور موته، قبل أن يدّمّره الوهّابيون! بينما قبر خالد البغداديّ مشيّدٌ «في سفح قاسيون» بدمشق، يزوره كثير من النقشبنديين.

ولكن الذي يجب أن نقوله في النهاية: هو أنّنا لم نعثر حتّى على حرف واحد من رسالة عبد الوهّاب السوسيّ، رغم ما بذلنا من جهود بالغة طوال مدة أكثر من خمسة أعوام نظارد ورائها بسعي دؤبٍ من مكتبة إلى أخرى في بلدان الشرق الأوسط، إلّا السطور اليسيرة التي نقلها ابن عابدين ضمن رسالته «سل الحسام الهنديّ لنصرة مولانا خالد النقشبندي»⁵⁷⁶

كذلك عثرنا على رسالة أسمها «عين الحقيقة في رابطة الطريقة» لرجلٍ تولى الإفناء بمدينة أدرنه في أواخر العهد العثمانيّ وهو محمد فوزي - على ما يبدو من إقراره في الديباجة-؛ كتبها باللّغة التركيّة العثمانيّة، وتصدّى فيها للردّ على شخصٍ لم يذكر اسمه، ولا عنوان كتابه الذي أصدره في الردّ على الرابطة سوى ما نقل منه المفتي سطوراً يسيرةً.

لعلّ ما فعل النقشبنديون بعبد الوهّاب السوسيّ، فعلوا بهذا الرجل أيضاً، حتّى بقي اسمه مجهولاً لم تصل إلينا أخباره، ولا حتّى صفحة واحدة من كتابه، ولا وقف أحدٌ على ما قد تعرّض له من سوء عاقبة!

كذلك الأسرتان الأرواسيّة والكُفروبيّة، نشبت الفتنة بينهما في استغلال شهرة الشيخ طه الهكاريّ منذ أواسط القرن الماضي، ودامت حتّى يومنا هذا؛ كما مرّت قصتهما بالتفصيل.

ولقد اشتدَّ الحقدُ والعداوةُ بينهما إلى حدود، كان يرمي كلٌّ منهما الآخر بالكفر والزندقة والنفاق والدجل. بينما كانت جماعات الأكراد التابعة لكلٍّ من الأسرتين، تعظّمها وتصف أفرادها بالعصمة من الذنوب، وأنهم أولياء الله وصفوة عباده. فكم سمعنا بأذناننا من مرديهم يقولون «لو وجدنا كأس الخمر بيد أحد من أولاد مولانا الشيخ، لاعتقدنا بأن الله قد أحلّ ذلك له خاصة، أو أحاله إلى ماء زمزم!»

لما بلغت الخصومة حدّها بين الأسرتين المذكورتين، تعدّت بالتأثير إلى جماعة كلٍّ منهما بحكم الانتماء. فتسلسلت وسرت العداوة بين طبقات الناس واستمرت عبر الأجيال، فكانت أحياناً تتطوّر إلى نقاشٍ وقاتلٍ في بعض المناطق. و مما يُدهش الإنسان من هذه الأحداث: أنّ أتباع الأسرة الكُفروية إذا علموا بدخول شخص من مردي الأسرة الأرواسية إلى مسجد بمنطقتهم، وقد صلّى فيه ومضى؛ . إن لم يكونوا قد تمكّنوا من منعه . أخرجوا جميع ما فيه من البساط والسجادات، وغسلوها تطهيراً على أنّها تنجّست بدخوله!

كما لا نعتز حتى على اسمٍ واحدٍ من كبار الأسرة الكُفروية في الموسوعة التي أعدّها النقشبنديون من جماعة الأرواسيين، بإشراف عقيد متقاعد سبق ذكره أكثر من مرة للمناسبة. لم يقفوا منهم هذا الموقف السلبى، ولم يهملوا أسماء مشاهيرهم إلا على سبيل النعمة منهم والازدراء بهم، على أنّهم ليسوا من أهل الصفاء والعرفان و الإرشاد إلى الطريقة النقشبندية.

ومن نماذج التباغض بين النقشبنديين، أنّ مشائخ الأسرة الأرواسية وأتباعهم من التاغيين الأكراد إذا علموا أنّ شخصاً من مردي الشيخ محمّد الحزين الهاشمي قد حضر ليشترك في حلقة الذكر معهم، رفضوه وأمروه بالخروج من الحلقة بحجة أنّه غير طاهر، وأنّ توبته غير مقبولة وبيعته غير صحيحة.

ذلك أنّ الشيخ محمّد الحزين كان قد ألغى عددًا من آداب النقشبندية. منها، عدّ ألفاظ الورد بالحصى. كان قد أجاز لمريديه أن يعدّوا أورادهم بالمسبحة ومن غير تحديد؛ وكذلك لم يأمر أحدًا بالإغتسال خاصّة عند أخذ البيعة منه إذا كان طاهرًا من الحدث الأكبر والأصغر بخلاف مشائخ الأكراد؛ فحملهم ذلك على بغضه واحتقارهم لمريديه؛ كما كان هو الآخر لا يعترف بهم.

هذا وقد ظهر منذ سنين قليلة رجلٌ بمدينة ساكاريا اسمه (عمر أُونْكَوْت)، واشتهر بين جماعةٍ في تلك المنطقة بصفة شيخٍ مَأْذُونٍ في الطريقة النقشبندية، قام بشنِّ هجومٍ رهيبٍ على جميع شيوخ هذه الطائفة المشهورين اليوم في تركيا.

التقتُ حولَ هذا الرجل جماعةً من الشباب العصبيين فتمكّن من الهيمنة على أدمغتهم وضمائرهم، فأكبوا على كتابة كلِّ ما نطق به. فصدر له عددٌ كبيرٌ من رسائلٍ وكتيباتٍ بمساعدتهم؛ كلُّها مشحونةٌ بآهاتٍ رهيبَةٍ وشتائمٍ بذيئةٍ ينبو عنها السمع. وجهها إلى عددٍ من شيوخ النقشبندية.

منها، - على وجه الخصوص - رسالةٌ أصدرها تحت عنوان «حقيقة السليمانيين»⁵⁷⁷ وهم أتباع «سُلَيْمَانِ حَلْمِي طُونَاخَانَ». استعمل فيها لهجةً شديدةً، اتهم الطائفةَ خِلالَهَا على نحوٍ متواصلٍ بِغَضَبِ أموالِ النَّاسِ وارتكابِ سلسلةٍ من الجرائم والجنايات ورماهم بالكفر والفسق!

وَرَدَ على غلاف هذه الرسالة من آهاتِهِ الْمُوجَّهَةِ إلى الطائفة المذكورة بالحرف الواحد: «أَنْ دِينَهُمْ دِينَارُهُمْ، وَخُلُقُهُمْ غَضْبُ أموالِ النَّاسِ، وَدَأْبُهُمْ التَّكْفُفُ والتَّسَوُّلُ...». ومن كلماتِهِ الَّتِي شَنَّ بِهَا على رئيسِ الطائفة، وزوجِ ابنةِ سُلَيْمَانِ حَلْمِي، (الحامي كمال قاجار)، قوله: «يُظْهَرُ من ألفاظِ السليمانيين أَنَّهُمْ قد جعلوا من هذا الكافر الأحمر صنمًا يعبدونه!»⁵⁷⁸

استعمل (عمر أُونْكَوْت) الأسلوبَ نَفْسَهُ في حقِّ كلِّ مَنْ محمود أفندي (رئيسِ النقشبنديين من أبناءِ منطقةِ لازستان)، ورئيسِ جماعةِ النور، ونجم الدين أرباكان (رئيسِ الوزراءِ الأسبق)، وجمال الدين قبلان الذي أعلن الحرب على النظام اليهوديِّ الحاكم في تركيا بعد أن انتقل إلى ألمانيا ونادى بقيام «دولة الخلافة»(!)

أمَّا الدعاوي الَّتِي قد رُفِعَتْ ضدَّ (عمر أُونْكَوْت) من قِبَلِ جهاتٍ وأشخاصٍ مختلفةٍ إلى المحاكم التركية حتى الآن، فقد انتهت كلها ببرائته، على الرغم من تهوراتهِ وشتائمِهِ وتهديداته. وهذا يدلُّ

بصورةٍ قطعيةٍ على أنه مدعوم من قِبَلِ جهازٍ مخصوصٍ لضرب النقشبنديين بعضهم في بعضٍ. بل يهدف الأمر فوق هذا إلى التحقُّق من موقف المسلمين في الوقت ذاته!

هكذا استمرَّ التباغض والتنافر بين الطرفين، كما وقعت منازعاتٌ شديدةٌ بين عددٍ آخر من شيوخ هذه الطائفة على الرغم من وحدة كلمتهم في تعظيم هذه الطريقة والدعوة إليها.

* أسلوب المعارضة عند النقشبنديين.

لقد وردت في كتب النقشبنديين عباراتٌ هاجموا بها مَنْ خالفهم في أقلِّ شيءٍ مما أقرُّوه فضلاً عن ردِّ عليهم وناهضهم. إنَّ تلك العبارات قد بلغت من الشدَّة أقصاها في بعض المواطنين، وتجاوزت حدودَ النقد العلميِّ إلى ما يتعفَّف اللسان من نقله من كلمات جارحة تختلف بين لوم وعتاب وطعن وشم مُقذعٍ وسبِّ ماجنٍ.

يبدو مما قد صرفوه بألسنتهم وأقلامهم من هذا القبيل، أنَّ أحدهم إذا أراد أن ينال من خصمه أطلق القيود، وقذف ما في صدره من كلِّ ضغينةٍ على وجه التعميم، وأطفأ غلَّتته على حسب إتقانه من فنون الطعن والنكير، وعدَّ المثالب، والمساس بالكرامة ما يحمرُّ له وجه الجسور!

وعلى سبيل المثال: يتخيَّل محمَّد بن سليمان البغداديُّ معشراً من الناس - سماهم المتفكِّهة في المذاهب - فتحامل عليهم بعد أن استثنى الفقهاء منهم ليررَّ بذلك حجَّتَه وحتى لا يُرْمَى بعموم التعدي على العلماء، بينما هو في صدد الرمي بكلِّ من لا يوافق الصوفيَّة كما يبدو من سابق عباراته، ولربما كان يلاحظ خصمه بالذات في ذهنه إذ هو يرقم هذه الكلمات، فيقول:

«فانَّ المتفكِّهة قاصرون، ومرادهم أن يُعرَفوا بين الناس بالعلم والفقهِ لأجل أغراضٍ شيطانيةٍ يريدون إنفاذها، وشهواتٍ نفسانيةٍ يحاولون إيجادها؛ فيضطرُّ بهم الأمر إلى التفتيش عن عيوب الناس، فكيف يؤوِّلون شيئاً مقصودهم التفتيش عليه. ومتى ظفروا بوجهٍ فاسدٍ في حال إنسانٍ، فكأنَّما ظفروا بملك الدنيا...»⁵⁷⁹

ثم ينهال على هؤلاء الخصوم الخياليين بالدعاء فيقول: «خذلهم الله وأذلهم إن لم يكن لهم نصيب من الهداية والتوفيق.»⁵⁸⁰

اعتاد النقشبنديون إطلاق كلمة «المنكر» على كل من رأوا فيه شيئاً من مخالفتهم، فتكرّر وتضاعف استعمالهم لهذه الكلمة وما صاحبها من عباراتٍ لاذعة حتى اجتمعت، فتكون منها ركّامٌ ضخّمٌ بحيث يناسب أن يعبر عنه بأدب الشتم والتهكّم في أسلوب المعارضة عند النقشبنديين؛ وهذه أمثلة منها:

قال صاحب الحديقة النديّة الأنف ذكره في صدد الدفاع عن: خالد البغدادي :

«فأنكر عليه بعض من لا خلاق لهم، لِمَا أَنَّ سُوقَهُم بِيضَانِعَهُ الْغَزِيرَةَ كَسَد، فَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ أَصْلَ الطَّرِيقَةِ وَقَالَ لَا شَيْءَ يُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مَا لَدِينَا مِنْ ظَوَاهِرِ الْفَقْهِ وَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ السَّلْفِيَةِ...»⁵⁸¹

وقال أيضاً «فسبحان من جعل المحاسن مساوياً، والمساوي محاسناً في أعين المنكرين أهل الغرور.»⁵⁸²

وقال ناقلاً عن عبد الغني النابلسي من بحثٍ يتعلّق بالجذبة، فقال «وهي حالة شريفة وإن أنكرها كثير من المتفكّهة القاصرين في الزمان لبعدها عنهم من قسوة قلوبهم...»⁵⁸³

وقال أيضاً «إن شيخنا (...) كيف قطع منازل السلوك، ووصل إلى حدّ الإرشاد والتسليك إلى ملك الملوك برحلته الهندية الكاملة بثلاث سنين، مع أنّ كثيراً من الأولياء لم يقطعها بستين. فنقول ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء، ولا حَجَرَ عَلَى الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ الْخَارِجِ عَنْ حَيْطَةِ عَقُولِ الْعُقَلَاءِ؛ فليت شعري ما يقول هذا المنكر في وصول من وصل إلى الكمال بأقلّ من يوم.»⁵⁸⁴

580 المصدر السابق ص/97.

581 المصدر السابق ص/5.

582 المصدر السابق ص/100.

583 المصدر السابق ص/104.

584 المصدر السابق ص/109.

إنَّ قائل هذه الكلمات (محمّد بن سليمان البغداديّ) هو من كبار خلفاء خالد البغداديّ، إنّه يتعجّب كيف اكتملت رحلة شيخه إلى الله في ظرف ثلاث سنين بعد وصوله إلى الهند. لأنّ هذه المدة في نظره قصيرة جدًّا غير كافية «لقطع منازل السلوك». ولذلك يدّعي «أنّ كثيرًا من الأولياء لم يقطعها في ستين عامًا»

يتصوّر هذا الصوّفي الجاهل أولاً وبإيمانٍ عميقٍ: أنّ شيخه «قطع منازل السلوك في مدّة ثلاث سنين»، ولا شكّ في أنّه يقصد بذلك «وُضِلَّهُ إلى الله»؛ فيبرهن كلامه هذا بوضوحٍ على أنّه حلويّ، ولكنّه عادّ يوارى غرضه في طيّ كلماته بقوله: «ووصل إلى حدّ الإرشاد والتسليك»، حتّى لا يُرمَى بالحُلُولِيَّةِ مباشرةً، بينما قياسه سرعة شيخه بالمقارنة بينه وبين كثير من الأولياء: «أنهم لا يقطعونها في ستين عامًا»، قد فضّحه ولم يترك له أثرًا خافيا من حيلته فيما تبنّاه من إسرارِ حُلُولِيَّتِهِ. ثانيًا: اتّخذ القياسَ الزمّنيّ بعدد (السنين) في سرعة الانتقالِ عبر «منازل السلوك»، بينما هذا القياسُ وتعبير: «منازل السلوك» من الأمور الغريبة على الإسلام في الحين الذي يخالف العقل والمنطق الإنسانيّ، ولا يُعتد به في ميزان العلم.

أمّا وإذا كان القصدُ المسافة بين العراق والهند: فيُحبّد لو بعث الله هذا الرجل من قبره فوقف برهنةً على إمكانات هذا العصر، ثم وجد الناس على اختلاف أجناسهم ودياناتهم بما فيهم من الكفار والمشركين والزنادقة والمنافقين والفجرة والجرمين، كيف يقطعون اليوم أضعاف مسافات ما بين العراق والهند، بل وكيف ينفذون من أقطار السماوات والأرض في ساعات معدودات؛ لا نبهر وطاش عقله، ولتصيّب جبينه عرفًا مما سجّل في حديقته من تلك الألفاظ التي لم يعد لها أيُّ حكمٍ وقيمةٍ في هذه الأيام! ولربما أعاد النظر في تحامله على ذلك المنكرِ الخياليّ الذي نسب إليه إنكارَ وصول بعض الأولياء إلى درجة الكمال عند الله بأقلّ من يوم، ولاستبانة له حقيقة شيخه الذي نفخ هو بالذات هذه الأفكار في عقله وأملى عليه كتاب الحديقة النديّة كما جاء في كتاب البهجة السنيّة لمحمد بن عبد الله الخانيّ.

قال الخانيّ في كتابه المذكور:

«لما كان كتابُ الحديقة المذكور موضوعاً لإثبات وجود تعلُّم علم الباطن، وإثبات فضيلة الطريقة النقشبندية، ولدفع شبه المنكرين من أهل الحسد على حضرة شيخنا (...) كان في أخذ الآداب منها صعوبة على المبتدئ والآن والله الحمد تقرر الطريق وانخذل أهل الحسد والعناد والتعويق.»⁵⁸⁵

قال حفيده عبد المجيد الخاني وهو يشرح قصة المعارضين لخالد البغدادي وقد أفرد لها بحثاً تحت عنوان «فساد الحساد»، قال فيه «فلم يقابل (أي خالد البغدادي) صنيعهم الشنيع إلا بالدعاء لهم وحسن الصنيع؛ فلم تحبُّ نازهم، وما زاد إلا شرهم وشرارهم.»

«كلّ العداوة قد ترجى إزالتها * إلا عداوة من عاداك من حسد.»

ثم قال:

«فألف بعض المعروفين (يقصد معروف البرزنجي) من المنكرين الذي تولى البهتان كبيراً وغروراً، رسالةً ملئت منكراً من القول وزوراً... إلخ.»⁵⁸⁶

وجاءت في موضع آخر كلمات له من نفس البحث يقصد بها عبد الوهاب السوسي وجماعته، وكأنّ شرارات الغضب تطير من قلمه؛ فقال:

«ولققوا من قول الزور والبهتان رسالةً بتكفيره لما زعموا من أنه يدّعي رؤية الجنّ، وأرسلوها إلى دمشق مع أحد هوامّ الأكراد العوامّ يقال له إسماعيل الزلزومي. فلما وصل إليها توّسل بعض خدم الشيخ بكلّ وسيلة جميلة، واستحضرها لحضرته الجليلة ليظهر عليها. فطار خبرها إلى والي الشام، فأمر بتشهيره في البلدة وتعزيره، فمروا به وهو كذلك من تحت قصر الشيخ (...). فحانت منه إلى الطريق نظرةً، فأمر بتحويله إلى رحابه، وتطهيره وتحويله حلةً من ثيابه، وأدناه منه، فقَبِل الرجلُ رجُلَهُ، فعفاه.»⁵⁸⁷

585 محمد بن عبد الله الخاني، بهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية ص/ 3. للمناسبة راجع الهامش/472.

586 عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص/ 231.

587 المصدر السابق ص/233.

لقد سرى تأثير أدب الشتم والتشنيع من كبار النقشبنديين إلى أدنى بسطائهم؛ إذ قد ترى مَنْ نصب نفسه على كرسيّ المشيخة من أوغادهم وأراذلهم؛ تراه يتجرأ على تحرير الرسائل وبيعها إلى من اغترّ به وبنفس الأسلوب، تقليدًا بخالد البغداديّ، وحتى بتكرار بعض ألفاظه التي اعتاد على استعمالها!

منهم رجل اسمه سليمان زُهدي، ينهال على شخص من أتباعه ويهدّده برسالةٍ نقلناها فيما يلي بالمناسبة كمثال على شخصيّة الكاتب بما تحوي بين تضاعيفها من ألوان الجهل بالأداب والقواعد؛ ونترك الحكم للقارئ على ما جاء في عباراته الواهية من عيوب لغوية وإنشائية وقصور بلاغية وسقطات أخلاقية وما يعترّ بها من مظاهر الخروج على الإسلام بوجه عام.

وهذا نص ما سجّله الرجل بحذافيره دون أدنى تصرّف فيه:

«يا أخينا قد أقيمت في مكة المكرمة وحضرت حلقة السادات الكرام وختم خُوجَاكُانُ والتوجّهات عندنا ولكن ما حصل منك الدوام وكثرة اشتغال الذكر مثل سائر الاخوان وقلة المبالاة منك في آداب الطريقة العلية وصار ذلك سببا لتركك حلقة السادات عندنا ووصولك الى المنكرين والمطرودين عن طريقتنا والمتشيخين المرتسمين في مكة المكرمة ثم اعطى المتشيخ المطرود الاجازة ثم وصلت على بلاد جاوى وكنت تريد التشيخ مثله وتؤذي على اهل الحق والاستقامة وهذا الفعل منك لا يرضي الله ولا رسوله ولا سادات الطريقة العلية وكنت ضالا ومضلا على الناس كما كان المتشيخين المطرودين هنا لولا وصولك اولا عندنا فما بينت لك هذه النصيحة. والامام الذي اخذ طريقة التشيخ من عند المتشيخين ولا انصح له فانه بعيد عنا لا نعرفه ولا يعرفنا لان الباطل لا يسعد والحسود لا يسود والواجب عليك التوبة النصوحة عما فعلت والرجوع عما جرى والدخول الى طريقة التربية والوصول الى رضاء الله تعالى بيد المرشد المأمور بيد صحيحة مثل الشيخ عمر والشخ عبد الحلیم والشيخ عبد الوهّاب هناك ان لم تصل الى مكة المكرمة وان لم تفعل ما امرت لك من طرف السادات فانتظر العقوبات الدنيوية والاخروية لانّ تعالى غيور يحارب من خالف على اوليائه وينتقم على من غير طريق وصوله اليه ايّ ظلم اكبر من هذا الظلم فسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون... إلخ»⁵⁸⁸

وقال الحسين الدوسري في مستهل كتابه «الرحمة الهابطة» ما نصّه:

«لقد طرق سمعي بعض مقالات منقولة عن المزورين وجهالات منسوبة إلى بعض المشهورين وإنكار أمور، عليها مدار العلماء العاملين والمتقدمين منهم والمتأخرين؛ فوضعت رسالة مثبتة لما أنكروه و مبتنة لما زوروه، احتساباً لوجه الله الأكرم، وانتصاراً لاسم الله الأعظم، ونصحاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، كي لا يقعوا في ورطة الإنكار، وكي لا يبقى الأخ المنكر على الإصرار، فيؤل به إلى دخول النار.»⁵⁸⁹

وجاء في تفسير أصدرته جماعة من النقشبنديين في الآونة الأخيرة بإسطنبول، قالوا فيه:

«يُستَعْرَبُ مَنْ يَحْكُمُ عَلَى الرَّابِطَةِ بِالْتَحْرِيمِ؛ فَهَلْ اسْتَنْبَطَ هَذَا الْحُكْمَ مِنْ مَعْنَاهَا اللَّغْوِيِّ أَمْ الْإِصْطِلَاحِيِّ، أَمْ وَجَدَهُ فِي أَحَدِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟!»

«ولهذا يجب على المرء أن يخاف الله فلا يَمْنَعَنَّ النَّاسَ مِنْ فِعْلِ الْمَعْرُوفِ بِتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ، وَلَا يَصِفَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِالْكَفْرِ حَتَّى لَا يُصْبِحَ هُوَ بِذَاتِهِ كَافِرًا!!»⁵⁹⁰

وما أكثر من نحو هذه الألفاظ والعبارات في مواطن كثيرة من كلامهم؛ الذي لم يقصدوا في الحقيقة إلا لينالوا به من عرض أهل التنزيه لجناب الحق سبحانه، والخط من كرامة الموحدين، وإيذائهم وإيلامهم. فاكْتَفِينَا بِهَذَا الْقَدْرِ الْيَسِيرِ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ

589 حسين الدوسري، الرحمة الهابطة في ذكر اسم الذات والرابطة، بمامش معرب المكتوبات للرتاني: 186/1.

590 هذا نص كلامهم باللغة التركية للعبارات المعربة:

Rabitanın haram olduğunu ve ehlinin kâfir olduğunu söyleyenlere şaşılır. Bunu rabitanın lügat manasından mı almıştır? Yoksa bunu Allah'ın indirdiği kitaplarda mı görmüştür. O halde kişi Allah'tan korksun. Onun helâl ettiği bir şeyi haram saymak, Onun haram ettiği bir şeyi de helâl kabul etmekten ve böyle büyük bir hataya düşüp insanları da düşürmekten ve insanları maruf (şeriatın ve aklın kabul ettiği şey) den alıkoymaktan sakınsın. Ve ehl-i kibleden hiç kimseye kâfir diyerek kendi kâfir olmasın.

روح الفرقان، بقلم جماعة من النقشبنديين الأتراك (تحت إشراف محمود أسطى عثمان أوغلو) ص/ 78/2. دار سراج إسطنبول، 1992م.

الكلمة الختامية.

لقد انتهينا هكذا من دراسة هامة، أخذت من وقتنا الكثير، وأفنت من عمرنا أكثر من ثلثه، وكلفتنا ما لا يُستهان به. ولا بد من أن نعتزف هنا بأن الهموم كثيراً ما أقصت مضجعنا إذ نسلك طرقاً شائكةً في البحث والتعمق أثناء متابعتنا لهذه الدراسة!

في الحقيقة لم يكن القصد من الإقدام على هذا العمل الخطير إلا إظهار ما قد غاب عن جمهور رجال العلم خاصّة من أسرار الطريقة النقشبندية وآدابها وأهدافها ومستوحاها وطقوسها وشخصيات رجالها وتأثيراتها على الحياة الاجتماعيّة في المناطق التي انتشرت فيها.

ولعلّ الأهمّ من ذلك، أنّ المجتمع العربيّ الذي تربطه الصلّة التاريخيّة القويّة بالشعب التركيّ، وجدناه بمنأى عن الإطلاع على أمورٍ كثيرة تلعب الدور منذ قرونٍ في توجيه هذا الشعب وترويضه على غير ما يعتاده ويتلمّسه بقيّة المسلمين من مفهوم الدين. فرأينا من الخدمة العلميّة أن نتناول من تلك القضايا ما يدخل في نطاق معرفتنا واختصاصنا، وأن نسلّط الضوء عليها لتمهيد المجال إلى مناقشتها في ديوان العلم وميزان العقل والدين. ألا وهي النزعة الصوفيّة المتمثلة في الطريقة النقشبندية المتفاقمة في صفوف الملايين من أبناء هذه المنطقة، والراسخة في أعماق ضمائر الشيوخ والشباب والنساء والرجال منهم. وإذا كان هذا الميلُ الشائع في العنصر التركيّ يدلّ على حقيقة، فهي ليست إلاّ علامات انقباضٍ وتشجّجٍ ينتابه بسبب الضياع الداعي وخسارة الهوية.

لقد ثبت من خلال البحوث والدراسات العلميّة أنّ الأزمات التي يعانيها المجتمع التركيّ - على اختلافها - في الوقت الراهن، تعود الأسبابُ المتنوّعة لكلّ أزمةٍ منها في النهاية إلى مشكلة الهوية. ذلك، أن الإعتزاز البالغ بالأعجام إلى حدود التطرّف وجنون العظمة؛ وتقديس رجالٍ دخلت أسماءهم في قائمة «أولياء الله» ضمن مجلّداتٍ ضخمةٍ في المكتبات التركيّة - بما فيهم جميع سلاطين بني عثمان، حتّى السلطان محمّد الثالث الذي قتل تسعة عشر أخاً له في فجر يوم الثامن والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) عام 1595م.؛ وكذلك الإهتمامُ في الإستغاثة بأمواتٍ قد أصبحوا عظاماً نخرةً، بل قد اندرست وبادت رفاتهم ولا يدري أحد هل ماتوا على الكفر أم على الإيمان؛ يبرهن على أنّ هذا الشعب لم يعد يملك شيئاً يثبتُ به هويته سوى اللجوء إلى العصبيّة القوميّة التي تعتمد في جذورها على أساطير الآباء وتقديس السلاطين وأقاصيص الصوفيّة والإستئناس بالقبور والأموات.

إنّ هذا البحث الذي يتناول الطريقة النقشبندية بتفاصيلها وبأسلوبٍ تحليليّ ومنهجيّ، لم يقتصر على حدود أبعادها الدينيّة والروحيّة، بل يتجاوز إلى حدودها الاجتماعيّة وعواقبها الأخلاقيّة، ويفتح بذلك نافذةً على الباحثين، ليطلّوا منها على الشعب التركيّ الصوفيّ، ويطلّعوا على أحواله وأزماته بنظرٍ

علمي وموضوعي من خلال الوثائق والأدلة. لأن إصلاح أي فساد، لا يمكن أن يحظى بنجاح إلا بعد الإطلاع على حقيقة أسبابه.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن تكثيف النقد على الشعب التركي بسبب انتشار الطريقة النقشبندية بين طبقاتها، لا يعني أن الشعب بعمومه قد اعتنق هذا المذهب الصوفي بعينه؛ بل هناك طرق صوفية أخرى، فضلاً عن ذلك أن أقلية من الموحدين الحنفاء، وجماعات متباينة من المشركين والملاحدة من أبناء الشعب التركي لا صلة لهم بالتصوف على الإطلاق. إلا أن الروح الباطني الصوفي قد بلغ من الرسوخ في ضمير أغلبية الأتراك إلى حد نجد حتى العلمانيين منهم قد بنوا صرحاً عملاقاً على قبر زعيمهم بهواجس روحية كما يبدو من احتفالاتهم التي يقومون باجرائها في جو ديني خاص، ويجبرون بقية الفئات على مشاركتهم في تلك الاحتفالات! ولهذا ليس من الزور أن يقال أن غالب الأتراك حتى العلمانيين منهم، قوم لا يقتنعون بأي دين إلا أن يكون مشوباً بتصورات موهومة وحكايات خرافية وتفسيرات أسطورية لا حدود لها.

وهذا قد جعل من الشعب التركي قوماً تبعياً يترحم أمام عواصف الأحداث عبر تاريخه، يُقلد كل قوم يراه على الحق، ويأخذ من حنالة كل دين، إلى أن جمعها ومزجها أخيراً بمفاهيم إسلامية واعتقد أن ما قد صنعه هو الإسلام! بل هو الإسلام المبتور الذي تعرض لسلسلة من الاستحالات، والموروث من العرب بعد الربع الأول من العهد العباسي، والمتقمص اليوم في قالب النقشبندية.

إن الشعب التركي مسئول بالدرجة الأولى عن الفساد الذي قد غرق فيه اليوم إلى قمة رأسه؛ مسئول عن إصلاح كل ما يخالف نصوص الكتاب والسنة من معتقداته بسبب هذا المرض الذي قد تحكّم فيه وتطور إلى أمراض إجتماعية وأخلاقية أخرى. والمسلمون جميعاً مسئولون أيضاً بالدرجة الثانية من إنقاذ هذا الشعب عما قد وقع فيه. وتتأكد هذه المسؤولية المتوجهة إلى أهل الوعي والخبرة من كل شعب في العالم عندما نشاهد التطرف المنبثق من الروح الصوفي يتفاقم يوماً بعد يوم في صفوف هذا المجتمع ويُهدد السلم والأمن في المنطقة؛ كما تترتب على كل شخص ذي حمية إنسانية، يُحب الحرية ويتمنى يوماً يسود فيه الأمن والطمأنينة والهدوء في جميع أرجاء المعمورة - إذا ما وقع نظره على مضمون هذا العمل الهام - تترتب عليه مشاركة المخلصين من أهل الإصلاح والإرشاد في محاولة القضاء على هذا

السرطان الذي مزق روح الشعب التركي بمخالبه وأوشك أن يجعل منه العُوبةً في يد عصابة خطيرة يختل بها توازن القوى على مستوى منطقة الشرق الأوسط لأمدٍ غير بعيد!!!

ونؤكد بكلّ جدٍ واهتمامٍ أنّ هذا البحث وثيقة تاريخية في حدّ ذاته؛ يتبى إظهار ما قد خفي أو أُخفي عن العامة من واقع منظمة خطيرة كانت لها أغراضها في مرحلة زمنية معينة، تقيمت عبرها في لباس طريقة صوفية اسمها الخالدية، وفعلت ما فعلت تحت ستار النقشبندية، ثم تحولت إلى طريقة صوفية تمامًا بعد أن حققت شيئاً كثيراً من أهدافها. ولا نريد أن نستقصي فيما لا يتحمّله الزمان والظروف والأوضاع أكثر من هذا القدر؛ فإنّ القلم الصادق لن يغفل عن تسجيل ما قد جرى في هذا العالم من صغير وكبير. {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ}⁵⁹¹ {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}⁵⁹²

ولعلّ ما قد سجّله الدكتور أسعد السمحرائي في ثنايا كتاب له من كلماتٍ يسيرةً جدّاً تهمس إلى ذوي العقول المفتوحة شيئاً من أسرار مدينة السليمانية العراقية التي طالما تحتضن جماعاتٍ مشبوهةً كما احتضنت ذلك الشبح الخطير المتقمص في لباس الطريقة النقشبندية الخالدية إبان مرحلة حساسة من القرن الماضي..
يقول السمحرائي:

«بعد إعدام الباب أُوهم حسين المازندراني (البهاء) مع مجموعة من أتباع الباب بمحاولة اغتيال ملك إيران ناصر الدين شاه انتقاماً للباب، فاعتقل ثم نُفي وشقيقه يحيى وبعض أتباعهم إلى بغداد سنة 1268هـ - 1852م، حيث مكث فيها قرابة 12 عاماً قضى بعضها في السليمانية يبشر بدعوته.»⁵⁹³

وهذا دليل قاطع على أنّ النقشبنديين الذين وقفوا دائماً في وجه المؤمنين الموحدين الحنفاء وقوف العدو اللدود؛ سكتوا - على الأقل - عن نشاطات حركة من أخطر الحركات الهادفة إلى هدم

591 سورة القمر/53

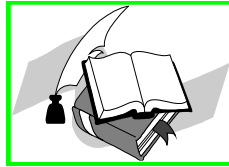
592 سورة النكاثر/3، 4

593 الدكتور أسعد السمحرائي، البهائية والقاديانية ص/ 74. دار الفانس، الطبعة الثانية. بيروت-1989م.

الإسلام من أساسه في مدينتهم السليمانية بالذات. وهي منبثق دعوتهم، ومركزهم، وقبلتهم المقدسة بعد مدينة بخارى؛ كانوا ولا يزالون هم الأكثرية والأقوى فيها من بقية الجموع والجماعات!

إنّ الذي قد جرى بالأمس من خير وشر يجري اليوم أيضًا وسيجري غدًا لاحالة، وإن اختلفت الصُّورُ وتباينت الأشكال وتنوّعت الأساليب. فالحرب سجل بين الحقّ والباطل... تلك سنة الله «قُلْ كُلّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا»⁵⁹⁴

ولكنّ الذي يجب أن يُؤخَذَ بنظر الإعتبار، هو أنّ التطرّف والحقد والعنف والإضطهاد مهما بلغ من القسوة حدّها؛ وأنّ التزوير والتدليس والتدجيل والغش والمكر والإستغلال مهما لعب الدور في إرباك البسطاء، وغسل الأدمغة، وتجنيد الخونة تحت ستار التصوّف والتقشّف أو العلمنة والإلحاد؛ لصرف الوجوه عن الحق، وتشويه الحقيقة، وتقديم الذئاب في جلود الضأن، ونسج نظريات المؤامرة لإخماد حرارة الإيمان الذي يملأ قلوب أهل التوحيد الحنفاء؛ فإنّ الصدق والإخلاص والمثل العليا سوف تسلك طريقها دائمًا إلى قلوب مؤمنة واعية وعقول نيّرة متفتحة، لتبقى الحقيقة المطلقة وحدها دائبةً غالبيةً شامخةً إلى أبد الأبدين ولو كره المتزمتون وأبناء الحماقة جميعًا، فإنّ الحق يعلو ولا يُعلى عليه. «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ»⁵⁹⁵



كلماتٌ توضيحية

في سياق الإجابة على التقرير الصادر من جامعة أمّ القُرى
 بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ لطف الله بن عبد العظيم خوجه
 رئيس قسم العقيدة الإسلامية للجامعة المذكورة
 بمكة المكرمة
 حَوْلَ كِتَابِنَا
 «الطَّرِيقَةُ النَقْشَبَنْدِيَّةُ بَيْنَ مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا».

المحتويات

* توطئة

- * نصُّ التقرير الصادر بشأن كتابي: الطَّريقَةُ النُقشبنديَّة بَيْنَ مَا صَبَّحَهَا وَحَاصِرَهَا.
- * الإجابةُ على النقدِ الواردِ في القسمِ الأولِ من التقريرِ الَّذِي يستهلُّ بقوله: «أولاً: الجوانبُ الإيجابيةُ في الكتاب».
- * الإجابةُ على النقدِ الواردِ في القسمِ الثاني من التقريرِ الَّذِي يستهلُّ بقوله: «ثانياً: الجوانبُ السلبية».
- * نبذة من قصة حياتي وذكرياتي.
- * وَصْفُ طائفةٍ بِ«الوهابية» في ثنايا كتابي وبواعثُ اسْتِعْمَالِهَا...
- * مسائلٌ متفرقة:

توطئة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد،

فهذه توضيحات تفصيلية كُتبتْها لتقوم مقام الإجابة على تحقيقات أجزاءها وأثبتها العالم الفاضل العلامة الشيخ لطف الله بن عبد العظيم خوجه، أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، أثناء مراجعته لكتابي الموسوم «الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها». وأما هذا الكتاب، فإنه من أهم البحوث والدراسات العلمية التي أنجزتها - والحمد لله - منذ تناولتُ القلم باحثًا في مجالات شتى.

ولما وقفتُ ربي لإتمام هذا الكتاب عام 1420 من الهجرة النبوية عليه السلام، استنسخته في طبعين عددًا غير كثير، وقدمتُ منه نسخًا إلى العلماء في بلدنا (تركيا)، ليرؤا فيه رأيهم، فأقوم بتصحيحه وتنقيحِهِ وتهذيبه على ضوء ما أتلقى منهم من توصيات وإرشادات وملاحظات. بيد أن أحدًا منهم لم يُبدِ رأيًا صريحًا فيه من سلبٍ أو إيجابٍ سوى عدد قليل منهم أجابوني شفهيًا: أنه لا مانع من طبع هذا الكتاب، وفيه نفع للناس.

ولكنَّ الطيبة الحثيثة التي جُبلتُ عليها مَنَعَتْنِي من الاجتزاء بهذا القدر من الاستشارة لما كنتُ على بينة من قلة عدد العلماء وعجز كثيرٍ ممن يتسمون بصفة العلم في بلدنا عن فهم النصوص المدونة بالعربية، أحببتُ أن أعرض هذا الكتاب على أهل الخبرة والمعرفة بالحرمين الشريفين، وبدأتُ أترقب الفرصة لتحقيق هذا المطلب، حتى قدَّر الله لي أن زارني طالبان من أهل البلد الأمين في داري بإسطنبول، وهما: سعود بن سعد العتيبي، ومحمد بن سالم الجهني، وذلك بواسطة صديقي الحميم الشيخ مصطفى الهلالي وبصحبته. فاستقبلتُهُم بترحابٍ وأحسنْتُ مثوَاهم ما أمكنني التزامًا بحق الأخوة في الإسلام. ولما تعرَّفتُ على الطالبين العربيين وعلمتُ أنهما يدرسان بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وأنهما يبحثان عن مصادر علمية ليستعينا بها على إعداد شهادة الدكتوراه، قدَّمتُ لهما نسخة من هذا الكتاب على سبيل المساعدة في مهمتهما، كما أودعته في ذمَّة الأخ سعود بن سعد العتيبي خاصة، ليعرضه على العلماء فيروا فيه رأيهم، ليطمَّ طبعه ونشره بعد ذلك إن شاء الله تعالى... إلى أن بلغني - بعد فترة من الزمن - تقريرٌ من الفاضل المكرم الشيخ لطف الله بن عبد العظيم خوجه، أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وذلك تحت عنوان «نظرة حول كتاب: الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها»

وقبل أن أتناول مضمون هذا التقرير القيم، وأقوم بتحليله والإجابة على ما ورد فيه من النقد والنصح والإرشاد، أريد أن أقدم بالغ شكرى وامتنانى أولاً للأخ سعود بن سعد العتيبي على التزامه بالذمة والأمانة فيما وليته ووكّلته، ثم أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ العلامة الشيخ لطف الله بن عبد العظيم خوجه، على مساعيه الطيبة لما تكرم ببذل جهودٍ بالغةٍ بإجراء النظر في هذا الكتاب الضخم دون ملل، وما أثبت فيه من تحقيقات هامة، مما يدل على مدى صبره وعنايته ودقة دراسته للكتاب وسعة إطلاعِهِ على تفاصيله... ولا يفوتني - بهذه المناسبة - أن أُعلن عن منتهى فخري واعتزازي بمثل هذا العالم الفذ، وأكبر ما يمتاز به من الباع الطويل في العلوم والمعارف، تشهد على ذلك عبارته الرصينة وأسلوبه الجلي الخالص المتين، بجانب ما يتصف به من العدل والإنصاف... فجزاه الله تعالى خير الجزاء، ونفع به أمة الإسلام، وأكثر من أمثاله زحراً لأمتنا آمين.

الإجابة التفصيلية على التقرير المذكور

لقد اشتملت ملاحظات الشيخ لطف الله على كتابنا المشار إليه في ثلاثة أقسام.

أولاً: الجوانب الإيجابية في الكتاب،

ثانياً: الجوانب السلبية.

ثالثاً: مسائل متفرقة:

وهذا نصّ التقرير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نظرة حول كتاب «الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها»

أولاً: الجوانب الإيجابية في الكتاب:

1- هذا الكتاب وثيقة مهمة في بيان حقيقة النقشبندية من الداخل، حيث أن مؤلفه من أسرة نقشبندية بحسب ما أفاد به في أول الكتاب ص 3 حيث قال: «ولدت ونشأت في أسرة ذات شهرة واسعة النطاق، تتمتع بالزعامة لقطاع كبير من هذه الطائفة الصوفية».

وانتسابه لهذه الطائفة ولزعامتها، مكّنه من معرفة خفايا لا يطلع عليها من هم خارجها، كما أفاد في الموضوع نفسه من الكتاب. فكان هذا الحال سبباً في رفع قيمة الكتاب، حيث شهد شاهد من أهلها.

2- ويرفع قيمته كذلك عنايته البالغة به، حيث أمضى فيه بحسب ما ذكر في خاتمته ثلث سني عمره (23) عاماً (ص 5، 427). وتصديق ما ذكر ظاهر في ثنايا الكتاب، ومعلوماته، وما أورده من أخبار، وما عدّده من كتب لهذه الطائفة⁽⁵⁹⁶⁾، وما عرضه من تاريخها، وشخصياتها، ومعرفته لكل ذلك بإسهاب ودقّة.. فمثل هذا الكمّ من المعلومات لا يتيسّر جمعها في مدّة وجيزة بل تحتاج إلى سنوات من الجهد الحثيث، والعمل الدائم.

3- ومما يرفع قيمة الكتاب: أن مؤلفه تكلف تأليفه برغبة، وتوجّه نفسٍ، فقد استحوذ الموضوع عقله ووقته، حتى صار شغله، وهمة، وديدنه، وأيّ مؤلّف يكتب بهذا الدافع فلا بد أن يمتاز ويبرز.

(596) يقول ص 88: أما الذين تناولوا الزبطة كمشطه به تفاصيل آداب الطريقة النقشبندية فقد عثرنا على نحو من ثلاثين رسالة هم، أقدمها كتاب الرضحات. ألفه علي بن الحسين الواعظ، البيهقي، ويقول: لم نعر على حرف واحد من رسالة عبد

الوهاب السوسي، رغم ما بذلنا من جهود بالغة طوال مدة أكثر من خمسة أعوام نظارد وراها بسعي دبوب من مكتبة إلى أخرى في بلدان الشرق الأوسط إلا السطور اليسير نقلها ابن عابدين، ص 358.

4- كما يرفع قيمته: أن مؤلفه كتبه بنفس ناقدة، فاحصة، تزن الأقوال والأفعال بالميزان الشرعيّ، فتقبل منه ما وافق، وترفض ما خالف، ولم يتردد في أية حال، في تخطئة أيّ قول، أو فكرة علم مخالفتها (45، 93، 81).

5- ويؤكد قيمته: أن مؤلفه جمع كلّ النواحي المتعلقة بهذه الطريقة:
* فقد بين أثرها الدينيّ، في الشعوب التركيّة خاصة والكردية . (327).
* وبين أثرها السياسيّ في الدولة العثمانيّة، والتركيّة من بعد، (287) (289) (347) (355).

* وبين أحوالها الاجتماعيّة، وتأثيراتها، حتّى في داخل البيت النقشبنديّ.
فهي وثيقة عن الطائفة النقشبندية في سائر مجالاتها: الدينيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والتاريخيّة. وقد أصاب ووفق في كتابة هذا المؤلّف القيم وإخراجه إلى الوجود، حيث يعدّ من اليوم مرجعاً متكاملًا عن هذه الفرقة الكبيرة من الفرق الصوفيّة. ونوصي ونرجو أن تخرج مؤلّفات أخرى مماثلة، عن الفرق الأخرى الكبيرة، مثل: الجيلانيّة، الرفاعيّة، الشاذليّة، التيجانيّة، البريليويّة... الخ، على يد أحد من أبنائها العارفين بالأسرار القاصدين الإصلاح المتبعين وجه الله.

6- لقد أصاب المؤلّف في نقد أفكار هذه الطائفة، أصاب فيما نسبه إليها من أفكار صوفية، مثل:
* قولهم بالحلل، والاتحاد ووحدة الوجود. (118، 119)(137، 138).
* قولهم بالفناء في : الشيخ، والرسول، والله تعالى . (122)(148).
* في إرجاع طريقهم في الذكر والعبادة إلى الديانات الهندية، (62) (118، 119) (120) (121) (125)

* في دعوى مشايخ الطريقة عليهم بالغيب، وتصريفهم للأموار. (110) (164) (172).
* في دعوى المشايخ استمداد المريدين من همّتهم، وروحانيتهم. (66، 67).
* كذلك في توجيه المريدين إلى استحضر صورة الشيخ دائماً. (66، 67) (73)(75)(96، 97).
فكلّ هذه الأفكار وغيرها، من صميم الفكر الصوفيّ، وما النقشبندية إلا حلقة في هذا الفكر، تحمل كلّ آرائه واعتقاداته، وقد أثبت هذه الاعتقادات من كتاباتهم وأقوالهم.

7- من الحقائق الخطيرة التي أبرزها المؤلّف في هذا الكتاب:

بيان أن الأتراك إنما أسسوا هذه الطريقة قبل سبعة قرون، في بُخَارَى لتكون نسخة أخرى للإسلام ليتميّزوا بها عن العرب والفرس في عبادة الله تعالى (ص26)(36)(410). وهذا أمر شديد الخطر والوبال، ويحتاج إلى توثيق أكبر، وأدلة واضحة، وهي وإن كانت شهادة شاهد من أهلها، إلا أن البرهان مطلوب، حتى يقطع الشك باليقين.

لأنّ الأمر إذا صار كذلك، فعلى المسلمين الناصحين: عربًا، وتركًا. أن يشرعوا في هذا الصنم الجاهلي تحطيمًا لأنّه يضر بالإسلام والمسلمين؛ أعني صنم التعصّب للجنس.

8- بين المؤلف حقيقة نشاط النقشبندية في الدولة التركية، وما لهم من سيطرة إعلامية ضخمة، وحضور سياسيّ ظاهر في الأحزاب. حزب النظام الوطني - حزب السلام الوطني - حزب الرفاه - حزب السعادة وإلى تاريخ كتابته لم يكن قد ظهر الحزب التالي: حزب العدالة والتنمية، وهو الحزب الحاكم اليوم. (100)(369)(382).

وهذا يعطي صورة ربما كانت غائبة عن طبيعة العمل السياسيّ للأحزاب الإسلامية في تركيا، وقد أبرز المؤلف كثيرًا من جوانبها، أو طرفًا. خاصة السلبية.

9- شهد على أرباب الطريقة النقشبندية، وأسرته من أشهرها، وقد كان منها، أنهم يكتُمون أسرارًا، وشهادته لها قيمة كبيرة، لأنّها من موقع العارف المطلع. (4)(129)(133)(316).

ثانيًا: الجوانب السلبية:

تعليقًا على ما ذكره المؤلف من ثناء على أهل الكلام. (20)(145)(174)(399) فنقول:

* لا يقلّ خطر أهل الكلام على الإسلام من خطر التصوف؛ حيث هؤلاء قد رسّخوا في تراث الأمة: المنهج العقليّ وردّ النصّ الشرعيّ الصحيح الصريح: إذا عارض المفهوم العقليّ. والعقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن هكذا توهموا. وكان من أثر ذلك تعطيل نصوص كثيرة بدعوى معارضة

العقل، وهذا ظاهر في كلام الرازي، وأهل الكلام عمومًا، كما هو عند المعتزلة. وهذا يشبه تعطيل المتصوفة للنصوص بالدوق والكشف والمنام. والمؤلف قد تحمّل مشكورًا مأجورًا، بيان خطأ المتصوفة، وضلال الفكر الصوفي: نصره للحق وإعلاءً لكلمة الله تعالى، فدلّ على حبه للأتباع، والتقيّد بالسنة، ولو وقف على ما للكلام من أثر سيء في فكر الأمة لردّه ونقضه كما فعل مع الفكر الصوفي في ردّه على طائفة كبيرة منه هي: النقشبندية. لكنّه معذور، إذ يظهر أن جُلّ عمره انصرف في فهم التصوف والردّ عليه، فلم يتيسر له النظر في حقيقة علم الكلام بالقدر نفسه.

* لا خلاف في ضلال الفكر والاعتقاد النقشبندي، غير أن المنتسبين إليه يغلب عليهم الجهل، وقلة العلم. وطريقة دعوتهم واستصلاحهم يحتاج إلى رؤية وكلمة طيبة، وموعظة حسنة، ومجادلة بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». والملاحظ أن المؤلف قد بالغ في التقييح والتشنيع على المنتسبين، وهذا ربما منعهم من الانتفاع من كلامه القيم في النقد، لأنّه حينئذ تأخذهم العزة بالإثم، فيتعصبون جاهليّة. (136، 162). والواضح إنّه مدرك لأهميّة الأسلوب اللين الحسن في الدعوة والاستصلاح، بدليل إنّه أنكر على الوهابيّة (أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) شدة أسلوبهم في دعوة المنحرفين عن التوحيد (259-361) حتى إنّه ذكر بالآية الآنفه، لكنه يبدو أنّه أخذته الغيرة على الحق، فنسي في خضم ردوده أن يتمثّل الأسلوب الأمثل، وهذا متصوّر أن يقع من أيّ إنسان، مهما بلغ من العلم، فإنّ بعض الباطل، وبعض أهله يتخذون أساليب من الاحتيال والخداع ما يزعج خاطر ويؤلم النفس حتى إنّ المرء ليردّ عليهم بالقسوة والشدة دون أن يشعر، ومع ذلك فالحال الأكمل الصبر كما قال تعالى: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا»

* للمؤلف نظرة سلبية تجاه من يُسمّيهم بالوهابيّة (259، 361، 362، 363)، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (395)، حيث يصف أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالعنف والجبر وبعدم الكفاءة في إرشاد الناس وإصلاحهم، وابن تيمية بأنه يطرّ المخالفين بالشتيم واللّعن ويرمي بالكفر البواح. وهذا يحتاج منه إلى إعادة نظر!! فإنّ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان فيها خير كثير، لو لم يكن إلا أنّها أعادت الأمة إلى صفاء التوحيد، وما كان منها من خطأ فأمر متوقع، كون حامله بشر لا ملائكة. ثم إنّ الحكم عليها بعمومها حكمًا سلبيًا جور وظلم، فلو كانت كذلك لما كتب الله لها الانتشار والقبول، فالعنف وقلة الحكمة في الإرشاد موجود في كلّ طائفة، لكنّ وجودها

لا يسوغ وصم الطائفة كلّها بتلك الأوصاف. وأمّا ابن تيمية فلم يكن يوماً ممن يرمي الناس بالكفر البواح، ولا كان ديدنه وخلقُه اللّعن والشتيم، بل الإنصاف والعدل والأدب، وكتبه شاهدة، لكنّه لم يكن يجابي في الحق أحداً. ولو أن المؤلّف وقف على كتبه بنفسه وأدمن قراءتها مدّة لبان له ذلك. ثم إنّ المؤلّف من الحبين لدين الحنيفيّة والحنفاء (364) والداعين لتصحیح التوحيد، وكتابه هذا شاهد، وغيرته على التوحيد ظاهرة، وهو في هذا يتفق مع دعوة الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب. وابن تيمية، فهو يتفق معهم في الأصول إذن، وهذا كاف في تألفه معهم. وأمّا ما يظنّه ويراه منهم مخالفاً للهدى النبويّ في الإصلاح فيمكنه علاجه فيهم باللّين والموعظة الحسنة والرفق، وهو لذلك أهل.

ثالثاً: مسائل متفرقة:

أولاً: تعليق حول سبب ظهور التصوف في الأمة:

الذي يظهر أنّ ظهور التصوف في الأمة سببه احتكاك المسلمين بأصحاب الثقافات القديمة وكان التصوف معروفاً لديهم بالإضافة إلى وجود دعاة لها بين المسلمين وسواء حدث خلاف بين المسلمين في العصر الأول أو لم يحصل لم يكن ذلك ليؤثر في ظهور التصوف لتلك الأسباب وأصل خطأ من يربط ظهور التصوف بما حدث من خلافات في عهد الصحابة أنّه يعتمد تفسير التصوف بالزهد وهذا خطأ حتّى أئمة التصوف يردّونه.

ثانياً: اقترح على « الشيخ فريد » أن يقارن بين أقوال الجنيد والدسوقيّ والجليّ ويقارن بينها وبين أقوال النقشبندية هل بينها توافق. انظر ص 93

ثالثاً: في معنى قولهم « قدّس الله سرّه » أي طهّر الله سرّه وبهذا الوجه لا مانع منه ولا يلزم لجواز استعماله أن يكون السلف استعملوه غير أنّه لا يبعد أن يكون أصل استعماله لدى المتصوّفة من باب الغلو. انظر ص 114.

رابعاً: تعليق بعد قول المؤلف ص 133 «نجد أنفسنا ... في مفهوم التصوف» هي كذلك في بدايتها لكنها بعد أن توطدت دخلها أناس لا همّ لهم إلا الشهوة والشهرة والتعظيم دون أن يكونوا في منظمات سرّية قصدتها هدم الإسلام إذ قد ترسخ قدمها وصارت جزءاً من الإسلام تلبيساً وتديلاً.

خامساً: في معنى مصطلح ثيوصوفية ص 135. المراد بالثيوصوفية: الحكمة الإلهية [ثيو: الإلهية] [صوفية: حكمة]

سادساً: في الفرق بين فناء المتقدمين والمتأخرين ص 147. الحقيقة إنّه لا فرق بين فناء الأقدمين والمتأخرين فلا يصح القول بالتطور هنا.

سابعاً: عقيدة الحلاج وهل لوحدة الوجود صور أخرى ص 149. يذكر الباحثون أن الحلاج كان حلولياً لا وحدوياً. ما ذكره المؤلف عن وحدة الوجود، هو صورة من صور وحدة الوجود يمثلها التلمساني، وثمة صور أخرى يمثلها ابن عربي وابن سبعين.

ثامناً: في ص 133 ذكر المؤلف عن البوذيين عبادتهم للشجر ... الخ. ولكنّ المشهور عن البوذية أنّهم يعبدون بوذا فحسب.

تاسعاً: الحديث عن من يعتذر عن بعض عبارات الصوفية الشنيعة ص 157. دعوى من زعم أنّها عبارات قيلت في حال الغلبة دعوى فارغة وباطلة، بل هي نتاج نظرية كاملة في الحلول ظهرت حال غياب العقل، فاللسان لا يتحدّث إلا بما يجول في الصدر.

عاشراً: في الفرق بين عقيدة وحدة الشهود ووحدة الوجود ص 159. حقيقة وحدة الشهود تختلف عن حقيقة وحدة الوجود، لكن من غير المستبعد أن يتدرع بها الحلولية متى خافوا على أنفسهم.

الحادي عشر: في أنواع التوسل ص 187. التوسل الشرعي يكون بثلاثة أمور:
أ- بأسماء الله الحسنى ب- العمل الصالح ج- بدعاء الرجل الصالح الحي.

الثاني عشر: في تحليل سبب تعذيب النقشبندية لأنفسهم ص398. سبب ذلك أنهم يقولون أن تلك الحقائق لا تنكشف إلا بالرياضات حتى يزول عن الروح قيود الجسد على أن ابن عربي له مذهب آخر لا يشترط فيه إلا الرياضة الذهنية لحصول هذا الانكشاف.

الثالث عشر: في ثناء المؤلف على الرسالة النسفية وشرحها للفتنازاني ص398. فيجب أن يعلم أنها ليست على المنهج الصحيح بل فيها مخالفات لمذهب السلف الصالح.

الرابع عشر: في نقل الصوفية لبعض جثث موتاهم ص399. نقل الرفات مسألة خلافية يسوغ فيها الاجتهاد.

الخامس عشر: في ثناء محمد بن سليمان البغدادي على شيخه ص421، 422. يبدو أن الكلام في الوصول إلى مرتبة الولاية لا الوصول إلى دولة الهند فلماذا لا معنى لأن يستشهد بسرعة الوصول في هذا العصر.

السادس عشر: الأولى حذف العبارة التي في ص360 وهي قولك «إذا صح» في سياق «... واعتقد. جحافلهم إلى دولة مستقلة إذا صح» وعبارة «سفارة الوهابيين» ص360.

السابع عشر: ذكر الشيخ فريد حفظه الله - أن الخلاف بين النقشبنديين والوهابيين وجميع الموحدين كان في مسائل جانبية ثانوية غريبة لا علاقة لها بلب الإسلام وأركانه .. وجعلوا هذه المسائل التافهة ... ص367.

ثم ذكر هذه المسائل التي خاصم فيها النقشبنديون الوهابيين ومنها الاستعانة بالموتى والنذر لهم والتأويلات الكلامية لصفات الله كصفة الاستواء على العرش فهل هذه مسائل جانبية ثانوية غريبة لا علاقة لها بلب الإسلام وأركانه وأيضاً تافهة! هذا ليس بصحيح وهو يتناقض مع ما ذكره الشيخ من أن بعض نقاط الخلاف بين الوهابيين والنقشبنديين يجمعها اعتقاد النقشبندية نسبة مشيئة قدرة خارقة تستحيل على البشر إلى من يدعون أنه ولي مما ساهم في الاستعانة بغير الله والذبح لهم وعبادتهم من دون الله واعتقاد أنهم يتصرفون في الكون. فإذا كانت هذه مسائل كما وصفها بالتافهة ولا علاقة لها

بلب الإسلام، وأركانه فماذا بقى إذن من الإسلام وأركانه وقد أطاح المؤلف دون أن يقصد بالركين الركين الأول فيه وهو شهادة لا إله إلا الله شهادة التوحيد.

أسأل الله تعالى أن يوفق الكاتب الشيخ فريد صلاح الهاشمي لكل خير وبيارك في جهده ويتقبل منه العمل والقول، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لطف الله بن عبد العظيم خوجه

أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

1425/10/10هـ

الإجابة على الانتقادات الواردة في التقرير

أولاً: الجوانب الإيجابية في الكتاب:

بالنسبة لتحليلات الأستاذ حول القسم الأول، فأشكره - بهذه المناسبة - مرة أخرى على ما وصف من مميزات هذا الكتاب انطلاقاً من الواقع، وشهد على أنه «وثيقة مهمة في بيان حقيقة النقشبنديّة»، وذكر أكثر من مرة عبر التقرير ما يرفع من قيمته، فقال: «فهي وثيقة عن الطائفة النقشبنديّة في سائر مجالها الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتاريخيّة، وقد أصاب ووفق في كتابة هذا المؤلف القيم وإخراجه إلى الوجود، حيث يُعدُّ من اليوم مرجعاً متكاملًا عن هذه الفرقة الكبيرة من الفرق الصوفيّة».

فهذه نعمة عظيمة أن يشهد لى عالم من علماء أمتنا: أي ألفت هذا الكتاب بنفس ناقد فاحصة تزُن الأقوال والأفعال بالميزان الشرعي، فتقبل منها ما وافق، وترفض ما خالف؛ وأي لم أتردد في أية حال في تخطئة أي قول أو فكرة علمت مخالفتها للكتاب والسنة... نعم، هذه نعمة جلييلة أحمد الله عليها؛ غير أن الفاضل صاحب التقرير أورد نقداً في المادة السابعة من القسم الأول ما نصّه:

« من الحقائق الخطيرة التي أبرزها المؤلف في هذا الكتاب: بيان أن الأتراك إنما أسسوا هذه الطريقة قبل سبعة قرون، في بخارى لتكون نسخة أخرى للإسلام، ليميزوا بها عن العرب والفرس في عبادة الله تعالى. وهذا أمر شديد الخطر والوبال، ويحتاج إلى توثيق أكبر، وأدلة واضحة، وهي وإن كانت شهادة شاهد من أهلها، إلا أن البرهان مطلوب، حتى يقطع الشك باليقين.»

قُلْتُ - وبالله الاستعانة - : إن العبارات التي اقتبسها الفاضل الشيخ من الصفحات المذكورة آنفاً، ونقلها من كتابي على سبيل النقد، فقد أصاب في نقلها بأمانة، وهي من جملة ما قلته وكتبته بقلم، فهنيئاً لهذا العالم المنصف الذي وقف على أدنى مسألة خلافية من مضمون هذا الكتاب حتى لا يظلم أحد من الخصوم رغم ما يعرف من هذه الطائفة من خلط وبدع وزندقة وتحريف للدين الحنيف. ولن يعجزني توثيق هذه الحقيقة بأدلة من نفس الكتاب وغيره لكثرتها، وليس عن حظ نفسي والعياذ بالله تعالى.

وأما في هذا الصدد، فيجب التركيز على توضيح أربعة أمور هامة لتقريب المسألة إلى العقول وفتح المجال لفهمها. إذ لا يسهل إقامة الأدلة على القضية المذكورة بدونها.

أولاً: اعتقاد النقشبنديين وأشكال تعبدهم (وهي بجوانبها الأصولية والتاريخية خافية على علماء أمتنا!)، فإن فيها خلط واختلاف واضطراب وعموض إلى حدود لا يمكن ضبطها، ولا عندهم أصول توقيفية يجمعون على أساسه في التفاصيل فتمنعهم من ابتداع ما لا مساع له (في معتقدهم) بله ضوابط الإسلام؛ وذلك حتى في صلاة الرابطة التي هي من أهم طقوسهم. لذا فمنهم مثلاً من يغمض عينيه أثناء الرابطة، ومنهم من يعطي وجهه بوشاح زيادة على ذلك، يرخيه على رأسه فيسده إلى سرته. ومنهم من يحدق النظر في الصورة الفوتوغرافية لشيخ الجماعة كما تفعله فتنان من هذه الطائفة وهم

السليمانية⁵⁹⁷ والمنزلية⁵⁹⁸. ومنهم من يعدّها أمرًا تعبدياً أفضل من كلّ ما ورد في الكتاب والسنة من التُّسك والنوافل...⁵⁹⁹ وقد يتواطأ عددٌ قليلٌ من خاصّتهم. على مبدأ لا علم لأكثرهم بذلك فيظنُّ أساسه خافياً عليهم، ولكن تظهر تأثيراته مع الزمان ثم تشيع وتنتشر، فتشربها نفوسهم بالتقليد الأعمى.

وكمثالٍ على ذلك: فقد وردت في كتابٍ للنقشبنديين، اسمه «مناقب الأولياء»، ألفه حسن لطفني شوشود باللغة التركية⁶⁰⁰ في ترجمة قدماء هذه الطائفة الذين أسسوا الطريقة النقشبندية، وردت في الصفحة الثالثة والستين بعد المائة من هذا الكتاب - ما أمكنني تعريبه - كلماتٌ يقول فيها: «إنّ الولاية مرتبةٌ من بلّغ حالة الفناء، وهي أعلى من مرتبة النبوة، فقد أحرز بعض الأنبياء مرتبة الولاية، غير أنّ النبوة التعريفية أو التبليغية قد تحققت في كلّ ولي». انتهى كلامه. نعم هذه ترجمة مطابقةً للنصّ التركي الوارد في الكتاب المذكور للنقشبنديين. وربما استقى المؤلّف هذه العقيدة من قول ابن عربي: «أنّ الولي أعلى درجة من الرسول لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى إلى الرسول فهو أعلى منه بدرجتين».⁶⁰¹

وأما خلاصة المقصود لهذه المقولة الجريئة، فهي: أنّ الولاية أعمّ من النبوة، وأنّ الولي أفضل من النبي! لأنّ الولي نبيٌّ مطلقاً بعكس النبي، فإنّ الأنبياء منهم من أحرز مقام الولاية ومنهم من كان دون ذلك على حدّ قوله.

تُرى وما عسى الغرض من هذا الإدعاء الخطير، وما الذي دفع المدّعي حتّى تورط إلى هذا الدرك من السخافة مما لا شكّ في أنّه خروجٌ على الإسلام من أساسه؟! وهل يقدّر مدى هذا الخطر على الإسلام والمسلمين إذا كان عددٌ من أئمة الطائفة يتواطؤون على هذا الاعتقاد ويبثونه في عقول آلافٍ من الرعايا وسفلة الناس!؟

597 وهم طائفة من النقشبنديين من أتباع سليمان حلمي طوناخان (1888-1959م).

598 وهم طائفة من النقشبنديين من أتباع الملائع عبد الحكيم البلوانسي (1902-1972م)، وينوب عنه اليوم حفيده عبد الباقي أول، وهو من مشاهير الزنادقة!

599 راجع مکتوب أحمد السرهندي رقم: 187

600 حسن لطفني شوشود، İstanbul-1958. İslam tasavvufunda Menakıbı Evliya

601 نقلًا من كتاب «إغاثة اللهيان من مصائد الشيطان» لابن قيم الجوزية

فأما الجواب الشافي على هذا السؤال مما لا شك فيه: أن قُدماء هذه الطائفة (من العنصر التركي خاصة)، كانوا يتواطون على أن الألياء من قومهم أفضل من سائر الأنبياء من غير قومهم بما فيهم محمد عليهم الصلاة والسلام. ولم يكن تبنيهم لهذا المعتقد الخطير في الحقيقة إلا لأنهم كانوا يأسفون على اتباع قومهم نبياً ليس من بني جلدتهم! فاختلقوا هذا المعتقد ليشفو به غليلهم، «لأن ولياً من الأتراك أفضل من نبي عربي» عندهم، مع اعترافهم بنبوّة محمد النبي العربي صلى الله عليه وسلم، وإسرار ما دون ذلك، تقيّةً ودفعاً لمخاطر قد تنجم عنه إذا فشّت، وحتى لا يفتضحوا، ولئلا ينجح عليهم أحد فيرميهم بالحسد ومناقسة العرب في الدين وما يترتب على ذلك من كفر وإلحاد! فبقي أصل هذا الاعتقاد خافياً على عامة النقشبنديين، بحيث لا يكاد يُوجد أحد منهم اليوم يعتقد أن ولياً من أولياءهم يفوق محمداً في الفضل عند الله إلا عددٌ قليلٌ من كبار شيوخهم يكتُمونه وقد استيفنته نفوسهم، ويُقرن ذلك كلما خلوا إلى شياطينهم! بذلك بقيت الكراهية للعرب راسخة في صدور غالب الأتراك من جرّاء ما تبنته شردمة من هذه الطائفة وما بثت من تشنيع العرب وتشويه سمعتهم في المجتمع التركي. ومن أعظم الدلائل على هذه الحقيقة ما ذكر الشيخ عثمان المدني من مثالب النقشبندية فيما يثون من الكراهية للعرب ضمن كتابه: «تبصرة السالكين وهتك الماكين من علماء السوء والمشاخ المبتدعين»، مع أنه بالذات كان مرجعاً لهذه الطائفة. ومن البرهان القاطع أيضاً على أنهم يتواطون على هذه الزندقة: إنلافهم لنسخ هذا الكتاب وأمثاله التي تفضحهم. فإني على رغم ما بذلت من الجهد للحصول على نسخة واحدة من هذا الكتاب، لم أتمكن منها إلا ما أطلعني شخصٌ على سطورٍ قليلةٍ منها في لحظات سريعةٍ ما وسعني فيها ضبطها! هذه الكراهية بلغت في نفوسهم حتى جعلتهم يحتزون من الاقتداء بعربي في صلاتهم خاصةً سكان ثلاث مدن في تركيا⁶⁰²: أرض الرّوم، وبايبورت، وگموشخانة، قد تأصلت فيهم كراهية العرب؛ وقد يُعيد (النقشبنديون منهم) الصلاة إن كانوا قد اقتدوا بعربي تقيّةً. سمعتُ عن بعض الناس غير مرة: أن محمود أسطى عثمان أغلو (وهو شيخ جماعةٍ كثيفةٍ من النقشبنديين الأتراك في إسطنبول)، حدّر مُريديه من الإفتداء بأئمة الحرمین، «لأنهم وهابيون». ولربما حدّر شيخ آخر مُريديه من الاقتداء بهم «لأنهم عرب!». وأرجو أن لا يكون لهذا الخبر وجه من الحقيقة. إلا أن كثرة الدلائل تؤكد على أن الإسلام الحقيقي في نظرهم هو الذي رسمه لهم (الساداتُ النقشبندية!)، وليس الإسلام الذي جاء به محمد العربي (ص)! وتمييزاً بينهما: يسمون إسلامهم بتعبير: (مُسلّمَانلِكْ Muslumanlik). وقد تناول العلامة الأستاذ أحمد يشار

أوجاك، هذه التسمية الشاذة للإسلام المُتعارفِ في تركيا، ودرسها بأسلوب علمي وموضوعي متين. وهي شبيهة بتسمية الرافضة للإسلام: (مُسْلِمَانِي). فالمسلم عند الأتراك هو (مُسْلِمَانُ Musluman)، وذلك بتأثير النقشبندية، كما هو (مُسْلِمَانُ Mosalmaan) عند الرافضة.

وَرَدَتْ كلماتٌ وَجِيزَةٌ في قائمةٍ مُلحَقَةٍ بكتابِ اسمه «السعادة الأبدية»، للعقيد المتشيخ حسين حلمي إيشك، يحاول من خلالها إحياء ذكرى عظيمٍ من عظماء الأتراك الجاهليين، وذلك دون أدنى مناسبة، لأنّ الكتاب المذكور يخلو من هذا الإسم! نقلت هذه الكلمات إلى العربية ملتزماً جانب الدمة، وهذه ترجمتها: «أوغوز خان، رحمة الله تعالى عليه: كان قومُ التُّركِ مُتَجَزِّأً في الماضي إلى قسمين: تُركِ الشَّرْقِ وتُركِ الغُربِ؛ يتكوّن تُركِ الشَّرْقِ من خمسِ قبائلٍ، وتُركِ الغُربِ من خمسةِ عشرةِ قبيلةً. فكانت قبيلةُ أُبغوزٍ من تُركِ الشَّرْقِ، وقبيلتا «أوغوز» و«كبرجيز» من وتُركِ الغُربِ. كانت هذه القبائلُ منتشرةً على الساحة الهندية والإيرانية والعراقية قبل خمسةِ آلافِ سنةٍ. وأما الأتراك من قبيلةِ أُوغوزٍ، فكانوا قد وصلوا إلى أراضي الشام تحت قيادةِ أُوغوزِ خانٍ، قبل الهجرةِ بألفٍ وثلاثمائةِ سنةٍ...»⁶⁰³.

وهنا يتبادر إلى الذهن عدّة أسئلة:

أولاً: ما سبب إدراج هذه العبارات في قائمةٍ ملحقةٍ بكتابٍ ألفه شيخُ نقشبديّ، في المواعظِ والمسائلِ الدنيوية، وسماه «السعادة الأبدية» ولا يوجد إسم (أوغوز خان) في هذا الكتاب أبداً، فلماذا تعرّض لذكر هذا الرجل من غير مناسبة؟ أهكذا يُرشدُ الناسُ إلى السعادةِ الأبديةِ يا ترى!؟

ثانياً: كيف أباح (هذا الشيخُ الصوفيُّ المنتسكُ) لنفسه أن يطلب الرحمة من الله لرجلٍ عاش قبل الهجرةِ بألفٍ وثلاثمائةِ سنةٍ (كما أفاد هو بالذات)، ولا يعلمُ أحدٌ إلا الله، هل مات (أوغوز خان) على الكفر أم على الإيمان، ولم يترحم عليه هذا الشيخُ إلا لأنه كان من أكابر التُّركِ؟! وبهذه المناسبة لا بدّ من الإفصاح بأنّه لا يجوز أن نسكت على ما تُؤمنُ به كبارُ هذه الطائفةِ النقشبنديةِ (دون عوامهم!) من أنواعِ الزندقةِ، وما يتواطؤون عليه، ومنها إيمانهم بنبوة هذا الرجلِ الجاهليّ استخفافاً بمحمدٍ عليه السلام ودينه الذي ارتضاه الله لعباده فقال تعالى إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ⁶⁰⁴ وقال تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ

603 عنونها دون أي تصريف (فريد الدين آيدن)

604 سورة آل عمران/19

غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁶⁰⁵، إِنَّ هَؤُلَاءِ إِنْ يُقْرَنَ بِالْإِسْلَامِ بَلْ وَيَعْتَرُونَ بِهِ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ إِنَّمَا هِيَ النُّسخةُ الَّتِي رَسَمَهَا لَهُمْ (خَوَاجِكَا) أَي قَدَمَاءِ النُّقْشَبندية الَّذِينَ بَنَوْا هَذَا الدِّينَ فِي بَخَارَى وَسَمَرْقَنْدَ عَلَى أَحَدِ عَشْرَ رَكْنًا أَخَذُوهَا مِنَ الْبُودِيَّةِ قَبْلَ سَبْعَةِ قُرُونٍ. عَلِمًا بِأَيِّ اقْتَبَسَتْ الْعِبَارَاتُ الْمَذْكُورَةُ آنفًا مِنَ الطَّبْعَةِ التَّاسِعَةِ وَالسَّبْعِينَ مِنَ الْكِتَابِ الْمَوْسُومِ: «السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ» (ص/1157)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَدَى انْتِشَارِ دَعْوَةِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عَلَى السَّاحَةِ التُّرْكِيَّةِ. وَبَلَّغْنَا فِي الْمَاضِي الْقَرِيبِ، أَتَمَّ قَدْ أَسْقَطُوا هَذِهِ الْعِبَارَاتُ مِنْ كِتَابِهِمُ الْمَذْكُورِ فِي طَبْعَاتِهِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ اسْتِنكَارَاتٍ شَدِيدَةٍ تَصَاعَدَتْ مِنْ تَجْمُعاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْحُنَفَاءِ.

هَذِهِ التَّفَاصِيلُ كُلُّهَا إِنْ دَلَّتْ عَلَى حَقِيقَةٍ فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النُّقْشَبنديةَ (الْأَتْرَاكُ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِمْ!)، إِنَّمَا يَرُونَ هَذَا الدِّينَ الَّذِي أَحْدَثُوهُ قَبْلَ سَبْعَةِ قُرُونٍ، يَرُونَهُ نُسخَةً أُخْرَى لِلْإِسْلَامِ تُمَيِّزُهُمْ عَنِ الْعَرَبِ، بَلْ عَنِ سَائِرِ النَّاسِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَيَسْتَعْنِي الْعَالَمُ الْعَاقِلُ بِهَذِهِ الدَّلَائِلِ عَنِ أَيِّ حِجَّةٍ أُخْرَى، وَلَا يُعَقِّلُ حَتَّى بَعْدَ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْبِرَاهِينِ (وَمَا أَكْثَرُهَا!)، أَنْ نَبْحَثَ عَنْ وَثِيقَةٍ ثَانِيَةٍ فِيهَا: «أَنَّ الطَّرِيفَةَ النُّقْشَبنديةَ نُسْخَةً أُخْرَى لِلْإِسْلَامِ الَّذِي اعْتَنَقَهُ الْأَتْرَاكُ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى». وَإِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ! وَمِمَّا يُبْرِهُنُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ التُّرْكِيَّ مَهْمَا بَلَغَتْ مَحَبَّتُهُ لِلْإِسْلَامِ وَاسْتَقْوَتْ صِلَتُهُ وَتَأَكَّدَ اعْتِرَازُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَقْبَلَ الْإِنْدِمَاحَ فِي جُمْهُورِ الْأُمَّةِ، وَيَقْنَعُ بِأَنَّهُ جُزْءٌ لَا يَنْجِزُ مِنْهَا! بَلْ يَأْتِي إِلَّا أَنْ تَكُونَ لِمَيِّزَاتِهِ الْقَوْمِيَّةِ عُكُوسٌ عَلَى دِينِهِ فِي كُلِّ عِبَادَاتِهِ، حَتَّى فِي صَلَاتِهِ وَدُعَائِهِ وَحِجِّهِ... هَذَا، وَلَيْسَ مِنَ الْحَفِيِّ أَنَّ الشَّخْصَ التُّرْكِيَّ فِي صَلَاتِهِ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِالْجُنْدِيِّ الَّذِي يَقِفُ مَائِلًا أَمَامَ أَمْرِهِ، يَنْتَصِبُ انْتِصَابًا شَدِيدًا، وَيُبَالِغُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ وَقُعُودِهِ وَهُوَ مَشْغُولٌ بِاسْتِعْرَاضِهَا غَيْرَ مُبَالٍ بِمَعَانِي مَا يَتْلُوهُ مِنْ آيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ، وَمَا يَأْتِي بِهِ مِنْ تَكْبِيرَاتٍ وَتَسْبِيحَاتٍ عَبَّرَ صَلَاتِهِ. وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَمَازَى فِي دِيَانَتِهِ وَعِبَادَتِهِ عَنِ «الْإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ السَّادِجِ الْبَسِيطِ الرَّخْوِ...» عَلَى حَدِّ ظَنِّهِ (وَهَذَا الظَّنُّ مُنْتَشِرٌ بَيْنَ الْأَتْرَاكِ، وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ).

وَالْأَمْرُ الثَّانِي مِنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ بِالْإِيجَازِ: أَنَّ الْأَتْرَاكُ بِعَامَّتِهِمْ لَيْسُوا مُجْتَمَعٌ عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ، وَإِنَّمَا كَانُوا بَدَوًا وَجُنُودًا فِي مَاضِيهِمْ؛ لَذَا، لَا تَزَالُ الرُّوحُ الْعَسْكَرِيَّةُ رَاسِخَةً فِي نَفُوسِهِمْ حَتَّى الْيَوْمِ، وَهَذَا الَّذِي مَنَعْتَهُمْ عَنِ مُمَارَسَةِ الْكِتَابَةِ طَوَالَ عَصُورٍ مِمَّا جَعَلَ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَارِيخِهِمْ وَدِيَانَاتِهِمْ وَمَعْتَقَدَاتِهِمْ

محصورةً في القصص والروايات التي لا يمكن توثيقها اليومَ بدلائلٍ مسطورةٍ في الكتب، وإنما تثبت بعض الحقائق منها بطرقٍ غير مباشرةٍ، كما إذا اندسَّ أحدٌ في صفوفِ الخاصةِ لبعضِ منظماتهم التي مازالت تتسم بتجمعاتٍ سرّيةٍ فيأتي بخبرهم.

والأمر الثالثُ من هذه الأمور الأربعة: أنّ أهمَّ أسباب الكراهية للعربِ في نفوسِ غالب الأتراك، إنّما نشأ بدافع الطريقة النقشبندية، وهذا يرتبط بما سبق من أسبابِ ذكرناها آنفاً، وأمّا أشدها خطورةً، فهي نظرةُ فئةٍ من هذه الطائفةِ إلى طريقتهم أنّها الإسلام الذي يختلفُ عما يعتنقه العربُ.

وأما الأمر الرابع من هذه الأمور الأربعة وأهمّها شأنًا: هو أنّ الطريقة النقشبندية وإن كانت أكثر الطرق الصوفية انتشارًا في المجتمع التركيّ وأشدّها تأثيرًا في نفوسِ هذا القوم منذ القديم، إلا أنّ جمهورًا من هذا الشعبِ قد صانهم الله تعالى من هذه الزندقةِ الخطيرة، لا يُحزّبون الإسلامَ شكلاً منه للتركِ وشكلاً للعربِ، بل يرونَ أمةَ الإسلامِ مُجمعةً على الكتابِ والسنةِ وعلى هدىً من الله، كما ينبغي استثناءً جماهير النقشبنديين الأكراد والعرب أيضاً من أصحابِ هذه الفكرة، وإنّ هُم يتحدون مع النقشبنديين الأتراك في أصولِ طريقتهم ورسومها وطقوسها والكراهية «للوهايين» فحسب دون غيرهم من سائر العرب.

بهذه التفاصيل الواضحة الجليّة، قد قامت دلائلٌ عدّة على أنّ طائفةً من النقشبنديين يرونَ هذه الطريقة الصوفية نُسخةً للإسلام الخاصّ بقومهم، تُميّزهم عن إسلام العرب. وثمة دلائلٌ أخرى تؤكد أيضاً على هذه الحقيقة. ومن أقواها الرؤيا التي سبق ذكرها على لسان مؤسس هذه الطريقة: مُجدِّ بهاء الدين البخاري،⁶⁰⁶ والطائفة الكبرى، أنّ هذه الفكرة الخطيرة قد انتشرت فتجاوزت محيطَ النقشبنديين! وقد أكتفيت بهذا الاقتباسِ اليسير من القسم الأولِ للتقرير، تفادياً للإملال.

ثانياً: الجوانبُ السلبية:

قال الفاضل الشيخ في المادة الأولى من نقده: «تعليقاً على ما ذكره المؤلف من ثناء على أهل الكلام... إلخ».

في الحقيقة لم يكن قصدي فيما قلته الثناء المحض وبخاصة على أهل الكلام، وإنما وجدت في كتب بعض الكلاميين ما يرد بدع الصوفية ويكذبهم، هذا من وجه؛ ومن وجه آخر، أردت أن أبرهن على حماقة النقشبنديين ومدى غبايهم أنهم يدرسون ويدرسون هذه الكتب في مدارسهم مع أن ما ورد في هذه الكتب من تعقبات جدلية تكذبهم وتدحض حججهم الواهية، وهذا أشد عليهم من ادحاضهم بما ورد في كتب السلفيين أهل التوحيد الحنفاء، كشرح الطحاوية، والعقيدة الواسطية وكتاب التوحيد وأمثالها. لأن في هذا الأسلوب من المحاجة إثارة لما في باطنهم من الحقد والضغينة على أهل التوحيد الخالص، فيتخذونه ذريعة للدفاع عن باطلهم ولشفاء غليلهم. وأما ادحاضهم في الدفاع عن التوحيد بالإشارة إلى ما هم فيه من الاضطراب والتناقض بمدارستهم كتب الكلاميين وهي تكذبهم، أسلم وأشد وقعا في نفوسهم، وكفى الله المؤمنين القتال!

ومن شواهد إخلاصي في هذه المقولة: ديباجتي لرسالة جمعتها من عبارات شارحين لنظم (بدأ الأمالي)، قلت فيها:

«أما بعد، فإنه اتفق لي البحث والنظر في شرحين لطيفين على قصيدة بدأ الأمالي مفيدتين في بعض جوانبهما الأدبية واللغوية (للأديب الشيخ أبي الحسن سراج الدين علي بن عثمان الأوشي نسبة إلى أوش، وهي قرية من قرى فرغانة)، أحدهما للعلامة علي بن سلطان بن محمد القاري (وهو المسمى: ضوء المعالي)، وثانيهما لمحمد بن سليمان الحلبي الريجوي (وهو المسمى: نُجْبَةُ اللَّالِي)؛ فأحببت أن ألتقط من كليهما عبارات لا يستغني عنها الطالب مما توافقت الكتاب والسنة، فأجمعتها وأمزجتها وأضيف إليها من تلقاء نفسي ملاحظات ومن كتب العلماء السلفيين كلما ناسب، فأرقيتها في قالب جديد لعله يحل محل الشرحين، فيتضاعف بذلك النفع للباحث ويزداد منه حظّه دون أن يتورط فيما وقع الناظم والشارحان فيه من الزلل، فبدأت هذه الرسالة بدباجة علي القاري. هذا، وقد تصرفت في نقل بعض عبارات الشارحين عبر التركيب، مع نقد ما فيها من مخالفات لنصوص الكتاب والسنة، ليس ذلك تحريفاً لكلماتهما أو أسلوبهما، بل تحسيناً لهذا القالب الجديد، إذ لا يمكن تحريفهما في الحقيقة لكثرة نسخهما. فقد ضاقت الأرض في عصرنا هذا على المحرفين والمنتحلين والحمد لله الذي

أحبط أعمالهم بعونه لأهل العلم والبحث في ضبط التراث. ولا يفوتني أن اعترف بفضل علماء السلف وتابعيهم من السلفيين المعاصرين في تأليف العقيدة الإسلامية على وفق الكتاب والسنة. وأما اهتمامي بهذا النظم وشرحيه، وأمثالها من كتب الكلاميين ليس لأني مُعجِبٌ بهم وبأسلوبهم، بل في هذه الطريقة من التأليف مخاطرٌ على غير المتمكّنين من الحقائق العلمية. فأحذّرُ المبتدئين من ذلك! أما مطالعتي ودراستي لكتب الفلاسفة والصوفية والمعتزلة والرافضة والكلاميين، فإنه لم يكن ذلك إلاّ بغرض البحث حول منطلقاتهم وأهدافهم، والإشارة إلى مواطن الفساد والخطر فيها! وفي هذا معذرة لأهل البحث كما لا يخفى. وسمّيتُ هذه الرسالة: بِ (شمس المعالي في دراسة الشرحين على منظومة بدأ الأمل)، والله تعالى الموفق والمثيب على هذا العمل وتعميم نفعه على الأهالي»

وفي هذا إجابةً أيضاً على ما جاء في تقرير الشيخ حفظه الله تعالى حيث يقول: «لكنه معذور، إذ يظهر أن جلّ عمره انصرف في فهم التصوّف والردّ عليه، فلم يتيسّر له النظر في حقيقة علم الكلام بالقدر نفسه.»!

في الحقيقة ليس الأمر كذلك. وممّا لا شكّ فيه أيّ قد صرفتُ جلّ أوقاتي (طوال أربعين عاماً) في البحث حول الفرق والمذاهب، والأديان، والملاّ والتحلّ، والفلسفات والإيديولوجيات؛ فتمكّنتُ بعون الله وكرمه تعالى من الاطّلاع على كنه غالبيها، وعلى أساليبها، ومقاصدها، ومواطن اتفاقها وافتراقها، وأسرار ضلالاتها، ومخالفاتها للكتاب والسنة...

ومع هذا، فلا إشكال فيما إذا دعت الحاجة الملحة لاسقاط كلمات من كتابنا (الطريقة النقشبندية) إذا كان يتوهم القارئ بسببها أيّ أثبتت على أهل الكلام بالقصد المحض وليس بغرض إبطال حجج النقشبنديين.

قال الفاضل الشيخ في المادّة الثانية من نقده: لا خلاف في ضلال الفكر والاعتقاد النقشبندي، غير أن المنتسبين إليه يغلب عليهم الجهل، وقلة العلم. وطريقة دعوتهم واستصلاحهم يحتاج إلى رؤية وكلمة طيبة، وموعظة حسنة، ومجادلة بالتي هي أحسن... إلخ.

لا يخفى على الشيخ حفظه الله تعالى ما ورد في ثنايا كتابي من الحث على هذا الجانب الهام في مهمة الإرشاد والإصلاح، كما أشار هو بالذات إلى ما صرفته من النكير على الذين لم يسلكوا في دعوتهم جانب اللين والعطف والحنو مع الجهلة من عباد الله. وقد استشهد الشيخ بعين ما أوردته من الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: **أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**⁶⁰⁷

أما قول الشيخ حفظه الله تعالى: «والملاحظ أن المؤلف قد بالغ في التقييح والتشنيع على المنتسبين، وهذا ربما منعهم من الانتفاع من كلامه القيم في النقد، لأنه حينئذ تأخذهم العزة بالإثم، فيتعصبون جاهلية... إلى أن قال: والواضح إنه مدرك لأهمية الأسلوب اللين الحسن في الدعوة والاستصلاح... الخ»

في الحقيقة تحتاج هذه الكلمات إلى تعقيب يوافي ما تكبدته في دعوة هذه الطائفة من السهر والعناء والمشقة أكثر من ثلاثين سنة بله ما تعرضت له من استحقارٍ وشتيمٍ ولعنٍ وتشريدٍ ومخاطرٍ أقصت مضجعي فجعلتني أتقلب في أمواجٍ من الهموم والقلق ما لا يمكن حتى تلخيصه في مثل هذا المقام. ولكن أستحسن ذكر شيءٍ منه في منتهى الإيجاز لعلّ يقدم عكوساً من الحقائق عن هذا المجتمع ليكون عبرة لأولى الألباب.

نبذة من قصة حياتي وذكرياتي

كنتُ من أهمّ الشخصيات البارزين بين شيوخ النقشبندية في تركيا ومرجعاً روحياً لهذه الطائفة. إذ وُلدتُ ونشأتُ في أسرة ذات مكانة مرموقة تنهافت عليها جمهورٌ من الناس لما لها من صفاتٍ تُميّزها عن بقية شيوخ الطائفة.

أولاً: أنّها أسرة مشهورة من البيت الهاشمي، تنتهي إلى الحسن بن عليّ رض الله عنهما (إذا صحّ، والله أعلم).

ثانياً: لم تتغيّر الطابع العربيّ في هذه الأسرة رغم سياسة التتريك بإعطائها لقب آيدن Aydın إجباراً. لذا تميّزت بهذه الصفة (العربية) قداسةً في نظر الذين يجعلون من هذا الطابع صلةً بين العرب والاسلام أو بين البيت الهاشمي والاسلام! فَيُفَضِّلُونَ العربَ على بقية المسلمين من عناصر عجمية. (أصحاب هذا الظنّ الخاطيء كانوا قلةً من الأكراد والعربِ بجنوب تركيا، وما كاد أحدُ اليومِ يعبأ بهذه الفكرة).

ثالثاً: كان بيتنا مؤيلاً لآلاف الزائرين والوافدين من أطراف البلاد حتى عام 1960م. منهم من يأتي للدراسة في مدارسنا (التي كانت كُليّةً من كليات الجامعة الزهراء)⁶⁰⁸ ليتعلّم فيها اللغة العربية ويتلقّى

608 كُتِبَتْ مَقَالَةٌ تَفْصِيْلِيَّةٌ حَوْلَ هَذِهِ الْجَامِعَةِ، فَتُشْرِطُ فِي مَجَلَّةِ كَلِيَّةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْجَاهَلِيَّةِ الْبَلِيَّةِ، الْعَدَدِ الْخَامِسِ، عَامَ 1988م.

العلوم الإسلامية من عقيدة وفقه وتفسيرٍ وحديثٍ... ومنهم مَنْ يأتي فأراً من عدوه يستغيث ويطلب الحماية، ومنهم مَنْ يأتي للتظلم يطلب القضاء بينه وبين خصمه وهو يرفض اللجوء إلى المحاكم، لتبريه عن القوانين الوضعية، ومنهم مَنْ يأتي ليتبرك بأعتابنا يطلب التمام والدعاء والشفاء والشفاعة يوم القيامة وربما المغفرة لميته! فكانت الوفود من أصحاب هذه العقلية يزورون قبة جدي الشيخ محمد الحزين وهي قبة عظيمة فوق هضبة بقرية اسمها (فُرساف)، على مقربة من مدينة (أسعرد) من جهة الشمال، سكاتها عرب. وللأسف الشديد لا تزال هذه القبة مزاراً للناس حتى الآن، بالإضافة إلى قبة أخرى بمدينة أسعرد فيها أضرحة لأعمامي، منهم الشيخ محمد موسى الكاظم الذي مر ذكره في كتابي (ص/356، الطبعة الثانية)، وقد رثاه الشيخ زكي أوران وهو شخص من مرديه بهذه الكلمات الخطيرة:

رُزُ ذَا الْمَقَامِ فِيهِ شَيْخٌ كَامِلٌ * مَنْ فِي الْكُرُوبِ لَنَا عَلَيْهِ مَعْوَلٌ
نَجَلُ الْحَزِينِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ كَاظِمٍ * مِنْ فَضْلِهِ فِي النَّاسِ لَيْسَ يُجْهَلُ⁶⁰⁹
وَتَأْدَبُنْ بِحُضُورِهِ وَتَوَسَّلَنْ * بِهِ فَالْتَوَسَّلْ عِنْدَ رَبِّهِ يُقْبَلْ
يَا رَبَّنَا غَمِّدْهُ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ * وَاجْعَلْ لَهُ الْجَنَاتِ فِيهَا يَرْفَلُ⁶¹⁰

نشأت في منطقة مليئة بأمور متناقضة وشؤون غريبة ولغاتٍ مختلفة وطبقاتٍ متباينة وسلالاتٍ عريقة؛ فيها العلم والمعرفة والتدريس ومجالس الذكر والسماع، وفيها البدع والخرافات والأباطيل والتوحيد والشرك والإسلام والجاهلية في آنٍ واحدٍ، تشبكت في حينٍ وتشابكت في حينٍ آخر، مع ذلك قلَّ مَنْ يستغرب هذا الخلط والعبث، ولا يفكر في إيقاف هذا السيل الجارف الذي يحمل الغث والسمين، غير أنَّ البيئة التي قضيت فيها أيام طفولتي وشبابي كانت ساحة نيرة في وسط هذا الظلام، تحتضن جموعاً من الطلبة والعلماء يتزعمها كبار أسرتي وعلى رأسها المغفور له والدي الشيخ صلاح بن عبد الله بن محمد الحزين الهاشمي. ولا يفوتني أن أقر هنا بشهادة الحق لهذا الرجل العالم الفقيه الصالح التقى إنه كان مؤحداً في إيمانه لا يشوبه قطميرٌ من الشرك. ولهذا ظلَّ مُستهدفاً لضغينة شيوخ الطائفة حتى أتاه اليقين.

حفظت الكتاب العزيز عليه، ودرست اللغة العربية والآداب والعلوم الإسلامية على نُخبة من العلماء جُلهم من العرب، بجانب ما درست من العلوم الحديثة في المدارس الرسمية، فحظيت نصيباً وافراً من المعرفة والثقافة حتى أصبحت محسوداً بين أصحابي وأمثالي من الخريجين مما كانوا يعانون العجز في استخدام اللغة العربية نطقاً وكتابةً. وهذا العيب لا يزال شائعاً حتى الآن في جميع من تصفهم الناس بسمة العلم عرباً وكرداً وتركاً في بلادنا.

ولما كانت من العادة الشائعة بين العائلات المشهورة في الرعامة لجماعات الصوفية: أن كلاً منها تقوم بأعداد شخصية من أبنائها ليتولى رئاسة الأسرة والجماعة الملتفة حولها حفظاً على مركزها ومكانتها ومصالحها، رشحتني الأسرة (إذ أتمرغ في أحوال الشرك الصوفي)، رشحتني للقيام بهذه المهمة بشرط أن أقيم في اسطنبول، فأتولّى توجية المنتسبين إلى العائلة الحزبية في تلك المدينة وجوارها سعياً لتأكيد ثقتهم بأسرتنا وتوطيد صلتهم بها، ضد محاولة بعض الشيوخ الذين يعملون على استمالة الناس من مريدي غيرهم. إذ هناك منافسة وصراع عنيف بين شيوخ الطرائق الصوفية قديماً وحديثاً، ذلك طلباً للجاه والشهرة والمصالح بتوسيع النطاق والإكثار من المؤيدين والأنصار.

سافرت إلى اسطنبول يوم الثالث عشر من شهر أبريل/نيسان عام 1968م. بعد أن حضر جمع غفير من المريدين محطة القطار بمدينة تطوان الواقعة بشرقى تركيا لتوديعي. وما إن أفلح القطار، حتى زارني كبير الموظفين به فمَثَل بين يديّ باحترام قائلاً: يا مولانا! قد أعددت لسماحتكم حُجرة خاصة تقضون فيها مدة السفر إلى اسطنبول... فانتقلت مع زوجتي إلى الحجرة المخصصة لنا؛ وهكذا، إلى أن استقبلتنا جماعة كثيفة من المريدين في محطة الوصول بإسطنبول، ثم أصبحت داري في هذه المدينة منذ بدأ إقامتنا مقصداً للزائرين، وكنت يومئذٍ بالغاً من العمر ثلاثة وعشرين عاماً. ورغم هذه المكانة الوريثية في مثل هذا السن المبكر كانت تتناوبني تساؤلات وهواجس أحاسبُ بها نفسي: - ما لنا وهذه الأبهة والحشم والتماييز! وما أرى ذلك إلا لأن الناس يعتقدون فينا (نحن زمرة شيوخ الطرائق الصوفية) من الكرامة والبركة ما لا يعتقدون في غيرنا. نعم كان الأمر كذلك، فكُنّا في اعتقادهم: زمرة من المصطفين الأخيار، والمجتبين الأبرار، لا يشقى جلسنا ولا يُردُّ لنا دُعاء... ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل كُنّا أيضاً في اعتقادهم: مُفوضين من طرف الله، نتصرف في ملكه كيف نشاء، ونعلم الغيب، وتنطوي لنا الأرض، نقطع المسافات البعيدة في لحظات، ويتوقف لنا الزمان فنصلي في الكعبة المشرفة وفي مسجد الحبي في آن واحد... إلى غير ذلك من خزعات لا صحة لها ديناً وعقلاً.

كنتُ يومئذٍ مجردَ «شيخِ المهدي» في مصطلحِ صوفيةِ التُّرك. ومعنى «شيخِ المهدي»: أن كلَّ مولودٍ لشيخِ الطريقةِ شيخٌ أيضاً من يومٍ ولَدَتْهُ أُمُّهُ! ثمَّ إذا نشأ ودرَسَ وسَلَّكَ فَنَجَحَ بعدَ سُلُوكِهِ (وهو شكلٌ من التربيةِ الرياضيةِ عندِ الصوفيةِ النقشبنديةِ خاصَّةً)، يُجيزُهُ مُرْشِدُهُ بِإِجَازَةٍ (بمعنى شهادةِ التخرُّجِ)، يأذنُ له بما القيامَ ببثِّ تعاليمِ الطريقةِ وقبولِ الناسِ للانخراطِ في سلكِها. فيكونُ بذلكَ (خَلِيفَةً)، يُحرِّزُ مَنْصِبَ شيخِ الطريقةِ بالمعنى الحقيقيِّ، فيتصرَّفُ إذن في قبولِ المريدينَ وردِّهم وتوجيههم وطردهم «أوتدريجهم إلى حضراتِ القدس!» على حدِّ قولهم الذي يُسرِّونه غايةِ الإسرار. (وهو مقامِ الحلولِ والاتِّحاد). كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا.

أيقنتُ يومئذٍ أنني بحاجةٍ إلى مثلِ هذهِ الإجازةِ لأُبَرِّزَ بها مكاني بينَ أمثالي من الشيوخِ عند ما يقتضي ذلكَ فأصبحَ مُعترفًا به في عالمِ الصوفيَّةِ، لأنَّ الظروفَ والأحداثَ قد تستوجبُ ذلكَ في عُرفهم!

تقدَّمتُ بطلبِ الاستجازةِ إلى أحدِ أساطينِ هذهِ الطائفةِ بعد أن تأملتُ مدَّةً لأختارَ الأمثلَ منهم، فاستقرَّ رأيي على الشيخِ سليمان بن عبد الله الخالدي المخزومي (1868-1976) وذلكَ لأسبابٍ: منها إنَّه عربيٌّ، ومنها إنَّه عالمٌ أديبٌ شاعرٌ مشاركٌ في اختصاصاتٍ مختلفةٍ، له تأليفٌ في الفقه والتصوُّف⁶¹¹، ومنها إنَّه أكبرُ سنًّا من جميعِ شيوخِ النقشبنديةِ، إذ كانَ عمره يومئذٍ يُربي على المائةِ، ومنها إنَّه ممَّن درَسَ عليه والدي، ومنها إنَّه كانَ خليفةً عمِّ لأبي في الطريقةِ. فطلبتُ منه أن يجيزني لأقومَ ببثِّ الطريقةِ النقشبنديةِ نيابةً عنه في إسطنبول. إلَّا أنَّ هذا الأسلوبَ كانَ مخالفاً لعرفِ النقشبنديةِ؛ لأنِّي قمتُ بهذا الطلبِ من مسافةٍ بعيدةٍ، (من مدينةِ إسطنبول)، وهو يقيمُ يومئذٍ في مدينةِ أسعُرد Siirt، وأمامَ خطابِ المريدي إلى شيخه عن طريقِ المراسلةِ الكتابيةِ يُعدُّ من الإساءةِ بأدبِ الطائفةِ إلَّا إذا تعدَّرَ أو شقَّ ذلكَ عليه، خاصَّةً وأنَّ مفهومَ الاحترامِ عندِ النقشبنديينَ يختلفُ كلَّ

611 عثر على عدَّةِ مؤلَّفاتٍ له طبعَ منها مايلي:

* الهدية السليمانية شرح القصيدة التجلية للشيخ محمد الخزين الفرساني الهامبي

* هبة المنان، شرح قصيدة (أيا إنسان)، أيضاً للشيخ محمد الخزين الفرساني الهامبي.

* نور الصباح في أحكام النكاح.

* حلّ المشكلات.

* نفع الأنام في إسقاط الصلاة والصيام.

* بذل الهبة في مسائل الزكاة المهمة.

ويغلب أن له مؤلَّفاتٍ أخرى لم تُطبع، لأنَّها ذهبت صحبةً للاهمال أو أتلفتها سياسة التزيك!!!

الاختلاف عمّا يفهمه الناس ويعتادونه. إنّ المريّد أو الطالب لهذه الصفة يجب عليه أن يكون مُستعدّاً للفداء بكلّ شيءٍ يملكه، وأن لا يمتنع عن القيام بأيّ أمرٍ يُرضي به شيخه ولو كان محرّماً! فلا بدّ أن يمثل له عن طيبة خاطرٍ. ومن جملة ما يجب على المريّد أو على طالب هذه الصفة أن يتقدّم بنفسه إلى شيخه وليس بإرسال كتابٍ. بيد أنّه أغضى عن ذلك فضلاً، بل زاد تواضعاً فأجازني في أمدٍ قصيرٍ، قلّما رزق طالب مثله.

وما إن أصبحت «خليفةً على سجادة الارشار» فور وفاته، حتّى شمّرت عن ساعد الجِدِّ فبدأت بإقامة حلقات الذكر؛ ولم يكن ذلك إلاّ تحمّساً مني لاثارة الشوق في قلوب المنتسبين إلى أسرتنا وتوطيد ثقتهم وتمسّكهم بما رجعاً لمحاولة ما يُسمّى بـ «صيد المريدين». ذلك أنّ شيوخ الطرق الصوفية طالما يطمعون في توسيع نطاق نفوذهم، فيتوغّل بعضهم أحياناً في منطقة شيخٍ آخر، يدعو مريديه للانتساب إليه، وقد تتمخض عن ذلك تطوّراتٍ سياسية واجتماعية.

دامت حلقاتنا وجلساتنا هكذا بين أعوام 1969-1974م.، لأنهم مبدءاً من مبادئ هذه الطريقة وفقاً لأركانها الأحد عشر، نجتمع في عشية أيام الخميس بعد صلاة المغرب، فنقيم حلقة «ختم حواججان» بعد صلاة العشاء مع الاصرار على رابطة المرشد، وهي شكلٌ من أشكال التعبّد في الدين النقشبندي!

تأخّذني الحيرة الآن، أنّ هذه الأمور في الحقيقة لم تكن من المُتعارف داخل الأسرة التي نشأت فيها؛ فإنّ والدي وأعمامي المأذونين في هذه الطريقة، على رغم ماكان معروفاً من أنّهم شيوخ الطريقة النقشبندية (ولا أشكّ في الوقت ذاته أنّهم كانوا قبوريين ماعدا والدي!)، ما كان أحد منهم يقيم هذه الطقوس ولا كانت هي معروفة بين أتباعنا. فيبدو لي أنّ كبار أسرتنا كانوا قد انتبهوا إلى مخاطرها، لأنّي أذكر بعض كلامهم الذي يوهّم شكوكهم في الآونة الأخيرة حول هذه الطريقة «أنّها تيارٌ غريبٌ على الإسلام، ابتلى به المسلمون من غير روية...». ذلك، لأنهم كانوا من أهل المعرفة والتدريس والتخصّص في شتى العلوم الإسلامية من عقيدة وفقه وتفسيرٍ وحديثٍ وغير ذلك من شعب الفنون. فكانوا متمكّنين من أصولها وفروعها ومنقولها ومعقولاتها ودقائق تفاصيلها، بالإضافة إلى أنّهم كانوا يمتازون بالذوق العربي الخالص، فأبّت نفوسهم وضمائرهم أن يرضخوا لتعاليم هذا التيار الصوفيّ الدخيل الذي يتعارض مع الإسلام بتمامه، إلاّ أنّهم ربما كانوا يحسبون حسابهم لأسباب وظروف (ولا

أقول: يخافون على أنفسهم أو ينافقون)، فيكتفون بالسكوت أحياناً وبتخاذ أساليب لبقّة وتوجيهات حاذقة أحياناً، بخلاف بقية الشيوخ ذوي الأصول العربيّة في المنطقة الذين انصهروا في بوتقة الكرد والترك، ولا يكاد أحد منهم ينطق ويكتب بالعربيّة اليوم، وعلى رأسها الأسرة الأرواسيّة، وهي من امتداد السلالة الحسينية، استغلّتها جماعةً طورانيةً من النقشبنديين، فجعلت منها صنماً يعبدها اليوم ملايين من الناس في تركيا. أما هذه الجماعة فهي منظمّة خطيرة أسسها رجلٌ عسكريّ (وهو العقيد حسين حلمي إيشك، مات قبل عامين، يتوب عنه الآن الدكتور أنور أورين Dr. Enver Oren). ومن خلفاء هذه الأسرة عائلة الملاً عبد الحكيم البلوانسي. هذه الأسرة أيضاً حُسَيْنِيَّة (عربية الأصل، كُرديّة النشأة)، استغلّتها نفسُ الرجل وبطانتُهُ، فجعلوا منها صنماً ثانياً. لهذه الأسرة قاعدةٌ بقرب مدينة (آديامان). يقوم آلاف من المبشرين للدعوة إليها في أنحاء تركيا، وهي أقوى مراكز النقشبندية وأشدّها تمسُّكاً بالتعاليم البوذية: (هُوشُ دَرْدَم، ونَظَرُ بَرِ قَدَم، وَسَفَرُ دَرِ وَطَن... والرابطة والحنمة الخُواجِغانيّة... إلخ).

ولا شكّ في أن أميركا تهتمّ بهذه المراكز لتجنيدها ضمن (مشروع الشرق الأوسط). وهذا الذي أشرت إليه في كتابي ضمن الكلمة الختامية (ص/369)، قبل سنين، إذ لم يكن هذا المشروع يومئذ شيئاً مذكوراً، ولكن بفراسة الرجل المؤمن الموحّد والحمد لله، وأما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

وإذا عدنا إلى قصّتي: في الحقيقة أيّ كُنْتُ صوفيّاً قبوريّاً، كما يقول الأستاذ عبد المنعم الجداوي في اعترافاته. قضيتُ أيّامَ طفولتي وفترةً من أيّامِ شبّابي في ظلمةٍ حالكةٍ من الاشرارِ باللهِ وأنا أشدُّ الناسِ قياماً بما فرض الله على عباده من الصلاة والصوم والحجّ والزكاة والتبّتل والإكثار من النوافل، بإزاء ما كنتُ ألترّم به من الرابطة والحنمة الخُواجِغانيّة وزيارة الأضرحة وتعظيم القبور والاستمداد من أرواح «الأولياء»، وغير ذلك من مَؤَبقاتِ الإيمان وقد قال تعالى: « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »⁶¹². إلا أنّ هذه الحالة من صفة المشهورين من شيوخ النقشبندية، يجمعون بين تعاليم الإسلام وتعاليم بوذا في عبادة الله على مرّ حياتهم والعباد بالله!

وبينا أنا على هذه الصفة من العبث والخلطِ دوغما انتباه إلى ما في ذلك من اضطرابٍ وتناقضٍ وتضاربٍ وتعارضٍ، فضلاً عما أبدل من الجهد للهيمنة على نفوس المريدين لأستدرجهم إلى أعماق

هذا العالم المظلم، زارني ذات عشية شخص من البارزين من أتباعي، اسمه موسى أباري، فلم تكن الساعة من الأوقات التي أستقبل فيها الزائرين والضيوف. قلت في نفسي لعله جاني بأمر عاجل يستفتيني فيه؛ فلما استقر جالساً بعد أن أدت له بالجلوس، أخبرني: أنه فوجيء بتهمة يقصد بها المتهم، أي أتباعي نرتكب الشرك بالله كلما نعدنا إلى الرابطة!

فلما سمعت هذه الكلمات، نبضت خَلجات الغضب في ضميري، إلا أنني أحجمت عما بدأ يجيش بين جوانحي من الثورة على هذا الاتهام الجريء. - ترى من يكون هذا الذي يرمينا بالشرك نحن عباد الله الصالحين! يتضرع الناس إليه تعالى بجاهنا، ويُقسِمُونَ بِهَامَاتِنَا قَبْلَ أَنْ يَحْلِفُوا بِاللَّهِ، ولا يتقرب إلينا أحد إلا غايته التقرب إلى الله؟!... هكذا تصوّرت لحظات وأنا في صمت وجمود.

فلم يلبث حتى نابتني أناة وأدركني انتباه كأيّ أستفيق من غشية أو أستيقظ من سبات عميق. فالتفت إلى مردي، فلاحظته ونصحته بالصبر وضبط النفس حتى أتدبر المسألة فأخبره بما يجب القيام به إن كان يقتضي ذلك... وإلا فالتجاهل لمثل هذه الهفوات أفضل، دفعا للفتنة وحفظاً للمرورة... ثم صرفته برقي، وبدأت بالبحث عن حقيقة الرابطة بعد تلك اللحظة، وهذا الحدث يُعتبر نقطة تحوّل جذري في حياتي.

هذا، فإنما كانت هدايتي بمحض فضل الله تبارك وتعالى، ولم تكن بدعوة من أحد ولا بإشارة مرشد، و«الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله...». لذا، تمتاز هذه الهداية عن هداية الأتباع والذبول والأذنان بطريق التقليد المحض. فإنهم قد يتخلصون من أصنام عديدة، ولكنهم بعد ذلك يتشبثون بشبه صنم واحد، إذ يرونه المصدر الحقيقي الوحيد لهدايتهم، فيخلعون عليه نعوتاً لا يتصف بها غيره من المكانة والعظمة والعلم والدكاء والدهاء! كل ذلك تملقاً ورياءً واستغلالاً للضماير، أو جهلاً وتقليداً... والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.⁶¹³

ولي مع فئة من هؤلاء الذبول قصة شائعة سأوافيكموها فيما بعد إن شاء الله تعالى. فالله سبحانه الذي هداني وثبتني عليها بكرمه. فالفرق إذن بين هدايتي وبين ما رزق منها غيري على يد أحد من

613 عن غثبة بن عبد الله عن ابن المبارك عن سليمان بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله (سنن النسائي/1560). وبإختلاف بسيط، كذا عن وكيع عن سليمان بن جعفر عن أبيه عن جابر. (سنن أحمد/1445)

عبادِهِ الصالحينَ ظاهرٌ حينَ يتشبثونَ به ويتخذونه شبه صنمٍ وهو بريءٌ منهم، بله على ما يُنكرونَ على عبدة الأصنامِ، ويعدونَ أنفسهم من خلاصة السلفيين. فهذا مبلغهم من العلم بالتوحيد!

ولمَّا أيقظني ربِّي من نوم الغفلةِ بهذه المفاجأة الغريبة، بدأتُ الشكوكُ تُدبُّ في روحي، وتجعلني أتساءلُ في نفسي عمَّا إذا كانتْ هذه الرابطة التي نتعبدُ بها من صنَعِ الشيطانِ، ولكنِّي أتممها أحياناً بسوءِ الظنِّ في مَشائِخِنَا، فأقول: «وهم أولياءُ الله وخاصَّتُهُ من عباده الذين رفضوا زينةَ الحياةِ الدنيا طمعاً فيما عند الله من نعيمٍ وجنانٍ سوفَ يخلدونَ فيها». حسبَ اعتقادي يومئذٍ. ولم يكن الأمرُ كذلك في الحقيقة من وجهين. أولاً: أنَّ أولياءَ الصوفيةِ لم يعبدوا الله طمعاً فيما عنده من نعيمٍ وجنانٍ، بل بغرض الاتحادِ معه والحلولِ فيه، تعالى ربُّنا عمَّا يقوله الفاسفون. ثانياً: أنَّ هؤلاءِ لم يكونوا أصلاً من أولياءِ الله بل كانوا أولياءِ الشيطانِ بلا ريبٍ... وهذا يدلُّ على أنَّ الضلالة متى تأصلت في الإنسانِ وأصبحت مرضاً مُرمئاً في أعماق وجدانه، جعلته غيباً لا يكاد يميِّز الحقَّ من الباطلِ بحيث لا ينفعه علمُهُ. وللأسف كنا على هذه الحالة التي يُرثى عليها... وعلى ما كان من خالصِ اعتقادي بهم، كنتُ أقول: وكيف هؤلاءِ الأفاضل أن يقعوا في حبالِ الشيطانِ وهم أشدُّ الناسِ يقظةً لا تعترِبهم غفلةٌ حتى في نومهم. هكذا كنا نعتقد فيهم، (وخاصةً منهم محمدُ بهاء الدين البخاري المعروف بين النقشبنديين بِشاهِ نقشبند، وأحمد القاروقى السرهندي الذي تُعظِّمهُ الطائفةُ بصفة الإمام الرِّبَّاني، وخالد البغدادي المشهور بصفة ذي الجناحين بين ملايين الناسِ، وكذلك جدِّي الشيخ محمد الحزبن وأمثالهم) الذين يزور آلاف الناسِ أضرحتهم، ويستمدونها الشفاعةَ والمغفرةَ والشفاءَ؛ فكيف بهم أن يكونَ الشيطانُ قد غرهم؟! ولقد كنتُ غافلاً يومئذٍ تمامَ الغفلةِ عمَّا قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.⁶¹⁴ فلمَّا نظر إلى ما ورد عن هؤلاءِ من أقوالٍ في أشعارهم ومكاتيبهم وتوجيهاتهم، نجد كثيراً ممَّا ألقى الشيطانُ في أمْنيتهم فتأصلت وتحكمت فيهم، وهي شاهدةٌ عليهم إلى يوم القيامة!⁶¹⁵

614 سورة الحج/52

615 فيما روي عن شاه نقشبند محمد بهاء الدين البخاري: أنه زاد ثلاثة مبادئ على ما جاء به المُجذِّون من هرطقة البوذية، وهي أحد عشر ركناً: ثمانية منها لِلْمُجذِّون، وثلاثة منها محمد بهاء الدين البخاري. (راجع: الفصل الثاني). وأمَّا

السرهندي فمكاتيبه شاهدةٌ عليه، وأمَّا جدِّي الشيخ محمد الحزبن، فإنَّ ضلاله ظاهرةٌ في مواطن كثيرة من أشعاره. قال في مناجاة له: أن الله خاطبه:

يا حزينٌ قد قرتك إلى بالوصال * ورفقت لك القاب عن وجوه جمالي

فاني وخاب حبيب لم أزد السائلين * فانظرتني وعانقتي ولا تبالي

(نقلته من كتاب الهدية السليمانية للشيخ سليمان الخالدي المخرومي ص/7. طبع في حلب - المطبعة السورية باشراف الملا أحمد الرفيكي عام 1387هـ).

شغلتنِي الرَّابطة منذ اللَّحظة التي أخبرني فيها الشيخ موسى أباري بأنَّ شخصاً يُلصِقُ بناً هَمَّةَ الشَّرِكِ بِسَبَبِهَا؛ فأصبحتُ عُقْدَةً تُخْرِجُنِي وتُجْرِحُ وجداني وتُجْرِي عَلَيَّ التَّحْقِيقَ مِنْهَا حَتَّى أَطْمَئِنَّ عَمَّا إِذَا هِيَ حَقٌّ أَمْ باطِلٌ. وما إنَّ صرفتُ الشَّخْصَ موسى بعد أن شكرتُهُ على إِخْلَاصِهِ لَنَا وَصَلَتِهِ الْقَوِيَّةَ بِطَرِيقَتِنَا، حَتَّى تَنَاوَلْتُ كِتَابَ (تَنْوِيرِ الْقُلُوبِ) لِمُؤَلِّفِهِ مُحَمَّدِ أَمِينِ الْكُرْدِيِّ الْأَرْبَلِيِّ (ت. 1332هـ.)، فَتَصَفَّحْتُ الْقِسْمَ الثَّلَاثَ مِنْهُ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَسَائِلِ التَّنْصُوفِ. حَتَّى إِذَا عَثَرْتُ عَلَى مَوْضُوعٍ عَنَوَانُهُ: «وَمَبْنَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْعَلِيَّةِ عَلَى الْعَمَلِ بِأَحَدِي عَشْرَةَ كَلِمَةً فَارْسِيَّةً (ص/506)». فَأَخَذْتَنِي الدَّهْشَةُ فِي الْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنْ رَجُلًا مِنْ «عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ»! يَنْصَحُ النَّاسَ بِأَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَى طَرِيقَةِ مَبْنَاهَا مِصْطَلِحَاتٍ فَارْسِيَّةً؟ هَذَا، وَيَجِبُ التَّرْكِيزُ هُنَا عَلَى أَيِّ لَا أَقُولُ بِنَفِي ذِكْرِ اللَّهِ بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. بَلْ يَجُوزُ (بِقَدْرِ مَا يَجُوزُ!) أَنْ يَذْكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ بِلُغَتِهِ، وَلَكِنْ مَا بِالْ مَنْ أَلْفَ كِتَابًا ضَخْمًا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْفِقْهِ، فَضْلًا عَمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْبَرَكَةِ وَالْكَرَامَةِ وَأَنَّهُ «شَيْخُ شَيْخِ الْعَصْرِ، وَقُدُوةٌ جِهَابِذَةٌ كَلِّ مِصْرَ، وَنُورٌ أَضَاءَ مِنْ عَيْنِ الْمَنَّةِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى هَذَا الْقَطْرِ، وَغَيْثٌ رَبَّيْتُ عَامًّا أَيْنَعُ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ قَفْرٍ...»⁶¹⁶ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَبَالِغَاتٍ وَإِفْرَاطٍ وَإِسْرَافٍ... مَا بِالْهُ يَقْدَمُ لِلْمُسْلِمِينَ طَرِيقَةً شَادَّةً مِنَ الذِّكْرِ غَرِيبَةً عَلَى الْإِسْلَامِ، مِصْطَلِحَاتَهَا فَارْسِيَّةً، وَمَسْتَوْحَاهَا دِيَانَاتٌ هِنْدِيَّةً، وَتَوْجِيهَاتُهَا كَفَرِيَّةً؟!

إِنَّ هَذَا التَّسَاوُلَ قَادِنِي حَتَّى أَلْقَيْتُ النَّظَرَ عَلَى سَطُورٍ وَرَدَتْ فِيهَا نَبْذَةٌ مِنَ الرَّابِطَةِ وَطَرِيقَةِ إِجْرَائِهَا فِي الصَّفْحَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ وَالثَّانِيَةِ عَشْرَةَ بَعْدَ الْخَمْسِمِائَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ؛ يَشْرَحُهَا الْمُؤَلِّفُ وَيُعَدِّدُ شُرُوطَهَا وَهُوَ يُرْشِدُ الْمُرِيدَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِيَقُولُ: «التَّاسِعُ، رَابِطَةُ الْمُرْشِدِ. وَهِيَ مُقَابِلَةُ قَلْبِ الْمُرِيدِ بِقَلْبِ شَيْخِهِ، وَحَفْظُ صُورَتِهِ فِي الْخِيَالِ وَلَوْ فِي غَيْبَتِهِ، وَمَلَا حِظَّةً أَنْ قَلْبَ الشَّيْخِ كَالْمِيزَابِ يَنْزِلُ الْفَيْضُ مِنْ بَحْرِ الْمَحِيطِ إِلَى قَلْبِ الْمُرِيدِ الْمُرَابِطِ، وَاسْتِمْدَادُ الْبَرَكَةِ مِنْهُ لِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ إِلَى التَّوَصُّلِ...»

زَادْتَنِي هَذِهِ السُّطُورُ دَهْشَةً عِنْدَمَا قَرَأْتُ بَعْدَهَا مَبَاشَرَةً مِنْ كَلِمَاتِ الْمُؤَلِّفِ أَنَّهُ يَقُولُ فِيهَا: «وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ»، فَيَسْتَدَلُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ⁶¹⁷ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ.⁶¹⁸

616 لمراجعة البقية من هذه الفقرات، راجع مقدمة كتاب تنوير القلوب محمد أمين الكردي الأربلي.

617 سورة المائدة/35

618 سورة التوبة/119

إنّ مثل هذا الاستدلال الفاسد، زادني أضعافاً مما ينتابني من الدهشة كما زاد من عدد الأسباب التي دفعني كلّ منها بحافزٍ خاصٍ إلى مجال البحث حول الرابطة النقشبندية. ومن الغرابة بمكان، إنّي كنتُ شيخاً مُجازاً على سجادة النقشبندية وأنا غافلٌ يومئذٍ عن حقيقة هذه الطريقة ومبناها ومستوحاها ونسيجها المتصافِر من الإسلام والبوذية!

فلماً نبهني ربّي بباعثِ هذه التّهمة وكتبَ لنفسِي الهداية في أمِدٍ غيرٍ مديد، بدأتُ أتحرّى طريق الخلاصِ أولاً من آالفِ المُلتقيين حولي والمفتنين بهذه الطريقة، دونَ أن يشعروا بما حدث لي من التغيّر في آرائي وضميري؛ ليس ذلك خوفاً من أيّ عداءٍ تتعرّضُ له حياتي ومالي، كلاً!... ولكن أيقنتُ أنّي لن أنجح في دعوتي لهم إلى الحقِّ بمجردِ تخطيّي للطريقة النقشبندية واستدلالِي بالكتابِ والسنة، خاصّةً في تلك المرحلة التي لم أعلم أحداً يُؤخِّدُ الله في هذا البلد! إذًا، فكانَ لا بدّ أولاً من تمهيد السبيل لهذه الدعوة ولم يكن ذلك من السهلِ طبعاً، لأنّ مثل هذا النهوضِ يحتاج إلى تفكيرٍ وتنظيمٍ ومالٍ ورجالٍ ووقت... .

فأيقنتُ أنّ الاستعدادَ لهذه المهمة الخطيرة لا يمكن إلاّ خارج البلاد. فسافرتُ إلى ليبيا بذريعة البحوث العلمية، فانخرطتُ في سلك الموظفين باحدى الشركات التركية للمقاولّة. فكانَ هذا البلدُ أرضاً صالحاً، إذ أنّ سُكّانها لم يكونوا من أهل البدع والخرافات، كما لم يكن للطرق الصوفية أثرٌ يُذكرُ على الأغلبية منهم. بل وجدتُ الليبيين على وجه العموم مجتمعاً فاضلاً خلوفاً كريماً، ولقيتُ منهم حفاوةً أفسحتُ لي المجال في البحثِ حول الصوفية عامّةً والنقشبندية خاصّةً. في الحقيقة مكتباتهم كانت خاليةً من المصادر التي أحتاج إليها، إذ كانت جلّ هذه المصادر في مكتبات إسطنبول، ولم يكن من السهلِ إدخال مثل هذه الكتب إلى ليبيا. فلم أظن أنّي أتمكّنُ يومئذٍ من إقناع الموظفين في أمن بوابات الدخول، بيّني رجل باحثٌ، فأذكرَ لهم كلّ هذه القصّة الطويلة حتى أكسب ثقتهم. ولا عمّدتُ إلى تجربة في ذلك. تجنّباً أيّ إزعاجٍ أو تشكيك. لذا تكبّدتُ عناءً شديداً في نقل المعلومات الخاصّة بالصوفية والطريقة النقشبندية إلى ليبيا. فكنْتُ كلّما عُدتُ إلى بلدي، زُرْتُ المكتبات الشهيرة وعلى رأسها مكتبة السلّمانيّة، وقمتُ بكتابة ملاحظاتٍ ضخمة في كراساتٍ ولكن بإيجاز، مع ذكر أرقام الصحف للمصادر، وتاريخ الأحداث والتطورات الخاصّة بالطرق الصوفية ورجالها، وأحفظ البقيّة من تفاصيلها عن ظهر قلب، إلى أن تراكمت هذه الكراسات عندي، فتكوّنت منها مكتبةً متكاملةً

بناحية من حجرتي الواقعة في عمارة بموقع الظهره في طرابلس. ولم يكن أحد من اخوتنا الليبيين يعلم يومئذ أن رجلاً من الأتراك يقيم في بلدهم، يملك مكتبة ضخمة استنسخ كل ما فيها بقلمه، وتمثل هذه المكتبة منهلاً غزيراً في مجال التصوف خاصة فيما يفضحهم! وكم كان المثقفون والعلماء والطلبة والباحثون الليبيون بحاجة ماسة إلى هذه المكتبة القيمة.

هذا، وكم يؤلمني يوم استغنيت عن هذه المكتبة فجمعتها في حاوية فأنشبت فيها النار حتى عادت زكاًماً من رماد هامد. ذلك أن المجتمع الليبي أيضاً جزء من أمتنا التي قد خسرت ثروة العلم، فلا يكاد المسلمون يُقدرونه اليوم حق قدره إلى أن يشاء الله فيبعث لهم من يُوقظهم عن هذه النومة الخطيرة. فكان ذلك مني أن لم أتوقع من أحدٍ هناك يهتم بهذه المكتبة فأحرقتها!

غير أنه لا بأس من ذلك، لأن هذا الكتاب الذي عكفت على المصادر وطاردت الوثائق لتأليفه ما بين أعوام 1974-1997م. هو في الحقيقة عُصارة هذه المكتبة. فبنيت أساسه في ليبيا عام 1976م. فور إقامتي في هذا البلد الطيب؛ ثم قمت بترتيب فصوله وأبوابه عام 1982م. وكلما دعت الحاجة إلى وثيقة أو كتاب أو حوارٍ مع كبار هذه الطريقة، ما ألوتُ جهداً في شد الرحال إليه؛ كل ذلك ليصدر الكتاب جامعاً شاملاً لكل أطراف الموضوع. وعلى الرغم من أنني لم أتمس مساعدة أحد من إخوتي الليبيين لإكمال هذا الكتاب، ولكني أشكرهم جميعاً، ولا يفوتني أن أذكر ما لقيت منهم من الحفاوة والكرم وحسن القرى ولين الجانب، وإني لأعترف بأن المدّة التي قضيتها على أرض ليبيا الحبيبة -وهي في الحقيقة لم تكن مدّة قصيرة- كانت أحلى أيامي، إذ كانت أيام شبابي، وكانت فترة سعيدة مثمرة نلت خلالها رزقاً حلالاً واسعاً أغناني عن الحاجة إلى غيري حتى أكملت هذا البحث القيم فتركتُه زخراً للباحثين وعبرةً لأولي الألباب ومصباحاً لمن يريد أن يطالع في ضوئه على خطورة الصوفية والتصوف وما تعرّض له الإسلام والمسلمون على مرّ العصور من جرّاء هذا السرطان الماكر وما خلّفه هذا الوحش الدساس المتلبس في ثوب الزهد والتقوى من الخراب والدمار في صرح الإيمان والتوحيد.

هذا، وإني لأشكر كذلك المتّهم الذي لم تأخذه لومة لائم ولا خشية ظالم إذ خاطر بنفسه فأعلن للمرّة الأولى على الساحة التركية: أن صلاة الرابطة في الطريقة النقشبندية إشراك بالله، وذلك عام 1974م؛ ثم بلغني أنه قد أتمني واتباعي بهذا الذنب العظيم حتى أهتمني ربي على أثره الرشد فقامت

بهذا البحث الذي أخذ من عمري ثلاثة وعشرين عامًا. وللعلم لم يكن إبداء هذه الجراحة من السهل، إذ استفناني قريب المُتَهَم بالذات، «لينتقمنَّ منه بشكلٍ يكونُ عبْرَةً لمن بعده!» فأبيتُ أن أُرْحَصَ له ذلك. فإني أشكر هذا الرجلَ الصالحَ الجريءَ الذي أطلعه الله على خطرٍ هلك فيه آلافٌ بل ملايين من الناس، فأعلن عنه وهو لا يبالي بما قد يصيبه من نقمةٍ ونكال. ثمَّ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ خَائِطٌ اسْمُهُ (شفيق أركويونجو Şefik Erkoyuncu) بحَيِّ الفاتخ في إسطنبول، وهذا الشخص، لم يكن قد درس شيئاً مما نسميه علمًا! وما أشدَّ حزني وأسفي إذ سمعتُ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ من عودتي إلى إسطنبول أَنَّهُ قد ذهب إلى الرفيق الأعلى، فلم ألقاه في هذه الحياة الدنيا بعد أن أتهمني بالشرك! فتغمده الله تعالى برحمته، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. اللَّهُمَّ اغفر لنا وله، وأكرم مثواه، ولقهِ الأمنَ والرَّاحَةَ والزُّلْفَى، والكرامةَ والبشرى، إِنَّكَ سميعٌ مجيبٌ.

وأما وصفُ طائفةٍ بـ«الوهَّابية» في ثنايا كتابي وبواعث استعمالها: فقد ناسب المقامُ هنا أن أتطرقَ إلى هذه التسميةِ إجابةً على ما وَرَدَ من النقدِ في تقريرِ الفاضل الشيخ لطف الله بن عبد العظيم، حفظه الله تعالى.

قال الشيخ: «للمؤلف نظرة سلبية تجاه من يُسميهم بالوهَّابية (259، 360، 361، 362)، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (395)، حيث يصف أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالعنف والجبر وبعدم الكفاءة في إرشاد الناس وإصلاحهم، وابن تيمية بأنه يمطر المخالفين بالشتيم واللعن ويرمي بالكفر البواح».

لقد أشارَ فضيلةُ الشيخ إلى صفحات من كتابي⁶¹⁹ وردت فيها وصف طائفة بـ«الوهَّابية». وإذا كانت هذه الألفاظُ تحتاجُ منِّي إلى إعادةِ النَّظَرِ فِيهَا فأقول:

أما صفةُ «الوهَّابية»، فقد قصدتُ منها طائفةً متطرِّفةً ممَّن يدَّعونَ الانتسابَ إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وهو بريءٌ منهم لتصرُّفاتهم التي أضرت كثيرًا بوحدة أهل التوحيد كما سأذكر منها أمثلةً للعبرة. هذا، ولا يُعقلُ أن أكونَ قد قصدتُ بهذا الوصفِ جميعَ السَّلفيين من أبناء أمتنا القاطنينَ بجزيرة العرب؛ فإنَّ ذلك من الشططِ لا محالةٍ ممَّا لا يكادُ يصدِّقُه مَنْ يطلع على كتابي بكلِّيته

619 نعم، ورد هذا الوصف في الصفحات 360، 361، 362. أما الصفحة 259 فلم يرد فيها شيءٌ من ذلك.

الجامعة. ومما يُكذَّب مَنْ يزعم أنّ في إطلاقِ هذه الصفةِ تعميمٌ: كلماتي الواردة في الصفحة/366 من كتابي وهذا نصُّها:

«أما الوهابيون، فإنهم لم يجعلوا النقشبنديين بالتحديد هدفاً خاصاً لانتقاداتهم؛ بل قد تجاهلوهم تماماً أو كادوا. وإنما وجَّهوا نقدهم إلى الصوفية على وجه العموم. كما قد دافعوا عن أنفسهم بأنّ تسميتهم من قِبَلِ المعارضين بالوهابية تسمية خاطئة. إذ يقول في هذا أحد ملوكهم:

«يسمّوننا بالوهابيين، ويسمّون مذهبنا بالوهابي، باعتبار أنّه مذهب خاصّ، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهل الأعراس.

نحن لسنا أصحاب مذهب جديد، وعقيدة جديدة، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح، ونحن نحترم الأئمة الأربعة، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعيّ و أحمد وأبي حنيفة، وكلّهم محترمون في نظرنا».⁶²⁰

هذا، ولأنّ جعلنا الشيخ عبد الرحمن دمشقية في عداد الوهابيين، فإنّه قد تناول النقشبندية بهدوء ولم يتوسّع فيها. بل حدّد موضوعه في تحليل ثلاثة أقوال، لثلاثة رجالٍ من قدمائهم فحسب.

إنّ من يطّلع على هذا الأسلوب بكمال الوعي لا يفوته أن يتنبّه إلى أمرين:

أحدهما: كون الوهابيين قلة وإن كان زمام الحكم بيدهم، وتدلُّ على ذلك الجملة الأخيرة لهذا النصّ وهي تتمثل في تساؤلٍ عما إذا كان الشيخ عبد الرحمن دمشقية يدخل في عداد الوهابيين!؟

والأمر الثاني: هو الانتصار الواضح مني للجبهة الوهابية في وجه النقشبنديين بنقل كلمات المغفور له الملك عبد العزيز. إذ أنّ الوهابيين على وجه العموم (مهما كانوا)، هم أهل التوحيد والإيمان الخالص بخلاف النقشبنديين، وأما هؤلاء، فإنّ غالبهم زنادقة مشركون بالله خارجون عن الملّة!

وهذه وثيقة أخرى من كتابي تُصَرِّحُ أتي لم استعمل صفة «الوهَّابية» من منطلق العداءِ السافر، والاستخفافِ بهم، بل على سبيل النقد والعتابِ.

قلتُ في الصفحة (362): فلم يكن لوجودهم هناك (أي في أفغانستان) من الحكمة في شيءٍ مما دعا إلى تطوّراتٍ خطيرةٍ أسفرت عن خساراتٍ جسيمةٍ في الأموال والأرواح، بله ما جرّت من تبعاتٍ على الأمة زادت من أزمتها في هذه المرحلة العصيبة. فأثبتتُ أخيراً هذه الحقائقُ كُلُّها أن الوهَّابيين لم يكونوا أصحابَ كفاءةٍ لإرشادِ الناسِ وإصلاحهم يوماً من الأيام. لذلك دخل الشقاقُ بين الصفوفِ كُلِّما كان للوهَّابيين دورٌ في التوجيه، وإن كانوا مخلصين في نيّاتهم...

فهذه المبرراتُ كُلُّها تفيد أن إطلاقي صفة «الوهَّابية»، لم يكن القصدُ منه التعميمُ ولا العداء، كما لا أوافق على هذه النسبة للشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى.

هنا، وبهذه المناسبةِ يتبادرُ إلى الذهنِ سؤالان:

أولهما: - مَنْ هم الوهَّابيون؟

وثانيهما: - ما هي ميّزاتهم التي جعلتْهم هدفاً بهذه الصفةِ في كتابنا خاصةً؟

أماً الإجابةُ على السؤالِ الأوّل: فإنّ الوهَّابيين الذين يتظاهرون بالانتسابِ إلى الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى، ويكثرون من ذكره ودعوته ومآثره دون أن يُحقِّقوا شيئاً يصدِّقُهم فيما يزعمون، بل سلوكُهم وتصرفاتهم وسياساتهم وأساليبهم في التعاملِ يُكدِّبُهم في كلِّ ذلك... وإليك ما يُبرهنُ على هذه الحقيقةِ من واقعِ علاقتهم بالقدر الذي أشهدني ربي عليه:

1) وكُلّ الوهَّابيون رَجُلَيْنِ للقيامِ بأمرِ الدّعوةِ في تركيا، فلم يُسمَعْ أنْ شخصاً من القبوريين اهتدى على يد أحدٍ منهما؛ رغم الدعم الذي يتلقين من خزانة الوهَّابيين منذ عشرات السنين. وهذا يبرهن على مدى عقلية الوهَّابيين في المعرفة بالرجالِ ومستوى مهارتهم في كفاح الشرك ومتابعة أمر الدعوة...

(2) رَجُلٌ وَهَابِيٌّ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ السَّبْتِيُّ، (على ما سمعتُ) يقوم بتوزيع كمياتٍ ضخمةٍ من الكتبِ تبرُّعًا منه لنشر الدعوةِ إلى التوحيدِ وتثقيفِ المسلمين؛ لم نسمع أنه قدّم ولو نسخةً من هذه الكتبِ إلى شباننا الحنفاء الذين يدرسون ويكافحون ضدَّ كفریات الصوفيةِ في الوقت ذاته. في الحقيقة لا يحتاج تلامذتنا إلى الكتبِ الشائعةِ في العلوم الإسلامية من توحيدٍ وفقهٍ وتفسيرٍ وحديث، لأنَّ هذه الكتبُ متوفرةٌ في بلدنا، وإنما يحتاجون إلى توفير ظروفٍ مكانيةٍ وما ينهض بهم من البرامجِ ويُرقِّي مستواهم في المعرفةِ باللُّغة العربيةِ نطقًا وكتابةً. لأنهم مازالوا في أسرِ البرامجِ التقليدية التي تقوم على حفظ متون الصرف والنحو، بجانب ما في هذه البرامجِ والمقرراتِ من خطورةٍ ما تضمُّ من مخلفات القبوريين والكلاميين! لأنَّها موكَّلةٌ بحماية وتوجيه جماعاتٍ من الصوفيةِ ومؤسَّساتهم. فلا يستطيع أحد أن يُغيِّر شيئًا منها.

وعلى سبيل المثال: فَإِنِّي أُدْرِسُ رَهْطًا مِنْ طَلَبَةِ الْجَامِعَاتِ اللَّغَةَ الْغَرِيبَةَ وَالْعُلُومَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْذُ عَامِ 1987م. إِلَّا أَنَّنَا نَوَاجِهَ مَضَائِقَاتٍ شَدِيدَةً مِنَ الْمَوْسَّسَاتِ وَالْجَمْعِيَّاتِ، فَإِنَّهَا إِذَا تَرَفُّضْنَا، أَوْ تَعْرِقَلْ أَعْمَالُنَا. وَأَخِيرًا لَجَأْنَا إِلَى جَمْعِيَّةِ بَاسْطَنْبُولِ إِسْمِهَا (وَقَفُّ الْإِنْسَانِ)؛ ثِقَةً مِنَّا بِأَحَدِ مَسْئُولِي هَذِهِ الْمَوْسَّسَةِ، الدُّكْتُورِ شَرْفِ الدِّينِ كَالَاي. وَهُوَ مِنْ خَرِيَجِي جَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى. فَلَمَّا تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ بِطَلْبِ السَّمَاحِ لَنَا بِالتَّدْرِيسِ، فِي قَاعَةِ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةِ، سَأَلَنِي عَنِ الْمَصَادِرِ الَّتِي أَسْتَفِيدُ مِنْهَا فِي إِعْدَادِ بَرْنَامِجِ الْمَحَاضِرَاتِ. وَمَا إِنْ أَجَبْتُهُ بِتَسْمِيَةِ شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ، حَتَّى اشْتَمَزَّ فِي لِحْظَتِهِ وَعَبَسَ وَبَسَرَ، فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ أَنْ أُدْرِسَ كِتَابَ (الْبَدَايَةِ فِي أَصُولِ الدِّينِ) لِمَوْلَفِهِ نُورِ الدِّينِ الصَّابُونِيِّ، عَلِمْتُ لِأَنَّ مَوْلَفَهُ تُرْكِيٌّ وَكَلَامِيٌّ!!! والدكتور شرف الدين كالاوي هذا، رجلٌ دَرَسَ فِي مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ وَأَتَمَّ تَعْلِيمَهُ فِي جَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى، وَهُوَ فَاضِلٌ مُوَحَّدٌ (عَلَى مَا أَظُنُّ)، وَمَا بِالْكَ بِمَنْ يُوجِّهُ «العلماء» والمدرسين في هذا البلد من شيوخ النقشبندية وبطانتهم مثل «أمين السراج»، و«محمود أوسطى عثمان أوغلو»، و«جُبَلِي أَحْمَد» و«عمر أُونْكَوْت» وأمثالهم المتطرفين القبوريين؟! هذا، ولم يلبث حتى أخطرني مدير المؤسسة بإيقاف التدريس بعد شهرٍ قليلٍ! والدكتور شرف الدين كالاوي يَشَاهِدُ الْأَمْرَ فِي عَجْزٍ وَسُبَاتٍ.

(3) رَجُلٌ مِنَ الْقُبُورِيِّينَ مِنْ جَمَاعَةِ مُحَمَّدِ أُسْطَى عَثْمَانَ أُوغْلُو (اسْمُهُ أَحْمَدُ وَانَلِي أُوغْلُو)، اتَّصَلَ بِقِنْصَلِ الْوَهَابِيِّينَ فِي إِسْطَنْبُولِ عَامَ 1984م. وَتَلَقَى مِنْهُ دَعْمًا مَالِيًّا شَهِدْتُ ذَلِكَ بِأَمِّ عَيْنِي!

(4) ما وجدت وهابياً في تركيا إلا وكانت له علاقاتٌ وُدِّيَّةٌ مع كبار القبوريين مثل نجم الدين أرباكان، ومُحَمَّد زاهد كوتكو، وأمين السراج، وكوركوت أوزال (أخو ترغوت أوزال)، ومُحَمَّد شوكت أيكي (الصحفي) وأمثالهم... كل أعمال الوهابيين وشركاتهم في تركيا تتولاها وتُسيِّرُها جماعاتٌ من القبوريين النقشبنديين، ولا يكاد يوجد مؤمنٌ من الحنفاء الأتراك في هذه الشركات.

(5) ما لقيتُ وهابياً في تركيا فعرفَ أيٌّ من أهل التوحيد الخالصِ مُتميِّزاً بالعمقِ والدِّمَّةِ والأمانةِ وطيبِ العُشرةِ، وافرِ الحُظِّ من الثقافة الإسلامية والعربية، إلا وجدته متردداً مُرتبِكاً في أمري، مُحْتَاطاً في معاملتي، مُتَحَوِّفاً، يعتذر ليُفَارِقني في أقرب فرصة. (نعم، في هذا البلد الذي أثبتت إحصائية سرية أن عدد من يُتقِنُ اللُّغة العربية نطقاً وكتابةً من جملة سُكَّانِهِ، لا يتجاوز عن سبعة عشر شخصاً! وهذا ما يبرهن على الحاجة الملحة إلى من يتقن اللغتين العربية والتركية بالنسبة للعرب وللوهابيين منهم خاصة). لذا أتحدى من يأتي بشخصٍ وهابيٍ يعترف أنه تعرّف عليّ في وقتٍ ما ولازمني باطمئنانٍ وبصدْرٍ رَحِبٍ، رغم شِدَّةِ حاجتهِ إلى مثلي في كَمالِ الوفاءِ بالعهدِ، وحُسنِ الأداءِ في القيامِ بِمُتَابَعَةِ الأُمُورِ واستنتاجِهَا بِبِنَاحٍ، ورغم كثرة عدد الوهابيين الذين لقيتهم في إسطنبول وأكرمهم وخدمتهم منذ عشرات السنين!!! فالوهابيُّ إذنٌ بِجامعِ مَعْنَى الكَلِمَةِ: إنسانٌ على تمام الجهلِ بِحَقائِقِ الكونِ والحياةِ والإسلامِ والتعاملِ السليمِ، مُتَزَمَّتٌ لا يَعْرِفُ كُوعَهُ مِنْ بُوَعِهِ!

(6) ولما كان في القدر أن يُحْمَلَ كتابي (الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها) إلى البلد الأمين، لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، تناوله عالمٌ من علماء الإسلام، فتكلفت مشكوراً عناءَ دراسته، فَقَيِّمَهُ، فأجرى فيه نظرته اللطيفة، وأبرز آراءه الحكيمة في مضمونه، حتى أظهر الله تبارك وتعالى بذلك حقيقة الوهابيين مرةً أخرى، كما فضح النقشبنديين القبوريين به. والحمد لله الذي منّ على عبده هذا المُسْتَضْعَفِ وأقرَّ عينه بإخراج هذا الكتاب من ظلمات الكتمان إلى أنوار العيان. ولا أظنُّ أن هذا العالمَ الجليل الذي قدّم خدمةً عظيمةً بإعادة النظر في هذا الكتابِ ونَبَهنا بتوصياته الحكيمة وأظهر هذا الكتابَ بعد أن كان مكتوماً وصاحبُهُ مُضْطَهَداً مظلوماً، لا أظنُّه من أبناء الجزيرة العربية، لأني أستوحي ذلك من خصوصيات اسمه الكريم (لطف الله بن عبد العظيم خوجه)، إذ ليس من عادة عرب الجزيرة تسميتهم بمثل هذا الاسم، كما لا أظنُّه من الوهابيين، بل إنه من المُحِبِّينَ للشيخ محمد بن عبد الوهاب وابن تيمية وأحمد بن حنبل وعلماء أمتنا الصالحين ﷺ أجمعين. وقد يتكشف لي بمبادرة هذا الشيخ الفاضل إلى دراسة كتابي: أن الشيخ

الوهَّابيين ربما استنكفوا عن الاهتمام بهذا الكتابِ وأظهروا مكابرتهم مرَّةً أخرى وهي من طبعهم، فلم يُصدِّروا هذا التَّقْرِيرَ بِاسْمِ جَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى حَتَّى لَا يَعْتَرِفُوا بِالْكِتَابِ رَسْمِيًّا، وَذَلِكَ اسْخَفَافًا بِهَذِهِ الْخِدْمَةِ الْعَظِيمَةِ، فَفَاتَتْهُمْ فَضِيلَةُ التَّوْبَةِ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ، بَلْ صَدَرَ التَّقْرِيرُ بِتَوْقِعِ الْفَاضِلِ الشَّيْخِ (لطف الله بن عبد العظيم خوجه)، فَأَطَّلَعَنِي رَبِّي أَخِيرًا وَبَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْبَرَاهِينِ عَلَى حَقِيقَةِ الْوَهَّابِيِّينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ!

أَمَّا عِلَاقَةُ هَذِهِ النُّحْلَةِ بِالشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ، فَلَا تَعْدَى عَنْ زَعْمٍ لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصَّحَّةِ إِذْ أَنْ كَلَّأَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْفُحُولِ قَدْ أَفْنَى عَمْرَهُ وَنَدَّرَ حَيَاتَهُ فِي إِرْشَادِ الْأُمَّةِ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَالْقِيَامِ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَنَبْذِ الْبِدْعِ وَالْأَبَاطِيلِ وَالْكَفْرِيَّاتِ... وَقَدْ تَعَرَّضُوا لِأَشْكَالٍ مِنَ الْاضْطِهَادِ وَالظُّلْمِ وَالْقَهْرِ وَالْفَرِيَةِ؛ فَلَمْ تَمْنَعِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الصَّبْرِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَالِدِفَاعِ وَإِظْهَارِ الْجُرْأَةِ إِلَى أَنْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَهُمْ مِنَ الْمَحْبُوبِينَ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمُ الصَّالِحُونَ مِنْ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْكَرِيمَةِ. وَهَذَا لَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا الْمُتَمَتِّعِينَ بِالْفِرَاسَةِ يَغْتَرُّ بِالْوَهَّابِيِّينَ، خَاصَّةً إِذَا نَجَّحَ هَذَا الْعَمَلُ الْهَامُّ وَتَمَّ طَبْعُهُ وَنَشَرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ!

تَمَثَّلُ هَذِهِ التَّوَصِيَّاتُ الْهَامَّةُ فِي تَنْبِيهِ عَظِيمٍ أَوَّلًا إِلَى جَمِيعِ الْوَهَّابِيِّينَ وَالسَّلَفِيِّينَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، ثُمَّ إِلَى أَصْحَابِ الْحَمِيَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ فِي كَافَّةِ انْحَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَهُوَ: أَنْ يَتَحَمَّلُوا الْمَسْئُولِيَّةَ فِي أَمْرَيْنِ خَطِيرَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا: أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ كَلَّفَنِي مَا لَا يُطَاقُ مَدَّةَ ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا دُقْتُ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَرٍّ، فَتَعَرَّضْتُ لِأَنْوَاعِ الْمَوَاطِرَاتِ: مِنْ مَحَاوَلَاتِ اغْتِيَالٍ، وَدَسِّ سَمُومٍ فِي طَعَامِي، وَدَعَايَاتِ سَيِّئَةٍ اسْتَهْدَفْتُ كِرَامَتِي وَعَرَضِي وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا يَضِيقُ الْمَقَامَ عَنِ الْإِسْهَابِ فِيهِ.

لَقَدْ تَلَبَّسَ الْكَثِيرُ مِنَ الْوَهَّابِيِّينَ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ حِينَ تَعَمَّدُوا الْخِزْلَانَ بِمَوْفِقِهِمُ الْمُتَجَاهِلِ مِنْ مُؤَلِّفِ هَذَا الْكِتَابِ كَلَّمَا التَّقِيْتُ بِأَحَدِهِمْ أَوْ بِجَمَاعَةٍ مِنْ وَفُودِهِمْ، ثُمَّ مِنَ الْكِتَابِ نَفْسِهِ إِلَى أَنْ قِيَضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ تَنَاولَهُ بِعَيْنِ الْإِهْتِمَامِ، أَلَا وَهُوَ الْعَالِمُ الْمِفْضَالُ، الشَّيْخُ لُطْفُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَظِيمِ حَفْظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَزَاهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

والأمر الثاني: أن آلفاً من الكُتُبِ والوثائقِ باللَّهجة العثمانيَّة وباللَّهجة التركيَّة المعاصرة والمدوَّنة في مختلفِ مسائلِ التصوُّف والكلامِ وتراجمِ الصوفيَّة، متوفِّرةً في تركيا ومتداولةً في أيدي الناس؛ ومُعظَّمُ نُسخِها موجودةٌ في خزانتِي؛ بينما البلادُ العربيَّة خاليةٌ منها، ولا يمكن الحصولُ على نسخةٍ واحدةٍ من هذه الكُتُبِ الخطيرةِ في قطرٍ عربيٍّ، خاصَّةً في الجزيرة العربيَّة ومنطقة الحجاز. وما أشدَّ حاجة العلماءِ والباحثينِ والمتفقيِّينِ العربِ إلى هذه الكتبِ والوثائقِ. ولا بدَّ من خبيرٍ أو جماعةٍ من المتخصِّصينِ والخبراءِ (باللَّغتين التركيَّة والعربيَّة) أن يقوموا بتصنيفِ وترجمةِ هذه الكُتُبِ والوثائقِ حتَّى تظهر للعيانِ وتبلور ما في بطونها من الخطورةِ على أُمَّتِنَا، وما كادَ ينبثقُ منها من تشويهٍ لحقيقةِ الإسلامِ ونتائجٍ هدامةٍ وفتنٍ ستفاقم في ربوعِ الأُمَّة فتزيد من الشقاقِ بين صفوفها في أمدٍ غير بعيد، فتشتدَّ بسببها المصائبُ التي تعرَّضتْ لها الأُمَّة في هذه المرحلةِ الحساسة.

وقد قمتُ بجمعٍ وترتيبٍ ما يزيد على أربعِ مجلِّداتٍ ضخمةٍ من المعلوماتِ في مسائلِ التصوُّفِ والصوفيَّةِ بجميعِ أطرافها السياسيَّة والاجتماعيَّة والتاريخيَّة والعقديةِ والروحيَّة والأخلاقيَّة، وذلك باللَّغةِ التركيَّة. إنَّ هذه المُحصَّلةَ العظيمةَ من عصارةِ ماتٍ من الكُتُبِ، والعملِ الجبارِ أيضاً يحتاجُ إلى التعريبِ، بل يحتاجُ إلى الحفظِ في مكانٍ أمينٍ قبل أن تعبت به أيدي العسفِ والغدرِ بالإبادةِ والإتلافِ!!! وهذه المهمةُ ليست من السهلِ طبعاً حيثُ يحتاجُ إلى مكانٍ خاصٍّ تتوفر فيه أجهزةٌ من الحاسبِ الآليِّ والمشاطِ وآلاتِ التصويرِ والطباعةِ ومكتبةٌ مجهزةٌ بالموسوعاتِ والمعاجمِ... فإنِّي أفتحُ أولاً على الوهابيينِ والسلفيينِ بأنهم مسؤولونَ بالدرجةِ الأولى عن تحقيقِ هذا الهدفِ العظيمِ، بنقلِ هذه المصادرِ إلى البلدِ الأمينِ وبصورةٍ عاجلةٍ! وما على الرسولِ إلَّا البلاغُ.

وأما المسائلُ المتفرقةُ التي وردت في نهايةِ التقريرِ، وهي سبعة عشر مسألة؛ فقد رأيتُ إرجاءها إلى حينٍ، لحاجةِ النظرِ فيها برويةٍ من جديد. بل الأنسبُ أن تُعالجَ في جلسةٍ أو جلساتٍ خاصَّةٍ أحضرُها مع نخبةٍ من علماءِ الأُمَّة، ولا أظنُّ أني أختلفُ معهم في نتائجها إنَّ درسناها في جوِّ هاديٍّ. ولربما وجدوا في مواضعٍ من الكتابِ شيئاً من الركَاكةِ أو الغموضِ فأسفر عن بعضِ المشاكلِ فحالت دونَ ظهورِ ما قصدتُ منها على حقيقته، والعصمةُ لله.

أيها القارئ الكريم، إنه بعد ما تيسر لي تقديم هذا القدر من الإجابة على تقرير جامعة أمّ القرى، لا يفوتني أن أقول مرةً أخرى، وقد قلتُ مراراً، كما ضبطها بعض الباحثين والصحفيين: «كأني خُلقتُ لأحاربَ التّطرّفَ والعنفَ والباطلَ بكلِّ أشكاله. ولهذا عاداني كلّ من عرفني من أبناءِ الحماقة، وكره لِقائي دجاجةَ السّياسةِ والإعلام، وسماسةَ الدّين، حتّى مراسلوا الصحافة العربيّة في إسطنبول وعلى رأسهم رجلٌ تونسيّ حيّالَ مَكّاّرٍ حَبِيثٍ! ولكني ما هادنتُ عدوّاً للحقّ، ولا ابتسمتُ لمنافقٍ يراني، بل فضحتُ أعداءَ السّلام، واستحققتُ كلّ صنمٍ وأسطورةٍ، وأبيتُ إلاّ أن أكونَ مقرّاً لما يُقرُّه العقلُ السّليمُ والعلمُ والتّجربةُ والكتابُ العزيزُ والسّنةُ المطهّرةُ...»

ثمّ أقول: «إني قدّمتُ هذا البحثَ بين يدي علماءٍ أمّتنا ليرأوا فيها رأيهم؛ وقد تكبّدتُ في هذه المسيرة ما لا يسهلُ شرحُهُ! ومتى وجدوا فيها شيئاً يُخلُّ بالموضوعيّةِ والمنهجيةِ في الأسلوب، ويتعارضُ مع المبادئِ العلميّةِ ويخالفُ الكتابَ والسّنةَ، فأنا مستعدٌّ لإجراء التّعديلِ اللاّزمِ عليه بكلِّ ودٍّ، وأشكرهم على ذلك. وأمّا من غرّته نفسه فحالٌ دونَ إخراجِ هذا العمل - الذي تحتاج إليه الأمتة في مثل هذه المرحلة الحسّاسةِ ليساعد أبناءها على فهم ما تُحكِّكُ للعبثِ بالدّينِ الحنيف من خلالِ منظّمةٍ صوفيّةٍ خطيرةٍ متقمّصةٍ بلباسِ الزّهدِ والتّقوى -، أو حالٌ دونَ وصوله إلى أبناءِ الأمتة بعد تمام طبعه، نعم، من قصدَ هذا عن حظِّ نفسٍ، فإني أحيلُ أمره إلى الله العزيزِ الجبار، والمللكِ القهار، أن يعامله بما يستحقّه!!!»

كان هذا موجزاً للخطوط العريضة فيما أبلاني به ربّي البلاء الحسن منذ عام 1972م. وأنت أيّها القارئ الكريم، آخر من وصله كتابي هذا في حينٍ قد ضاقت الأرض بما رحبت على مؤلّفِ هذا الكتاب إذ يحيط به حصارٌ شديدٌ شارك في إحكامه عديدٌ من فئات البغي والظلم والغلو والضلال، بما فيهم الوهابيون الذين يتقمّصون بوشاح السلفيّة كذباً وزوراً. ولا أظنُّ أنّ كلمةً من هذه العبارات تنوّار بآدني شيءٍ من غموض، كما لستُ أقصد بها مصلحةً، ولا كتبتُها رياءً ولا طلباً لسمعةٍ. بل تبنيتُ هدفين في كلّ جهودي: محاربة الشّركِ ومكافحة العُجمَةِ في الدّين. وعسى أن يحقّق الله فيك آمالي وأحلامي فيسهّلَ أمري بشيءٍ من دَعْمِكَ ومساعدتِكَ، حتّى أرى هذه الأعمال مطبوعةً للمرة الثالثة يتداولها القراء.

والحمد لله الذي وفق عبده مؤلف الكتاب لإتمام هذا العمل الهام، ومكّنه من جمع معظم الوثائق المتعلقة بالفرقة النقشبندية، سوى عددٍ يسيرٍ منها والكمال لله سبحانه. وأحمده جلّ سلطانه على ما أكرمني بنصره في مواجهة صناديد هذه النحلة بعد أن وصلتهم طبعتان من هذا الكتاب، وقد أوشكت طبعته الثالثة، فلم ينس أحدهم بنت شفةٍ حتى هذه اللحظة، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وله الحمد سبحانه على ما أغناني عن مؤازرة أيّ شخصٍ وأيّ فئةٍ من الناس على كثرتيها وتظاهرها بعصبتها «السلفية وأنصار التوحيد!» فافتضحت بذلك، الفرقة الوهابية رموز الفتنة والهزيمة وخوارج هذا العصر. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين

مؤلف الكتاب

فريد الدين بن صلاح بن عبد الله بن محمد الحزين الحسني الطالبي الهاشمي

Feriduddin AYDIN

تركيا - أسطنبول

الطبعة الثالثة

(100 نسخة فقط)

الاربعاء، 09 جمادى الآخرة، 1427 هـ.

05 تموز - يوليو 2006م.

feriduddin@gmail.com

baredalshaykh@gmail.com